

داوي قرطبة

عبد الحبار عدوان

الفارابي



راوي قرطبة

Abdel Gabbar Adwan

Rawi Cordoba

www.rawicordoba.com

عبد الجبار عدوان

راوي قرطبة

رواية

دار الفارابي

الكتاب: راوي قرطبة
المؤلف:
الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان
ت: (01)301461 - فاكس: (01)307775
ص.ب: 11/3181 - الرمز البريدي: 1107 2130
e-mail: farabi@inco.com.lb

الطبعة الأولى 2006
ISBN: 9951-71-152-6

© جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة الكترونياً على موقع:
www.arabicebook.com

شكر وعرّفان

من دون صبر وتشجيع ومساعدة الأهل في البيت، والجيران في الأندلس والأصدقاء في عدة بلدان، لما تهيأت الأجواء، أو توفرت المعلومات لإتمام الرواية بهذا الشكل معتمدة على مصادر من خمس لغات وزيارة مواقع أحداثها. فلهم جميعاً جزيل الشكر والعرّفان، وللزميل الكاتب محمد السويركي كل التقدير على المراجعة اللغوية، ولدار الفارابي الاحترام على العناية التي أولوها لي وللرواية لتخرج بهذه الحلة.

داوي قرطبة

راوي قرطبة

الإهداء

إلى كل
عشاق الأندلس
من كل العصور

داوي قرطبة

السلام عليكم

ترددت طويلاً في تسطير فصول هذه الرواية لأنها تخرج عن إطار كتابة عائلتنا للتاريخ، وتبوح بأسرارٍ ربما تمنع أبنائي وأحفادي من تسجيل الأحداث على نهج ما فعل عشرة من أسلافي. لكنني أقنعت نفسي بالتغلب على ذاتها وخططتُ هذا السفر الطويل مستجيباً لمتطلبات اختلاف وضعي عن الآخرين. كل أجدادي وأنا عايشنا الأندلس وكتبنا التاريخ منذ أول الفتح الإسلامي لإيبيريا، ولكني الآن، على ما يبدو، أشهد بداية نهاية العهد الأموي.

ولدت في قمة مجد الأندلس أيام الأمير التاسع، الخليفة الثاني للأندلس، الحكم المستنصر بالله ابن الخليفة الناصر، رحمهما الله ورحم كل أموات المسلمين. شاء الله لي مصادقة الخليفة هشام المؤيد بالله، منذ طفولتنا، وأن أعاش انهيار الخلافة بعد اغتصابها، وتخريب العمارة الخالد، وشيوع الظلم والفوضى بين العباد. لذلك قررت أن وضعي، ووضع الأندلس وسكانها والعالم من حولهم تغير، وتطلب البوح بالحقائق التي أعرفها ومنعتني تقاليدنا من سردها حتى الآن. أدعو الله أن يصلح الحال ليعود أبنائي وأحفادي لحياة آمنة ولمواصلة التسجيل للتاريخ بأسلوب عائلتنا، أو يريهم خالقهم الطريق المناسب لتسجيل وقائع زمانهم القادم.

أنا سليمان، الحفيد من الجيل العاشر لأبي قريب، أسعد باهر بن عبد الرحمن القلعي الذي قدم إلى هنا مع طلائع المحاربين المسلمين. جدِّي هذا يعود أصله إلى سلطان جَمَيْرٍ في اليمن التي ولد فيها عام ثمانية وخمسين هجرية، الموافق 678 بالتاريخ الشمسي لميلاد عيسى

عليه السلام. أتقن جدّي علم الرواية الإخبارية وتسجيل التاريخ، وورثنا بعده هذه المهنة وأسرارها أباً عن جد. من اليمن خرج أسعد فاتحاً حتى وصل أفريقيا مع حسان بن النعمان، وفتح الأندلس مع موسى بن نصير وشاهد طاولة الملك سليمان التي حُملت من طليطلة إلى دمشق مع موسى وطارق بن زياد، وغزا جدّي في بلاد الفرنجة وشارك في موقعة بلاط الشهداء مع الأمير الشهيد عبد الرحمن الغافقي في رمضان 114 هجرية الموافق بين شهري أكتوبر ونوفمبر من عام 732 ميلادية. كان عمر جدّي آنذاك ستة وخمسين عاماً، وصحب معه إلى بلاد الفرنجة ابنه باهر الذي لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره آنذاك. الحمد لله الذي كتب لهما النجاة بأرواحهم من تلك الهزيمة التي سجلا وقائعها بالتفصيل.

بعد ثلاثة قرون وربع القرن على فتح الأجداد لأندلسنا والوصول بها إلى قمم الأمجاد، ها أنا اجلس على خرائب مدينة الزهراء أحبر هذه الأوراق وأنا أشاهد بأم عيني الأوغاد يبيعون الرصاص والنحاس المخلوع من المجاري والأبواب، وينقلون الحجارة والأعمدة والزخارف ليزودوا من ثمنها خزينة المستكفي بالله ببعض المال. هذه الزهراء التي طال زمن إعمارها لأكثر من أربعة عقود في عهد الخليفة الناصر وابنة الحكم، وتكحلت عيوني في الصبا بجمالها وحسن صنعتها، والتي استقبل فيها ملوك وسفراء وأمراء جاؤوا من كل بقاع العالم تلمساً لاسترضاء تاجها. هذه الزهراء رأيتها تتحول إلى سجن للخليفة هشام ابن الخليفة الحكم، وها هي تُنهب وتُنهب أمامي بعد أن خربت الفتنة وأحرقها البربر، قبل مرور الثلاثين عاماً على نهاية تشييدها.

لقد تعلمنا من تجربة ووصايا جدنا أسعد كيف نكتب ونروي التاريخ. لدينا الرواية الرسمية العلنية التي تقال وتُخط لتناسب الأمراء والخلفاء. بدون التزامنا بهذا النهج لم نكن لنصل إلى مصدر الأخبار في دواوين الأمراء والحكام، وإذا خالفناه فمصيرنا الأهون هو قطع اللسان. وأنا اليوم أخالف ذلك النهج وليحفظ الله لساني وعنقي.

راوي قرطبة

هناك أيضا نهج الكتابة شبه الرسمي، وهو على شاكلة قصص شعبية وروايات بطولية أو غرامية، وأساطير عن الجن والكنوز والحكماء والعلماء، يراد منها القراءة بين السطور ويحتاج فهمها للعقلاء، ولا ضرر من تسلي البلهاء بها أيضا. المهم بقاء رقاب عائلتنا قائمة بين أكتافنا. نسجل ونورث الرواية الرسمية وشبه الرسمية ولكننا نخط الرواية الحقيقية طبعاً. الجزء الأكبر من الرواية الحقيقية لم يكن سرّاً في أوانها وتداولها الناس في حينه، لكن الأمراء والوزراء والخلفاء والحجّاب لا يريدون سماعها في أي حين إلا إذا كانت ضد خصومهم. هكذا ومنذ الفتنة الأولى بين الفاتحين من عرب الشمال وعرب الجنوب والبربر، استقر رأي جدّي على كتابة سرية للرواية الحقيقية؛ يورثها كلُّ منا لأبنائه عند بلوغهم الرشد والتأكد من حسن فهمهم وحفظهم للسر وإتقان مهنة الرواية. كل منا سجّل ما رآه وسمعه ومُنِع أو خاف من روايته. هي الحقيقة دوماً ولكنها الحقيقة كما نراها نحن. حقيقة جدّي اليميني المولد والهوى كما ظهر في الفتنة الأولى بين اليمينية والمضرية والبربر، والحقيقة كما أراها أنا كصديق طفولة للخليفة هشام الذي وقع في براثن العامري، الحاجب المنصور، الذي ظنه البعض بطلاً وفاتحاً. الحقيقة التي لا خلاف حولها هي عودة الفتنة الآن لكل ربوع الأندلس، مما يذكرني بما طالعت من أحداث الفتنة الأولى التي سجلها جدّي أسعد رحمه الله وبارك التراب الذي غطاه.

ليسامحني أجدادي لخروجي عن المنهج وكشف بعض الصفحات من رواياتهم السرية الحقيقية، وأرجو الله أن يحمي سجلاتنا ويحفظ ذريتنا من الضياع والدمار والنار.

حمام الخليفة

في صباح يوم الجمعة الأخيرة من شهر شعبان سنة 360 هجرية ناديت على أمي أسألها إذا كانت ستغسلني قبل الصلاة أو بعدها. "لا قبل ولا بعد الصلاة، جدك أخبرني في الصباح أنك ستذهب معه للصلاة في المسجد الجامع، وسياخذك بعد ذلك إلى حمام الخليفة". إكتفيت بالوضوء وجلست في مكتبة بيتنا أخطُ صفحات من القرآن لأريها لوالدي عندما يعود من إشبيلية. لقد وعدني قبل السفر أنه سيجلب هدية قيمة من هناك، ولكنني لن أحصل عليها إذا لم يكن خطي قد تحسن أثناء غيابه.

عندما حضر جدّي ليأخذني للصلاة، رأيت استشارته؛ إذا كنت تأهلت لنيل الهدية أم لا؟. نظر للسطور الجديدة وقارنها مع صفحة خططتها قبل سفر أبي في مطلع شعبان. مرر أصابعه في لحيته وأشار للورقة قائلاً: "هذه أقرب إلى خرابيش البط". وأشار للورقة الأخرى متجنباً النظر إلى وجهي: "وهذه أفضل من خرابيش الدجاج". وقبل أن أركض من باب الغرفة باكياً خطفني من وسطي وضممني إلى صدره ولم يتركني إلا بعد أن هدأ خاطري وأكد لي أن الهدية ستكون نصيبي، وبشّرني إذا ما واصلت التعلم بهذا النشاط سأصبح، مثل جد أبي عبد الله، كاتباً للخليفة.

بيتنا في قرطبة تفصله عن الجامع والقصر والحمام الخلفي مسافة لا تزيد عن ألف ذراع، وبعد خمسمائة ذراع أخرى تصل الى قنطرة الوادي الكبير. وهو أقرب إلى باب إشبيلية منه إلى باب الجوز، ويقع بيتنا في نهاية حي اليهود على مقربة من المعبد. جدّي وأعمامي أقاموا بيوتاً جديدة واسعة على الطريق بين قرطبة ومدينة الزهراء، واحتفظ

راوي قرطبة

والذي بمنزلنا هذا في وسط الحاضرة ملاصقاً من الداخل لسورها الأول الروماني، الذي رَمّمه العرب بعد الفتح ثم أقاموا سوراً آخر حول توسعات قرطبة التي لا نهاية لها.

في الطريق للمسجد أعاد جدّي تذكيري بأن والده عبد الله بن بدر قد عمل كاتباً للخليفة الناصر، رحمه الله، طوال العامين الأولين من تسلمه للحكم عام 300 هجرية الموافق 912 لميلاد السيد المسيح عيسى عليه السلام. مات جد أبي، رحمه الله، بعد أيام من موت الخليفة الناصر عام 350 هجرية وذلك قبل أربع سنوات من ولادتي.

"وأنت يا جدي، هل عملت كاتباً للخليفة أيضاً؟"

"ليس بمكانة أبي، ولكنني نظمت مكتبة الحكم المستنصر بالله قبل أن يصبح خليفة، أطال الله عمره، وأشرفت على نسخ كتب منها طوال خمس سنوات بعد ذلك. عمري الآن واحد وستون عاماً؛ واهتمامي منصب منذ سنوات على مراجعة كتب وروايات العائلة حتى لا تتصعب أنت في المستقبل في هذه المهمة".

"من هو الكاتب الذي حلّ بدل أبيك عند الخليفة الناصر؟"

"إنها مزنة، وكانت حاذقة في الخط وتكتب بعض الشعر. جودة الخط مهمة جداً يا سليمان وتفتح للجميع الفرص سواء أكانوا ذكوراً أم إناثاً. هل تعرف من هو كاتب الخليفة الحكم الآن؟"

"لا؛ هل هي امرأة أيضاً؟"

"نعم أحسنت، هي لبني النحوية المجيدة للشعر والحساب. ولكن مهارتها الأولى هي جودة الخط".

لم أفهم ما قصده جدّي حين قال إنه يراجع كتب العائلة حتى لا اتصعب بها لاحقاً. لم يكن أحد آنذاك قد أطلعني على سر عائلتنا المتوارث، لكنني أتذكر كلمات جدّي بوضوح على رغم تقطع حديثه باستمرار وهو يلقي التحية على أصحاب الحوانيت في الطريق بين بيتنا والجامع.

أتذكر أيضاً من حوادث ذلك اليوم بعد الصلاة، وقبل أن نبتعد عن

المسجد إلى الحمام، أنه نودي على ابن عمر الملقب بـ "البكاش". طاف به منادي وحارس يمسكه أمام المسجد ليراه آلاف المصلين وبقيّة السكان وزوار السوق، وليستمعوا للتهم الموجهة إليه، وليشاهدوه بهدف التعرف عليه؛ وتجنب أذيته ونصبه واحتياله على التجار، وأيضاً ليتقدم كل مخدوع منه ليطالب بحقه. في العادة كان يتم الطواف ليومين على أمثاله ليراهم كل أهل قرطبة، ثم يُودعون في سجن المطبق حسب فترة حكم القاضي عليهم.

حملني جدّي على ظهره حتى لا تدهسني الأقدام، وسمعتة يتمتم بأنهم يُشبهون بلصوص الدينار ويتركون لصوص الديار. "هل سيقطعون يده يا جدي؟"

"لا، هو لم يسرق بيده، ولكن ينصب بلسانه. إذا قطعوا بعض أطرافه فلن يتمكن من العمل والكسب لسداد الديون وتعويض الناس، بل سيصبح عالّة على ديوان المحتاجين الذي أسسه الخليفة أخيراً ليساعد بواسطته المحتاجين ويزيل بقية المتسولين من قرطبة."

"هل يوجد متسولون كُثُر في البلدان التي زرتها؟"

"العدوة المغربية ومصر والشام والحجاز، وحتى اليمن، كلها مليئة بالشحاذين على الطرقات وأمام المساجد وفي الأسواق. بلاد النصارى التي زرتها، مثل برشلونة، تعج بالمتسولين أيضاً. قرطبة حالة فريدة في العز والرخاء والنظافة والتعليم والأمن ليل نهار، حفظها الله وأدام خيرها". كان جدّي أيام شبابه قد غادر قرطبة لأداء فريضة الحج الواجبة على كل مسلم قادر مالياً وجسدياً على أدائها. آنذاك استغل الرحلة إلى مكة المكرمة وذهب إلى اليمن، بلاد أجدادنا، ثم زار بغداد والشام ومكث في كل منها بعض الوقت قبل العودة من الإسكندرية إلى المرية بالسفينة في خمسة وعشرين يوماً. إستغرقت جولته عامين، ولو لم يعد بالسفينة لطالت أكثر من ذلك.

شقّ جدّي الطريق من البوابة الشمالية للمسجد الكبير واتجه بنا للغرب باتجاه القصر ثم للجنوب ودار حول القصر، الذي تحول للضيافة

آنذاك بعد أن سكن الخليفة في مدينة الزهراء. عندما ابتعدنا عن الزحام نزلت عن ظهره وسرنا سوياً الأمتار المتبقية إلى حمام الخليفة.

إستقبلنا الحارس باحترام فائق، فهو يعرف جدّي منذ أن كان يزور هذا الحمام في معية الأمير الحكم وهو ولياً للعهد. سأله جدّي عنم بالداخل الآن ولم أفهم من الأسماء التي ذكرها الحارس شيء. أثناء خلع ملابسنا واستبدالها بمناشف؛ أخبرني جدّي أن الأمير هشام ابن الخليفة الحكم يوجد في الداخل ويصعبه وكيله محمد ابن أبي عامر الذي يعرف والدي، إذ درسا سوياً عند بضعة شيوخ. "إذا وجدت هشام لطيفاً معك فلا بأس من مقاربتة، هو الآخر عمره ست سنوات مثلك".

على ما يبدو أن الأمير ووكيله دخلا قبلنا بوقتٍ قصير، فقد تبادل الوكيل التحية مع جدّي في غرفة البخار واستمر الحديث بينهما من غرفة لأخرى طوال ساعة حتى وصلنا إلى الاستراحة لتناول مشروبات ساخنة. تحدّثا عن الزحام في قرطبة التي يقطنها مليون نسمة لم تكفهم كل التوسعات والأحياء الجديدة التي وصلت واحداً وعشرين ربضاً خارج أسوار المدينة القديمة، وقال جدّي للعامري إنه لولا وجودي داخل السور لما حضر لقرطبة دوماً ولاكتفى بمنطقة الزهراء.

لا أدري بما تحادث جدّي ووكيل الأمير غير ذلك طوال الوقت؛ إذ شجعاني على الحديث مع هشام. أخبرته أنني شاهدت للتو المنادي يطوف بلص، وأني أسكن على مقربة من المسجد وأزور القنطرة والطواحين في نهر الوادي الكبير متى أردت. كان الشوق ومسحة من الحزن قد ظهرت على محياه، فهو لا يذهب إلى أي مكان من دون حراس أو بصحبة وكيله الذي كلف به بعد أن كان وكيل أخيه عبد الرحمن الذي توفي.

لا زالت صورة الأمير الصغير من ذلك اليوم تتراءى أمام عيني. ساقّي هشام كانتا قصيرتين نسبياً مقارنة بنصفه العلوي، ولون شعره يتموج بين الشقرة والحمرة، وجسده أبيض، وفي عينيه زرقة، وكانت أكتافي أعرض من كتفيه. عندما سألت جدّي لاحقاً عن هذا الاختلاف في

الأوصاف بيني وبينه، قال إنه يعود لكون أم هشام، صبح، ليست عربية وإنما باسكية من الشمال. الخليفة الحكم يسميها جعفر، والأفضل أن لا تتحدث عن اختلاف الأوصاف عندما ترى هشام مرة أخرى. هكذا قال جدِّي وذكَرني أن عائلتنا أيضا فيها اختلاط أجناس، فجدنا أسعد تزوج، مثل الكثيرين، بامرأة أندلسية بعد الفتح لأن المحاربين لم يجلبوا معهم نساء عربيات، وابنه باهر تزوج من بربرية، وحفيده تزوج عربية من أصول شامية.

"جعفر إسمٌ ذكوري يا جدِّي فلماذا لم ينادِ الخليفةُ صبح باسمها؟"

"لأنه يحبها عن بقية حريمه وجواريه، وحتى لا يثير نقيمتهم عليها باستدعائها كلما تمنّاها، فهو يدّعي أحيانا أنه لن يرى أياً من حريمه الليلة وسيقضى معظمها في شؤون العمل مع جعفر. هكذا تظن الحريم أنه يقصد جعفر المصحفي وتعرف صبح أنه يريد رؤيتها الليلة. بالطبع هذا لم يبق سراً لفترة طويلة".

ما عدا حيلة الخليفة بين حريمه لم يكن هناك جديد في هذه المعلومات، وانتظرت حتى ينتهي جدِّي من روايته لأعرف منه سبب توقعه أنني سأرى هشام مرة أخرى. كانت تلك أول زيارة لي لحمام فخم كهذا الذي أقيم للخليفة خلف القصر، ولا زال محظوراً على العامة استعماله رغم رحيل الخليفة والحاشية إلى مدينة الزهراء. زرت في السابق مع والدي حماماً صغيراً في شارعنا، لكنه كان دوماً مزدحماً على الرغم من وجود أربعمئة حمام في قرطبة وضواحيها، لذلك تهربت من زيارات الحمام وفضّلت الاغتسال الأسبوعي في بيتنا. الآن بعد مشاهدة حمام الخليفة تمنيت زيارته كل أسبوع على الأقل، فهو أشبه بالجامع الكبير من الداخل ولكنه أصغر منه بكثير طبعاً. الدعائم رخامية، والأقواس فوقها كأحذية فرس وتشبه الأقواس التي أضافها الخليفة الناصر للمسجد الجامع. الجدران مغطاة بالرسوم للأشجار ونصفها السفلي أحمر اللون. بعد الغرفة الأولى الأكبر، للاستقبال والاستراحة

راوي قرطبة

والمغادرة؛ تتصل الغرف بأبواب خشبية وتمر في أرضيتها المبلطة قنوات الماء الساخن والبارد المتصلة بالأحواض.

لماذا قال جدِّي إذن إنني قد أرى الأمير هشام مرة أخرى؟ هل سنزور هذا الحمام مجدداً؟ أخبرني جدِّي لاحقاً أن وكيل الأمير لاحظ انفتاح هشام في الحديث معي واقترح أن يقوم جدِّي خالد بتعليم هشام في تاريخ بني أمية مرةً كل أسبوع وأن يأخذني معه للقصر في الزهراء. عرفت لاحقاً أن جدِّي لم يوافق فوراً ووعد بالرد بعد شهر رمضان حتى يرى ظروفه. في الحقيقة كان يريد أخذ موافقة ابنه بعد عودته من إشبيلية، فهو يعرف أن أبي لا يطيق سماع سيرة واسم محمد العامري. الآن أصبح شوقي مزدوجاً في انتظار عودة أبي، أريد الهدية، وأريد زيارة أسبوعيةً مع جدِّي لقصور الخليفة في الزهراء.

كم كانت جميلة تلك الأيام قبل أربعة وخمسين عاماً، وكم كان أبي، رحمه الله وطيب ثراه، محقاً في تقييمه السلبي للعامري. كانت السنوات الست بعد لقائي مع هشام في الحمام هي الأسعد له ولي. منذ أن بويع صديقي خليفة وهو ابن إحدى عشرة سنة وثمانية أشهر بدأت نكبته الذاتية ونهاية أهله الأمويين، ولا يدري أحدٌ عنه الآن إذا كان حياً أو ميتاً، وتدور الإشاعات منذ عشر سنوات بأنه أسير، وغيرها يؤكد أنه قتل خنقاً.

في يوم عيد الفطر من عام 360 هجرية كنت أسعد طفل في كل العالم. نلت الهديتين، ولكن بعد خوف رهيب طوال شهر رمضان الكريم على حياة والدي.

غيلان الفاكنج

في اليوم الأخير من شهر شعبان تجمهر الناس حول الجامع وفي حديقته داخل السور، بل اعتلى البعض المثذنة العريضة التي تربط السور الشمالي مع الغربي وتشرف على حديقة المسجد. عرفت أن سبب الإثارة هذه المرة هو وصول ثلاثين أسيراً وأسيرة من المسلمين مع سفير إمارة برشلونة الذي حضر إلى قرطبة لعقد معاهدة صلح، وجمع الأسرى من بلاد النصارى كهدية للخليفة الحكم ليكسب وده ورضاه. لم يكن الحكم بحاجة لهدايا من المال والجواهر، ويعرف النصارى حبه لإعتاق وافتكاك الأسرى المسلمين، ولهذا نشطوا في شرائهم من كل مكان ليصبحوا هذه السفارة، ولكنهم لم يعثروا على أكثر من ثلاثين. جلب السفير معه أيضا فرو حيوانات، وقصديراً، وغلماناً صقالبة كهدية.

هذا في حد ذاته خبر جيد، لكن فتية الحي، وبالأحرى عصابة عبد العيسى الفهري، إدعوا أن الأسرى قد عُذبوا من النصارى، وأصبح من الواجب رجم السفير والوفد المرافق له بالحجارة. جمعوا حوالي خمسة عشر من الصبيان واجتازوا القنطرة، وأنا خلفهم يدفعني الفضول، متجهين إلى منية نصر على الشط المقابل للنهر حيث نزلت السفارة في ذلك القصر الذي بناه الأمير عبد الله جد الخليفة الناصر، وسكنه الحكم عندما كان ولياً للعهد قبل الانتقال للزهراء.

شاهد عبد العيسى وشلته مجموعة من جند النصارى ومعهم جند الخلافة يتفرجون على رصيف قرطبة وسورها عبر النهر. تراجعوا إلى مقبرة الربرض واحتموا بالشواهد واشتغلوا برمي الحجارة، فركض خلفهم جند الخليفة وصرخوا على المارة لقطع الطريق عليهم والإمساك بهم.

راوي قرطبة

هرب الفهري وضبط الجند حوالى نصف العصابة وأوجعوا مؤخراتهم ضرباً بالعصي حتى تشفع لهم جند النصارى.

عرفت لاحقاً من تسجيلات جدّي خالد أن هذه السفارة قادها بون فليو بن سندريط تمثيلاً لحاكم إمارة برشلونة بريل بن شنير. سحب السفارة عشرين من الجند وثلاثين أسيراً لاسترضاء الخليفة وعقد الصلح. أمر الحكم بتعيين هشام بن محمد حاكم طرطوشة وبلنسية ليشرف على راحتهم. وهشام هذا جاء معهم ليتوسط لهم بعد أن زاروه في مدينة بلنسية القريبة عليهم. في يوم السبت الرابع من رمضان قعد لهم الخليفة واستقبلهم في المجلس الشرقي المنيف على الرياض في الزهراء بشكل فخم كامل الترتيب، حسب العادة. وصل الوزراء وقعدوا على مراتبهم، وجلس على يمين الخليفة قائده غالب بن عبد الرحمن، وتحتة وزير الحشم قاسم بن محمد، وعلى اليسار الوزير صاحب مدينة قرطبة جعفر بن عثمان وتحتة صاحب الزهراء محمد بن أفلح. بعد ذلك دخل جمهور بن الشيخ في قطيع من الجند ومعه كبار وفد النصارى يرافقهم خمسة من مترجمي قرطبة. عندما وصلوا للمجلس خروا سجداً وحبوا على ركبهم حتى وصلوا بين يدي الخليفة فقبلوها. طلب منهم الحكم الوقوف، وبقوا هكذا اثناء تسليم الكتب التي حملوها، فنظر الخليفة فيها وفاتحهم بالسؤال عن أحوال مرسلهم وبلادهم ولبّي طلبهم بعقد مصالحة. كتب جدّي عن تفاصيل أخرى عما دار في المجلس حتى عاد جمهور بن الشيخ بهم إلى منية نصر حيث نزلوا للضيافة لفترة قبل عودتهم لبلادهم.

في ذلك العام استقبل الخليفة سفارات عديدة أخرى معظمها كان من عدوة المغرب. لكن في يوم استقبال الخليفة لهذه السفارة من برشلونة، وصل الغزاة الفايكنج إلى إشبيلية في ثاني غزوة لهم في عهد الحكم، وكانوا قد غزوا الأندلس مراراً قبل ذلك وأرهبوا مدن الساحل مثل لشبونة، والمدن على مداخل الأنهار، وخصوصاً إشبيلية، حيث كان أبي يقضي بعض أعماله.

وصل خبر الغزوة للخليفة ولأهل قرطبة في اليوم التالي، وغطى

القلق وجه جدي، بينما شمل الهلع تصرفات والدتي التي أخفت عنا الخبر حتى لا ترهبنا. منذ غزوة الفايكنج الأولى للأندلس وشيوع أخبار وتفاصيل فظاعتهم، أصبحت الأمهات تخيف أطفالها وتتوعدهم بهم إذا خالفوا أمرها. لم يعد الغول هو المخيف للأطفال بل الفايكنجي، بسبب أفعالهم في غزوتهم الأولى عام 229 هجرية في عهد الأمير عبد الرحمن الثاني. آنذاك تسجل في كتب التاريخ أن الفايكنج المجوس حضروا بحوالي ثمانين مركباً. نزلوا أمام لشبونة على الساحل الشرقي وهاجموا لبلبة ثم قاديس جنوباً وانحدروا إلى إشبيلية ووصلوا قرطبة على الخيل وعادوا لإشبيلية ولبلة وباجة ولشبونة. خربوا وقتلوا وأحرقوا وسبوا واغتصبوا. كانت حركتهم سريعة والنجادات من قرطبة عاجزة عن اللحاق بهم، فلم يكن الجند الأندلسيون في حروبهم معتادين على هذا النوع من القتال. كان عدوهم في العادة يهاجم ليحتل الأرض، وليس للسبي والسلب ليلاً والانتقال لمكان آخر في الصباح. إستمرت المأساة لأسبوعين وانهزم المسلمون في البداية وقُتل منهم ما لا يحصى. في الأيام الأخيرة من تلك الغزوة تمكنت مناجق المسلمين من سفنهم فأحرقت أربعاً؛ استولى عليها ابن رستم بعد أن قتل خمسمائة عالج منهم، وفي المعركة الثانية في إشبيلية قبل إفلاتهم أحرق لهم ثلاثين مركباً وعلق من المجوس عدداً كبيراً في جذوع النخل هناك.

بعد تلك الأهوال أمر الأمير عبد الرحمن الثاني بإحاطة إشبيلية بسور عظيم حتى لا تبقى عورة، وأقيم السور على شكل هلال يضم المدينة ويلتقي طرفاه بالنهر. كما أقيمت دفاعات وأبراج على الضفتين مرتبطة ببعضها عبر سلاسل لتغلق النهر عند الحاجة أمام مراكب الغزاة. نشط الأندلسيون في بناء أساطيل بحرية كان أولها أسطول إشبيلية، وتلاه بناء مدينة وميناء وأسطول المرية. لكن في غزوتهم الرابعة للأندلس، والتي كانت الأولى في عهد الخليفة الحكم، وصل المجوس إلى سواحل الأندلس قرب لشبونة في ثمانية وعشرين مركباً وخرج لهم أسطول إشبيلية بقيادة أمير البحر عبد الرحمن بن رماحس، فردّهم بعد أن

راوي قرطبة

دمر بعض سفنهم في حربٍ استشهد فيها من المسلمين وقتل فيها من الكافرين الكثير. آنذاك رماهم الجند والناس بالنشاب الحارق من السواحل.

في هذه الغزوة الخامسة تصادف وجود عبد الرحمن بن رماحس في قرطبة فأمره الخليفة بالخروج فوراً إلى المرية والتأهب لركوب البحر باتجاه الغرب إلى إشبيلية وقطع الطريق على المجوس إذا كانوا يفكرون في دخول البحر من جهة قادس وجبل طارق، فانطلق رماحس يوم الإثنين إلى المرية. كان في قرطبة أيضاً الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن الذي شارك في استقبال السفارة البرشلونية. طلبه الخليفة وتحدث معه وأعطاه التعليمات للحرب براً وبحراً .

قرأت لجدي لاحقاً في وصفه للاستعداد ما يلي: أن الخليفة استودع الله عز وجل بالقائد غالب، وأمره بالنهوض فودّع وانطلق وهو يشيعه بدعائه ويسأل الله له وللمسلمين جميل صنعه وحسن عاقبته. فلما كان يوم الخميس واكتمل الاستعداد فتحت مخازن العدة والأسلحة في قصر الزهراء وحملت منها ملحفة بيضاء زهرية فيها منديل يضم الرايات التي حملت إلى القائد غالب. حملها وزير الخيل والحشم زياد بن أفلح، فحلاً المنديل فإذا به القطع الثلاث وهي الراية والعلم والشطرنج، وعقد عريف الخياطين هذه الأعلام على صواريخها. حضر أيضاً محمد بن يوسف القاضي ومعه مؤذنان أخذوا بقراءة سورة "إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً" وعلا التكبير والتهليل حتى استلم القائد غالب الرايات واعتلى صهوة فرسه وانطلق للغزوة وبين يديه العدة والعديد، وصف من الجند امتلاً بهم الطريق وانطلقوا إلى إشبيلية لرد المجوس عنها.

نجح جدّي وأمي في إخفاء الخبر عني لأربعة أيام، ولكن يوم الخميس أخذ الجند يستعدون لمغادرة قرطبة، وفي يوم الجمعة كانت خطبة القاضي سعيد بن منذر في الجامع تستنهض الهمم لرد الفايكنج عن إشبيلية وتدعو بالنصر للخليفة وجنده وللمسلمين، فعرفت مثل بقية الناس بالهجوم على بلادنا.

عندما عاد أبي من إشبيلية روى لي كيف نهض الناس والجند ضد المراكب. في البداية نجحت نصف السفن في اجتياز النهر قبل شدّ السلاسل بين البرجين، فأصبحت نصفها محجوزة جهة الداخل لا تقوى على مواصلة الإبحار تجاه قرطبة ولا تستطيع الفرار منهزمة، ونصفها الآخر جهة المحيط. إنهالت رماح الجند والنشاب عليهم من فوق البرجين، ورماهم الناس من ضفتي النهر بالحجارة وأصابتهم قذائف المقاليع الملتهبة. جند السفن المحجوزة خلف السلاسل تركوها وسبحوا للسفن الأخرى التي استدارت منهزمة والنيران في أشرعتها وخشبها. الذين عجزوا عن اللحاق بالمراكب وسبحوا للشواطئ ذُبحوا وأُلقي بهم في نهر الوادي الكبير، وعُلّق بعضهم على جذوع النخل.

كان شهر رمضان ذلك العام مليئاً بالأحداث. قبل أن يعود أبي إلى قرطبة وصل خبر من العدو، يوم السبت الثامن عشر من الشهر، عن قتل زيري بن مناد الصنهاجي. زيري هذا هو قائد قوات صاحب أفريقيا معد بن إسماعيل الشيعي خصم الخليفة الحكم. قتله جعفر ويحيى إبننا علي المعروف باين الأندلسي، وهما مخالفان لمعد وللشيعة وجنّدا ضده في المغرب القبائل المؤيدة لخلفاء بني أمية في الأندلس. قُتل زيري في حرب شهدها رؤساء البرابر القائمون ضده بدعوة وتأييد من الخليفة المستنصر بالله. وصل البغدادي، كاتب جعفر، بكتاب إلى الخليفة مبشراً ومخبراً أن جعفر ويحيى وزعماء البربر سيصلون فيما بعد لزيارة الخليفة ومعهم رأس زيري ورؤوس أخرى لأعيان من أصحابه.

قبل ثمانية شهور على هذا الخبر؛ إستقبل الخليفة في شهر محرم 360 هجرية بقصر قرطبة كلاً من عيسى بن محمد ومحمد بن العالي وحسن بن علي، وهم رسل بني محمد الحسينيين أمراء الغرب. أوصلوا للخليفة الحكم كتاب مرسلهم وذكروا ما هم عليه من الطاعة وطلبوا بعثة رماة كتقوية لهم لما يتوقعونه من حركة قائد معد الشيعي نحوهم، وتقربوا للخليفة بإهداء خيل وجمال، فأمدهم برماة يشاركونهم الحرب. بعد ثلاثة شهور، وفي ربيع الثاني، حوصرت قبائل الزناتية من قبل ابن زيري،

راوي قرطبة

ولما أيقن الأمير محمد أن عدوه أحاط به، اتكأ على سيفه فذبح نفسه. وفي رمضان انتقم الزناتية من زييري وأحضروا رأسه بعد شهرين إلى قرطبة. قبل أن يصلوا خاطب المستنصر بالله قواده وعماله في كل الأندلس للحضور مع كبار الشخصيات والأعلام لمشاهدة دخول يحيى بن علي وبنو خزر أمراء زناته القادمين برأس زييري.

بعد شهرين من وصول خبر قتل زييري، خرج محمد بن أبي عامر لتلقي جعفر وأخيه يحيى في ميناء مالقا، ومعه أربعة من أفضل الخيول عليها سروج الخلافة ولُجمها كهدية للأخوين ابني الأندلسي. وتبعته دواب أخرى وهوادج وكسوات وعماريات لتحمل عائلة جعفر وأخيه، وقدما إلى قرطبة بعد خمسة أيام ببروز عظيم حتى وصلا الخليفة وحوله الأجناد ووجوه الأندلس.

في أواخر شهر رمضان، وصل قرطبة رسول القومس غند شلب، من مدينة لستره في مملكة جليقية النصرانية المجاورة شمال الأندلس، حاملاً كتاباً مؤرخاً يوم الأحد الثاني عشر من رمضان جاء فيه خبر دخول وانهزام المجوس، أهلكتهم الله، بعد أن شنوا غارةً وسلبوا مدينة شنت بريه ومحيطها على الساحل الشمالي للأندلس. لقد تجشم هذا الرسول سفراً سريعاً لثلاثة عشر يوماً ليقطع ثلثي طول البلاد من شمالها حتى قرطبة محذراً للخليفة ومستنجداً به ضد المجوس الذين لم يميزوا في غزواتهم بين الأجناس والأديان والبلدان. هاجموا المدن الساحلية الغنية أينما كانت، وأبحروا في الأنهر بحثاً عما خفّ وزنه وغلا ثمنه.

أبي أيضاً وصل في ذلك اليوم إلى بيتنا وأطلقت أمي، على غير عاداتها، عدة زغاريد تعبر عن فرحتها وتخبر أهل الحي كله بوصول زوجها سالماً من إشبيلية. ترك أخوالي محلاتهم مفتوحة في الشارع الموازي بعد أن تعرّفوا على صوت أختهم، وركضوا إلى منزلنا الذي امتلأ بالمهنتين من الجيران المسلمين واليهود والنصارى. رغم حرارة الصيف لم نقدم أية مشروبات أو حلويات كون الوقت صياماً، ولم يمكث الناس طويلاً بعد الاطمئنان والمباركة بالسلامة.

أفطرنا مع غروب الشمس في البيت وذهبت مع جدّي وأبي لصلاة العشاء في الجامع الكبير. منذ شيوخ خبر الهجوم على إشبيلية لم يغادر جدّي بيتنا، ونام في منزلنا كل ليلة على غير العادة. كل أصدقاء أبي الذين التقوه بعد الصلاة ألحوا على سماع أخبار إشبيلية وروايات ما دار هناك، أما أنا فكانت أشدّ طرفَ عباءة والدي بين الحين والآخر لنعود للبيت، وتوسلت بعيوني لجدّي أن يفعل شيئاً ما لإخراج أبي من هذه الدائرة. بعد فترة بدت لي بطول الليل كله، قال جدّي للحضور أن يتركوا أبا سليمان ليعود لبيته ليستربح، ووعدهم أبي بالمزيد من التفاصيل في الليالي القادمة.

"جدي قال إن خطي تحسن كثيراً وإني أستحق الهدية. صح يا جدي؟" ضحك أبي وأبوه كثيراً ونحن في الطريق للبيت، وأكدّ أبي أن الهدايا ستال إعجابي، ولكن بعضها ليوم العيد ولن أحصل عليها الليلة.

"طالما خطك تحسن، فهذا القلم سيحسنه أكثر، ولكن لا تحمله معك خارج البيت إذ لا يوجد مثله في كل قرطبة. هذا أحدث اختراع من إشبيلية". ناولني أبي عقلةً من البوص مغطاة ببوصة أعرض من كل طرف. في الطرف الأمامي دببت البوصة مثل الخطاطة العادية التي نغمسها في الحبارة. وفي التجويف الخلفي وجدت أنبوبة بلورية مفتوحة من الطرفين، فتحتها الخلفية واسعة لصب الحبر فيها، والفتحة الأمامية ضيقة لتنقيط الحبر على الجزء المدبب.

"عندما تريد الكتابة، ضع الحبر في البلورة، وضع فيها قبل ذلك بعض القماش الحريري أو القطني تجنباً للبلبل، ثم اكتب ما تريد لساعات من دون أن تغمس السن كل كلمتين في الحبارة".

إستمع جدّي بعناية لشروحات أبي عن هذا القلم وكيفية وضع الحبر في البلورة وإغلاقها، وتمنى لو وجد هذا الاختراع منذ زمن. أخبره والدي أنه أحضر معه أكثر من خمسين قلماً لاستعمال بعضها ولإهداء البعض الآخر قبل أن يعمم ويشتهر استعمال هذا المٌخترع. بعد ذلك

راوي قرطبة

بأسابيع أصبح لوالدي ورشة تنتج هذه الأفلام وتطور استعمالها تباعاً، وقد ورثت عنه الإشراف على تلك التجارة.

وضعتُ أُمِّي على الطاولة بيننا حلويات القطايف والعمامة التي أحضرها أخوها محمد بعد الإفطار، وجلست معنا أختي فاطمة تتفرج على الفستان والشالات التي أحضرها والدي هدية لها. فجأة تغيرت ملامح قريب، وانتبهت للحديث بين جدِّي وابنه، فإذا هو عن زيارتنا للحمام وطلب العامري من جدِّي أن يُعلم هشام تاريخ أجداده وأن يأخذني معه لتلك الدروس. وافق أبي بامتعاض شديد على طلب جدي، ولم يتحدث في الأمر أمامي. طوال سنوات تلت لم يخبرني أبي بسبب كراهيته لمحمد العامري الذي كان قاضياً في إشبيلية ووكيلاً للأمير هشام وبمثابة وزير في ذلك الوقت.

قبل النوم ألححت على أبي أن يخبرني في شأن قوم الفايكنج، الذين نسميهم المجوس، لكنه تعذر بالتعب وأحالني إلى جدِّي ثم غادر، مع زوجته، صالون البيت، وخرجت مع جدِّي إلى صحن الدار، حيث كوعنا على البسط والوسائد. حضرت أختي فاطمة أيضاً وتمددت على الفراش وغطاها جدِّي بشرشف خفيف بعد أن وعدها بالاستجابة لطلبها. أرادت أن نصحبها على السحور لتأكل معنا قبل الفجر، وقالت إنها ستصوم حتى منتصف النهار إذا شاركتنا في السحور.

"صلِّ على النبي".

"عليه الصلاة والسلام" قلت أنا وفاطمة استجابة لجدي.

"المجوس قوم حرب ونهب وغزو. زعيمهم هو أقواهم في الصراع والبطاح، يعني لو ذهب علي العتال إلى بلادهم، الدنمارك، لبطحهم وأصبح الملك. بلادهم بارد جداً وهو في أقصى شمال شرق بلاد الغال الفرنجة وأبعد من بلاد قبائل الجرمنق، وتغطيها الثلوج معظم العام".

"إذا صيامهم أسهل في الصيف ولا يعطشون مثلنا في شهر رمضان". قالت فاطمة وهي تقاوم النوم وتحلم بطعام السحور. ضحك جدي، وقلت لفاطمة أن تسكت ولا تقاطع في الحديث.

"المجوس ليسوا مسلمين مثلنا، ولا حتى يهود أو نصارى مثل جيراننا في قرطبة، ولذلك لا يصومون ولا يصلون يا فاطمة. في الصيف يركبون سفنهم الطويلة السريعة ويقتحمون المدن والقرى أينما رست مراكبهم، يحملون كنوز الكنائس وينهبون أي شيء يقابلهم ويخطفون النساء والصغار لبيعهم، ويقتلون من يتصدى لهم، وهم أقوىاء شجعان في الضرب والطعان ولم يسلم منهم أي بلد. يعيشون في الشتاء على ما نهبوه في الصيف، ولديهم في بلادهم أبقار وخراف يصنعون الجبن المشهور من ألبانها، ويجففون السمك".

خفض جدّي صوته قليلاً إذ نامت فاطمة، وتناول حلوى، وأخذت قطعة أيضاً رغم أن بطني يكاد ينفجر مما حشيت به من الأكل الذي أعدته أمي ترحيباً بوصول زوجها سالماً من إشبيلية ومن المجوس.

"بعد أن غزونا أيام الأمير عبد الرحمن الثاني رحمه الله، وقتلوا منا الكثير وحطمنا لهم مراكب وأخذنا منهم أسرى، أراد الأمير حماية البلاد ببناء الأسوار والأسطول البحري، وأيضاً الزيادة في عدد الأبراج لمراقبة الشواطئ ونقل الخبر بسرعة عبر البريد بالإشارات وبالخيل ليصل الأمر إلى قرطبة وينقل عنها لباقي المناطق. على الأرجح أن ملك المجوس ظن أننا نريد غزو بلاده للانتقام منهم، ولم يكن الأمر كذلك، بل أردنا من تحسين البريد والجيش تأمين البلاد. لذلك أرسل ملكهم هوريك سفارة إلى قرطبة لعقد معاهدة سلام، وطبعاً رحب الأمير عبد الرحمن الأوسط بهم وأرسل سفارة من هنا إلى بلادهم قادها الوزير الشاعر المشهور يحيى بن حكم البكري، الذي ربما تعرف بعض أشعاره، وهو الملقب بالغزال".

بالفعل كنت أحفظ بعض أبيات الشعر للغزال، وهممتم لجدي بالإيجاب، ولكنني أصبحت أفاوم بدايات النعاس. أمرني جدّي أن أذهب للمطبخ دون إحداث ضجيج لجلب كأسين من عصير القمر دين الذي تصنعه أمي كل يوم من مجفف المشمش. يبدو أن جدّي كان يريد تنشيطي حتى لا أنام بسرعة وأتركه ساهراً لوحده.

"مكث الغزال عاماً كاملاً في الدنمارك لتعزيز العلاقات. جد جدي، أي عبد الرحمن الحفيد الخامس لجدنا أسعد، إلتقى الغزال بعد عودته من تلك السفارة ودونَ بعض الأخبار التي سمعها منه عن القوم وتصرفاتهم، وستجدها في تسجيلاتنا للتاريخ عندما تجيد القراءة. من تصرفاتهم الغريبة أنهم يحرقون الموتى، ويقتلون الزوجة لتدفن مع زوجها، ولا يقتلون الزوج ليدفن مع زوجته. لا يغتسلون إلا مرةً أو اثنتين في العام. غالبيتهم يحتفظون بملابسهم حتى تبلى على أجسادهم. في الولايم يأكلون طعامهم خليطاً، لحوماً مشويةً مع فواكه وأية حلويات متاحة، ويستعملون أيديهم في أي طعام. يكثرون من الشراب المُسكر المخل للعقول حتى يدفئ أجسادهم من البرد. تنتشر بينهم الوثنية وأعمال السحر، وهناك الكثير من الروايات والتفاصيل التي سُجلت في الكتب إثر تلك السفارة".

سألت جدي: كيف ذهب الغزال إلى تلك البلاد الباردة والبعيدة؟ فقال إنه استقل مركباً أبحر به محاذاة مركب الفايكنج حتى وصلوا لبلادهم. كان مع الغزال جماعة يساعدهونه ومنهم صديقه يحيى بن حبيب. "لو راجعت أشعار الغزال ستجد كيف وصف العواصف التي هبت عليهم في البحر وخافوا من الموت، قال:

قال لي يحيى وصرنا بين موج كالجبال
وتولت لنا رياح من دبور وشمال
شقّت القلعين وأنبتت عرى تلك الحبال
وتمطى ملك الموت إلينا عن حبال
فرأينا الموت رأي العين حالاً بعد حال
لم يكن للقوم فينا يا صديقي رأس مال
كان الغزال شجاعاً ورفض أن يسجد أمام ملك المجوس الذي أعجب به، كما أحبته الملكة تيودورا، إذ نادرها كثيراً. عندما عاد للأندلس نزل في الشمال وزار أمراء النصارى في شنت يعقوب قشتاله

وأطلعهم على نتائج رحلته وتوقف هجمات المجوس على كل شبه الجزيرة، ثم مرّ بطليطلة قبل الوصول إلى قرطبة".

"لكن كيف تفاهم مع المجوس والنصارى يا جدي؟"

"كان معه مترجمون من قرطبة، وهو يجيد اللاتينية مثل الكثيرين في قرطبة، كما أن هذه لم تكن سفارته الأولى، فقد قام قبلها بسفارة إلى ملك القسطنطينية، ولديه خبرة في هذه الأمور".

أكمل جدي الرواية وكأنه يتذكر زمنها الذي لم يعايشه "لم يهاجم المجوس الأندلس مرة أخرى إلا بعد موت ملكهم هوريك وأميرنا عبد الرحمن، رحمهم الله، فحينها تخلوا عن المعاهدة وشنّوا هجوماً آخر دحرناه حينها بخسارة أقل لنا وأكثر لهم. من آثار تلك الغزوة بقي بعض أسراهم في بلادنا وعاشوا وأحفادهم للآن في بلدة شرش، التي شهروها بصناعتهم الجبنة فيها. غزواتهم الأخرى كثرت ضد كل البلدان. غزوا بلاد الفرنجة على مدار قرن كامل بدخول نهر السين مراراً، ووصلوا باريس بسبعمئة مركب وحاصروها عاماً كاملاً. نهبوا مدينة تور التي وصلها عبد الرحمن الغافقي، حيث دارت معركة بلاط الشهداء التي حدثت عندها ذات مرة وشارك فيها جدنا أسعد وابنه. لا تنم إذا أردت سماع بقية القصة، وبعد أيام سوف أسألك في تفاصيل ما أخبرك به الآن، وعليك ألا تكون قد نسيتّه".

أكدت لجدي أنني صاحٍ ومتنبه، فواصل روايته، وعلى الأرجح أنه اختصرها.

"شاغلوا بلاد الفرنجة جارتنا طويلاً، ويئس ملكها شارل الثالث من مقاومتهم، فوافق على معاهدة صلح تكف شرهم وتؤمن له حماية من منازعيه الفرنجة على التاج. لكنه في المقابل تنازل لحماته الفايكنج عن جزء من بلاده يقع في الشمال الغربي، وتلقب الملك الفرنجي من شعبه بالملك الأبله. هذا الأبله يا سليمان، هو ابن شارل السمين وريث شارل الأصلع ابن الملك لوي التقي ابن شارلمان الذي حاول غزو الأندلس وهاجم سرقسطه أيام عبد الرحمن الداخل، رحمه الله. وشارلمان هو

راوي قرطبة

حفيد شارل المطرقة الذي هزمنا في بلاط الشهداء. يمكنك القول إن المجوس نجحوا فيما فشلنا نحن به، وهم الآن يسكنون في النورماندي الفرنجية التي أخذت عنهم اسمها منذ توقيع الاتفاقية بين الأبله وبين رولف ملك الفايكنج المجوس النورمان قبل ستين عاماً. هكذا أصبح هؤلاء على مسيرة شهر ونصف براً من قرطبة، وبوسعهم الوصول أسرع بمراكبهم إلى سواحلنا، وعلى الأرجح أن غزوتهم لإشبيلية هذا الشهر لن تكون الأخيرة، فبلادنا غنية جداً وقومنا أرخاهم النعيم، ندعو الله أن يطول الزمان قبل أن يطمع بنا الجيران الذين لا شأن لهم سوى القتل والدمار والطعان".

لا أدري إذا كان جدّي قد واصل الحديث لفترة قصيرة أخرى أم لا، ولكنني صحت على صوت أمي تخبرني أن السحور جاهز، وحاولت جهدي إخراج فاطمة من نومها، ولكنها كانت مثل الأموات ورفضت الحراك.

وافقت جدّي على الفور بالذهاب معه بعد السحور لصلاة الفجر في الجامع، وأنهيت الوضوء بسرعة حتى نخرج مبكرين ونشاهد ما يدور في المدينة ليلاً. طوال شهر رمضان تبقى كل أضواء قرطبة على طرفي شوارعها مضاءة، ويخرج الصغار والفتيان قبيل السحور يحملون الفوانيس النحاسية والزجاجية الملونة والمضاءة بالشموع، ويدقون على الطنبور حتى يصحو الجميع من المسلمين، واليهود والنصارى أيضاً. عندما يرتفع أذان الفجر يجب التوقف عن الطعام والشراب فوراً، ويمكن لمن يريد أن يعود لنومه. لكن معظم الناس كانوا يخرجون لأعمالهم بعد السحور ليقضوها قبل اشتداد الحرارة، ومن ثم العودة مبكراً للليلولة في انتظار موعد الإفطار.

في هذا الشهر وبسبب غياب أبي في إشبيلية، منعتني أمي من الاشتراك في الحياة الليلية لقرطبة، والآن ها هي مع زوجها، بينما جدّي وأنا نجتاز العتبة في طريقنا للجامع ولصخب الحياة الرمضانية. بائعو حلويات ساخنة مثل كرابيج حلب المقلية بالزيت، وأنواع عديدة أخرى

من الحلويات الطازجة يُنادى عليها. شراب حلو، وشربات براد مثلج تباع من محلات أو يباعين على جانب الطرقات، وغيرهم يحمل الترمس أو الفول النبات في أوعية فخارية، والبعض ينادي على اللوز والكستناء الساخنة إذ يبيعونها طازجة على محامص حديدية مليئة بالفحم والنار وتشوى عليها أكواز الذرة. من أراد اكل بعض اللحوم قبيل الأذان، يمكنه أيضا الحصول على عصافير مقلية بزيت الزيتون.

أثناء التوضؤ من صنبور الماء الجاري في صحن الجامع، عاد جدّي ليكمل قصة المجوس بنادرة دون أن تفارقه ابتسامة عريضة، قال: "إشترط الملك الأبله على رولف المجوسي أن يُقبل قدمه عندما يلتقيان لتوقيع اتفاقية التنازل عن النورماندي، فقال رولف إنه لا يُقبل قدم أي إنسان، ولكنه سيطلب من أحد مساعديه تقبيل قدم الملك شارل. يوم اللقاء وبعد التوقيع انحنى المساعد إلى قدم الملك، وبدل أن يقبلها شدها إلى أعلى، فتعلق شارل من عرقوبه وقبل المساعد قدمه على هذه الشاكلة".

عيد الفطر

توافق عيد الفطر يوم الجمعة الموافق الثامن عشر من يوليو 971. بعد زيارة أخوالي لأختهم في الصباح خرجت مع والدي لزيارة عماتي عملاً بأمر الله لصلة الأرحام. أعطى والدي كلاً من عماتي الثلاث خمسة دنانير لكلٍ منهن عيدية وقارورة عطر جلبها لهن من إشبيلية. أعطى أولاد وبنات عماتي عيدية أقل، وأخبرهم أن أعمامي وجدي سيحضرون غداً إلى قرطبة. كانت أمي قد تلقت هي الأخرى قارورة عطر جميلة من الزجاج البلور يمكن ضم أصابع اليد على وسطها الناعم الذي يعلوه وفي أسفله زخرفة على شكل أوراق الشجر، وكان في قمة القارورة غطاء من النحاس يحفظ العطر الأصفر الأقرب لرائحة الياسمين. عطر عماتي كان أخضر اللون، ولم أشمه.

عدنا بعد زيارة عماتي للبيت وانطلقنا سوياً مع أمي وفاطمة على عربة يجرها حصان استأجرها أبي لتنقلنا إلى بيت جدّي وبيوت أعمامي عباس وعيسى قرب الزهراء. العربات التي تطوف شوارع أطراف قرطبة مخصصة لنقل البضائع، يجرها بغل أو اثنان، وأحياناً تجرها الحمير. وهي عربات مسطحة لها أربع عجلات من الخشب المغطى بالحديد، واستعملت مئات منها في نقل الحجارة والرخام الأبيض من قرب حصن فريش إلى الزهراء أثناء تشييدها.

لأن شوارع قرطبة داخل الأسوار ضيقة ومزدحمة بالناس تتجمع العربات قرب البوابات لحمل أو تنزيل البضائع ونقلها من هناك على ظهور دواب، أو في عربات رفيعة يجرها عربنجية أشداء يركضون أمامها

في دروب وأزقة قرطبة إذا كان الحمل خفيفاً، ويلهثون مرات أخرى ويدهسون الناس إذا ثقل الحمل وصعب عليهم توجيه العربات.

العربة التي استأجرها أبي من أمام باب اليهود اختلفت في الشكل ولم تكن شائعة الاستعمال. هي أشبه بغرفة صغيرة محمولة على أربع عجلات وبها مقعدان متقابلان من الخشب المكسو بالجلد، ولها باب بنافذة من كل جهة. يجرها حصانٌ ويقودها حوذي يجلس خارج الغرفة. في منتصف الطريق المعبد بالحجارة إلى مدينة الزهراء، طلبت أمنة من زوجها أن تعود على حصان. ووافقها أبي فوراً لأن أجسادنا تدققت في هذه العربة.

نزلت أمي وفاطمة وركب جدّي معنا بعد تردد قصير، وتحركت العربة إلى قصر الزهراء القريب جداً للتعبيد على الخليفة الذي تعود على الجلوس بعد الصلاة لتلقي التهاني. كان مجلسه هذا العام هو الشرقي من قصر الزهراء في أعلى المدينة. في البداية دخل إخوة الحكم وجلسوا على يمينه ويساره، وهم أبو الأصبح عبد العزيز وأبو المطرف المغيرة وأبو الأصبح القاسم. وللخليفة عشرة إخوة وأشقاء، ولكن هؤلاء الثلاثة هم الذين حضروا تلك المناسبة، وقد شاهدت عبد العزيز على يمين الخليفة والمغيرة وأبا القاسم على يساره، حسب ما أوضح لي أبي فيما بعد. دخل الوزراء فسلموا وقعدوا تحت مستوى الخليفة وحوله. ثم دخل أصحاب الشرطة العليا والوسطى وأصحاب المخازن وسائر طبقات أهل الخدمة العاملين في إدارة الخلافة، وتلاههم القضاة، وأعيان قریش والموالي، وجاء دورنا لندخل من جملة أصحاب البيوتات المعروفة، وتلانا العبيديون وقضاة الكور والمقاطعات والفقهاء والمشارون والعدول وبياض رجال قرطبة. توافدوا أفواجاً بعد أفواج وتلاههم الجند على طبقاتهم. الجميع سلّم على الجلوس وعلى الخليفة دون مصافحة بالأيدي ودون انتظار طويل.

تولى الحكم الخلافة وعمره سبعة وأربعون عاماً، وهو اليوم سبعة وخمسون، أبيض اللون بل بدا لي وجهه مشرباً بحمرة، ورد تحيات

راوي قرطبة

وتنهاني القوم بصوت جهور. جسده ضخم، تبدو سيقانه قصيرة وهو جالس، وتأكدت من ذلك فيما بعد اذ شاهدته مراراً. عنقه غليظ وسواعده قوية، عيونه واسعة وسوادها عريض.

قبل أن نغادر البوابة الفاصلة بين القصور وسكن الجند؛ إستوقف محمد العامري جدّي وأبي اللذين باركا له في العيد. وقف هناك يصافح المغادرين ويتلقى من بعضهم عرائض وطلبات وتمنيات ليوصلها للخليفة، وكان بذلك يعزز موقعه وحاجة الناس إليه. عاتب العامري أبي على انعدام الزيارة، فرد جدّي بأن القادما أكثر من الذهاب، وأخبره أنه سيحضر مرة كل أسبوع لتعليم الأمير هشام تاريخ بني أمية، كل يوم خميس بعد الظهر، وقال إنه سيحضرني معه. من جهته أكد أبي للعامري أن كثرة السفريات هي المعيق، وأخبره أنه احضر له هدية من إشبيلية سيحملها له جدّي في زيارته القادمة.

عدنا بعد الظهر إلى بيت عمي عباس لتناول الغداء. في هذا العيد ذبح جدّي، أو بالأحرى عمي عيسى، خروفين، واحداً لتتناوله سوياً، والآخر لتوزيع لحمه على الفقراء، وعلينا أخذ لحمه معنا عندما نعود لقرطبة ليوزعها أبي هناك، إذ لم يكن في ريبس الزهراء وقرب بيوتنا هنا فقراء يمكن أن نتجرأ على توزيع اللحوم عليهم. جلسنا في صحن بيت عمي على وسائل حول عدة طاوولات رصت بجانب بعضها وفوقها شراشف.

أحضرت أمي وزوجة عمي في البداية الأكواب وملاعق الخشب متعددة الأحجام، وصحوناً خشبيةً بها زيتون أخضر وأسود، ومخللات باذنجان صغير الحجم محشو بالمكسرات ومعتق في زيت الزيتون. في صحون أخرى فخارية مصقولة وملونة بالأخضر والأبيض وضعت زغاليل محشوة ومحمرة. تبع ذلك ثلاث صوانٍ نحاسية متوسطة الحجم فيها خبز رقيق ناشف فوقه طبقة من الرز، ثم حُملت ثلاث حلل فخارية مغلقة الفوهات بورق من شجر الموز. كانت هذه الحلل في فرن النار، الجرن،

منذ ساعات الصباح وقد وضعت بها قطع اللحم مع البصل والماء
والبهارات لتطبخ على نار هادئة.

إعتدل جدّي وارتكز على ركبتيه وفتح الحبل واحدة بعد الأخرى،
وباشر في نزع محتويات الأولى بواسطة مغرفة طويلة، وورصّ قطع اللحم
على الصواني ثم صبّ المرققة على الرز والخبز من تحته. كانت رائحة
اللحم والبهارات قد عبقت المكان فور إزالة الأغطية. تمنى جدّي لنا
شهية طيبة معلناً البداية لتناول الطعام، ومنبهاً للصغار بأننا سنأكل كل
الخروف، فلا داعي للاستعجال. كنا ستة من الكبار، جدّي وأبناءه
الثلاثة، وأمي آمنة، وزوجة عمي خديجة، وخمسة صغار، أنا وفاطمة،
وابن عمي سعيد وأختاه عايشة وحليمة، وكلهم أصغر مني.

أكلنا بعد ذلك كعك العيد المحشو بعجين التمر والتين وخليط من
اللوز والبندق المكسر. عندما حدثت سعيد عن الأبهة في الزهراء
ومشاهدة الخليفة، طلب من والده أن يحكي لي قصة السفراء على باب
بيتهم. ضحك عمي ونهض ليساعد خديجة وآمنة في إعادة ترتيب صحن
الدار، فنقلنا نحن الصغار عيوننا إلى جدّي بينما أبي وأخوه الأعزب
عيسى يتداولون في شأن إقامة مزرعة للحرير قرب مالقا.

قال جدي: "صلّوا على النبي".

"عليه الصلاة والسلام" قلنا بصوت واحد، وأخذنا أوضاعاً مريحةً
للإنصات.

واصل جدي: "كان يا ما كان، وليس من أيام زمان، ولكن في
هذا الأوان، قبل عشر سنوات، أيام خليفتنا الناصر لدين الله، رحمه
الله". سكت جدّي وحرك رأسه ليسمع تجاوبنا.

تمتمنا دون انتظام "رحمه الله". كان جدّي يصر وهو يحدثنا على
سماعنا نردد كل مرة عندما ترد سيرة الرسول محمد، أن نقول عليه
الصلاة والسلام. وعندما ترد سيرة أي نبي آخر أن نقول، عليه السلام.
وإذا ورد ذكر ميت أن نردد، رحمه الله. هذه بعض آداب الحديث
والاحترام التي لا يمكن لأي فرد في عائلتنا تجاهلها.

راوي قرطبة

"تعرفون أن الخليفة أمر ببناء الزهراء منذ عام 325 هجرية، واستغرق البناء أربعين سنة، واكتملت المدينة منذ عشر سنوات. عندما باشر البناء، طاف المنادي يخبر الناس أن الخليفة سيمنح أربعمئة درهم لكل من يجاوره في الزهراء. لذلك بعنا بعض بيوتنا في قرطبة وبنينا هنا ثلاثة بيوت ندعو الله أن تبقى عامرة إلى يوم الدين. بعدما امتلأت الزهراء بالقصور والبيوت، تعمر أيضا معظم الشارع حتى قرطبة بالبيوت الجميلة وحدائقها الواسعة وكأنها قصور ملكية". لم يكن جدّي يبالغ في الوصف فبعض البيوت خارج سور الزهراء كبيرة بالفعل وملحق ببعضها مزارع خاصة، بينما الحدائق الراقية في الزهراء مخصصة لقصور الخليفة والوزراء. كل البيوت في المدرج السفلي داخل أسوار الزهراء لم تملك حدائق خاصة بها وإن كانت المزروعات والزهور ونوافير الماء تزين ساحاتها الداخلية.

"حتى يبهر الخليفة الناصر كل زواره الأجنبي كان يبقئهم بضعة أيام في قرطبة، ثم يأمر بإحضارهم إلى الزهراء لكن بعد ترتيبات نشارك نحن جيرانه فيها أيضا. في يوم الزيارة، يصطف الجنود على طرفي شارعنا رافعي السيوف والأعلام، ونجلس نحن السكان على الأسرة والكراسي الفاخرة على طرف الطريق بين الجنود. كنا نفرش الشارع بالبسط ونرش العطور. عندما يصل السفير إلى أجدنا ينحني للتحية ظناً منه أننا وزراء أو وكلاء للخليفة. ذات مرة وضعت مع أولادي عباس وقريب أريكة حمراء مخملية على طرف الشارع بين جنود من السودانية بسيوف لماعة وملابس براقية. اعتمرت قلنسوة حمراء تناسب الألوان ولففت حولها عمّة عظيمة الحجم مطعمة بخيوط ذهبية، وجلست بين ولدي بلباسهم الفخم أيضا". كان جدنا يتحدث ويمثل الموقف بحركات من جسده ويديه وبدت لنا القصة وكأنها تتكرر أمام عيوننا كون جدّي بلباس جديد للعيد، ويتحدث عما حصل أمام منزل عمي الذي نجلس فيه.

"اقتربت منا السفارة فأخذ الوفد بالانحناء الشديد دون أن نظهر

اهتماماً، ولما أصبحوا أمامنا ارتموا على الأرض يقبلون السجاد بين أقدامنا. لقد ظنوا من عمتي المذهبة أنني الخليفة، فقبل لهم هذا أحد رعية الخليفة، ولا زالت هناك مسافة تفصلهم عن الزهراء".

أخذنا جميعنا في الضحك بصوت مرتفع، وتمالك جدّي نفسه ليوصل روايته. "تعرفون طبعاً الساحة أمام مدينة الزهراء؟"

"طبعاً مدخل المدينة ذات الأقواس الأربعة عشر" قال معظمنا، فأنا غادرتها قبل قليل، وأبناء عمي يشاهدونها متى يريدون، ويذهبون للمدينة لشراء حاجياتهم أو للصلاة في مسجد الزهراء الذي نراه من العلية على سطح بيت عمي، ونسمع صوت مؤذنه بوضوح.

"عندما يصل السفير للساحة" قال جدي: "يقول له الجند: هذا هو الخليفة، ويشيرون للناصر وهو جالس على الأرض بجلاية لا تساوي درهمين، وأمامه سيف وقرآن. حينها يقول الخليفة للسفير بصوت رصين: إن الله أمرنا أن يكون هذا هو الحكم بيننا، مشيراً للقرآن الكريم. هكذا تختلط الأمور في ذهن أعضاء السفارة، فالرعية كالمملك، والخليفة بملابس صعاليك. وحتى تتفاعل الخلطة في ذهن السفراء يعود الخليفة لاستقبالهم في المجلس المؤنس المطل على الحدائق بينما كبار القوم من تحته وأولاده الأحد عشر على جانبه بمظاهر أبهة لا مثيل لها في كل العالم".

سألت جدي: لماذا لا يفعل الخليفة الحكم مثل أبيه حتى نجلس نحن للسفراء في الشارع. قال جدي: إن الحكم متواضع والعين لا تعلق على الحاجب، وهو رجل علم ودين ويأخذ صيته في البلدان عبر علمه وتكريمه للعلماء وصيانتته للكتب والكتّاب. "هل تحفظ يا سليمان أبيات شعر الخليفة الناصر في حبه للعميران؟" أنشدت:

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها	من بعدهم فبالسن البنيان
أو ما ترى الهرمين كم بقيا	وكم ملك محاه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاضم قدره	أضحى يدل على عظيم الشأن

"وأنت يا سعيد، أخبرنا متى مات الخليفة الناصر وكم كتاباً في مكتبة الخليفة الحكم؟"

"توفى الخليفة، رحمه الله، يا جدّي يوم الثامن من رمضان المبارك سنة ثلاثمائة وخمسين هجرية، يعني قبل عشر سنوات واثنين وعشرين يوماً. أما مكتبة الخليفة الحكم فإنها تضم أربعين ألف كتاب. مدير هذه المكتبة الأميرية هو أخ الخليفة عبد العزيز، وأخوه المنذر يشرف على التعليم في قرطبة صانها الله".

أثنى جدّي علينا ودعا لنا ولأخواتنا الثلاث ولآبائنا بطول العمر، ورفع صوته وهو يدعو الله أن يرزق عمي عيسى بنت الحلال. أمسكنا ضحكاتنا حتى لا يغضب عمي الذي يدّعي أنه لا يريد الزواج، ولكننا نعرف أنه يحب فتاة نصرانية تسكن في ريبض شقنده المقابل لقرطبة على الضفة الأخرى للوادي الكبير، وعليه إقناعها أن تسلم قبل أن يسأل جدّي رسمياً بالذهاب لطلب يدها من والدها. سبب الضحك يعود لاسم حبيبة عمي، وهو ماري خسوس. وهذا اسمٌ مركّبٌ ومنتشرٌ بين فتيات النصارى ويعني سيدتنا وسيدنا؛ مريم وعيسى عليهما السلام، وعندما غاب عيسى اليوم لوهلة عن بيت عمي تساءلت خديجة فيما إذا كانت الحبيبة، عندما تسلم، ستختار اسم مريم أو أم عيسى، إذ لا يجوز تسمية أنثى عيسى، فضحك الجميع حينها للطريقة التي طرحت فيها السؤال بمزيج من الطيبة والجد، وسألها عمي عباس ألا تفتح هذا الموضوع بعد الآن.

بعد صلاة العصر استأذن أبي بالعودة وطلب بغلتين من قرب سوق الزهراء لتحملانا إلى بيتنا داخل سور قرطبة. ركبت أمي على بغلة بسرج مزدوج مخصص للنساء. وهذا السرج له ظهر قصير وراجلتان من جهة واحدة إحداهما أقصر من الأخرى لتضع الراكبة قدميها فيها. الغرض من هذا التصميم ألا تجلس النساء على الدواب مثل جلوس الرجال، وكنت أعجب بأمي وأتعجب كيف تصمد على ظهر البغل دون أن يكون لساقها دورٌ في الحفاظ على التوازن، فلم أشاهدها تقعُ أبداً حتى ولو ركضت

الدابة تحتها. وضع أبي فاطمة خلف أمي على مؤخرة البغل، وركبت خلفه على البغل الآخر وسرنا متجاورين وصاحب البغال خلفنا على حمار حتى يعود بدوابه بعد توصيلنا، وقد حملة والذي كيس الخيش وبه لفات من اللحم المحفوظ في ورق شجر الموز، ونال الحمار لفةً منها عندما أوصلنا لباب البيت.

خرج أبي لصلاة المغرب وحمل معه الكيس وبه معظم لفات لحم الخروف ليوزعها على بعض المحتاجين الذين يتواجدون في مثل هذه المناسبات حول الجامع. حملني أربع لفات لأوصلها إلى جيران يهود يعرفهم، وذكّرني أن أقول: خيركم كثير، هذا شيء من خروف العيد المبارك لتشاركونا الفرحة. لم يكونوا من الفقراء، ولكن لأبي علاقات عمل وصداقات معهم تسمح له بإرسال اللحم الطازج دون أن يخرجهم الأمر. أتذكر أنه في مناسبات غير احتفالية كنا نشترك مع جيران يهود في ذبح خرفان أو ماعز والاشترك في ثمنها بالدفع حسب توزيع الحصص. أحيانا كان جار مسلم، وأحيانا أخرى كان يهودي يقوم بعمل الذبح والسلخ والتقطيع والتوزيع وجمع الدراهم التي دفعت في ثمن الذبيحة. أوصلت أمي أيضا لفة لحوم إلى جيراننا الملاصقين وهما ماري وخوسوس.

مرت أيام العيد مريحة وجميلة وسريعة أيضا. خفّت زياراتي للحوانيت لابتياح الحلوى والمكسرات. رويداً رويداً عادت الأعمال حول الجامع وفي الدروب المحيطة إلى طبيعتها، وحملني خالي رمضان بعض السمك المملح والمنشف وغيره المدخن إلى بيتنا كلما مررت طرف باب الجوز بالقرب من مخزنه. خالي رمضان يملك مصنعاً للسمك في مالقا. هناك يشتري عماله السمك من الصيادين النصارى، ويصنعونه حسب النوع والموسم وينقلونه على ظهور البغال إلى مدن الأندلس وإلى القرى الواقعة بين المدن، وبالطبع إلى مخزن خالي في قرطبة حيث يشتريه منه العامة وأصحاب الحوانيت في الأرباض بنفس السعر. كنت أتقبل أكل السمك المدخن، ولكن سمكي المفضل هو النهري المقلي بالزيت مع

الطحين. السمك المملح كانت أمي تضيفه للسلطة، والمجفف تصنع منه شوربات، أو تطبخه مع السبانخ والحمص والزعفران. أحيانا كانت أمي ترسلني ببعض هذا السمك إلى بيت جيراننا النصارى، الذين يفصلنا جدار مشترك عنهم، ماري وزوجها خوسوس الذي يعمل في تجارة البيض وكان يزودنا بالطازج منه بين الحين والآخر. كان أبي يحترم خوسوس بشكل واضح كونه نشط في عمله الذي يستغرق معظم يومه، ولكنه أيضا كثير المطالعة للكتب وملم بالمعلومات العامة والتاريخية، يتقن العربية واللاتينية ولغتنا الدارجة. زوجته أيضا كانت محل تقدير منا جميعاً رغم ابتعادها عن عالم الكتب وتقربها من عالم التنجيم، لكنها كانت صافية القلب تسبب الابتهاج لكل من يستمع إليها.

مثل خالي رمضان فعمي عباس هو الآخر يملك مخزناً كبيراً، لكنه للقطين ويقع في ربض شقنده جنوب قرطبة والنهر. لم يتواجد عمي هناك إلا قليلاً إذ يكثر سفره إلى مالقا سواء ليشرف على مزرعتنا هناك، أو ليتضمن أراضي غير القريبة من المزرعة؛ والتي تضم أفضل تين في الأندلس، أو ليتابع نمو الشجر وريه ثم قطاف الثمر في مواسم ضيقة تحتاج لجهد الكثير من القطاف ليل ونهار. هذا التين يجفف في أحواض مصنوعة من الحجر، ويوضع فوقه طبقات خفيفة من الخشب ليضغط أثناء التجفيف لأسابيع من الصيف، ويشك في حبال رفيعة ويعاد رصه في أقمشة خيش وصناديق دائمة التهوية لتحمله المراكب وقوافل الجمال إلى بلاد العدو والقيروان ومصر والشام والعراق والحجاز واليمن وخراسان. حتى بلاد الهند والصين كانت تشتري قطين عمي عباس عبر وكلاء وتجار قوافل وقباطن سفن. كانوا أحيانا يشترون القطين ويدفعون ثمنه في مالقا، وأحيانا أخرى يبادلون القطين بأقمشة من الصين وبهارات وشاي من الهند.

لم أغامر كثيراً بالذهاب إلى شقنده إلا إذا كنت أعرف بوجود عمي هناك، أو إذا ذهبت مع جدّي الذي تعب كل مرة زرنا بها شقنده وهو يحاول أن يجيب عن سؤالي، لماذا لا نصنع الخمر من التين، كما

يصنع أهل شقنده النصارى الخمر من البلح والعنب؟ كانت إجابته تدور حول الحلال والحرام واستثناء بعض الفقهاء للبلح واختلاف الرأي بينهم في تخمير العنب، ولكنه كان يحسم الأمر بأن شرب الخمر مضر وبأن أرباح عائلتنا من تجارة التين أجدي مادياً ودينياً من صنع الخمر.

سفيراً لعمي

في صباح اليوم الخامس للعيد صحبت أبي إلى فضاء الجامع وحديقته التي سير فيها الخليفة الحكم الماء قبل أربع سنوات عبر مواسير تحت الأرض أوصلها إلى أماكن الوضوء والشرب والري. في أركان داخل الجامع المسقف وجدت ثلاث مدارس لتعليم الفقراء بالمجان بعد أن منح الخليفة المعلمين أجراً شهرياً تدفعه لهم دار الصدقة التي أقيمت غربي الجامع. مجموع مدارس تعليم الفقراء مجاناً بلغت سبعاً وعشرين، ثلاثٌ هنا في المسجد الجامع، ومدرسة في كل مسجد ربض في قرطبة حتى لا يتكفل الطلاب عناء الانتقال.

حول الفضاء الداخلي وحديقة المسجد المغروسة بالبرتقال يوجد بناء مغطى، ظهره السور وأمامه الحديقة والجامع، وفي الجهة الشرقية منه تعمل في الظل عشرات النساء النساخات للقرآن الكريم، إضافة إلى نساخات يعملن من منازلهن، ويبلغ مجموعهن سبعين؛ لا عمل لهن سوى نسخ القرآن الكريم، كما قال أبي. تلك النسوة كن هدف والدي ذلك اليوم، أراد معرفة أجرتهن، والتعرف على أجودهن خطأً والسؤال عن نساخات غيرهن ربما كن يعرفهن.

عرفت تدريجياً ولاحقاً أن تلك الزيارة والأحاديث التي أجراها كانت بداية لتوسيع عمل أبي في صناعة نسخ الكتب التي زاد الطلب على كل أنواعها وقل المعروض للبيع منها. الآن وبعد التوصل للقلم بدون محبرة وتصنيعه لصالح أبي، ومع توفر مصانع إنتاج الورق الأبيض في قرطبة، وجودة أنواع الحبر المصنعة، رأى والدي فرصة طيبة لزيادة إنتاج نسخ وتجليد الكتب المستوردة من الشرق والأخرى المؤلفة من

علماء وأدباء وأطباء وشعراء الأندلس، وتغليفيها برونق جيد يرفع قيمتها النقدية في عيون الذين يجمعون بيوتهم بالمكتبات الخاصة. إتفق مع أخواته الثلاث في زيارتهن الأخيرة على مشاركته في المشروع عبر النسخ من بيوتهن وتعليم بعض الفتيات لهذه المهنة للتوسع في الإنتاج لاحقاً، وطلب منهن استشارة أزواجهن. أخبر والدي أيضاً مُدرسي اليتامى وشيوخاً في الجامع أنه يبحث عن خطاطين وسيفتح محلة في قرطبة قريباً تجمعهم لممارسة المهنة فيها.

بمحاذاة الجزء الشمالي الداخلي لسور الجامع كان الشيوخ والمربون يلبسون البياض ويجلسون في حلقات مع طلابهم، ويتوزعون حسب السن ومكانة العلم والتخصص. استفسرت من أبي عن سبب اختلاف هيئة بعض الشبان هناك، فأبلغني أنهم أجانب، بعضهم من الشرق، ولكن معظمهم من ممالك النصارى الشمالية، والقسطنطينية وروما وبلاد الفرنجة والبريطان. "قريباً سيكون لك اطلاع أوسع على حياة هذه الجامعة التي خرجت مشاهير الأندلس، ففي القريب ستبدأ في تلقي علومك هنا". قال والدي ذلك وأخذ يعدد لي مراحل التعلم، من إتقان حفظ القرآن، وتعلم الكتابة، وجودة الخط، ثم الاختيار لاحقاً بين الآداب والعلوم الفلسفية، أو الخوض في مجال الرياضيات والهندسة، أو الصيدلة والطب.

"جار جدك، الطبيب الزهراوي فائق الصيت في إجراء العمليات الجراحية والذي يعود المرضي من أمراء وملوك الأرض، تعلم هنا، ومثله أطباء يهود ونصارى تعلموا في الجامع واشتغلوا في خدمة الأمراء والخلفاء. حتى عباس بن فرناس، الذي أعجبتك محاولته للطيران، تعلم الكيمياء وبلورة الزجاج هنا. هذا شرف كبير وفرصة ممتازة يا سليمان أن تسكن إلى جانب هذا الجامع وتتعلم فيه إن شاء الله".

لم أشأ طرح أي سؤال على والدي قد يُفهم منه أي تردد، ولكنني كنت متشوقاً إلى زيارة هشام مع جدّي والتعلم في أجواء قصور الزهراء

أيضا. تمنيت لو أن قرار أبي ببدء إرساله للجامع لن يتعارض مع زيارتنا الأسبوعية إلى الزهراء.

عدت مع أبي للبيت ظهراً ووجدنا جدّي وعمي عيسى هناك، فقد كانا في زيارة استطلاع لمخزن القطين في شقنדה. عرفت أن جدّي سينام في بيتنا لتوجهه في الصباح من هنا إلى الزهراء في أول زيارة خميس لنا للأمير هشام، وقال عمي إنه يحتاج مساعدتي بعد القيلولة، وتمنى على أمي أن تلبسني هنداماً جديداً. لم يوضح لأحد لماذا يحتاجني وما هي المهمة، ولم يسأله أبي أو جدّي أو أمي عن شيء، ولكن فاطمة سمعت بالأمر ولم يُهدئ من إصرارها على الذهاب معي سوى تعهد جدّي أنه سيأخذها معه إلى زيارة فندق زوج عمتي لتتفرج على الناس الغرباء ودوابهم.

في الطريق إلى شقنדה وقبل أن نقطع القنطرة انتهى عمي من شرح المهمة. سأحمل سبتاً صغيراً مليئاً بالنامورة الطازجة لأوصلها قبل أن تبرد إلى بيت ماري خسوس، وسأخبر من يفتح الباب أن هذه هدية من عمي عيسى لماري وأهلها، وعلي الإشارة أنه سيسافر قريباً إلى مالقا. إذا دعوني للدخول فلا بد أن أصر أنني لن أدخل بدون وجود عمي الذي ينتظرنني في المخزن، وإذا لم يعزموني فعلي سؤالهم إذا كان بيتهم من الداخل مثل بيتنا، وحينها سيدعونني للدخول فأتمنع عنه بدون عمي. طمأنني عيسى أنه سيكون خلفي باستمرار ولن يبتعد كثيراً عن بابهم حتى أصل هناك، وأخذ يعيد ويزيد عليّ كيف أتصرف وماذا أقول وألا أقع في خطأ قول إن عمي قال كذا وكذا. رغم شهرته بالجرأة وعدم مبالاته بالمهام والصعاب، بدا لي عيسى مضطرباً بعض الشيء، وظننت أنه خائف أن يكشف سرّه ويعرف أهل ماري أنه دبر قصة عدم دخولي بدونه. قلت له ألا يقلق ووعده تنفيذ المهمة بجدارة.

طرقت الباب بعد أن تخفى عمي في زاوية الشارع، وفتح لي رجل أشقر، عريض الكتفين، قوي الساعدين، لبس جلباباً بدون أكمام، ونظر إليّ من ارتفاع بعيون زرقاء.

"أهلاً وسهلاً، بيت من تريد؟"

"بيت أهل ماري خسوس، أنا سليمان، وعمي عيسى يرسل لكم هذه الهدية لأنه مسافر إلى مالقا قريباً".

"وهل جئت لوحديك يا سليمان، أين عمك؟"

نظرت لزواية الشارع خوفاً، بل تمنياً أن أرى عيسى الذي لم يحذرني من ضخامة هذا الرجل أو التلميح باحتمال وجوده هنا، ولكنه بقي متخفياً. "عمي ينتظرني في المخزن.. وقبل مواصلة الحديث جاءتني النجدة من خلف الرجل على هيئة ملاك بجلابية بيضاء تخفي جسداً جميلاً وكبيراً ولكنه في غاية التناسق، ويبدو أنها سمعت ما قلته.

"أدخل يا سليمان، ماذا تحمل معك، هل هو لي؟"

"إذا كنت ماري خسوس، فهو لك من عمي عيسى. ولكنني لن

أدخل إلا إذا كان عمي معي".

في تلك اللحظة كان الرجل يحملني مع ما أحمله ويقطع بنا ساحة المنزل إلى وسطه حيث نافورة مياه ومقاعد رخامية.

"إذا أنت ابن قريب القلعي، وعمك عيسى، وجدك خالد". لم

ينتظر إجابتي، وجلست ماري بجاني وهي تفتح الهدية، وتبدي الإعجاب بلباسي وتشكر على حضوري، وأبلغتني أن هذا هو والدها، وأنها شاهدتني أكثر من مرة قرب بيتنا، وأنها تشتري أشياء من دكان خالي. إذا فهي تعرف كل العائلة، وأنا لست غريباً هنا، ومع ذلك لم يذهب قلقي لأن عمي ينتظرني في الشارع، وخفت أن أخطئ في القول إذا أصبروا على سؤالي. قلت لنفسي مشجعاً: إنني كالوزير الغزال، في مهمة من أمير مسلم عند النصاري، ولا بد من الشجاعة والتروّي والنجاح في المهمة.

"سأحكى لك قصة لأختبر ذكاءك" قال أبو ماري. "يعرف أهلك

أنني صاحب منجم النحاس في السيرو مورينو، إستأجرته من كاتب الخليفة أطل الله عمره، وأدفع قيمة عُشر المستخرج. في الأسبوع الماضي طلب مني مسؤول العمال أن أحل له مشكلة ثانوية وقعت بين

أربعة منهم. هل أنت فاهم يا سليمان ما أقول؟" هززت رأسي بالموافقة ونظرت لماري خسوس وقد تحركت لصنع المشروب، فقد خمنت أنني لن أخرج من هنا قريباً.

"قصتهم، أن الأربعة يسكنون بالقرب من المنجم في دار صغيرة بها ساحة وغرفة واحدة، ويشتركون في توزيع الأعمال وتحمل التكلفة بالتساوي. ثلاثة منهم اتفقوا على شراء فوانيس للإضاءة تسهل عليهم العمل والحركة في البيت بعد حلول الظلام، ولكن الرابع لم يوافق، وبالطبع يرفض دفع نصيبه من ثمن الفوانيس أو الزيت، ويقول إن ذلك لم يكن ضمن الاتفاق الأصلي. الآن أعطيني أنت الحل لهذه المشكلة".

هذه مشكلة تشبه تماماً أحداث قصة ذكرها لي جدي، هل الرجل يعرفها أيضاً. سألت نفسي، وتمنيت لو لم يكن يعرف بالقصة لأنني سأعطيه حلاً لا يهتدي إليه إلا رجال كالغزال. تلملمت في جلستي وعدلت من قيافة جلبابي المقصب بخيطان كالذهب، وتذكرت أنه مسيحي فقلت: صلي على المسيح. ضحك الرجل بصوت مجلج وقال: "عليه السلام".

"هناك أكثر من حل. يمكنهم طرد العامل الرابع والبحث عن ساكن غيره، أو يخرج الثلاثة ويتركوه لوحده، ولكن هذا يتعارض مع اتفاقهم الأصلي. يمكن أن يدفع الثلاثة ثمن الفوانيس والزيت لوحدهم، ولكن هذا سيظهر الرابع كمنتفع بالمجان ومنتصر عليهم. الحل الأمثل هو أن يربطوا عصابة على عيون الرابع كلما حل الظلام، فلا ينتفع بضوئهم، ولا يشعروا بمغبة واستغلال". مع نهاية حديثي كان الرجل يضع يديه على معدته من شدة الضحك وكاد أن يقع في مياه النافورة.

عندما استعاد الرجل تمالكه ووصلت ماري تستطلع سبب انبساط والدها بهذا الشكل، تأكدت أنه لم يسمع بالقصة الشبيهة التي أعرفها من جدي، فلو عرفها لكانت ردة فعله أقل من ذلك بكثير. "أريد حفيداً ذكياً مثلك. قبل أن تنتهي ماري من إعداد الشراب أذهب وأحضر عمك حتى تزورنا وإياه حسب طلبك على الباب".

إحمر وجه ماري خسوس وهي تسمع والدها يتمنى حفيداً مثلي،
ومن عمي عيسى طبعاً. وبسرعة البرق كنت خارج بابهم أنعطف للزاوية
التي ينتظرنني بها عيسى، ولم أشعر إلا بأنني في الهواء بين يديه، ووجهه
مقابل وجهي تماماً.

"هات الحلوان؛ أبوها وافق على الزواج بشرط أن تنجب له حفيداً
مثلي" قلت لعمي، الذي أنزلني على الأرض ووجهه يمر بكل الألوان
والتعابير المتضاربة.

"ماذا قلت وفعلت يا مجنون، أرسلتك توصل هدية، لا أن تخطبها
من أبيها وتتفق على الإنجاب". طمأنت عمي وشرحت له ما جرى
بسرعة، وأخبرته أنهم بالانتظار والشراب جاهز.

"آه يعني ضربة حظ معك، ونفعتك واحدة من قصص جدك.
سيكون لك الحلوان الذي تريد. إذا اتفقت مع أبيها على الزواج وقبلوا
أن تسلم، أعدك أن نفرح سوياً، وأن ننف سوياً، أنا أزف لحبيبتني،
وأنت تزف للمطهر". لم أكن أتوقع من عمي رد الجميل بهذا التهديد،
وسألته عن فرصة التحول إلى النصرانية. "هل تخاف إلى هذه الدرجة من
قطع جلدة لحم صغيرة، ومن تجربة يمر بها كل المسلمين واليهود؟"
"نعم أخاف لأن صمويل جارنا حكى لي عن عذاب وأهوال مر
بها، كيف كتفوه، ووضعوا الكماشة على قضيبه، وقطعوا بالموسى. وقال
إنه لم يستطع التبول لأيام نتيجة الورم".

"فكر في الزفة إلى جانبي كعريس، وغناء المسلمين والنصارى
لك، والهدايا التي ستصلك، وستصبح رجل تنظر البنات إليك بعيون
أخرى". وصلنا الباب وأنا أفكر في نظرات البنات التي ستتغير تجاهي،
لابد من تحين الفرص لاستكشاف الأمر من عيسى الذي نجح في
الوصول إلى غايته.

جلس خمستنا في الصالون، ماري التي وضعت عباءة حمراء فوق
جلبائها، وأمها وأبوها وعمي وأنا. عرفت لاحقاً أنها كانت وحيدة
والديها، وأن حبها لعمي وخططهما لم تكن خفية عليهما. عمي لم يزر

منزلهم قبل الآن وكان يلتقي ماري في نزعات خارج البيت. لقد تحدث أبوها طويلاً عن محبته لابنته وتمنياته لها بالسعادة، وعن معرفته بأخبار ومكانة عائلتنا، وقال إن كل أمواله ستكون تحت تصرف ابنته في يوم ما، وأنه مستعد للمشاركة عبرها مع عمي وإخوته في أي مشروع. شكره عيسى وأكد له أنه سيصونها، وأنها لن تحتاج مالا، وأن خيرنا كثير والحمد لله، وإذا احتاج مستقبلاً فلن يتوان في الطلب. لكن المفاجأة الكبرى التي أبكت عمي في بيتهم كانت قرار والدها ووالدتها ألا يتركاها تذهب للإسلام وحيدة، وقرروا أن يسلموا جميعاً. لم يكن الأمر غريباً جداً إذ تحركت موجة أسلمة أكثر من المعتاد بين النصارى منذ منتصف عهد الخليفة الناصر للآن، لكن بالنسبة لعمي ارتبط الأمر بحب والديها بها وبقرارهم، فشعر بأنه يكسب عائلة كاملة.

في ظهر يوم الجمعة وبعد الصلاة زحفت عائلتنا على حي شقنودة. جدّي وستة من أولاده وبناته وخمسة عشر من أحفاده، وأزواج بناته، وزوجات أولاده، وأخوالي الثلاثة، وخالان لأولاد عمي عباس، تحركنا إلى بيت نساءنا الجدد. كنا بكامل اللباس الرسمي، من عباءات مذهبة وتحتها دمايات مطبقة على الأجساد، وحطات بيضاء يضمها على الرأس أحزمة قماشية، وأحذية من الجلد اللامع. وكانت النساء بثياب بيضاء مطرزة على الصدر، وبعضهن بأغطية رأس من الحرير الأخضر. ولبست مثل سعيد، جلباباً أبيض يحيط بأكامه وأسفله شريط ذهبي نقش عليه اسم كل منا واسم أبيه وأسماء الأجداد التسعة الذين عاشوا في الأندلس منذ فتحها.

في الصباح وقبل التوجه لشقنودة، أرسلنا عشرة خراف وأكياس من الأرز والخبز المرقق وكل لوازم عمل الثرائد من لبن وبهارات، وثلاثة طبّاخين ليجهزوا الطعام بمعرفة والد ماري، الذي خصص لهم مكاناً مناسباً في الحديقة. بعد غداء المدعوين سيوزع الطعام المتبقي في الحي بمعرفة أهل العروس. كان عمي عيسى قد أخبر والد ماري بذلك سلفاً وأن أهل الخطيب يتولون في العادة إعداد هذه الوجبة، ورجاه أن يدعو

من طرفه من يريد لحضور الخطبة وتناول الغداء بعد ذلك، وأخبره أن جدّي سيتولى شأن انضمام العائلة للإسلام بعد الخطبة وقتما وافقهم ذلك، أما العرس فسيحدد مواعده بعد رجوعه من مالقا.

إنتهت مراسم الخطبة بسرعة وسهولة دون حديث عن أسلمة أو الفيد المطلوب من أهل العريس أو المقدم والمؤخر. قال جدّي قبل تناول فنجان من القهوة السادة المرة: "لن نشرب قهوتنا قبل الاستجابة لطلبنا". ولم يكن أي واحد من طرفنا قد شربها، والقهوة قدمت أولا لجددي ووالدي وعمي عباس.

رد والد ماري خسوس، "إشربوها.. طلبكم مجاب". فشربت القهوة وزغردت أمي وعماتي وزوجة عمي وأم ماري، وأخذن بشدو الأشعار القصيرة، وكلما انتهت واحدة من قصيدتها ردت عليها الأخرى بالزغاريد، حتى تبدأ أخرى بشعرها. بالطبع كانت القصائد كلها إنتاج عفوي فوري تتغنى بوسامة وشجاعة وأصول عمي وبجمال ماري وكرم أهلها وحسن تربيتها والترحيب بها في صدر عائلتنا. وقد ذكرت أمي إسمي في واحدة من هيهوياتها، فنظرت لعمي وكدت أتحمس بين فخذي. وبينما النسوة في غاية الانشراح وانفراج العقيرة في الصالون المفتوح على صحن الدار الذي جلسنا فيه، قرأ الرجال الفاتحة. لم يترك عمي عيسى وماري خسوس للأهل على الطرفين أي فرصة للحوار والجدال وتخريب المخطط عبر صدفة أو غلطة أو سوء فهم، فقد رتبا كل الأمر منذ زمن على ما يبدو، وأقروا بقية التفاصيل يوم الخميس، ولم يكن أمام الأهل يوم الجمعة سوى قول آمين.

في دار الملك

بالطبع لم أحفظ كل تلك التفاصيل للأحداث عندما كنت طفلاً يوم وقوعها، ولكنني عدت، بمساعدة جدّي قبل أن يتوفاه الله برحمته، إلى تسجيل هذه الذكريات بعد أن أحسنت الكتابة وعمري عشر سنوات. أعاد جدّي الصياغة لما تذكرناه وأملاه عليّ وأنا أخطه. آنذاك أطلعني جدّي تدريجياً على سر العائلة بتسجيل التاريخ بعدة صياغات، الرسمية العلنية، ورؤيتنا الخاصة لما يدور؛ والتي لا نطلع عليها أحداً من خارج الموثوق بهم في العائلة حتى لا نجلب الموت أو النفي لأنفسنا والشقاء لمن نحب.

بالعودة لأحداث عام 360 هجرية التي أثرت في كياني أقول، إن يوم الخميس في نهاية أسبوع العيد كان موعد اللقاء مع الأمير هشام في الزهراء. غادرنا منزلنا في قرطبة صباحاً إلى منزل جدّي الذي عكف هناك لساعات على مراجعة كتب عديدة من مكتبته، ودوّن ملاحظات مستعملاً أحد الأقلام الجديدة التي أحضرها والذي من إشبيلية. صلينا الظهر في مسجد الزهراء وصعدت مع جدّي إلى دار الملك التي خصصها الخليفة لتعليم ابنه ولقائه بالمربين، وهي أيضاً ملتقى العلماء منذ سنوات. قال جدّي ونحن نصعد السلالم ببطء: "في دار الملك كان شيخنا أبو علي القالي يلتقي كل يوم خميس طلبته من أمثال القاضي ابن المنذر وأحمد بن أبان والقزاز والقاضي ابن مغيث، ويملي عليهم كتاب الأمالي الذي ألفه للخليفة الحكم وأزاد عليه حتى وصل إلى عشرين جزءاً. عندما جاء القالي لقرطبة عام 330 من بغداد أحضر معه دواوين كثيرة لم تكن موجودة عندنا. هنا نزل أيضاً أبو سليمان الهواري مهاجراً من الشرق

وأكرمه الخليفة ليسهل تفرغه للعلم. وفي دار الملك وجدت حلقات الترجمة ومقارنة الكتب بواسطة أشهر علماء الأندلس".

توقف جدّي بعد صعود الدرجات على بداية الطريق المؤدي لدار الملك بمحاذاة الحديقة. إلتقط أنفاسه وواصل الحديث ونحن نسير إلى هدفنا: "عندما خرج الحكم لغزوة قبل ثماني سنوات، تخلف ابن الصفار عن مرافقته وتعلل بضعف جسده، فخيره الخليفة بين الخروج وبين البقاء في قرطبة وإنما بشرط إعداد كتاب يضم فيه شعر الخلفاء الأمويين في المشرق والأندلس. طبعاً قبل ابن الصفار بالأمر، وحينها خيره الحكم أن يبقى في بيته أو ينتقل لدار الملك لإتمام الكتاب، فاختر الحضور إلى هنا للاستفادة من المكتبة وجمع الأشعار منها، وليضمن الانقطاع والتفرغ دون الزائرين والمترددين إلى بيته في قرطبة".

أمام باب مبنى دار الملك وقف حارسان صقالبة من خاصة الخليفة، يمسكان بالرماح المزركشة في وسطها ومقدمتها، ويعتمران قلنسوات حمراء تحيط بها عمائم من قماش أخضر، ويحميهما من حرارة الشمس معرش قماشي قائم على أعمدة خشبية أمام الباب. حضر على التو صقلبي آخر وعاد معنا إلى الداخل واستأذن بالذهاب لإحضار الأمير هشام. بدا المكان متسعاً على الرغم من كثرة الأثاث فيه. كنبات فاخرة ووسائل ومقاعد جلدية وطاولات مستديرة صغيرة وأخرى كبيرة ثقيلة بأرجل منقوشة بالزهور وأوراق الشجر. بدا المكان المفتوح على بعضه وكأنه مقسم إلى عدة مجالس بين الأعمدة والأقواس، كل قسم يحتوى على كراسيه وطاولاته وخزانة خشبية تضم عدة رفوف خصصت للكتب. الصورة الأشمل كانت للمكتبة التي غطت كل الجدار الشمالي ونصف الشرقي. أعطت النقوش القرآنية على الجدران والسقف جواً يهيمن عليه العلم والتعلم والأدب والمطالعة.

وقف جدّي فجأة وخرجت عن تأملاتي ناظراً باتجاه القادمين، فإذا بهشام إلى جانب والده الخليفة وخلفهم الصقلبي يقتربون منا، تحرك جدّي إليهم وسلم عليهما وفعلت مثله. لو كنت لوحدي لما تعرفت على

الحكم من النظرة الأولى رغم أنني شاهدته يوم العيد، ولكنه الآن بملابس عادية تظهر ذراعيه الضخمتين العاريتين. كان صوته قوياً وعالياً وهو يسأل جدّي عن أحواله بنبرة عتاب كونه قلل من زيارته بعد الانتهاء من عمله في مكتبته عندما كان ولياً للعهد. تحجج جدّي بكبر السن وتوسع المكتبة، وأبلغ الخليفة أنه سيرى الأمير أسبوعياً.

كانت نتيجة تلك المقابلة إلزام جدّي بإعداد كتاب للحكم عن شخصيات الأندلس، والتزامه بدرس أسبوعي للأمير هشام، وتكرار زيارتي للأمير سواء مع جدّي أو بدونه. غادر الخليفة المكان فجأة دون هدر وقت في الوداع والتسليم، وبقي ثلاثتنا في الركن الشمالي الشرقي، وعلى مقربة منا وقف صقلبي يراقب الأمير وينتظر تقديم أية مساعدة.

"يسعدني يا سمو الأمير أن أقص عليك من تاريخ الأندلس وأجدادك. هناك الكثير من الكتب التي ألفت في هذا المجال وتضمها مكتبة والدك حفظه الله، ومنها كتاب ألفه لوالدك العالم المشرقي الشهير أبو فرج الأصفهاني، وأرسله من بغداد إلى قرطبة مع النسخة الأولى من كتابه "الأغاني". هذه الكتب ستكون في متناولك عندما تتمكن من القراءة قريباً إن شاء الله. ولذلك سأروي لك عن أصول وأعمال أجدادك في الأندلس بإيجاز. وبالطبع سأروي لك أيضاً ما تود معرفته من شؤون الأجداد في الأدب والشعر أو الحرب والغزوات والسفارات، أو الأنساب والعلاقات بين النصارى والمسلمين. سأروي لك ما هو مفيد وما تريده إن شاء الله".

"وأنا أيضاً عندي روايات سأقصها عليك وعلى سليمان. أريد أيضاً سماع الأخبار من طرف والدتي". قال هشام، وتبسم جدّي ثم أخبره أننا سنسعد بالاستماع لقصصه وستضاف إلى قصص الخلفاء والأمراء.

"سأطلعك أيضاً على روايات من حياة الباسك، حيث مولد والدتكم الكريمة أطل الله عمرها". وواصل جدّي الحديث مستجيباً لرغبة الأمير هشام. "قوم الباسك أشداء أوفياء ولكن مراسهم صعب. على مدار التاريخ، أيام الروم والقوط، كان الباسك يرفضون الخضوع

للسلطة المركزية. وعندما وصلهم الفتح الإسلامي أسلم قوم منهم وتولوا إدارة المنطقة الجبلية على جانبي جبال البرانية. كان بعضهم يشارك العرب في الغزوات على بلاد الفرنجة أيام الولاة السمع والغافقي رحمهما الله، وذلك قبل مائتين وخمسين عاما. بعد خمسين عاماً من ذلك، وفي أيام جدكم عبد الرحمن الاول، وهو أول من دخل الأندلس من أمراء بني أمية الشاميين، في أيامه هجم الملك الفرنجي شارلمان على سرقسطة، حفظها الله، ولكنه عجز عن اقتحامها وارتدت جيوشه عنها قبل وصول جدكم من قرطبة. لكن جدكم الأمير أرسل للباسك بالسلاح وبالمساعدة قبل خروجه من قرطبة، وعندما انسحب الملك شارلمان من ممر رنسفالة في جبال البرانية، هاجم الباسك، أجداد والدتكم الكريمة، مؤخرة جند شارلمان في الممر، وساعدهم عرب من أولاد سليمان بن يقظان، وقتلوا الكثير من الفرنجة ومنهم القائد الشهير رولاند".

"أنا لم اسمع بذلك من قبل. لكن منطقة الباسك الآن نصرانية وليست من أرض الإسلام".

أيد جدّي كلام هشام وأوجز له أن السيطرة الإسلامية تراجعت عن شمال ايبيريا، وأن المنطقة من برشلونة على البحر شرقاً حتى شانت يعقوب والمحيط غرباً تتداولها ملوك عدة من النصرانية، وأن الباسك جزء من جليقية. "منذ تجدد غزوات جدكم عبد الرحمن الناصر، رحمه الله، وفتوحات والدكم، أطال الله عمره، خلال الستين سنة الماضية عادت ممالك وإمارات الشمال كلها للطاعة، مثل ليون ونافار، وكفّت عن الهجمات على أرض المسلمين، ولعل سموكم شاهد السفير البرشلوني هنا عندما استقبله والدكم في شهر رمضان، إذ حضر بطلب لتجديد الصلح".

"متى خرجت برشلونة من أيدينا وكيف؟"

"أيام عهد الأمير الحكم الأول حدثت خلافات بينه وبين عميه سليمان وعبد الله، ونشبت ثورات في بعض بقاع الأندلس، وهكذا استغل شارلمان في أواخر عهده هذا الانشغال الأندلسي الداخلي،

وأرسل قوات احتلت برشلونة عام 190 هجرية الموافق 806 للميلاد. آنذاك ثبت فيها القائد سعدون الرعيني مدافعاً، ولكن الدعم لم يصله من قرطبة أو غيرها بسبب الخلافات، فسقطت برشلونة وأقام فيها شارلمان إمارة، لاماركا هسبانيكا، وضمّها إلى إمبراطوريته الفرنجية. أصبحت مدينة ثغورية ولكن ضد الأندلس بعد أن كانت لنا طوال مائة عام. بعض المؤرخين يقولون أيضاً إن الخليفة هارون الرشيد في بغداد تأمر مع الإمبراطور شارلمان على مهاجمة الأندلس، والله اعلم". أسرع جدّي في تدارك قصته لأنه لم يكن يرغب، كما قال لي لاحقاً، في بداية الحديث مع الأمير هشام عن الخلافات الأموية العباسية أو السنيّة الشيعية منذ بداية الدروس، وإنما ترك هذا الجانب حتى يسأله الأمير عنه. هكذا عاد لموضوعه الأول حول الاختلاط الأندلسي.

"نحن كعرب نفتخر بأصولنا، لكننا أيضاً نعتز بتسامح ديننا واحترامنا للغير ورغبتنا في الاختلاط. منذ أيام الفتح الإسلامي الأولى للأندلس تزوج العرب بالأندلسيات واختلطوا مع السكان. عبد العزيز بن موسى بن نصير فاتح البلاد، تزوج من ابلة التي سمّيت بأم عاصم، وكانت زوجة لذريق ملك القوط المهزوم. أم الأمير هشام، ابن جدكم الأول عبد الرحمن الملقب بالداخل، إسمها حلال وهي من البلاد التي تُسمى الآن جليقية. الأمير عبد الرحمن الثاني بن الحكم الأول بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، أنجب الكثير من الأولاد، أحدهم من طروب التي كان يعولها ويحبها جداً، وهي من الباسك. كما أن جدكم المباشر، الخليفة عبد الرحمن الناصر، رحمه الله، أمه اسمها ماريه، وعمه الخليفة الناصر هي الملكة طوطه والدة الملك شانجة. الملكة وابنها زارا قرطبة في عهد جدكم وعولج ابنها من أطباء قرطبة. كان يعاني من السمّنة المفرطة ويصعب عليه ركوب الخيل، فتهدد كرسيه حتى أنجده جدكم الناصر بالعلاج وبالسياسة وأقره على عرشه".

لم يزد جدّي في هذا المجال. آنذاك لم يكن هشام ولياً للعهد، ولم يُعرف إذا كان الخليفة الحكم سيختار أحد إخوته ولياً من بعده، أم

سيعطي الولاية لهشام. لو عيّن أحد إخوته العشرة لما كان ذلك غريباً إذا تولى الأمير عبد الله البلاد، بعد موت أخيه المنذر حين كانا يحاصران المتمردين في بربشتر. آنذاك أخذ عبد الله البيعة من الجند، وعاد بجثة أخيه لقرطبة، فاستكمل البيعة ثم دفن أخاه.

في سرده لقصة طروب، تملص جدّي من ذكر كل الحقيقة، لم يكذب، ولكنه اختصر حتى لا يجرح شعور الأمير هشام، كون طروب هي الأخرى جارية محظية باسكية وأم ولد. ومختصر قصتها أن الأمير عبد الرحمن الأوسط كان يحبها لجمالها ودلالها. ومما يُروى في ذلك أنها خاصمته يوماً وأغلقت بابها دونه، فأمر أن يغطى الباب بالهدايا النفيسة والحلي حتى إذا ما فتحته تقع تحت هذه الأثقال. وكان طيفها يلاحقه أثناء الغزوات فيكتب إليها الشعر. أنجبت طروب ولداً للأمير؛ اسمه عبد الله، وكان للأمير مائة وخمسون ولداً وخمسون بنتاً من نساء وجوارٍ عدة ومنهن مدثرة التي أحبها أيضاً وأعتقها وتزوجها، والشفاء، وجاريتها قلم الأديبة حسنة الخط وراوية الشعر.

أرادت طروب أن تضمن الولاية لابنها عبد الله، ولاحظت ميل الأمير ومن حوله إلى تولية الأخ الأكبر محمد ابن زوجته بهير. وبالفعل نالت طروب موافقة الأمير، لكنها خافت أن يتراجع تحت الضغط من الآخرين، خصوصاً وأن ابنها كان صاحب لهوٍ ولذات، كما أن الأمير طال به العمر وأصبح موته متوقّعاً. هكذا تأمرت مع خادمها الخصي نصر على دس السمّ للأمير قبل ان يغير رأيه. وصل الامر لعبد الرحمن في الوقت المناسب، فأمر نصر أن يشرب الشراب، فشربه وركض عائداً لبيته طالباً لبن الماعز الذي يشفي من السم، ولم يصله اللبن إلا بعد خروج روحه. وقد فرح بذلك الكثيرون ممن كان لا يكف عن أذيتهم وهو محتم بخدمته وطاعته لطرروب. كان ذلك في سنة 236 هجرية. مات الأمير بعد عامين من ذلك، وضاعت أخبار طروب بعد محاولتها تلك.

بدون شك أن جدّي لاحظ رغبة الأمير في معرفة أخبار بلاد وأصول والدته، وأنه شدّ انتباهه، فعاد للحديث عن نتائج الاختلاط،

راوي قرطبة

ولكن من ناحية اللغة هذه المرة، فقال للأمير إن العربية هي اللغة الرسمية والواجب على كل متعلم إتقانها كتابة وقولاً كونها لغة الأصول والعلوم والكتب. "لكن العامة في حياتهم الخاصة والأسواق يتحدثون الموزاراب، وهي لغة خليط من العربية والبربرية والايبيرية الرومانية، أي الرومانس. هذه الموزاراب تشكل جزءاً من خليط اللغات في ممالك الشمال النصرانية الصغيرة إلى جانب الفرنجية والجرمانية واللاتينية والباسكية. لديهم في منطقة برشلونة لغة، وفي الباسك ثانية، وفي جليقية لغة أخرى. اختلاطنا اللغوي في الأندلس انجح، فالجميع يتحدثون الموزاراب، والغالبية العظمى يتقنون العربية بمن فيهم نصارى، أو اليهود الذين يتعاملون أيضاً بالعبرية. لدينا أيضاً من يفهمون ويترجمون عن لغات أخرى مثل اللغة اليونانية، أو اللاتينية الفصحى، وعن لغات ممالك الشمال".

"نعم الصقالبة والحرس هنا يتحدثون فيما بينهم بالعامية، والعلماء والشيوخ في مجالس أبي، وفي الجامع يتحدثون اللغة العربية. أنا أتحدث باللغتين، ولكن أُمي لا تجيد العربية الفصحى، ولكنها تعرف لغة الباسك أيضاً".

"جدك الداخل، رحمه الله، وُلد في الشام، أبوه معاوية ابن الخليفة هشام ابن الخليفة عبد الملك، رحمهم الله. كانت والدة الأمير الداخل، راح، بربرية من قبيلة نفزة. وهو الذي متن أساس الاختلاط بالتزاوج ودأب على استشارة رجال البيوت العربية، التي اختلطت هي الأخرى مع الأندلسيين والبربر وفيما بينها. كل البيوت التي أنجبت الوزراء والقادة هي بيوت عربية الأصل وأصبحت أندلسية بالاختلاط، مثل أبي عبده، وبنو عبد الرؤوف، وبنو مغيث، وبنو شهيد والكثير غيرهم. تذكر الكتب أن جدك الداخل أرسل في بداية حكمة بطلب رجال من الأمويين من الشرق وسلّمهم المناصب والمسؤوليات، لكنهم حسدوه وطمعوا في حكمه وأنكروا الجميل، وهكذا اعتمد على الموالين ورجال الأندلس وإنشاء قوة من الصقالبة الذين اشتراهم صغاراً من تجار العبيد

وتعلموا العربية وأسلموا وانضموا للجيش والحرس. استمر هذا التقليد حتى الآن في عهد الخليفة والدكم حفظه الله".

مهّد جدّي لنهاية درس ذلك اليوم حين أخذ يتحدث عما ستكون عليه الدروس القادمة كل خميس، واستفسر من هشام عن العلوم الأخرى التي يتلقاها الآن. عرفنا أنها حفظ القرآن والشعر وركوب الخيل. أهدها جدّي أحد الأقلام الجديدة منوهاً إلى أن هذا سيفيده عندما يبدأ في تعلم أصول اللغة العربية والخط قريباً، وأخبره أنني سأشرح له كيفية ملئه بالحبر وتجنب أن يبلل الملابس عند حمله. لم أنتظر الإذن بالشرح وياشرت في الإيضاح للأمير هشام، وانسلّ جدّي إلى ركنٍ آخر في دار الملك تجمع به بعض الأدباء يتناظرون.

بعد وهلة قصيرة، تحركنا أثناءها إلى الحديقة وتجاوزنا مغطس السباحة وبركتي سمك، وجدت نفسي أمام أقفاص من الحديد بها حيوانات مفترسة سمعت عن أمثالها في القصص ولم أشاهدها قبل ذلك أو حتى أعرف بوجودها في بلادنا. لم يكن الأمير هشام بحاجة للتأمل في وجهي ليرى دهشتي واستغرابي في التفرج على الحيوانات في الحديقة، فكل من يزور المكان ينبهر من وجود هذه النماذج هنا، وينسحر في متابعة أشكالها وخواصها وتصرفاتها. نرى في قرطبة طيوراً داجنة وأخرى بريّة كثيرة تعودنا على منظرها، ونشاهد يوماً حميراً وخيولاً وبغالاً وكلاباً في الشوارع، وغنماً وماعزاً، وأنواعاً من الأبقار في المزارع وعلى ضفاف نهر الوادي الكبير. كما يخيفنا الكبار بوجود ذئب وضباع وخنازير بريّة تسرح ليلاً. لكن الأسود وفيلة وزرافات ونمور فلا نعرفها إلا من القصص عن بلاد بعيدة. شرح لي هشام عن أنواع الفيلة والفوارق بين الأفريقي الصغير كالنوع المستضاف في الزهراء والنوع الهندي الضخم، وقال إن معظم هذه الحيوانات نُقل من أفريقيا كهدايا لجده ووالده، وبعضها الآخر اصطيد في بقاع الأندلس. كانت الحيوانات المفترسة في أقفاص متجاورة بينها جدران ولا ترى بعضها،

وشاهدت فيلين خلف سورٍ حديدي مرتفع، وأكثر ما شدَّ إعجابي هي الزرافة التي بدت لي مثل حشرة ضخمة.

لم نكمل الجولة إلى إسطبلات الخيول والجمال وأبراج الطيور، وعدنا باتجاه مغطس السباحة. عندما عرف الأمير أنني لا أعرف السباحة أبداً شبهني بالقاضي المنذر البلوطي، واستطرد في ذكر القصة. قال إن والده قد ذكر أمام والدته في بداية توليه للخلافة، أن قاضي قرطبة قد تسلط على والده الخليفة الناصر، رحمه الله، منتقداً إياه لهدر الوقت والمال في بناء مدينة الزهراء، وأن الخليفة الحكم تخوف من مواصلة القاضي النقد. "أخبرتني أمي أنها أشارت على والدي بفتح المجال أمام القاضي ليتمتع بمزايا الزهراء وحينها سيكف لسانه عن النقد. دعاه أبي ذات مرة إلى السباحة معه في المغطس، وأقنعه بخلع ملابسه والنزول للماء والتراشق مع والدي والخادم قبل حضور بعض الوزراء الذين شاهدوه وضحكوا لجهل القاضي في السباحة وشهدوا على استمتاعه بالزهراء". كان ذلك قبل ولادة هشام، وانتهى نقد القاضي ولم يعد يقرض الشعر أو ينمق الجمل في خطب يوم الجمعة ضد بناء الزهراء.

قسوة الأمراء

في طريق العودة للبيت، وقبل أن نبتعد عن القصر والمغطس، طلب مني جدّي مراعاة أمرين: الأول ألا أتحدث إلى هشام بكل ما أعرفه من روايات تاريخية، إذ عليّ مراعاة ما يمكن قوله للأمير لأنه قد يخبر أمه وأباه، وربما تكون العاقبة وخيمة لروايات غير منتقاة بعناية. والأمر الثاني، ألا أفشي للآخرين بما يحدثني به هشام، حتى لا تعود القصة للقصر محرّرة ومزيّفة وتضر بنا أيضا. "لسانك حسانك يا سليمان، إن صنته صانك، وإن أهنته أهانك". ثم أخبرني جدّي بقصة الأمير هشام الأول، الأحول، حتى لا أنسى ما قد تؤول إليه الأمور لو أفلت لساني أمام هشام الثاني.

سمع هشام الأول ابن عبد الرحمن الداخل أبيات شعر في مدح أخيه الأكبر سليمان حاكم طليطلة، نظمها أبو المخشي عاصم بن زيد الملقب بالأنصاري، فظن هشام أنها تُعرض به وتشير إلى حول عينيه. رغم إنكار الشاعر وتقديمه تفسيراً لهشام عندما استدعاه لزيارته في ماردة، إلا أن ابن الأمير عبد الرحمن أمر بسمل فوري لعيون هذا الشاعر الذي جاء للأندلس من الحيرة بالعراق، وقضى بقية حياته يصف العمى في أشعاره. بالطبع أنّب عبد الرحمن ولده ودفع للشاعر فدية عينيه مضاعفةً، لكن ذلك لم يُعد إليهما النور. قال جدّي إن ذلك البيت المشؤوم كان التالي:

وليسوا مثل من أن سئل عُرْفاً يُقْلَبُ مقلّةً فيها اعورارا
 "كيف يتم سمل العين يا جدي؟"

"ليتك لم تسأل يا سليمان، أما وقد سألت، فالسمل هو فقء العين
بسيخ من الحديد إحمّر على النار، ولا تسأل عن التفاصيل".

"هذا حرام. هل يحل الدين الإسلامي ذلك؟" لم يكن ذلك سؤالاً
في تفاصيل عملية سمل العين، وإنما موقف الشرع منها.

"الأوامر الربانية وصلت بالتدرّج في عهد الرسول عليه الصلاة
والسلام". صمت جدّي ليعطيني فرصة ترديد الصلاة على الرسول، ثم
واصل حديثه بعد أن اتكأ على كتفي. "قبل تنزيل آيات الحدود والنهي
عن الفعل بالمثل، قبل ذلك ارتد جماعة عن الإسلام ورفض بعض
رعاتهم الارتداد معهم، فقاموا بسمل عيون الرعيان. بلغ الرسول الكريم
هذا الخبر فأمر بسمل عيون الجنّة، ليس لأنهم ارتدوا ولكن معاقبة لهم
بالمثل على ما فعلوا. في قصة شاعرنا الأمر مختلف، فهو لم يسمل
عيون هشام بل في أسوأ الظروف تهكم على حولها، وعوقب بالسمل ثم
أعطيت له فدية مضاعفة لعيونه".

مع انتهاء قصة جدّي التحذيرية، التي أوجزتها، وتعريفه الحيادي
للسمل وخلفيته، كنا قد ابتعدنا عن المستويين، العلوي حيث القصور
والأوسط الذي يضم مباني ودور الوزراء، وهبطنا إلى المستوى
المنخفض لمدينة الزهراء حيث المسجد والأسواق. لكن لازال علينا قطع
مسافة أخرى على الأقدام إلى بيوت أعمامي. سألت جدّي عن سبب
قسوة الأمراء مع الشعراء.

"ليس فقط مع الشعراء، فهؤلاء في غالبيتهم يداهنون الأمراء
ويعيشون برغد، وعندما ذهب أبو المخشي إلى ماردة كان يتوقع تلقي
جائزة. قسوة الحكام تصل إلى الوزراء وتؤدي أهل العلم إذا كانت هناك
حاجة مثلاً لاسترضاء العامة، بل إن الأمراء يقسون على إخوتهم
وأولادهم إذا شعروا بتهديد أو منازعة على الكرسي". لاحظ جدّي
استغرابي من كلماته الأخيرة، ولاحظت تردده في الاسترسال. أكدت له
أني فهمت الشرطين وأسأون وأضبط لساني عن أية قصص أمام الأمير
أو عنه. لكن جدّي لم يذكر لي سوى أشباه موجزات لبعض الأحداث

عن الخلافات المتتالية بين الأمراء، وكان في ذلك تحفيزاً لي فيما بعد للاهتمام بهذه الناحية، فعرفت الكثير من التفاصيل مما سجله أسلافي في مذكراتهم غير المروية، كما سجلت أنا لاحقاً تفاصيل شاملة عما تبع من فتنة وخلافات انتهت بفشل أمراء بني أمية في توحيد صفوفهم وذهاب ريحهم وأرواحهم.

يمكنني القول، وباختصار، إن كل العهود منذ عبد الرحمن الأول حتى عبد الرحمن الثالث والد خليفتنا الحكم، شهدت خلافات شديدة وبعضها دموية بين أمراء بني أمية سعياً لانتزاع الكرسي من بعضهم البعض. أهدر ذلك الكثير من الجهد والمال وكاد أحياناً أن يضيع البلاد، وقد ساهم في سقوط مناطق الشمال في أيدي أمراء النصارى. لكن بالطبع لا يمكن تناسي أن وضع الأندلس في عهد أمراء وخلفاء بني أمية كان على الدوام هو الأفضل في كل العالم، وذلك بشهادة الوافدين إلى الأندلس من بقاع الأرض للحياة هنا، وبتأكيد أهل العلم والتجار والسفراء وأمثالهم ممن يمكنهم المقارنة بين ما شاهدوه وطالعوه من أحوال الآخرين.

حسب سجلاتنا، وهذا ليس سرّاً، فالأمير عبد الرحمن الداخل بن معاوية ابن الخليفة هشام بن عبد الملك، نجح بأعجوبة من المذابح المتواصلة التي نظمها العباسيون في العراق وسوريا وعموم بلاد العرب للأمويين ومواليهم بعد يونيو 749 للميلاد، ولم يكن التأريخ الإسلامي قد تجاوز قرناً وثلث. ذبح العباسيون أخويه، وفرّ مع أخيه الأصغر الذي تعثر في اجتياز نهر الفرات فسمع الصبي تطمينات الجند فخرج إليهم من النهر حيث ذبحوه بينما عبد الرحمن يصرخ على الضفة الأخرى وقد رفض تسليم نفسه. بعد رحلة فرار طويلة عبر الشام ومصر وليبيا وصل المغرب. هناك أخفاه أخواله البربر رداً من الزمن، وانتقل إلى الأندلس كأول أمير أموي يدخل هذه البلاد بعد اثنتين وأربعين سنة على فتحها. ساعده موالى الأمويين حرباً على التخلص من الوالي في قرطبة، وبعد استتباب الحكم وصل للأندلس آخرون من الأمويين الفارّين الذين

راوي قرطبة

أكرمهم الداخل. كالعادة طمع بعضهم في الحكم وظنّوا بأحقّيتهم وبسهولة أخذ مقاليد قرطبة، لكن الداخل كان يعتمد على نظام تجسس فعال، فعرف بكل مؤامرة حيكت ضده وأمر بقطع رقاب المشاركين فيها، ومنهم المغيرة ابن أخيه الوليد.

حكم الداخل 33 سنة من العمل المتواصل لتأسيس حضارة مميزة. قبل أن يموت، أرسل في طلب ولديه سليمان من طليطلة، وهشام من ماردة، وأوصى ابنه الأصغر، عبد الله، أن يعطي خاتم الأمانة لمن يصل أولاً من أخويه. كان سليمان هو بكر عبد الرحمن وولد في دمشق ولحق بأبيه للأندلس، بينما هشام ابن امرأة جليقية من حريم الأمير لقبها حلال. نقل عن حضروا وصية الأمير لولده عبد الله قوله "فإن سبق إليك هشام فارم إليه بالخاتم، فله فضل دينه واجتماع الكلمة عليه. وإن سبق إليك سليمان فله فضل سنّه ونجدته وحب الشاميين له". كان من الواضح أن هشام سيصل أولاً إلى قرطبة الأقرب على ماردة، ولكن سليمان أخذ لنفسه البيعة في طليطلة ثم انطلق إلى قرطبة ليجد هشام قد تولى. كان التنافس بين الأخوين معروفاً لوالدهما منذ زمن، لكنه على الأرجح لم يتصور أن الحرب ستشعب بينهما بعد مماته. انتهت الجولة الأولى للحرب مؤقتاً بهزيمة سليمان وقبوله بالمال والنفي إلى المغرب.

إثر موت هشام بعد سبع سنوات من الحكم عاد سليمان إلى شمال الأندلس حيث معارفه القدامى، واستمال أخاه عبد الله لجانبه وحاربا الحكم الربضي ابن أخيهما هشام. أغريا شارلمان بغزو البلاد، ولكن جنده هُزموا وارتدوا عام 797 للميلاد. بالطبع فتلك التطورات كشفت لشارلمان والفرنجة ضعف الجبهة الشمالية الإسلامية، فشنوا حملة جديدة عام 806 وعبروا الجبال وحاصروا برشلونة التي طال انتظارها للنجدة من قرطبة قبل أن تسقط ويؤسس فيها شارلمان ولاية "لاماركا هسبانيكا" التي لازالت قائمة ليومنا هذا ولديها علاقات مع إمارات النصارى الشمالية الأخرى التي اقتطعت أيضا من الأندلس، وكان لإمارة برشلونة

علاقات وسفارات مع قرطبة في عهدي الخليفة الناصر وابنه الحكم المستنصر بالله.

ذات يوم وُعيّد سقوط برشلونة كان الحكم الأول عائداً من الصيد، وتعرض له بعض أهل قرطبة سباً وإهانة، إذ اشتهر بينهم كأمر ما جن خليع، وأكثر خطباء المساجد من نقده ولقبوه بالمخمور. تفحص الحكم الأمر بعد إهانته من العامة فاكتشف مؤامرة من أهل بيته وبعض الفقهاء فتخلص منهم بقسوة ومثل بجثثهم. تبع ذلك زيادة في عدد الجند والحراسات من المرتزقة الصقالبة الخرس، الذين بدورهم أساءوا للجمهور في قرطبة. أما في طليطلة، الأقرب على برشلونة وعلى الأخطار من الشمال، تراكم قلق الناس من عرب ومولدين ونصارى ويهود، وتحصنوا خلف أسوار مدينتهم المنيعة حتى تُلبى طلباتهم بالحماية والحدّ من التسلط. يجب تذكر أن سكان المدينة قد تعودوا على مزايا خاصة منذ أن كانت طليطلة عاصمة للقوط. لكن الأمير لم يتذكر ولجأ للمكر والخسة في تعامله مع السكان. كتب مرسوماً بتعيين والٍ على طليطلة من المولدين، هو عمرو بن يوسف، وكتب للأهالي بذلك، فأطمأنوا وأمنوا كون واليهم الجديد جاء من بينهم.

بعد وهلة دعا عمرو الأعيان إلى حفلة في قلعة أقيمت خارج الأسوار. خطب فيهم مادحاً الأمير وختم كلامه بالطلب من ضيوفه أن يتحدثوا ويجيبوا عن سؤال إذا كانوا مع الأمير بعقولهم وقلوبهم أم لا زال لديهم توجس. بدا من خطبهم وجود توافق بين بعضهم في القول بأن عقولهم مع الأمير ووحدة وقوة البلاد، لكن قلوبهم مع تلبية مصالحهم بشكل أفضل. يبدو أن عمرو كان قد تأبط شراً بغض النظر عما سيقولون، فوقف صارخاً "إذاً لا بد من الفصل بين عقولكم وقلوبكم" وأعطى إشارة بيده للفرقة الموسيقية، التي بدأت بدق الطنبور والمزامير بينما الجند يضرب أعناق الضيوف دون أن يسمع أهل طليطلة صراخهم، وألقى بالجثث في خندق وأهيل عليها التراب. عندما وصلت التفاصيل لقرطبة أخذ الناس بثتم الأمير والتصفيق خلفه في الشوارع، فقبض على

بعضهم وصلبهم. كان ذلك عام 806 وانخمدت الثورة بهذه المذابح حتى الثالث عشر من رمضان 202 للهجرة الموافق 25 مارس 818 حيث ثار أهل ريبض شقندة جنوب النهر، والذي كان مسكناً للعمال والصنّاع والطلاب وصغار الفقهاء.

بدأت القصة حين تباطأ حداد في الريبض أثناء إصلاح سيف أحد حراس الأمير، وأدى الاختلاف بينهما لقطع الحارس لرأس الحداد. شاع الخبر بسرعة بين السكان وتقدموا عبر القنطرة للقصر وانضم إليهم كبار الفقهاء يطالبون بالعدل والقصاص، لكن الحكم أرسل مرتزقته إلى شقندة بأوامر أن يشعلوا النار في الريبض. عندما حاول المتظاهرون العودة لنجدة أهلهم من النار قتل الجند الكثير منهم بعد أن قطعوا عليهم القنطرة. مرة أخرى انتصر الأمير الحكم الماجن على أناس لم يكونوا يطالبون بعرشه، وإنما بعدالة أفضل وبأن يكفّ الجند يدهم عن العائمة وحماية أطراف البلاد. توج الأمير انتصاره بطرد كل سكان شقندة من الأندلس. ذهب بعضهم للشمال، وفريق آخر أبحر للمغرب وأنشأوا عدوة الأندلسيين في فاس، بينما أبحر فريق ثالث للإسكندرية واحتلوها لفترة ثم غادروها إلى جزيرة اقريطش في البحر المتوسط واحتلوها من البيزنطيين وأسسوا دولة تعتمد على القرصنة ولم تنهزم إلا قبل أعوام قليلة، وبالتحديد في العام الأخير من عهد الناصر.

لم أجد في سجلاتنا أي اقتتال وقتل بين أهل بيت الأمير عبد الرحمن الأوسط ابن الحكم الأول، وكان يتصرف على نقيض سياسة أبيه. شهد عصره حريات ورخاء وثقافة وعلوماً مهدت لنهضة جديدة في الأندلس. كثرت خلافات النساء والجواري في قصوره إذ كان عنده العشرات منهن ومئات الأبناء والبنات.

الأمير عبد الله امتلك على الأقل خمس عشرة من النساء والجواري اللواتي أنجبن له أحد عشر ولداً وثلاث عشرة بنتاً. تنافس بعض أولاده على المزايا وتسبب المطرف ابن غزلان بقتل أخيه محمد بن در، فقتل الأمير ابنه القاتل، ولم يُسلم الحكم لأي من أولاده التسعة الآخرين بل

اهتم بتربية حفيده عبد الرحمن ابن ابنه القتييل محمد، والذي تولى دون منافسه من أعمامه وعماته في عام 912 للميلاد وتلقب بالناصر لدين الله.

عندما ترعرع الحكم الثاني ابن الناصر، اختير لولاية العهد من بين اثني عشر أخاً، وهذا ما أثار حسد أحدهم، وهو عبد الله، الذي تأمر مع جماعة على قتل أخيه ولي العهد، لكن أمرهم أفتضح وقتلهم الناصر ثم أمر أن يُخرج ابنه عبد الله ثاني يوم لعيد الأضحى وذبح بين يديه. هل يعني انتقائي لهذه المقتطفات المأساوية أنني أكره بني أمية الذين حكمونا؟ ليشهد الله أنني لا أكرههم ولا أحقد عليهم، وأعرف أن ظروف السيطرة على بلادٍ واسعةٍ متعددة الأجناس واللغات والأديان من الأمور الصعبة، سواء أعطيت الناس حريات وعدالة، أو حكمتهم بالقسوة؛ فهم لا يكفون عن المناكفة، وخصوصاً أهل قرطبة بأرواحهم المتمردة. نقدي للأمويين يأتي من قهري وتمزقي الداخلي على ما أصاب الزهراء وقرطبة والأندلس أثناء تولي هشام الثاني وهو طفل. كنت أتمنى لو منح الخليفة الحكم ولاية العهد لأحد إخوته الأكفاء بدل إن ينصاع لرغبة محظيته، صبح، ويولي طفله هشام. يمكن القول الآن أن هذا تفاصحٌ وتذاكي مني بعد معاشتي للنتائج ورؤيتي للخراب والدمار والحرب وسقوط الخلافة وتشتت الأمويين وتقسم الأندلس. ربما كان هذا القول صحيحاً، ولكنه لا يغير في حقيقة أن الخليفة الحكم المستنصر بالله، العالم، الذكي، المتنور، الذي حافظ على ورثة أبيه، قد أخطأ وقام بعملٍ غير مسبوق في الأندلس بتوليته لطفله بعد أن أصيب هو بمرض الفالج وشلّ نصف جسده. سأعود لهدوئي الآن وأواصل روايتي، وإن شاء الله سأعود لاحقاً لذكر تفاصيل وخبايا ما شاهدته وعاشته للآن من ذلك الانهيار المدمي لقلب كل مؤمن.

الرؤوس المقطوعة

في يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من ذي القعدة لعامنا الجاري ثلاثمائة وستين لهجرة الرسول الكريم الموافق تسعمائة وواحد وسبعين على ميلاد سيدنا المسيح، خرج صاحب الشرطة أحمد الجعفري من الزهراء إلى فحص السراق في قرطبة جنوب النهر لاستقبال جعفر ويحيى ومن معهما بعد أن صاحبهم محمد العامري من ميناء مالقا حتى قرطبة، كما أشرت إلى ذلك سابقاً. استركب الجعفري معه من طبقات الجند والحرس بالعدة الكاملة، وأيضا الوفود من الأجناد الستة الذين طلب الخليفة حضورهم من كورهم ومقاطعاتهم لمشاهدة الاستقبال. عندما وصل الركب إلى مظل وخيام الضيفين شاهدوا ما كنا شاهدناه قبل يوم، أي رأس زيري بن مناد على قناة عالية تحف بها مائة رأس من أصحابه نصبت على خوازيق أخرى.

حمل الفرسان الخرس، الذين لا يتقنون اللفظ العربي، والتابعون لحرس الخليفة، حملوا الخوازيق والرؤوس فوقها وساروا في مقدمة الوفود لمصاحبة الضيوف إلى منية عبد العزيز الواقعة بين قرطبة والزهراء، وهي مزرعة كبيرة تضم العديد من البيوت والحدائق والحيوانات والطيور. كان من الممكن أن تسير الوفود إلى مبتها عبر القنطرة ثم الدوران حول السور، ولكنهم قرروا المرور من وسط قرطبة. شاهدت الرؤوس في اليوم السابق وخالفت بذلك رغبة والدي. وبعدها وصلت القوات إلى قرطبة اعتليت السور فوق بيتنا لأنفرج من مكان آمن بعيداً عن حوافر الخيل. تقدمت الرؤوس السوداء الموكب وأولها رأس زيري يتهدل شعره أسفل رقبة المقطوعة، وبأثرها الجيوش

جيشاً بعد الآخر، ثم موكب جعفر ويحيى ومن معهما من بني خزر، وتبعهم صناديد قرطبة وكل من أراد التماظهر على فرسه.

عند باب السدة من قصر قرطبة وجدوا الحراس والعرفاء المدرعين ورجال الأرباض من قرطبة باستقبالهم وهم بكامل أسلحتهم حتى ضاق بهم المكان. جلس لهم على باب القصر هشام بن عثمان قائد بلنسية نائباً عن عمه الوزير جعفر بن عثمان صاحب قرطبة الذي كان مشغولاً بتنفيذ أمر آخر للخليفة سنذكره بعد قليل. واصل الركب مسيرته على الطريق مروراً بروضة الخلفاء حيث دفن الخليفة الناصر رحمه الله، ومروا من تحتي، أمام السور وتركوا حي اليهود وباب الجوز باتجاه القصبية والمدينة العتيقة والمصاراة وعيج ومروا بمسجد الحاجب عيسى أبي عبده إلى ربض الشفاء وربض حمام اللبدي. باختصار قطعوا قرطبة من جنوبها إلى شمالها ليفرجوا كل الناس على الرؤوس المقطوعة والمنقوعة في الملح منذ شهرين حتى تحتفظ بملامح أصحابها، وبعد ذلك خرجوا من باب عامر ومروا بمقبرة قريش في طريقهم إلى منية عبد العزيز، ونصبوا الرؤوس على بابها ليراها الغادي والآيب بين قرطبة والزهراء.

المرحلة التالية من هذه المسرحية الدرامية، وكما سجلتها مذكراتنا، كانت بتجهيز صاحب قرطبة الوزير جعفر لكل رجال وأحداث وفتيان قرطبة المحسنين لحمل السلاح، ومنهم بعض فتيان عصابة عبد العيسى الفهري. فتح الوزير لهم خزائن السلاح وسجل أسماءهم ليحملوا التراس والحراة ويصطفوا في اليوم التالي على الطريق بين الزهراء وقرطبة. طوال تلك الليلة عمل العساكر والفتيان على تلميع الأسلحة وأسرجة الخيل وتجميل الزهراء. في الصباح تحرك هشام بن عثمان من هناك بالجند إلى منية عبد العزيز فوجد الضيوف مستعدين للركوب معه إلى الزهراء في موكب فخم وصنوف من الرايات الجسام وبينها الشطرنج الشامي وجحافل الأكابر والعبيد ليسيروا بين الدروع السابعة والبياضات اللامعات، وبالطبع في مقدمة الموكب الرؤوس المقطوعة، يحف بالجميع ستة عشر ألف راجل مسلح، وفرسان طنجيون مدرعون وفرسان

عبيدٌ ورماءٌ لابسو الأقبية البيض والقلنسوات حاملو القسي والكنانات الحمراء المذهبة. قرب الزهراء مرّ الموكب بين أربعة أنواع من صفوف الفرسان كل منها مائة فارس بلباس وأسلحة مختلفة، ووصلوا إلى التماثيل الرائعة من الأسود والنمور والعقبان والشعابين. طريق التماثيل أوصلهم إلى إسطنبول أمير المؤمنين في الزهراء، ولجوا بين صفي الخيول المكسوة بسرج ولجم الخلافة حتى وصلوا الباب القبلي للزهراء ليجدوا صفين مرتبين من فرسان العبيد والعرفاء المدرعين وبعدهم حملة الرماح والرماة، وتلاههم أصحاب الصناعات بملابس ملونة من الافرنج وعلى رؤوسهم القسي العربية.

قبل الوصول لقصر الخليفة جلس صاحب الزهراء محمد بن أفلح على الكرسي لاستقبال الوفد الذي صاحبه، طبعاً، محمد بن أبي عامر. مرّوا بالمصطبات المليئة بالرجال وساروا أمام دار الجند وقد رُتب فيها الرماة بملابس ملونة وعلى رؤوسهم مقاريف درية. عند الوصول إلى المجلس القبلي تقدم صاحب الشرطة هشام حيث استوى جلوس الخليفة المستنصر بالله في المجلس القبلي المطل على الرياض، بينما تأخر محمد العامري وصحبه جعفر وأخوه يحيى وبنو خزر الذين ساروا إلى مجالس الجند. حول الخليفة جلس بعض إخوته، وتحتهم أهل المملكة حسب عاداتهم في الاستقبالات التي تملأ عدة صفحات في ذكر الحضور ولباسهم ومقامهم وموضع جلوسهم. وزراء وحُجّاب وموالي وأدباء وقضاة وكبار قريش وعرب الأجناد الستة الذين حضروا من مناطق المملكة، ثم الخصيان والخدم والوصفاء وغير ذلك الكثير.

بعد اكتمال هذه التعبئة أذن للعامري وصحبه أن يحضروا جعفر ويحيى ومن معهما. وصلوا إلى الباب فقبلوا البساط مرة بعد أخرى، ثم تقدم بهم العامري إلى السرير وناولهم الخليفة يده ليُقبلوها، فتقدمهم جعفر بالتسليم وتلاه بقية قومه، وأمرهم الخليفة بالجلوس إكراماً لهم واستمع إلى جعفر وحادثه ثم حادث أخاه ووعدهم بالإحسان إليهم والتشريف لهم، فأعلنوا الشكر والدعاء وأكثروا من الشناء. بلغ الأدب

بجعفر أنه كان يستمع إلى سؤال الخليفة ثم يقف على قدميه عندما يجيب.

بعد انقضاء الاستقبال انطلقوا إلى مقعدهم الأول حيث مجالس الجند، ولم يفارقهم محمد العامري حتى غادروا وأوصلهم إلى الدور التي خصّهم بها الخليفة في قرطبة. أمر الخليفة لكل من الأخوين بدراهم قيمتها ألف دينار في الشهر، ومن القمح سبعون مدياً، وأجرى على بقية بني خزر من الدراهم والقمح والعلوفة ما يفيض عن حاجتهم فأضحوا معتبين.

اغتباط بني خزر في قرطبة قابله انشغال بال أمي وغضب أبي عليّ. في اليوم الثالث على مشاهدتي الرؤوس مشرعة على سور قرطبة ومرور موكبها أمام ناظري في اليوم التالي، صحوت من النوم مذعوراً أصرخ وبيللني عرق كمن انتشل للتو من النهر. حلمت أن الرؤوس إياها طارت في الجو وطاردتني بشكل منعني من دخول قرطبة والعودة إلى البيت، ثم أخذت تقترب مني بينما قدماي تقتربان من الشلل عن الحراك. كان صحوي من الحلم رحمة، أو هكذا ظننت.

انتقل رعيبي إلى أمي وأبي اللذين هدّءا من روعي، وعندما عرفت الوالدة سبب الرعب نادت على جارتنا ماري أن تحضر لها "كأس الطرية". لم يكن أبي سعيداً لذلك ولكنه سكت على الأمر وترك أمي وجارتنا تسقياني من هذه الكأس النحاسية الأقرب إلى صحن منها إلى كأس، ونُقش عليها من الداخل والخارج حروف وكلمات بالعربية والعبرانية واللاتينية. تمتت ماري بتعاويد وأسقتني من الكأس مراراً حتى عدت للنوم.

في صباح اليوم التالي وبعد الفطور، طلب مني أبي أن أعبط الدعامة في صحن البيت، وربط يدي حولها. "قلت لك لا تذهب لمشاهدة الرؤوس، لكنك لم تسمع. أزعجت نومنا، أفلقت الجيران، وعليك الآن تحمل العقاب الذي لا مناص منه. سأجلدك بالقشاط عشر مرات، ولكن إذا ارتفع صوتك وصراخك سأجلدك أكثر". حاولت أمي

التدخل ولكن نظرة أبي وإشارة واضحة لها من يده بالابتعاد أنهت كل آمالي. لم أتذكر قبل الآن أن أبي ضربني بمثل هذه الشدة. قال لي بعد سنوات قليلة إنه قرر التصرف بذلك الشكل حتى يزيل خوفي من الرؤوس الطائرة ليطنى عليها الخوف من الجلد. فهمت أيضا من حديثه أن غضبه عليّ جاء من انزعاجه من عموم ذلك الوضع، وأن فلسفته حول الأمر هي أن هؤلاء البربر يخافوننا الآن حتى اللحظة التي يتمكنون فيها من إخافتنا، فيفعلوا بنا الشيء نفسه، كما يفعلون مع بعضهم البعض. هذه الأبهات في الاستقبالات تصل تفاصيلها للأعداء من كل الجهات فيستعدوا للحظة المناسبة لنهينا. أساليب القتل والسلب وقطع الأوساط كلها جُربت هنا ولم تفلح. الخلافات بين الطوائف الدينية هي التي أضرت بالإسلام وأعاقت مسيرته منذ عهده الأول، حسب رؤية أبي الذي تساءل أمامي وهو يفسر لي فلسفته الخاصة "ما الضرر من عقيدة شيعية إلى جانب السنية في الأندلس ولدينا هنا مذاهب من اليهود والمسيحيين ولسنا متمزتين؟ لقد أهدر المأل وأزهقت أرواح الجند في هذه الحرب، وها هو الخليفة الحكم يسحب بسرعة قوات الثغور من الشمال ليرسلها إلى العدو التي لا تقوى أصلاً على غزونا، ولكنهم بالطبع سيتعبوننا إذا ذهبنا لهم محتلين ولم نكتف بالبقاء في سبتة ومليلة وطنجة". كم كان أبي محقاً آنذاك كما أرى الآن بعد أن عايشت عقود ما بعد موت الخليفة الحكم، وأشاهد بأمر عيني خراب الزهراء وقرطبة من أحفاد الذين رفعوا رأس زيري في شوارعنا.

لم أشاهد الخليفة أثناء الزيارات الأسبوعية التالية مع جدّي للزهراء، ولكنني شاهدته أكثر من مرة عندما كان يحضر إلى قرطبة ويجلس في عليّة القصر فوق باب السدة المقابل للناعورة ليتابع أعمال ترميم قوائم القنطرة. أراد بتواجده تشجيع العمال على الانتهاء من العمل قبل وصول موسم الأمطار وارتفاع مستوى الوادي الكبير. تابع إقامة العمال سداً من الحجارة والرمل والجدوع حول قوائم الجهة الشمالية وأجروا ماء النهر بين القوائم الجنوبية. نصبوا دعائم خشبية ضخمة تحت

القنطرة ثم استبدلوا الحجارة من القوائم والتي كشط جيسها ونخرها الماء بأخرى جديدة صلبة مكانها. ثم فعلوا الشيء ذاته على النصف الآخر بعد أسابيع من العمل الدؤوب بمشاركة مئات العمال. كان الحكم خبيراً في هندسة البناء، فهو الذي أشرف على بناء مدينة الزهراء عندما كان ولياً للعهد. بالطبع أيضاً لم يكن يرغب أن يفوته ثواب ترميم القنطرة وتقويتها على غرار فعل أسلافه. لقد رُممت القنطرة في عهد هشام الأول، وشهد له أن كان يحمل الحجارة بيديه. آنذاك تندّر به القرطبيون أنه ينشط شخصياً لأنه يستفيد من القنطرة لأغراضه الخاصة. عندما سمع الأمير هشام بذلك، أقسم ألا يقطع القنطرة إلا لأعمال رسمية. قبل ذلك بكثير، وبعد ثماني سنوات من فتح الأندلس، استشار الوالي السماح الخولاني الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز في دمشق، ماذا يعمل في شأن سور قرطبة المهدم من جهة الغرب، وبالقنطرة الرومانية التي دمر الماء بعضها ومنع السير عليها؟. كتب الخليفة لواليه في قرطبة بأن يصلح القنطرة فوراً بحجارة من السور، ويغلق السور بحجارة من الطين ريثما يتهيأ توفير حجارة صلبة للسور. وهكذا فعل السماح كما سُجل للتاريخ.

سفراء الشمال

الشهر الأخير من هذا العام، ذو الحجة، كان يعني اقتراب بداية تعلمي في الجامع في الشهر التالي، وكانت مشاعري متضاربة تجاه ذلك. الجامع في حد ذاته مألوف عندي، وأفواج وأطيان المتعلمين ليست غريبة عليّ، فكثيراً ما شاهدت حلقات متنوعة من المريدين حول شيوخهم. ما كنت أجهله هو أسلوب التدريس، وحجم واجبات الطلاب، وصلاحيات المرين، إذ لم يخبرني أحد من أقاربي عن تجربته الذاتية، وهذا ما أقلقني. بالطبع خشيت أن يمنعني هذا التطور من مصاحبة جدّي كل خميس إلى الزهراء.

تصادف في ذي الحجة، الذي وافق أكتوبر 971، رحيل سفير برشلونة عن قرطبة، ووصول سفراء جدد من إمارات الشمال النصرانية الأخرى. وشاء الله في تلك الأيام حسم الجدل الدائر بين جدّي وأبي لصالح والدي، فأصبح عليّ مرافقة جدّي قدر الإمكان لتعلم مهنة التسجيل والرواية، وهذا ما أتاح لي ذلك الشهر مصاحبته لزيارة السفير البرشلوني قبل سفره، وأيضاً مشاهدة الخليفة أثناء استقباله في الزهراء يوم السادس من ذي الحجة لأربع سفارات. كان جدّي قد اختار أبي لتوريثه المهنة، ولكن أبا سليمان كان ميالاً لنشاط أوسع، وأقنع والده بالتدريج أن يواصل المهنة قدر المستطاع ويعلمني إياها منذ الصغر لأرثها مباشرة من الجد. اتفقا أنه إذا قُصر عمر جدّي أو اعتلت صحته قبل أن أتمكن من مواصلة المهنة ذاتياً، فإن والدي سوف يساعدني ريثما يتسنى لي الأمر.

انقضت ثلاثة شهور على وصول بون فليو بن سندريط إلى قرطبة

ممثلاً لحاكم إمارة برشلونة الكونت بريل بن شنير. قبل رحيل السفير والعشرين جندياً الذين رافقوه، ذهب كالعادة وفدٌ من أعيان المدينة وبعض العلماء لتوديعه في منية نصر، وكنت مع جدّي من بينهم. خرج الوفد من الجامع بعد صلاة العصر في مطلع الشهر، اجتزنا القنطرة، ولم يكن العمل في تجديدها قد انتهى كلياً، وكانت المطاحن في النصف الجنوبي من الوادي الكبير قد توقفت عن العمل نظراً لتحويل المياه عنها إلى النصف الشمالي.

بدا السفير شاباً قوي الجسم طويلاً ويغطي رأسه شعرٌ أحمر. استقبلنا على باب قصر المنية مصافحاً للجميع ثم عاد مع الوفد إلى صالة كبيرة وجلس على أريكة وخلفه أربعة من جنده، بينما جلس رجال الوفد على أرائك في طرفي وأمام السفير الذي أجلس إلى جانبه مترجماً يفهم القطلونية والعربية. لم أفهم أو أتذكر أي شيء مما قيل طوال ساعات، وأشغلت نفسي في مراقبة الحضور وحركاتهم وانفعالاتهم ومظاهر آداب الحديث. انجذبت باهتمامي إلى أداء المترجم وهو يهمس بشكل متواصل للسفير ما يقوله الحضور، ويترجم بصوت مرتفع إلى العربية ما يقوله السفير. كان المترجم شاباً وسيماً حليق الذقن وعرفت لاحقاً أن عمره كان في حدود العشرين سنة. قبل أن أخط روايتي هذه كنت قد راجعت ما كتبه جدّي عن ذلك اللقاء الذي ركز على تبادل المعلومات بين الوفد والسفير.

موجز ما استخلصه جدّي أنه لم يكن عندهم في برشلونة نقود مسكوكة خاصة بهم، واستعملوا دنانيرنا ودراهمنا ومصكوكات فضية ونحاسية قديمة. بسبب ندرة النقود فكل قطعة منها تعادل ببضائع، الدينار يوازي كذا خروفاً وخنزيراً، وبالتالي عندما تشتري شيئاً بقيمة دينار عليك أن تدفع ذلك العدد من الخراف أو الخنازير. بل إن ثمن الأراضي يقدر ويدفع بحيوانات وغلّال وليس بدراهم. أغلب بيعهم وشرائهم اليومي يتم بالمقايضة بين البضائع دون نقود. يتاجرون مع بلاد الغال والأندلس وعبر البحر، ولكن حجم التجارة خفيف ويديرها يهود. مدينتهم لم ينم عدد

راوي قرطبة

سكانها إلى ما كان عليه أيام العهد الإسلامي ولديهم جالية يهودية كبيرة ومنتعشة وخيرة في التجارة الخارجية.

في السادس من الشهر استقبل الخليفة أربع سفارات. الأولى كانت من حلوية بنت الملك شانجة بن رذمير المتوفى قبل فترة وجيزة، وهي الحاضنة لأخيها الصغير رذمير بن شانجة حاكم جليقية. أرسلت حلوية ملح العباد الذي تلا رسالتها وفهم منه الخليفة ثم خرج. دخل بعده على الخليفة القومس أسمنه بن شانجة، الرهينة في قرطبة عن أخيه شانجة بن غرسية صاحب بنبلونة كضمانة على حسن تصرفه مع الثغور الشمالية وعدم العودة للخيانة والهجمات. كان أسمنه طليق الحركة في قرطبة ورأى الخليفة أن يستقبله ذلك اليوم لسمع منه عن أخبار أخيه وليرسل عبره تظمينات الخليفة. السفير الثالث الذي دخل على الخليفة هو خميس ابن أبي سليط، مرسلًا من حاكم قشتاله جارسيا فرناندس، فأبلغ رسالته وتلقى الرد من الخليفة وخرج. آخر السفراء ذلك اليوم كان ديدقة بن شبريط سفيراً لابن الشور فرناندو انشورس حاكم منتشون.

حضر كبار نصارى قرطبة استقبال هذه السفارات كالعادة، وتحسباً للحاجة إلى ترجمة. وممن كانوا هناك بين المستقبلين، القاضي أصبغ بن نبيل وأسقف قرطبة عيسى بن المنصور والقومس معاوية بن لب ومطران إشبيلية عبيد الله بن قاسم. لم يتطلب الأمر ترجمة إلا في حالة الرهينة أسمنه، أما البقية فكانوا عرباً أو يجيدون العربية مثل ديدقة بن شبريط الذي يجيد قراءة العبرية أيضاً، ويبدو من اسمه صلته بطبيب وسفير الخليفة الناصر، رحمه الله، حاسدي بن شبريط ذائع الصيت في قرطبة.

الماء والنار

جارتنا ماري تعشق الكثير من نعم الله، وتكره بعض النعم الأخرى، بل من شدة كراهيتها للأمطار سمعتها تصرخ بالاستعداد لمقايضة أي شيء مقابل توقف انهمار المطر الغزير، أو على الأقل مقابل الحد من شدته. أعربت عن ذلك في مساء اليوم الأخير من عام 361 لهجرة الرسول. اشتدت الرياح والبرق والرعد قبل حلول الظلام، فخرجت إلى ساحة بيتها وسمعتها كل الجيران ترفع صوتها لربها بهذه المقايضة. في الواقع لم تكن لوحدها المرتعبة في ذلك المساء، فبلادنا ذات مزاج شتوي متوحش وغير مستقر. أحياناً تمطر بلطف وليونة ويتبادل المطر والبرد مع الشمس والدفء الأيام بالتوالي، وفي سنوات أخرى تمطر لأيام وتثلج وتضربنا بحبات الثلج المتجمد وكأنها حجارة من سجيل. بالطبع لا يجب نسيان سنوات الجفاف وما تسببه من قحط ومجاعات وارتفاع في الأسعار. أمراؤنا وخلفاؤنا حاولوا، وغالباً ما نجحوا، في تخفيف آثار الجفاف عبر تخزين المواد من سنوات الخير وتوزيعها على المحتاجين أثناء المجاعات. عمروا القناطر المائية الرومانية وأضافوا في عددها وأوصلوا المياه عبرها بين الجبال إلى المزارع والمدن والقرى. لكن هجمات السيول والمطر الغزير المتواصل هي شيء آخر نظر إليه الجميع كإرادة إلهية لا راد لها.

مخاوف ماري صحت، ومقايضتها فشلت، ففي الليل تواصل قصف الرعود المفزعة وتنزل المطر الوابل، وتوهمت أن البيت سيغرق. تجمعت المياه في ساحة المنزل ولم تتمكن مساحة الأرض القليلة غير المغطاة بالبلاط من استيعاب كميات الأمطار. لم نكن نياماً، ولكن صراخ جارتنا

أخرج أبي من غرفة نومة إلى المعرش المغطي المشرف على الساحة. سمعت صوت جارنا يحاول طمأنة زوجته من دون جدوى. تحرك أبي وفتح باب المنزل، وبدل أن تخرج المياه من ساحتنا إلى الشارع، دخلت علينا مياه الشارع أثناء سيلانها جنوباً باتجاه الجامع والنهر، فأسرع بصدد الباب. أخبرت أبي أن المياه ارتفعت عن مستوى المصطبة الفاصلة بين الساحة والمعرشات أمام الغرف. كان ذلك بمثابة سقوط خط الدفاع الأول، ويليه العتبات أمام الغرف التي تضم فراشنا وكل أثاث وحاجات البيت. "ضع المخدات والأغطية على عتبات البيوت وضع فوقها أثقالاً". قال أبي دون أي ارتباك في صوته وقد تبللت كل ملابسه وتخلص من بعضها، ثم خاطب أمي: "إرفعي كل ما هو على الأرض في الغرف وضعيه فوق الطاولات والأسرة، أين فاطمة؟"

"لا تقلق، إنها نائمة على السرير". قلت لأبي الذي باشر بنضح الماء وإلقائه من فوق الجدار إلى الشارع. عندما يعجزه التعب عن هذه الحركة كان يصب الماء في البئر في زاوية الساحة. بعد ساعات من المقاومة المجهدة خفت الأمطار وانخفض منسوب السيل في شارعنا الضيق وتسربت المياه من ساحتنا دون خسائر، ماعدا تبلل ما كومتته على عتبات البيوت. "السبب هو ضيق الشوارع وكثرة البلاط. غداً سأطلب من الإمام أن يناشد الناس بفتح نوافذ منخفضة وواسعة في رقبات آبارهم". قال أبي وهو يجفف جسده بعد أن تخلص من بقية الملابس ووقف عارياً كما ولدته أمه قبل أن تناوله زوجته بطانية صوفية وتقوده إلى الفراش.

قبل سماع أي ديك أو عصفور في الصباح، سمعنا نواح ماري التي عقد خوفها محاولات زوجها لإنقاذ ما كان على الأرض من أشياءهم. طمأنتها أمي، بعد ظهور الشمس، إن هذه الكوارث لا تتكرر في العام الواحد، وإن الخسائر ليست ذات بال "المهم أنك وخسوس نجوتما من أي مكروه، وقريباً سنفرح بعيد ميلاد المسيح وستنسي هذه الحادثة".

"الشتاء في بدايته يا أم سلمان، سألح على خسوس بالانتقال إلى

المزرعة وقضاء أيام الشتاء بين الدجاج. هناك لا تتكون السيول". كانت ماري جادة في حديثها، وأعرف أن لديها القدرة على إقناع زوجها الطيب المحب لها بالانتقال للحياة في مزرعة الدجاج البياض التي يملكونها قرب الرصافة شرق قرطبة. لو نجحت في موقفها ونفذته بسرعة ستكون النتيجة الحرمان من فرحة عيد الميلاد التي أشارك مع فاطمة فيها سنوياً في بيت ماري وخسوس اللتين لم يرزقا بأطفال.

يبدو أن نعومة الأمطار في الأيام التالية واقتراب العيد وإقناع خسوس حدًا من رغبات ماري بالهروب من شارعنا. يوم الثلاثاء التاسع عشر من ديسمبر وقبل أربعة أيام على ليلة العيد تزلزلت الأرض تحتنا وسكنت بسرعة. كان ذلك في الرابعة فجراً، ولم أشعر بشيء، لكن والدي أيقظني من النوم وحمل فاطمة ووقفنا جميعاً في ساحة المنزل نرتجف من البرد رغم الأغطية على ظهورنا. رفض أبي إعطاء أي تفسير لهذا الموقف الذي لم يستمر طويلاً، ولكنه في الصباح أخبرني سماعه لقرقعة الأواني المعلقة في المطبخ وكيف تحرك السرير تحته، فعرف أنه زلزال وتخوّف أن ينهار البيت علينا. لحسن الحظ أن جارتنا لم تُفق على القرقعة، ولو صادف الزلزال وقتاً آخر وشعرت ماري به؛ فربما ماتت على التو من الهلع. على كل الأحوال ضاع العيد مني، فقد عرفت ماري بالكارثة في الصباح وخرجت بقليل من حاجياتها مع زوجها ذلك اليوم إلى المزرعة ولم نرها لأسابيع، لكنني فكرت فيها طوال الأيام التالية وتمنيت أحياناً لو كنا ذهبنا مع الجيران. يوم الخميس نزل بقرطبة وجوارها غيثٌ وابل طوال الليل ومعظم النهار التالي، وهاجت رياح شِداد. انتهز والدي فرصة هدوء بين العواصف والأمطار ووضع حجارة وبعض أكياس الرمل بملاصقة جدارنا في الشارع قبل الباب مباشرة حتى لا تقتحم المياه ساحة منزلنا، وحتى يمكننا فتح الباب لخروج الماء من منزلنا للشارع. وكان أبي قد نفَّذ فكرة فتح نافذة في أسفل عنق البئر حتى يمتلئ من مياه المطر ويستوعب ما قد يتجمع في الساحة. لعشرة أيام تلت لم يتوقف المطر وهاجت الرياح ونزل الثلج في قرطبة وإقليمها وزاد

النهر، لكن دفاعات أبي الاحتياطية عن البيت نجحت تماماً ولم نمر بأزمة الدفاع عن الغرف. بالطبع لم تبدأ دروسي طوال تلك الفترة ولم أتمكن من الوصول إلى الزهراء ورؤية الأمير هشام، لكن أحاديثي مع والدي توسعت في فترة مكوثنا محبوسين في البيت، ولحسن الحظ كانت احتياطتنا وفيرة من الحطب والفحم للتدفئة، ومن الطعام الطازج والمجفف والبيض والزيتون والزيت.

ليلة عيد الميلاد دقت نواقيس الكنيسة، ولا أدري إن كان أحد قد ذهب لصلاة منتصف الليل. نحن لم نخرج إلى أية صلاة في الجامع طوال تلك الفترة. وفي صباح اليوم الأول للعام الميلادي الجديد 972 طاف مخبول في شوارع قرطبة ينادي "تؤلف ولا تؤلفان" وعرفت من والدي أن قصد المنادي القول، إن الحياة على الدنيا قد تمتد إلى عام ألف ميلادية، ولكن القيامة ستقوم قبل العام ألفين، وأضاف والدي إحدى تعليقاته النادرة: "يعني لازال لدينا وقت طويل على يوم القيامة".

"لماذا يخاف الناس من يوم القيامة؟"

"لأنها بداية الحساب والعقاب والثواب، وعلاماتها السابقة لحدوثها مرعبة للناس. في يوم القيامة تتفرق الطرق، بعضنا سيذهب لجهنم، وقلّة ستذهب للجنة".

"لكن الرسول الكريم عليه أفضل الصلوات والسلام، سوف يتشفع لنا يوم القيامة ونذهب كلنا للجنة".

ضحك أبي من مبالغتي في تبجيل الرسول "لو كنت مكانك لما اعتمدت على الشفاعة كثيراً. معظم مصائبنا تنبع من بيننا، نحن معشر المسلمين، فلماذا يتشفع الرسول الكريم للمخربين؟ ثم إن سورة القيامة لم تتحدث عن شفاعة. أسمعني إياها لنرى ما بها".

لم أكن أحفظها عن ظهر قلب، فهي من أواخر السور المخطوطة في القرآن، وأخبرت والدي أنني لم أصل إلى تلك المرحلة في الحفظ، فتلاها هو:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَا أُقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وَلَا أُقِيمُ بِالنَّفْسِ الْوَامَةِ ﴿٢﴾ اِيْحَسَبُ الْإِنْسَانُ اَلْنَ
 مَجْمَعُ عِظَامِهِ ﴿٣﴾ بَلَى قَادِرِينَ عَلَيَّ اَنْ اُسَوِيَ بِنَانِهِ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ اَمَامَهُ ﴿٥﴾
 يَسْتَلْ اَيَانَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿٦﴾ اِذَا رَفَعَ الْبَصْرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجَمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ
 ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ اَيْنَ الْمَفْرُءُ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ اِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾
 يُبْتَلَوُا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَاَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلَى الْإِنْسَانُ عَلَيَّ نَفْسِهِ بِصِيرَةٍ ﴿١٤﴾ وَلَوْ اَلْفَى
 مَعَاذِرَهُ ﴿١٥﴾ لَا تُحْرِكُ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ اِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ اِذَا
 قَرَأَهُ فَانْفَعُ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ اِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذُرُونَ
 الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ اِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَفْظُنُّ
 اَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ [القيامة 1-25].

لم يكمل أبي السورة إلى نهايتها حتى أتذكر نصفها الأول ومواعظه، كما قال، وأكد لي أن بقيتها لا تتحدث أيضا عن شفاعات.

"ومتى ستقوم القيامة؟"

"علمها عند الله يا سليمان. هل قمت بالكثير من الأخطاء والمخالفات وتخشى النار؟"

"ليس بالكثير، ولكن ألا يوجد عقاب وسط بين نعيم الجنة والحوريات وبين جحيم النار والشقاء والكواء فيها؟"

"ربما كان الفرق في مدة البقاء في النار ودرجات السخونة، وطول النعيم في الجنة وعدد الحوريات".

كان من الواضح أن أجواء المطر والبرد ونار الكانون أمامنا لم ترهب أبي أو تحد من تعليقاته التي لا زال يصعب عليّ تقييمها، وها هو ينظر إليّ بضحكة مبهمه عندما رددت ذكر الحوريات في الجنة.

"في الجنة يا أبي، وحسب ما سمعت من الإمام في خطب الجمعة أكثر من مرة، فالناس سواء في النعيم وعدد الحوريات وفي الشكل والعمر". فجأة قفزت لذهني خاطرة وخرجت على لساني دون تردد. "ماذا إذا عملت فاطمة الصالحات ودخلت الجنة، فهل سيكون لها حوريات، أم ستكون هي حورية في خدمة أحد الصالحين؟" انقلب أبي على ظهره من شدة الضحك، ووضع يديه على أمعائه. تواردت لرأسي

أسئلةٌ أخرى، كيف سنتعرف على بعض إذا كنا متشابهين؟ وإلى متى سنعيش في تلك الأجواء؟ وما هو حجم الجنة التي تتسع لكل الصالحين من الأموات منذ بدء الخليقة؟

تمالك أبي نفسه، وقبل أن أعالجه بسؤال آخر أخذ يعظني بالصبر وتلقي العلم بالتدرّج. "ستجد إجابات على كل شيء عند الآخرين وأيضاً في ذهنك. المهم الآن ألا تخاف من يوم القيامة والنار، أو تغريك الجنة إلى درجة الطاعة العمياء والتنفيذ الحرفي لتفسير الآخرين للقرآن الكريم. طالما أن أعمالك تتماشى مع تربيتك ومعرفتك بالأشياء، ولا تناقض ضميرك، فلا يوجد مبرر لخوفك. الله عليم قدير ويحاسب الناس حسب معرفتهم. المخطئ عن دون علم غير المخطئ بسابق إصرار. الأول قد يدخل الجنة، والثاني لن يجتاز عتبتها".

"وما هو عدد الحوريات للصالحين، أو فلنقل للشهيد مثلاً؟"

"طالما أنك مُصِرٌّ على الأمر فالأفضل أن تبحث عن الإجابة في آيات القرآن وتخبرني بها متى انتهيت من البحث. هكذا ستكون متأكداً من المعلومة وستلقن نفسك درساً فيما يمكن أن تصدق من الموهوسين، وتفرق بين كلام الله وكلام مدّعي العلم". بعدما حفظت القرآن عن ظهر قلب في الشهور التالية قررت البحث عن الإجابات. وجدت أن سورتي القيامة والزلزلة تتحدثان في بعض آياتهما عما قد يعتبره البعض من علامات القيامة، وكلها تتعلق بحدوث كوارث طبيعية تسبق ذلك اليوم. أما ما يقال عن الحوريات فلم أعثر له على أثر. لقد تكرر لفظ الجنة مائة وإحدى وأربعين مرة، وكان مقترناً بأوصاف مثل النعيم، والأنهار، والثياب الحريرية، وحصول رواد الجنة على ما يشتهون. وعندما يتحدث عن الإناث فهو يصفهن بالصالحين للصالحات، والأزواج المطهرين، وادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم ..، وكثيراً ما تحدثت الآيات عن جنات يفهم منها بوضوح أنها على الأرض. حديث اللذات في الجنة ورد في سورة محمد التي تحدثت عن أنهار من ماء ولبن وعسل وأيضاً خمر في الجنة، لكن الوعود لم تصل لذكر الحوريات اللواتي يُعدن أباكراً كل ليلة.

محمد العامري

كان ذلك أول نقاش ديني فلسفي وعلمي مع أبي، وددت لو استكملناه تلك الليلة، لكنه طلب تغيير هذا الموضوع، فنقلته إلى آخر بسؤالٍ مباشرٍ عن سبب عدم ارتياحه لحديث جدّي مع محمد العامري. "مداركك تنمو بسرعة يا بني، ولا بأس من إطلاعك على قصة لا تبدو مُهمة أو خطيرة، ولكنني أريد منك قسماً أن تبقىها سرية حتى يتغير الحال ويزول خطر العامري".

"اقسم بالله أنني لن أبوح بالسّرّ حتى لو قطعوني إرباً".

اليوم، بعد ثلاث وخمسين سنة على تلك الليلة، واثنين وعشرين سنة على وفاة العامري الذي أصبح حاجباً على الأمير هشام وتلقب بالمنصور بعد موت الخليفة الحكم، يمكنني البوح بقصة أبي التي لم تكن سرية لأنه لم يكن طرفاً مباشراً فيها.

"إنه إنسان مغرور ولئيم وانتهازي كما توضح تصرفاته الحالية، وكما بشرت بذلك قصصه القديمة وهو يافع" قال أبي، وشرح سبب تقييمه هذا بأن أحد المتضررين من العامري، واسمه موسى بن عزرون، أخبره بالقصة التالية. "اجتمعنا يوماً في متنزه لنا بجهة الناعورة بقرطبة، ومعنا ابن أبي عامر، وهو في حدائته، وابن عمه عمرو بن عبد الله، والكاتب ابن المارعزي، ورجلٌ يعرف بابن الحسن من جهة مالقا، وكانت معنا سفرة فيها طعام. قال العامري: لا بد لي أن أملك الأندلس، وأقود العسكر، وينفذ حكمي فيها. أخذنا نضحك ونهزأ به. قال: تمنوا عليّ بما تشاؤون حين أنال الأندلس. تمنى ابن عمه تولي المدينة، وتمنى ابن المارعزي تولي السوق، وأعرب ابن الحسن عن رغبته في قضاء

راوي قرطبة

مالقا حيث يقطن، لأنه يحب التين، وتين مالقا هو الأفضل، ويريد كفاضي هناك التشفي في أكله". واصل أبي الرواية على لسان موسى بن عزرون الذي أسمع العامري كلاماً مستخفاً به ولم يتمن شيئاً عندما سأله ابن أبي عامر. "بعد أن ترقى في المناصب من قاضٍ إلى الإشراف على أبناء الخليفة ومن ثم ولاية صك النقود وشرطة المدينة، ساعد الذين تمنوا عليه ولا زال يضيّق على موسى ويغرمه". هذه الأخلاق لم تعجب والدي بالطبع، وتفسيره للقصة أن العامري وصولي ولن يتواني عن فعل شيء في سبيل تحقيق غايته.

"لكنه شخص واحد من بين الكثيرين يا أبي، والخليفة قويّ وله وريث، وعنده عشرة إخوة كبار وعائلة كبيرة".

"نعم، ولكن العامري لثيم ووصولي ويرتقي السلم بسرعة. والخليفة كبير في السن ولا يملك سوى ولدٍ صغيرٍ واحدٍ على عكس كل سابقه الأمويين. نرجو من الله أن تتم الأمور على خير".

في ذلك العام كان العامري أحد الذين ترقّوا مرةً أخرى في مناصبهم، وطوال خمس سنوات تلت تقرب من البربر وتسلم قضاء عدوة المغرب ونفقاتها ووزّع على القبائل المال لكسب دعمهم للخلافة، وأقام بالطبع علاقات مميزة وخاصة مع رجال البربر. لم يحدثني والدي آنذاك عن تقرب العامري من زوجة الخليفة أم هشام. أصبح والدي يذكرني في كل مناسبة بصدق حكمه على العامري، ليس فقط من زاوية أن الغاية لديه تبرر الوسيلة، ولكن من منطلق أن تصرفاته وغايته الأنانية ستدمر الأندلس أيضاً، وهذا ما رأيته بعيني.

محمد بن عبد الله بن أبي عامر المعافري، ولد سنة 328 للهجرة الموافقة 940 للميلاد. عائلة المعافري يمنية الأصل مثل عائلتنا، وجدّه عبد الملك دخل الأندلس مع قوات طارق مثل جدّي أسعد القلعي الذي وصل لأفريقيا مع القائد حسان، ودخل الأندلس مع قوات موسى بن نصير. سكنت عائلة المعافري في بلدة طرش على الساحل الجنوبي بين

ملقا والمنكب. أبوه عبد الله كان من رجال العلم ومات في طرابلس الغرب أثناء عودته من الحج، وأمه هي بريهة من بني البرطال في قرطبة. يعرف الجميع الآن أن محمد درس في جامع قرطبة، ثم استعان بخاله في إشبيلية وتزوج بابنته هناك، وأعانه خاله على تولي وظيفة في ديوان القضاء. ترك إشبيلية وفتح دكاناً عند باب قصر الخليفة قرب الجامع ليكتب للناس الطلبات والعرائض والالتماسات. يقال إن ترقيه في المناصب جاء إثر وساطة له من القاضي محمد بن اسحاق بن السليم لدى حاجب الخليفة وهو جعفر المصحفي الذي رشحه ضمن قائمة من الناس لو كالة عبد الرحمن ابن الخلفية، فاخترت صبح محمد العامري. نجح في مهمته ونال إعجاب اورورا وعطفها إذ كان أحذب قليلاً في أعلى الظهر ويبدو وهو يحدث الناس وكأنه متواضع ومؤدب ينظر إلى أسفل. ولأن الخليفة لم ينجب من غير صبح، ولا يخالف لها رأياً، فقد وافق على إشراف العامري على إدارة أموال ابنه الأول من صبح في سنة 356 ومنحه راتب خمسة عشر ديناراً في الشهر. بعد موت عبد الرحمن تولى الأمر ذاته لابنه هشام منذ سنة 359. بدعم من صبح التي احتلت مرتبة أم ولد، ترقى محمد العامري إلى ولاية دار السكة، ثم قضاء رية، والإشراف على أموال الزكاة والمواريث في إشبيلية وإدارة الشرطة هناك. الآن استقر به المقام في قرطبة ويشارك في الإدارة والاستقبالات مثل أي وزير، بل له تأثير أكبر من بعض الوزراء، ولكنه لا زال يحابي جعفر المصحفي الذي يدير شؤون الحكم للخليفة الحكم.

القاصي والداني من أهل قرطبة يطلقون ألسنتهم السليطة في شأن العلاقة بين العامري وصبغ. أسلوبه في الإكثار من الهدايا لسيدة القصر يفترض أن يفهم من الناس محاولات العامري للحفاظ على مناصبه واستمالاته صبح لنيل المزيد، أو على الأكثر يفهم من تصرفاته بأنه يخطط للمستقبل. لكن الألسنة السليطة تطلق الحاناً ناشزةً علماً بأن الخليفة يعرف بالعلاقة، بل إن أهل قرطبة يتداولون قوله "ما الذي استلطف به

راوي قرطبة

هذا الفتى حرماً حتى ملك قلوبهن مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن، حتى لصرن لا يصفن إلا هداياه ولا يرضيهن إلا ما آتاه؟ إنه لساحرٌ عليم، أو خادمٌ لبيب وإني لخائف على ما بيده".

تخوَّفُ الخليفة على ما بيد العامري من أموال الدولة وقت توليه الخزانة كان في محله، فقد صنع قصرًا من الفضة، وحمله أمام العامة على أكتاف الرجال من منزله إلى القصر في قرطبة ليهديه للسيدة صبح. وقد شاهدت هذا القصر بعد نقله إلى الزهراء، وهو بطول متر وارتفاع أقل من ذلك ويشبه بناء الكنائس وليس القصور. وظهر مكر العامري عندما دسَّ البعض عنه للخليفة بأنه اختلس من المال، فجلبه الخليفة والحاجب جعفر ووجدوا عنده تقصيراً بالفعل، لكن العامري قال إن المبلغ الناقص اقترضه الوزير أحمد بن حدير. وهذا الوزير صديق للعامري فأنقذه من الورطة وسدد النقص وبالتالي زاد إعجاب الخليفة بوزير خزانته وأقره على حاله حتى العام 361 الذي سلمه فيه رئاسة الشرطة الوسطى لقرطبة .

في ذلك العام أمر الخليفة بعدة تغييرات إدارية سيكون لبعضها تأثيرٌ على مستقبل الأندلس. رأى الخليفة المستنصر بالله إيقاع اسم القيادة العليا على الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن، وكتب بخط يده "ورأينا أن نوقع اسم القيادة العليا على غالب مولانا لغناؤه وجميل مقامه، فلا يخاطب من الآن إلا به تشریفاً له، إن شاء الله، والله المستعان". في العام ذاته هجمت على الوزير الحاجب جعفر علةً تيقن منها الموت، فكتب للخليفة يرجوه أن يخلفه في بيته وأهله. ردَّ عليه الخليفة بالكتابة على ظهر كتابه يطمئنه ويعدده خيراً ويتمنى له حسن الخاتمة، ومما قاله "... فإن تكن المصيبة فإننا لله وإنا إليه راجعون، وإن تكن العافية فالحمد لله رب العالمين على جديد أفضاله وجميل بلائه وعلى كل أحواله، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته". لم يتوفَّ جعفر في تلك الوقعة وعاد لعمله في انتظار مصير آخر. القرار الآخر للخليفة كان إزاحة خطة السكة عن الوزير العامري ومنحه الشرطة الوسطى إلى جانب

الاحتفاظ بوكالة الأمير هشام وخطة الموارث والقضاء في إشبيلية. السكة عُهد بها إلى وزير الشرطة العليا أحمد بن حدير. وفي الخامس من رمضان أشرك الخليفة مولاه الصقلي فائق في خطة المخزول.

من الأحداث الأخرى الرسمية في قرطبة كان حضور سفير إمبراطور بيزنطة واستقباله بحفاوة في الزهراء، وعين الخليفة ابن أبي عمروس وصاحبه سعيد كسفراء يتجولون في جليقية وممالك الشمال يحملون الكتب ويجلبون الأخبار عما يدور في تلك الديار. أمر الخليفة أيضاً بصائفة إلى الغرب تحسباً لهجوم من المجوس ولكنه لم يحصل، لكن الحرب تجددت في المغرب إذ نقض حسن بن قنون عهد الطاعة فأخرج الحكم عليه الجيش من سبته بعد أن تجمعت القوات هناك والتقت مع الأسطول بقيادة ابن رماحس. انهزم ابن قنون ونهب الجند أمواله ومتاعه وأمّنوا من استأمن في طنجة وأعادوا البلاد إلى شرعة الإسلام وهدموا منابر الشيعة. هذه الحروب كراً و فرأ لم تهدأ أبداً في بقية حياتي.

من طرائف أحداث ذلك العام كان وصول الفاسق عبد الملك وابنه مكبلين بالأغلال إلى قرطبة. وقصتهم أن تاجراً أندلسياً التقى بهما في العدة وعرف أنهما يدعوان إلى معد بن إسماعيل المرتبط ببني العباس في مصر، ويحرضان أهل المغرب على الخليفة في قرطبة. ذلك التاجر طاوعهما وتظاهر بالتآمر، ولكنه أرسل بخبرهما إلى قائد الأسطول ابن رماحس وطلب منه إرسال مركب به جند متخفون ليقبضوا عليهم. وهذا ما تم، وسيقوا مكبلين إلى قرطبة وأودعوا في سجن الزهراء الذي كان به فريق من الشعراء مثل أبي جنيش وهو يوسف بن هارون، وعيسى بن قرلمان وأصحابهم الذين أذعوا قرطبة شعراً وتعرضوا لأعراض الناس واستخفوا بالخليفة فأمر بسجنهم. ومن أبيات يوسف عن الخليفة قوله:

يولي ويعزل من يومه فلا ذا يتم ولا ذا يتم
كان يوسف قد هرب عندما سمع بحملة القبض على أصحابه، لكن الشرطة ضيّقت في البحث عنه فما كان منه إلا الحضور إلى باب سجن الزهراء متنكراً ثم أعلن عن نفسه وقال "أتيتكم بنفسي ولا مُرحب بي

راوي قرطبة

فصموني في الدرك الأسفل وعرفوا صاحب المدينة بوصولي". ولم يخرج هذا الشاعر البليغ من السجن إلا في عهد هشام الذي عفا عنه. ولأن سجن الزهراء كان صغيراً فقد استجاب صاحب الزهراء محمد بن أفلح لأمر الخليفة ذلك العام وحول دار السقائين إلى سجن، ونقل عبد الملك وابنه موثقين بأصفادهم إليها.

كروية الأرض

تواصلت زياراتي مساء كل أربعاء إلى الزهراء وقضاء الليل مع جدّي في منزل عمي عيسى، ثم زيارة دار المُلْك في اليوم التالي للقاء مع الأمير هشام. الحدث الجديد في هذا المجال أن الخليفة اختار الفقيه أحمد بن محمد بن يوسف القسطلّي للإشراف على التعليم الأشمل للأمير وأشرك عشرة صبيان آخرين في الدروس اليومية حتى لا يكون هشام وحيداً ولزرع بعض روح المنافسة البريئة في الأجواء. لم أشارك إلا في درس جدّي الأسبوعي للأمير والصبيان الآخرين، وتلقيت تعليمي في الجامع في قرطبة. في الأسبوع الأول على ذلك الحدث كانت البهجة تغطي وجه الخليفة الذي اغتبط لرؤية ولده الوحيد يجلس في وسط أقرانه ويتلقى علومه بهمة واهتمام. وزعت الهبات وأمر الخليفة بتعيين من يسهرون على تلبية حاجات الصبيان وطعامهم وشرابهم. ولحسن الحظ كان الطعام كل خميس يختلف عما سبقه، وبالتالي جربت أنواع كثيرة من الأطعمة والحلويات.

ربما كانت فرحة الخليفة بهمة هشام العلمية متسعة، أو في غير موضعها. لسبب ما كانت اهتمامات الأمير متركزة في شأن السحر والنجوم والأفلاك، وأيضاً في عالم الغناء وآلات العزف. هذا على الأقل ما لمستّه من أسئلته وحواراتنا. ذات يوم تحدث عن رغبته في جمع آثار دينية مندثرة ولها بركات.

"أبوك يسافر كثيراً ويتاجر في الأشياء الغريبة، أطلب منه أن يبحث لي عن ألواح خشبية من سفينة سيدنا نوح عليه السلام". لم أسأل هشام عن فائدة هذه الألواح إذ تحرك عندي هاجس ذاتي بالسكوت والاستعداد

بالعمل عبر هزّ الرأس فقط. وبالفعل سألت أبي إن كان بوسعه عمل شيء، فأجاب بعد وهلة من التفكير والقلق بادٍ في وجهه:

"ربما أمكن العثور عليها إذا عرفنا أين طفت السفينة بالضبط. قل له أن يسأل الكتب والعلماء عن ذلك، وأنا من جهتي سوف أسأل عنها أينما سافرت".

في مرة أخرى واجه جدّي سؤالاً من هشام اعتبرته غريباً للغاية، ولكن جدّي فاجأني بإجابة توحى بأن الأمر ليس خزعبلاتاً تماماً. قال: "هل الأرض مسطحة أم إنها كروية مثل القمر والشمس وبقيّة النجوم التي تدور في الكون؟"

"أيام جدكم الأمير محمد بن الرحمن الأوسط، رحمه الله، تحرك أفراد إلى طلب العلوم والاجتهاد، اشتهر منهم على سبيل المثال أبو عبيدة البلنسي المعروف بصاحب القبلة". عدل جدّي من عمّته بعد أن أدلى بهذه المعلومة الجغرافية لمن حدّد التعرف على القبلة، وواصل "هو مسلم بن أحمد بن أبي عبيدة، الفلكي دارس الجغرافيا الذي قال إنه أثبت أن الأرض كروية، وليست مسطحة، وإن الشتاء في الشمال يعادله في ذات الوقت صيف في الجنوب. لكن الرجل وصحبه لم يُمنحوا الفرصة لنشر معرفتهم وتسلّط عليهم الشاعر ابن عبد ربه الذي اتهمهم بنسب الأرزاق إلى الكواكب، وتسبّب في محاربة ذلك العالم الفلكي حتى رحل عن الأندلس. وكان ابن عبد ربه من مهرة الشعراء ومقرباً من الأمير ومن ابنه المنذر الذي خلفه، وامتدت حياة ابن عبد ربه لعهدي الأمير عبد الله والخليفة الناصر إذ مات عام 328 هجرية، رحمهم الله جميعاً".

بالرغم من تعليق جدّي أن الشاعر المنكر لكروية الارض كان مقرباً من أربعة أمراء متتالين من أجداد هشام، إلا أن هذا الأخير انتشى لوجود من أثبت صحة رؤيته، وسأل جدّي إذا كان الفلكي قد خلف كتباً تشرح رأيه. "لا أعرف إن كان فعّل ذلك، والدكم الخليفة، أطال الله عمره، أعلم مني في ذلك. أنا لا أتذكر شيئاً عندما عملت في مكتبة

والدكم في حياة جدكم الناصر رحمه الله. لكن الشاعر نفسه شرح الأمر
بأبيات مشهورة تُسجل موقف غريمه البلنسي:
قال الشاعر عن الفلكي وأصحابه:

زعمتَ بهرام أو بيدخت يرزقنا لا بل عطارد أو مريخ أو زحلا
وقلت إن جميع الخلق في فلك بهم يحيط وفيهم يقسم الأجلا
والأرض كروية حف السماء بها فوقا وتحتا وصارت نقطة مثلا
صيف الجنوب شتاء للشمال بها قد صار بينهما هذا وذا دولا
كما استمر ابن موسى في غوايته فَوَعَرَ السهلَ حتى خلنه جبلا
أبلغ معاوية المصغي لقولهما أني كفرت بما قالا وما فعلا
طوال شهور تلت على رواية جدِّي هذه كنت أفكر هل الأرض
كروية فعلاً، وهل هناك أناس على نصفها الأسفل؟ هل نحن من ضمن
من يدورون في فلك كما جاء في القرآن، وإن كان كذلك هل ندور
ككرة أم على أرض مسطحة؟ وإذا كانت الأرض مستديرة فكيف لا
تدحرج الأشياء عنها إلى أسفل؟ وإذا كانت مسطحة فما هو عمقها وماذا
يوجد بعد العمق؟ ثم ماذا يعني العلي القدير في قوله: "يكور الليل على
النهار ويكور النهار على الليل".

آنذاك، أعربت لشيخني في الجامع عن بعض هذه التساؤلات معتمداً
على أبيات الشعر إياها، ولكن من دون أدنى إشارة إلى الأمير هشام من
قريب أو بعيد. قال الشيخ يونس إن هذه تساؤلات فلكية وفلسفية "وأنت
هنا لتتعلم الكتابة والخط وتحفظ القرآن قبل أن تبدأ في الفلسفة
والرياضيات والفلك. إذا قلت لك ستجد الإجابات في كتب فلان وفلان
من علمائنا، فأنت لا تحسن القراءة بطلاقة ولا تفهم شيئاً في علوم
تفسير القرآن حتى تستوعب". بعد تلك البهدلة من الشيخ أمام حلقة من
المريدين، ارتأى أن يعطينا بعض العلم ولو على شكل إنذار للمتفلسفين.
قال "أول من اشتهر بالفلسفة في الأندلس هو أبو عبد الله بن محمد ابن
مسرة القرطبي. كان حظ هذا النهج فقيراً إذ انصرف الناس إلى العلوم
الدينية واللغوية أو للطب والهندسة والفلك. أي العلوم النافعة يا سليمان،

وليس علوم بيع الكلام". ضرب الشيخ العصا التي يحملها في يمينه على راحة كفه الأيسر بصوت رنان وواصل شروحه: "نبذت الفلسفة منذ بداية العهد الأموي لأنها تبيح التفكير في الوجود والعدم وتستعمل مفردات تسهل اتهام متعاطيها بالإلحاد والزندقة وتمهد لرحمهم بالحجارة أو قتلهم من الحكام تقرباً لقلوب العامة".

"لو سمح سماحة الشيخ بسؤال" تجرأ أحد الصبية الأكبر سنأً وحجماً على مقاطعة الشيخ يونس قبل الانتهاء من شروحاته "أريد فهم إن كان المنع يتم لأن الفلسفة زندقة أم لأن الحكام يتقربون للرعية بمنع الفلاسفة؟" وقبل أن يستكمل الشيخ شروحه صدح تأكيداً من آخر "خلفاؤنا الآن أقوياء ولا يحتاجون للتقرب للعامة".

"العامة هم الأمة التي بدونها لا يوجد حكام وخلفاء، والتقرب إليها فرضٌ إلهي". كان الشيخ يتحدث بنبرة أسرع حتى لا يقاطعه أحد بينما صرّب يمينه ليسراه يعلو رنينه إنذاراً لمن سيقاطع. "هل رأيت يا سليمان نتيجة التفلسف؟ في عهد الخليفة الناصر، وقبل أن يتمكن من قلوب الناس بفرض النظام وإسقاط الثوار، أحرقت كتب أول فلاسفتنا ابن مسرة القرطبي. اتهموه بالزندقة فهرب من الأندلس بحياته وتردد في بلاد المغرب والمشرق، وعاد بعد سنوات للأندلس مظهرًا أنسك فانقسم الناس إلى فريقين، فريق رآه إماماً في علمه وزهده وفريق طعن فيه وقبح مذهبه. بل إن علماء من المشرق والأندلس ألفوا كتباً تنقد مذهبه، وغيرهم خطّوا كتباً أخرى مؤيدة له. لكن عادت وكثرت الأقاويل ضده فأمر عبد الرحمن الناصر بإحراق كتبه خارج باب جامعنا الشرقي. مات ابن مسرة عام 319 هجرية، وحمل تلاميذه أفكاره من بعده مثل رشيد القرطبي، وإلياس بن يوسف الطليطلي وخليل بن عبد الملك، ومحمد بن عبد الله بن عمر القيسي، وعدة مشاهير غيرهم من الجيل الثاني لزالوا على قيد الحياة يتمتعون الآن مثل غيرهم بدعم الخليفة الحكم، أطال الله عمره، لكل أنواع العلم ومنها علم الفلسفة".

آنذاك لاحظت الفارق بين التعلم إلى جانب ابن الخليفة في أفخم

قصور الأرض وإلى جانب أضخم المكتبات، وبين التعلم من الشيخ يونس الذي ترن عصاه على يسراه وعلى جماجمنا ورؤوس أصابعنا وأظهر أكفنا. أنت مع الشيخ يونس متوقد الذهن متحسب الضرب المفاجئ ومقيّد الخيال في إطار رغباته. لكن أبي كان يرفض أية تلميحات مني بالانضمام إلى الدرس اليومي في الزهراء وترك الجامع. "في المستقبل سترى أن تعليم الجامع لا يستهان به، كما أن كبار العلماء وقادة البلد تعلموا مثلك في الجامع. وأنت تنعم الآن بالعالمين، في قرطبة والزهراء، فأحمد ربك ولا تكن ملحاحاً".

لم يكن والدي يرغب في تعرضي أكثر من اللازم لتأثيرات الزهراء وسكانها، وقد سمعته ذات ليلة يتجادل مع جدّي عن جدوى زيارتي للزهراء تطرقاً للحديث عن هشام وعمما يعرفه والذي مما أخبره به، وكانا يظنان أنني نائم قريبهما.

"هشام هذا تلميذك لا يبدو قويم العقل مما أسمعته عن تصرفاته وأقواله".

"يا أبا سليمان، الغلام مسكين، وهو مثل أبيه ذكي ولكنه واقع تحت تأثير والدته. هي التي تفتح في الودع وتقرأ الكف وتستشير الدجالين تحت آذان وعيون الصبي الذي يقرأ في عيون أبيه حبّ أمه. يعني لا يوجد عنده مبرر واحد للشك في صحة سلوكها".

"ربنا يستر عليها، لا أدري لماذا لم يجد غير مغنية باسكية لتنجب له".

"لقد حاول مع الكثير غيرها قبل ذلك، ولكن الله رزقه منها فقط، بالإضافة إلى أنها جميلة وصوتها خلاب للعقول. ولا تنس أنه أنجب على كبر من السن"

"وهل أمه تحدّثه عن سفينة نوح وطاولة سيدنا سليمان؟"

"يبدو أنه يريد إنجاز شيء مثل إنجاز أبيه في عالم الكتب، ولذلك هداه عقله لجمع الآثار الدينية النادرة، هذه هفوة وتزول". قال جدّي لطمأنة أبي وللحفاظ على استمرار زيارتي الأسبوعية للزهراء، واسمعه ابنه همهمة تعني عدم الاقتناع، ولكن القبول بالتفسير أيضاً.

في الجامع

لم يكن أسلوب الشيخ يونس هو السائد في الجامع، ورغم وجود بعض المتمردين في حلقتنا ممن يُفقدون الشيخ يونس صبره، إلا أننا جميعاً كنا في غاية التجاوب والاستمتاع في حلقة الشيخ حمدان، أو الجاحظ كما لقبناه. لم تغضبه هذه الكناية، فعيناه كاننا جاحظتين بالفعل، كما أنه مغرم بكتب العلامة أبو عثمان بن بحر الجاحظ وبقصصه ومواعظه التي استعملها في تأديبنا. قال جاحظنا في أول حلقة لفريقنا معه: "سأروي لكم قصصاً من الكتب، وعليكم أن تسردوا بعد ذلك قصصاً شبيهة أو مكملة من واقع حياتكم أو قصص عائلاتكم وجيرانكم". ساد الصمت بيننا في انتظار الروايات الجاحظية، لم نكن نعرف أن شيخنا سوف يتلمس قدراتنا المتنوعة عندما يأتي دورنا في السرد.

"سأعطيكم مثلاً في فنون البخيل المتظاهر بالكرم". تقاربنا إلى بعضنا حول الشيخ وركنت رأسي على كفي بينما كوعي على ركبتي وأنا متربع. "طلب سيد من طباخه التاني في إنضاج الجدّي المشوي كلما حلّ بهم ضيوف: لا تضع الجدّي في الفرن إلا إذا استبطأتك أنا في إنضاجه على مسمع من الضيوف، فتردّ علي حينها: بقي قليل لينضج، ثم تضعه في الفرن لوهلة وتجيئنا به وكأنني قد أستعجلتك. فإذا وضع بين أيديهم غير مُنضج، احتسبت عليهم إحضار الجدّي الذي لن يأكلوه. فتعيده أنت إلى التنور لينضج ثم تحضره غداً بارداً لنأكله فيقوم الجدّي الواحد مقام جديين" قبل أن يكمل الشيخ قصته كانت مقارنة حقيقية قد قفزت إلى ذهني، فواصلت الاستماع لبقية القصة بينما ذهني يرتب روايتي

الخاصة. "ذات يوم أحضر الطباخ الجدّي ناضجاً، فعمل به القوم وأكلوه. وكان نصيب الطباخ ثمانين جلدة".

ضحكنا بصوت منخفض حتى لا نزعج حلقات العلم الأخرى داخل الجامع حيث طلب الجميع الدفء في ذلك اليوم الربيعي المهدد بالمطر. إن الهدوء في الجامع قدرة إلهية، ففور اجتيازك الباب الخارجي بين الشارع وفناء الجامع تُخرس كل الأصوات، لا زعيق بئعين ولا نهيق حمير أو مجادلات بين البئعين والشارين، ولا دقات حذاء سيدة أو حوافر حصان، ويصبح الهمس سيد طبقات الصوت. أزحت كفيّ عن ذقني واعتدلت في مجلسي. "هل لدى أحدكم قصة مشابهة وتدور حول البخل أو الكرم؟" رفعت يدي مثل آخرين فطلب مني الشيخ أن أسرد روايتي.

"كنت مع جدّي وآخرين في ضيافة صديق للعائلة بمناسبة سعيدة لا أتذكرها بالضبط. توقعنا تناول الغداء في منزله، وممر الوقت وقرصنا الجوع. عندما هدأ الحديث وقلّ الكلام، وقف المضيف وخرج من الصالون سائلاً أهل بيته بصوت مرتفع عن الطعام. وعلى الفور شاهدناه يمسك بجدّي من قرونيه ويجره أمام باب الصالون جيئةً وذهاباً وكأنه يجد صعوبة في ضبطه لذبحه. بالطبع أخذ الضيوف يعلنون عدم الحاجة لهذا التكليف والجهد، وأنهم يتقبلون الطعام المتوفر في البيت، بينما المضيف يحلف بالإيمان على نية الذبح إكراماً للحضور. في النهاية استقر الحال على تناول الطعام الآخر المتوفر والذي حُضّر بسرعة، ونجا الجدّي من السكين".

عندما مدح الشيخ روايتي الذاتية، كانت عيناه تجحطان في شخصٍ آخر خلفي يبدو أنه استمع إلى الرواية. استدرت لحظة ثم عدلت رأسي وتذكرت أنني شاهدته قبل ذلك. أدت رأسي مجدداً ورايته يتبسم، فتذكرت المترجم يوم اللقاء مع السفير البرشلوني. آنذاك كان يرتدي ملابس ملونة ومزركشة وحليق الذقن، والآن لا يميزه جلبابه الأبيض

ولحيته القصيرة عن أي من رواد جامعتنا. "هذا يا شيخ مترجم كتالوني يعمل مع سفير برشلونة".

"بل أنا طالب علم هنا وحضرت مع السفير للترجمة ولمواصلة التعلم في قرطبة". كان الجواب موجهاً لي ولأقراني في الحلقة لأن شيخنا كان يعرف ذلك المترجم ورحب به مخاطباً إياه باسمه "أهلاً وسهلاً جريبر، يبدو أنك تعرّفت على سليمان".

قبل أن تنفضّ ساعتنا عرفنا من الشيخ حمدان أن جريبر ليس المسيحي الوحيد من خارج الأندلس الذي يتلقى تعليمه الآن في جامعتنا، وأن جريبر إفرنجي من بلاد غاله وقد درس هنا قبل ذلك وعاد مع السفير البرشلوني وسيبقى لاستكمال علومه في الفلك والرياضيات والفلسفة. سألني جريبر فيما بعد إذا كان جدّي الذي رافقته في زيارة السفير هو ذاته الذي رافقته في قصة المضيف البخيل، فأكدت له ذلك. لم تطل إقامة جريبر في قرطبة، ولكن علاقتنا توطدت رغم فارق السن والمدارك. في حقيقة الأمر أبلغت والذي بالقصة وبإعجابي بهذا الإنسان الملم بعدة لغات وعلوم، وبكونه إفرنجي ويعمل مع الكونت البرشلوني ويتعلم في مدينتنا. نزولاً عند رغبتني التقى أبي مع جريبر ودعاه لتناول الطعام في بيتنا وطلب منه اعتبار بيتنا مثل بيته وأن يبلغني عندما يحتاج أي شيء. كان في غاية التهذيب، وأكد أنه أحياناً يحتاج للمساعدة ولن يتوانى في طلبها، لكنه بالطبع لم يفعل، وكان يرسل التحيات لأهلي كلما التقينا في الجامع.

بعد شهور طويلة من ذلك اليوم أوقفني جريبر، في فناء البرتقال إثر إلقائي التحية عليه، ليخبرني أن موعد انتهاء تلقيه للعلوم اقترب وأن العلماء سيعقدون له جلسة للتخريج في القريب. أبلغني بالموعد وأكدت له أنني سأحضر الجلسة، التي كانت في العادة مفتوحة أمام كل الرواد ليلقوا، مع بقية العلماء، ما يريدون من الأسئلة على التخريج. أبلغني بأسماء شيوخه الذين سيحضرون، ولم أكن أعرف أيّاً منهم. تشعب حديثنا بعد قوله: "أنت وكل الرواد محظوظين هنا في قرطبة وإشبيلية

والأندلس عموماً. لديكم كل سبل تلقي العلم بيسر وسهولة. هل تعرف أن مدناً كاملة في أماكن أخرى من العالم لا يوجد فيها من يقرأ ويكتب سوى الرهبان؟"

"لقد أخبرني والدي مراراً بأنني محظوظ للتعلم هنا، بل اعتبرني محظوظاً أكثر من غيري بسبب درسي الأسبوعي مع الأمير هشام في الزهراء". أوقفت لساني فوراً عن متابعة الحديث، وبدا القلق والتلعثم على وجهي، إذ رفع جريير حاجبيه، وفتح عينيه الزرقاوين، ولكنني لم أعرف إن كان قد استغرب من تلعثمي أم من محتوى جملتي التي خرجت عفويًا. استدركت خطأي بالقول "نصيحة جدّي هي ألا أتحدث عن درسي الأسبوعي هناك لأي إنسان، فالرجاء أن تُبقي الأمر بيننا".

بدأت جدية طيبة على محيا صديقي الكبير وجلس على حافة نافورة الماء ليصبح وجهه مقابل وجهي. "سأخبرك أيضاً بسرّي حتى تظمن أنني سأحفظ سرّك". اقتربت منه ووضعت قدمي اليمني على حافة النافورة إلى جانبه ونظرت إلى وجهه مباشرة عملاً بوصية جدّي بأن أنفحص ملامح من يحادثني. "أنت تتلقى درساً أسبوعياً مع أميركم، وأعتقد أنك تكون بصحبة جدك، وأنا أعطيت دروساً لقيصر صغير ابن قيصرنا أوتو الأعظم، وسأعود هذا العام إلى تعليمه مره أخرى. كلانا على علاقة بالخلفاء والقيصرة". أصابتني الدهشة وليس الاستهجان، فلماذا بوسعي مشاهدة الخليفة وزيارة ابنه هشام وتعليم جدّي للأمير، ولا يكون جريير الذي صاحب سفير برشلونة ولديه كل هذه العلوم، لماذا لا يكون على علاقة بالقيصر. كان التطفل يدفعني بشدة لطرح الأسئلة، ولكنني عرفت أن إجاباته ستعني أن أعطيه أيضاً تفصيلات لا أملكها عن حياة الخليفة. "ماذا تقصد بقولك قيصر ابن قيصر، هل أوتو الأعظم مات وورثه ابنه؟"

"لم يمت بعد، ولكنه يتحسب للموت. بعد أن نصبه البابا من ملك إلى قيصر مكافأة على فتوحاته في وسط وشرق أوروبا، أعلن أوتو الأول

راوي قرطبة

أن ابنه أوتو الثاني هو الآخر قيصر إلى جانبه ويشاركه ويتعلم منه الحكم. وهذه أول مرة تحدث في التاريخ".

"وكم عمر أوتو الثاني؟"

"ولد عام 955 وأعلن قيصراً عام 967، وعمره الآن ست عشرة سنة، وقد توليت تعليمه لستين بعد أن أصبح قيصراً". قال جربير كلماته الأخيرة بهمس أشد وهو يقرب وجهه مني، فوضعت إصبعي على شفتي في إشارة إلى أنني لن أخبر أحداً. على الأرجح أن جربير أيضاً ممن يقرأون تعابير الوجه مثل جدّي الذي يؤكد وجود ما لا يقل عن خمسمائة تعبير مختلف وكل منها يعكس ما يدور في داخل صاحبها. كان جربير يمسك بقطعة عملة فضية وينقلها فوق أصابع يده دون الاستعانة باليد الأخرى، ولم أتمكن من كبح التمظهر وادعاء الأهمية في مقابل قصته.

"لقد شاهدت في مطلع العام الهجري عملية ضرب دنانير ذهبية في الزهراء باسم الخليفة الحكم. هل شاهدت مثل ذلك في حياتك؟"

"لا لم أشاهد، ولكن ضرب العملات من النحاس والحديد والفضة والذهب معروف منذ القدم. صف لي ما رأيت، إذا لم يكن ذلك سراً بالطبع".

"ليس بالسر، فتلك الدنانير الجديدة أصبحت في متناول الناس، وصناعتها أسهل مما كنت أظن. يصهر الذهب في وعاء حديدي داخل فرن، ثم يُصب على لوح رخام محفور بسمك رقيق. قبل أن يبرد لوح الذهب يُحمل إلى طاولة أخرى وتضرب منه دوائر الدينار المتساوية الحجم والوزن. هذا الضرب يتم بشاكوش من الحديد اللين على أنبوب من البرونز. علامات الاهتمام لم تغادر وجه جربير على رغم سهولة الإجراء للآن، فواصلت: "الدوائر المقطوعة حُملت إلى صاحب السكة، محمد بن عامر حتى ذلك اليوم. قال لي الأمير هشام ونحن نراقب قطع الدوائر إن صاحب السكة سيزنها ويفحصها. وكل صرة كانت تعود من الفحص يسخن العمال قطعها ثم توضع بين قالبين صنعهما النقاش وخطّ عليهما الكلام، فتضرب مرة أخرى فيطبع على وجهيها الخط، ثم تسخن

قليلاً ويجليها العمال وتعاد للخزنة". ما ضرب على ذلك الدينار كان: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له. ضُرب هذا الدينار في مدينة الزهراء سنة واحد وستين وثلثمائة). وعلى الوجه الآخر، (الإمام الحكيم أمير المؤمنين المستنصر بالله، الحاجب جعفر. صاحب السكة عامر).

نظر جربير إلى القطعة الفضية في يده وقال وهو يطالع ما كُتب عليها "تعرف أن العملة كانت تضرب في بلادكم في قرطبة قبل أن تنقل للزهراء، وأن أسماء الأمراء قبل عهد الخلافة لم تضرب على العملة". لم أكن أعرف ذلك رغم أن الأمير هشام أطلعني على مجموعة نفود يحتفظ بها كأثر وقال إنها تشمل العملة الأندلسية من بداية الفتح، وقررت أن أطلب مشاهدتها إذا أتحت فرصة أخرى على أمل التدقيق بين الفوارق فربما اكتشفت شيئاً آخر. قبل أن نفترق ذلك اليوم طلبت من جربير أن يخط لي ورقة بها أسماء ملوك النصارى الذين يحكمون الآن وحدود ممالكهم، وقد وعدني بعملها، وسلّمني إياها بالفعل قبل سفره.

كانت ثلاث ورقات بخط عربي كوفي جميل، ولا زلت أحفظ بها لآن مع مراسلات أخرى وصلتني من جربير في العقود الثلاثة بعد فراقنا. موجز ما كتب لي وأنا فتى هو: الامبراطورية الرومانية المقدسة يحكمها القيصر أوتو الأعظم، وهي الشق الأكبر والأقوى من الامبراطورية الرومانية عندما انشقت. الجزء الآخر هو الامبراطورية البيزنطية. حدود حكم القيصر أوتو تمتد من برشلونة جنوباً حتى بحر الشمال وتضم كل بلاد الجرمان وتقترب من مدينة روما. أما بيزنطة فأراضيها تتمدد على الضفة الشمالية للبحر الرومي وكل جزره، ومن شرق جبال الألب حتى شمال شرق زاوية البحر الرومي حيث تجاور إنطاكية وبلاد المسلمين في الجنوب وتصل إلى البحر الأسود في الشمال. مدينتهم الرئيسة هي القسطنطينية، ويحكمها الآن الطفل باسيل الثاني ابن رومانوس اللعوب الذي أحيط بحاشية فاسدة وتزوج ابنة صاحب حانة وهي تيفانو الجميلة التي أنجبت باسيل. بعد موت رومانوس

مجنوناً، تزوجت تيفانو بالقائد نقفور ويدير معها البلاد الآن منذ تسع سنوات ريثما يكبر باسيل.

عن ممالك شمال الأندلس كتب جربير: ليون هي أكبرها وأقواها إذ استعادت التأسيس في المنطقة التي لم يحتلها العرب شمال غرب ايبيريا، وتعرف أيضاً باسم جليقية. المملكة تنسب لمدينة ليون ولا تضم مدناً أخرى تذكر إلى جانبها. حاكم ليون الآن ومنذ خمس سنوات هو ردمير الثالث ابن شانجة السمين الذي تعالج في قرطبة أيام الخليفة الناصر. إمارة نافار هي الثانية في الحجم والقوة، استقلت عن ليون عام 962 ويحكمها شانجه غرسية الثاني ابن غرسية الأول الذي توفي العام الماضي. مقر نافار هي مدينة بنبلونة الباسكية. أحدث الإمارات هي قشتالة التي استقلت العام الماضي، 970، عن ليون ومقرها بُرغس ويقودها فرنان غُنصالص.

غرامي بالتعرف على حقبات التاريخ المتعاقبة كان أكبر مما يحاول جدّي زرعه في نفسي من حب لتسجيل الواقع اليومي والإلمام بالقضايا والروايات المعاصرة. هو بالطبع على حق حينما يقول "حتى يتعرف من هم بعدك يا سليمان على حقبات تاريخ مروية بصدق، عليك أن تهتم بما يدور حولك من أحداث. الأمران لا يتناقضان، بل يُكمل بعضهما الآخر". أثرت ورقات جربير عليّ ودفعتنني لجمع أجوبة عن أصول الامبراطورية الرومانية قبل أن تنشقّ وتتقلص. كل معلومة من الماضي شوّقتني للمزيد مما هو أقدم منها. قبل ظهور الإسلام وهجرة الرسول منذ حوالي 360 عاماً، كانت شبه الجزيرة الايبيرية وبلاد العدة في المغرب تحت حكم القوط. أما بقية حوض البحر الرومي جنوباً وشرقاً وشمالاً، كانت تحت الحكم البيزنطي الذي ورث الإقليم عن الامبراطورية الرومانية. لكن قبل قيام الامبراطورية الرومانية وُجدت حضارات أثرت في الحياة على ضفاف البحر، مثل الفينيقيين الذين أقاموا المدن التجارية على الضفتين وأبحروا بتجارتهن وبيذهن بين الموانئ. الزحف الإسلامي أنهى النظام البيزنطي بمكوناته الدينية واللغوية في شرق وجنوب البحر

وأيضاً في الأندلس حيث بدأت حضارة جديدة بلغة ودين جديدين في تلك الجغرافيا. العرب هم الذين خرجوا بالإسلام من جنوب ووسط شبه الجزيرة العربية، ولكن من هم سكان ما بين النهرين وبلاد الشام ومصر وبرقة والمغرب الأدنى والأوسط والأقصى والذين هجروا لغاتهم ويتحدثون العربية الآن ومعظمهم يعتنقون الإسلام؟ نحن في الأندلس خليط من كل أولئك ومن سكان الأندلس الأصليين أيضاً.

ما عرفته أيضاً في دروسي الأولى في الجامع أن اللغة لا تنفصل عن الكتابة والخط، وإن انفصلت وبقيت منطوقة فقط فمصيرها الضياع والاندثار. قبل الإسلام وفي عهد الرسول محمد كان في شبه الجزيرة العربية من يجيدون الكتابة ويوثقون الأحلاف، ومن أشهرهم سبعة عشر رجلاً أجادوا الكتابة والقراءة، ومنهم عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، والأربعة تولوا الخلافة تباعاً بعد أبي بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين. عندما سألت الشيخ حمدان عن أصول الخط العربي قال أمام حلقتنا من الرواد: "إن الخط العربي قبل القرآن كان نبطياً وجاء إلى الجزيرة مع التجار فعُرف بالخط المكي والمديني نسبة إلى مكة والمدينة". جال الشيخ بناظره في سقف الجامع ووجه رأسه باتجاه المنبر شديد الزخرفة الخطية بماء الذهب على خلفية زرقاء: "لو تأملتم في الكتابات الزخرفية في المنبر وأعلى القباب على الأبواب الخارجية، وأينما وُجِدَت الكتابات ستلاحظون خطوطاً بحروف منقطة، وأخرى بحروف غير منقطة، هل انتبه أحدكم لذلك؟" لم يتجرأ أي منا بالكذب والادعاء، ولكن صور تلك الزخارف مرت في مخيلتي ورأيت ما يقصده الشيخ. "طالما أن أياً منكم لم ينتبه لذلك، فكلكم طبعاً تجهلون أن التنقيط دخل على الخط العربي بعد مائة عام من الإسلام. والسبب أن الناس الذين دخلوا الإسلام من غير العرب، تغلبوا في قراءة قرآن بحروف غير منقطة، فاخترع التنقيط لتمييز القاف عن الفاء، والتاء عن النون والتاء والباء والخاء عن الحاء والجيم، وغير ذلك الكثير مما هو قابل للخلط. بعد التنقيط بسبعين عاماً تطور التشكيل

فوق الحروف لزيادة السهولة في القراءة. في كل منطقة كتب الناس بشكل هندسي مختلف ولكنه مفهوم للآخرين، ونحن هنا استعملنا الخط الكوفي للزخارف ونسميه ، بعد تعديلات بسيطة، بالخط الأندلسي".

في ذلك اليوم طلب الشيخ منا مهمتين. الأولى، أن يكتب كل واحد صفحة بالمحتوى والخط الذي يختاره، مرة بتنقيط وأخرى بدون تنقيط. والمهمة الثانية أن نتأمل بوعي في الكتابات على أبواب الجامع ودخله لأنه سيوجه إلينا أسئلة غير محددة. عندما حاول كل منا لاحقاً، بطلب من الشيخ، قراءة نص جاره غير المنقط، فشلنا في فهم محتوى المكتوب. ومن الاختبار الثاني عرفنا متى تغيرت الكتابة في الأندلس، ومتى أقيمت التوسعات في الجامع.

أخبرت جدّي لاحقاً بما قاله جريير عن عدم وجود أسماء الأمراء والوزراء على العملات قبل عهد الخلافة، فأكد لي صحة ذلك الخبر وأضاف أن العملة لم تضرب لسنوات طويلة في عهد الناصر، ولم يتم ذلك إلا بعد أن أراح الأندلس من المتمردين ووحد البلاد واستردّ بعض ما ضاع من أطرافها الشمالية.

"الدينار الخليفي كان أول ما ضرب في عهد الناصر، رحمه الله. وقد عين على السكة الكثير من الناس وظهرت خيانة أحدهم واسمه سعد، يمكنك مطالعة اسمه الآن على بعض الدينانير الذهبية رغم أنه أودع السجن". فتش جدّي في صرة نقود يحملها عن دينار عليه اسم سعد كصاحب لسكة الناصر، ولكنه لم يجد أيّاً منها. "ذلك الشقي ضرب دنانير مغشوشة، كانت نحاساً مغطى بالذهب، واختلس الفارق. بسبب تصرفاته هذه، التي كشفت للناس، تزعزعت الثقة في الدينار الخليفي الأول وبحثوا عن العملات الأسبق. وبعد موت الناصر كان من أول أعمال ابنه الحكم إزاحة كل من كان له منصب في ضرب النقود، وتعيين أناس جدد على أمل استعادة الثقة".

مهر البنات

وددت التأكد من الكتابات على الدنانير وتفحص القديم منها قبل أن يسافر جربير حتى أجدد معه الحديث في ذلك الموضوع. وفي أول فرصة لاحت بعد أسبوعين، طلبت من الأمير هشام أن يفرجني على قطعه الأثرية، وأخبرته بمعلوماتي الجديدة عن تنقيط الحرف العربي واحتمال أن نتعرف على تاريخ العملات من نقط حروفها. غاب هشام وهلة وعاد ليقول إن والدته تفضل أن أتفرج معه على العملة في صالونهم وليس في دار المُلْك حيث نتلقى الدروس. ذهبت وإياه وكل ما يدور في ذهني هو التركيز على العملات لجمع معلومات عنها ذات قيمة للحديث. فجأة وجدت نفسي أمام شابة فائقة الجمال وتفوح من حولها رائحة عطر أخاذة. لم يدهشني كثيراً سماع هشام يخاطبها "أمي أين الصندوق؟" فقد لمست الشبه بينهما فوراً. بيضاء الوجه وما ظهر من الجسد، شقراء الشعر، متوسطة ومعتدلة القامة، متناسقة الأطراف دون سمته أو ضعف. كانت بالقطع أصغر من عمر الخليفة كثيراً، وربما نكحها وهو في السابعة والأربعين قبل أن تُكمل الخمسة عشرة من عمرها، إذ لا تبدو الآن في أكثر من منتصف العقد الثاني، بينما خليفتنا تجاوز الثامنة والخمسين. سمعت سابقاً، مثل كل أهل قرطبة، أن صبح كانت مغنية وحظي بها الحكم بعد أن احتلت مرتبة أم ولد وتميزت بذلك وبجمالها عن بقية الحريم.

شاهدت في صندوق هشام عشرات الأنواع المختلفة من العملات، أقدمها من دمشق وهي قطعة ذهبية عليها رسم شيخ بشعر منسدل وذقن طويلة وكتب في محيطها (لا إله إلا الله وحده. محمد رسول الله) وهي

من عام 77 هجرية. وعلى درهم فضي من عام 79 كُتبت الكلمات ذاتها حول رسم لملك يلبس تاجاً وقلادةً وبذقن قصيرة مهذبة. أما عملات الأندلس الأولى فهي مستديرة أيضاً وبدون رسومات وكتب في وسطها (الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد). وشاهدت الصوليدو الروماني بكتابة لاتينية وعربية، وقطعاً كتب عليها باللاتيني وفي وسطها نجمة وكتابة عربية على الوجه الآخر نصها (محمد رسول الله. ضرب هذا الدينار بالأندلس سنة ثمانٍ وتسعين). على دينار فضي قرأت على الوجه الأول (لا إله إلا الله وحده لا شريك له. بسم الله ضرب هذا الدينار بالأندلس سنة خمسٍ وثلاثين ومية). وعلى الوجه الثاني (الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون). أما التنقيط فبدأ من العملات التي ضربت في عهد الداخل وما تلاه من أبنائه وأحفاده، وقد اختلف كل دينار في كتاباته عما سبقه، ولكنها بقيت بدون صور وأسماء حتى بداية عملة الناصر الخليفة التي خط عليها اسمه ولقبه.

في طريقنا قافلين إلى دار المُلْك روى لي هشام قصة مواطن قرطبي مع محمد بن عامر قبل أن تؤخذ منه دار السكة. "جاء الرجل إلى ابن عامر ومعه حلّي فضية، وأخذ يشتكي من كلفة النفقة لتجهيز ابنته حين تزف إلى عريسها. قال إنه أنفق الدنانير التي يملكها ويريد تحويل الحلّي إلى دنانير ليكمل تجهيز ابنته". هذا الإجراء كان متبعاً، ولكن في العادة يجب فحص الحلّي وصفائها ثم تذاب وتضرب عملة، ويخصم منها ضريبة لدار السكة وعمالها. في حالة صاحبنا المتعب من تجهيز ابنته، وحسب رواية هشام، فإن صاحب السكة أخذ يضحك وهو يستمع للشكوى، ثم أنقذ الرجل صرّة دنانير تزيد عن قيمة حليه وبقية معادنه التي حملها للزهاء.

هذه معضلة حقيقية بالفعل. لا أقصد الآن أن محمد العامري أنقذ الرجل عملة قبل أن يزن حليه ويفحص معادنه، فهذا إجراء يمكن تفهمه

وربما غطى العامري الفارق من جيبه مقابل انتشار قصة كرمه ومساعدته لهذا العربي. المعضلة هي تجهيز الآباء لبناتهم. في عادات العرب أن يطلبوا مهوراً لبناتهم، بعضه مقدم وغيره مؤخر يُدفع لها في حالة الطلاق. هذه المهور كانت تحد من زواج الشبان متوسطي الحال وتقلل فرص البنات. الأمر انقلب إلى ضده دون أن تتحسن فرص البنات العربيات. في سنوات النصر والغزو والسبي للفتيات النصرانيات يصبح من السهل للشبان العرب والمسلمين الزواج منهن دون مهور أو كلفة تذكر، وتبقى العربيات في بيوت آبائهن. من هنا ظهرت فكرة الإغراء بالزواج عبر تقديم الآباء كلفة العرس وتجهيز الابنة بما يحتاج بيتها الجديد.

تلك واحدة من مشاكلنا الاجتماعية. بالطبع لا نفكر فيما يسببه السبي من مشاكل لأهل الأطفال والفتيان والفتيات المسيبيين، ولم توجد أية حركة مدنية تعارض السبي الذي كان أقصر الطرق بين الحاكم وقلب الشعب. رغم ذلك؛ ولو قُدر لي الحديث عن مشاكلنا في فترة الخلافة الناصرية والمستنصرية، لقلت على ضوء ما سبق في الأندلس والعالم، إننا هنا في الجنة. الذين يموتون في بلادنا من التخمّة يفوق تعدادهم الموتى بحدّ السيف غازياً أو مغزياً. الفقر نسمع عنه عند الآخرين ولا نراه إذ يتكفل نظامنا بكل محتاج قبل أن يتدهور وضعه. التعليم مجاني ومتوفر للجميع، ولا فوارق في طبقات أهل العلم إلا بعلمهم. أصولنا العربية مدعاة الفخر تصيب الآن كل الأندلسيين بمن فيهم النصارى واليهود. أطباؤنا يأتيهم كبار الأمراء من بقية العالم للعلاج. جامعتنا في الفترة الخلافية أجازت العلم لأكثر من ألف طالب من بلاد الغرب المسيحي. في كل عام يستطيع أيّ منا الاشتراك في غزوة صائفة تدوم شهر أو اثنين ويعود منها بالسبي والغنائم والثواب. مثل هذه الأمور لا قيمة لها لمن يعيش في وسطها، ولا يقدرها حقها إلا إذا عرف ما سبق وما هو سائد في بلاد المسلمين الأخرى وفي مناطق الأرض خارج الأندلس.

راوي قرطبة

في سنوات عمري الطويلة للآن، والحمد لله، سافرت كثيراً، وسمعت من أهل المعرفة والاطلاع والتجار مدحاً عزيزاً للأندلس وشعبها وبغضاً لحالهم وأمنية بالرحيل لبلادنا. في كل رحلاتي صدمني الفارق في جمال نسائنا وحسن رجالنا عما أراه لدى الآخرين. وجوههم عابسة وتقاطيعهم متنافرة، ولا تلمس لديهم ارتياحاً نفسياً، وذلك على عكس أناسنا. ففي الأندلس، حتى الإناث غير الجميلات في الظاهر، لديهن جمال داخلي ينعكس في حركاتهن وأسلوبهن وانسراح المحيا. ربما كانت ملاحظاتي هذه منحاذاة لقومي، ولكنني أيضاً مشدودٌ لبقية العرب، وأقدر الشعوب الإسلامية، ومع ذلك فالفارق لا يمكنني إنكاره. قد يكون السبب نتيجة لاختلاطنا في الأندلس، عرباً وبربراً وقوطاً وروماناً وهسبان، أو أن منبع جمالنا مرتبط بوضعنا الاقتصادي والأمني. هل سنقبح إذا قلت دنانيرنا وذهب ربح جيوشنا وأساطيلنا؟! ليتني أستطيع الإجابة بالنفي، ولكن السنوات العشر الأخيرة من حياتي لا تشجعني على الأمل.

بحر مالقا

صيف العام 362 للهجرة أصبح موعد زواج عمي عيسى من ماري، التي حولت اسمها إلى مريم بعد أن انتقلت لتبعية الدين الإسلامي مع والدها يوسف وأمها سارة. نصيبي من الحفلة هو الطهور في يوم زفاف العروسين. طوال العامين الماضيين كان القلق ينتابني أحياناً، إذ انقضا دون تحديد نهائي للموعد، بينما سيف الطهور بقي مشرعاً ليضرب دون سابق إنذار. ذكرت عمي بما فعلته من أجله بتسهيل خطوبته، وبعدم ارتياحي من النتيجة، بل ادعت الانزعاج من إطالة زمن العذاب. تقايضنا في النهاية أن يصحني في رحلة سريعة إلى مالقا قبل الحفل في مقابل أن أسامحه وأتجلد بالصبر وأظهر الرجولة بعدم الصراخ يوم الطهور. أردت رؤية البحر الذي ألهب الحديث عنه خيالي، بينما عمي لديه مبررات دوماً للسفر إلى مالقا ومتابعة شؤون مزارع التين وتصنيع القطين وتصديره. كان من المفترض أن العشر الأواخر من شهر مايو الشمسي لعام 973 قد أدخلتنا إلى الصيف هذا العام، لكن السماء تلبدت بالغيوم ثم هطل المطر وصاحبه لأيام برق خاطف، ومرة أخرى تزلزلت الأرض في قرطبة وضواحيها ليلة الإثنين الثالث عشر من شعبان الموافق 25 من مايو. سمعنا قرقعة الأواني المطبخية وتحركت الأرض تحتنا في لمححة بصر ثم سكنت ليرتفع بعدها الصراخ في الشوارع مختلطاً بالدعاء، وتلاه تكبير من مثذنة الجامع وتهدة للناس بأنه زلزال خفيف وزال. هذا الحدث، وحريق صغير في جوف المسجد الجامع قبل خمسة أسابيع، وقبلهما زلزال عيد الميلاد وكوارث السيول والثلج الأسود الذي دهم قرطبة، أكرهت جارنا خسوس على الاستجابة إلى إلحاح وإصرار زوجته

بالسفر إلى شنت يعقوب في أقصى الشمال الغربي للأندلس، للحج في كنيسة التي تضم رفات القديس يعقوب الحواري، أحد المقربين الإثني عشر لسيدنا المسيح عليه السلام. كانت ماري مقتنعة أن نهاية العالم تقترب، وبالتالي الأفضل القيام بالحج الآن طالما قوة الجسد تؤهلها لذلك.

قبل موعد سفرنا إلى مالقا بأسبوعين أحضر عيسى سرج حصان إلى منزلنا في قرطبة، وطلب مني أن أجلس عليه لأطول فترة ممكنة كل يوم، وأن أقلد حركة الخيال السريع بين الحين والآخر. "كل ما تفعله وأنت جالس على كرسي أو على الأرض إفعله على السرج، وكل يوم عليك تقليد الخيال المسرع لثلاث ساعات على الأقل. بدون ذلك ستكون رحلتنا إلى مالقا عذاباً لك وستلهب مؤخرتك".

"سأندرب كل يوم، لكن هل أحتاج لذلك بالفعل، إنني أجد ركوب الخيل كما تعرف؟"

"تجيدها لنصف ساعة أو ساعة على الشهباء في أرض الزهراء المستوية، لكننا سنركض بالخيال لثمانى ساعات يومياً وطوال أيام ذهاباً ومثلها عندما نعود، يعني دون تعويد مؤخرتك الآن فلن تتمكن من الجلوس على السرج في اليوم التالي على أحسن تقدير".

"كم يوماً سنحتاج ذهاباً؟"

"الله أعلم سنرى، ليس بالكثير". شممت رائحة سر، توقفت أمي عن الحياكة لحظات عندما سمعت سؤالاً وإجابة عمي، ولكنها لم تعلق. لماذا لم يقل كم يوماً سنحتاج وهو الذي يقوم بهذه الرحلة ربما خمس مرات في السنة.

"ابن أبي عامر، وكيل الأمير هشام، احتاج أربعة أيام للسفر من قرطبة إلى مالقا، رحلتنا طبعاً لن تطول عن ذلك".

"نحن أبناء أبو قريب القلعي، خيولنا كهبوب الريح، ولا نتطفل على الناس في مضافات أكل ومنام كل بضعة ساعات، إن شاء الله ستكون رحلتنا أسرع. هذا طبعاً إذا عودت مؤخرتك وأفخاذك على

الركوب لفترات طويلة". جواب مقنع من عمي قابلته أم سليمان بإيماء من رأسها دون أن ترفع ناظريها عن الحياكة.

مرت الأيام بطيئة جداً وركزت كل مطالعاتي على البحر والسفن والأهوال التي تواجه ركابه، واقتنعت أن عمي محق في طلبه إذ شعرت في الأيام الأولى على الركوب الطويل للسرّج بألم في قاعدتي والتهاب في أعلى فخذي. قبل انقضاء الأسبوع الثاني انعكست الصورة، فقد أصبحت أتحمس في تلك الأماكن غلاظة وعضلات بدل الورم والتألم. في ليلة اليوم الموعود لم أغمض عيني طويلاً، وصحوت قبل الفجر فتوضأت واصلت قبل أن يفيق أبي من النوم. ظننت أن عمي سيحضر مبكراً لنكسب ساعات الصباح قبل أن تعيق الشمس سرعة حركتنا، لكن عيسى لم يحضر إلا بعد أن أفاق أهل البيت وأفطرنا سوياً وأتيحت الفرصة لفاطمة المطالبة أن أحضر لها صدفاً من شاطئ مالقا لتصنع منه عقداً. إحدى أذني كانت مع أهل البيت وتوصيات أمي لي بالاحتياط ومطابوعة عمي، بينما أذني الثانية كانت ترصد الحركة في الشارع أمام المنزل ترقباً لحوافر الشهباء وطهبوب. قبيل الضحى، وعلى حافة اليأس من حضور عيسى وحصانه وفرس عمي عباس فتحت لهم باب المنزل وأنا أسأل الحيوانين عن سبب تأخر عمي. أحضرت فاطمة للشهباء وطهبوب الماء بينما حملت أمي صرة فيها ملابسها وأخرى فيها طعام بانتظار أن يربط عيسى السرج على الشهباء.

"صرة الملابس فقط يا أم سليمان، لا حاجة لأية حمولات إضافية".

"وماذا ستأكلان طوال الأربعة أيام؟ هذه الصرة ليست بالثقيلة، اربطها على فرس سليمان".

"في كل يوم سنمر بثلاث أو أربع قرى في طريق مليء بالمزارع والفواكه والخضروات والينابيع، لا حاجة لحمل مأكولات باردة. ماذا صررتي.. بيضاً مسلوقاً وسمكاً مجففاً ولحوماً مقدده وخبزاً سينشف قبل

الظهر، سنأكل أشياء ساخنة أينما حللنا". أخذ أبي الصرة وربطها خلف صرة ملابسي بحيث لا تتأرجح أثناء الركض.

"لا تُزعل أم سليمان، إذا لزمتمكم فقد نفعت، وإلا فأرمها في النهر". لم ينبس عيسى بكلمة رداً على أخيه الأكبر، وغير الموضوع بالسؤال إذا كنت قد صررت ملابس جميلة تناسب السياحة في مالقا. لبس عمي قفطاناً أصفر قصيراً لا يصل الركبة وبأكمام حمراء، وسروالاً ابيض مشدوداً على ساقيه وواسعاً فوق الركبتين حتى الوسط، وصندلاً جليداً جديداً. ضم وسطه بسير جلدي عريض وعلق فيه سيفاً بيد عاجية وجراب جلدي. بدا كمن يتهيأ لخوض معركة. ناولني عيسى خنجراً جديداً جرابه من الفضة وعليه نقوشات.

"هذا من جدك أرسله لك اليوم، ضعه في وسطك".

"هذا سينفعنا مع اللصوص، هل سنقابل الكثير منهم". في الأسبوعين الماضيين فكرت بالفعل ماذا سنفعل إذا قطع علينا الأتقياء الطريق، وتخيلت أحداثاً ننتصر فيها عليهم، وأحياناً كان الخيال يكتفي بأن خيلنا ستقتلنا منهم.

"نحن في رحلة لتفسيح في مالقا والبحر وليس لملاحقة اللصوص المساكين ونهب أموالهم. الخنجر لقطع تفاحة أو سلخ أرنب يقرر التعرف علينا". هذا هو عمي، لا يقر بوجود مخاطر، ولديه قناعة بغزو بلاد لوحده وهزيمة أهلها. من المؤكد أن أي شقي سيراه لن يتجرأ على الاقتراب منا. ويبدو أن منظر عمي وتعليقه، والخنجر على بطني مثل أجدادي من اليمن، قد حرك مشاعر أمي التي أطلقت هيهوية ألفتها فوراً لتناسب الموقف وشبهت عمي بسيف ذي يزن ونسبتني لبطولة أجدادي الفاتحين. زغاريدها أخرجت الجيران وأعلمت السوق وحركت أخوالي ليضربوا على ظهري وأنا على فرسي تتمختر خلف حصان عمي. أمي وأخوتها من أصول أجناد فلسطين وهم أحد الأجناد الستة الذين وصلوا لتعزيز الفتح ووزعهم والي قرطبة على مناطق متفرقة، أجناد فلسطين

نزلوا في سدونه والجزيرة وأجناد الأردن نزلوا في منطقة مالقا. أما أخوالي فتركوا سدونه وحضروا إلى قرطبة بعد زواج أمي.

جاورت عمي ونحن نمر قرب الجامع ونقطع القنطرة إلى شقنده إذ مررنا بمخزننا وتبادلنا التحيات مع عمي عباس الذي أوصاني على شهبائه، بعد وهلة قصيرة كنا نقف بباب دار مريم. "أرجوك يا عمي لا أريد النزول، دعنا نواصل، الوقت يقترب من الظهر."

"الوقت لازال صباحاً، سأخذ قبلة فقط، خلي بالك طويل، سننام في مالقا غداً". لم أسمع ما قالته مريم بعد تقبيلها لعيسى، فقد كنت في صدمة من كلام عمي الذي يشبه الخيال. أفقت على صفة من كف مريم على ركبتي وهي تودعنا "خلي بالك على عمك يا سليمان، لا تترك عيونه تسرح على الملقيات". طمأنتها أنني سأعيده إليها كما تسلمته الآن، وتحركنا والضحكات ترن في الأجواء. كانت مريم وعيسى ممن يضحكون بالأفواه والعيون، وهذه إشارة للضحك الحقيقي من القلب، وليس ضحك المجاراة. هذا على الأقل ما علمني إياه جدي، وأحد الأشياء التي طلب مني الانتباه إليها وأنا أتفحص وجهه من يحدثني. حتى الآن لم أعثر على من يضحك بفمه فقط، ولكنني جديد في عالم المراقبة.

"هل قصدت ما قلت عن المبيت غداً في مالقا؟ هل سنطير بالخييل إلى هناك؟"

"قول إن شاء الله، وشد حالك للمطاردة". كان عيسى يتحدث ويتململ بينما طهبوب يخطو للأمام وعلى الجوانب تعبيراً عن الطاقة وطلباً للركض، وشعرت بالشهباء تتجاوب وتنفض رقبتها. انتقلنا من المشي الأبطأ إلى الركض لتسخين الخيل.

"الطريق إلى مالقا ثلاث مراحل. اثنتان إلى انتيقيره، والثالثة إلى مالقا بخط مباشر للجنوب. فكرت أن ننام ليلتين على الطريق والثالثة في مزرعتنا. لكن طالما أم سليمان زودتنا بالطعام فسنحاول الاختصار بالسير

راوي قرطبة

معظم الليلة والمبيت في انتيقيره. لكن إذا تعبت أخبرني، فالطريق مليئة بفرص المبيت".

"لا تعمل حسابي في التعب، خوفي على الشهباء". لم يكن بوسعي رفض التحدي للمسير الطويل بعد تدريبات أسبوعين في البيت. دخل طهبوب في المرحلة التالية من السرعة وتركت للشهباء حريتها وأطلقت عنانها لتجاري صديقها، وأصبح الحديث مع عمي يتم بنغمة أعلى قليلاً. "المرحلتان الأوليان هما أرض منبسطة في معظمها لن تتعب الخيل. الجبال ستبدأ بعد انتيقيره، علينا الصعود معظم اليوم ثم الهبوط إلى الساحل". انبسطت الأرض أمامي، وضرب الريح وجهي، ولم أعد أعني إن كان عيسى يتحدث أم هو صامت حالم مثلي. أزلت غطاء رأسي ورميته في حضني وتمدد شعري للخلف. تقدمت الشهباء طهبوب بطول رقبة فعاد وجاورها ولكن مع مسافة متسعة بينهما عما سبق. لا أدري متى أيقظني عمي من نشوتي طالباً أن نبطئ تدريجياً.

"هل تدري أنك طرت على الشهباء وتركت عنانها ورفعت يديك وحركتها كالأجنحة". ظننت أن عمي يبالغ، ولكنني صدقته عندما طلب مني وصف الطريق الذي قطعناه وماذا شاهدت، فعرفت أنني كنت مُغيباً بالفعل.

"ترجل عن الشهباء دون أن توقفها". في ثوانٍ كنا نسير أمام خيلنا، وربطت عماتي مجدداً إذ ارتفعت الشمس إلى كبد السماء. "دعنا نتبادل الخيل الآن لنسهل عليها مواصلة المسير". شرح لي عمي أن وزني الخفيف سيريح طهبوب الآن، بينما الشهباء طاقتها أكبر ويمكنها تحمله حتى استراحة بعد الظهر. بدأ ذهني يتفهم حسابات عمي. عندما اشتدت الشمس بعد الظهر توقفنا قرب قناة أرضية من الحجر الأحمر تسقي مزرعة برتقال. ارتوت الخيل وأنزلنا عنها الأسرجة وربطناها في منطقة حشائش وجمعنا لها المزيد من العلف. تناولنا بعض ما في صرة أمي، وشربت من قربة الماء بينما شرب عمي من قربة النييد الأحمر. "سأنام ساعة ريثما ترتاح الخيل، بإمكانك أن تصلي إن شئت، لكن حاول النوم

أيضا لأننا سنسير في الليل". قبل الانتهاء من الضوء كان عمي يغط في النوم، وبعد صلاة الظهر لحقت به فوراً. سرحت ثواني أفكر في إيمانه واحترامه للأعراف ولكن من دون مواظبة على الصلاة. لقد علمه جدّي القراءة والكتابة وحفظ القرآن ودرس في الجامع، بل اهتم طوال عامين بدراسة علم الفلك، لكنه ترك التعلم في سن الرابعة عشرة واشترك مع الخليفة الحكم في غزوة شنت اشتين عام 352 ولم يكن بلغ السادسة عشرة. وبعدها التحق بأعمال وتجارة العائلة مع عمي عباس.

واصلنا المسير بعد الظهر أثر غسلنا الشهباء وطهبوب بخرق مبلة بالماء. قبل أن نطلق للخيل العنان مررنا أمام قرية منطلة وقلعتها. تبادلنا التحية وبعض الجمل مع الفلاحين عن أحوالهم وأخبار الطريق. "هذه البلدة يا سليمان هي ربع الطريق، ولا زال يومنا طويلاً وليلنا أطول، فهيا". عدت أركب الشهباء بعد الاستراحة الأولى، ولكننا تبادلنا الخيل كل ساعتين ونظمنا السرعة القصوى لنصف ساعة لكل من الدابتين تحت كل منا. كانت الطريق رملية وشبه خالية من الحجارة مما سهل تقدمنا. قطعنا ثلاثة أنهر ومررنا بأربع بلدات أخرى قبل أن تغرب الشمس نهائياً. على مدى البصر كنت أشاهد الأرض مليئة بأشجار الزيتون المغروسة بنظام هندسي دقيق، وبين بعض مزارع الزيتون وجدت مساحات مزروعة بالقمح الذي لم يبدأ حصاده بعد، وأحياناً رأيت مزارع فواكه مثل المشمش والبرقوق وكانت الأشجار تحمل بقايا ما لم يجمع منه للآن. من قرطبة وحتى مغيب الشمس لا أتذكر أنني شاهدت أراضي بوار.

"لم يعد أمامنا إلى انتيقيره سوى ساعتين، لو كان الضوء متوفراً، ولكننا سنسير دون ركض الآن، وعندما يظهر القمر سنكون وصلنا إلى هدفنا في انتيقيره". في الطريق اخذت أتحمس خنجري خفية، على ما أظن. أنشد عمي بعض أشعار قديمة من المعلقات، ثم طلب أن يبدأ كل منا بيتاً من الشعر بالحرف الذي ينتهي فيه بيت الآخر. لساعة جاريت عمي دون صعوبة، ولكنه أخذ يختار نهايات لأبياته يقل وجود أبيات تبدأ بأحرفها، ولم يكن مخزوني كبيراً كما أن تأليفي الفوري تعثر،

راوي قرطبة

واقنتعت أن أمي أجود مني في قرض الشعر الفوري بالسليقة. أسعدني أن عمي هزمني، فهذه الناحية الأدبية لم أعهدا فيه، كما أنني شعرت بشيء من المساواة بعدم السماح لي بالسبق والفوز دوماً. اعترفت بالهزيمة، وانتقل عمي بالحديث عن صاحب الفندق الذي سنزل فيه الليلة. قال إن الرجل طلق زوجته السابقة لأنها لم تنجب له أطفالاً، ثم تزوج قبل عامين من أخرى تصغره كثيراً ولكنها للآن لم تفلح في الإنجاب.

هدفنا كان فندقاً على غرار ما يملكه زوج عمتي في قرطبة. وصلنا مع اعتلاء قمر كامل عم بضوء فضي يمكنك مطالعة الكتاب بفضله دون مشقة. اختيار هذا التوقيت لاكتمال القمر كان من ترتيبات عمي أيضاً. نادى عيسى على أبي الفضل وجاءه الجواب من المنزل فوراً وكأن الرجل في انتظارنا. تبادلنا معه المجاملات وأخبرنا بوجود غرفة خاصة يمكننا المبيت فيها. "لن أوصيك على الخيل يا أبا الفضل، أريدها جاهزة قبل الفجر". سلمناه الشهباء وطهوب ليسوقهما إلى الإسطبل، وحملت سرجاً وحمل عمي الآخر مع الصرر والقرب. أرشدتنا زوجة الرجل إلى الغرفة لنضع حاجياتنا فيها وسألت إن كنا نريد طعاماً ساخنًا "لازال عندي نصف ديك مطبوخ مع البصل والفلفل ويمكن أن أصنع لكما بعض الرز إلى جانبه". نظر عمي إلي ليختبر درجة تعبي، لكن فضولي لمشاهدة متأنية لهذه الزوجة دفعني لإعطائه موافقة بإيماءة من رأسي.

"ستعشى على بقية الديك، والرز فكرة جيدة، سنراك عندما يعود أبو الفضل من الإسطبل".

لم نطلق قبل الفجر، أعاقتنا ضيافة الرجل وزوجته التي صنعت خبزاً في الفرن، وجهزت إفطاراً متعدد الأطباق. انتهزت الفرصة للاعتناء بالخيل وأطعمتها بيدي كميات من اللوز الناشف أخذته من أبي الفضل الذي يضم مخزنه عدة أكياس كبيرة من بقية إنتاج العام الماضي. قبل أن نترك انتيقيره خلفنا، شاهدت سور المدينة وقلعتها على يميننا بضوء لامع من الشمس التي لم تكن قد اكتملت في الشرق على يسارنا. وجدت

نفسى أسأل عمي إن كان هذا الاهتمام خاص بنا أو هو من طبيعة المهنة.

"الزوجة على صغر سنها، إلا أنها ذكية. شعرت من زيارتي المتكررة لهم أن زوجها يودني ويستمع إلى نصائحي. ولأنها لم تحبل للآن فمن الطبيعي أن تبحث عن مؤيدين من أصدقاء زوجها لينقذوها من مصير الزوجة السابقة". كانت نسمات الفجر باردة وخيلنا لازالت ناعسة. لف عمي عباءة على جسده، ورفعت بطانية من خلفي إلى فوق أكتافي وواصلت الشهباء وطهبوب المسير برقاب منخفضة ولم نكن قد بدأنا في مرحلة صعود المرتفعات.

"وضعُ النساء إذا لم يخلفن صعب، وإذا أنجب بنات فقط فهو أصعب، ربما تعرفنا على زوجة أخرى لأبي الفضل في رحلة قادمة".

"أتوقع أن يخبرونا في طريق العودة بنيتهم لزيارة قرطبة بحثاً عن طبيب يعالج الزوجة، وحينما يحضرون سيكون علي تسهيل إقامتهم وإرشادهم لطبيب. هذا حدسي على الأقل". هذا سبب آخر إذا للاعتناء الفائق بنا، ولن يعيق أعمال عمي كثيراً أن يساعدهم إن قرروا الحضور. لكن أفكارى بهذا الصدد لم تهدأ، ولم تكن جغرافيا المكان قد تغيرت كثيراً لتخطفني عن وضع الزوجين.

"هل من المؤكد أن الزوجات هن المسؤولات عن عدم الإنجاب أو إنجاب البنات فقط؟"

"كنت أتوقع سؤالك هذا. كل الناس يعتقدون بمسؤولية الزوجات، نعم. أنا لست طبيباً ولم أهتم بذلك العلم لساعة، لكنني أعرف حالات لنساء طلقن من أزواجهن لعدم الإنجاب ثم أنجب مع غيرهم، بينما هم لم ينجبوا مع غيرهن. الإنجاب يعني الرجولة والفحولة، ولن تجد ذكراً يقر بانعدام فحولته، خصوصاً إذا كان جهازه التناسلي شغال طبيعى". سكت عمي وهلة قبل أن يسألني إذا كان أبي حدثني عن التناسل، أو إذا علموني في الجامع أي شيء عن الأمر.

راوي قرطبة

"نعم كلما مررنا بسورة قرآنية تتحدث عن الزواج أو النكاح أو النطاف فإن الشيخ يفسر لنا الأمر".

"عندما تشعر بالحاجة للمزيد من الشرح أخبرني. وقبل أن تصل للعاشرة سأشرح لك ما لم تتعلمه حتى ذلك السن، وإذا ذكرتني في طريق العودة من مالقا، فسأشرح لك فوائد الطهور وعلاقته بالتناسل". لا أدري إذا كان عمي قال ذلك دون قصد أم أنه قد أفاق تماماً وعاد لتعليقاته المناكفة وتذكيري بثمان هذه الرحلة الذي ينتظرنني عند العودة. كنت أعرف أن عمي لا يحب الحديث عن مشاركته اليتيمة في الصائفة أو حتى عن سبب تركه للتعلم مبكراً، لكنني قررت الرد على مناكفته بمثلها.

"لماذا لم تدرس الطب، أو تواصل دراسة الفلك؟"

"أكره الأطباء والمرضى، ودراستي للفلك كانت ستدفع بي للانخراط في الأسطول، أو التحول إلى ساحر مطارد". بعد وهلة على هذا الجواب السريع الجاهز عاد عيسى وواصل حديثه ناقلاً نظريه بيني وبين الطريق الصاعد تدريجياً. "في الصائفة التي شاركت فيها، كان معنا طبيب ممتاز. حكيمته قرآنية بأن درهم وقاية خير من قنطار علاج. ولهذا راقب المطابخ وأمر بعدم أكل أي طعام من اليوم السابق، وإذا وجد طباخ قذر الأيدي والملابس أمر بجلده فوراً، وإذا جاءه مريض مصاب بداء من تأثير حشو معدته بطعام زائد أو تناول أطعمة مسممة فنصيبه بهدلة وأوصاف سيئة أيضاً. كان يعالج الكسور والجروح الطارئة، وأبلغ الجميع قبل بداية الغزوة عن أسلوبه وعقابه الذي أذن له به الخليفة. ذلك الطبيب أعجبني ولكن الكثيرين غيره لا أطيقهم".

"ولماذا تكره المرضى أيضاً؟"

"لأن معظم الأمراض سببها المعدة ومطاوعة النفس، وعدم الالتزام بقواعد النظافة والرياضة الجسدية والروحية التي أمرنا بها القرآن ويعرفها الجميع. ربما بالغت في القول بالكراهية لكل المرضى، قصدي النوع السائد من المرضى عندنا". حديث عمي عن النظافة العامة ذكرني

بالتعليمات التي كانت تبلغ للطلاب الأجانب عندما يحضرون إلى قرطبة، وكان أحد الطلاب القدامى من جنسهم يُكلف بإبلاغ القادمين الجدد بتلك القواعد: إغتسلوا مرة أو أكثر أسبوعياً، وغيروا ملابسكم بنفس الوتيرة، لاتترعوا أو تظرتوا أثناء تناول الطعام أو في الأماكن العامة، إغسلوا مؤخراتكم بالمياه مستعملين اليد اليسرى ثم اغسلوها، وكلوا باليد اليمنى فقط، اتركوا المراحيض نظيفة كما كانت عند دخولكم إياها. وفي شؤون الأكل يقال لهم: إذ حضرت أنواع من الطعام سوياً فابدأ بالشوربات، ثم بالطعام الآخر وكل الأشياء الحلوة في النهاية. لا تسرعوا في الأكل ولا تصدروا أصوات المضغ، وتدربوا على استعمال الشوكة والسكين والملاعق، ويفضل تبادل الحديث عندما يفرغ الفم. هذه الإرشادات كما عرفت تقال للطلاب الجدد لأنها غير سائدة في بلادهم. وعندما حدثت عيسى بهذا الصدد أخبرني أنهم في بعض بلدان الغرب المسيحي يبرزون أينما ضغطت عليهم المعدة، في الحداثق وعلى السلاالم وبجانب الجدران، ويبولون أثناء الليل في أوعية يرمون محتواها من النافذة في الصباح.

"هؤلاء نسايبك يا عم". قلت مماًزحاً ومناكفاً ولكن عيسى أعطاني نصائح قيمة دون أن يغضبه تعليقي.

"تلك المعلومات سمعتها من يوسف والد مريم، وهو بدوره عرف بها من رحلاته ومما سمعه من الحجاج النصارى إلى شنت يعقوب. عليك أن تفهم الكلام كما تسمعه وليس كما يتخيل لك. قلت إن ذلك يحدث في بعض دول وجزر النصارى الشمالية، والبعض لا يعني الكل. إذا افترضنا أن تصرفات بعض المسلمين في خراسان سيئة، فهل يعني أن كل الخراسانيين أو كل المسلمين بمن فيهم أهل الأندلس هم أيضاً مثل تلك الفئة؟ تعود ألا تعطي أحكاماً شمولية، ولا تقفز إلى استنتاجات سريعة".

لم نجهد الخيل طوال النهار، ففي النصف الأول كانت الطريق متعرجة ولكنها غير مرهقة للخيل إذ تصعد طويلاً وتهبط لفترات أقصر

أثناء اجتياز التلال، ولكنها تتطلب منا الانتباه التام. لون الأرض كان أحمر حيثما أمكن رؤيته، وغطى الحشيش والورد البري، الذي غلب عليه اللون الأصفر والبرتقالي، مساحات ما بين أشجار الزيتون واللوز على امتداد الجبال الخضراء. فجأة رأيت الماء، البحر. كنا قد وصلنا إلى قمة سلسلة الجبال، وامتدت تحتنا غابات ووديان وخلفها البحر بمياه زرقاء تلتقي مع السماء في نهاية الأفق. كل ما سمعته سابقاً من أوصاف للبحر، ممن شاهدوه وأبحروا أو استحموا فيه، لا أتصور إلا القليل من عظمة البحر أمامي. ما ارتسم في ذهني لم يكن بهذه الروعة، وددت لو طرنا من سفوح الجبال لنحط على الشاطئ، لكن صوت عمي وهزه لكتفي أعادني للصواب. "هذا مكان مناسب لراحة الخيل ورعيها وتناول بعض الغذاء". تراجلت ووقفت على حافة الطريق بينما أخذ عمي الدابتين إلى الطرف الآخر حيث كانت مياه نبع تنفجر من بين الصخور وتجري في حافة الطريق قبل أن تنحدر إلى بطن الوادي العميق.

"سليمان، الانحدار سيكون أصعب على الخيل من الصعود، لم نركض لآن ولن نركض بقية اليوم، ربما وصلنا المزرعة قبل حلول الظلام، عليك التنبه طوال الوقت فالطريق ملتو والأرض بها حجارة وسنضطر للسير في الوادي أحيانا وعلى ضفاف ضيقة في بعض المناطق". لم نمكث طويلاً للراحة الأولى كون بقية الطريق تنحدر أكثر مما تصعد وسنواصلها مسيراً عادياً. وتدرجياً اتضح لي أن عمي لم يبالغ في وصف المخاطر، وكان بين الحين والآخر يجدد التحذير باحتمال رؤية الدابة لثعبان أو حيوان آخر يجعلها تجفل. "كن مستعداً على الدوام للتحكم في الشهباء، لا تتركها تقودك، دعها تفهم أنك القائد وحينها ستعرف هي بوجود أخطار وتتنبه". في المرات القليلة التي سمح فيها دوران الطريق برؤية البحر كان عمي ينتقل من أي موضوع نتحدث فيه إلى تنبيهي مجدداً: "لا تسرح في الماء الآن سوف تشبع منه غداً، ركز ذهنك وعيونك على الطريق، أنت المسؤول عن نفسك وعن الشهباء الآن. إن وصلت بأمان فهذا سيعني أنك أصبحت خيلاً أصيلاً". تحذير

وترغيب متواصل من عيسى مع إرشادات أخرى حول كيفية وضع الجسم أثناء الانحدار وقفز الفرس عن أي حاجز وتخطيها لحفر تقطع الطريق، أو عندما تسير فوق صخور ملساء أثناء اجتياز الوديان المبللة. كل الأخطار كانت قائمة ولكننا لم نواجه أيًا منها، لم ننزلق ولم تنهَر علينا أية حجارة أو أشجار مثل التي كنا نتخطاها أحياناً، لم نفاجأ بأي حيوان، لا خنازير برية ولا حتى أرانب أو وعل. أحياناً نسمع أصوات حيوانات وحركاتها فوق الأوراق الجافة والأغصان على الأرض، ولكن أيًا منها لم يعترض الطريق. طوال فترة الانحدار كان الواد على يسارنا، واجتزناه المرة الأولى بعد بلدة الموجي بميل، وكان فوق الواد قلعة تشرف على الطريق وعلى بحيرة صغيرة في بطن الواد تجمعت مياهها بين الجبال.

"هذه القلعة كانت أحد مراكز ثورة عمر بن حفصون التي قضى عليها الخليفة عبد الرحمن الناصر قبل ستين سنة. هل علموك شيئاً في الجامع عن تلك الثورة؟"

"كان نصراني وتسبب في فتنة وفوضى طوال أربعين عاماً امتدت من أيام الأمير محمد وابنه الأمير منذر وأخيه الأمير عبد الله وأنهاها الناصر بالحيلة والقوة". المعلومات التي عرفتتها عن ابن حفصون سمعتها في محاضرة عن تاريخ الفتن والثورات في الأندلس، كانت كثيرة ومتعددة الأحجام والمخاطر، وبالتالي لم تتعمق المحاضرة في شرح تفاصيل أي منها. بعضها كان خلافات بين أولاد الأمراء على تولي الحكم، وبعضها كان من ثوار تشيعوا وأرادوا وضع البلاد تحت سلطتهم وباسم الخلافة العباسية في المشرق. أيضاً خلقت حركة قساوسة انتحاريين في قرطبة أرادوا إثارة النصارى ولكنهم فشلوا.

"عمر لم يكن نصرانياً، وثورته لا علاقة لها بالدين. معظم أنصاره مسلمون احتجوا على سوء المعاملة وكثرة الجباية التي فرضها حكام الكور في مناطق ربه. بعد أن امتلأت نفوس السكان بالغضب، ظهر عمر بن حفصون للواجهة. جده الرابع كان أميراً مسيحياً وأسلم في بداية

الفتح، وهو الفونس القسي. بعد موجة العصيان الأولى اقتنع عمر بالعدول وانخرط في سلك الجيش الأميري خمس سنوات ثم ترك قرطبة للجبال وتمرد، وقاتله المنذر بن محمد. دأب عمر على تحريض الفلاحين في مالقا وكل رية بالامتناع عن دفع الجباية، وكتب إلى الخليفة العباسي أن يوليه على ريه والمناطق التي يسيطر ثواره عليها. تحولت ثورته إلى فتنة لأن سكان مناطق أخرى في الجنوب خافوا منه وأخذوا يتصدون له وانضمت إليهم قوات الأمير عبد الله حتى طردوه من معاقله وحاصروه في بيستر. هناك أعلن انتماءه للنصرانية ليفوز بدعم من ممالك الشمال، لكن أولاده رفضوا تقليده باعتناق النصرانية. في النهاية استطاع الناصر في السنوات العشر الأولى من عهده فرض سلطة قرطبة على كل الجنوب وأخضع الثوار وقتل ابن حفصون ورد توسعات ممالك الشمال حتى عاد الجميع لطاعة قرطبة حتى الآن".

بعد قلعة ابن حفصون، الرومانية البناء، والبحيرة تحتها، قطعنا الواد ليعود إلى يسارنا. قبل العصر اجتزنا الواد مجدداً باتجاه الشرق عبر أراضٍ معتدلة الارتفاع، مزروعة بالحبوب، حتى وصلنا لوادٍ آخر وضعناه على يسارنا وجاريناه باتجاه الجنوب حتى استوت الأرض أمامنا. عم الشجر كل المنطقة، حقول تين ولوز وصنوبر وكروم عنب متجاورة وآبار ماء في كل مكان تتوسط قنوات ري حجرية.

"هذا هو وادي المدينة، تجري فيه المياه معظم العام، وتخف في أسابيع الصيف عندما تشتد الحرارة. مياهه في الصيف تأتي من الينابيع التي رأينا بعضها في التلال. من هنا فمزرعتنا على يمين النهر، ومالقا على يساره". قال عمي ذلك بينما طهبوب أسرع الخطى وكأنه تعرف على بقية الطريق واقترابه من الإسطبل والراحة.

"ما عدا الفلاحين لم نواجه الكثير من المسافرين بين مالقا وانتيقيره، على الأكثر خمس جماعات صغيرة على خيول وبعضهم على بغال تجر خلفها حميراً، ما السبب؟"

"هذا الطريق هو الأقصر، ولكنه وعر لقوافل تحمل أية بضائع، ولا

توجد به قرى أو بلدات كثيرة يمكن اللجوء للاستراحة فيها. الطريق المأهول بالحركة ينطلق من بزليانه شرقي مالقا ويصعد ببطء عبر سبع بلدات حتى يصل إلى ارشدونه ثم يهبط إلى لوشينا ومنها إلى قرطبة عبر عشرات القرى والمدن. ذلك الطريق هو الذي سلكه العامري حين استقبل برابرة العدو العام الماضي". يبدو أن تفسير عمي ذكره بشأن آخر حول محمد العامري صاحب الشرطة ووكيل هشام. "لقد أرسله الخليفة الأسبوع الماضي إلى أصيلة في بلاد العدو ومعه قاضي الثغر الأعلى للإشراف على أعمال القواد هناك، وحملهم أموالا ليكسبوا بها زعماء البربر. رحلته هذه انطلقت من قرطبة إلى استجة وإشبيلية وصولاً إلى قاديس والجزيرة الخضراء، وهو الطريق الروماني القديم".

وصلنا إلى المزرعة وقد بدت السماء حمراء وكأن نيراناً هادئة تضيء خلف الجبل في الغرب وتشع نورها على مساحة واسعة. لم أشهد مثل هذا الغروب قبل الآن، واكتملت الصورة عند النظر إلى الشرق حيث كانت أسوار مالقا تعكس الضوء وتذكر بسور قرطبة، وأمامنا اختلط اللون الأحمر بالأزرق وبدا البحر مليئاً بالنجوم البراقة. جفلت الشهباء على نباح كلب يركض من الجانب باتجاهنا، وفي لحظة كان الكلب قد قفز في حوض عمي الذي هدأ روعه وعرفه علي. "جراح، هذا سليمان". قبل أن نترجل أمام المباني كان أكثر من عشرين فرداً رجالاً ونساءً وصغاراً قد التفوا حولنا مرحبين. أخذ أحدهم الخيل إلى الإسطبل ودخلنا جميعاً إلى صالة واسعة لازالت الشمس تضيء أركانها، وتظهر رسوماً ملونة لنباتات على جدارها الشمالي الذي يتوسطه باب يؤدي لبقية غرف البيت، بينما الباب الخارجي ونوافذ الصالة كلها في الجدار الغربي ويشاهد منها البحر بسهولة. انه بيتنا الخاص، بينما وجدت بيوت حجرية أخرى بالقرب منه يسكنها العمال المقيمون هناك على الدوام. في الواقع لم يكونوا عمالاً بالأجرة وإنما شركاء في الربح من دون أن يشاركوا في رأس المال لشراء المزرعة، أو في كلفتها أو ثمن التين الذي نشتره كل موسم من أصحاب مزارع أخرى، أو في

كلفة التصدير البري والبحري. كل تلك الأمور من اختصاص أعمامي، وما على العمال سوى التنفيذ وقبض ثلث الأرباح موزعة على عددهم مع مراعاة السن ونوع عمل كل منهم.

تعشينا، بعد الاغتسال، على جذي مشوي وتعرفت على كل سكان المزرعة. في اليوم التالي فوجئت بحجم ومحتويات مزرعتنا التي لم أعرف ظروفها حتى الآن. محيطها يقترب من ميل، وبها أشجار تين وبلح وبرتقال وزيتون وموز وقصب سكر، ومساحة منها مزروعة خضروات، وغيرها حبوب قمح وشعير. تتخلل أرضها قنوات مائية من الحجر الأحمر وتلتقي عند بئر عليه ساقية يديرها بغل. هناك أيضا حظيرة ماعز بها أكثر من خمسين حيواناً، يدر بعضها الحليب، وحظيرة دجاج لا يُحصى عدد سكانها. كانت المزرعة تقوم بحاجة سكانها وتزيد، لكن الجزء الرئيسي من العمل كان يدور حول أحواض تنشيف التين التي تمددت في ثلاثة صفوف بطول المنطقة الشمالية من المزرعة.

قبل الجولة في المزرعة، أو حتى الإفطار، قررت الذهاب إلى البحر فوراً. أرسل عمي معي شاباً يافعاً اسمه أحمد، يجيد السباحة، وحمله عيسى مسؤولية إعادتي قبل الظهر سالمًا، وطلب مني مطاوعة أحمد. "البحر غدار لمن لا يعرف السباحة مثلك، لا بد من تعلمها بالتدريج وطوال شهور. لا تبعد عن الشاطئ ولا تنزل في الماء بأكثر من وسطك". كان يقول ذلك وينظر إلينا سوياً بعيون جادة ومتوعدة. ركضنا لنصف ميل دون توقف وخلفنا جراح، واكتشفت أن المياه شبه دافئة ولكنها منعشة وتجدد النشاط. رمل بحر مالقا أسود ولكنه نظيف، والأمواج الخفيفة تدحرج الكثير من الصدف جيئة وذهاباً. السلطعونات القارصة تركض أمام الموج ثم تكمش جسدها في الرمل حتى تنجلي عنها المياه فتذهب لأوكار رملية. كف جراح عن مطاردتها إثر تعلق أحدها في أنفه. طلب مني أحمد أن أقف بهدوء في الماء وأنظر، فإذا بسمك ملون ومتعدد الأشكال يدور حول سيقاني، ورفوف من آلاف سمك السردين تقفز في الهواء. لم أكن قد خلعت صندلي حسب طلب

أحمد الذي حذرني من وجود حيوانات على شكل كرات صغيرة يحيطها شوك سام من كل الجوانب، وتؤلم من يخطو فوقها. مع الضحى حضرت درة، أخت أحمد، حاملة طعام الإفطار، وجلست معنا. كانت في سني أو أصغر، مرتبة ونظيفة الهندام، وجهها عادي ولكنه جذاب إذ يتشابه نصفاه، ولم يكن بها أية قسماات حادة الشكل والحجم. سألتها إن كانت تقرأ وتكتب فقالت إن سعيد يعلم الصغار في المزرعة القراءة والكتابة والقرآن أثناء فصول الشتاء والربيع.

سخونة الرمال في تلك الساعة جعلتنا نجلس فوق الرمال المبللة بالماء، ومن هناك أمكن مشاهدة كل من أسوار المدينة الجنوبية المحاذية للشاطئ، وباب البحر، والسور الغربي المحاذي للنهر حيث القنطرة الموصلة لباب الوادي. عرفت من أحمد أن لسور المدينة خمسة أبواب، وشاهدت مئذنة الجامع الكبير تعلو مآذن أخرى وتشرف على كل البيوت والأبراج البيضاء، بل شاهدت القصبية وخلفها قلعة فوق الجبل تمثل أبعد مواقع المدينة شرقاً. قال أحمد إن المنظر من هنا، ومن المزرعة، يتضح بشكل أجمل بعد الظهر عندما تطل الشمس على المدينة من خلفنا. "وإذا أردت رؤية المزرعة ومالقا بوضوح، فيمكن أن أصحبك غداً صباحاً لتشاهدها من تلك القلعة في قمة جبل فارو". قبل الظهر عاد أربعتنا إلى المزرعة وصب أحمد فوق جسدي جرتين من ماء البئر لإزالة الأملاح.

صليت العصر في الجامع الكبير وشاهدت كل المنطقة من فوق المئذنة. مزرعتنا في الغرب على مسافة ميلين خارج الأسوار التي تُشاهد كلها تطوق المدينة من جهاتها الأربع بشكل نصف دائري بينما السور المحاذي للبحر على شكل حذوتي فرس متجاورتين، في أحدهما باب القصبية، وفي الآخر باب البحر. غالبية بيوت المدينة كانت من طابقيين وبعضها من ثلاثة أو لها عليات مفرمة لفضاء القيلولة مع عليل نسماات البحر. في قرطبة يستحيل العثور على موضع يمكن منه مشاهدة كل المدينة وأطرافها. أخبرني الامام بعد أن شاهد اهتمامي بمدينته أن عمرها ألفي عام، وسكنها الفينيقيون والروم، وعندما احتلها القوط من البيزنطيين

هدموا سورها الأصلي، وبعد أن فتحها جند طارق وعزز فتحها عبد العزيز بن موسى بن نصير وطرردوا جند القوط، خير العرب سكانها، الهسبان واليهود والنصارى، بين اعتناق الإسلام والمساواة، أو دفع الجزية والبقاء على دينهم والتعامل بأحكامهم الخاصة. "الغالبية قبلوا بالإسلام وتعربوا بسرعة، ولكن لدينا مقر للبيشوب النصراني الذي يخدم النصارى من السكان والزوار". أضاف الإمام لي معلومات أخرى، منها أن مالقا تبعت إلى قاضي ريه مع مدينة ارشدونه حتى منحها الأمير محمد الأول صبغة مدينة. كان الإمام يتحدث في المجلس على يمين المحراب وبحضور بعد المستريحين بين صلاتي العصر والمغرب. في ممرات الجامع الخمسة تعلقت ثريات فضية، وتنبهت للفوارق عن مسجد قرطبة الجامع الذي كان أضعاف حجم جامع مالقا، والذي بدوره أكبر من جامع الزهراء بقليل. الأقواس هنا تحملها أرجل عريضة ولا تقوم على أعمدة رخامية كما هو البناء في قرطبة والزهراء. الحديقة بها برتقال ونافورة مياه وأماكن وضوء وتشابه حدائق بعض جوامع قرطبة.

قبل الصلاة، مررنا بباب البحر واشترينا من الصيادين أنواعاً من السمك عاد بها إثنان من العمال للمزرعة لتجهيزها للعشاء. لم يكن هناك أي مجال للمقارنة في الشكل بين السمك المجفف والمملح الذي يبيعه خالي رمضان ويهديه لنا بين الحين والآخر، وبين نفس الأنواع الطازجة هنا والتي لا يتوفر مثلها في الوادي الكبير طبعاً. هكذا تنازعني الشوق بين إطالة التجول في المدينة وبين العودة للمزرعة لمواجهة ما توقعته أن يكون أشهى أكلة في حياتي للآن. أينما سرت وسط المدينة شمالي الجامع تواجهك أسواق مختلفة للحدايد والبزازين والعطارين. عرفت من عمي بوجود أسواق خارج السور، مثل الدباغين والتبانين، وهذا الأخير يقع بين مزرعتنا والقنطرة. الأوسع هو سوق الغبار في الشمال خارج باب فنتناله. على ذلك الباب، كما شاهدت في اليوم التالي بعد زيارتي وأحمد للقلعة، يجلس كاتب لعقد الشروط في صفقات البيع الكبيرة أو لكتابة العرائض والرسائل للأميين. على مسافة قريبة من باب فنتناله يوجد

مصلّى في بداية مقبرة واسعة لم أشاهد أخرى بجمالها. مليئة بالورود والأشجار القصيرة، وذات نظام شوارع مثل مدينة منخفضة. في ركنها الغربي وجدت مقابر لليهود والنصارى أيضاً.

تزود عمي ببعض النيذ الأحمر مدعياً أن عنب مالقا هو الأفضل في العالم، وبالتالي فنيذها لا يُعلى عليه. "يبدو أن كل شيء هنا هو أفضل مما هو في بلدان ومدن أخرى". قلت بين السؤال والاستهجان، أو ربما بحثاً عن تأكيدات أو نفي لما يجول في خاطري حول مالقا.

"عليك أن تصدق عينيك وتحكم بحواسك وضمن تجاربك. إن أردت التأكد فراجع ما كتبه الآخرون عنها، ستجد من يعتبر تينها وعنبا هو الأفضل كونه قابل للتخزين طويلاً، وستجد زواراً مروا بها واعتبروا أن أيامهم هنا هي الأسعد، وبعضهم قرض الشعر عندما شاهد البحر والكروم والبساتين تتصل حول المدينة بامتداد البصر دون فراغ بينها. ثم كيف تصف تدريج السكان للجبال وغرسها بالكروم والتين الأسود والأخضر والأبيض العسلي؟"

"الأفضل أن تسكن مع مريم هنا حتى أزورك مرتين أو أكثر كل عام". ضحكنا سوياً وواصلنا المسير إلى باب الوادي. الشوارع معبدة والزهور تطل من أسوار البيوت، ورائحة الياسمين مع الغروب تملأ الأجواء، وقبل اجتياز باب الوادي كنا نسمع في بعض البيوت موسيقى ضرب على الأوتار أو الطنبور. في انتظار أن تخدم النار في مزرعتنا لنشوي عليها السمك، اشتغلت آلات الموسيقى في أيدي جماعتنا أيضاً وارتفع صوت غناء الفلاحين كلُّ بعد الآخر بينما بعضهم يرقصون مع زوجاتهم ويدورون حول بعضهم شامخي الأنوف، إنها رقصة فلاح يُغني، أو فلامنغو، كما تسمى بلهجة الموزراب.

طوال الأيام الأربعة في مالقا واطبت على زيارة الشهباء وطهبوب وتدللهما بالطعام والشراب وتنظيفهما إثر كل جولة يومية، والتي غالباً ما كانت ركضاً على رمال الشاطئ دون سرج. أحياناً كانت درة تركب معي، وأحياناً أخرى أحمد. في صباح اليوم الثالث شاهدنا من الشاطئ

مركباً يرسو في الميناء، فقررت أن أذهب وأحمد على الأقدام لإلقاء نظرة عليه والميناء. لم نمر فوق القنطرة وإنما اخترقنا مصب وادي المدينة شبه الجاف عند الشاطئ، وصولاً للشريط الرملي بين الماء والسور. أمام فتحة السور الخاصة بدار صناعة السفن تعرفنا على غريبين كانا يحادثان صاحب الدار بلهجة عربية مختلفة، كما أن جلاليهما وعمهما لم أرَ مثلها قبل الآن.

"هؤلاء إسكندريان، ويبدو أنهما يريدان غرضاً من دار صناعة السفن". بعد وهلة من الإنصات اتضحت صحة معلومات أحمد الذي أبلغ صاحب الدار، بعد انصراف الرجلين إلى داخل المدينة، بأن اسمي سليمان وعمي عيسى وخالي رمضان. عرفت سبب التعريف بهذا الشكل، كون الرجل يعرف عمي وخالي شخصياً.

"خالك رمضان مول بناء خمسة زوارق صيد صنعناها هنا. بلغه تحيات عبد الرحمن عندما تعود إلى قرطبة، وخلي عيسى يمر هنا قبل السفر، أريد منه أمراً من قرطبة".

"إن شاء الله. هل هذا المركب من الإسكندرية؟"

"نعم، هذا صحيح، وقد ذهب الرئيس والتاجر صاحب البضاعة لمقابلة صاحب السوق في القصبة. على الأرجح أنهم سيمكثون فترة ريثما يبيعون حمولتهم ويشتررون بضائع قبل العودة". بقيت صامتاً أستمع إلى عبد الرحمن الذي استشعر جهلي التام بأحوال السفر البحري والتجارة والأسواق، على خلاف نظرائي المالكين. "هذا على الأغلب ما أظنهم سيعملون. يحملون سكرًا وبهارات هندية وأكياس قطن".

"كم يوماً تحتاج السفينة بين الإسكندرية ومالقا؟"

"سفن حربية مثل التي صنعنا بعضها هنا، يمكن أن تقطع المسافة في عشرة أيام إذا وافت الريح أشرعتها. هذه الرحلة تحتاج شهرين برأ. لكن السفن التجارية تقف في معظم الموانئ وتبحر قرب السواحل طلباً للأمان وللتبادل التجاري، وهي غالباً تسير في جماعات خوفاً من القرصنة. هذا المركب الإسكندراني حاذى الساحل الجنوبي حتى سبته

ثم قطع الماء إلينا ولم يتوقف سوى مرة واحدة". معلومات عبد الرحمن عن الحركة البحرية لم تكن كلها جديدة، ولكن حقيقة أن سفن لأسطولنا صنعت هنا شدت فضولي.

"ما سمعته من شيوخنا أن سفن الأسطول تبني في المريه وإشبيلية".

"هذا صحيح هناك دور صناعة أكبر، وكل من المدينتين هي مربوط لأحد أساطيل الأندلس. لكن الخليفة الناصر، رحمه الله، حضر إلى هنا في هذه الدار التي أنت فيها، وخرجنا إلى الجسر لمعاينة سفن صنعناها حسب طلبه من قبل. إطمأن على جودتها وأمرنا بالإبحار إلى الجزيرة للقاء مع سفن صنعت في دور أندلسية أخرى ليقارن بينها، وبالفعل أمرنا الخليفة بصنع عشر قطع". وجه هذا الرجل الخمسيني بدا أليفاً جداً، فيه خليط من ملامح جدّي والشيخ يونس وشعر جربير. "هل زرت القلعة يا سليمان؟"

"نعم بالأمس زرتها مع أحمد".

"السور الذي يتم بناؤه للآن بين القلعة والقصبة، أمر به الخليفة عندما زارنا آنذاك. وفي رحلته تلك زار المريه قبلنا ومر بشلوبيرينه والمونيكار، وأمر ببناء قلاع فيها وإقامة أبراج بينها على طول الساحل مترابطة بالرؤيا والخيال. من مالقا واصل الخليفة رحلته إلى مدينة سهيل حتى وصل جبل طارق والجزيرة وأمر ببناء قلاع وأبراج لازال العمل جارياً فيها الآن".

"ذلك يحتاج إلى آلاف العمال، ويكلف الكثير من الدنانير. أليس الأفضل القضاء على القراصنة في البحر".

"هذه التحصينات ليست تحسباً للقراصنة، ولكن لردع خطر الخلافة الفاطمية في العدو. وبسبب هذه التحصينات إتجه الفاطميون براً إلى طرابلس والإسكندرية ومصر واحتلوها، ولو كنا دون حصون لقطعوا البحر إلينا". قال عبد الرحمن ذلك وهو يهم بالعودة إلى عمله، فودعناه وشكرناه، وأبلغته أنني سأنقل إلى عمي فوراً رغبته برؤيته قبل السفر إلى قرطبة.

أبلغت عمي الرسالة عند عودته من المدينة قبل القيلولة، وأخبرني أننا سنسافر صباح الغد وأنه سيزور عبد الرحمن مع المغرب. لم أفاجأ بهذا القرار فقد كان اتفاقنا على رحلة سريعة قصيرة، كما أن عمي يتطلع لعرضه المقرر بعد عيد الفطر. في المساء أعاد عيسى تعليمات العمل للشهرين القادمين ريثما يعود في موسم قطاف التين وبداية التجفيف، وأبلغ إسماعيل بحضور الآخرين بما عقد من اتفاقيات مع متعهدين ليمدوا المزرعة بعمال إضافيين في فترة القطاف، ونقل التين من مزارع عديدة إلى مزرعتنا، وطلب عيسى منه تجديد دهانات المنزل الآن قبل الموسم والحفاظ عليه بأبهى حلة طوال فترة غيابه في قرطبة.

أثناء العودة إلى قرطبة، من الطريق ذاتها في اليوم التالي، روى لي عمي الكثير مما سمعه من الأخبار التي وصلت إلى عبد الرحمن من البحارة والمسافرين والتجار الأندلسيين في مدن أفريقية. فهمت من الشروحات أن المعز لدين الله الفاطمي كان قد أرسل قائده الصقلي الأصل، جوهر، في غزوات انطلقت من القيروان واحتل بلاد المغرب الأقصى كلها ما عدا سبته التي صمدت تحت الإدارة الأندلسية، وذلك بين أعوام 347 والعام الماضي حين باشر جيش الخليفة الحكم وأساطيله بالاستيلاء على بعض مدن العدو. في عام 358 أرسل المعز مولاه جوهر بجيش عظيم إلى مصر فاحتلها وأخذ الشام وأنهى دولة الإخشيد، التركي الأصل، التي تبعت للعباسيين. على الفور باشر جوهر بإقامة مدينة جديدة في الفسطاط سماها القاهرة المعزية، والأخبار الجديدة الآن أن المدينة إختطت وجامعها انتهى البناء فيه. "ريس المركب المصري أبلغ عبد الرحمن أن المعز لدين الله وصل الإسكندرية يوم الإثنين السادس من شعبان، ومعه أهل بيته وتوابيت آبائه، وحملت جماله الذهب مصهوراً على شكل مطاحن، ومراده القاهرة لتولي الحكم هناك على مصر والشام".

"يبدو أنك زعلان من سماع هذا الخبر الجديد الذي لم يمر عليه سوى ثلاثة أسابيع فقط".

"لا أبداً، فالمعز وإن كان من أم ولد رومية، فهو عربي وأفضل من الحكام الأتراك وغيرهم ممن يتحكمون في خلافة العباسيين منذ عهد، والصقلي قائد مخلص مثل العديد من صقالبتنا. وهم في النهاية توجهوا بغزوهم للشرق وليس للأندلس، ويعادون هناك من يستحق العدا. زعلي لأن جوهر لم يفلح في استعادة إنطاكية من البيزنطيين الذين احتلوا العام الماضي من العباسيين مثلما احتلوا مدن ثغور شرقية أخرى تجاورها، مثل الرها ونصيبين وديار بكر، بل فشل في استعادة حلب".

كان الهم ينضح من نغمة وعيون عمي وهو يحدثني عن أخبار الشرق الإسلامي، وكلما حاولت تلمس إيجابية من خبر ما كان يزيد من الأخبار الأسوأ التي سمعتها في مالقا. "لكن الله انتقم من البيزنطيين وزلزل إنطاكية وهدم أبراجها. لقد تهللت الخلافة العباسية إلى درجة أنها فشلت في موسم الحج الأخير تأمين قوافل الحجاج بين بغداد ومكة، وقتل عرب بني هلال آلاف الحجيج واستولوا على حاجياتهم".

"انتقال المعز بتوايبت آبائه من المغرب إلى مصر يبدو كالطرد أو الهروب، وليس كفاتح".

"على الأرجح أنه لا يكن الاحترام للبرابرة وخاف أن يضع أثر أهله بسرعة. إنهم أقوام صعبو المراس متقلبو المزاج متعددو الولاء، ونحن في الأندلس متورطون معهم منذ يومنا الأول. أنصحك باختيار بعض الكتب عن فتح أفريقيا والأندلس لتطالعها أثناء الاستراحة في البيت بعد الطهور".

بعد ساعات من المسير والصعود سألني عمي عن صوت الخشخشة الذي يرافقتنا، فأخبرته أنه زلف وصدف جمعته عن الشاطئ بمساعدة درة لفاطمة، حسب طلبها. "ما رأيك في درة؟" سؤال ليس غريباً عن عمي، ورأيته كمقدمة لخروجه من حالة الغم.

"بنت مؤدبة ومقبولة التقاسيم، وأخوها شاب محترم جداً. سنقضي الليلة عند أبي الفضل، أليس كذلك؟" أردت القفز عن موضوع درة

راوي قرطبة

الذي سيعيد موضوع الطهور بالتأكيد. "لن يحضروا معنا الآن إلى قرطبة!"

"بالتأكيد ليس الآن. إن قرروا زيارة قرطبة فالأرجح في بداية الشتاء، الآن موسم عملهم الرئيسي. لازلنا في مطلع الأسبوع الثاني من حزيران، وأمامهم خمسة شهور من العمل في استقبال المسافرين والعائدين بين قرطبة والبحر".

"هل تتوقع أن نرى هلال رمضان الليلة؟"

"إن شاء الله. إذا لم نره نحن من انتيقيره المرتفعة عن قرطبة، فلن يراه غيرنا. عموماً نحن على سفر، لا تفكر في طرح قضية الصوم غداً".
وبالفعل لم أصم اليوم الأول من رمضان 362 الذي وافق التاسع من يونيو 973، ولكنني تناولت السحور مع أهلي في قرطبة في اليوم الثاني وصمت بقية الشهر.

اختيار شعب

حرم الله القتال في شهر رمضان إن أمكن تجنب ذلك، لكن قواتنا بقيادة غالب بن عبد الرحمن كانت قد استحضرت من ثغور الشمال وتجوس الآن في أرض العدو دون مراعاة للأشهر الحرم، وكان غالب يحمل عشرة آلاف دينار ليوزعها على وجوه القبائل الخارجين عن حسن بن قنون الذي فر من مدينة أصيلة العام الماضي. آنذاك هدمتها قواتنا وواصل حسن المقاومة من أطراف الجبال.

في قرطبة ضاعف الخليفة صدقاته على متوسطي الحال، وأجلس الوزراء وبعض زعماء البربر الذين وصلوا من العدو ليشاهدوا توزيع الصدقات، ثم وزع عليهم الصلوات والكسي وأخذوا بأيديهم خرائط المال ومناديل الخلع، وبعدها عددوا قوات فرسانهم وقدموا كتب الطاعة إلى الخليفة بواسطة جعفر بن عثمان صاحب الموارد. طوال الشهر الكريم توالى الكتب من العدو عن الانتصارات الحربية وتقديم الطاعة من زعماء القبائل. نزل أسطول الأندلس قرب أصيلة وانضم للجيش، ووصل كتاب طاعة من صاحب عدوة القرويين من مدينة فاس، ووصل إلينا من طليطلة في الشمال ألف وسبعمائة من الرجال الشداد الجلاد. دخلوا قرطبة بالزي الجميل، أقبية بيض، وتقلدوا سيوفاً إفرنجية وبأيديهم تراس ورماح لامة. كانوا في طريقهم للزهراء حيث أرسلوا من هناك مع عرفاء جدد إلى العدو لدعم العسكر عبر البحر. قبل انقضاء شهر رمضان عاد العامري بعد أن وزع الأموال وأخبر الخليفة بما يسره عن الأوضاع هناك.

عمي وأنا التزمنا بالسنة الحميدة وانتظرنا إقامة الأفراح بعد انقضاء

راوي قرطبة

شهر العبادات. كانت كوارث الطبيعة المتكررة قد أرهبتنا في قرطبة وتجنينا إغضاب الله فوق إغضاب الخليفة له بهذه الحروب والتبذير في المال لبعض القبائل البربرية وللجند الذين يقاتلونهم بقية البربر. الأحاديث في أروقة المساجد والأسواق خلال شهر رمضان تنوعت بين تدهور الأوضاع في الشرق الإسلامي، وبين احتمالات هجوم النصارى من الشمال بعد أن خلت مدن الثغور من العسكر الذين انتقلوا للعدوة في أفريقيا. يوم الحادي والعشرين، وفي ليلة الأربعاء بحث أهل قرطبة مجدداً عن ليلة القدر، فإذا بهم يشاهدون في الفجر كوكباً ضخماً طلع عليهم من ناحية القبلة وعم الضوء الشديد في كل الأفق، فارتعب من شاهده في تلك الساعة إذ لم يكن يحمل أيّاً من صفات طاقة القدر المفترض أن تفتح في السماء ويشاهد نورها نخبة من المؤمنين المخلصين يستجيب الله فيها لدعائهم .

يوم الخميس السادس من شوال تناول المدعوون طعام الغداء في منزل خالي رمضان قرب فرن بريل، وخرجت الزفة بأكثر من ألف رجل وامرأة وطفل بمحاذاة السور من الداخل إلى الرصيف فالجامع. كنا مثل دائرة نصفها الأمامي من الرجال والخلفي من النساء، وكان الجنسان يرقصون ويغنون منفصلين. في الوسط اقيمت حلقة من الرجال والنساء يحيطون بعمي وبي ويرقصون ويغنون طوال الوقت. نتوقف وهلة فنجلس عمي وأنا على كرسيين، ثم نواصل المسير بينما كراسينا تجد من يحملها خلفنا. غالبية الوجوه في الحلقة القريبة كانت مألوفة لي، أحوالي ونسأؤهم وأولادهم، وعمي عباس وعائلته، وبالطبع أمي وأبي وجدّي الذي كان يرقص حاملاً عكازه بين الحين والآخر، وكانت من حولي عماتي وعائلاتهن يحتفلن بأخيهن الأصغر. أصدقاء عمي ومعارف أهلي كانوا معنا منذ البداية، وبقية سكان شارعنا انضموا للزفة عندما اقتربت من الجامع. جارتنا ماري وزوجها خسوس لم يكونوا قد عادوا بعد من حجهم إلى القديس يعقوب .

توقفت الزفة على الرصيف بين الجامع والقنطرة دون أن يتوقف

الغناء والرقص. عمي وأنا ومن معنا من الدائرة الضيقة انطلقنا إلى منزلنا القريب، وهناك كان المُطهر بالانتظار. "هل تذكر اتفاقنا بألا تصرخ وتثبت رجولة مقابل الرحلة إلى مالقا؟ إن التزمت الآن بالاتفاق فإن جدك سيشتري لك مهرة نبقها في الإسطل عندنا في الزهراء، لكن لا أريد سماع صرخة واحدة".

"توكل على الله، المهم أنت انتبه ألا يقص المطهر شيئاً زيادة وأن ينهي شغله بسرعة". اجتزنا عتبة البيت وعمي يطمئنني إلى أنه سيراقب وسيوصي المطهر. أخذت قريباتي يضرين الطبل وأطلقن العنان لحناجرهن، بينما صوت حلقة الزفة قرب الجامع يلعلع في الأفق. جلس خالي على كرسي وفتح ساقيه وطلب مني أن أجلس أمامه، بينما كان المطهر على الأرض أمامنا وعمي عيسى وجدّي وأبي من خلفه وعمي عباس إلى جانب خالي وبقية رجال العائلة صغاراً وكباراً احتلوا مواقعهم بحيث لا يرى بقية المدعوين الذين انفصلوا عن الزفة أي شيء. ضمني خالي رمضان بيديه وأمسك كل من عمي عباس وخالي محمد بأحد ساقي، بينما عيسى ينظر في عيني. رفع المطهر جلبابي فوق ركبتي، وكنت قد خلعت سروالي الداخلي، وأخذ يبحث عن قضبي الذي توارى داخل بطني عندما رأيت أدوات المطهر. ضغط بأصابعه في بطني وأخرج القضيب وشده وأخذ يطمطط به ويتحسس الجلد الزائدة عن الصلب، ثم وضع الكلبة على مؤخرة الجلد لتحمي الصلب، فإذا بألم رهيب يجتاح جسدي وعمي عيسى يصرخ بي أن أنظر إليه بينما كدت أتفجر من الألم وأكتم الصراخ إلى درجة أن المطهر أخذ ينظر إلي بدل مواصلة عمله.

"قص الآن ماذا تنتظر؟" نهره عيسى بغضب وتوعد. لم أشعر بالموس يقطع الجلد، فهذا الألم لا يقاس بمقدار ذرة من ألم ضغط الكلبة المتواصل على الجلد قبل وأثناء وبعد القطع. وعندما فك المطهر الكلبة لعنت دينه وأباه على مسمع من الجميع، وواصل هو عمله بدفع بقية الجلد للخلف عن القضيب الذي أصبح عارياً، ثم لف القضيب بشاش من القماش. اقتربت أُمي من خلف إخوتها للاستفسار إن كان

الأمر قد أنجز كونها لم تسمع الصراخ المعتاد في هذه الحالات، وأعطاهما أبي إشارة، فانطلقت زغاريد أمي وتبعتها الأخريات، وحملني خالي إلى الفراش مباركاً وواعداً أنهم سيروني لاحقاً.

قبل أن يفرغ البيت إلا من أمي وفاطمة وبعض الجيران، تلقيت الهدايا والكثير من الدنانير كمنقوطة، كما هي العادة، ووضعت أمي طاولة إلى جانبي عليها المكسرات والحلويات وعصير الليمون والبرتقال. كانت تحثني على تناول السائل حتى يكثر بولي ولا يغلق الورم قضيبي، وهذا ما تمنيته أيضاً بعد سماع تجارب الآخرين، ولكنها كانت مثل أمنية إبليس في الجنة. عندما حان الموعد تذكرت أن عض الكلبة لم يكن آخر فصول ذلك العذاب الذي استمر لأيام. في المساء أخبرني جدّي أنهم انطلقوا في الزفة عبر القنطرة إلى شقنده، وأخذوا مريم وزفوها عبر القنطرة، ومن هناك ركبت مع عيسى في عربة تجرها الخيل واتجهوا إلى الزهراء يتبعهم أبي وعمي وسكان الزهراء فقط. في العادة توجب أن تزف العروس إلى بيت العريس، وينصمدون هناك معظم الليل حتى تستعرض العروس فساتينها وكسوتها أمام المحتفلين بها من أهل الطرفين الذين يتعرفون على بعضهم عبر الرقص والغناء وتناول الطعام والحلويات. لكن عمي لم يرغب في إسهاد الحفل آخر الليل بنجاح دخلته على مريم، وراعى بذلك، جزئياً، طباع النصارى حيث ينطلق العروسان لوحدهما إلى عش الزوجية. هكذا بقي بعض الأقارب في منزل عيسى تلك الليلة لاستقبال أهل العروس في الصباح ليباركوا.

"هل الطهور ضروري يا جدي، أخبرني عيسى أنه مهم للتناسل، ولكن النصارى يتناسلون دون طهور. لماذا كُتبت علينا واليهود تحمل هذا التعذيب؟" لو كانت آثار العملية قد زالت فربما ارتضيت بالتدليل والنقوطة بدلاً، ولكن التبول أصبح صعباً وحرقاً ورأس القضيب في ورم متواصل، وبالتالي أردت مجادلة جدي.

"كما ترى فالاسم الدارج هو الطهور وليس الختان. وهذا إشارة

إلى الطهر والنظافة وإزالة النجاسة، وهو عادة سار عليها كل المسلمين. قريباً ستزول الآلام وتنسى الموضوع".

"لكن حتى أنساه لا يضر أن نعرف السبب، هل جاء ذكر الطهور أو الختان في القرآن؟"

"لا لم يرد.."

أراد جدّي الاسترسال في شروحات وتبرير لم تكن تعينني فقاطعته "هل الرسول عليه الصلاة والسلام مطهر؟" أمسك جدّي بلحيته ومشطها بيده، فرفعت حاجبي متحدياً ومنتظراً للإجابة.

"القرآن نزل على الرسول في سن متأخرة، ولا ذكر للأمر في الآيات. ربما كان مطهراً في تقليد لليهود الذين كانوا في شبه الجزيرة".

"الرسول يتشبه باليهود ويتطهر بدون إذن إلهي وبدون إشارة لاحقة منه في الأحاديث؟" أخذ الحديث يتعقد ولمحت بعض القلق في عيون جدّي فقدمت له مخرجاً "ما هو أصل الطهور ولماذا لا يمارسه النصارى؟"

"صلي على النبي". إسترخى جدّي في الجلسة بعد طلبه هذا، وتناول صحناً ووضع به أنواعاً من الحلويات والمكسرات مما على طاولتي. أجبته منتظراً لرأيه "اللهم صل عليه وسلم".

"في كتب اليهود إشارة إلى أن الله ظهر لأبينا إبراهيم قبل أن يبلغ المائة وطلب منه أن يختن نفسه وأن يختن كل نسله وهم في اليوم الثامن بعد ميلادهم. وعده ربه، حسب كتب اليهود، أن يعطي أرض كنعان إلى اليهود إذا طبقوا الختان. طبعاً إبراهيم أبوهم وأبونا، ورغم أننا لا نقبل تفسيرهم للوعد بأن أرض كنعان لهم، لكننا أخذنا بالختان. هم اعتبروا أن الختان جعلهم مميزين ووضعهم في صف شعب الله المختار، ونحن طبقناه استجابة لرغبة أبينا إبراهيم عليه السلام. لهذا بالذات فإن المسيحيين رفضوا الختان لرفضهم مبدأ اختيار الرب لفئة من عباده دون الأخرى". قفز جدّي بعد هذا التفسير إلى موضوع آخر لإشغال ذهني عن أوضاع قضيبتي وعذاب البول وألم التورم كنتيجة لأمر تلقاه سيدنا إبراهيم

من ربه. ووددت سؤال جدّي إذا كان الختان تعذيباً إلهياً لكل الذكور من اليهود والمسلمين حتى قيام الساعة، لكنه انتقل للحديث عن المهرة التي أخبرني بها عيسى. "طالما أنك تحملت الألم بشجاعة الرجال الأشداء، فقد قررت إهداءك مهرة".

"شكراً يا جدّي، كم عمرها؟"

"ليست مهرة بالفعل فعمرها خمس سنوات، ولكنك ستكون أول خيال لها، وسيسعك التدريب معها على الفروسية والطعان والقتال لترافقك لأكثر من عشر سنوات قادمة إذا أحسنت معاملتها". صمتُ حتى يفسر جدّي ما يعنيه بقتال وفروسية. كنت أعرف أن علينا تعلم ركوب الخيل والرماية حسب وصية الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، ولكن بدا من حديث جدّي وجود شيء ملموس يدبر في الخفاء. "تعرف بقول الرسول عليه الصلاة والسلام بأن الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة". صمت جدّي برهة وأجبت بهزة رأس أنني أعرف بذلك الحديث الشريف. "عمك أبدى إعجابه الشديد بقدراتك على ركوب الخيل وطول صمودك وحسن تعاملك مع طهبوب والشهباء. هل تعرف أصول أسماء الخيل؟" بدا أن جدّي غير مستعجل على التوضيح، وتوجب علي مراعاة آداب الحديث مع الكبار.

"لا أعرف الكثير، حبذا لو أخبرتني".

"الفارس ينسب للفرس، وهذا في غاية الأهمية عند العرب الذين يفاخرون بنسبهم. واسم الخيل جاء من الخيلاء بالنفس والاعتزاز، بينما اسم الحصان مشتق من حصن الرجل الذي يحميه ويصونه. غالبية قصص وأشعار العرب تتغنى بخيلهم، ويعطون الخيل أسماء خاصة كأنها أحد أفراد العائلة." لم أكن بحاجة لترغيبني بمهرة أو لشروحات حول أهمية الخيل في حياتنا وفضلها علينا في الفتوحات، ولكنني فضلت عدم استعجال جدّي لما يريد الوصول إليه، بل فتحت له باباً واسعاً ليطرقة كيفما شاء.

"عندما اجتاز جند طارق بن زياد المضيق المائي عند الجزيرة، هل

كان معهم خيل أيضاً؟"

"كانوا سبعة آلاف مقاتل أبحروا في الخامس من رجب عام اثنين وتسعين ومعهم بضعة خيول نظراً لقلّة السفن المتوفرة ولخوف العرب من ركوب البحر. في صباح اليوم التالي اشتبكوا مع جنود القوط طوال ثلاثة أيام وهزمهم وأخذوا خيلهم. على الفور استنجد طارق بموسى بن نصير لإرسال خيل والمزيد من الجنود، فأرسل له خمسة آلاف فارس تحركوا مع السبعة آلاف الذين سبقوهم حتى التقوا ملك القوط الذي هبط إليهم بأربعين ألف جندي من طليطلة. كان اللقاء عند بحيرة برباط ودارت المعارك لعشرة أيام تكلفت بنصر المسلمين وفوزهم بالغنائم والخيول، ولكنهم فقدوا ربع جيشهم في أرض المعركة. من هناك تحرك طارق شمالاً ومر بمدينة شذونه، ووصل بعد شهر إلى طليطلة ودخل بعده موسى بإثني عشر ألف فارس ليعزوا الفتح ويؤمنوا المدن ويقضوا على بقايا مقاومة القوط". انتقل جدّي للحديث عن شذونه دون إعطائي فرصة لمواصلة السؤال عن ظروف الفتح. "مدينة جميلة بها قلعة ضخمة يتعلم الفتيان فيها الفروسية، وهناك الكثير من أقارب والدتك وأخوالك وبقية جند فلسطين".

تكرر سماعي بوجود جند من أماكن مشرقية محددة في مواقع أندلسية معينة، وذلك بالرغم من الاختلاط القائم وحركة السكان الدائمة، فسألت جدّي عن السبب. "هذه قصة طويلة عليك مراجعتها في الكتب ورواياتنا، ولكنني سأوجز لك أسبابها ومجرياتها لتكون في الصورة عندما تزور شذونه لتعلم الفروسية هناك. أنت الآن على أبواب التاسعة من عمرك وهذا سن مناسب". تنبّهت مداركي فجأة ولكن ضغط البول كان يهدد بانفجار، فأخبرت جدّي أن ينتظر قليلاً فعسى أن أنجح في إخراج المياه المحتجزة في داخلي. أصبحت أجلس على مؤخرتي وقدمي بينما ركبتاي توازيان صدري ليصنع جلاببي خيمة لقضيبي حتى لا يحتك به أي شيء. عندما أسير يتوجب أن أمسك بالجلباب وأبعده عن وسطي وأبعد أفخاذي عن بعضها ليقبى الجرح محمياً. كل الضغط لم ينجح في دفع البول للخارج، ولكنه تسبب في حرقان للرأس. رفع جدّي

راوي قرطبة

صوته ليعرف إذا كانت الأمور على ما يرام فأخبرته بالحال. في لمحّة بصر قرع جدّي باب الحمام وناولني كوباً مليئاً بزيت الزيتون "إغمسه في الزيت لفترة فيزول الحرقان ويسهل التبول قليلاً". في نهاية المطاف وبعد عناء متشعب هانت الأحوال.

"بصراحة يا جدّي لا زلت غير مقتنع بضرورة الطهور وأهمية الوعد الرباني".

"احتجاجك الآن لا معنى له، الجلدة قطعت وأنت اجتزت العتبة للرجولة بشجاعة فائقة ولم أشهد فتى يتحمل الأمر دون صراخ مثلك، فدعنا نعود لحديثنا السابق".

"سأصبح فارساً إذاً وقررتم إرسالني إلى شذونه".

"نعم، ولكن موضوعنا كان مختلفاً. جند الفتح كانوا من العرب والبربر، وتزوجوا من بنات البلد ليتكون جيل جديد أصبح يُعرف بالبلديين. البربر اختاروا السكن في المرتفعات شمال طليطلة وعلى الحدود مع بلاد الغال. بعد خمس سنوات استفحلت الخلافات التي حركها الخليفة سليمان من دمشق، وتوافق بعدها أن ثار بربر المغرب على الخلافة، فتشجع البربر في شمال الأندلس وبدأ تمردهم الأول. بعد معركة بلاط الشهداء تولى عبد الملك بن قطن على الأندلس، وهو يمني. أثناء ولايته ثار البربر في المغرب مجدداً ووصلت قوات شامية من الشرق لردعهم ولكنهم انهزموا وحاصر البربر بقاياهم في سبته. ومع انتشار أخبار الانتصار تحرك بربر الأندلس باتجاه طليطلة وقرطبة للاستيلاء على الحكم، وعندها سمح الفهري للجند المحاصرين في سبته بالحضور وأرسل لهم سفناً تنقلهم لإنقاذه. كان الفهري يظن في البداية أن ثورة البربر ضد الشاميين لن تصيبه. هؤلاء الجند الشاميون بقيادة بلج بن بشر كانوا عشرة آلاف، نجحوا في القضاء على ثورة البربر، لكن شمال الأندلس فرغ من المسلمين. بالطبع أخذ ابن بشر الولاية من الفهري ثم قتله الاندلسيون وتعين أبا الخطار الكلبي والياً. جند بشر كانوا من مناطق شرقية عدة، وحتى تتقي قرطبة خلافاتهم أشار اربطاس

بن غيطشة وهو قومس الأندلس وشيخ النصارى، أشار على أبي الخطار أن يوزعهم على الكور وبذلك يؤمنوها ويتقي شر خلافاتهم. جند مصر ذهبوا إلى باجة وتدمير، وجند حمص إلى إشبيلية، وجند فلسطين والأردن إلى شذونه وريه، وجند دمشق إلى البيرة، وجند قسرين إلى جيان. إتفق معهم الوالي أن يأخذوا ثلث الخراج الذي يؤديه نصارى الذمة ومزارعو تلك المناطق، وفي المقابل يحفظون الأمن ويرسلون الجند إلى قرطبة كلما طلب منهم ذلك للمشاركة في غزوات الصوائف والشواتي".

"وانتهت الخلافات بعد ذلك!"

"للأسف لا، الصراع استمر بين اليمينية والشاميين في قرطبة وإن كان بقتال أقل، ولم تسلك الأمور نسيباً إلا بوصول عبد الرحمن الداخل الذي قضى على الولاة واستقل بالأندلس عن الخلافة العباسية الوليدة وفصلها إدارياً عن شمال أفريقيا". إذا سأذهب لتعلم الفروسية والقتال عند أقارب أمي الذين يعتزون بأصلهم وينتسبون إليه بعد مرور أكثر من ربع ألفية على وجودهم هنا.

"على الأقل اليمينية والفلسطينية لا يتحاربون الآن. وماذا سيعتبروني في شذونه، يمينياً مثل أبي أم فلسطينياً مثل أمي؟"

"يبدو أن الزيت أراحك وأصبحت تمازح الآن. ذلك الفارق انتهى منذ مدة. يوجد الآن انتماء عربي وآخر بربري وثالث موزاراب، وكلنا مسلمون نتعايش مع النصارى واليهود وغيرهم. هناك نصارى يتشبهون بالمسلمين في كل شيء لكنهم ينتمون رسمياً للنصرانية، أو بالأحرى فهم غير متدينين. دماؤنا اختلطت منذ البداية، ومعظمنا تزوج أندلسيات، أسلمن بالطبع. أولاد عمك عيسى من مريم سيعتبرون أنفسهم أندلسيين عرباً، لأن العروبة الآن ثقافة وحضارة وليست عنصراً ودماء".

"أصلاً سيدنا عيسى عليه السلام، من فلسطين، والنصارى الأوائل من المشرق، ونصارى الشرق الآن هم عرب أيضاً". قلت ذلك تظاهراً بمسايرة الحديث، لكن الصورة اتضحت تماماً، عمي عيسى طمأن أبي

وجدّي باتقاني لركوب الخيل وقوة تحملي، وبعد طهوري وبلوغ التاسعة لم يعد هناك معيقات لتعلم الفروسية تلبية لطلب الخلافة الاشتراك في الغزو كثمن للمزايا التي تحصل عليها عائلاتنا العربية. عرفت من جدّي أن أعيان شذونه سيصلون كالعادة لتهنئة الخليفة بعيد الأضحى بعد شهرين، ويمكنني العودة معهم حتى أنهى تعليمي الأولي وأعود لأخذ مرحلة ثانية من العلوم في جامعتنا وجامعنا.

أمامي الآن على الأقل أسبوع كامل ألبس فيه الجلباب دون سروال، وبالطبع البقاء في البيت، ثم شهران قبل بداية حياة جديدة ربما دامت لعام كامل. هكذا اتخذت القرار بمراجعة ما أمكن من الكتب عن قصص الفتوحات في أفريقيا والأندلس، والتعرف على النصرانية وتاريخهم وطبائعهم، فربما كان نصيبي أن أحاربهم رغم أن كل المؤشرات توحى بأن الحرب ستكون في أفريقية. لحسن الحظ أن جدّي ملم بالتاريخ الأندلسي وعلى معرفة بكتب تاريخ المغرب والنصارى، وسيبقى معنا في قرطبة بعض الوقت كون عمي عيسى عريس جديد واستقل بالبيت لوحده في الزهراء. قال جدّي إن الشيخ أحمد الرازي كتب الكثير في تاريخ المغرب، وابنه عيسى لازال معنا في قرطبة الآن ويواصل الكتابة عن المغرب والأندلس. دخل والذي ليطمئن على وضعي وسمع حديثنا عن تاريخ المغرب، فذهب إلى المكتبة وعاد بكتابين، واحد لابن القوطية أبو بكر محمد، والآخر لمحمد بن يوسف الوراق.

"الإثنان طلبا مني في أواخر رمضان أن أعد لهما نسخاً إضافية من مؤلفيهما، وفيهما الكثير عن أخبار المغرب. راجع الجزء الذي تريده مع جدك فلن نبدأ النسخ قبل أسبوعين". تحدث أبي عن كثرة طلبات النسخ هذه الأيام وأن النساخين العشرة عنده في حاجة لمضاعفة عددهم، بينما جدّي يقلب كتاب تاريخ افتتاح الأندلس.

"ابن القوطية يا سليمان، صاحب هذا المؤلف، عالم في النحو وشاعر يعشق الأمويين لأنه من أحفاد سارة القوطية حفيدة ملك القوط غيطشه، الذي اغتصب لذريق عرشه في طليطلة. وقد ساعد أولاده

المسلمين ضد مغتصب عرشهم، وأسلموا بعدما هزم طارق لذريق في موقعة برباط. سارة ذهبت بعد الفتح بسنوات إلى دمشق للشكاية من عدم إنصاف عائلتها وقابلت هناك الخليفة سليمان بن عبد الملك الذي طمأنها وزوجها من أحد مواليه فعادت معه للأندلس، ومؤلفنا هذا، أطال الله عمره، هو أحد أحفادها".

"وهل يصح أن ينسب أبو بكر إلى جدته؟"

"طبعاً، إذا كانت ذات علم ودين وشجاعة إلى درجة أوصلتها لدمشق وكرمها الخليفة، فما المانع". كان الكتاب الآخر من تأليف الوراق وهو قيرواني المولد والتعلم ولكنه يعيش معنا في قرطبة منذ زمن. إنهمك جدّي في كتاب ابن القوطية وعثرت أنا في الكتاب الآخر على قصص من فتح بلاد المغرب ومنها قصة الكاهنة، التي شدتني بلقبها.

كاهنة افريقيا

قصة الكاهنة، بالنسبة لي، هي اشوق احداث فتح افريقيا، لان تلك الشمطاء أمرت بتخريب المدن و ابادة الشجر حتى يبغض العرب البلاد، فيكفوا عنها بعد ان حولتها الى قحل. سأوجز فيما يلي قدر الامكان ما وجدته في السجلات عن تلك الحقبة.

في عام خمسين هجرية، اقر الخليفة في دمشق الفاتح عقبة بن نافع الفهري على افريقيا، لاستكمال فتحها بعد غزوه للروم في البحر بجنود من أهل مصر قبل عام. وصل عقبة لافريقيا ومعه عشرة الاف من المسلمين، فافتتحها بالسيف مثل من سبقوه. كان اهل البلاد يستجيبون للاسلام بوجود الفاتح ويرتدون في اول فرصة تتاح. لذلك رأى عقبة ان يبني فيها مدينة القيروان، وابعدها عن الشاطئ بمسافة حتى لا يغدر صاحب القسطنطينية بأهلها من البحر فجأة.

استجاب الجنود العرب لطلب عقبة بالبناء، ولكنهم قالوا له: إنك أمرتنا بالبناء في شعارى وغياض لاترام، ونحن نخاف من السباع والحيات فيها. خرج عقبة الى الموقع المختار للبناء ومعه الثمانية عشر من التابعين لاصحاب الرسول عليه السلام والذين شاركوه الغزوة، واخذوا بالدعاء: ايتها الحيات والسباع ! نحن اصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام. فارحلوا عنا فإننا نازلون، ومن وجدناه بعد هذا قتلناه .

فنظر الناس بعد ذلك لامر عجب اذ حملت السباع اشبالها وخرجت، والذئاب تحمل جروها، والحية تحمل اولادها. نادى عقبة في الناس ان يكفوا عنها حتى تخرج بسلام. امر بقطع الشجر واختط دار الامارة والمسجد واصبحت القيروان دار علم وجهاد. في عام خمسة

وخمسين عزل الخليفة معاوية كل من ولاية مصر وافريقيا، وافر مسلمة بن مخلد على البلدين. مسلمة هذا اقر مولاه، ابا المهاجر دينار، على افريقيا. لم يشأ ابو مهاجر ان ينزل في قيروان عقبه بن نافع بل امر بحرقها وابتناء مدينة اخرى تخلده. عندما عرف عقبه بالامر وهو في طريقه الى الشام دعا الله عليه. في دمشق اقدم عقبه على الخليفة معاوية محتجاً على عمل مسلمة ومولاه ابي المهاجر، فوعده الخليفة باعادته الى افريقيا والقيروان، لكن هذا الامر لم يتم الا بعد موت معاوية عن عمر اثنين وثمانين، وتولى ابنه يزيد الخلافة، فأخبر يزيد عقبه بأن: " ادركها قبل ان تفسد."

كان ذلك في عام اثنين وستين هجرية، اي بعد سنة من مقتل الحسين بن علي رضي الله عنهما. آنذاك اظهر عبد الله بن الزبير الخلاف في مكة وخلع طاعة يزيد بن معاوية، وهو ما نتج عنه انشقاق كبير في الاسلام بعد ذلك.

في طريق عودته لافريقيا مر عقبه على مصر ومعه خمسة وعشرون من التابعين. استقبله في الفسطاط مسلمة بن خالد معتذراً عما بدا منه، وقال لعقبه بانه لم يأمر أبا المهاجر الا بعمل الخير، فتقبل عذره. دخل عقبه افريقيا فوضع ابا المهاجر في الحديد لزمان، وخرب مدينته التي بناها، واعاد الناس للقيروان. ركب بالعسكر والصحابة والتابعين ودار بهم حول المدينة داعياً: يارب أملأها علماً وفقهاً، واملأها بالمطيعين لك، واجعلها عزاً لدينك وذلاً على من كفر بك.

طوال ثلاث سنوات تلت فتح عقبه بقية افريقيا، وقتل خلقاً من الروم والبربر في الزاب وتيهرت وطنجه، وسبته مقر الحاكم القوطي يليان، الذي استرضى عقبه وقبل بالسلام. في طنجه نزل عقبه بفرسه الى مياه المحيط وقال: يارب لولا ان البحر منعني لمضيت في البلاد الى مسلك ذي القرنين مدافعاً عن دينك. في طريق عودته للمغرب الاوسط صرف عقبه اصحابه وجيوشه الى بيوتهم واتجه هو وقله، من بينهم ابو المهاجر، اتجهوا الى مدينة تهودا. ابصرهم النصارى قلة فاغلقوا دونهم

راوي قرطبة

ابواب المدينة. احد زعماء البربر، كسيلة بن لمزم الاوربي، انتهب الفرصة للانتقام من عقبة والمسلمين، فهجم عليهم بخمسين الف بربري. صلى عقبة ركعتين وقال لأبي المهاجر ان يهرب ليلحق بالمسلمين، "فأنا والله اغتتم الشهادة." فقال له ابو المهاجر، "وأنا والله اغتتمها معك"، وكسروا جفن سيوفهم وكسر بقية المسلمين اغماد سيوفهم وترجلوا عن خيولهم واقاموا دائرة يقتلون المهاجمين حتى قتل غالبيتهم ومعهم عقبة وأبو المهاجر.

في شهر محرم سنة اربعة وستون انتزع كسيلة القيروان من المسلمين، بعد ان جمع اهل المغرب كلهم للهجوم وفر المسلمون من المدينة. في هذه الاثناء انتقلت الخلافة بعد معاوية، من ابنه يزيد لحفيده معاوية وهو آخر السفينيين، اذ تلاهم الفرع المرواني بخلافة مروان بن الحكم. كانت الخلافة قد تحولت الى وراثة عائلية منذ تولي معاوية بن ابي سفيان، على عكس خلافة الشورى من قبله. بعد مروان تولى الخلافة ابنه عبد الملك، الذي اعاد زهير البلوي عام تسعة وستين في عسكر عظيم الى افريقيا لينتقم لعقبة. كان زهير البلوي هذا آخر الهاربين من القيروان بعد ان فشل في اقناع الناس بالصمود والقتال ضد كسيلة.

استعاد زهير القيروان بعد حرب ضروس وقتل كسيلة والكثير من البربر والروم ونصب بها الكثير من اصحابه ثم ارتحل عائداً الى المشرق. في الطريق، وعندما وصل برقة، شاهد سفن الروم تحمل الاسرى المسلمين بعد ان قتلت ودمرت ونهبت المدينة، فنهض الى الشاطيء لتخليص سبي المسلمين الذين استغاثوا به، فاذا بالروم ينزلون اليهم من المراكب وقتلوا زهير ومن معه من اشراف العرب. تكررت مأساة عقبة، وقرر الخليفة ارسال حسان بن النعمان لافريقيا وذلك في سنة ثمانٍ وسبعين.

وصل حسان بعسكر عظيم، لم يدخل بمثله من قبل. ضمن هذا الجند كان جدي الاول أبو قريب اسعد بن باهر القلعي. في القيروان سأل حسان القوم: من هو اعظم ملوك افريقيا قدراً؟ فقالوا له: صاحب

قرطاجنة. فسار حسان اليهم وقتل اكثرهم وهرب بقيتهم الى الاندلس وصقلية، وقاتل حسان بقاياهم وسباهم وامر بتخريب قرطاجنة. بلغه ان البربر والروم جمعوا قوات جديدة لقتاله فاتجه اليهم وحمل عليهم أعنة خيله. هرب الروم لمدينة باجة وتحصنوا بها، وهرب البربر الى اقليم بونة، وانصرف حسان الى القيروان.

استراح في المدينة بضعة ايام وسأل عمّن تبقى من اعظم ملوك افريقيا، فدلوه على امرأة بجبل اوراس يقال لها الكاهنة، تخيف جميع الروم في افريقيا وكل البربر يطيعونها، فهي سوداء، تجيد السحر، في الخمسين من عمرها. قالوا لحسان: ان قتلت الكاهنة دان لك المغرب كله. عندما علمت الكاهنة بقدوم الجيش اليها، خرجت من الجبل في عدد لا يحصى وسبقت حسان الى مدينة باغاية فاخرجت منها الروم وهدمتها لانها ظنت ان حسانا يريد مدينة ليتحصن بها منها. اتجه حسان الى وادي سكنانة، ولحقت به الكاهنة هناك ونشبت معركة هائلة قتل فيها المسلمون وانهزموا واسرت الكاهنة ثمانين من اعيان اصحاب حسان ومنهم خالد بن يزيد.

كتب حسان للخليفة بأن امم المغرب لا نهاية لها، وكلما ابادت أمة خلفتها أمم، فرد عليه الخليفة ان يمكث اينما وصله هذا الرد، وكان المكان برقة، فباشر حسان ببناء القصور هناك. امتلكت الكاهنة المغرب كله خمس سنوات بعد حسان، وقالت لقومها ان العرب يطلبون من افريقيا المدائن، ونحن نحتاج للمراعي، والافضل ان نخرب افريقيا فلا يكون للعرب رجوع. تحرك قومها الى كل ناحية يقطعون الشجر ويهدمون المدن والحصون، وبعد ان كانت افريقيا مظلمة من طرابلس حتى طنجة، خربت الكاهنة ذلك كله وخرج النصارى والافارقة مستغيثين من افعال الكاهنة وتفرقوا الى الاندلس وسائر الجزر البحرية.

استبقت الكاهنة لديها خالد بن يزيد واعادت بقية الاسرى لحسان. قالت لخالد يوماً: ما رأيت في الرجال اجمل او شجع منك، وانا اريد ان ارضعك فتكون اخاً لولدي. كان لها ولدان احدهما من اب بربري

راوي قرطبة

والاخر ابن ليوناني. اخذت دقيق الشعير وخلطته بالزيت ووضعتة على ثديها ونادت ولديها ليأكلا مع خالد عن صدرها، ففعلوا وقالت لهم: صرتم اخوة.

ضعفت سطوة الكاهنة بعد تخريب البلاد، ووصل لحسان خبر ان البربر متفرقون، فتحرك اليهم بقوات جديدة. عرفت الكاهنة بامرهم وتيقنت الهزيمة والموت، ولكنها رفضت الهروب واصرت على القتال. اقنعت خالد وولديها بأستئمان حسان واركبتهم اليه بعد ان اخبرتهم انها رأّت حلماتاً ورأسها سوف تقطع واولادها سيصبحون قادة كباراً.

خرجت الكاهنة ناشرة شعرها تتنبأ بالقتل، واشتدت الحرب حتى هربت ولحقها حسان وعاد برأسها. طالب رجال البربر بعد ذلك بالأمان فرفض حسان طلبهم الا بشرط ان يرتهن منهم اثني عشر الف مقاتل يجاهدون مع العرب، وان يحسنوا ويصلحوا اسلامهم، فوافقوه على ذلك. عقد حسان لكل من ولدي الكاهنة لواء على ستة الاف بربري واخرجهم مع العرب يقاتلون بقايا الروم ومن كفر من البربر، وانصرف حسان الى القيروان لا يغزو أحداً ولا ينازعه أحد، بل اهتم بتنظيم الادارة وتوسيع القيروان وبناء ميناء لافريقيا. بعد اربع سنوات من قتل الكاهنة تولى عبد العزيز اخ الخليفة عبد الملك على مصر فأمر بعزل حسان وبحضره اليه.

توقع حسان ان عبد العزيز اراد الكنوز، فأمر من يثق بهم ان يخبئوا الجواهر والفضة والذهب في قرب الماء، واطهر ما عدا ذلك، من السبي والامتعة، على الدواب حتى وصل مصر. أهدى عبد العزيز بن مروان مائتي جارية من بنات ملوك الروم والبربر، لكن عبد العزيز سلبه جميع ما كان معه من الخيل والاحمال والامتعة والوصفان. رحل حسان بالاثقال التي بقيت وقدم على الخليفة عبد الملك في دمشق، فشكا له صنيع اخيه. غضب الخليفة بالطبع مما جرى، فقال حسان لمن معه: اتوني بقرب الماء. فرغ ما في القرب من الجواهر وتعجب منه الخليفة وشكره على حسن صنعه وأمانته، واخبره انه سيرده الى افريقيا، لكن

حسان رفض العرض وقال: لا أولى لبني امية ابداً. وكان عبد العزيز عندما عزل حسان قد ولى مكانه موسى بن نصير .

دخل موسى افريقيا عام اثنين وثمانين بعد ان تعهد للخليفة في دمشق ولاخيه في مصر بالمزيد من الفتح والغنائم. فتح قلعة زغوان ونواحيها وهي على مسافة يوم من القيروان وانزل بالناس مذبحه، وسبى من تلك النواحي عشرة الاف رأس مواشي وبشر ساقها الى القيروان، وسبى كل من ولديه مروان وعبد الله اكثر منه. كتب الى عبد العزيز في الفسطاط بالغنائم وارسل له المواشي والاسرى والجواري ففرح بها واصبح ينتظر المزيد. عندما فتح موسى سجومة وقتل ملوكها أمر اولاد عقبة بن نافع، وهم عياض وعثمان وأبو عبده، ان يأخذوا حقهم من قاتل ابيهم، فقتلوا من اهل سجومة ستمائة رجل من كبارهم. شاء القدر ان تصل طفلة سبيه من قبيلة نفزة الى دمشق، وتكبر هناك بين الجواري ويضمها امير الى حريمة فتنجب له ولدين اكبرهما هو عبد الرحمن الذي كتبت له النجاة من مذابح العباسيين لاهله ووصل الى اخواله في المغرب وانتقل الى الاندلس ليؤسس بها العهد الاموي القائم للان تحت حكم احفاده.

نعود لفتوحات موسى في افريقيا، فقد مات عبد العزيز في مصر سنة خمس وثمانين، وفي العام التالي توفي في دمشق الخليفة عبد الملك، وحل مكانه ابنه الوليد فقطع ولاية افريقيا عن مصر وجعلها مستقلة، وثبت موسى فيها. لم يكف موسى بن نصير عن البربر وتحرك الى طنجة في الغرب حيث تجمعوا من الخوف. استأمنوا واطهروا الطاعة، فولى موسى عليهم في طنجة مولاه البربري طارق. رغب بقية البربر في وقف القتال وطلبوا الصلح لكن موسى لم يصدقهم، وطلب رهائن منهم ففعلوا، وارسلهم موسى مع العرب بحراً الى صقلية فأصابوا بها وعادوا بالسبي غانمين. هكذا انتظم البربر مع المسلمين حتى ارتأى موسى ان يرسلهم والعرب مع طارق بن زياد لفتح الاندلس.

هذه الصفحات هي موجز لتاريخ صراع دامٍ دامٍ نصف قرن قبل

الانتقال الى فتح الاندلس ووردت تفاصيله الدقيقة في مؤلف محمد بن يوسف الوراق. كان سبب تأخر فتح افريقيا هو جلادة وقوة اهلها البربر، فقد انهزم الروم والقوط من هناك في السنوات الاولى بعد فتح مصر. لكن السبب الاخر لبطء الفتح يعود الى الخلافات التي عمت بين المسلمين اثر الصراع والحروب بين الخليفة علي بن ابي طالب زوج فاطمة بنت الرسول، وبين معاوية بن ابي سفيان، وهو ما نتج عنه اول واهم انشقاق في الاسلام. أرعبتني اثناء المطالعة حقيقة ان ذلك الصراع دام للان وبشكل دموي. وعلى الأرجح ان البربر ايضاً لن ينسوا خلافهم وحقدهم، وسينقضون على الاندلس عندما تسمح لهم الظروف. تدريجياً تفتح ذهني على اسباب حروبنا في افريقيا الان، فهي امتداد للخلاف السني الشيعي، وهو الان فاطمي شيعي وعباسي وسني، يعم افريقيا ومصر والشام. بقايا العباسيين في العراق تحت حكام اترك، وفي فارس لم يعد لهم وجود، أما في الأندلس فنحن أمويون سنة نتخوف من العدو في المغرب ونريد تكفير شيعتها، ويتدبر بنا النصارى في الشمال ويزحفون علينا كلما اتيح لهم ذلك.

جارنا السادس

بعد صلاة العصر في اليوم التالي طرق ابن عمران بابنا واستقبله جدّي في الصالون وانضمت إليهما كونه جاء لبارك لي وليرسل التهاني إلى عمي وزوجته في الزهراء. ابن عمران هو سادس جار لنا ويقطن مجاوراً للكنيس اليهودي في شارعنا مباشرة، وأعرف ابنتيه رفقه وشفه جيداً، فالأولى أكبر مني قليلاً، والثانية أصغر مني، وفي العادة تزوران أختي فاطمة. والدهما تاجر يهودي، وهو صديق لوالدي وبينهما تجارة كتب. أقام ابن عمران أول صناعة للجلود في أواسط بلاد الغال، ويجلب الجلود منقطة وجاهزة من هناك ويبيعها في قرطبة للصناع، ثم يعود بحمولات من الصناعات الجلدية والورق ويبيعها للأديرة، ويبادل الصنادل والأقشطة وبقية الجلديات في قلاع الإقطاعيين وللسكان في محيطها، يبادلها بجلود غير مصنعة وبالطبع بأية قطع فضية متوفرة. لكن ابن عمران أيضاً يستشير والذي بصدد أية كتب جديدة في قرطبة ويحدث رجال الكنائس عنها في رحلاته ويحصل أحياناً على تكليف بشراء بعضها من قرطبة أو حتى بترجمتها من العربية إلى اللاتينية، وهكذا يطلب من أبي نسخ بعض الكتب ويطلب من يهود ونصارى أصدقاء له ترجمة بعضها الآخر.

لم يكن أبي قد عاد من معهد النسخ الذي افتتحه، ويشرف فيه على ناسخين ويتابع منه أعمالاً يكلف بها آخرين وأخريات يعملون من بيوتهم. بدأ الحديث عن سرعة زوال الألم بعد الطهور، وانتقل لموضوع الكتب وآخر رحلات الرجل. تذكرت جيراننا الحجاج في شنت يعقوب وقررت سؤال ابن عمران عما يعرفه عن تلك النواحي والقديس الذي يحج إليه

راوي قرطبة

النصارى. سألني عما أعرف، فأخبرته أن معلوماتي لا تتعدى ما قالته جارتنا ماري بشكل عارض، إن القديس يعقوب نهض من القبر ذات مرة وقاتل مع النصارى ضد الخليفة الناصر والد خليفتنا الحكم المستنصر بالله.

"تلك الخرافة هي التي حولت مقام القديس إلى محج. يعقوب هو أحد رفاق المسيح كما تعرف، بل ربما أقربهم إليه، ويفترض أنه مسالم لأن المسيح ورفاقه وأتباعه رفضوا أي أسلوب من المقاومة العنيفة، ومن المستهجن أن يُلبسوا يعقوب جلد المحارب". أحضرت فاطمة القهوة وأطباق حلويات وسألت عن أحوال رفاقه وشفه وجلست معنا تتابع الحديث.

"لكنهم حولوه إلى مقاتل. كيف وصل يعقوب من فلسطين إلى شمال الأندلس قبل حوالي ألف عام؟"

"للإنصاف يا سليمان فبعض من يحجون إلى مقامه يفعلون ذلك لقداسته وليس بالضرورة لدوره الحربي ضد المسلمين، أما كيف وصل إلى هنا فقصتهم كالتالي، ولك أن تحكم بنفسك. تحرك يعقوب بعد صلب المسيح لنشر الرسالة ووصل إلى الشمال، ثم عاد للبلاد المقدسة ومعه تلميذان، ولكن الرومان قطعوا رأسه. تلميذاه رأيا في المنام أمراً أبلغهما بالعودة برفاة معلمهما إلى شنت يعقوب" إرتشف ابن عمران المزيد من القهوة ونظر إلى جدّي وتبسم كل منهما للآخر بانتظار بقية الرواية. "صنع تلميذاه قارباً ووضعوا الجثة في تابوت حجري وأبحرا بطول البحر الرومي حتى المضيق ودارا شمالاً وأبحرا حتى أقصى الجزيرة إلى شواطئ جليقية. بعد ثمانية قرون شاهد فلاح نجمة تهبط من السماء على رأس تلة، ولما حفروا هناك وجدوا القارب والتابوت الحجري وجثتين. بالطبع، لأن النصارى في أمس الحاجة لقديس في حربهم ضد المسلمين، أصبحت إحداها جثة القديس يعقوب. بعد خمس سنوات من إقامة الكنيسة فوق القبر نهض يعقوب وحارب مع النصارى في معركة 834 وذبح لوحده سبعين ألف مسلم، ولقبوه سانتياجو

موتامورو، أي القديس يعقوب ذابح المسلمين". ضحكنا جميعاً لحجم الخرافة.

"إنهم يصدقون كل شيء وأي شيء مهما كان بعيداً عن التصور. أبحروا بالمركب قبل أكثر من خمسمائة سنة على ميلاد الرسول محمد والإسلام، ولكن بالصدفة رسا مركبهم في أقصى بقعة من إيبيريا لن يحتلها العرب لاحقاً. إنها كتلة من المعجزات تستحق الحج إليها". دخل والدي ونحن في نوبة ضحك أخرى، فسلم على ابن عمران بحرارة. "سليمان ما شاء الله اسم على مسمى، وقد يصبح حكيماً هو الآخر، مبروك لكم ما فعلتم وعقبال الفرحة بزواجه".

"طريقه طويل للزواج، سيذهب لأخواله قريباً ليتعلم الفروسية. وإذا عرفت الحجة ماري أنه لا يصدق معجزات القديس فلن تحدثه بعد ذلك".

"لن أخبرها بشيء. أعرف لماذا ذهبت للحج، كل هدفها هو وقف السيول والزلازل، فإن تحقق ذلك ستكون نجحت في المهمة وعمت الفائدة الجميع، وإن استمرت الكوارث فستعلن من ذاتها تنكرها للقديس وبالصوت العالي". عم الضحك مجدداً وعن لي توجيه سؤال إلى ضيفنا اليهودي المتجول، العالم بأسرار العالم كما يبدو أحياناً "لماذا احتلنا كل شبه الجزيرة ما عدا تلك البقعة التي رست فيها مركبة القديس؟" "أبو قريب يعرف الإجابة وبالتفاصيل". لم ينفِ جدّي مقولة الضيف ولكنه تمنى عليه أن يقص لي الأسباب من وجهة نظره، وأضاف بأنني أراجع الآن كتاب محمد بن يوسف الوراق عن تاريخ المغرب والأندلس وسيكون بوسعي تكوين وجهة نظر خاصة بعد سماع ومطالعة المزيد.

"طارق غزا بقواته ووصل إلى طليطلة، ثم أرسل له قائده موسى بن نصير، والي أفريقيا، بأن يتروى قليلاً حتى لا يتفرق العدد القليل من المسلمين في هذه البلاد الواسعة. بعد عام دخل موسى بقوات أكثر وفتح مناطق أخرى والتقى بطارق وفتحها بعد ذلك المزيد، بل إن موسى اجتاز

جبال البرت وفتح قرقشونة ومناطق من جنوب الغال. هناك شعر هذا القائد أن بوسع المسلمين مواصلة الفتح على الضفة الشمالية للبحر الرومي والوصول إلى القسطنطينية التي عجز الخليفة الوليد ومن سبقه ومن تبعه عن فتحها. أرسل موسى مغيث الرومي إلى دمشق ليبلغ الخليفة بالفتوحات وليأخذ الإذن بمواصلة الطريق إلى القسطنطينية. مغيث هذا كان مولى الخليفة وأرسله مع موسى كجاسوس يصدقه الأخبار. يعلم الله ماذا نقل مغيث من معلومات عن المغانم والسيبي، لكن الخليفة لم تعجبه فكرة فتح القسطنطينية هكذا، لأن فاتحها سيواصل الطريق كبطل إلى دمشق ويجلس على كرسي الخلافة وينهي العهد الأموي". هذا التفسير والرؤية من ضيفنا شد انتباهي، ولاحظت أذني جدّي وكأنها تتحرك، بينما بدا أبي وكأنه مطلع على تفسير صديقه اليهودي. "عاد مغيث من دمشق والتقى موسى عند بلدة لُك بالقرب من شنت يعقوب الحالية، وكان طارق يفتح بلاداً على ساحل المحيط الأخضر. قال مغيث لموسى إن الخليفة أمر بحضوره وطارق إلى دمشق فوراً. في تلك الأثناء كانت بقايا من جند القوط قد احتمت في المرتفعات هناك فتمهل موسى في السفر وأقنع مغيث بالصبر معه ريثما يقضوا على بقايا الجند، لكن رسولاً آخر وصل من الخليفة بتعليمات مشددة بالرحيل، فنزل موسى وطارق عن المنطقة وطلباً ممن يريد من الجند البقاء هناك أن يبقى، وممن يريد الهبوط معهم للجنوب أن يهبط. هكذا انتهى الفتح هناك قبيل أن يتم النصر الكامل. أولئك القلة من القوط هم أصول وأجداد ملوك وأمراء الشمال الذين يهاجمون الأندلس كلما سمحت الظروف بذلك طوال المائتين وسبعين سنة الماضية". أضاف ابن عمران أن هذه المعلومات موجودة بين دفات الكتب الكثيرة التي سجلت تاريخ الفتح. "المهم يا سليمان هي الحكمة في تفسير الأحداث وقراءة ما بين سطور التاريخ".

"كأنني سمعت هذه النصيحة القيمة أو شيئاً مشابهاً لها قبل ذلك".
كان غياب الشمس يقترب وعطلة السبت ستفرض على الزائر المغادرة

لمنزله، فأردت تأخير مغادرته قدر الإمكان طمعاً في معلومات لم تصادفني بالقراءة أو السمع. " صدقت يا جارنا في قولك، لكن ما هو غير متوفر في الكتب هو دور اليهود في هذه البلاد. طالما أنكم هنا قبل الإسلام وقبل النصرانية، لماذا لم تحكموا، ولا تقاتلون، وهل ساعدتم المسلمين في الفتح؟" يبدو أنني تجاوزت الحدود إذ صح تقييمي لنظرة أبي تجاهي وتمتمته بشبه اعتذار، ولكن جارنا السادس تبسم برضاء ورفض أي اعتذار بإشارات من يديه وبتعليق أنني محق ولا بأس من الاستفسار.

"ربما ساعدت روايتي له على حفظ معلومات مهمة، فإني أتنبأ خيراً لسليمان، ويسعدني إبلاغه بكل ما يريد، إذا كنت أعرفه طبعاً. لكنني سأترككم الآن وسأزورك مرة أخرى بعد أيام. إن كنت حينها لا تزال تريد معرفة الإجابة فأسخبرك بها". إنسحاب مهذب أراد منه جارنا إبقاء الأبواب مفتوحة على ردع أبي لي بالكف عن السؤال أو إعادة طرحه مرة أخرى، أما الآن فإنه لا يرى من اللباقة أن يسمعي رأيه، كما أن الشمس اقتربت من الاختفاء وسيكون عليه الجلوس مع عائلته لإشعال شمعتين قبل زيارة الكنيس مساء الجمعة وعدم عمل أي شيء تقريباً حتى مغيب شمس السبت.

الشكر للفاتحين

رواية ابن عمران عن موسى بن نصير شغلت بالي. قلبت الأوراق في صفحات كتابي ابن القوطية والوراق، فلم أعثر فيهما على تفسير مشابه، أو إشارة لعزم موسى على مواصلة الفتح عبر الضفة الشمالية للبحر وصولاً للقسطنطينية. كانت أخبار الكتابين طويلة عن تفاصيل فتوحات موسى ودهائه وحسن إدارته للحرب وتنظيم البلاد وصك أول عملة في طليطلة، ثم موجزاً لنزوله وطارق من بلدة لك إلى قرطبة ثم دمشق، وذلك بعد عودة مغيث من دمشق ووصول أبي نصر كرسولٍ ثانٍ من الخليفة استعجالاً في جلب موسى وطارق. عاد جدّي من صلاة العشاء في الجامع ووجدني أقلب الصفحات من دون مطالعتها كاملة.

"لا أتذكر أنني سمعت عن مخطط موسى لفتح القسطنطينية، وهذه الكتب لم تُشر للأمر أيضاً، كما أنها لا تتطرق بالتفصيل لرحلة ذلك الفاتح إلى دمشق، وما حلّ به بعد ذلك هناك".

"تلك الحقبة كانت بداية تسجيلنا للتاريخ، كما شرحت لك سابقاً، وقد عاشها جدنا أسعد الذي دخل المغرب مع حسان، والأندلس مع موسى، وشارك في معركة بلاط الشهداء مع عبد الرحمن الغافقي وسط بلاد الغال. لقد كتب جدنا رواياته بعربية غير منقطة الحروف، ولكن جدّي بدر أعاد نسخها بخط جميل، ولا بأس أن تبدأ من الليلة في مطالعتها".

نادى جدّي على ابنه قريب وأخرجه من غرفة نومه وبحثاً سوياً في المكتبة. بعد قليل عاد جدّي بكتابٍ ورُقهُ أكثر سمكاً من المعهود، ولكنه منمق الأحرف وملون ومزخرف على أطراف الصفحات وفرض عليّ

التعامل معه بإجلال وعناية. "طالعه على الألواح، لا تحمله بين يديك مفتوحاً، لا تقلب الصفحات بسرعة، لا تشرب أو تأكل بالقرب من أوراقه". من مطالعتي على مدار أيام لروايات جدنا أسعد، رفيق حسان وموسى وطارق، ومن شروحات جدّي وإجاباته على تساؤلاتي، تكوّنت عندي صورة، غير ناصعة، عما حلّ بذلك الفاتح الجليل.

تصرفات موسى بين لُك ودمشق توحى بأنه كان يعرف نهايته سلفاً. شجّع الجند على البقاء في الشمال، اذن لليهود الذين رافقوه من المغرب أن يشجعوا إخوتهم على استيطان طليطلة، وافتتح بلداناً إضافية في طريق العودة إلى قرطبة. في مدينتنا وجد أن مغيث الرومي اختار سكنه في القصر، فقال له: هذا القصر يصلح لوالي المدينة فقط، فأخرج منه وخذ منزلاً آخر. هكذا حكم على مغيث بعدم تولي قرطبة رغم أنه قاد الفريق الذي افتتحها. كل تعليقات موسى أثناء السفر أوحى بأن مغيث لم يحسن في أداء رسالته للخليفة بل حرضه ضده. كان الشيخ متلهفاً على مواصلة الجهاد وكثير التأفف من الإزعاج الذي أصابه، ويتساءل عن خطأ فكرة تواصل بلاد المسلمين براً دون أن يركبوا البحر، ولماذا رفضها الخليفة. عين موسى ابنه عبد العزيز والياً على الأندلس وأوصى بإشبيلية عاصمة لها. قطع الماء إلى طنجة وعين ابنه عبد الملك والياً على المغرب الأقصى، وتوجه للقيروان وولّى ابنه عبد الله على أفريقيا، وأوصاهما بمدد عبد العزيز بالمجاهدين والحفاظ على الأندلس. لقد رافق جدنا أسعد موكب القائد حتى الجزيرة الخضراء وعاد إلى إشبيلية مع عبد العزيز. بقية قصة موسى أخذها جدّي من رفقاء الرحلة الذين عادوا تبعاً إلى الأندلس في الاعوام التالية.

وزع موسى الكثير مما حمله من الغنائم على أهل البلاد حديثة الإسلام التي مرّ بها مثل تونس وطرابلس وبرقة ومصر وغزة وعكا. اعتمد في التوزيع على التشريع القائم آنذاك، والقاضي بأن موارد الدولة، أو ما يحق للخليفة، هو خمس الغنائم والجزية وعشور التجارة، بينما أربعة أخماس الغنائم هي من حق المجاهدين. لم يكن قد جنى أية جزية أو

عشور تجارة يحملها للخليفة، فأخذ له خمس الغنائم، ووزع حصته الخاصة في الطريق لأنه تأكد أن الخليفة أراد المال ولن يعيده للأندلس. في طبريا وصل رسول إلى موسى من سليمان، أخ الخليفة ووريثه المنتظر، يطلب منه التروّي في المسير. قال موسى للرسول: "إن تأخرت فقد خنت الله وغدرت وما وفيت. أبلغ سليمان أنني والله لا تربصت ولا تأخرت ولا تعجلت، ولكنني أسير بمسييري، فإن وافيته حياً لم أتخلف عنه، وإن عجلت منية الخليفة فأمره إلى الله". عندما سمع سليمان هذا الرد توعد بصلب موسى. هكذا عرف الفاتح أن الخليفة على وشك الموت، ووريثه يريد الاستيلاء على الغنائم. وصل دمشق ودخل الجامع الأموي يوم الجمعة في مطلع جمادى الأولى عام ست وتسعين للهجرة، أي قبل موت الخليفة بأربعين يوماً. كان دخولاً مشهوداً إذ رافق موسى بعضُ أمراء وكبار أقوام البلاد التي افتتحت سِلماً. جاؤوا بأبهي حللهم لتأكيد العهود التي قطعها موسى لهم، ولأداء الطاعة للخليفة. الوليد وسليمان استقبلا الغنيمة التي ضمت ما عرف بطاولة النبي سليمان، عليه السلام، المرصعة بالجواهر والتي حملها موسى من طليطلة. أخذوا يستجوبان الفاتح عن رجل الطاولة المفقود، ولماذا لم يحضر كل الغنائم قبل القسمة؟ رد عليهما أنه عثر على الطاولة كما هي، وبأنه لو رفض العمل بسورة "الأنفال" التي نزلت بعد غزوة الرسول لبدر في العام الهجري الثاني، لو رفض ذلك لما تم الفتح ولما سمح له العرب والبربر بالخروج من الأندلس حاملاً نصيبهم. قال أيضاً للخليفة ووريثه إن أقاليم ومدناً استسلمت دون قتال وفازت بالعفو والحماية مقابل دفع الجزية إذا بقوا على دينهم، ولكن الكثير منهم دخلوا الإسلام، ولم يُسلب منهم أو تؤخذ جزية. أفحمهم الرد والاحتماء بالنبي ولكنهم ضغنوا له.

بعد موت الوليد كَبَل سليمانُ موسى بالحديد ولم يلين عنه إلا بضغظ من رجال العلم. لكن الخليفة سليمان أوعز لمتآمرين بقتل ابن موسى في إشبيلية، وأرسل بعزل واعتقال ولديه في طنجة والقيروان وتعيين بدلهم، ومنح والي أفريقيا سلطة تعيين والي الأندلس كلما تطلب

الأمر. في موسم حج عام سبعة وتسعين تظاهر سليمان بالرضى عن موسى وصحبه معه للحج وشاوره في شؤون وسبل فتح القسطنطينية. في مدينة الرسول وصل من الأندلس من حملوا رأس عبد العزيز، فأوعز لهم الخليفة سليمان بأن يقدموه لموسى، فخرّ الشيخ الفاتح صريعاً للتو. ذلك هو موجز من تسجيلات جدّي أسعد الذي حضر اغتيال عبد العزيز في مسجد إشبيلية. لكن رواية جدّي خلت من توضيح مصير طارق بن زياد. على الأغلب أنهم قتلوه في الأيام الأولى على وصوله دمشق قبل أن يهرب إلى الأندلس ويستثير كل الجند العرب والبربر ويستقل بالإقليم عن الخلافة. رغم تأمر الخليفة بهذا الشكل فلم يتمكن في البداية من فرض والٍ من مؤيديه بعد اغتيال عبد العزيز، إذ اختار الناس أيوب اللخمي، وهو ابن أخت موسى بن نصير. تشاءم أيوب من إشبيلية ونقل الحاضرة إلى قرطبة، لكن بعد عام استتب الأمر لوالي أفريقيا، فأمر بخلع أيوب وتعيين الحر الثقفي مكانه على إثر فتنة زُرعت في الأندلس تميز بين العرب البلديين، وهم الذين فتحوا البلاد واستقروا فيها، وبين الشاميين الذين تواصل قدامهم، واعتبروا أيوب من البلديين. مر عام آخر، وتولى عمر بن عبد العزيز الخلافة، وهو ابن عم الوليد وسليمان، وأمه أم عاصم جميلة بنت عاصم بن عمر بن الخطاب صاحب الرسول والخليفة الثاني. شهد لعمر بالعدل إذ أمر ببيع حلي وصيغ نساء الأمويين، لكنه مات مسموماً بعد عامين وخمسة أشهر، وكان قد أعاد الجند الذين يحاصرون القسطنطينية، وفكر جدّياً في إخلاء الأندلس بسبب كثرة الخلافات حولها. كان وضع الدولة الأموية في دمشق قد تدهور لدرجة العجز عن دفع رواتب الجند.

مائدة سليمان

خلال الثلاثة وأربعين عاماً التي فصلت بين الخليفة عمر بن عبد العزيز في دمشق ووصول الأمير عبد الرحمن الداخل للاندلس، تداول بلادنا 22 والياً. الخمسة عشر الأوائل شاركوا في غزوات في بلاد الغال واستشهد منهم أربعة هناك، والسبعة الأواخر لم يجاهدوا. أما في دمشق فقد عاد أبناء عبد الملك وأحفاده للخلافة، وتوالى على الحكم ستة منهم حتى أباد العباسيون بقيتهم ذبحاً، ونجا منهم عبد الرحمن (الداخل) بن معاوية ابن الخليفة هشام بن عبد الملك، وهشام هذا كان الخليفة الثاني بعد عمر بن عبد العزيز.

مآسي وحكم وعبر من التاريخ لا أول لها ولا آخر. موسى تفاني في ذبح البربر وفتح الأندلس وبلاد الفرنجة وجمع الغنائم لاسترضاء الخلفاء وأراد حل عقدهم في فتح القسطنطينية، فإذا بهم يكافئوه بذبح ابنه بعد إذلاله في شيخوخته. هؤلاء الخلفاء الذي ذبحوا وأحلّوا بالعهود، تم ذبحهم كالنجاج بعد أن وهنت دولتهم من سوء أفعالهم. أما ابن السبية البربرية فقد نجا من المذبحة ودخل الأندلس ليقتل المعارضين، ويخنق آخر الولاة في سجن المطبق بقرطبة. بعض أولئك الولاة كانوا يقطعون أوصال معارضيهم العرب ويسوقونهم للبيع في سوق قرطبة كالعييد.

مقارنة بتلك العهود نعيش اليوم في نعيم، تحديداً منذ ولاية الخليفة الناصر وابنه الحكم. لكننا أيضاً نتحارب مع البربر، ونخشى الفاطميين الذين قوّضوا دولة العباسيين في مصر والشام، بينما بغداد أصبحت منذ زمن لعبة في أيدي السلاجقة والفرس والصقالبة.

لن أطوي هذه الصفحات بالعودة إلى روايتي قبل أن أنقل لكم قصة جدّي عن بعض حيل موسى، وما سجّله عن اغتيال ابنه عبد العزيز. ركب موسى البحر بعد عام من طارق وفي معيته عشرون راية عربية، واحدة عقدها له الخليفة عبد الملك على أفريقيا، وثانية عقدها له ابنه الوليد على ما يفتحه خلف أفريقيا، وبقية الرايات لقبائل العرب، وضمنها راية قوطية لجند يوليان. نزلوا بالجزيرة الخضراء وأقيم هناك جامع باسم مسجد الرايات. واصلوا الطريق إلى شذونه حيث استراحوا قبل الانطلاق إلى إشبيلية عبر قرمونة المنيعة بتحصنها بسور على تل. كان جند القوط الذين شتتهم طارق قد عادوا يتجمعون في مثل هذه المدن الحصينة بينما طارق وقواته يخترقون البلاد شمالاً. عصيت قرمونة على موسى لأيام وفشل في اقتحامها أو إغراء جندها بالاستسلام مقابل إدارتها ودفع الجزية. هكذا لجأ للحيلة، فطلب من جند يوليان، الذين عبروا معه، أن يتظاهروا بأنهم من فلول القوط فيدخلون قرمونة وكأنهم يريدون مساعدة جندها في القتال. كانت بقية الخطة أن يهجم موسى ليلاً فيفتح له هؤلاء الأبواب من الداخل، وبهذا التدبير أخذ قرمونة.

حاصر بعد ذلك إشبيلية حتى أعادها لسيطرة المسلمين مجدداً، ورفض ضربها بالمناجق أو هدم أي شيء فيها، وترك هناك ابنه عبد العزيز بقوات ليمنع عودة تمرکز جند القوط فيها. بعد إشبيلية هاجم ماردة وأوقع بجندها في كمين ليلي ولكنهم هربوا للمدينة وأغلقوا الأبواب. تقدم منها جند المسلمين تحت حماية دبابات خشبية ولكن القوط رجموهم بحجارة من أعلى وقتلوا الكثير ممن حاولوا توسيع ثغرة قديمة في السور. كاتبهم موسى والتقى رجال الكنيسة وأقنعهم بالاستسلام مقابل أن تبقى أموال وأملاك الكنيسة لها، وعدم قتل القوط إذا دفعوا فدية جند المسلمين الذين قتلوا تحت الدبابة، وأن يملك العرب أملاك الجند والأعيان القوط الذين فرّوا أو قُتلوا. استسلمت ماردة يوم عيد الفطر سنة أربع وتسعين للهجرة. على الأرجح أن بعض القساوسة ظنوا أن موسى ساحراً كونهم كلما التقوه نظروا لحيته بلون جديد، إذ توافق أنه صبغها

راوي قرطبة

بالحناء من الشيب إلى الأصفر في شهر رمضان، ثم عدل بسرعة عن ذلك اللون إلى الأسود.

جاء في سجل جدّي أسعد انه سمع حديث ابن عزرا لموسى بأن القساوسة تعجبوا عندما شاهدوا التغير في لون لحيته، وقال إنهم سألوه عن عمر موسى فبالغ وادعى أنه فوق المائة وخمسين عاماً. تطرق الحديث بحضور جدّي وآخرين إلى مائدة سيدنا سليمان.

"لو كانت المائدة معنا الآن يا عزرا لما احتجنا لمشقة صنع الطعام أثناء حصار المدينة. هل أنت متأكد أنهم يخبئونها في طليطلة؟"

"نعم يا مولاي، معلوماتنا من يهود المدينة أكدت ذلك". لم يكن من الجلي للحضور إن كان الوالي يمازح ابن عزرا بشأن الطعام والمائدة، ولكن الأخير فضّل التملص سلفاً كونهم يقتربون من عاصمة القوط حيث توجد المائدة وسيتم اختبارها قريباً "بالنسبة للطعام وقدرات المائدة على توفيره، فالقصص القديمة ربما بولغ فيها وتعاضمت الروايات مع الدهور".

"هل تملص مما قلته عن توفير الطعام؟"

"ما قلته لكم كان نقلاً عن روايات الأقدمين بأنه كان لمائدة سيدنا سليمان كل سنة أحد عشر ألف ثور وستاً وثلاثين ألف شاة سوى الإبل والصيد. وذكرت الروايات أنه كانت توضع في قصر سليمان، عليه السلام، كل يوم مائة مائدة ذهب، على كل مائة مائة صفحة ذهب وثلاثمائة طبق ذهب على كل طبق ثلاثمائة كأس ذهب".

"نعم ذاك ما قلته وأضفت أن مائدة سليمان هي التي كانت توفر الأكل لبقية الموائد. إذا عثرنا عليها سيمكننا فتح كل العالم بجيوش جرارة لا نتعب في إطعامها أينما كنا". ضحك الحضور وكان بينهم جمع من التابعين الذين تعلموا على أيدي صحابة الرسول الكريم، ومنهم عبد الجبار الزهري الذي تعجب من وجود من يصدق تلك الروايات.

"إن حجم الذهب على الموائد لا يمكن حمله وجليه وتنظيفه، وإذا كانت كل مائدة من المائة تتسع لمائة صفحة وثلاثمائة طبق وفوق كل

طبق ثلاثمائة كأس، فكم حجم الأطباق، وما هو حجم ووزن الموائد، وأي قصر هو الذي يتسع لكل ذلك؟"

تدخل عبد الرحمن الغافقي ليهون على ابن عزرا فقال إن الرجل نقل للوالي ما سمعه من الأقدمين "ولقد سمعنا عن كنوز سيدنا سليمان وقدراته في التحكم بالجن، ما هو أكثر من قدرات الطاولة. ألم يطعم سيدنا المسيح عليه السلام خمسة آلاف جائع بيضه كسرات من الخبز؟" "الغنائم للآن ممتازة والحمد لله، وإذا كانت المائدة تدر طعاماً لا ينقطع فسوف نبقها في طليطلة ونوكل بها أبناء عمومتنا ليوزعوا ريعها على كل السكان، وإذا وجدنا أنها طاولة عادية مليئة بالجواهر فسوف نحملها إلى خليفتنا في دمشق ضمن حصته من خمس الغنائم". هكذا منح موسى الخليفة الحق في أية طاولات وموائد ذهبية يعثرون عليها في طليطلة.

فيما يخص رواية أول اغتيال سياسي إسلامي في الأندلس راح ضحيته عبد العزيز، يمكن إيجاز تسجيلات جدنا أسعد بالقول إن عبد العزيز واصل الفتوحات في جنوب شرق وغرب الأندلس متخذاً إشبيلية مقراً يعود إليه بين الحين والآخر. كان والينا الأول قد تزوج أرملة لذريق، ملك القوط، واسماها أم عاصم وأسكنها في كنيسة روفينة وسط إشبيلية. بجوار الكنيسة بوشر ببناء جامع مؤقت ريثما يتم بناء المسجد الجامع، وكانت أبواب الجامع المؤقت منخفضة وفرضت على من يدخله خفض رأسه. أثناء صلاة الجمعة الأولى في رجب سبعة وتسعين "استمعنا لخطبة الإمام، وكان عبد العزيز يجلس في الصف الأول. بدأت الصلاة، فإذا بواحد يقف من الركوع ويتقدم بين المصلين الغافلين لمآربه ويطعن الوالي بخنجر في ظهره". هذا الجاني هو زياد بن عذرة البلوي من نفس قبيلة البلوي الذي قتل عثمان بن عفان الخليفة الراشد الثالث رضي الله عنه. نهض فريق آخر من المصلين وحملوا جثة عبد العزيز وغادروا الجامع يتصايحون أن هذا أمر الخليفة "ومصير من ينتصر

ويرتد عن الإسلام". أشاعوا بسرعة في إشبيلية وكل الأندلس أن عبد العزيز كان يلبس تاج ملوك النصارى ويجلس مع زوجته في الكنيسة، ويفرض على كل من يدخل إليه الانحناء تشبهاً بواجبات طاعة ملوك النصارى، وهكذا برروا إهدار دمه دون قضاء.

كان شهماً فارساً عادلاً صاحب كلمة، كما تثبت قصته مع تدمير عندما فتح مدنه. تقول القصة إن الأمير الأيبيري تدمير فقد جنده بين القتل والفلول، لكن المسلمين لم يعرفوا أنه لم يعد أمامه سوى الاستسلام، فلجأ للحيلة. جلب نساء المدينة وطلب منهن الوقوف على التلال حاملات الرماح نافشات الشعور ليظهرن كالرجال لمن ينظر إليهن من بعيد. نزل تدمير لملاقاة عبد العزيز رافعاً راية بيضاء طلباً للتفاهم. أخذ يردد على مسامع عبد العزيز ما يعرفه عن شروط المسلمين للاستسلام، وهذا يؤكد له حقيقة ذلك. ثم أظهر تردد كيف سيصدق بأن المسلمين لن يخلفوا العهد إذا سلمهم البلاد، وبالطبع أعطوه المواثيق والأيمان، ثم كتبوا معاهدة تسليم تخول تدمير من إدارة ست مدائن وأطلق اسم الأمير على تلك الكورة. على إثر ذلك سحبهم تدمير إلى مدينته، فوجد عبد العزيز أن حملة الرماح من النساء، وأن البلد خالية من المقاتلين، لكنه لم ينقض العهد الذي كان نصه كالتالي:

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير ابن عبدوش.

إنه نزل على الصلح، وإن له عهد الله وذمته، وذمة نبيه صلى الله عليه وسلم، ألا يقدم له ولا لأحد من أصحابه، ولا يؤخر، ولا يُنزع من ملكه، وأنهم لا يُقتلون ولا يُسبون ولا يُفرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا تحرق كنائسهم، ولا ينزع عن كنائسه ما يعبد، وذلك إذا ما أدى الذي اشترطنا عليه، وأنه صالح على سبع مدائن: أرويوالة، وبلتته، ولقنت، ومولة، وبلانة، ولورقة، وأله، لا يؤوي لنا أبقاً، ولا يؤوي لنا عدواً، ولا يخيف لنا آمناً، ولا يكتم خبر عدو علمه، وأن عليه وعلى كل من أصحابه ديناراً كل سنة، وأربعة

داوي قرطبة

أمداد قمح، وأربعة أمداد شعير، وأربعة أقساط طلاء، وأربعة أقساط
خل، وقسطي عسل، وقسطي زيت، وعلى العبد نصف ذلك، وكتب في
رجب سنة 94 من الهجرة.

أبناء العم

أصبح وضعي يتحسن ساعة بعد الأخرى، أبول بسهولة مع حرقان أقل، وحضر المطهر أبو الكريم يوماً لتغيير الشاش على الجرح، وفقد عضوي منظره الوديح السابق تحت الجلد وبدا قبيحاً. كان عليّ تصديق أبا الكريم أن شكله سيتغير للأفضل بعد شفاء الجرح وزوال القشور والتورم. في اليوم الثالث امتلأ منزلنا بالأهل، فقد حضر عيسى ومريم، وعمي عباس وزوجته وسعيد وعائشة وحليمة، وعائلات عماتي الثلاث ومجموعهم سبع عشرة، بعضهم رُضِعَ لم يكفوا عن الصراخ، وحضر أحوالي الثلاثة بجزء من عائلاتهم. كان يوم أحد والتقى حوالى ثلاثين شخصاً من أعمام وأحوال وعمات وأبناء وبنات عم وخال من المفترض أن يحضروا في وليمة اليوم السابع بعد الطهور وليس الان، لكن كل جماعة ظنت أنها ستكون الضيف الوحيد. لم تكن أُمِّي قد جهزت أي طعام يكفيهم، فأكلوا مما أحضروه معهم من حمام محشي وبط مشوي وأسيّاخ كباب، ظنوا أنها من نصيبي. مساء ذلك اليوم لم يُمكنني الصداع، الذي أصابني من صراخ الصغار، من العودة للمطالعة. قبل أن يغادر عمي عيسى ومريم طلبت منهم العودة لزيارة أخرى قبل الجمعة، لكن عيسى رفع حاجبيه نافياً "سنسافر غداً إلى مالقا، ربما زرتك في شذونه، على كل حال عندما نراك المرة القادمة في قرطبة ستكون عنتره بن شداد. لا تهمل أي بند من الفروسية، فالحكمة والشعر يخدمان أحياناً أكثر من السيف والنبيل". بقيت ساكتا للحظات كمن تلقى جردل ماء بارد، واستوعبت أن عهدي الجديد قد بدأ، ولم أشأ تركهما دون تمنيات.

"مالقا ستعجبك كثيراً يا مريم، سلّما على أبي الفضل في الطريق وكل سكان المزرعة".

"سأسلم لك على من تريد أيضاً، ولكننا سنسافر على الطريق المأهول، لن نمر على انتيقيره. لقد تحدثت مع جدك عن أبي الفضل، وإذا حضر قبل سفرك لشذونه فساعدهم ورحب بهم". حمدت الله أنه لم يذكر اسم دره أمام هذا الحشد، وأعربت عن أمني أن يحضر أبو الفضل وزوجته قبل العيد لأراهما قبل سفري.

أسبوع إقامتي الجبرية في البيت أمّني بالدروس الدينية والتاريخية القديمة حيناً وبمفاهيم السياسة المعاصرة أحياناً، وذلك بشكل وتنوع لم أكن أتوقعه. بعد صلاة مغرب يوم الإثنين أحضر جدّي معه من المسجد شيخي الجاحظ لرغبته المباركة لي، كما قال جدّي. لكنني أعتقد أن أبا قريب كان قد عزم على ضخ المعلومات بسرعة فائقة في رأسي قبل سفري إلى شذونه، وربما كان حضور الجاحظ تمهيداً لزيارة ابن عمران القادمة. بعد المباركة السطحية وادعاءات أنه افتقدني، حوّل الشيخ رغبتني لإطلاع على مشاهداتي في مالقا، إلى التحدث عن قصص الأنبياء وتحديدًا سيدنا إبراهيم خليل الله.

"تعرف أنه أبونا وأبو اليهود، ولذلك نسميهم أولاد عمنا".

"ولماذا نسميه سيدنا إبراهيم الخليل؟"

"هذا أحد عوامل تفرده عن بقية الأنبياء والمؤمنين. الجميع يسعى إلى رضا الله سبحانه وتعالى والتقرب إليه بالعبادات والطاعة والعمل الصالح، ولكن الله اختار إبراهيم خليلًا، أي صديقًا كما جاء في الآية: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلًا﴾ وهذا الوصف لم يرد في القرآن لغير إبراهيم". كنت أعرف أن شيخي غير متمزمت بل هو راوٍ متحرر ومختص في الروايات التراثية المضحكة، وبالتالي لا ضرورة للتردد في طرح أي تساؤل أمامه.

"إذاً كم عدد الأنبياء الآخرين الذين لم يتخذهم الله إخلاء له؟"

"هناك حوالي ثلاثين نبياً ورد ذكرهم في القرآن الكريم رابعهم

راوي قرطبة

سيدنا نوح وآخرهم محمد خاتم الأنبياء. بالإضافة لهما يمكن اعتبار إبراهيم وموسى وعيسى يتممون أولي العزم الخمسة الكبار من الأنبياء. أول الأنبياء هو آدم، يليه شيث وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم وابن أخيه لوط وابنه البكر إسماعيل وابنه الآخر إسحاق وحفيده يعقوب وابنه يوسف، ثم يليه خمسة أنبياء سادسهم موسى وهارون ويوشع وداود وسليمان وإلياس وأليسع وعزير وزكريا ويحيى ثم عيسى ومحمد عليهم السلام".

"طالما أننا واليهود أبناء عم ومن منطقة واحدة، فكيف سبقونا إلى الأندلس؟"

"سيدنا إبراهيم أصله من بلاد الرافدين، وهي أرض أقدم الحضارات، ولكنهم كانوا يعبدون الشمس أو القمر والنجوم وبعضهم يعبد الأصنام أو الملوك. قاومهم إبراهيم لكنهم بقوا على كفرهم فهاجر هو وابن أخيه لوط إلى فلسطين عبر حلب التي أخذت اسمها من تلك الرحلة. لوط بقي في فلسطين وإبراهيم رحل إلى مصر. هناك أراد الفرعون الاستيلاء على زوجته سارة ولكن الله حماهم من ظلمه. كل ذلك تجده في القرآن. لأن سارة لم تنجب فقد عرضت على إبراهيم الزواج من هاجر المصرية التي أنجبت إسماعيل. مرة أخرى هاجر إبراهيم، ولكن إلى الجزيرة العربية هذه المرة، وهناك ترك إسماعيل الرضيع وأمه". أكملت القصة لشيخي واختصرتها بأن إسماعيل فجر ماء زمزم وتعمرت المنطقة وتواصلت القصة أن إسماعيل وأباه إبراهيم بنيا الكعبة.

"المهم هنا أن سيدنا إبراهيم عاد للرحيل مع سارة إلى مصر بعد أن بلغ بهما الكبر، وفي الطريق بشرهما الملائكة بميلاد إسحاق من سارة العاقر، وولد إسحاق في مصر وكذلك ابنه يعقوب وحفيده يوسف صاحب القصة الشهيرة مع زوجة فرعون. القصد أن أبناء إبراهيم تبناوا حب التنقل ونشر الدين بين أمم تعبد غير الله. هربوا من فرعون مصر إلى فلسطين أيام سيدنا موسى الذي لم يدخلها إذ مات بعد التيه في

صحراء سيناء. وقعت فلسطين وبقية الشام لاحقاً تحت حكم الآشوريين فخرج منها اليهود الأغنياء والتجار وأهل العلم وترحلوا في العالم. وبعد مرحلة أخرى احتل نبوخذنصر فلسطين وسبى اليهود إلى بابل الأغنى معاشاً، ومجدداً بقي بعضهم هناك وهاجر غيرهم عبر أرض الله يرتزقون وينشرون دينهم بوسائل سلمية. وهم هنا في مدن الأندلس الكبرى، خصوصاً الساحلية، ربما قبل ميلاد المسيح بعدة مئات من السنوات".

"لكن جند الفتح الإسلامي لم يواجهوا مقاومة يهودية عندما حضروا للأندلس أو لاحقاً بينما النصراني لزالوا يشنون غارات إذا أتحت لهم الفرصة". كان جدّي وفاطمة يتناوبان في إحضار أطعمة خفيفة مثل اللحم المقدد والسّمك المدخن، ثم لاحقاً بعض الحلويات بينما معلمي يمدني بما لديه من إجابات على أسئلتي.

"هذه البلاد لم تكن يهودية، بل أن النصرانية لم تكن واسعة الانتشار إلا بين الطبقة الحاكمة. والحقيقة أن المسيحية انتشرت من فلسطين لدول وممالك الأرض أسرع وأوسع من انتشار اليهودية قبلها. على الرغم من عدم استعمال الديانتين للفتح العسكري، إلا أن المسيحية نجحت بسرعة في التحول إلى ديانة الملوك والحكام الذين فرضوها على الغير، وهو ما فشل فيه اليهود، وبقوا أقليات، صغيرة أو كبيرة، بين بقية السكان أينما حلّوا. ولأنهم لم يتنصروا طوعاً ولأسباب أخرى كثيرة اعتبرهم ملوك النصراني أعداء. أحياناً كانوا يسكتون عنهم إذا كانوا يحتاجونهم، وغالباً ما يقيمونهم ويحملوهم مسؤولية ووزر أية مشاكل تقع في البلاد".

"هذه القضايا حُلت عندنا، فتح بالقوة والسلاح، وعرض بتقبل الإسلام والمساواة، أو البقاء على وضعك مقابل دفع الجزية والتمتع بالحماية والأمن. لماذا لم يلجأ اليهود والمسيحيون الأوائل للفتح بالقوة، هل دينهم ينبذ العنف؟"

"كل الأديان يمكن تفسيرها مع السلم أو مع الحرب لفرض مبادئها. دين اليهود تسبب في حروب فيما بينهم ومع الآخرين، ولم

يتوانوا في محاولات الغزو، لكن كل جيرانهم كانوا أقوى منهم ولذلك لم تصمد لهم ممالك. المسيحية ولدت في عهد أقوى الممالك، ولم يكن بوسعهم محاربة جيوش الرومان، ولكن العديد من الحروب التي تلت اتخذت من نشر المسيحية ذريعة لها. القضية لم تكن مبادئ الدين، وإنما امتلاك الوسيلة لنشره بقوة وسرعة، أو انعدام القوة ومن ثم الانتشار تدريجياً ريثما تملكها وتمارسها".

هذه المعلومات أصبحت خلفية مفيدة لي واستكملها جارنا السادس عندما وفي بوعده وعاودني بزيارة صحب فيها ابنتيه رفته وشفه بعد قيلولة الثلاثا. اختفت رفيقتنا فاطمة معظم الوقت في حديقة المنزل، وكاننا تساعدان في تقديم المشروبات والحلويات بين الحين والآخر. في البداية حضرت رفته لتسائل إن كان مناسباً حضور والدها بعد قليل، وكان جدّي على موعد في شقنדה مع نساءنا هناك فطلبت منه الإذن باستقبال جارنا ريثما يعود من شقنדה. قال أن لا مانع، وأخبرنا رفته بالوضع والترحيب وأن جدّي سينضم إلينا لاحقاً. عرفت من ابن عمران أن اليهود قطنوا أثناء القرن الأول قبل الميلاد في معظم مدن حوض البحر الرومي، من الإسكندرية إلى حيفا، ومن انطاكية إلى حدود الهند وبلاد فارس شرقاً مروراً ببلاد الرافدين، ومن انطاكية إلى برشلونه غرباً بما يشمل بلاد الإغريق مدناً وجزراً، وبلاد الرومان والفرنجة من الشمال حتى صقلية، وبالطبع مصر وبرقة وطرابلس والمغرب وقرطاجنة الأفريقية وأختها الأندلسية المقابلة لها عبر البحر، ووجدوا آنذاك في إشبيلية وقرطبة وطليلة.

"سار أجدادنا اليهود في ركب الإسكندر الأكبر الذي خرج غازياً من بلاد الإغريق في 336 قبل الميلاد ومرّ بإنطاكية وحاصر صور وغزة وأسس الإسكندرية ووصل وسط صحراء مصر ثم صعد عبر دمشق عام 332 وغزا بابل وفارس. أسس عدة مدن في البلاد التي فتحها حتى حدود الهند. الكثير من اليهود صاحبوا الغزوة وقاموا بالأعمال الإدارية وبالطبع مكثوا هناك بعد زوال حكم الاسكندر". أكد لي الضيف أن هذه

المعلومات وما هو أقدم منها مدونة في سجلات وكتب اليهود التي يحتفظون بها في عدة مدن ومنها قرطبة. "مجمع قرطبة ومجمعات اليسانة وطليلة أقيمت بإشراف موسى بن شنوك وبدعم حسداي بن شبروط منذ عهد الخليفة الناصر، رحمه الله، وهي مليئة بالسجلات التي تم تجميعها ونسخها".

"هل تُعلمون في هذه المجامع الدين والتاريخ فقط؟"

"مواد التعليم هنا في الأندلس تشابه تماماً التعليم الإسلامي. أما في مدن الشرق وآسيا وأفريقيا وأوروبا فمدارسنا هناك تعلم الدين فقط. هنا يعلمون الجنس الأدب والشعر العربي والموسيقى والرياضيات والفلسفة والطب. وكما تعرف هناك يهود يتعلمون نفس الأشياء في الجامع وفي معاهد عربية في مدن أندلسية أخرى". كان جارنا على اطلاع واسع بتاريخ اليهود، ويُلم بتفاصيل المعاناة التي عايشوها في بلاد الغال وإيبيريا طوال قرون حتى انقذهم الفتح الإسلامي.

"قبل ظهور الدعوة الإسلامية بسبعين عاماً، سجلت كتب اليهود تواجداً لهم في جزر البريطان، وكانوا أيضاً منتشرين في بلاد وسط أوروبا. أما في غالة فتواجد تجار يهود منذ عهد يوليوس قيصر. قبل عام 600 بعد الميلاد وجدت جاليات يهودية في جميع المدن الكبرى في غالة؛ واضطهدهم الملوك المروفنجيون بوحشية، وأمرنا كلبريك باعتناق الدين المسيحي وإلا فمقتل، أما شارلمان فإنه بسط علينا حمايته لأنه وجد فينا زُراعاً، وصُناعاً، وأطباء، ورجال مال نافعين، واختار يهودياً ليكون طبيبه الخاص، لكنه أبقى على القوانين التي تحرم اليهود من بعض الحقوق التي يتمتع بها غيرهم".

"لو فتح العرب بلاد الغال لتشابه وضعكم هناك مع الأندلس".

"هذا صحيح، كان وضعنا ووضع الغال سيتحسن. الصحيح أن وضع اليهود تحسن في أوروبا بعد فتح الأندلس لأن ملوك وأمراء تلك البلاد يريدوننا وسطاء ويستفيدون من تجارتنا وعلومنا وعلاقتنا بالعرب والمسلمين. مثلاً أرسل شارلمان في عام 797 يهودياً مترجماً مع بعثة

سياسية إلى هارون الرشيد في بغداد. إجمالاً لقد خفت الضغط علينا في كل بلاد النصارى الآن".

لم أعد لطرح سؤالي من الزيارة السابقة عن أي دور لليهود الأندلس في الفتح، ولكنني سألت عن أوضاع اليهود قبل الفتح الإسلامي. قبل إجابة الضيف دخلت فاطمة ورفقه وشفه إلى الصالون وجلسن منصات. "يهود أيبيريا يلقبون أنفسهم سفرديم، ويرجعون أصولهم إلى قبيلة الملك يهوذا. ولما اعتنق الملك ريكارد الدين المسيحي، انضمت حكومته القوطية إلى رجال الدين الأقوياء أتباع الكنيسة في مضايقة اليهود هنا وتنغيص حياتهم. حرمتهم من المناصب العامة، ومنعوا من الزواج بالمسيحيات أو اقتناء أرقاء مسيحيين. وأمر الملك سيزبوت جميع اليهود في عام 613 أن يعتنقوا المسيحية أو أن يخرجوا من البلاد. ألغى الملك الذي خلفه على العرش هذا الأمر، ولكن مجلس طليطلة الكنسي الذي عقد في عام 633 أصدر قراراً ينص على أن اليهود الذين عُمدوا كنصارى ثم عادوا إلى الدين اليهودي يجب أن يفصلوا عن أبنائهم، وأن يباعوا أرقاء. وأعاد الملك شنتيلا العمل بمرسوم سيزبوت. لاحقاً حرم الملك إجيكا على اليهود امتلاك الأراضي، كما منع عام 691 أي عمل مالي وتجاري مع اليهود. كان هذا وضع كارثي، وبالطبع بعد أن استقر فتح العرب لأفريقيا قليلاً إتصل اليهود بهم واتفقوا مع موسى بن نصير على مساعدته في فتح الأندلس".

هكذا عدنا إلى الموضوع الذي تسبب في هذه الشروحات. شعرت أن جارنا سيواصل روايته، ولكنني فضلت التمظهر قليلاً أمام ابنتيه اللتين انصتتا بأدب جمّ وكأنهما تستمعان لهذا التاريخ للمرة الأولى.

"كيف تمت مساعدة موسى في الفتح؟" طرحت السؤال دون أية نبرة استنكار أو استهجان لدور اليهود الذي لم أطالعه في الكتب، وتذكرت نظرة والدي إليّ في الزيارة السابقة وهو يستمع لسؤالي ونبرتي عندما قلت "طالما أنكم هنا قبل الإسلام والنصرانية، لماذا لم تحكموا، ولا تقاتلون، وهل ساعدتم المسلمين في الفتح؟"

"لو راجعت بتمعن تفاصيل مرحلة فتح بلاد البربر، ستجد أن الهدوء لم يعم بالفعل، والدين الإسلامي واللغة العربية لم تهضم من السكان. رغم ذلك تمكنت وفود يهود الأندلس وبمشاركة من يهود في أفريقيا من إقناع موسى بفرصة فتح شبه الجزيرة وعدم انتظار استتباب الامن الافريقي. واستعد اليهود لتقديم المعلومات والنصح حول جغرافيا ومدن البلاد وقوات القوط، بل تم التمهيد لاتفاق بين موسى وبين يوليان حاكم سبته". كان ابن عمران يتحدث بهدوء ويمسح بيده على شعر شفه التي جاورته على الأريكة. "ربما فكر موسى أنها فرصة أيضاً لإشغال البربر في حرب وجمع غنائم مما يعزز وضع الإسلام في مناطقهم. لم يُخفِ عليه بالطبع أن الأندلس بلاد غنية مليئة بالغنائم. عرف أيضاً أن سكان البلاد يتسوا من ظلم القوط مثلهم مثل اليهود، ولم نخف عنه وجود خلافات في العائلة المالكة. لم يكن بالصدفة أيضاً أن دخول القوات الإسلامية من الجنوب بقيادة طارق، تزامن مع وجود قوات القوط في أقصى الشمال لقمع ثورة باسكية تحركت ضد الإدارة القوطية في طليطلة. هل تعرف أن الفترة بين نزول قوات طارق على الصخرة وبين وصول ملك القوط وقواته ونشوب المعركة قد كانت إثنين وثمانين يوماً؟".

"نعم، وفي تلك الفترة وصلت قوات إضافية لدعم طارق". بدا ارتياحاً على وجه الضيف عندما لاحظ فهمي لأهمية سياق الأحداث، أزاح عِمته للخلف قليلاً، وتصادف دخول جدّي عائداً بعد قضاء غرضه، وتنبهت فجأة وهما يتصافحان إلى التشابه التام في ملابس الرجلين مع اختلاف بسيط إذ فاقت الألوان في ملابس ابن عمران عدد ألوان ملابس جدّي الذي صافح رفقته وشفه فقبلتا ظهر يده، وقبلهما هو على الخدين مباركاً لوالدهما في أدبهما وجمالهما.

"هل تواجه مشاكل في بلاد النصارى إذا ظنوك عربياً ومسلماً؟"

"في السنوات الأخيرة لم أواجه متاعب. عموماً أنا أسافر كعربي، ولا أنكر يهوديتي إذا تعرضت لسؤال. المهم أن تتعد عن آخر خط سير

راوي قرطبة

للسوائف لأن دواعي الانتقام قد تغلب على البعض، وهذه المشكلة أواجهها في ممالك الشمال، لكن في بلاد الغال والجرمان والرومان فالمخاطر عادية كما هي على الجميع من قبل اللصوص. ليت الوضع في بقية العالم آمناً كما هو في بلادنا".

"لماذا لا يعيش كل اليهود هنا ويرتاحون من عناء التعامل في دول النصرارى؟" سألت رفقه أباهما وفي عيونها بعض القلق إثر حديثه عن الانتقام واللصوص، وربما كانت تفكر فيما قاله قبل ذلك عن المعاناة وفقء الأعين والإجبار على التنصر.

"في بداية فتح الأندلس وتعميم القناعة بضرورة تعمير البلاد حضر إلى هنا الكثير من الناس بكل ما أمكنهم العوم به عبر الماء. وحضر أيضاً حوالي خمسون ألف يهودي من أفريقيا والشرق ويهود آسيا الذين تحركوا سابقاً في ركاب الإسكندر، هذا بالإضافة لليهود الذين كانوا هنا وغيرهم الذين يحضرون للآن من مناطق أوروبا. مدينة اليسانة مثلاً أغلبتها يهود، وطليلة نصفها يهود منذ أيام الفتح، وهنا كما في مدن أخرى يعيش عشرات آلاف منا. زالت القيود التجارية والمهنية فأصبحنا نشارك في جميع ميادين الزراعة، والصناعة، والمال، والمناصب العامة، تماماً مثل العرب. لكن ذلك بدوره يتطلب تنشيط التجارة لشراء ما لدى الغير من مواد ويبيعهم منتجاتنا، والحركة فيها بركة يا ابنتي". توجهت لجدّي بسؤال افتراضي لسماع رأيه في بعض الأفكار التي أخذت تراودني.

"لو كنت مكان طارق بن زياد، فهل كنت ستنتظر ثمانين يوماً حتى يصلك ملك القوط بقواته، أم كنت ستتحرك بما لديك من قوات إلى الأمام لملاقاته أو للهروب منه؟"

"مبدأ الهروب لم يعد وارداً بعد اجتياز الماء. قضية أن تنتظره أو تتقدم تجاهه تعتمد على حجم المعلومات والموقع الذي تنتظره فيه. إذا أمكنك العثور على موقع ينفع لاصطياد الخصم، فهذا جيد للانتظار فيه. وإذا ضمنت أن تهاجمه فور وصوله بينما قواته متعبة من المسير وقواتك مرتاحة وجاهزة، فهذا ممتاز".

"إذاً لو كنت مكان طارق لفعلت ما فعل؟"

"لأننا نعرف تفاصيل ما حصل، يمكننا الآن بالطبع العثور على بعض ما كان سيوفر من عدد الشهداء، لكن عموماً كان فعله جيداً. لو أهدر القوة فوراً في فتح المدن وضرورة الحفاظ عليها لفقد صلب جنده، لكنه حافظ عليهم كلهم وانقض بهم لتدمير القوط في معركة فاصلة هزمتهم نفسياً، ومن ثم اخترقهم بسرعة حتى الشمال وصولاً لعاصمتهم لمنع تجمعهم والتقاط الأنفاس. لكن دخول موسى كان الحاسم في تصفية المقاومة وإعادة فتح المدن، وبدونه كان الفتح كله سيتحول إلى عملية غزو ونهب واسعة مصيرها الانجلاء السريع عن الأندلس".

دخل أبي علينا بوجه حزين دفعنا جميعاً للسكوت بعد رد التحية انتظاراً لما سيلقيه علينا. "البقية في حياتكم، مات اليوم أبو عبد الله، محمد بن يوسف الوراق".

"رحمه الله، لا إله إلا الله" متمناً جميعاً، وقال أبي إن ما يحزنه أنه لم ينسخ للرجل كتابه بعد. "سأنسخ له الآن كل كتبه الأخرى، وسأقدم موعد العمل فيها".

"هل شيعوه للقبر؟" سأل جدّي، وسمع جواب أبي أنهم سيصلون عليه الآن المغرب في الجامع ثم سيدفن في مقبرة عامر. بعد دقائق خرج الرجال الثلاثة إلى الجامع للصلاة على الوراق والسير في جنازته، وذكرت أسماء كتب المرحوم للفتيات الثلاث قبل خروجهن من المنزل. كان رحالةً وُلد في وادي الحجارة ونشأ في القيروان وجاب أفريقيا وكتب للخليفة الحكم واصفاً مدنها وحروب ملوكها، ومن مؤلفاته كتاب "مسالك أفريقيا وممالكها" الذي أمدني بالمعلومات عن فتح المغرب وأفريقيا في الأيام الماضية، رحمه الله.

الأغر

بعد انقطاع درس الخميس في شهر رمضان عاد جدّي لمواصلة زيارة الأمير هشام. كانت الزهراء تعج بأخبار إرسال الجند والمال إلى العدو لدعم المعارك هناك ومحاولات القبض على حسن بن قنون وأعوانه. قبل أسبوعين أرسل الخليفة ثقته، محمد بن عامر، بأحمال مال وحلي وخلع ليوزعها على المستمالين من أكابر البرابرة. ارتفع قدر العامري في الدولة، وبالطبع بين زعماء البرابرة الذين كان بعضهم يتوافد على الزهراء لتقديم الطاعة وأخذ الخلع والمال. في ذلك الخميس بالذات وصل للخليفة كتابٌ من القائد الأعلى غالب بن عبد الرحمن، أرسله من العدو ليبلغه بكسب قبائل جدد وبهروب حسن من بين يديه إثر معركة خسر فيها الكثير من أتباعه والاستيلاء على متاعه. على الفور أمر الخليفة بإرسال قوات جديدة لتكون تحت إمرة القائد غالب وأرسل معهم الكسى الفاخرة والسيوف العربية ليوزعها على من يحسن الأداء في الحرب وعلى من يتبعه من الوجوه المستأمنة، كما أرسل الجيب الديباجية الملونة والمطارف والكثير من العمائم اللاسية.

ذكرت أمام الأمير هشام أنني أستعد للسفر إلى شذونه بعد عيد الأضحى. "إن شاء الله قريباً سأكون قد تأهلت لمرافقة إحدى الصوائف وتسجيل وقائعها".

"كم من الزمن ستبقى في شذونه؟"

"على الأرجح عاماً كاملاً، وربما واصلت التعلم في قرطبة لفترة لاحقة". كان هدفي من إبلاغ الأمير مزدوجاً، أولاً أن يعرف سبب تغيبي الطويل القادم، ثانياً التمهيد لمشاركتي مستقبلاً في صائفة بتوصية وعناية

منه وليس فقط كأحد الأجناد، خصوصاً وأن دور عائلتنا في تسجيل الرواية والأحداث التاريخية يتطلب الاطلاع القريب على صناعة القرار وطرق تطبيقه. هكذا ذكرت خبر سفري القريب وانتقلت للحديث عن رحلة مالقا ومشاهداتي هناك، وأظهر الأمير اهتماماً بالوصف وشوقاً لرؤية البحر الذي لم يكن قد شاهدهه للآن. حدثني بالمقابل عن زيارته ووالدته والخليفة إلى منية الرمان، التي أهداها لهم الفتى الكبير دري الصقلي. وكان قد شاع في قرطبة قبل خمسة أشهر أن الخليفة غضب على الخازن دري لتقصيره، فطلب حينها من صاحب مدينة الزهراء محمد بن أفلح أن يذله. أحضره محمد إلى كرسي شرطة الزهراء وأبقاه على قدميه ووبخه دون أن يغلظ له، وانتقل دري من سكناه في القصر بالزهراء إلى قصر قرطبة، وأسقط عنه رزقه الخلافي واقتصر على عشرة دنانير كل شهر. استمر الحال حتى كتب هو والفتى الجعفري وأحمد الزنجي، وكلهم مسخوط عليهم، كتبوا إلى الأمير أن يتشفع لهم عند الخليفة. يبدو أن دري أهدى منيته في وادي الرمان لاسترضاء الخليفة. وصفها الأمير بأنها كبيرة المساحة، أراضيها مزروعة وبساتينها مسقية "وقدمها هدية بما فيها من عبد وأمة وثور ودابة، وهو شيء كثير. وأقيم هناك حفلٌ وأقمنا فيها ليلة قبل العودة إلى الزهراء". تفاصيل تلك الحفلة والطعام والفواكه كانت هي الأخرى معممة في قرطبة وأجمع من وصفها بأن تلك الأمور لم يشاهد مثلها في المتنزهات السلطانية.

انشغال القصر بحرب العدو لم يؤثر سلباً، بل ربما ساعد الناس لضمان تأييدهم. أرسل الخليفة أصحاب البريد والشرطة والقضاة إلى المدن وحثهم لإنصاف الرعية. تحرك عبد الملك بن المنذر بن سعيد إلى الكور الغربية وهي شريش ولقنت وإشبيلية ولبلة وقرمونة ومورورو واستجدة وشدونه، لمطالعة الرعايا والتعرف على أحوالهم. وكلف الخليفة صاحب الشرطة والسوق في جيان أحمد بن نصر لامتحان شكوى أهلها على عامل مدينتهم عبد الرحمن بن جمهور. ومرة أخرى أرسل أحمد إلى جيان لمعاينة شكوى السكان مما طُلب منهم إعدادة بشأن الخشب

والزفت والقطران وحمله لبناء الأسطول في إشبيلية. رأى الخليفة إسقاط ذلك عنهم وعن جميع أهل القرى، وتحمل هو نفقاته. كذلك خرج بأمر الخليفة صاحب البريد عبد الملك ومعه الخازن أحمد الكلبي إلى مدينة امين لفحص شكوى أهلها على قائدها رشيق بن عبد الرحمن.

في الطريق من القصر إلى منزل عمي عباس في الزهراء، طرق جدّي الحديث في شؤون تعلم الفروسية وضرورة إتقان الرماية واستعمال السيف وقرض الشعر والأخذ بالكرم والنجدة. "من المفيد أيضاً التبحر في علوم صناعة الأسلحة من الخشب والحبال وما يتوفر في ساحات المعارك".

"الأسلحة التي استعملها المسلمون حتى الآن هي: المناجق، والأبراج الخشبية المتحركة، والدبابات لحماية من خلفها أو تحتها من الجند، وطبعاً الدروع والسيوف". ابتعدنا عن جامع الزهراء حوالي مائة متر وبقي أمامنا مثلها في الجنوب الشرقي حتى نصل إلى محلات السوق التي تتكون من بناء مربع الأضلاع وسطه ساحة يتوسطها إسطل خيل.

"ليست هذه كل الأسلحة، لا تنس الرماح الحارقة، أو الكرات النارية، وهناك النطاحات لفتح أبواب الحصون، والعرادات متنوعة الأحجام ومنها ما هو على عجلات، وغير ذلك مما يجب تعلم صناعته وتطويره واستعماله". شدني اصطلاح الكرات النارية واستفسرت من جدّي إذا كان يقصد بها كرات أقمشة مبللة بالزيت. "ليس تماماً، الزيت نافع ومثله القطران والزفت. ما أقصده هو النار اليونانية التي اخترعها سوري قبل الإسلام واستعملها الأسطول البيزنطي ضد أسطولنا في موقعة ذات الصواري وأحرقوا الكثير منا. إنها جرار مليئة بخليط مواد مشتعلة متنوعة وتقدف بمناجق على الأهداف ويستحيل إطفاء نارها التي تبقى مشتعلة فوق الماء".

وصلنا إلى سلسلة محلات السوق المترابطة ببعضها حول ساحة مربعة. جدران المحلات تشابه في ألوانها مباني بيوت وقصور الزهراء، النصف الأسفل من الجدران أحمر غامق، يعلوه خط أبيض، فخط

أحمر، ثم بقية الحائط أبيض اللون أو مزين بالنقوش والخطوط والآيات القرآنية. استأنف جدّي الحديث ونحن نقرب من الإسطبل "أهم لوازم الفارس هو الفرس، والفارس هو الذي يُطوع فرسه". أخذ قلبي يدق إذ تأكدت أن جدّي أعد مفاجأة للوفاء بوعد الطهور. وقفنا أمام فرس عربي أصيل أبيض اللون في نصفه الأمامي ومرقط ببقع رمادية في نصفه الخلفي، ويملك أجمل عيون على الإطلاق. واسع الأنف وتضيق جمجمته قليلاً عقب أنفه ثم تعود للاتساع حتى عيونه التي تحميها جفون برموش سوداء كثيفة وطويلة.

"هل هذا هو، إنه رائع، إنه الأجمل". قبّلت يد جدّي وأخذت أمسح على جسد الفرس وأدور حوله بينما هو يلوي رقبتة لمتابعتي. مرّت آم الطهور بسرعة في خاطري وهانت هي وأضعافها مقابل هذه الجائزة. عندما أفقت وعدت إلى العالم من حولي كان جدّي قد أنهى بقية الصفقة مع صاحب الإسطبل، وسمعت ما يستفاد منه أنه جاهز للاستعمال ومحذّى. سار الفرس إلى جانبنا وقد أمسكت برسنه واتجهنا إلى بيت عمي.

"لقد ترك لك عيسى سرجاً جليداً عادياً غير مزخرف ولكنه خفيف ومتمين وهو ما تحتاجه في شذونه. سيكون عليك الآن اختيار اسم لهذا الفرس. لا تستعجل الركوب، ستحتاج إلى التعود عليه وتعويدته عليك قبل الرحلة".

"سأركبه كل يوم".

"هذا يعني أخذه إلى قرطبة والاتفاق هناك مع إسطبل للمبيت والإقامة، لا يعقل أن تُسكنه في البيت لشهرين. سنبيت الليلة هنا، وسيمكث هو مع الشهباء، وسنعثر على أفضل الحلول". أعجبني هذا الحل لأنني لا أريد مفارقة فرسي وسيكون بوسعي قضاء معظم يوم الغد معه. كان الإسطبل في بيت عمي عيسى فارغاً إذ أخذ طهبوب معه إلى مالقا، ولكن جدّي فضل مبيت فرسي في إسطبل الشهباء حتى تتعارفا؛ وربما تبنت الشهباء فرسي كابن لها، أو كصديق، فالله أعلم ما يدور في

رؤوس الخيل. في الأيام التالية تيسرت أيضاً إقامة فرسي في قرطبة إذ رحب زوج عمتي زينب، أبو موسى، باستعمال إسطلب فندقه.

منذ اليوم الثاني على امتلاك فرسي خصّصت بعض الوقت كل ليلة لمراجعة الكتب في شؤون الخيل وأنسابها وقصصها وما قيل فيها من أشعار، بحثاً عن اسم يناسب فرسي وللتعرف على أصول التعامل مع الحصان وطعامه وأمراضه. كانت هناك قصص الأبحر والأدهم والبيضاء وزامل وداحس والغبراء ومئات الأسماء غيرها. أحياناً تُنسب الخيل لخيالها، وأحياناً أخرى يُنسب الفارس لفرسه. أعجبتني اسم الأدهم، أحد الخيول التي خدمت مع عنترة بن شداد، وخصوصاً قوله فيها:

يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بئر في لبان الأدهم
لكن الأدهم تعني الأسود، وحصاني يغلب عليه البياض، ولا زال صغير السن، وهكذا اخترت له اسماً آخر استعمله عنترة أيضاً وهو الأغر الذي قال فيه:

جزى الله الأغرّ جزاء صدق إذا ما أوقدت نار الحروب
يقيني بالجبين ومنكبيه وانصره بمعتدل الكعوب
لم يهمني كثيراً أن عنترة كان من فوارس الجاهلية قبل الإسلام، ولا كونه عبداً أسود ابن حبشية تزوجها شداد بن معاوية، فقصصه ونصرته للحق ونضاله في سبيل إنهاء العبودية، حين كان يضع الشروط قبل نصرته قومه في الشدائد، كلها من صفات الفارس الشهم. وبالطبع قصة غرامه وأشعاره في عبلة تؤكد فروسيته وتثير عزيمة الصغير والكبير.

أصبح برنامجي اليومي يبدأ في الفجر بمطالعات في شؤون الخيل والحروب وأنواع الأسلحة والشعر الحماسي، يليه دروس فترة الصباح في الجامع إذ رتّب لي والدي المشاركة في حلقة عن الأدب والشعر، وأخرى في الكيمياء، بينما في المساء اشتركت في حلقة عن الفلك، هي الأخرى للمبتدئين الراغبين الاسترشاد بالنجوم في مسيرهم الليلي. فترة ما بعد الظهر خصصتها للعناية بالأغر. أذهب لوسط قرطبة وأخذه في نزهات خارج السور. في كل يوم كنا نأخذ طريقاً في اتجاه آخر حتى

يتعرف على موقع الإسطبل من كل جهات قرطبة وأبوابها. أحياناً كنت أعود به بعد الظهر إلى حارتنا أجول به حول الجامع وفي شقنדה على ضفة النهر الجنوبية إذ كان الماء منحصراً في أواسط الصيف. وأكثر من مرة تركت الأغر في رعاية فاطمة في البيت طوال فترة الحلقة المسائية وأعيده ليلاً إلى الإسطبل وأختي تركب خلفي ثم نعود أدراجنا مشياً إلى البيت. في أيام الخميس كنت والأغر نذهب من الصباح الباكر إلى الزهراء، فأتركه عند الشهباء وأذهب مع جدّي إلى دار المُلْك واللقاء مع الأمير هشام، حيث نتبادل القصص والأخبار والتجارب بعد انتهاء الحلقة حول تاريخ بني أمية في الأندلس ونظامهم الإداري والسياسي. في تلك الفترة الزمنية كان جدّي يجمع ويتحرى صحة ما سمعه من أخبار طوال الأسبوع، ليسجلها في روايات عائلتنا، وكان يخبرني بالحصيلة، وبين الحين والآخر يطلعني على ما كتب لأربط بين الرواية والكتابة. بالطبع كان يريد مني تسجيل وقائع ما أسمعه وأراه في شذونه، منبهأ بأن تسجيل التاريخ لا يرتبط دوماً بأخبار القصور والعواصم والمدن الكبرى، بل مهم معرفة تفاصيل الحياة في الأرياف، وأخبرني جدّي أن مدينة شذونه تقع على الطريق بين العدو والجزيرة، وبين إشبيلية وقرطبة، وبالتالي لن تغيب عنها أخبار تلك المناطق.

في الأمسيات، وكلما اقترب يوم العيد، ورحيلي، كانت جلسات والدتي معي تطول. تتحدث عن شذونه وطفولتها هناك وبيت أهلها وأقاربها، وخصوصاً خالها أبو إبراهيم. تفاصيل أحاديثها تدخل في معالم الشوارع والجامع والقلعة فوق الجبل، حيث تكشف المدينة وخلفها السهل لعشرات الأميال في كل الاتجاهات. لقد انتقلت أُمّي بعد الزواج من أبي إلى قرطبة، وحضر أحوالي أيضاً مع أختهم وتوطنوا في الحاضرة دون أن يقطعوا علاقاتهم العائلية مع شذونه، لكن أُمّي لم تزر مسقط رأسها بعد الزواج، وها هي تشبني بكل التفاصيل، ولا يبدو عليها أي قلق من إرسال بكرها وابنها الذكر الوحيد إلى أهلها ومدنتها. لقتني ما أقوله وما لا يجب قوله في الجلسات بين الأقارب وخصوصاً

راوي قرطبة

قرباتها وزوجات أولاد عمومتها اللواتي أصبحت أعرفهن بالاسم، وأظن أنني لن أتغلب حتى في التعرف على كل من ذكرتهم أمي لشدة اهتمامها بالتفاصيل، طبعاً إذا كان ما يزيد على اثني عشر عاماً لم يغير في ملامحهم.

روايات بابوية

في اليوم الأخير من شوال، الذي صادف نهاية الأسبوع الأول من أغسطس عام 973، عاد جيراننا إلى بيتهم بعد رحلة حج إلى شنت يعقوب دامت أكثر من شهرين. ارتحلوا مع مجموعة حجاج من قرطبة إلى وبلبة عبر إشبيلية، ثم ركبوا البحر وصعدوا بطول الساحل الغربي إلى أقصى الشمال حتى دخلوا خليج شنت يعقوب، ففضوا غرضهم وعادوا مسرعين في المركب ذاته. ذلك هو أسرع وأسهل طريق لهم إذ كان بينهم بعض كبار السن والكثير من النساء. تحولت عودتهم سالمين حدثاً مهماً لأهل قرطبة، فكل حيٍّ وربض يسكنه حاج أو أكثر. بالطبع كان اهتمام السكان النصراري أكبر إذ أصبح الحجاج رواداً، وأثبتوا سهولة السفر. ما سمعته من خسوس تدريجياً في الأسابيع التالية عن مصاعب البحر والغثيان والازدحام، لم يعبر عن سهولة أو تميز عن السفر البري، ولكن طبيعة وظروف الراغبين في الحج تدفعهم لركوب البحر.

قبل انقضاء أسبوع على عودتهم، شاءت الصدفة أن أحضر جلسة جمعت خسوس وأبي وابن عمران في منزل الأخير. سألوا الحاج عن ظروف السفر والمبيت، ثم أخذهم الحديث في شؤون البابوية من خلال معلومات وأخبار سمعها خسوس من حجاج آخرين، وغالبيتها حصيلة روايات قس يشرف على نزل يسكنه الحجاج قرب كنيسة شنت يعقوب. موجز تطورات السنوات العشر الماضية كما جمع ونقل خسوس روايتها كالتالي: عندما حضر الملك اتو الأول إلى روما ليتوج من البابا قيصرًا في عام 962، شاهد وعرف عن قرب ما وصلت إليه البابوية من انحطاط. آنذاك لم يكن من مصلحة اتو التشكيك في شرعية المقام الذي

راوي قردطبة

أقره قيصر وإمبراطور. لكنه عاد إلى روما في العام التالي بتأييد من رجال الدين فيما وراء الألب، ودعا البابا يوحنا إلى المحاكمة أمام مجلس كنسي. الكرادلة في المجلس اتهموا البابا يوحنا بأنه حصل على رشاوى نظير تنصيب الأساقفة، وأنه عين غلاماً في العاشرة من عمره أسقفاً، وأنه زنى بخليطة أبيه، وضاجع أرملة، وابنة أختها، وأنه حوّل قصر البابا إلى ماخور للدعارة. لا بد من القول إن البابا يوحنا رفض أن يحضر أمام المجلس، أو حتى أن يجيب عن هذه التهم، وترك المجلس وخرج للصيد. حينها قرر الكرادلة خلعه، واختاروا بالإجماع مرشح الإمبراطور أتو لكرسي البابوية.

كان والدي مذهولاً أثناء الاستماع لحديث خسوس بينما ابن عمران يهز رأسه موافقاً بين الحين والآخر وكأنه على علم بذلك الحال. تواصلت الرواية بقول خسوس أن مرشح الإمبراطور، وهو البابا ليو الثامن، لم يكن من بين رجال الدين. عاد أتو إلى بلاده، فقبض البابا السابق يوحنا على مؤيدي الإمبراطور اتو في روما وبتر أعضاءهم، وعزل ليو وأعاد نفسه إلى كرسي البابوية بقرار من مجلس خاضع لأمره عام 964. في ذلك العام مات يوحنا هذا واختار الرومان بعده بندكت الخامس لكرسي البابوية، وأغفلوا شأن ليو حليف الإمبراطور أتو الذي حضر مجدداً من بلاد الجرمان بقواته إلى روما، وخلع بندكت الخامس، وأعاد ليو للبابوية. في المقابل اعترف ليو رسمياً بحق أتو وخلفائه الأباطرة في أن يلغوا، إذا شاؤوا، اختيار أي بابا في المستقبل. وبالفعل عندما مات البابا ليو، عمل أتو على اختيار يوحنا الثالث عشر وريثاً له. بعد موت هذا البابا في العام الماضي تعين بندكت السادس بابا برضاء الإمبراطور.

"سياسة الإمبراطور جاءت إذاً بادعاء أنها لإصلاح الفساد البابوي، فتحولت لتعيين من الأباطرة للبابوات وهذا لم يحل الإشكال؛ بل زاد الخلافات ولم ينه العيب". هذا الاستنتاج المنطقي من مسلسل الأحداث والذي أطلقه أبي تبعه تفسير من ابن عمران بأن تقاليد الكنيسة كانت

تقضي بالآ يُختار البابا بغير رضا رجال الدين في روما وأشرفها وسكانها أيضاً. "لكن تفرّق حكام مقاطعات أسبوليتو، وبنفنتوا، ونابلي، وتسكانيا وأشرف روما، شيعاً وأحزاباً مكن الحزب الأقوى في حينه أن يحيك الدسائس لاختيار البابا والسيطرة عليه. وقد عملوا جميعاً بصراعاتهم هذه إلى تدهور البابوية".

"لكن هل بدأ التدهور ووصل للحضيض في العشر سنوات الماضية إثر تتويج اتو، أم أن ملاحظته للواقع كانت صحيحة وكان كرسي البابوية يتطلب التدخل السياسي وتحويله إلى تعيين؟" مرة أخرى تطوّع ابن عمران ليُسمعنا قصصاً أغرب من الخيال عن فترة القرن الماضي التي كنا نتمتع فيها هنا، مسلمون ويهود ونصارى، بحياة ونظام مختلف تماماً.

"أوضاع القرن الماضي لم تكن أفضل مما ذكره خسوس عما حدث في العقد الماضي. في عام 878 ميلادية دخل لامبير، دوق مقاطعة اسبوليتو، إلى مدينة روما على رأس جيشه. قبض على البابا يوحنا السابع، وجوّعه محاولاً إرغامه على تأييد ترشيح كارلومان لعرش الإمبراطورية. بعد عشرين عاماً حدثت مهزلة أخرى ولكنها فريدة، إذ أمر البابا استيفن السادس بأن تُخرج جثة البابا الذي سبقه، فورموسوس، من قبرها، وترتدي الملابس البابوية، وتحاكم أمام مجلس كنسي بتهمة مخالفتها بعض قوانين الكنيسة، ثم يحكم بإدانتها، وتجرد من ثيابها الكهنوتية، وتبتر أعضاؤها وتُلقي في نهر التيبر. وثار في العام نفسه ثورة سياسية في روما خلّع على أثرها البابا استيفن من منصبه، وخنقوه في السجن".

"يا للهول" قال أبي.

"يا رباه" قال خسوس.

"الحمد لله" قلت أنا والتفتُ إلى الثلاثة، فأكملت "إننا نعيش في الأندلس ولا يعاني أي منا من ذلك". لكن قصص هذا القرن لم تنته بعد.

أضاف ابن عمران ما موجهه بأن كرسي البابوية ظل عدة سنين بعد

ذلك الوقت لا يُنال إلا بالرشى أو القتل، أو رغبات النساء ذوات القوام الحسن والخلق الدنيء، وبقيت أسرة ثيوفيلاكس، أحد كبار الموظفين في قصر البابا، ترفع البابوات إلى كراسيهم وتنزلهم عنها كما يحلو لها. وقد استطاعت ابنته مروزيا أن تنجح في تنصيب عشيقها، سرجيوس الثالث، لكرسي البابوية من 904 حتى 911 كما أفلحت زوجة موظف قصر البابا، ثيودورا، في تنصيب البابا يوحنا العاشر بين سنوات 914-928. وبالطبع فقد اتُّهم يوحنا هذا، ربما زوراً، بأنه عشيق ثيودورا. بدا من تصرفات ذلك البابا أنه كان زعيماً ممتازاً في الشؤون الحياتية والسياسية، لأنه هو الذي عقد الحلف بين المقاطعات الرومانية لرد زحف المسلمين عن روما في عام 916. وظلت الابنة مريوزا تستمتع بعدد من العشاق واحداً بعد الآخر حتى تزوجت جويدو دوق تسكانيا وأخذها سوياً يخططان لخلع يوحنا. نجح الزوجان في قتل بطرس، أخ البابا، أمام عينيه، ثم زجَّاه في السجن حيث مات بعد أشهر قليلة ميتة لا تُعلم أسبابها. في عام 931 رفعت مروزيا يوحنا الحادي عشر إلى كرسي البابوية، وكان الشائع على الألسنة أن يوحنا هذا هو ابن لها غير شرعي من سرجيوس الثالث. وفي العام التالي سَجَن ابنها الآخر، ألبريك البابا يوحنا هذا في قلعة سان أنجيلوا، ولكنه سمح له أن يُصرَّف من سجنه شؤون البابوية الروحية، وظل ألبريك يحكم روما اثنتين وعشرين سنة، كان فيها الطاغية المسيطر على ما سمَّاه جمهورية رومانية، وعين اجابتوس بابا بعد موت يوحنا. أوصى البريك وهو على فراش الموت بأن يخلفه من بعده ابنه أكتافيان في الحكم وتولي البابوية بعد موت اجابتوس، وتمَّ له ما أراد، فأصبح حفيداً مروزيا هو البابا يوحنا الثاني عشر الذي توج اتو قيصرًا، وامتازت مدة ولايته بضروب من التهتك والدعارة في قصر لاتيران.

قبل مغادرتنا منزل ابن عمران استأذنت والدي في الطلب من مضيفنا أن يوصل رسالة إلى جريبر، إذ ذكرتني هذه القصص بذلك الإنسان الطيب، وقد أثنى والدي على الفكرة وذكرني أن وصولها قد

يحتاج زمناً طويلاً ريثما يتوافق مرور جارنا على تلك النواحي، وبالتالي علي العناية بما سأكتبه.

"لُبُّ الموضوع سيكون الاستفسار عن تفاصيل قصص البابوية وإذا كان هناك أي تحديث لها، ونسبة الحقيقة من المبالغات التي أضيفت إلى الرواية طوال قرن من الزمن. جريير دارس للتاريخ وعلاقاته جيدة، ولن تخفى عليه الأمور. سأسرد له محتوى القصص بإيجاز وأسأله رأيه".
أثنى أبي على الفكرة وطلب مني الاحتفاظ بنسخة من الرسالة حتى يسهل فهم الرد إذا وصل بعد فترة زمنية طويلة، ثم وجه الحديث إلى ابن عمران الذي كان منصتاً ويتابع حديثنا.

"جريير صديق للعائلة وعمل مترجماً لسفارة برشلونة ثم أكمل تعليمه في قرطبة. أخبرني قبل المغادرة أنه سيعمل في التدريس في معهد ديني بمدينة ريمس وسيحاول إدخال بعض العلوم الفلسفية والعلمية في مناهجهم. آماله كانت واسعة أيضاً في نقل الأرقام العربية إلى الاستعمالات هناك بدل الأرقام الرومانية". لم أكن أعرف أن جريير لديه تلك المخططات أو أنه ناقش مثل هذه الأمور مع أبي الذي واصل حديثه مع مضيفنا. "إذا أوصلك عملك إلى هناك فالرجاء إبلاغه تحياتنا وسؤاله إذا كان بحاجة إلى أية كتب أو مواد، وبالطبع توصيل رسالة سليمان عندما يخطها. جريير مهتم بالكتب والترجمة أيضاً، وابن بلد هناك ويمكنك الاعتماد عليه".

"سأخط رسالتي خلال يومين على الأكثر إن شاء الله، وربما عثرت له على كتاب هدية".

"يكفي أن جارنا استعد بحمل رسالة، ولكن حمل كتاب يعني شيئاً آخر". تذكرت أن ابن عمران يتاجر في الكتب مع العالم الخارجي، ومن غير اللائق تحميل الرجل هدايا من اختصاص تجارته، لكنه أنقذ الموقف بذكائه المعهود.

"في العادة أحمل من الكتب ما يناسبهم هناك، وسأختار كتباً أخرى ربما يحتاجها جريير. أحد الكتب التي قد يختارها سأخبره أنها

هدية منك، بشرط أن تحصل لي على نسخة أخرى من ذلك الكتاب". وافقت، وضحك أبي، واستوعبت فوراً أن الأمر لم يختلف عما أردت عمله بل هو أفضل إذ يمكن لجريير اختيار هديته. كان المنطقي لو طلب جارنا كتابين بدل الكتاب الذي سيتم اختياره. عموماً لم يزعجني استعداد ابن عمران لحمل الهدية، فهو على علاقة تجارة كتب مع والدي، كما أنه لا يحمل بضاعته في جيوبه وإنما يسوق دوابّ عبر دول أوروبا، وجيرتنا جيدة وتسمح بقليل من المراعاة. استهوتني فكرة نقل جريير الأرقام العربية إلى بلاد الشمال، وكنت أعرف أنهم لا يستعملون الصفر أبداً في أرقامهم، وبالتالي يحتاجون إلى خانات طويلة لكتابة رقم متوسط الحجم، كما أنهم يستعملون الأبجدية اللاتينية للتعبير عن رقم ما. العام الحالي مثلاً يتكون من ثلاثة أرقام عربية تحتل ثلاث خانات فقط، لكنه باللاتينية يكتب بثماني أحرف وتعني ألف ناقص مائة تعبيراً عن التسعمائة، ثم خمسين زائد عشرة زائد عشرة تعبيراً عن السبعين، ثم حرف متكرر ثلاث مرات تعبيراً عن الثلاثة. لقد حان الوقت ليستعملوا الصفر والأرقام العربية، وتمنيت نجاح جريير في مهمته.

لم أعرف بعد سماع التفاصيل في شأن البابوية إذا كان ضعف الدول وأنظمتها يؤدي إلى صراع رجال الدين مع بعضهم وصراهم مع الحكام، أم أن مثل هذه الصراعات هي السبب في ضعف الأنظمة والدول. لقد وجدت لدينا في الأندلس تدخلات من رجال الدين في بعض الفترات إذ عارضوا الآراء الفلسفية ومقولات رجال الفلك خصوصاً الذين تحدثوا عن كروية الأرض، ولكن ذلك الاعتراض كان محدوداً في الحجم والزمن ولم يؤدّ إلى انهيارات. كما أن قضاة وأئمة اعترضوا على الخلفاء علناً ولم يصل الأمر لقتلهم أو حتى نفيهم أو وقف عملهم، هذا لا يعني أن فئات الشعراء وأهل الأدب والسياسة لا يواجهون المتاعب والسجن إذا بالغوا في النقد. ربما كان سرّ قوة الأندلس في نظامها الإداري والسياسي، الذي لا يخلو طبعاً من أخطاء ويحتاج إلى تطوير دائم، ولكنه نظام قائم وله أسس يمكن للجميع معرفتها والاحتكام إليها.

الخليفة هو صاحب الأمر والنهي، وله وزراء مختصون في شؤون محددة، ولهم حاجب ينوب عن الخليفة في متابعة أعمالهم. هناك الجيش وله قائد أعلى وقادة ووكلاء وعرفاء وجند دائمون وآخرون يشاركون في الجيش حسب الطلب، وبالطبع يوجد أسطولان بحريان لكل منهما قائد وقاعدة وجند وسفن. في الأندلس الآن أربعون من أنواع الجند داخل الجيش، مثل بياض الجند والجند الأندلسي والآخر البربري والزهرافيون والقرطبيون والرماة الرجالة والفرسان المدرعون والرماة الأحرار والعبيد الرماة والفرسان حاملو القنوت الناصلة، وغير ذلك الكثير من أهل الاختصاص والمهنة ويضاف إليهم المحارس والمرزقون والمطوعة والملحقون والمماليك. وللجند نفقات محددة تزيد حسب الحاجة، كما لكل وزارة ميزانية، ومن ضمن الوزارات الهامة وزارة المظالم، وهناك بالطبع القضاء والقضاة الذين بوسعهم تغريم الخليفة. معظم قضاتنا يتحدثون أو يلمون بلغة الموزراب واللاتينية العامة حتى يتمكنوا من الاستماع لشكاوي أي أندلسي لا يجيد العربية. في الأندلس الآن ثمانية وخمسون نوعاً من الوزراء وأصحاب الخطط والأمناء والنظار. كمثال نذكر بوجود ثلاثة أصحاب للشرطة العليا والوسطى والصغرى، وصاحب لدار الصناعة وصاحب للبريد وآخر للركاب وغيره للسكة وللسوق وصاحب لقرطبة وآخر للزهراء. كور الأندلس لها حكام وقضاة وأصحاب شرطة يعينهم الخليفة لإدارة الكوره في الشأن اليومي، ولكنهم مرتبطون بقرطبة في كل شؤونهم. حتى جلوس الخليفة في العيدين واستقبال السفراء والوفود يتم ضمن ترتيب محدد. هذه التفاصيل هي جزء وموجز من كل شامل يعرف فيه كل شخص حقه وموقعه وواجبه ومسؤوليته، ولا اظن ان بلاد الرومان والفرنجة لديهم مثل هذه الأسس.

مبادئ السياسة

في أسابيع ما قبل العيد تراحمت أخبار الحرب في العدو، وكثرت الرسائل بين الخليفة والقائد الأعلى، غالب، الذي يطارد حسن بن قنون وأعوانه ويُخضع المدن والقبائل التي لا يمكنها الهرب في الجبال. أظهر الخليفة للمعنيين إصراراً لا تهاون فيه على إخضاع حسن أو قتله. إرسال قوات الدعم والأموال إلى غالب لا يتوقف. ممن أرسلهم الخليفة هناك الوزير السابق يحيى الثغري، وهو من قبيلة كبيرة يقودها مع إخوته وأبناء عمه وأنجبت الكثير من الوزراء. شاورهم الخليفة في النفاذ للعدو ممداً للوزير القائد الأعلى غالب، فوافقوا وخرجوا من عنده إلى مجلس النظر بدار الجند البرانية فتسلموا العطايا ومناديل الخليفة ورحلوا بعسكرهم من أقاربهم بعد أربعة أيام إلى العدو. ودعهم الخليفة وأرسل معهم جملةً من العبيد الرماة ومن الرماة الأحرار وغيرهم من جند الخلافة. كان مع يحيى إخوته يوسف ومحمد وهاشم وهذيل وهم بنو محمد بن هاشم وأخوه المتوفى العاصي بن الحكم التجيبي الثغري والمجاهدون من جندهم. بعد أسبوعين استقبل الخليفة يحيى بن علي الأندلسي المستأمن فأكرمه وطلب منه الخروج بجنده والعودة إلى العدو للانصياع تحت إمرة غالب. ثم ورد كتابٌ من غالب يخبر الخليفة أن حسن يواصل الهروب ولكن موقفه يضعف، وقال غالب إن القبائل التي تنزل للطاعة كثيرة وإنهم يجتمعون إليه ويحتفلون وقد أصبح خائفاً من كثرة أكلهم أن يضيق الإنفاق على الجنود وأن تشح المواد الغذائية ويرتفع سعرها. ردّ عليه الخليفة بكتاب جاء فيه:

"قد كفاك الله الاشتغال بالتفكير في مالٍ أو طعام، فموادها

موصولة بك متلاحقة لديك، حتى يفتح الله في الظالم القاطع بعدله ولو أتى ذلك على بيوت الأموال المترعة وأهراء الأندلس المغتصبة، فلو لم يبق منها غير ما في الأهراء الخاصة بقرطبة لاحتل إليك جميع ما فيها". وأكد الخليفة لقائده الأعلى أنه على استعداد للنزول إلى الجزيرة شخصياً ليتخذها موطناً حتى يهزم الفاسق الملحّد حسن. ومما جاء في تلك الرسالة الطويلة التي تليت في قرطبة، إصرار الخليفة على عدم عودة غالب دون النصر وعدم ترك حسن إلا ميتاً أو تائباً. أرسل الخليفة مع كتابه صلات وكسى وهدايا حملها الخازن أحمد بن حاجب ليسلمها غالب إلى أكابر المستأمنين من رجال الحسينيين ووجوه البربر. كانت الهدية الأكبر إلى أحمد بن عيسى وهي سبعة آلاف دينار وسيف عربي بحلية ذهب كاملة في غمده، وثمانية شقاق عبيدية للكسوة ملونة، ومبطين عبيديين أحدهما سمائي والآخر ببغائي اللون، وثلاث عمائم خزّ إحداها سمائية والثانية حمراء والثالثة خضراء، وفرس أشهب إلى الحمرة بسرج ولجام محليين من مراكب الخلافة. وكانت سبع صلة وأصغرهما إلى حجاج بن مخلوف وهي خمسمائة دينار وسيف عربي حليته فضة مذهبة مزينة بنيل ومبطن عبيدي وشقة عبيدية وشقة طرازية وعمامتا خزّ وفرس مجدع وسرج ولجام محليين بفضة.

بعد ثلاثة أسابيع على تلك الرسالة وصل إلى الزهراء ردّ من غالب يخبر الخليفة أنه استباح حصن الكرم الذي احتفى فيه حسن، ولكن الملحّد هرب، وتمكن غالب من إطلاق سراح أسرى أندلسيين ووجوه من البربر كانوا في الحصن كرهائن. أخذ غالب كل ما تركه الفاسق من الأمتعة والمواعين والأقوات والأطعمة، وهدم مساكن حسن وأضرمتها ناراً وأرسل ألف فارس خلفه. ردّ الخليفة بكتاب ينصح فيه غالب تخزين الطعام تحسباً لتواصل الحرب إلى الشتاء وأخبره أن المال سيكون في سبته على مقربة منه مع الخازن بقيمة ألف ألف دينار "فوطن على الصبر نفسك، ولا تُمنها برجوع إلى بيتك حتى يقطع الله دابر الفاسقين". في ذلك الكتاب طلب الخليفة أيضاً أن ينظم غالب البريد بين طنجة وأصيلة

بما يكون كافياً للركض على الدواب بالأخبار وتنظيم العلوقة للدواب والنفقة الشهرية على الفرانقين حملة البريد السريع من أرض المعركة إلى ميناء طنجة وعبر المضيق إلى بريد الأندلس المنظم بين مدنها منذ زمن. من أخبار هذه الفترة أيضاً إنهاء محمد الزبيدي اختصاره لكتاب "العين" في النحو، الذي كتبه الخليل بن أحمد، وذلك الاختصار تم حسب طلب الخليفة. وصل الزبيدي إلى الزهراء للانضمام إلى مجالسين الأمير هشام ومفاتيحه النظر في لغته العربية وتهذيبها وإتقانها. واستمع الخليفة إلى مناظرات في فنون النحو واللغة بين الزبيدي والوزير الأديب جعفر بن عثمان، إذ تباريا في القول وسرّ بهما أهل المعرفة بالنحو من الحضور.

الشرح الأخير من جدّي، والذي حضرته مع الأمير هشام قبل العيد وسفري إلى شذونه، كان عن النظام السياسي الأموي في فترة الخلافة في دمشق. عبر ذلك التحديد الزمني تفادى جدّي إجراء مقارنات بين خلفاء تلك المرحلة وبعضهم، أو طبعاً إشارة لما انتقل من هناك إلى الأندلس وما تغيّر سلباً أو إيجاباً. في ظلّ الخلافات التي سبقت تولي الأمويين للخلافة كان لا بد أن تقوم سياستهم على نظرية تدعم الحكم، وأيضاً تبرره، وقوامها حسب شرح جدّي كان التالي:

أولاً: إنهم أخذوا بمذهب أهل السنة والجماعة الذي يجعل من حق الخليفة السابق أن يختار الخليفة اللاحق، على أن يكون قرشياً، كما فعل الخلفاء الراشدون، ثم يتعزز هذا الاختيار بموافقة الجماعة الإسلامية عن طريق البيعة العامة.

"هذا المبدأ خالف مقولة جماعة خوارج عن السنة والشيعة التي تقضي أن يكون لكل مسلم الحق في الحكم إذا كان من أهل التقوى واقتربت تقواه بعمل صالح. خالف هذا المبدأ أيضاً نظرية الشيعة التي تقضي أن تكون الخلافة من حق آل البيت وورثتهم".

المبدأ الثاني الذي ذكره جدّي هو: "إن أجدادكم الخلفاء تمسكوا بالعصية العربية، فلم يولوا الخلافة إلا لمن وُلد من أم مسلمة. كذلك لم

يولوا عمالاً على الولايات إلا من العرب المواليين لسياستهم". عرفت من جدّي لاحقاً أنه حوّر هذا المبدأ كونه يقول بعدم تولية الخلافة إلا لمن تكون أمه عربية صريحة النسب. لو قال ذلك أمام هشام فربما حدثت أزمة، علماً بأن كثرة من أجداده الأمراء في الأندلس كانوا من أمهات غير عربيات.

المبدأ الثالث للسياسة الأموية طرحه جدّي بتوسع وعمومية وأمثلة. موجزه أنهم أخذوا بمذهب الجبر القائل بأن الإنسان مجبر في كل ما يعمل، وعمله مقرر سلفاً بإرادة الله تعالى لا خيار له فيه. فهم يحكمون بإرادة الله وهو الذي أعدهم لقيادة الأمة، فمن خرج عليهم يخرج على إرادة الله، ولذلك كان خلفاء بني أمية، منذ خلافة عبد الملك بن مروان يسمون أنفسهم (خليفة الله) ومن أجل ذلك حاربوا القائلين بالقدر، أي أن الإنسان يخلق أفعاله بقدرته وإرادته. اعتبر الأمويون القول بالقدر كفراً يحل به قتل قائله، وقد قتل عبد الملك بن مروان وبعده ابنه هشام، كل من مروان الجهني وغيلان الدمشقي لقولهما بالقدر. لكن الخليفين يزيد بن الوليد بن عبد الملك ومروان بن محمد خالفاً لاحقاً مذهب الجبر وأخذوا بمذهب القدرية.

خال أُمي

يوم الوقفة الصغرى وصل إلى الزهراء وفد شذونه من خمسة رجال
للتعديد على الخليفة. كان خال أُمي، أبو إبراهيم، أحدهم، بل أكبرهم
سناً ومقاماً كما لمست لاحقاً. أقاموا في إحدى دور الضيافة على مقربة
من جامع الزهراء، وذهبت مع جدّي وأبي وعمي عباس لتحيّتهم. اتفق
جدّي معهم على المكوث بضعة أيام بعد العيد في منزل عمي عيسى،
وعرفوا أنني سأصحبهم في رحلة العودة وأقيم عندهم للمراس على
الفروسية. لم يحضر جدّي مراسم العيد في الزهراء هذا العام، وعرفت
من وفد شذونه لاحقاً أن بعض الشعراء أحسنوا في القول، وأن محمداً
بن شخيص أنشد شعراً عن فتح حصن الكرم وهروب حسن بن قنون،
وأشار أيضاً إلى ابن الخليفة هشام بأبيات منها:

وجدنا هشاماً للائمة عاشراً إذا أكمل التسعين في الملك تاسع
أتانا بتصديق الرواية مذ أتى به أول الشهب الدراري رابع
سرت فيه أعراق النجابة إذ سرت من الحكم المهدي فيه طبائع
ما شدّ اهتمامي أكثر من العيد في تلك الأيام كان الرهان بين بعض
شيوخنا في الجامع حول خسوف القمر الذي توقعه العالم الشاب مسلمة
المجريطي، وإنكار آخرين لتوقعاته بحدوث الخسوف في أحد الأيام
السبعة بعد العيد، وعلى الأرجح ليلة اكتمال القمر وسط الشهر.
معلومات المجريطي مصدرها الجدول الفلكي الذي أعدّه المرحوم أبو
بكر الخوارزمي. ذلك الجدول أعد بالسنوات الفارسية على مذاهب الهند
وفارس وبطليموس اليوناني، والآن يكاد المجريطي الانتهاء من تحويله

إلى السنين العربية. والخوارزمي ليس جامعاً لمعلومات الفلك ومتابعاً لها فقط، بل هو مخترع علم الجبر وشارح نظام الصفر وصاحب الخوارزمية أو اللوغاريتمية، كما يسميها جربير، ولذلك قال المجريطي إنه شبه متأكد من حلول موعد الخسوف. حاول المجريطي إقناع غير المصدقين حين استشهد بشروح يعقوب الكندي حول سير الكواكب، وذكرهم بالتصحيح الذي وضعه البتاني لمواقع الكواكب.

لم يكن بوسعي قضاء الليل طوال أسبوع ساهراً والنوم معظم النهار بينما أستعد لسفر طويل عن الأهل وقرطبة، فقررت الاكتفاء بسهر ليلة منتصف الشهر في الجامع. احتشد في مطلع المساء كثرة من أهل العلم وأكثر منهم من المتطفلين. تدريجياً أخذ عددهم يتناقص مع انقضاء الليل. كان بعضهم يغادر ضاحكاً أو معلقاً بأنه سيوزع كذا دينار إذا حدث الخسوف الليلة، بينما البعض الآخر اكتفوا بالقول إنهم سيتابعون القمر من بيوتهم، وفي الحالتين كانوا يسمعون من الباقين تمنيات بنوم عميق.

في السحر بدأ القمر يغيب رويداً رويداً من الناحية اليسرى ويتحول من قمر كامل إلى ناقص يوماً ثم آخر حتى أصبح هلالاً ثم غاب وحلت مكانه ألوان حمراء وبرتقالية جذابة. بعد وهلة عاد هلالاً واكتسب اللون الأزرق وأخذ يكبر باتجاه اليمين حتى اكتمل وانتهى خسوفه. طوال الوقت من السحر إلى قبيل انبلاج القمر بقي الجمع يتابع، والبعض يشرح للآخرين ما يجري وأسبابه. في المرحلة التالية وقبل اكتمال القمر أسرع إلى البيت لأخبر أبي وأتيح له فرصة المشاهدة للجزء الأخير وقد شكرني على ذلك. لم يعد الآن عندي شك بأن الفلك يدور في نظام شبه ثابت، وأن الاختلاف التدريجي في المدار هو الذي يسبب العوامل الطبيعية مثل فصول العام، وأن حجم الاستثناءات في التغير للفلك هو الذي يصنع الكوارث والظواهر الأشد مثل الخسوف للقمر والكسوف للشمس. لكن ما سمعته خلال الأسبوع وخصوصاً ليلة الخسوف كان يعني أيضاً قناعة من الكثيرين بأن الأرض كروية وتدور على محورها وحول الشمس والقمر وبعض الكواكب الأخرى السيّارة.

بين العيد والخسوف توطدت معرفتي بوفد شذونه إذ زارونا في قرطبة ثاني أيام العيد وأعدت أمي، لخالها ورفاقه ولأخوتها في الفرن، خروفاً محشياً بالرز واللوز والصنوبر مع خليط من البهارات، وذهبت في اليوم التالي إلى بيت عمي عباس لتساعد زوجته في العناية بالزوار الذين نزلوا في بيت عيسى المجاور. كانت مهتمة جداً باستقبال خالها ورعايته، وعلى الأرجح أنها أرادت تقديم الإحسان حتى يردوه لي في الأشهر التالية. جدّي أيضاً لم يترك الوفد طوال إقامته، وكان يبادلهم المعلومات والأحاديث ويتجول معهم في قرطبة ومساجدها وذهب معهم للحمام الخلفي، كما زاروا شقنده وتناولوا الغداء في بيت نساءنا أهل مريم. في بعض الأيام كانوا يقضون القيلولة في ساحة وحديقة منزلنا في قرطبة، وفي الأيام الأخرى كانوا يقضونها في بيوت أحوالي. وزرت معهم الكنيس بعد أن سألت ابن عمران الذي رافقنا في الزيارة وترجم لهم الكتابة العبرية المنحوتة على الجدران، وأخبرهم أن النساء يجلسن في الطابق الثاني ويشتركن في الصلوات من فوق ورؤوسهن مغطاة.

انتهاز الوفد فرصة الاحتفاء الفائق بهم والتأخر في قرطبة فقرروا حضور استقبال الخليفة لعدة سفراء يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من ذي الحجة الذي وافق الثالث والعشرين من سبتمبر 973. كالعادة كان الاستقبال في قصر الزهراء فخماً وشهده الوزراء والحُجّاب وقيلت القصائد قبيل الاستقبال الذي بدأ بالسفراء المسلمين الذين حضروا من شمال أفريقيا رسلاً لأبي العافية وأحمد بن عيسى وميمون بن القاسم، فعرضوا حال مرسلهم وأجيبوا بما أرضاهم. ثم دخل رسل ملوك العجم. أولهم رسل شانجة بن غرسية صاحب بنبلونة، ثم رسل فردلند بن الشور ورسول بني غومس ثم رسل لذريق بن بلشك.

قبل أسبوع من نهاية عام 362 حضر الوفد من الزهراء والتقينا في المسجد الجامع في قرطبة وانطلقنا بعد صلاة الفجر إلى شذونه على ستة خيول وخلفنا بغلان يحملان بعض أمتعة الوفد والكثير من الأطعمة التي أعدتها أم سليمان. همس لي جدّي وهو يودعني أن كلفة إنفاقي وتعليمي

قد سُلمت لأبي إبراهيم، وإذا نقص شيء فسيوفي هو ثم نسده، وقال لأبي إبراهيم أن يضع ثقته بي وادعى أنني حامل وكاتم للسِر. بدا أن جدّي يريد من الآخرين معاملتي كرجل وأن يثقوا بي. طمأنني والذي أنه سيتواصل معي عبر البريد مرتين في الشهر على الأقل وأنه سيوافيني بأخبار معهد النسخ وتطور العمل، وأخبار أمي وفاطمة وعيسى وجدّي، وطالبي برسائل منتظمة في المقابل.

رحلتنا إلى مدينة شذونه تستغرق خمسة أيام بالسير النشط لنقطع كل يوم بين الخمس والعشرين إلى الثلاثين ميلاً، لكن حرارة الجو هي التي ستحدد الزمن. الأسبوع الأخير من سبتمبر يمكن أن يتحول إلى باردٍ لطيف، أو يبقى شديد الحرارة في ساعات النهار كما هو للآن في قرطبة. "العجلة من الشيطان" كان شعار أبي إبراهيم الذي علينا مسابقة همته وسنوات عمره الستين.

جاورت بالأغر أبا إبراهيم منذ بداية الرحلة ومعظم وقتها، كانت قصصه شيقة ولا تنتهي ومعظمها من تجاربه الخاصة، وتحديداً المعارك التي لا نهاية لها. لاحظت أنه لم يحسم بادعاء الانتصار في كل الوقعات ولكنه لم يلمح لهزائم، وهذا ما دفعني للقول: "سيكون عندنا وقت طويل للحديث عن كل المعارك، ما رأيك أن تحدثني في البداية عن أهم المعارك، وربما التي انهزمنا فيها". حبذت الاشتراك معه بصيغة الجمع في الهزائم ليشعر بالتعاوض.

"الذي لا يهزم ويخسر بعض المعارك يا سليمان، لا يعرف قيمة ونشوة النصر عندما يناله. المهم أن تتعلم من كل هزيمة ولا تكرر الخطأ". كان يتحدث وينظر إليّ، ثم أخذت ملامح وجهه مظهر الجدّية إذ ضاقت جفونه وانعقد ما بين حاجبيه. "الهزيمة الأشد على نفسي كانت موقعة الخندق. آنذاك كنت شاباً لم يتجاوز عمري الخامسة والعشرين، وكان عمر الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله، رحمه الله، خمسين عاماً". حكّ أبو إبراهيم بيمينه ذقنه قرب الحنجرة وكأنه يريد تأهيلها لحديث طويل، ثم مَطَّ رأسه لأعلى "الواقع أنها لم تكن

هزيمة بمعنى أننا كنا أضعف من جيوش ليون ونبره التي حضرت لمواجهتنا قرب شنت مانقش (سيمانكس) ، بالعكس كنا أقوى منهم، ولكننا أردنا إعطاء الناصر درساً في السياسة". لاحظ أبو إبراهيم حواجبي ترتفع تعجباً من كلماته الأخيرة. "كن صبوراً، كل شيء له سبب. قوات الأجناد الستة لها دور في المعارك حتى تؤمن موقعها في الدولة والبلاد. نحن ارتضينا ألا نزاحم بني أمية على الرياسة في السياسة والحكم، وأن نبقى في كور البلاد نحميها، وننضم في الغزوات والصوائف وحملات التأديب كلما استدعت الضرورة. لكن الخليفة أقام على رياستنا في تلك المعركة خادمه الصقلي نجدة الحيري. حرية الصقلي ورياسته في قصور بني أمية من شأنهم، ولكن أن يعينه علينا رئيساً في معركة حاسمة، وبعد أن حققنا قبل ذلك انتصارات جمّة في زحف شامل، فهذا لا يمكننا تحمله. هكذا اتفق زعماء الأجناد العرب أن يخذلوا الناصر في بداية الجولة وينسحبوا من خلفه لنرى ماذا سيفعل الصقلي وجنده المزخرفون". هدأت نبرة الرجل التي لا توحى لمن يسمعها ،دون رؤية وجهه، أن صاحب الصوت بلغ الستين. "كان ذلك يوم الحادي عشر من شوال 327، وأثناء التراجع سقط بعض الجند في خندق حفره النصارى وأسر بعض القادة ومنهم أبو يحيى محمد بن هاشم صاحب سرقسطة".

"لكن النصارى يعتبرون معركة الخندق مهمة جداً ونصراً كبيراً لهم".

"هي كذلك بالنسبة لهم لأننا كنا قد أذقناهم الويل منذ تولي الناصر للحكم، ولكنها لم تمنحهم نتيجة دائمة، إذ استمرّ تفوقنا وتقدمنا بعد ذلك. النتيجة الأهم لنا أن الناصر كفت تماماً عن تولية صقالبة على قوات عربية. لو تصرفنا وكأن شيئاً لم يكن تحت قيادة الصقلي، وكتب لنا النصر على قوات راميرو الثاني، لأصبح الصقالبة هم فاتحو البلاد وحماتها. خطوتهم التالية ستكون الاستيلاء على القصر والحكم وإنهاء مزايانا حتى لا ننافسهم. على الأرجح أن الخليفة فهم ذلك أيضاً بعد الهزيمة، فهو لم يتخذ أي إجراء ولم يتفوه بكلمة ضدنا لأن الخطأ جاء من سياسته".

"ولا تكرهوا شيئاً لعله خيراً لكم". قلت لأظهر تفهيمي لما سمعت.
 "هذا صحيح، أحياناً يكون على الإنسان النظر إلى المستقبل وإلى
 ما بعد الخطوة التالية".

المحطة الأولى في رحلتنا هي استجه جنوب غرب قرطبة، وهي
 مدينة طارق بن زياد. قطعنا وادي الجوز بعد طلوع الشمس بقليل، بعد
 الظهر وصلنا وادي القصر، يعني نصف المسافة بين قرطبة واستجه
 حسب تقديرات أبي إبراهيم الذي سافر على هذا الطريق جيئةً وذهاباً
 عشرات المرات، بل إن حصانه يتصرف وكأنه يعرف خفايا وحجارة
 الطريق. على حافة الوادي خفيف الماءِ ترجلنا لأول استراحة عن ظهور
 الخيل، لم تكن هناك حاجة لاستراحة قبل ذلك لأننا لم نركض بالخيل،
 وإنما نصف مسيرنا مشياً ونصفه الآخر بالتناوب بأبطأ الركض. سلمتُ
 الأغرّ لخليل القائم بأعمال السائس والخادم للرجال الأربعة. طلب أبو
 إبراهيم من عبد الرحمن أن يصحبني لاصطياد شيء ما ريثما يجهز خليل
 النار. عبد الرحمن هذا لم يكن قد بلغ خمسة وعشرين سنة، وسيم
 ومعتدّ بلباسه. سحب القوس والنشاب من جعبة حصانه الأسود كالليل،
 وحمل مخللة بها بعض معدات الصيد.

"هنا سننصب بعض الأفخاخ بعيداً عن الجماعة ودوشتهم التي
 ترهب الطيور، وسنرى في طريق العودة إن وقع بها شيء ما". قال عبد
 الرحمن ذلك وهو يفتح فخاً من الحديد وأخفاه بقليل من الرمل ووضع
 فوقه قطع خبز صغيرة. "هذا لصيد العصافير فقط، خذ هذا وافعل نفس
 الشيء". لم يكن الأمر صعباً فتلك ليست أول مرة أنصب فيها أفخاخاً
 للطيور على حافة وادٍ أو نهر. في أماكن متقاربة نصبنا سوياً خمسة
 أفخاخ وطلب عبد الرحمن أن أحفظ أماكنها حتى نسترد ما لم يحالفه
 الحظ، فوضعت حجراً على مسافة قريبة إلى جانب كل منها. أخذ فرعاً
 ناشفاً عن الأرض وله رأس مزدوجة، "هذا يستعمل في صيد الثعابين.
 عليك أن تعرف الأنواع السامة لتتجنب شرّها، والأخرى غير السامة التي
 تنفع كطعام سهل ودسم ولذيذ ولا تحتاج إلا لقليلٍ من النار لشويها.

إصنع لنفسك واحدة مثل هذه واحملها للاحتياط". خفض صوته في آخر كلمتين إذ شاهد حركة بين العشب الطويل في بطن الواد. أنزل قوسه عن ذراعه ووضع به سهماً وأبعد قدميه عن بعضهما. "إرم حجراً بين العشب على مسافة ثلاثين ياردة إلى اليسار قليلاً، هل شاهدت الحركة قبل ذلك؟"

"لا لم أشاهد شيئاً، ولكنني أجيد التصويب بالحجارة". رميت حجراً، فطارت بطة برأس أبيض، وكان عبد الرحمن قد شدّ السهم في قوسه، فإذا بالبطة تخرُّ على مسافة قريبة من المكان الذي أقلعت منه. ذهبنا تجاه الصيد وحذرني عبد الرحمن من مواضع اقدامي، فالمنطقة مؤهلة لإعاشة طيور وحشرات سامة أيضاً، أية لدغة من عقرب يمكن أن تقتل. فتشنا المحيط الذي أقلعت منه البطة لنرى إن كانت ترقد على بيض، ولكن عبد الرحمن لم يتوقع ذلك بالفعل إذ بدأ يخبرني "إنه من الطيور المهاجرة للجنوب في هذا الوقت، ولكنه وحيدٌ لسببٍ أو لآخر". سحب السهم من جسد الطائر المسكين الجميل الذي استقر في المخلاة. "لماذا وصفت البطة بالمذكر قبل أن تمسك بها؟"

"بشكل عام الطيور الجميلة مزوقة الرؤوس وزاهية الريش تكون ذكوراً، نساء البشر تتزوق حتى تعجب رجلها، بينما مشيئة الله أن ذكور الطيور هي التي عليها أن تغري إناثها".

"يعني النساء مخالقات قوانين الله؟" سألت الصياد

"أو الرجال هم المخالفون مرتين، الأولى بعدم تجميل ذواتهم، والثانية بإظهارهم الرضا والحب للنساء المتجملات. الحكم يتعلق بالرؤية الذاتية. البط مسير من الله ولا يمكنه تغيير شكله ووظيفته، بينما نحن مخيرون، ونخالف أو نساير النواميس الإلهية بإرادتنا". صياد وفيلسوف إذاً.

"هل الشيوخ في مدارس شذونه يضربون الرواد الصغار إذا تفلسفوا؟" قهقه عبد الرحمن وهو يتساءل إذا كنت قد سمحت لأي شيخ أن يضربني ويواصل حياته اليومية.

"لو ضربني أي شيخ فهذا كان يعني أنه كتب وصيته. لا ضرب في شذونه".

"وأنا لم أضرب في قرطبة أيضاً، وإنما سألت فقط لأن الشيخ يونس كان يهددنا ونحن صغار أن من يتحدث في الفلسفة سيواجه متاعب". توقف الصياد الفيلسوف مهدد الشيوخ أمام جحر في الأرض. "هذا جحر أرنب أو ثعبان، كيف سنخرجه في رأيك؟" "نربط أحد سهامك بعضا ونغمسه في الجحر لنرى ماذا سيخرج معه، أو نغرس السهم من فوق الأرض بعدة ضربات لنرى آثار دماء أو غيره".

"لكن ماذا تخمن أنت هل ثعبان أم أرنب يسكن هنا، هل من الخطر وضع اليد في الجحر؟" فكرت بسرعة، فعبد الرحمن بدأ يعلمني ويريد اختبار مدى ذكائي ومعرفتي العامة ولا يبدو أن أبي إبراهيم ورفاقه يتصورون جوعاً بانتظار الصيد فقد حملت أمي البغل بأرطال من أنواع الطعام الذي لم نتناول منه وجبة واحدة للآن.

"طبعاً خطر، حتى لو شاهدت الأرنب يدخله للتو فربما كان ثعبان سام في انتظاره بالداخل. لكن هذا الجحر ليس لثعبان، فأثار الأقدام والبعر حوله تشير إلى حيوان بأربع، ربما أرنب وربما شيء آخر بأسنان حادة، دعنا نطعنه بالسهم". أخذت أظعن في الأرض فوق الجحر بينما رفيقي نصب يديه فخاً أمام الفتحة. في ثوانٍ كان في الخرج صيدناً الثاني.

"بطة وأرنب تكفي الآن، دعنا نعود لنستريح قليلاً، وربما حالف الحظ أفضاخنا".

"هل توجد حيوانات برية أخرى علينا الاحتياط منها؟" "نعم، القط البري. حجمه أكبر من كلب، ولكنه سريع وقوي. لن يهاجمك في الظروف العادية إلا إذا حشرته في زاوية لا مخرج له منها، والأفضل تجنبه فهو ذو ناب ولا يؤكل. وهناك الخنزير البري، وهو ذو ناب كبير وخنزير أيضاً، وإذا وجد نفسه في خطر فإنه يهاجم وينطح كالثور، ولكنه في العادة يهرب من الناس".

"ولكن جيراننا يأكلونه ويعجبون بطعم لحمه. قصدي عند الضرورة يمكن أن نصيده ونأكله دون خوف أن نتسمم، ثم إن الله غفور رحيم". ضحك عبد الرحمن بصوت عالٍ وهو يضرب بيده الثقيلة على كتفي.

"فلسفتك تعجبني، رغم أنني أفهم الآن لماذا تغضب الشيخ يونس". تركت عبد الرحمن يخلص العصافير الثلاثة من الأفخاخ وجمعت بعض التين البري الطازج لنأكله، والكثير من اللوز الناشف المعلق على الشجر من الموسم السابق والحالي إذ لم يجد من يجمعه ورأيت أن أكسر بعضه للأغر. أكبر العصافير كان صياد النحل، ولا يتجاوز حجمه راحة اليد ذا ألوان زاهية، أصفر وأسود وأزرق من الرقبة للأرجل، وأخضر مقدمة الجناحين ثم أحمر وأبيض. ذيله أخضر، وله منقار طويل سهل عليه صيد النحل. كان الفخ قد أمسكه من جناحه دون أن يكسره.

"هذا يقدم خدمة لنا باصطياد الحشرات، ولحمه لا يستحق عناء تجهيزه". أنهيت الكلام وفتحت له راحة يدي لينطلق حراً. الاثنان الباقيان كانا حسونين صفراوين أصغر حجماً، ولكن أحدهما خنقه الفخ، والثاني كُسرت ساقه فكسر عبد الرحمن رقبتة. وجدنا بقية الفريق نياماً في الظل، وخليل يحرك في نار تجمّر خشبها في انتظار الصيد، وعلى جانبها بكرج قهوة تغلي. بعد ساعة أخرى كنا على ظهور الخيل في الطريق إلى استجه. مزارع الزيتون وكروم العنب غطت المسافة في المرحلة الأولى، والآن يغلب على الطريق أحراش وغازبات وأشجار تين ولوز فوق تلال قليلة الارتفاع سهلة الاجتياز على بقايا طريق حجري قديم من صنع الرومان. عندما وصلنا المدينة وجدنا الجسر الحجري الذي يقطع نهر شانيل مهتماً وقد أقيم بجانبه جسر آخر من الخشب، وأطل علينا بقايا بوابة ولكن السوار على طرفيها، وعلى ما يبدو حول كل المدينة، مهتماً هو الآخر. نظرت إلى خال أمي على بقايا ضوء الشمس الذي انعكس على لحيته البيضاء أصفر.

"هدمها عبد الرحمن الناصر في بداية عهده. كانت المدينة خاضعة

لثائر عمر بن حفصون، فسير عبد الرحمن إليها في شتاء عام 300 هجرية جيشاً يقوده بدر بن أحمد الذي استرجعها وهدم القنطرة والأسوار حتى يقطع رجاء سكانها من أي تحصن إذا عادوا للثورة وتأييد ابن حفصون. ولأنها مدينة داخلية فلم يقرر لاحقاً إعادة بناء السور، وهذه القنطرة الخشبية لا زالت تفي بالحاجة". لاحظ أبو إبراهيم بعض الامتعاض على وجهي فأضاف: "ذلك حصل قبل مولدي بستين".

"لماذا تسمى استجه مدينة طارق بن زياد، رحمه الله؟"

"لأن طارق مكث فيها وهلة من الزمن. بعد المعركة الأولى ضد ملك وجند القوط توجه طارق ومن انضموا إليه من العدو إلى مدينتنا شذونه، ثم تحرك المجاهدون إلى مورور التي سنمر بها لاحقاً، ومن هناك صعد شمالاً إلى قرمونة ففتحها أيضاً، وعطف غرباً ففتح إشبيلية. هناك سمع بتجمع قوات القوط قرب استجه فاتجه شرقاً حتى وصل هنا وهزمهم. من استجه أرسل طارق سرية لفتح قرطبة قادها مغيث الرومي ومعه سبعمائة فارس، ووجه قوة أخرى إلى مالقا، وثالثة إلى البيرة، وقوة رابعة إلى تدمير، بينما بقي هو هنا مع بقية القوات ينتظر عودة الآخرين وتحرك بهم لفتح مدن أخرى حتى وصلوا طليطلة".

خيارات المبيت المتاحة لنا شملت دار ضيافة تابعة لحاكم المدينة، أو فندقاً على الطرف الآخر من المدينة، أو الجامع في وسطها، وهو الذي وقع عليه الاختيار لأن وفدنا كان متعباً ولا يريدون الخوض في مسامرات وتناقل أخبار طوال الليل في دار الضيافة كوننا عزمنا على مواصلة المسير بعد صلاة الفجر. ولأننا محمولون بالأطعمة فلم تكن بنا حاجة للفندق. تركنا خليل والخييل في إسطنبول وسط المدينة لتفحص الحذوات وإطعام الخييل والعناية بها، واتفقنا معه أن يحضر الطعام للمسجد بعد صلاة العشاء، وذهبنا لقضاء الوقت في الحمام. قبل أن نخرج إلى الجامع دخل إلى الحمّام خمسة رجال مرحبين مهللين وعاتبوا أبا إبراهيم أنه لم يذهب لبيوتهم مباشرة. "لقد وصلنا متأخرين ونوينا مواصلة السفر في الفجر، فأعذرونا".

"عذرناكم، فأنتم في بيتكم وبين أهلكم، تفضلوا معنا لتتعشى سوياً ونترككم ترتاحون. لكن لن تغادرونا قبل إتمامنا لواجب ضيافتكم ثلاثة أيام." تواصل الحديث بين أبي إبراهيم ومشاركة رمزية مؤيدة لآرائه من بقيتنا، وبين المضيفين المطالبين بأخذ حقهم. سرنا معهم إلى بيت ضيافتهم بشرط أن يضمنوا لنا السفر في اليوم التالي. كان اثنان من المضيفين قد حضرا التعميد على الخليفة في الزهراء، كما عرفت لاحقاً. وهم في العادة يدخلون على الخليفة بعد دخول وفود الأجناد الستة، وبالتالي فوفدنا ذو مقام أرفع حسب ترتيبات الخلافة، لكن أياً من الفوارق لم تظهر بين الرجال في تلك الليلة. عندما سألت أبا إبراهيم لاحقاً لماذا لم يصرّ على المبيت في الجامع وبالتالي النوم مبكراً والسفر مع الفجر بدل التأخر في العشاء وتكلفة الناس ذبائح وصنع طعام ثم سفرنا المتأخر، قال مفسراً، بأن تهربنا من الضيافة سيهين أهل البلد، وسيعتبروننا بخلاء لا نريد استقبالهم إذا حطّوا في ربوعنا. استجابة على طريقنا لقرطبة، وشذونه على طريقهم إلى الجزيرة والعدوة، وكل منا لا يستغني عن الآخر "لذلك لم يكن هناك مجالٌ للتهرب، والحمد لله أننا نجونا بعد ليلة واحدة، في العادة تتناوب العائلات على تكريم الضيف لثلاثة أيام وثلاث قبل سؤاله عن هدفه من الزيارة، أو تركه يواصل طريقه. أهل القرى والمدن الصغيرة لازالوا على طباعهم العربية وليسوا كأهل قرطبة".

"وماذا كنت ستقول لاحقاً لو نمنا في الجامع وعرفوا بذلك؟"
"سأقول وصلنا متأخرين ليلاً ولدينا حاجة للسفر المبكر. وكنت سأطلب من شيخ الجامع إيصالهم التحيات والعذر".
"ما رأيك، كيف عرفوا أننا هنا بهذه السرعة؟"
"من المؤكد أن صاحب الاسبطل ينقل لهم أخبار القادمين فوراً، فيعرفون من يستقبلون ومن يتجاهلون من زوار مدينتهم، فالناس مقامات".

هدد سليمان

خرجنا من استجه متأخرين في الصباح بعد سهرة طويلة ودردشات مع المضيفين شملت التاريخ والجغرافيا والأصول وتلميحات عن الواقع السياسي الحالي. الحدث الأهم لمضيفينا كان استجابة الخليفة لشكواهم ضد القاضي أصبغ بن قاسم ونقله من مسقط رأسه استجة، إلى قضاء قرمونة. وكانت التغييرات قد شملت نقل أحمد بن مفرج عن قضاء شذونه واشونة إلى مالقا إثر عزل خالد بن هشام عنها. وأخبر أبو إبراهيم الأعيان الذين رافقونا عبر المدينة لوداعنا، بأن ناجيت بن محمد سيصل استجة بعد يومين في طريقة إلى شذونه والجزيرة والعدوة لإيصال الأغذية والأموال لنفقات الجند. نال أبو إبراهيم الشكر على هذه المعلومة التي عرفها قبل مغادرة الزهراء، والتي ستؤهل أهل استجة لاستقبال مناسب للوزير مسؤول خزنة الجند.

سلكنا الطريق الجنوبي المباشر إلى أشونة، ولكن هدفنا لتلك الليلة كان كسالة غربي أشونة بعشرة أميال. إقترح عمران أن نعوض الوقت الذي ضاع في الصباح بالركض على الخيل. "الطريق طيني وسهل على الدواب، وبعد ميلين سنسير بمحاذاة النهر لخمسة أميال وندور معه خمسة أميال أخرى للغرب ثم نتجه ستة أميال على طريق للجنوب الغربي حتى نجاري نهر الكربون لخمسة أميال إلى كسالة". كان عمران يوجه حديثه مباشرة إلى أبي إبراهيم، ثم استأنف "لسنا مضطرين للوصول الليلة إلى كسالة، ويمكننا المبيت في أي برج بريدي على الطريق، أو على ضفاف النهر فالمنطقة مأهولة ومزروعة وآمنة".

"إذا لم تحالفنا المروة إلى كسالة ونمنا قبلها، يمكننا المبيت غداً

راوي قرطبة

في مورور". هذه الإجابة من أبي إبراهيم أعادت الجندي عمران إلى التروي، ولم يكن الشيخ مسعود من المتسرعين، ولو كان الأمر بيده لبقى لثلاث ليال في كل مضافة على الطريق. أيضاً عمران لا يملك سبباً للعودة السريعة إلى قلعة شذونه التي يديرها منذ سنوات، ولكن طبيعة الجندية تتطلب منه اختيار أفضل وأقصر الطرق إلى هدفه.

"إذا رغبت في الركض، يمكنني أن أسابقك طوال ساعة ما قبل استراحة الغداء". وافق عمران على اقتراحه، وطلب عبد الرحمن المشاركة معنا فوافق أبو إبراهيم مطمئناً أنه وخلييل والشيخ مسعود سيحرصون على البغليين وسيصلون في أثرنا مع الغداء في حينه. إختار أبو إبراهيم إظهار موقع عمران فأخبرني أنه أشرف مراراً على تنظيم وإيصال الأطعمة من شذونه إلى الأسطول، أحياناً في ميناء الجزيرة، وأحياناً في قاديس. عرفت من عمران ذلك الصباح أن شذونه تطعم الجند في طريق ذهابهم إلى العدو وإيابهم منها. أحياناً تتقاضى المدينة هبات مالية بدل الخدمات التي تقدمها، وغالباً لا تحصل على بديل كون ذلك من واجباتها، وهو ما يعطي سكانها وزنهم في قرطبة. أصبح ذهني يعمل بنشاط مضاعف، أتجاوب مع الحديث وأستوعب المعلومات وأسأل عن أنواع الأطعمة وتفاصيل التعامل معها حتى تصل أفواه الجند، من دون تجاهل رسم مخطط للفوز في السباق، أو على الأقل عدم ترك عمران وعبد الرحمن يفوزان بجدارة. الأغر أصغر سنّاً من خيلهما، ولكنني أيضاً أخف وزناً منهما. رأيت أن حظي سيكون أوفر كلما طال زمن السباق .

وصلت الشمس إلى كبد السماء، ومع وصولنا لدوران النهر غرباً أصبح ظلنا تحتنا، وذكرنا أبو إبراهيم بالركض وأن نتوقف قبيل ابتعاد الطريق عن مجرى النهر حتى نقضي القيلولة قرب الماء. "الفائز منكم عليه تجهيز النار، والأخير يهتم بخيل ثلاثكم". قبل أن ننطلق سألني خال أمي عن حال الأغر، ثم همس لي "سوف يسبقانك في البداية،

وتسبقهما لاحقاً، لكن بعد ذلك دعهما يفوزان دون أن يشعرا أنك تعمدت ذلك".

"لكني لا أريد أن أخسر، ولا أحبذ العناية بخيلهما".

"آداب المعاملة يا سليمان تتطلب ألا تفوز، وأنت تعرف أن بوسعك الفوز، إذا لم تتحكم في نزواتك فكن الثاني على الأقل". لم تعجبني الفكرة، ولكنني هنا لأتعلم، وربما كان خال أمي على حق، المهم أن أعرف أنني قادر على الفوز. إنطلقنا وأسرعنا رويداً رويداً حتى وصلت الخيل لأقصى طاقتها. توازى عمران وعبد الرحمن لفترة والأغر في أثرهما، وتدرجياً فاز عبد الرحمن بمسافة للأمام وأصبح علي تخطي الإثنين قبل التراجع عن الموقع الأول. أطلقت للأغر العنان، وركلته بكعبي فشد همته، ضربته بيدي على مؤخرته مراراً ثم انحنيت برأسي فوق رقبته. مررت بعمران، وعندما نظر عبد الرحمن خلفه وجدني في أثره، لكن محاولاته حض حصانه الأسود على السرعة لم تجده نفعاً إذ كان العرق يغطي رقبته وسيقانه الأمامية. تقدمت عنهما وهلة ثم أرحت كعبي على خصم الأغر. يبدو أن عبد الرحمن قد عزم على تقديم عمران عنه إذ لحقني بحصانه، ورأيت عبد الرحمن خلفه على مسافة أمتار فقط. تدرجياً خفف الجميع من الاندفاع وعدنا متقاربين وأنهينا السباق جنباً إلى جنب. إعتبر عمران نفسه الفائز إذ خصنا بنصيحة مفادها أن السرعة الثابتة هي الأفضل للحصان وتؤهله للصمود وبالتالي الفوز، وأضاف إنه سيشعل النار، وقبل أن أنطق بكلمة قال عبد الرحمن إنه سيعتني بخيلنا.

لم أوفق في مهمتي التي اخترتها طوعاً وعدت خالي الوفاض من دون أي صيد لأجد خليل قد جهز الطعام والقهوة، وأعلن أنه من الأفضل استهلاك ما نحمله من الأطعمة. قضينا القيلولة على صوت ناي خليل، وقبل المغرب وصلنا إلى ضفة نهر الكربون، وتبين أننا لن نصل كسالة قبل الليل، فقرر القوم المبيت أينما ناسبنا الأمر قبل المساء كون القمر في أيامه الأخيرة ولن يسعفنا ضوءه لمسير ليلي. هذه أول ليلة نبيت فيها لوحدها دون مضافات، وأول مرة أنام فيها طول الليل دون

راوي قرطبة

سقف. حدثت رفاق الرحلة عما رأته وسمعتة ليلة خسوف القمر، واستمعت لشروحات عن طرق الاهتداء الليلي بالنجوم التي ملأت السماء، وشاهدت أكثر من عشرة مذنبات تخترق الفضاء.

كان حصن مرشينه على مسافة ساعة غرب مبيتنا، لكننا اتجهنا إلى كسالة جنوباً، ودخلناها بين الضحى والظهر. هي قرية صغيرة فوق تل منبسط، وبيوتها من طابق واحد، يقطنها الفلاحون الذين يعتنون بالأراضي الشاسعة المساحات غزيرة المياه النهرية. شكرنا كل الذين حاولوا استضافتنا متعللين بضرورة الوصول إلى مورور قبل المغرب، ونجحنا في مواصلة الرحلة دون نزول عن ظهور الخيل. الأراضي بين كسالة ومورور طينية حمراء ومنبسطة، تنتشر فيها زراعة القمح والشعير بين مساحات من الغابات.

شد انتباهي كثرة الهداهد في الطريق. قال الشيخ مسعود إن الهداهد كثيرة ولا تخاف من الناس مثل بقية الطيور "لأننا لا نصيدها أو نأكلها، فالهدهد طير حكيم". قصة الهدهد مع النبي سليمان الحكيم معروفة للجميع، إذ ذكرت في القرآن، ولكن تفسيراتها وجكّمها تختلف بين المدارس. لم يكن هناك مناص من الاطلاع على الرواية بعيون الشيخ مسعود. قال إن النبي سليمان كان يفهم لغة الطير والحيوان والحشرات وكل ما دب على الأرض وسبح في البحر "جنده من الإنس والجن والطيور والحيوانات والطيور تظله من الشمس أثناء المسير. ذات يوم لم يكن الهدهد في موقعه فتوعده سليمان الحكيم بالعذاب الشديد إذا لم يكن عنده سبب مقنع للغياب. عندما حضر الهدهد أجاب مدافعاً أنه كان يمارس العمل وطار إلى اليمن فوجد قوماً يعبدون الشمس ولم يسمعوا بسليمان الحكيم القوي ودينه، وأنهم يُحكمون من قبل امرأة لديها الجمال والمال والذكاء واسمها بلقيس". كان من الواضح أن الشيخ أخرج القصة وكأنها تحدٍ بين الهدهد والنبي الذي يأمر الإنس والجن، وبالطبع اعتبر النبي سليمان مما سمع فأرسل مع الهدهد رسالة إلى بلقيس يدعوها وقومها إلى الإسلام. ألقى الهدهد الرسالة إليها، فقالت

لقومها، كما جاء في القرآن "قالت يا أيها الملاء إني أُلقي إلي كتاب كريم. إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم. ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين". حسب الرواية القرآنية فقد دخلت بلقيس في دين سليمان، والشكر بالطبع للهدهد. لكن الشيخ لم يقل من أين طار وعاد الهدهد إلى اليمن مرتين، كما لم يفسر كيفية دخول بلقيس في الإسلام رغم أن سليمان بن داوود أوتي بكتاب غير القرآن. لم أشأ استفزاز الشيخ في بداية رحلتنا ومستهل عام كامل سأزور فيه الجامع وأرى مسعود شبه يومياً، وهكذا لم أطلب منه تفسيرات.

كلما اقتربنا من مورور تتزايد أشجار الغابات وتكثر التلال وتعلو. بعد الظهر شاهدنا المدينة على رأس تلة عالية أفادنا عمران أن ارتفاعها أربعمئة ياردة، "وقلعتها محاطة بإثني عشر برجاً ولها خمسة أبواب وبها بئر ماء يساعد جندها على الصمود لفترة طويلة". لكن المدينة حول وأسفل القلعة لم تكن مسورة، وقال أبو إبراهيم إن اسمها مأخوذ من جالية موريتانية سكنتها قبل دخول الإسلام بزمن طويل، وهي مدينة سامية وتقع في منتصف الطريق بين قرطبة ومدينة شذونه. قضينا الليلة في ضيافة جند القلعة، ورغم حرارة الصيف ليلاً ونهاراً منذ غادرنا قرطبة إلا إنني شعرت بهواء بارد في مورور منذ المغرب واشتدت برودته في المساء.

الطريق من مورور إلى بحيرة واد الدلة استغرق منا يوماً كاملاً قطعنا خلاله ثلاثة أنهار، وشاهدنا سلسلة جبال روندا على يسارنا طوال المسير جنوباً. الأرض غير منبسطة ولكنها لم تكن تلالاً عالية أيضاً وإنما مجموعة أنصاف كرات متلاصقة وكأنها قباب ملقاة بغير نظام على الأرض. صاحبنا معظم النهار أصوات نهيق الحمير والبغال، والسبب في ذلك هو كثرة مزارع إنتاج البغال في هذه المنطقة. قوة الأندلس الاقتصادية ورخاؤها يعتمد على كثرة البغال وضمان وجود ما يعادل بغلين لكل أندلسي. هي قوام الحرث والزرع والحمولات والسقاية، وهذه المنطقة تصلح لإنتاج وتربية البغال، كما قال أبو إبراهيم الذي أعطاني معلومات وافية عندما لاحظ جهلي بذلك العلم.

"في الربيع ينشط أصحاب المزارع على دفع حمار قوي لينكح عشر مهر أو خمس عشرة كل يوم. بعد أحد عشر شهراً تلد الخيول بغالاً ذكورية. وإذا نكح حصان أنثى حمار فالنتيجة بغل أنثى. البغال، ذكورها وإناثها نشطة جنسياً ولكنها عقيمة لا تحمل أبداً. بعد ثلاث سنوات من التربية يصبح البغل مؤهلاً للعمل".

"ولماذا نحتاج البغال طالما عندنا حمير وخيول؟"

"هي أقوى وتحمل أكثر وتقفز أعلى من الخيل، وذكية لا تسمح باستغلالها في العمل حتى الإعياء مثل الحصان الذي يطيع صاحبه حتى الموت من الإعياء، والبغال أيضاً قليلة الأمراض. أما الحمار فصغير وضعيف وعنيد، بينما الحصان رقيق، هكذا فالبغل هو الأفضل للشغل في الأرض ومع الجند أيضاً".

"هذا يعني أن البغل هو صاحب القرار متى يتوقف عن العمل، وقد يروقه الاستراحة في وقت حرج لصاحبه! عموماً لن أبادل الأغر بعشرة بغال، فالبغل بغل ولو بين الخيول ربى".

بين قلعة ومدينة مورور وقلعة واد الدلة، شاهدنا عشرات المزارع وبيوتاً كبيرة ملحقة بها، ومررنا بقريتين. إعتلت قلعة واد الدلة رأس جبل وتربعت وحيدة بدون سكان من حولها، إلا أنها تُشرف من على قرية كبيرة وعلى بحيرة وواد لُكه التي تمتد إلى الجنوب الغربي مسيرة أقل من نصف يوم حيث توجد مدينة ارقوس، وهي على مسافة يوم كامل من شذونه. الطريق بعد مورور وفيرة القلاع، وبين القلاع تتوزع أبراج الرقابة والبريد على مسافة عشرة أميال تقريباً من بعضها البعض. حسب شروحات عمران، فكل برج به ثلاثة جنود، وثلاثة خيول وبغلان. يتناوب الجنود على مراقبة المنطقة من أعلى البرج، وفي العادة يمكنهم مشاهدة برجين في الاتجاهين المتضادين، وتلقي إشارات منها بانعكاس الضوء على المرايا، أو بإشعال النار ليلاً للتنبيه لخطر أو وصول جندي بريد.

"حامل البريد يغير حصانه في كل برج ويمكنه قطع مائة ميل في

اليوم. وإذا كانت الرسالة مهمة يقوم أحد جنود البرج بحملها ليلاً حتى لا تتوقف الخيل عن الركض ليلاً ونهاراً. إذا كانت الرسالة تحتمل بعض التأخير، أو كانت سرية جداً، فإن الجندي حاملها والمؤتمن عليها يستريح في إحدى القلاع عدة ساعات قبل استئناف الرحلة". من سياق الحديث وبعض الأسئلة التي طرحتها على عمران، مسؤول قلعة شذونه، عرفت أن الأبراج المنتشرة على الطرق الرئيسية بين مدن وجهات الأندلس، تستخدم أيضاً من قبل البريد العادي الذي يُحمل على بغال لا تغير في الأبراج إلا في حالات الضرورة، ولكن حامل البريد لديه حق الحماية والمبيت والطعام في أي برج أو قلعة، ويسلم الرسائل الخاصة بالمدن إلى قلاعها ويتسلم منها الرسائل للمدن الأخرى.

"طبعاً في فترات الأزمات، يصعب إيصال البريد ويطول زمنه. أثناء ثورة عمر بن حفصون كانت قلعة الواد التي أمامنا تحت إشراف عصابته، وكانوا يقطعون الطرق. لذلك كان البريد يتوجه غرباً ثم يستدير شمالاً وشرقاً إلى قرطبة". ذكرني تدخل أبو إبراهيم بقلعة أخرى، كانت تحت سيطرة ابن حفصون، على الطريق من انتيقيره إلى مالقا، وهذا يعني أن ثورته شملت جبال مالقا وسلسلة جبال رونده التي تنتهي على مقربة من هنا. إتضح من الاستقبال الذي حظينا به من جند القلعة أننا اقتربنا من شذونه، وأن رفاقي في الرحلة ذوو وزن ثقيل، خصوصاً أبي إبراهيم، وبالطبع عمران الذي تصرف مع الجند وكأنه أعلى منهم مرتبة. تعشينا جدياً مشوياً على النار، وأفطرنا بيضاً مسلوقاً ومخلوطاً بزيت الزيتون والزعتر وجبنة بيضاء من حليب الماعز. من قلعة الواد شاهدت في الصباح برجتي مراقبة متتاليتين في الشمال، وبرجاً في الجنوب يليه مدينة ارقوس والبحيرة المستطيلة. على مدى الرؤية انتشرت قطعان ماعز وأغنام سارحة في أسفل الجبل والواد.

"المنطقة التي خلفنا تصلح لإنتاج البغال، والتي أمامنا تبدو مراعي لإنتاج الغنم والجديان، فماذا يوجد حول شذونه؟" ضحك رفاق الرحلة ونحن نهبط من القلعة باتجاه القرية على يسار النهر، وقال الشيخ مسعود

إن البط والأوز والدجاج يكثر هنا بجانب مزارع إنتاج الجديان والغنم. "هذه الحيوانات والطيور تنتج عندنا أيضاً، ولكن لدينا ثيران وأبقار سمينة. ما شاء الله، المياه كثيرة كما ترى، والأرض منبسطة لزراعة الحبوب والأعلاف، كما أن الحشائش والأعشاب البرية متوفرة صيفاً وشتاء".

"أنت تقترب من الجنة يا سليمان، ولا تنسَ الطيور البرية والأرانب والغزلان، كلها في انتظارك لتصيدها". لم تكن هناك مبالغاة فيما قاله عبد الرحمن. طوال الطريق إلى ارقوس غطت مزارع القمح الأرض على امتداد البصر، وحطت على ضفاف البحيرة آلاف الطيور من عشرات الأنواع والأحجام. شد انتباهي عصفور صغير أشاهد مثله لأول مرة. كان يجري على ساقيه أكثر من العصافير الأخرى التي تطير وتحط على أمتار. تميز رأسه بتاج من الريش على شكل مثلث، وقيل لي إن اسمه القنبر، ويتواجد حيث تتوفر المياه ومزارع القمح. أحصيت تسعة أنواع من البط البري تختلف عن بعضها في الألوان والأحجام وثلاثة أنواع منها أقرب إلى شكل الدجاج، ولكنها تعوم وتصطاد طعامها في الماء. الطيور الكبيرة، التي لا تؤكل، عششت على الأرض وفي قمم الأشجار أو على سطوح البيوت. بعضها من آكلة الأسماك، وغيرها تصطاد الديدان أو الحشرات والضفادع. رغم كثرة أنواعها إلا أنها تشترك في مواصفات طول السيقان والرقبة والمنقار الذي كان مدبباً لدى بعضها أو رفيعاً أو معكوفاً لدى بعضها الآخر.

انتقام زوجة

بلغنا مدينة ارقوس من طرفها الشمالي قبل الظهر. اتضح من على بُعد أنها قد أقيمت على حافة جرف صخري برتقالي اللون ينبت بين عروقه شجر الصبار. إمتشق السور حافة الجبل، وبدا لي انعدام الجدوى من بنائه هنا إذ يبدو من شبه المستحيل أن تُقتحم هذه المدينة، عنوة أو سلماً، من طرفها الشمالي. هذا المرتفع بهذه الزاوية لا يصلح إلا لتسلق السحالي، بالإضافة لذلك هناك مانع طبيعي آخر يحمي المدينة وهو النهر الذي يحيط بها من ثلاثة أطراف. قبل الدوران إلى اليمين على الطريق الصاعد، حيث إحدى البوابات الثلاث للمدينة، ظهرت شرفة قصر القلعة في قمة وعلى حافة الجبل. ظننت أن من سيقف في تلك الشرفة سيشعر بنفسه كطائر في الفضاء، وتمنيت أن نقضي بعض الوقت في ذلك القصر. وصلنا بوابة المدينة وتركنا الدواب هناك مع خليل في إسطنبول على يمينها فلم يكن بوسع الدواب صعود الدرجات إلى وسط المدينة حيث الجامع والقلعة والقصر. مرة أخرى تصرف رفاق الرحلة وكأنهم في بيوت أقاربهم، لكن وجوه الجنود، حراس بوابة المدينة وأبواب القلعة، شابها قلق. في القصر جلس خليل من الرجال في الصالون، لم يبتسم أي منهم أثناء التسليم علينا رغم أن بعضهم رحب بأبي إبراهيم وعمران والشيخ مسعود بالاسم. تسربت على الفور من الصالون إلى الشرفة المحاذية والمغطاة. من بين الأقواس الأربعة على الحافة شاهدت النهر قرب قاعدة الجرف، وأمامي حلق شاهين في الفضاء يبحث عن فريسة، ومكث لوهلة دون ضربة جناح أو تغيير لموقعه.

" غير معقول، لا حول ولا قوة إلا بالله، وأين هو الآن؟ " لم

أسمع الخبر الذي دفع بخال أمي لإطلاق هذا الاستنكار بصوت مرتفع، ولم تصلني الإجابة التي حصل عليها، فعدت إلى الصالون متوجساً لأستطلع الأمر.

"الحمد لله أنه لم يمت من جراء الحادث، وأين هي الآن؟"

"أمي في بيت أهلها منذ يومين، لكن وضع الوالد صعب ولا يوجد ما يمكن عمله. سنرى ما سيصنع الله. فكرنا في نقله إلى قرطبة، لكن الطبيب قال إن الطريق طويل ووضعه لا يحتمل السفر، كما أن أطباء قرطبة لن يتمكنوا من إنقاذه". كان المتحدث شاباً في مقتبل العمر ولم يتجاوز العشرين، حليق الذقن ويجلس بدون غطاء رأس وبدا من ملامح وجهه كمن يحمل أعباء كل البشر على كاهله.

"إذاً حياته مسألة أيام، هل يمكن زيارته الآن؟"

"بل ربما ساعات، سأرى إن كان صالحاً". أجاب الشاب مجدداً على سؤال أبي إبراهيم وهو يغادر الصالون، بينما بقيت القوم سكوت لا تسمع منهم إلا بعض التآفف والترحم وذكر الله. نظرت إلى عيون مسعود وعبد الرحمن وعمران وأبي إبراهيم، ولكن أياً منهم لم يتبرع بتقديم تفسير، ربما ظنوا أنني سمعت كل الخبر وأنا في الشرفة، أم لا يريدون الحديث أمام الآخرين. عاد الشاب وطلب منا مرافقته، فنهضت مع رفاقي وسرت خلفهم عبر ممر ومن أمام ثلاثة أو أربعة أبواب حتى وصلنا إلى غرفة المريض. صافحه أبو إبراهيم باليد واكتفى الآخرون بالتحية اللفظية وتمنوا له السلامة. أشيب اللحية والشعر، وبدا أصغر سنّاً من خال أمي، ولكن في لون وجهه اختلط الأصفر والأسود وبهياً لمن يراه أن دمائه مُصت.

"لقد أخبرني أحمد بما حدث، إن شاء الله تقوم بالسلامة قريباً".

"أخبرك أحمد أيضاً أن أمه رفضت إعادة قضبي؟" هل سمعت فعلاً أن أم أحمد ترفض إعادة قضيب أبي أحمد؟ تنبّهت كل حواسي إذ لا بد من استيعاب الحدث دون شروحات من أحد.

"لم يخبرني بذلك، هناك أناس كثر في الصالون. إن شاء الله بكرة

ينمو قضيب جديد بدله، وما جدوى أن تعيده أو تحتفظ به". كان أبو إبراهيم يتحدث دون أن يظهر مشاعره بأن حياة الرجل على وشك الانطفاء.

"كيف ينمو مرة أخرى، لقد قصته من أساسه، ونزفت الكثير من الدماء. طالبها الطبيب بالجزء المقطوع على أمل أن يخيطة، ولكنها رفضت. وفتش الجند غرفتها قبل أن تغادر القصر ولكنهم لم يعثروا عليه. إشتربت أن أطلق الزوجة الجديدة قبل أن تعيده. قال لها القاضي إن الله حلل الزواج بأربعة، وليس لها أن تخالف أمره". بقي الجميع واجمين أمام هذه التطورات، وربما انتظاراً لبقية التفاصيل من الزوج الذي أتعبه الحديث. "قل لعمك أبي إبراهيم ماذا ردت أمك على القاضي".

"موقفها أن الله حلل وحرّم تعدد الزوجات في الوقت ذاته، لأن الآية اشتربت أن يعدل الزوج بين زوجاته، وأضافت الآية قول الله، ولن تعدلوا. أمي استنتجت أن ذلك معناه لا تتزوجوا على زوجاتكم. موقف أمي أيضاً أن الأسباب التي استدعت تشريع تعدد الزوجات لم تعد قائمة الآن". من الواضح أن أحمد من المؤيدين لأمه والمتألمين لكارثة والده.

"ولم تستطع يا بني تخليص قضيب أبيك من أمك لترحيحه نفسياً؟"
"هذه شؤون بينهم، وهي ترفض إعادته، والوالد يرفض طلاق زوجته الجديدة".

"كان لازم يا أبا أحمد الزواج، أم أحمد بنت ناس وأنجبت لك ثلاث بنين، ورعت بيتك على خير وجه، ولا ينقصها شيء. لماذا لم تستشرها وتأخذ موافقتها على الأقل؟"

"أخبرتها ورفضت، وخيرتها أن تختار هي ضررتها فأبت. وقبل دخلتي على العروس تظاهرت بالقبول وطلبت الجماع، ثم قصته. عليها اللعنة، سوف أشتكيها إلى الله قريباً، ما رأيك يا شيخ مسعود؟"

"أرى أن تتشاهد على روحك كل مرة عندما تنعس، فربما اختار الله ألا تصحو من النوم ليريحك من عذابك. أشكها يوم الحساب،

راوي قرطبة

ولكن سامحها الآن فربما استجاب الله لشكواك لاحقاً إذا أظهرت التسامح والستر على عائلتك الآن".

"أنت أيضاً يا مسعود من صفها، أستم أنتم الذين تزوجون الناس بأمر الله. هل تصرفها مخالف لربنا أم لا؟ لماذا تريد أن أسامحها؟"
"لأنك على وشك الموت، والمسامح كريم، وإذا طلبت من القاضي عدم مواصلة ملاحقتها فأنت تقصر عمر الفضيحة التي ستلحق باسمك...".

"إستغفر الله يا شيخ مسعود، دع الرجل في حاله ويكفيه ما هو فيه". كانت نبرات صوت أبي إبراهيم مليئة بالغضب وهو ينهر مسعود. تذكرت آلام الطهور، وتخيلت الفارق بين قطع الفلقة وقطع هذا العضو من وسطه، أو من أساسه حسب تعبير المتضرر.

"أحكم أنت بما تراه مناسباً يا أبا إبراهيم، وبلغ القاضي أنني متقبل لحكمك، وأنتم شهود". كان صوت أبي أحمد قد انخفض، وأخذ يلهث بحثاً عن الهواء، ثم غاب عن الوعي ولم يعد يتنفس.

"إذهب لأمك وأبلغها الأمان من الملاحقة، واستعد قضيب والدك لندفنه معه بعد أن نصلي عليه عصر اليوم". خرجنا كلنا من الغرفة وبقي الشيخ مسعود يتلو آيات من القرآن، وعم خبر الوفاة القصر والقلعة وكل مدينة ارقوس التي فقدت حاكمها بهذا الشكل الدرامي.

في تلك الليلة وصل رسول من العدو إلى القلعة في طريقه إلى قرطبة. عرف المُعزون في المآتم منه أن حسن بن قنون خسر الكثير من أصحابه إثر غارة شنّها عليهم القائد الأعلى غالب والوزير يحيى التجيبي. وكان غالب قد أغرى بالمال بعض أصحاب حسن فأبلغوه بمسيره، وساعدوا في قطع الطريق عليه. عندما اشتبك الطرفان تظاهر الجند بالانهزام واستدرجوا حسن ورفاقه إلى السهل حيث كمن لهم بقية الجند. دامت المعركة لمنتصف النهار وهرب حسن بنفسه تاركاً أصحابه الذين أنقذوا حياتهم بإعلان الطاعة للخليفة. لاحق الجندُ الفارين من جماعة حسن وحزوا من رؤوسهم مائة رأس، وتركوا ثلاثمائة قتيل دون حزم.

وصلت هذه الأخبار إلى ارقوس، وخرج عنها خبر أبي وأم أحمد، إذ كان من الضروري إبلاغ قرطبة بالأمر لتعيين حاكم بديل في القصر. حتى لا تصل القصة مُهولة ومُضخمة، خط أبو إبراهيم رسالة بالحدث، وأضاف فيها أن الفقيه طلب منه أمام شهود أن يعطي حكماً عشائرياً بدل حكم القاضي، وأنه رأى الحفاظ على تماسك العائلة ولملمة الأمر بإعفاء الفاعلة. وكتب أن أهل ارقوس سيختارون حاكماً ويرسلون به إلى قرطبة لتقبيل يد الخليفة.

مكثنا في ارقوس بقية اليوم وطوال نهار وليل اليوم التالي قبل الانطلاق إلى شذونه، وانتهزت الفرصة للتعرف على المدينة وآثارها الرومانية القديمة. درت حول المدينة فوق السور والأبواب الثلاثة، وتجولت في شوارعها المتدرجة التي لا يتسع بعضها لحمارين متقابلين، خصوصاً حمير بياعي الخضار والخبز التي تتمدد حملتها على جانبي الحيوان. السور من الحجر البني، ولا يختلف عن سور قرطبة شكلاً وتصميماً لكنه غير مستوي الأفق كونه يهبط ويرتفع مع طبيعة الجبل. البيوت بيضاء، ويظهر على القديم منها أنها شيدت من الطين أو الأحجار الصغيرة المتراسة. غالبية البيوت أقيمت من طابقين، وبعضها من ثلاثة أو لها عليات فوق الطابق الثاني، وبالطبع بها حوش داخلي على طرفه الدرج الموصل للطابق الأعلى. تجولت في الشوارع الضيقة مع بداية القيلولة، وبدون أي جهد في الإصغاء سمعت ما يدور في البيوت على طرفي الشارع. كانت الأصوات وروائح الأكل تخرج من النوافذ المشرعة طلباً لنسمات الهواء. في وسط المدينة وعلى مقربة من الجامع وجدت كنيسة وكنيساً، لكن النصرى واليهود سكنوا خليطاً بين المسلمين، ولم تكن لهم أحياء خاصة.

عجائز وصبايا

غادرنا ارقوس في صباح اليوم الأخير من عام 362 هجرية. سرنا دون تبادل للحديث على غير العادة، وذلك بالرغم من أننا سننام الليلة في بيوتنا، أو بالأحرى سينامون هم في بيوتهم. كانت الخيل تسير خلف البغال. فكرت في إخراج رفاقي من جو الكآبة دون جرح شعورهم أو الاستخفاف بالشأن الجلل الذي أصابهم وخصوصاً أبا إبراهيم الذي كان صديقاً للمرحوم. "أنا يا خال يكفيني آلام الطهور، إذا تزوجت، وهذا غير مؤكد الآن، فواحدة ستكفي تماماً". فجأة بدأنا نقهقه، ركلت الأغر بقدمي في خاصرته "سأراكم في شذونه". إنطلق الأغر كالعاصفة بعد أن كان قبل لحظة شبه نائم، وسمعت خال أمي يناشد عبد الرحمن: "إلحق بالمجنون أحسن يعملها ويركض طوال الوقت". يبدو أن الصياد كان يتمنى الهروب هو الآخر إذ جاورني بعد وهلة وسبقني وهو يحث أدهمه. فهم الأغر المطلوب منه دون أي ضغط إضافي مني، أحنيت قامتي وتمددت على ظهره. تجاوز الأغر ولم أعد أسمع لهات الأدهم وصيحات عبد الرحمن. قطعنا ثلاثة وديان وتوقفت في رابعها وتمشيت معه في الماء جيئةً وذهاباً، وحررته من السرج وانتهى مسحي لعرقه بحمام من ماء الواد. عندما وصلنا عبد الرحمن كنت أربط السرج تحت بطن الأغر وجسده يلمع ويتوقد نشاطاً.

"هل أنتما عفاريت، حصانك لا يبدو عليه التعب ولا يتصبب منه العرق". كانت عمه عبد الرحمن قد طارت عن رأسه، وحصانه حوله العرق من أسود إلى أبيض.

"لسنا عفاريت، ولا الأغر حصان، فهذا براق. نحن هنا منذ زمن،

اغتسلنا وشربنا، ومنتظرنا مع أدهمك. هل صدت شيئاً في الطريق أعاق سرعتك". لم ينطق عبد الرحمن، ولكنه تقدم من الأغر وتحسس ظهره وصدره، وهز رأسه.

"هل نحن في الطريق الصحيح أم أنك تتبعنا أثراً؟"

"إنه الطريق الصحيح، وقد قطعنا الآن ربعه. جولة أخرى مثل هذه ستضعك مع البراق خلف التل، ومن هناك ستشاهد شذونه كتاج على رأس الجبل. إحفظ الطريق جيداً ففي الأيام القادمة أريد مسابقتك جيئةً وذهاباً بين شذونه وارقوس". شعرت بالأسى في صوت الصياد، وأعجبت بأنه اعترف بالهزيمة ويريد التجربة مجدداً، فقررت التخفيف عنه مستعيناً بمعلومات أبي إبراهيم.

"سوف أسبقك مرة أخرى وثالثة وعاشرة. يمكنك أن تسبقني بحصانك هذا في المسافات القصيرة، ولكنني وحصاني أصغر سنًا وأخف وزناً، وسنفوز في أية مسابقة تطول عن ميل. لذلك لا تتوقع النصر، واحترس من العقد النفسية".

"يبدو أن معلوماتي عنك ناقصة بدرجة كارثية. قالوا لي إنك قرطبي ناعم تجيد الكتابة والقراءة. وظننت أنك لا تفهم في الخيل". كان يحادثني ويمسح العرق عن حصانه الذي استرد لونه الأسود تدريجياً، ولكن نفسه لم ينتظم تماماً بعد.

"معلوماتك ليست خطأ، ولكنني استفدت من الكتب الكثير من العلوم حول الخيل، وهذه ليست أول رحلة بعيدة لي. لقد سافرت مع عمي من قرطبة إلى مالقا، ونمنا ليلة واحدة في الطريق والتالية في منزلنا على الشاطيء".

"يومان وليلة؟ هل كنت على البراق؟"

"اليوم الأول خرجنا في الضحى، واليوم الثاني أكرمنا صاحب الفندق في الإفطار وخرجنا متأخرين ووصلنا قبل المغيب. لو كان الأغر معي في تلك الرحلة لوصلنا في فترة أقل. تبادلنا مع عمي ركوب

راوي قرطبة

طهبوب والشهباء. إذا جاء عمي لزيارتي في شذونه سأعرفك إليه". قبل إنهاء كلماتي الأخيرة لاحظت عيون عبد الرحمن مسلطة بعيداً.

"إستدر ببطء وسترى على يمين النهر ثلاثة ديوك حمراء، واحدة منها تشبعنا طوال اليوم". لم أشاهد مثل هذه الطيور الضخمة حتى الآن ولا حتى في حديقة حيوان الزهراء. سيقانها طويلة ولا أفخاذ لها مثل الطيور الأخرى. جسمها كالسفينة المرتكزة على عمودي خشب. رقبتها مثل الأوز ولكنها جرداء من الريش، ورأسها أشبه بالحدأة. ريش البطن أبيض، والصدر والظهر أحمر بخطوط سوداء، ولها ذيل تفتحه مثل الطاووس ولكن ريشه أقصر.

"تبدو حذرة وعيونها قوية ورقابها عالية، إذا كانت تطير سيصعب الاقتراب منها".

"إنها تطير بسهولة وأناقة، ولكنها هدف كبير للسهم على الأرض أو في الجو. إسحب حصانك واقطع الواد واتجه به لليمين ثم اهجم عليها من الخلف لتهرب باتجاهي". سار الأغر خلفي بهدوء وتحرك عبد الرحمن ببطء شديد في تجهيز قوسه وأسهمه، وأبقى حصانه يفصله عن الطيور. على الضفة الأخرى ركبت الأغر وأسرعت لليمين، وعندما قدرت أنني تجاوزت موقع الطيور عدت للواد وقطعت الماء وتحركت بشكل طبيعي على أمل الاقتراب منها لأقرب مسافة لتأملها قبل أن تطير. يبدو أن لونها أزعج الأغر الذي سهل، فركضت به تجاهها. قبل أن تمر من فوق عبد الرحمن كان قد أطلق سهمين عليها، فأسقط واحداً منها ونجا الآخران. نزلت عن الأغر وحملت الضحية متجنباً منقاره. وزنه يعادل وزن جدي متوسط الحجم، وقال عبد الرحمن وهو يذبحه إنها تعشش في حفر على الأرض، وترقد إناثها على بيضتين أو ثلاث. حفرت حسب طلبه حفرة لوضع الريش وأمعاء الطير فيها. عندما لحق بنا بقية الرفاق كان الطير جاهزاً للشواء في أي وقت حيثما نقرر الاستراحة. شربت دوابهم، واستلم خليل الصيد، وواصلنا الطريق سوياً.

"سمعت من أخوالك أنك صديق لأميرنا هشام، هل تعتقد أنه

سيكون خليفة جيداً؟" نظرت مثل الآخرين إلى الشيخ مسعود بالكثير من الاستغراب لهذا السؤال الذي جاء بدون مقدمات. نفص أبو إبراهيم رأسه مستهجنًا قول الشيخ، واكتفى عبد الرحمن بالتبسم، بينما أسرع عمران بالرد: "لن تتغير طوال حياتك، ستبقى هكذا تلقي الأسئلة عما يدور في ذهنك دون حذر. في يوم ما سيلقي بك لسانك إلى السجن أو القبر".

"لكن خال سليمان قال إنه صديق للأمير، وبالتالي أريد رأيه في الخليفة القادم".

"ومن قال لك إن هشام هو الخليفة القادم، وكيف يحكم سليمان أو غيره على فتى تحت العاشرة لم تتكون شخصيته بعد". رد مسعود على أبي إبراهيم بأن شيوخ قرطبة وغيرهم يتحدثون عن هشام كوريث أبيه رغم أنه لم يأخذ له بيعة للآن، وقال إن قرطبة مليئة بالأخبار حول سوء تفاهم قائم بين الحكم ومعظم إخوته العشرة ولا يحضر الرسميات في القصر سوى ثلاثة منهم. هذه المعلومات استفزت عمران الذي سأل بشيء من الاستهزاء والاستنكار:

"من أين جئت بتلك الأخبار يا شيخ، لقد كنا معك ولم نسمع شيئاً؟"

"لقد افترقنا كثيراً في قرطبة، وتجولت على المساجد وزرت المعارف، ومعلوماتي صحيحة، وليكن في علمك أن الصقلابة وزوجة الخليفة يمهدون لإقناع الحكم بأخذ البيعة لهشام قريباً".

"إسمعوا جميعاً" قال أبو إبراهيم وقد أوقف حصانه وتوقفنا معه "أي واحد يتحدث في هذا الشأن من قريب أو بعيد في شذونه سأضعه في السجن فوراً. لا أريد تلميحاً أو تصريحاً في الموضوع، ولا حتى إشارة لعلاقة بين سليمان وهشام. موضوع الخلافة شأن أموي وهم أعلم بما يفعلون، وكل حادث له حديث يا شيخ، الأعمار بيد الله".

"ولكن كل الخلفاء الأمويين يموتون في سن مبكرة، والأمر قائم".

"لا حول ولا قوة إلا بالله، يبدو أن الشيخ قد شرب النبيذ على الإفطار، لقد صاد لك سليمان ديكاً سيعيد عقلك بعد الغداء". خفف

تدخل عبد الرحمن الجو وسكت الشيخ عن المناكفة، ورأيت أن أجيب على سؤاله الأول بعد أن حركت أطروحته وخزات في ذهني.

"الأمير هشام إنسان طيب جداً، وذكي، ويتلقى التعليم والعناية بشكل مكثف. إذا تواصل ذلك لسنوات قادمة، إن شاء الله، فسيكون خليفة جيداً مثل جده وأبيه".

"أنا جاهدت إلى جانب جده، وعمران وعبد الرحمن جاهداً إلى جانب أبيه، وأنت وجيلك سوف تجاهدون إن شاء الله معه، وسنعطيك في شذونه كل ما نعرف من الفنون لتحافظ على مركزنا بين الأجناد. لكن دعونا ننهي هذا الموضوع حتى يأمر الله بغير ذلك. دعونا نتذوق هذا الديك فاتحة صيد سليمان".

"لم أصده، أنزله عبد الرحمن بسهم من السماء". نقلت الحديث بعد توقفنا على ضفة واد القاسين إلى ورثة المرحوم أبي أحمد "هل ستأخذ الزوجة الجديدة نصيبها من ورثة المرحوم؟" تنهد خال أمي وبدا أنه لا يفضل الحديث في ذلك الموضوع أيضاً.

"الزواج لم يستكمل بالنكاح، ولهذا لازالت كما هي، ولا ورثة لها. ما أصاب العائلة كارثة حقيقية، فإلى جانب الموت جاءت الفضيحة، وحُرم أي من أبنائه الآن من أخذ موقع أبيهم، وسيكون عليهم مغادرة القصر قريباً، وربما هربوا من كلام الناس وغيروا البلد. كل جهاده وجهوده ضاعت هباء بسبب نزوة. لعن الله الشيطان".

"نعم لعن الله الشيطان الرجيم" قال مسعود وهو يتوضأ على حافة الواد وواصل "الشيطان يطغى على العاقل في نزوة لحظة عابرة، ولكن أبا أحمد سار في مخطط طويل رغم رفض زوجته ونصح أصدقائه، هذه ليست نزوة، ولا علاقة للشيطان بها".

"هل أتلصص خلفه وأدفعه في الماء ليبرد عقله؟" رد أبو إبراهيم على همس عمران هذا بأن الشيخ على بعض الحق في كلامه، وأن المزعج هو أسلوبه في الحديث. "دعه يأخذ راحته الآن، سأدبر له شغلة

بال مع زوجته تنسيه كل ما سمعه في قرطبة وشاهده في الطريق".
وعندما ارتفعت الضحكات استدار الشيخ ليسألهم عما يدبرون.

قررنا المسير ببطء دون استراحة، وبعد وهلة شاهدنا شذونه على قمة مرتفع، ويتضح لي كلما اقتربنا أنها تشبه ارقوس. حدودها الشمالية التي تواجهنا مسورة وقائمة على حافة جرف حاد، وظهرت قلعته على الطرف الشمالي الشرقي وقال أبو إبراهيم إنها تضم قصراً، تماماً كما هو حال ارقوس. الطريق إليها يجاري النهر، ولكن الماء لا يحيط بها من ثلاث جهات، كما رأيت لاحقاً. بعد العصر ثارت زوبعة من الرمل في المدينة وتحركت شمالاً. لاحظ أبو إبراهيم محاولاتي التدقيق فيما يجري، "ما تراه هم قرابيك المجانين، ركبوا الخيل وهجموا علينا للاستقبال، يريدون أية حجة للاحتفال. بعد قليل سيصلون ويغبرونا". وصلتنا الزوبعة وكان بعضهم بالفعل شاهرين سيوفهم وداروا حولنا واستقروا خلفنا يرددون الأهازيج والأغاني دون أن ينزل أي منا ومنهم عن حصانه. وصلنا إلى بوابة الشمس قبل الغروب، أو بوابة قرطبة، فكل شيء هنا له اسمان على الأقل. ما كدنا نجتاز البوابة المشرعة في استقبالنا حتى انطلقت الزغاريد والتهليل والترحاب من النساء، إذ تجمع بقية أقارب كل من رفاقي، في انتظاره وشارك معهم بقية أهل البلد الذين سمعوا بالخبر منذ وهلة، وبالتأكيد تابعونا بعيونهم في الطريق منذ ساعات.

ترجلنا في الساحة وجاء دور التقييل، ثلاث قبالات على كل خد من كل واحد، مع ضم للصدر، وإمساك بالرأس منعاً للهروب. عملية لا نهاية لها ولم يحذرني رفاقي في الرحلة مما كان ينتظرنني. أثناء التقييل كان الرجال يقفون صفوفاً ونحن نسلم ونقبل ونتقدم ونتبادل الترحاب. كان صف النساء والصبايا خلف الرجال، وعندما انتهينا من الرجال دخلت لوحدي للصف النسوي، وأسمعهن أبو إبراهيم "هذا سليمان بن أمية". أزعجني أن ينسبني لأمي، ولكنني تفهمت أنه يريد تعريفهن بي لمعرفتهن بأمي. انتهزت العجائز الفرصة للسؤال عن أمي وتقييلي بين

الكلمات دون أن يكتفين بثلاث قبلات لكل خد. كلما ساعدني الحظ وأمسكت بصبيبة في الطابور فلم أتركها قبل أن تلتهب خدودها أو تسحبني عجوز أخرى عنها. تحول الطابور إلى دائرة وتسربت الصبايا للخلف وبقيت محاصراً بين الأخريات من العجائز والأمهات اللواتي حملن أطفالهن على خواصرهن. "كيف حال أمك؟" "كم أخ لك؟" "كم عمرك؟" بل إن واحدة سألتني إذا كان عمي عيسى قد تزوج. قدمت إجابات كاملة، وتفحصت الوجوه بحثاً عن أوصاف أمي لبعضهن ولمن وجب علي الحذر منهن. تقدمت صبية عرفتني على نفسها كحفيدة لأبي إبراهيم وقالت إنه سألها إنقاذي والذهاب معي للبيت. سرت إلى جانبها مزهواً ومططت جسدي قدر المستطاع، ولكنني لم أصل بقامتي إلى كتفها. كل شيء فيها ذكرني بمريم زوجة عمي، كانت غاية في الجمال، ممتلئة الجسد، ممتشقة القوام، كل شيء فيها بحجم مناسب. اختلفت عن مريم بشعر أسود وبعيون سوداء ورموش طويلة.

"كم سنة عمرك يا سليمان؟"

"عشرة، وقريباً إحدى عشرة" ظننت انه لا بأس من المبالغة.

"أنا عمري ثماني عشرة سنة، يعني قدك مرتين، إسمي زهرة". بدا من نبرتها أنها فهمت نظراتي التقليدية المتفحصة بشكل غير ما قصدته، أو أنها حساسة قليلاً.

"هل شاهدت حصاني الأغر، لقد انفصلت عنه في الزحمة".

"خليل ساقه إلى الإسطبل، لا تقلق، ستجد حاجاتك في البيت".

"إذهبي أنت للبيت أو أينما أردت، سأتجول في المدينة وأحضر بعد صلاة العشاء". قررت أن أضعها في مكانها وأفشل مهمتها أمام جدها حتى يعرف أنها أساءت التصرف.

"لكنك جديد ولا تعرف البلد والبيت".

"شذونه لن تكون أكبر من شارع في قرطبة، وأنا يمكنني الذهاب للقمر في الليل والعودة لوحدي، توكلني أنت على الله". كنا أثناء الحديث قد صعدا في شارع أوصلنا للساحة المقابلة للجامع. شاهدت

أسوار القلعة خلف الجامع، وهذا معناه أن القصر هناك وأنا الآن في الجزء الشرقي من المدينة. قبل أن تكمل زهرة سؤال إذا كنت متأكداً مما أفعل، كنت قد انحدرت إلى باب بيت لحم في السور، واستعدت شروحات أمي. تركت البوابة والسور على يساري ومشيت حتى الباب الجنوبي، باب الجزيرة، فأعطيته ظهري وسرت شمالاً وانحدرت لليسار في أول تقاطع، ووقفت أمام ثاني بيت. هذا هو بيت أمي وأخوالي. أخرجت المفتاح المعلق في رقبتي وترددت وهلة في دخول البيت. فكرت أن في ذلك إهانة لأبي إبراهيم كوني حضرت هنا أولاً بدلاً الدخول في ضيافته. قررت دخول البيت ولكن لفترة قصيرة ودون الجلوس فيه. كان مغيب الشمس قد اكتمل، ولكنني تمكنت من رؤية ساحة البيت نظيفة بيضاء واسعة ترتص حولها أحواض الزهور المليئة بالطين وبقايا الأعشاب الميتة من العطش. على يمين الساحة وجد درج من البلاط المزخرف يوصل إلى الطابق الثاني، ويواصل الصعود إلى العلية فوق الطابق الثاني. على يمين السلم يوجد ممر يوصل إلى الحديقة الخلفية، وفي هذا الممر يوجد المدخل السري لتحت الأرض، حيث كانت تختبئ أمي حين يزعلها أحدهم ولا تريد أن يعرفوا مكانها. كانوا يظنون أنها تخرج من المدينة، بينما هي تحت البيت في بقايا من العالم الروماني السفلي عمره أكثر من ألف سنة، ولم يخلُ المكان من قطع أثرية ونقود رومانية، ولكن أمي لم تفسر السر لأحد إلا لإبنتها. لا وقت لتفحص البيت أو المخبأ الآن، علي المغادرة قبل اقتحام الجيران للبيت وإصرارهم القيام بواجبات الضيافة.

اتجهت للشمال الغربي حتى بوابة نبع الماء المالح واستدرت لليمين لأقطع المدينة من وسطها باتجاه الجامع والقلعة. التقيت أبا إبراهيم في المسجد، وفرح مسعود كثيراً حين شاهدني في الصف الأول. بعد الصلاة سألتني خال أمي إذا كانت زهرة أزعلتني.

"البنات يكن ذكيات حتى الثانية عشرة، ثم يتناقص الذكاء لصالح الغرور حتى يتزوجن ويتحولن إلى إنسان طيب. أليس كذلك؟" ضحك

العجوز وقال إنها ربما غارت لأنني قبلت كل صبايا البلد وتركتها دون قبلة، ثم سكتنا لأن مسعود حضر وجلس معنا. "في خطبة الجمعة القادمة سأرحب بك رسمياً وأعرف الجميع بوجودك معنا. لا تنسَ الحضور للصلاة، ولا تكن مثل عمران وعبد الرحمن الذين لا أراهم إلا في رمضان والأعياد". "سليمان سيشارك في بعض الدروس التي لم يتلقها في قرطبة، وهكذا ستراه باستمرار في الجامع. معظم وقته سيكون في القلعة لتعلم الفروسية وفنون القتال".

"سأفضي بعض الوقت في بيتنا، فالحديقة بحاجة لعناية". رأيتها فرصة لإبلاغهم الآن أنني مررت هناك، وأني مستقل في شؤوني الخاصة إذا تطلب الأمر. إستاؤنا من مسعود وخرجنا من الجامع إلى الساحة واستدردنا على درجات صاعدة خلفه إلى القلعة ثم إلى القصر حيث يسكن خال أمي مع عائلته. طوال الوقت واصل أبو إبراهيم، منذ نهاية الصلاة، رد التحيات ومصافحة الناس في الساحة وعلى الدرجات. لأول مرة استنتجت أن الرجل هو حاكم البلد، واستصغرت عقلي أنني لم أتوصل لهذه النتيجة قبل ذلك، ولكنني استغربت أن أحداً في قرطبة لم يخبرني بالأمر. لم أرَ زهرة في تلك الليلة، وكنت متعباً إلى درجة الاكتفاء بالسؤال عن الأغر وقررت زيارته في الصباح الباكر.

صحوت متأخراً وقادتني أذني وأنفي إلى صالة الطعام لأواجه حوالى عشرة أشخاص من أهل البيت وعماله. عاجلتني زهرة بلذع لسانها "صباح الخير، تأخرت في العودة من القمر على ما يبدو". لم يفهم الحضور شيء من قصدها. "صباح الخير على الجميع، صباح الخير يا شوكة، قصدي يا زهرة".

"يبدو لسانه أطول من لسانك يا زهرة، صباح الخير، أنا عبد الرؤوف، وهذا سامح وهذه لبنى، آخر العنقود. وهذا أبي، وأنت تعرف جدي". كان المتحدث أصغر من زهرة، وهو أكبر أولاد إبراهيم، وواصل التعريف إثر دخول أمه حاملة الحليب. "وهذه أم عبد الرؤوف، بنت عم أمك مباشرة".

"الدنيا أول الشهر وأول السنة، ولا يوجد قمر الآن، عمّ تتحدثون؟" كان إبراهيم يوجه السؤال إلى ابنته الكبرى. "بالأمس بدل أن يحضر سليمان معي للبيت، قال إنه سيسافر للقمر ويعود في الليل". سكت أبوها في محاولة لتقييم الأمر، ولم ينطق جدها بشيء قناعة منه بقدرتي على الرد، وأنصت أخوها وأختها الصغرى لتدخل بنت عم أمي مدافعة: "الآن جاء دور سليمان لتتفششي فيه". قررت الرد فوراً وإلا سأصبح الحلقة الضعيفة بينهم لأنني في سن أصغرهم، واسترجعت فوراً أبيات من الهجاء فكرت فيها بالأمس بعد اللقاء مع بنت ابن خال أمي، وهي أيضاً بنت بنت عم أمي.

أسموك زهرة والزهر يُثمر

وما تُرينه شوك يُدمر

قدّ وحسنٌ ودوم توتر

ما تحتاجينه زوج مُكهن

ليست بجودة أشعار ابن شداد طبعاً، ولكنها أول أبياتي، وجاءت في الهجاء، وخرجت فورية وجارحة وأخرجت زهرة من الصالة بين ضحكات الآخرين. ألحقتها أمها تعليق "من يلاعب القط يصير على خراميشه". وسأل أبوها جدها "ما هذا الذي أحضرته معك من قرطبة يا أبا إبراهيم؟"

قضيت منتصف اليوم متجولاً مع الأغر خارج سور المدينة حتى يتعرف على المنطقة ولا يخلد للهدوء بعد طول المسير اليومي الأسبوع الماضي. بعد الظهر تفقدت بيت أهل والدتي ووجدت جنائني يعيد للحديقة حيويتها وامرأة تنظف البيت حسب تعليمات من أبي إبراهيم. في المساء أقيمت أولى حفلات الطعام ترحيباً بي، واستمرت الحفلات شبه يومية لأكثر من أسبوعين تناوب فيها الدعوة أبناء أبي إبراهيم علي وجمال، وزوج ابنته مها، وأبناء عم والدتي أحمد ومنصور وحمدان، وهم إخوة صبحية زوجة إبراهيم. كل واحد من أولئك لديه أربعة أو خمسة أولاد وبنات أكبرهم في عمري وأصغرهم يرضع. الواضح أن كل

راوي قرطبة

عرب شذونه أقارب في الدم مباشرة أو بالنسب، ولأنني في ضيافة أبي إبراهيم، ومن يمنية قرطبة أصبحت الولايم بدون نهاية، ولم يكن أمر رفضها أو قبولها بيدي، فأنا في هذه الحالة تحت تصرف مضيبي الأول. لكن الأصول تحتم أن أعرف كل من دعاني لأرد له الدعوة ذات يوم عندما تحين مناسبة تخصه. من الخطأ قول إن الدعوات كانت لي، الأصح أنها لمئات الأشخاص ولكن على شرفي، وفي نهاية كل دعوة تبدأ مناورات الفوز بالدعوة القادمة، واسترضاء من يتحولون تدريجياً إلى آخر الدور.

أصول الفروسية

أصبح منامي في البرج الجنوب شرقي في القلعة، وأحياناً كنت أبيت في علية بيتنا. من المقرين كان المنظر امامي يمتد جنوباً حتى برباط ومدينة الجزيرة على البحر، وغرباً حتى مدينة وخليج قادم على المحيط، وشرقاً على السهول المتصلة بجبال رونده. من أعلى البرج كنت أشاهد أيضاً النهر والسهل يتمددان حتى ارقوس. في الليالي الأولى من الشهر أذهلني كثافة النجوم وبريقها في السماء، ومع استدارة القمر حُبي الكثير من النجوم. جو شذونه، في منتصف محرم 363 الموافق بداية الأسبوع الأخير من أكتوبر 973 الشمسي، كان حاراً نهاراً، بارداً وكثير الريح ليلاً، وقيل لي إنه أشبه بمناخ الصحراء رغم أن الماء والأعشاب تغطي وجه الأرض هنا. مع كل يوم أصبحت الأمطار تتزايد نوباتها وغزارتها.

دروسي النظرية دارت حول كل ما يتعلق بالفروسية من تاريخ وتشريع ونصوص، وطرق وفنون تطبيق بنودها المتشعبة. الدراسة العملية اشتملت التدريب والتدرج في تنفيذ استعمال الأسلحة وفنون ركوب الخيل، وأيضاً أساليب الصيد والحياة في الظروف الصعبة دون ماء أو طعام. كنا عشرة فتيان متقاربي العمر، خمسة من شذونه وإثنان من الجزيرة وإثنان آخران من إشبيلية. عبد الرحمن تولى مهمة تعليمنا الصيد والصمود في ظروف صعبة، الشيخ مسعود اختص في شرح تاريخ وتشريع الفروسية رابطاً كل شيء بالرسول والصحابة والقرآن الكريم. استعمال السيف والرمي بالنشاب تولاه العاصي، وركوب الخيل والقتال من على ظهورها أخذه العاطي، وهو مثل العاصي من جند القلعة تحت

راوي قرطبة

إشراف عمران مباشرة. في الأسابيع الأولى تولانا أيضاً صاعد بن إبراهيم، وعمره حوالي خمس عشرة سنة، أي نصف سنوات عمر بقية المعلمين، وكانت مهمته إرشادنا للعناية بعضلات الجسد المطلوب تنميتها لتساعد في استعمال الأسلحة وركوب الخيل.

أخبرنا أنه سيتفحصنا كل أسبوعين ليرى التقدم المفترض أن تحدثه مواظبتنا على التمارين التي لقننا إياها. كان البرنامج متعباً جداً إذ يبدأ يومنا بعد صلاة الفجر، وأحياناً لا ينتهي بعد صلاة العشاء إذا تطلب الأمر تطبيقات ليلية.

مع بداية السنة الشمسية الجديدة 974 كانت الملاحظات التي واظبت على تسجيلها كل مساء قد ملأت مائة صفحة وتحتاج لإعادة تفصيل وشروحات ليفهم الآخرون معانيها ومحتوياتها وأهدافها. في إيجاز بعض بنود الفروسية يمكن القول إن أحد فوائد تعلمها هو دفع الهم والغم عن القلب، ويستشهد مسعود في ذلك بآية التوبة: "قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم".

الفروسية ليست قتالاً بالسيف فقط، بل إن السيف شقيق الحجة، فالفروسية الحققة فروسيتان، فروسية العلم والبيان، وفروسية الرمي والطعان. ولأن الرسول وأصحابه هم أكمل الخلق في الفروسيتين، فإنهم فتحوا القلوب بالحجة والبرهان، وفتحوا البلاد بالسيف والسنان. وقد أمر الله سبحانه وتعالى رسوله بجدال الكفار والمنافقين وجلاد أعدائه المشاقيق والمحاربين، فعلم الجدال والجلاد من أهم العلوم وأنفعها للعباد في المعاش والمعاد، ولا يعدل مداد العلماء إلا دم الشهداء. الرفعة وعلو المنزلة في الدارين إنما هي لهاتين الطائفتين، وسائر الناس رعية لهما منقادون لرؤسائهما.

من شروحات مسعود سجلت أيضاً أن الفروسية في خدمة الجهاد الذي هو ثلاثة أقسام، أولها جهاد الدفع وهو الأصعب، ولهذا قال الرسول من قُتل دون ماله فهو شهيد ومن قُتل دون دمه فهو شهيد.

وثانيها جهاد الطلب الخالص وهو الذي لا يرغب فيه إلا أحد رجلين، إما عظيم الإيمان يقاتل لإعلاء كلمة الله، أو الرجل الراغب في المغنم والمكسب. القسم الثالث هو جهاد يكون فيه الرجل طالباً مطلوباً، وهذا يقصده خيار الناس لإعلاء الدين، ويقصده أوساط الناس للدفع ولمحبة الظفر. جهاد الدفع يقصده كل أحد ولا يتخلى عنه إلا الجبان، وهو أعم وجوباً ويجاهد فيه العبد بدون إذن من سيده والولد بدون إذن أبويه.

في تعريف الفروسية أيضاً تعلمنا أنها نوعان، أكملها لمن يملك الإيمان والشجاعة، والثاني هو نوع مشترك بين الرجال الشجعان بعد تعلم فنونه التي أخذت عن النبي وأفعاله. فقد ثبت أنه، عليه الصلاة والسلام، طعن بالرمح، وركب الخيل مسرجة ومعراة، وتقلد سيفاً. الفروسية تتجلى في أربعة مجالات، أحدها ركوب الخيل والكر والفر بها، الثاني الرمي بالقوس، الثالث المطاعنة بالرمح، الرابع المداورة بالسيوف، فمن استكملها استكمل الفروسية. لم تجتمع هذه الخصال الأربع على الكمال إلا لغزاة الإسلام وفوارس الدين، وهم الصحابة رضي الله عنهم، ويضاف إلى فروسيتهم الخيلية فروسية الإيمان واليقين والتنافس في الشهادة وبذل نفوسهم في محبة الله ومرضاته.

بند الرمي لوحده يتوزع إلى عشرين فصلاً يجب تعلمها، ويقال إن الرمي هو أفضل ما أوصى به الرسول. أصول الرمي تتكون من خمس عشرة خصلة تبدأ بالقبض على القوس حتى التعرف على أسباب عدم الإصابة وحركة السهم في الطريق للهدف وتصحيح كل الأخطاء، وسبب الاحتراز أثناء الرمي، وبالطبع بنود في تصنيع القوس والسهم. بل هناك باب في آداب الرمي، مثل الوصول طاهراً والصلاة قبل الرمي والدعوة بالتسديد، أي أن الأمر أبعد ما يكون عن اللعب واللهو. الآداب والتعلم على الرمي تحسب ضمن بند العامل الإنساني المتعلق بالرامي، ولكن هناك تسعة بنود أخرى تتعلق بمعدات الرمي وجودة صنعها حتى يصاب الهدف، وكل بند له خصال متعددة يجب مراعاتها بدقة، حسب تعليمات العاصي، الذي كان يؤكد أن وضع الفم أثناء الرمي له علاقة بدرجة

راوي قرطبة

الإصابة. وأطلعنا العاصي على العشرين سرّاً لإتقان الرماية، وقوفاً وجلساً ومن على ظهور الخيل، والإثنتي عشرة علة التي يمكن أن تصيب القوس والسهم وطرق التعرف عليها وعلاجها. أشرف العاصي على تعليمنا فنون الفروسية الأخرى وهي المطاعنة بالرماح والمداورة بالسيوف، بينما تعلمت من العاطي طرقاً جديدة لركوب الخيل مسروجة وعارية.

في أقل من أربعة أشهر أصبح الأغر يراوغ راکضاً إلى أي من الجانبين، وإلى الخلف، ويتحايّل على المهاجم فيقفز في اللحظة الأخيرة إلى الجانب الآخر ليذهب المهاجم إلى الفراغ، سواء أكان ذلك المهاجم خيلاً أو ذئباً أو راجلاً. تدريباً أصبح بمقدوري غرس الرمح من على ظهر الأغر في أية بطيخة تتدحرج على الأرض، أو التعلق على أحد جانبيه لخطف أي شيء عن الأرض بينما الأغر يركض بأقصى سرعته.

مع عبد الرحمن كنا نتعلم بسرعة وسهولة، طرق الصيد للحيوانات والطيور والأسماك، والتعرف على الحشرات والنباتات البرية التي تؤكل عند الضرورة والأخرى السامة الواجب تجنبها. أشعلنا النيران بقدر الحجارة ببعضها وبفرك الخشب مع الخشب، وشوينا وأكلنا النمل والنحل والسحالي بأنواعها والشعابين. تعلمنا العثور على الماء في كل الظروف والأماكن ليلاً ونهاراً، وكيف ننام بأمان في البراري، ماذا نحمل معنا في كل الظروف لتسهيل أوضاع الطوارئ. تسلقنا الجبال وبتنا في كهوف وصنعنا بيوتاً من الطين والعشب والأخشاب. لاستعمال الأنهار في التنقل أقمنا طوافات وأشرعة، وألممنا بأساليب معالجة الجروح وفوائد بعض الأعشاب البرية.

طوال إقامتي في شدونه تواصلت بريدياً مع أهلي في قرطبة. كتب والدي لي أنه نسخ الكثير من مؤلفات الطبيب الزهراوي التي تلقى الإقبال في العالمين الإسلامي والمسيحي. وفي رسالة لاحقة شرح والدي أن أبا الفضل وزوجته حضرا لقرطبة، وأن الرجل اقتنع من زيارات

للمختصين باحتمال أن يكون هو سبب عدم الإنجاب وليس بالضرورة الزوجات، وأنه تبنى صبياً يتيماً من قرطبة، واشترى طفلة من السبايا وعاد إلى انتيقيره بعائلة ناضجة متكاملة. أبلغت أن جارنا السادس، ابن عمران، التقى جريبر وأحضر منه رسالة طويلة تفيد بصحة ما هو متداول حول البابوية، بل أضاف أن أحد أشرف الرومان سجن البابا بندكت السادس ثم خنقه نهاية العام الماضي في السجن، ونصب نفسه شهراً من الزمان بابا وجمع كنوز البابوية وهرب بها من روما إلى القسطنطينية، وهناك الآن في روما بابا جديد يلقب بندكت السابع.

لم أكن بحاجة لأخبار غير عائلية من قرطبة لأن الحدث الأهم طوال نصف العام الأول على إقامتي في شذونه كان الحرب في العدو، وكنا هنا على معرفة بالرسائل والأخبار المتبادلة بين الطرفين. كل أسبوع تمر بنا رسائل وأخبار في أحد الاتجاهين، أو نشاهد زواراً من العدو في طريقهم لقرطبة لأخذ العطايا من الخليفة على جهودهم في الحرب، أو ثمن الغدر بجماعة ابن قنون، وقد مرت بنا دوماً رؤوس مقطوعة حُملت إلى قرطبة. القائد غالب صلب بعض رفاق ابن قنون، استسلم ابنه وأخته ودخلا في الطاعة ثم تبعهما حسن ذاته مستسلماً بعد أن تبقى معه أقل من خمسمائة مناصر، فأعطي الأمان في منتصف العام، وبدأ يستعد للسفر إلى قرطبة لتقديم الطاعة للخليفة. عرفت من رجال البريد أيضاً أن الأمير هشام أصيب بالجدرى وأن الخليفة تخوف عليه وأخذ يوزع النفقات والصدقات تدرعاً لكشف ضرائه، ووزع المزيد منها بعد شفاء الأمير. في شهر رجب مرت بشذونه قافلة إلى الجزيرة تضم جملة من البغال المحملة بالأموال والحلي والكسوات، ورافقها مولى الخليفة، دري الذي أهدى سابقاً منية الرمان للخليفة، وهو الآن من وكلاء دار الخيل. كانت الأموال للجند، والهدايا لزعماء القبائل الذين وصلوا الجزيرة في طريقهم لقرطبة بعد أن استسلم حسن بن قنون.

في تلك الأيام ساد بعض القلق في شذونه، وكثرت اللقاءات بين السكان وأبي إبراهيم بعد صلوات العشاء، وسمعتهم يتحدثون عن الجند

والبربر الذين سينطلقون قريباً إلى قرطبة، وأنهم سيأكلون في طريقهم الأخضر واليابس، كالجراد. حسبت في ذهني أن كل عشرة رجال يحتاجون إلى جدي أو غنمة إلى جانب الخبز والرز ومتطلبات صنع أسهل الأطعمة. كل مائة رجل سيحتاجون عشرة، والألف سيلتهمون مائة جدي، ويوجد في العدو عشرة آلاف جندي أندلسي، والله وحده يعلم كم من أهل العدو سيرافقونهم إلى قرطبة في الشهور القادمة. كلهم سيمرون ويبيتون ليلة على الأقل في شذونه، وهذا سيضر بمعيشة أهلها. تشاورت مع عبد الرحمن، ووافقني على خطة عرضناها سوياً على أبي إبراهيم، الذي أكد أنهم لن يدفعوا كلفة الطعام سلفاً حسب ما سمع من دري، وحسب معرفته بأن الأموال التي لن تدفع للجند والأعوان سيتم إخفاؤها من المؤتمنين عليها.

"ما هي الخيارات إذا كنت متأكداً أنهم لن يدفعوا؟"

"أن تؤخذ الأطعمة من الناس كل حسب طاقته، وهذا معناه أن أصحاب القطعان سيبيعونها الآن قبل وصول الجراد، وسيتخوفون مستقبلاً من تربية المواشي. يمكن طبعاً شراء المواشي منهم ودفع ثمنها من نصيب قرطبة السنوي من الإنتاج، وهذا سيسبب لنا مشاكل ويحط من قيمة شذونه. لا يوجد لدينا خيار أن نرفض إطعامهم". بدا من إجابة أبي إبراهيم على سؤال عبد الرحمن أنه حسب الأمور من كل جوانبها.

"ربما كان في فكرة سليمان مخرجاً. اقتراحه هو جمع البغال كبيرة السن في مزرعة جماعية، وإطعامها للجند كلما مروا هنا وكأنها وعول وغزلان تم صيدها. سليمان ورفاقه من فرسان المستقبل، بمساعدة شخصين أو ثلاثة، سيتولون الذبح والسلخ وتقطيع اللحم وإيصالها بدون عظام للبلد لتطبخ طويلاً قبل تقديمها للجند. عظامها وبقاياها سيدفنها الشباب في المزرعة، وسيبقى الأمر سراً".

"وإذا عرفوا من طعم اللحوم أننا نضيفهم على بغال ستكون فضيحتنا طامة".

"إنهم يأكلون معظم الوقت لحوم الجمال، وجندنا لن يميزوا لحم

البغال عن الوعلان والغزلان الهرمة، وكل من يستنتج غير ذلك سيكون من الذكاء ليعرف أنهم لم يدفعوا ثمن الأكل وأن الأموال تذهب في الطريق الخطأ". لم يرفض أبو إبراهيم الفكرة، وأثنى علي، وطلب من عبد الرحمن إحصاء البغال الهرمة في البلد وجمعها من أصحابها بقليل من النقود لإطلاقها في مراعي المدينة.

"إذا عاد القائد غالب مع الفوج الأول من الجند سأقنعه بتخصيص أموال بدل الأطمعة، وهذا سيفيد أهل البلد في بيع مواشيهم، وإذا لم يحضر غالب معهم، أو تأكدنا من بخلهم، فسنتعمهم غزلاً. أبقوا الأمر بيننا نحن الثلاثة الآن". لم يمر غالب وحسن بشذونه إلا في العام التالي، ولكن جماعات من الجند واصلت السفر إلى قرطبة، وكان مع بعضهم أبناء حسن بن قنون الثلاثة الذين أرسلهم كرهينة مع آخرين من أقاربه، وحضروا جميعاً استقبال الخليفة لضيوفه في عيد الفطر. أصبح على كل قبيلة إرسال أولادها رهائن لقرطبة حتى لا يعود أهلهم عن معاهدات السلام والخضوع.

أرسلت كورة شذونه قاضيها ليمثل الكورة في قرطبة ذلك العيد. ذكر القاضي المسؤولين في الزهراء بأهمية مراعاة ثمن إطعام الجند المتنقلين بين العدو وقرطبة لأن المدن والقرى في الطريق ليست مدن ثغور وعليها تبعات أخرى للدولة. وبالفعل تحرك مروان بن أحمد بن شهيد بعد العيد بالمال من الزهراء إلى العدو وعقدت الاتفاقيات مع مقدمي الأطمعة على الطريق، وفازت بغال شذونه الكهله بحياة نعيم في المزرعة حتى انتهى أجل كل منها.

من الأخبار المميزة التي وصلتنا في شهر شوال من قرطبة كان خبر إعادة خطة السكة إلى محمد بن أبي عامر، مع احتفاظه بما يتقلده من مناصب أخرى. قبل أن ينقضي الشهر التقى وزير الخيل والحشم زياد بن أفلح مع جعفر ويحيى ابني الأندلسي من أجل استكمال شراء عبيدهما الذين اشتكوا من سوء المعاملة، وحضر الاجتماع جمع من الفقهاء. لكن أولاد الأندلسي رفضا التبائع وخشنا بالقول لزياد وشتما في الخليفة،

وأظهرها من الرد والحديث أنهما متشيعان، وكان لابد لوزير الحشم من إيلاغ الخليفة بالتفاصيل فوراً، فأمر زياد بالعودة إلى المجلس وإهانتها مع أشياعهم وحملهم من هناك إلى سجن الدويرة بالزهراء مباشرة، وحملوا أباهم أيضاً للدويرة. بعد أيام أُبلغ الأب بسوء فعل ولديه، فاعتذر وأطلق سراحه بينما أرسل إبنه يحيى وجعفر إلى سجن المطبق.

عشرة أيام قبل نهاية العام نزل غالب والجند من العدو إلى الجزيرة تلبية لأمر الخليفة، وأبقى الوزير السابق يحيى التجيبي قائماً على بعض الجند في المغرب. هذا الخبر وتفاصيل الانتصار في العدو ورد في كتاب طوله خمس صفحات من إنشاء الوزير جعفر بن عثمان، أرسل نسخاً عنه إلى كل كور الأندلس ليتلى على كل الشعب في الجوامع.

في قصر الزهراء استقبل الخليفة أربع سفارات أجنبية أرادت تجديد معاهدات السلام ونالت هدفها وعادت إلى بلادها. لكن بعد يوم واحد من مغادرة سفارة قشتاليه وصل إلى قرطبة خبر خروج غرسية بن فرذند عن الطاعة والسلام ومهاجمة حصن دسة وما يليه وسرقة جنوده للبقر والغنم وقتلهم بعض الجند المسلمين. على الفور أرسل الخليفة لإعادة السفارة ولكنهم رفضوا العودة وهربوا، ثم عاد إليهم الجند وأخذوهم مكبلين إلى السجن في قرطبة. فسرنا هذا الخبر في شدونه بأن غرسية أراد من الهجوم اختبار ردة فعل قرطبة وقدراتها الدفاعية في هذه المرحلة..

مصاحبة القادة

كان المقرر أن أعود إلى قرطبة في مطلع الشهر الأخير لهذا العام مع وفد عيد الأضحى، لكنني فضلت اقتراحاً من أبي إبراهيم بانتظار فترة أخرى ومصاحبة القائد غالب وجنده، ففي ذلك فائدة عظيمة لي بالتعرف على القائد بتوصية من خال أمي، ومشاهدة كيفية تنقل الجند ونظامهم. شجعني على الانتظار أيضاً أن أبا إبراهيم لم يسافر مع وفد العيد، وأرسل إبراهيم ومسعود وعمران وشخصاً آخر من القبيلة الثانية في شذونه، ومعهم خليل طبعاً. عرفت لاحقاً من جدي أن استقبال العيد كان مزدوجاً. جلس هشام مقابل والده الخليفة في المجلس الغربي بالزهراء وحجبه عن اليمين الصقلي رائق وصاحب الشرطة الوسطى، وعن اليسار صاحب الشرطة العليا، وتحتهم أبناء الأكابر والوزراء والصقالبة، ومرت أمام هشام الأفواج من العلماء والوجوه وأولهم بعض أعمامه. عندما سمعت ذلك مر بخاطري احتمال أن يكون الشيخ مسعود قد تبسم وشعر بصحة توقعاته قبل عام كامل حول التحضير لأخذ الولاية لهشام وهو طفل بفضل إلحاح أمه.

إمتلأت بالفخر من الأسلوب الذي قدمني فيه أبو إبراهيم للقائد الأعلى غالب مُعرفاً أنه خالي، وعرفه بعائلتنا اليمينية، وتذكر غالب أنه التقى بجدي، ثم قال له خال أمي إنني من رفاق الأمير هشام المقربين، وأني قطعت خطوات كبيرة طوال العام الماضي في تعلم فنون الفروسية هنا. مكثت طوال المساء إلى جانبه وجانب غالب وبقية قادة الجند. كان الجلوس في تلك الليلة، وإثنتا عشرة ليلة تلت، وربما في ليلتين سبقتا بين الجزيرة وشذونه، قائماً على ترتيب محدد: القائد غالب في وسط

المجلس، وبجانبه الأيمن أحد كبار المضيفين، وعلى يساره الشيخ حنون، وعلى جانبي كل من المضيف وحنون إثنان أو ثلاثة من القادة الستة الذين شاركوا في الحرب مع غالب. على يسار ويمين أولئك اختلط كبار الجند مع مضيفين آخرين ومع أمراء وزعماء بني إدريس الحسينيين القرشيين الذين رافقوا شيخهم حنون. نادراً ما جلس حسن بن قنون بجانب الشيخ حنون، ولكنه كان في المسير يركب قريباً من غالب.

مظهر ووقار الشيخ حنون كان يتناسب مع أصوله ونسبه، فهو أحمد بن عيسى بن أحمد بن محمد بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن الخليفة علي بن أبي طالب، ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة الزهراء. هذا يعني أن الشيخ أحمد الملقب حنون، قرشي الأصل ومن صلب أبي طالب وفاطمة، ولا يوجد أقرب منه نسباً واصلاً للرسول عليه الصلاة والسلام. وإذا تذكرنا أن الخلاف الأكبر الأول في الإسلام كان بين أبي سفيان وأولاده من جهة، وهم الأمويون أجداد الحكم، وبين الخليفة علي وأولاده وشيعته، وهم أجداد حنون، يمكننا تحسس ما في نفس الشيخ وشيعته وهم يتحركون إلى قرطبة مع غالبهم بعد أن غيروا مذهبهم وأعلنوا الطاعة للخليفة الأموي في الأندلس. ركب مع حنون إخوة إبراهيم، وابنا عمه ميمون ويحيى، ومعهم بنوهم وأهلهم.

سرنا ببطء بين شذونه وقرطبة مروراً باستضافات كل ليلة. في يوم الأربعاء الثالث من محرم العام الجديد احتلنا وادي الجوز على مقربة ثلاثة أميال من قرطبة. بالطبع لم يرغب أحد في دخول قرطبة ليلاً، وفي الوقت ذاته أصبح بوسع أهل قرطبة الوصول إلينا في ساعة على خيلهم أو أقدامهم. من أجل ستر أهل وعائلات الحسينية عن العيون المتطفلة، حضرت مطايا بحلي فاخرة لنقلهن ليلاً إلى الدور التي أعدت وجهزت لهن بالفرش والأغطية، وأترعت مخازنها بالأطعمة والحطب والأصباغ والابازيز وكل لوازم أرقى البيوت. ذهب معهن لقرطبة فتيان وموالي الحسينية. كان بوسعي الوصول إلى بيتنا في أقل من ساعة، ولكنني قررت البقاء مع الجند تلك الليلة ودخول حاضرة الأندلس نهائياً إذ كنا نعرف

بسعة الاستعداد لاستقبال الجند وقائدهم وضيوفهم بعد هذا النصر المؤزر.

وصلت العدة من الزهراء للركوب عليها حسب المراتب. تحرك غالب في جمهور عسكريه يحفه القادة الستة: ميسور الرومي، رشيق البراغواتي، عبد الله بن مروان، قيصر، وسعد بن عبد الرحمن، وهم من الموالي، إضافة إلى رئيسي الخدمة مروان بن مسلمة وإسماعيل بن الشيخ. رافقهم أيضاً صاحب المخزول سلمة الجعفري، والخازن أحمد بن حاجب. تقدم مع غالب بنو إدريس الحسينيون القرشيون، وسمح لي بالركوب مع كبار الجند خلفهم، حتى وصلنا القنطرة التي كانت مرتبة تماماً للاستقبال ومعبأة بالجند على الصفين حاملين بأيديهم الترسه والرماح، وطال صفاهم بعد القنطرة حتى باب القصر. هنا جلس الوزير جعفر بن عثمان على الكرسي وبين يديه أنواع من العرفاء والحراس وغيرهم ليرحب بغالب والقادة والضيوف من دون أن ينزلوا لهم. استمر الركب عبر قرطبة واستدار إلى باب عامر ثم عدنا إلى الجنوب باتجاه النهر من خارج السور حيث استقر غالب ومن معه بفحص الناعورة يومي الخميس والجمعة ريثما تكتمل الاستعدادات لاستقبالهم في الزهراء. بعد النزول في الناعورة استأذنت القائد غالب بالذهاب إلى بيتنا، فأذن لي، وتبادلت معه كلمات الشكر والتمنيات بقاء آخر في إحدى الصوائف القادمة. وجدت بيتنا مليئاً بالزوار، فقد شوهدت في الركب، ونُقل الخبر إلى كل الأهل والجيران الذين حضروا لأخذ الأخبار من مصدرها. عندما اختليت بفاطمة وآمنة وجدي وأبي كان الإعياء قد طرحني عاجزاً عن الكلام، ونمت حتى موعد صلاة ظهر الجمعة.

قبل العصر ذهبت مع جدي ووالدي إلى فحص الناعورة لشكر القائد على رعايته لي في الطريق من شذونه، وأخذنا معنا حمولة بغل من حلويات قرطبية متنوعة. وصلنا بسهولة وسرعة إلى غالب إذ كان حراسه كلهم قد خبروني في السفر، واستقبلونا بالابتسام والترحاب، ووجدنا غالب مسترخياً من حرارة أواخر أيام سبتمبر. بعد تعريف بأبي

وتذكر لجدي وحديث مجاملات، سألني القائد إذا كنت سأشارك معهم في المسير الاحتفالي إلى الزهراء غداً، وأبلغني أن الخليفة وهشام سيكونان سوياً في الاستقبال.

"سيدي القائد الأعلى، الاستقبال لكم ولجندكم البواسل اعترافاً من أمير المؤمنين بفضلكم في النصر، وتكريماً وطمأنة لضيوفكم الكرام. أما أنا فكان لي فقط شرف مصاحبتكم ورعايتكم لي في الطريق، وليس من حقي التطفل". قلت ذلك حاني الظهر قليلاً ورافع الرأس ناظراً للقائد.

"أرى لسليمان مستقبلاً في حمل السفارات، وحبذا لو تعلم لغات الإفرنج واليونان لتكتمل فروسيته مبكراً". وجه هذا الكلام لجدي وأبي، ثم تحول إلي "يعني لا تريد رسميات غداً، وستتركنا لوحدنا. سأبلغ الأمير هشام أنك سرت معنا".

"سيشرفني ذلك لو تفضلت به، وأتمنى إطالة الله في عمرك لأشارك معكم في صائفة عندما يُسمح لي بذلك". شربنا القهوة، وأعطى غالب جدي بعض التفاصيل عن الحال في العدة، وقبل أن نغادر استأذنت السماح لنا بتحية الشيخ حنون، فرفع غالب حاجبيه الكثيفين وقال "إنه رجل حر وضيف، وله أن يوافق أو يرفض، إنه في الخيمة المجاورة". نادى القائد على حرسه وطلب منه سؤال الشيخ حنون إذا كان يريد رد تحية والد وجد الفارس القرطبي الصغير الذي رافقنا من شذونه. خرجنا من خيمة غالب، ووصلتنا الموافقة على الباب فاتجهنا إلى خيمة حنون.

كنت قد حدثت جدي وأبي عن الرجل ونسبه وشعوري وعطفي على حاله. أخذه جدي بالحضن وقبله على وجنتيه ثم قبل لحيته وحك أنفه بأنفه كعادة القرشيين. "هذه بلدك، وأنت بين أهلك، فلا تحزن ولا تقلق، كرامتنا من كرامتك". أما والدي فقد قبل يديه وتمنى أن يراه قبل العودة إلى بلاده "معزراً شامخ الهامة". عندما صافح وقبل جدي وأبي من تواجدوا في خيمة حنون من أهله، كان دمع بعضهم قد سال على لحاهم. هكذا أنهينا السلام وخرجنا دون أن نجلس، فلم يكن من

المناسب مجالسة القوم قبل لقائهم بالخليفة الذي حُمِلوا له من أفريقيا. غادرنا الفحص دون تبادل أية كلمة مع بعضنا وكأن الطير حط على رؤوسنا. بعد أن هدأت نفوسنا قليلاً حاول والدي تغيير المناخ. " يبدو أنك تعلمت الإنشاء ونفخ الكلام في شذونه أكثر مما تعلمت الفروسية".

" الإنشاء جزء من الفروسية، وأيضاً الشعر والأدب، وسليمان أظهر ثباتاً وجوده في حضرة القادة وأهل بيت رسول الله". كان جدي يتحدث وينظر إلى الفراغ أمامه ويرتكز بيمينه على كتفي، وبدا لي أنه بحاجة فعلاً للارتكاز، وتمنيت ألا يكون عام من الزمن قد أوهن جسده. " كيف أنت والشعر يا سليمان؟"

" لقد هجوت عفويًا في يومي الأول بشذونه زهرة إبنة إبراهيم، فكفت مناكفتها، ولكن قريحة الشعر لم تحضرني بعد ذلك".

" إذا كنت تحتاج إلى استفزاز واستثارة لنظم الشعر فهذا ليس خلاً، ولكنك تحتاج إلى تعلم إضافي، وافترض أوضاع معينة لتستنتق نفسك، لا تترك الأمر للسليقة والصدفة، سنهتتم بذلك سويًا بعد أن ترتاح ونخطط مع قريب ضروريات المرحلة المقبلة". ترددت في إبلاغ جدي وأبي الآن أنني أرغب بالمشاركة في صائفة، فأنا لازلت صغير السن، ولا بد من انتظار لحظة وظروف مساعدة، أما الآن فلا مهرب من أن يخططا لي خطوات المستقبل القريب.

ما لمستته طوال يومي الخميس والجمعة أن أهل قرطبة لم يكونوا على قناعة فيما إذا كان أهل العدو قد جُلبوا أسرى ورهائن، أم أنهم ضيوف حضروا برضاهم ويعرفون متى سيعودون. بل سمعت بعد صلاة الجمعة تعليقات في الجامع على غرار: " البلاد مليئة باليهود والنصارى والملحدين دون أن يجبرهم أحد على اعتناق الإسلام، فلماذا محاربة الشيعة في دورهم؟" " كل عام صوائف وشاتيات للنهب والسبي في الشمال بدل الفتح ونشر دين الله". " حليم مع الغرباء متجبر على الأقارب، لا حول ولا قوة إلا بالله".

استقبالات السبت لم تحسم الأمر في طبيعة الضيوف، كان ظاهرها تكريماً لهم، وباطنها لإرهابهم. تولى الإعداد للمهرجان صاحب الخيل والحشم زياد بن أفلح، وصاحب الشرطة العليا قاسم بن طملس وأخوه أحمد. رتبا سماطين منتظمين أولهما في الزهراء وآخرهما في فحوص الناعورة بقرطبة. ركب غالب وقادته، وركب خلفهم حنون وأخوه وأولاد عمه وبقية زعمائهم، وخلفهم كبار جند غالب. ساروا في المرحلة الأولى بين صفيين متصلين من رجال قرطبة والأقاليم يحملون الرماح والأتراش. رافق الجند الركب لمسافة ثم تراجعوا ليحل بدلهم صفان من الفرسان المدرعين، ثم أخذ عنهم فرسان طنجيون مدرعو اللبس، وتلاههم صفا العرفاء المدرعين وسلموهم للفرسان الخمسين والعييد الرماة بالدروع والبيضات، وأخذ منهم العبيد الجعفرين وقد لبسوا الأقبية البيض وعلى رؤوسهم مقاريف الوبر وتنكبوا الأقواس والسهام. بعد أولئك جاء دور الفرسان المدرعين حاملي القنا، ثم فرسان الجواشن وفرسان التجايف وبين أيديهم أصحاب القرون والطبول الذين أوصلوهم لأصحاب البنود ورايات صور الأسد والنمور والثعابين والعقبان وغيرها من الصور حتى وصلوا إلى صفي الخيل والبغال المسرجة بأحلى الزينة. من قرطبة للزهراء لم يتجمع العامة في الطرق بأية كثافة تذكر، بعض المتطفلين والصبيان شدهم منظر الجند.

عندما وصل الموكب إلى باب الزهراء بدأت تدابير استقبال أخرى حتى الوصول لصاحب مدينة الزهراء محمد بن أفلح، ثم ساروا خلف غالب إلى دار الجند وأنزلوا في المجالس القبلية بها. بعد استراحة قصيرة جُلبوا إلى المجلس الشرقي حيث تواجد الخليفة وثلاثة من إخوته والوزراء والقائد غالب وأصحاب الشرطة والكتاب وأولاد الوزراء وقاضي الجماعة. الجند بسيف أغمادها مرصعة بالجواهر، وخصيان صقالبة متقلدون سيوفاً ورماحاً. كان هناك أيضاً عبيد الحاجب جعفر المصحفي بالدروع والبياضات المذهبة على رؤوسهم، وبأيديهم الحراب الإفرنجية المزينة عصيها بأنابيب فضية. إثر اكتمال ذلك أذن للضيوف

بالدخول. تقدمهم حنون الذي أثنى وتشكر، فأكرمه الخليفة بالإذن له بالجلوس، وكرر ذلك مع عليّة قومه، ثم شكر طاعتهم له ووعدهم بالإحسان وترتيب النعم، وأذن لأولادهم بالوصول للمجلس تكريماً لهم ولكن دون السماح لهم بالبقاء.

إثر خروجهم مروا بالمجلس الغربي حيث الأمير هشام وقد حجبه عن اليمين والشمال أصحاب الشرطة الوسطى وكبار الصقالبة وقدمت التحية إليه من الضيوف ودخل على الأمير وجوه أهل الكور الذين استُحضروا ليشهدوا على ما يرون. وكان معظم وجوه الكور الذين حضروا للعيد قد مكثوا في قرطبة انتظاراً لهذا الاحتفال، ثم أذن لهم بالعودة لكورهم.

زلزال واعتلال

مر أربعون يوماً على هذا الاستقبال، وبعد صلاة ظهر الإثنين
تزلزلت الأرض في قرطبة وفي أكثر كور الأندلس، حسب ما ورد من
رسائل أصحاب الشرطة في البلاد. لم يكن الزلزال فريداً، ولكن توقيته
واتساع رقعته هذه المرة دفع بالكثيرين للتيقن أنه عقاب على سوء معاملة
آل بيت رسول الله الذين بقوا في قرطبة. في الشهر التالي، يوم الثاني
عشر من ربيع الأول ألم بالخليفة مرض منعه من الظهور للرعية إذ أصابه
الفالج وشل نصفه الأيمن من العين والفم واليد والساق.

جارتنا ماري كانت تزور أمي على الأقل مرة في الأسبوع، وما
كنت أحياناً أسمعه مما تجمعه من الأخبار لم يكن يختلف كثيراً عما
يُسمع في زوايا قرطبة وبين أناسها من مسلمين ويهود ونصارى. التفاصيل
كثيرة، وطرق البث تتنوع، من أقوال منجمين، إلى اعتماد على مصادر
موثوقة، مروراً بتفسيرات تنسب لأهل العلم والذكر، لكن الإجماع كان
على أن الخليفة أغضب الله والرعية، وأن مصيره المحتوم أصبح قريباً
لللقاء مع خالقه. ضحكت عندما سمعت ماري تؤكد في الأيام الأولى
على وقعة الخليفة أن السبب هو نهمه الجنسي واتخاذة عشيقة جديدة
جميلة أنهكت قواه وأغضبت صبح عليه.

علوم وتجربة حسداي بن شبروط الطويلة في التطبيب، وخبرة
الشاب الصيدلي ابن جلجل في تركيب الأدوية، ومعدات الزهراوي
الجراحية، ساهمت، والعلم لله، في تخفيف أوجاع الفالج للخليفة
الحكم المستنصر بالله. لكنه اختفى عن الأنظار حوالى شهرين تناوب
خلالها على علاجه، مجتمعين ومتفرقين، عدة أطباء. في البداية عالجه

بمزيج من زيت الزيتون وزيت السمسم وقد غُلي وبه أسنان من الثوم والقليل من الملح ومسحوق المصطكى. بعد الغلي والتبريد كان المزيج يدهن على جسد الخليفة، لكن ذلك لن يؤدي للشفاء السريع. لحسن حظ الخليفة أن فالجه جاء من النوع المتوسط الممكن علاجه إذا بوشر بالكي، وهذا ما فعله الزهراوي في ثلاث مناطق في وجه الحكم، وقد رفض الخليفة أن يشده حراس أو الأطباء أثناء الكي وصمد له. أنجده الرعاية الطبية وعاد لسابق عهده بعد أقل من شهرين، فأشهد على إعتاق مائة رقبة من العبيد، ثلثهم إعتاق تام، وثلثهم إعتاق مؤجل بعد حين، والثلث الأخير توصية بالاعتاق. وبعد يومين أعلن الخليفة عن تخصيص حوانيت السراجين في قرطبة لتعليم أولاد الفقراء ليخفف الضغط عن الجوامع. وكان شكره الأهم لله تعالى، على إشفائه من المرض، إسقاط سدس مغارم وضرائب الرعايا في كل الأندلس عن مستحقات عام 364 وأمر "بإعداد الكتب وإيصالها لجميع الرعايا ليعرف العالم منهم والجاهل بالسدس الساقط قبل أن يأتي القابض أو يتحایل عليهم موظف".

عم الفرخ بين الرعية بعد أن ذهبت بالبعض الظنون أن الخليفة توفي، وأن صراعاً بين الورثة قد نشب وتداول الناس اسم الوريث. كانت أخبار الاعتداءات من ممالك الشمال على مدن الثغور هي التي عززت الإشاعات في قرطبة بوجود أزمة في القصور. عندما تأكد خبر شفاء الخليفة بعد رؤيته من خاصته طاف المبشرون في الشوارع باستبلال أمير المؤمنين، فقضى الناس نذورهم التي أقروها في ساعات الخوف، وتلاقوا أفواجاً يتهانون فيما بينهم. رويداً رويداً امتلأت البلاد بأخبار وأبيات الشعر مثل الذي قاله صاحب الشرطة الوسطى يعلي بن أحمد الذي بدأ بحمد الله على ذهاب الغم وعودة السرور وانتهى بالقول إن الخليفة الحكم هو ظل الله في أرضه، هذا بعد أن ادعى أنه كان بين أهل القبور من حزنه وعاد للحياة مجدداً بشفاء مولاه:

الحمد لله العلي الكبير قد ذهب الغم وجاء السرور

راوي قرطبة

وابتهج الدين وعز الهدى واعتدل الملك وضاء البدير
وعادت الدنيا إلى حسنها وانفرج الخطب الجليل الكبير

* * *

أشرفت الأرض ببراء الإمام واستوسقت فيها جميع الأمور

* * *

كادت قلوب الناس ترتقي مستبشرات فتشق الصدور
وخصني فوق الذي خصها فكاد قلبي فرحاً أن يطير

* * *

قد جدد الله حياتي وقد أخرجني من بين أهل القبور
فدم عزيزاً يا إمام الهدى في عمر مستنفد للدهور
فأنت ظل الله في أرضه وغيثه الساكب فيها يطير
أما أشهر شعرائنا هذه الأيام، وهو يحيى بن الهذيل فقد حمد ربه
وتأسف على مرض الخليفة وقال إن السرور عم الناس كما فرح يعقوب
بنجاة يوسف. الأهم في شعر ابن هذيل أنه توقع تولي هشام بعد أبيه لو
حدث المكروه وادعى أن هشام أدار المملكة، وأن سيف العامري
المعافري سيكون معه، علماً بأن المذكور لم يكن قد شارك في أية
معركة.

أثناء شهري شلل الخليفة وبعدها في شهور النقاهاة تولى الحاجب
جعفر المصحفي إدارة الأندلس، وكان جعفر هو أول من استقبله الخليفة
من خاصته بعد المرض، وهذا تشريف له وإظهار لخصوصيته ومحل
القريب.

أكثر المضطربين من اعتلال الخليفة كانت صبح أم الأمير هشام.
هي أكثر من عرف أن جسد وعقل الخليفة لن يعود لسابق عهده، وأنه
لن ينجو بحياته من وقعة فالج أخرى، وحينها سيتولى أحد إخوة
الحكم، أبناء الناصر، الخلافة لأن هشام صغيراً ولم تؤخذ له البيعة بعد.

بين رؤية الخليفة من خاصته وظهوره للعامّة راجت إشاعات أن هشام، أبا الوليد، هو ولي العهد، وأن الخليفة حسم الأمر والعقود سوف تكتب في القريب. ربما كان ذلك إشاعات من صبح روجها العامري، وربما كانت تسريبات من الخليفة لاختبار ردود الفعل أو لتعويد الرعية على الفكرة.

بعد الصلاة في جامع الزهراء استقبل الحكم قائده الأعلى غالب وفاوضه في أمر الثغر وما عُرف من تحرّشات، وما نقله الجواسيس عن تجهيز العدو لقوات مشتركة من عدة ممالك شمالية في الثغر الأوسط إثر إحساسه ببعث الجيوش إلى العدو. إنضم للمشاورات في سدة مسجد الزهراء جعفر المصحفي، وبالطبع كان هشام لجانب والده الخليفة الذي طلب من غالب الاستعداد للخروج ضد الأعداء.

ركب الخليفة إلى قرطبة بعد أن أقنعه الأطباء بالابتعاد عن البرد في الزهراء، وأوصوه بعدم الاقتراب من عشيقته الجديدة التي لم يكن بوسعها مقاومة رغباته إذا شاهدها! هذا ما اشيع في كل قرطبة. شتاء مطلع عام 975 قسا على قرطبة ونواحيها بثلج لم يُشهد مثله من قبل، وتبعه به بعد أسابيع مطر وابل أفاض النهر فخرج إلى الرصيف وغطيت القنطرة وغرق بعض من حاولوا الوصول من شقنّدة بمركب إلى بيوتهم في قرطبة.

الأخبار الواردة من الثغر الأوسط أفادت أن قوات مشتركة من الجلالقة، والبشكنس أهل بنبلونة، ومن قشتاليه، هاجموا وحاصروا حصن غرماج أحد ثغور شمال غرب مدينة سالم. صمد أهل الحصن للهجوم الغادر من الناقضين للذمة والعهد، وقتلوا من المهاجمين الكثير، وطاردهم في البداية على وادي دويره. بعد الانهزام استجاش المعتدون سكان بلدانهم القريبة شمال النهر، ونقض جميعهم العهد والسلم وتساربا نحو حصن غرماج غير خائفين، إذ عرفوا أن جيوش الخليفة مشغولة في العدو البعيدة جداً عنهم، وبالتالي كانوا مطمئنين أنهم لن يُلاحقوا بعد نهب الحصن. بهذه التفاصيل امتلأت قرطبة باللوم والنقد لسياسة الخليفة، وأصبح كل قرطبي يؤكد أنه كان يتوقع هذه النتيجة.

تحولت حاضرة الأندلس إلى خلية نحل استعداداً للنجدة. قرر الخليفة الإسراع في تجهيز الصائفة وتحويلها لنجدة أهل الشجر الأوسط، وارتأى استعمال شيخ مواليه وكبير قواده وسيف انتقامه، غالب بن عبد الرحمن، الموصوف هذه الأيام أيضاً بأنه شيخ الحروب وفارس الخطوب ومهون الكروب. استقبل الخليفة غالباً في قصر قرطبة بتشريفات لم يسبقه إليها وزير أو قائد، وتسلم تعليمات الاستعداد للخروج، وأن يُسرع الخطى ولا يعبأ بالمدد والدعم والمال الذي سيأتيه تبعاً. في الثلاثة أسابيع التالية خرج البريد إلى الكور بالتعجيل في الصائفة وتحويلها إلى نجدة وإغاثة، ونودي في قرطبة بالتجرد للخروج، وحث الأئمة في المساجد المؤمنين بالدعاء والتطوع لنصرة إخوانهم. اجتمع الخليفة مجدداً بغالب في السابع من شعبان، وسمع منه الاستعداد للخروج السريع المبكر، وغادر القصر فائزاً بلقب استحدث له لم يفز به غيره من قبل، وهو ذا السيفين، وكتبت العقود بذلك المنصب. تقلد السيفين هدية الخليفة، على كتفيه، وكانا مرصعين بالجواهر، وركب خيلاً أهدي إليه من إسبيلات الخليفة ومسرَجاً بأفخر الصناعات السلطانية، وكاد غالب يطير من الخيلاء والفخر والنشوة لما فاز به من تقدير وثقة. بعد يومين خرج ذو السيفين بالقوات من قرطبة وبين يديه تعبئة بعد أخرى من صنوف الجند والمتطوعة، فأطبق الأفق وغصت بهم الطرق. سار غالب بهم من أمام قصر قرطبة بينما الخليفة وابنه اعتلوا باب السدة رافعين الأيدي بالدعاء لله أن ينصر جنده.

كل يوم كان البريد يصل من غالب بتفاصيل مسيره، والمزيد من الجند والمتطوعة يلحقون به. ناب الأمير هشام عن والده باستدعاء الوزراء وتكليفهم بالذهاب إلى مدنهم لتجهيز قوات تمد غالب. أرسل عبد الرحمن التجيبي إلى سرقسطة، وعبد العزيز التجيبي إلى ابرلنقه، وأخرج أيضاً الفتى سهل في جمهور من الحشم والعييد والرماة، بعد أن طلبهم غالب، ورافقهم محمد بن أمية مستخزناً على الأموال المرسلة للقائد للإنفاق في عسكر الصائفة.

هذا المدد لم يفرغ قرطبة من الرجال والمقاتلين، بل شهدت مدينتنا منافسات فروسية نظرها الخليفة وهشام من علية باب السدة، وأصيب بها إثنان بجروح، فأمر الخليفة بحبس الفاعلين كونه اشترط قبل المبارزات ألا تؤدي لإصابات.

في آخر شعبان كان اللقاء الأول مع من الكفار على النهر، استعرضت فيه الخيول والرجال. من الواضح أن غالب لم يهاجم قبل الاستراحة من المسير وتفحص الوضع. الهدوء لأسبوع دفع بالمشركين لاجتياز وادي دويرة في السابع من رمضان، لكن قلة المسلمين في الموقع صمدوا وثابروا حتى وصلهم غالب بجند وأبادوا بقية المهاجمين، لكنهم لم يلاحقوهم للضفة الشمالية من النهر تحسباً لكمين. إثر تلك الواقعة قرر غالب التراجع إلى محلة برهون، على مسافة اثني عشر ميلاً من النهر. اراد انتظار الجند المتخلفين في الطريق واستكمال التجيش في كور الثغور إثر إعلان النفير. فسر غالب ذلك التراجع في بريده للخليفة أنه نتيجة تخوفه على طوابير الجند المتحركة من الجنوب والشرق والغرب باتجاهه، فخطوط مسير بعضها يمر قرب مواقع الأعداء، وهكذا أراد حمايتهم بجلبهم لموقعه بعيداً عن النهر ريثما يكتمل الاستعداد.

في مطلع رمضان غادر قرطبة متطوعة جدد راغبين بالجهاد بأموالهم وأنفسهم دون أن يُطلب منهم. هذا الحدث دفع بالخليفة لإرسال المنادين للإعلان بالوعيد والتهديد للمتخلفين من الجند، فخرج كل متخلف حتى من كان بهم علة، وقادهم الفتى الجعفري من قرطبة مع غيرهم، وسحب معه قافلة من البغال محملة بصنوف المعدات والأسلحة. تبعه بعد أيام صاحب الشرطة قاسم بن محمد ومعه عسكر من طبقات الحشم وقع الاختيار عليهم للقتال بعد أن كانوا يظهرون للاستقبالات والتفاخر فقط. بعد أربعة أيام أخرى غضب الخليفة على صاحبي الشرطة يعلى بن أحمد، الشاعر مُدعي أن الخليفة هو ظل الله، وأحمد بن سعد الجعفري، فعزلهما عن المناصب وأرسلهما إلى الثغر، وأمر بإرسال أبناء أصحاب الشرطة الآخرين للثغر دون أن يكون غضب منهم، فخرجوا بصحبهم وبمن جندوه، ورافقهم خازن بالمال إلى غالب.

كانت ظروف قرطبة وغياب جملة من شيوخنا في الحرب وحلول شهر رمضان تسمح لنا بالكثير من الوقت خارج إطار التعلم في الجامع. ظهر الأحد الثامن من رمضان تركت الجامع للتمشي قرب القنطرة، فإذا برشيق البرغواتي، أحد رفاق الرحلة من شذونه إلى قرطبة، معتلياً حصانه الأحمر يتمخطر وخلفه عشرة رجال مكبلين بالحبال وحوله جند يحملون صواري عليها سبعة عشر رأساً مقطوعة. وقفوا أمام باب السدة المواجهة لناغورة الماء على النهر. اقتربت مع آخرين للاستطلاع، وألقيت التحية على رشيق الذي بدا أنه تذكرني فتبسم وأجاب على تساؤلي عما يجري "هذا أبو الأحوص الخائن وبقية الأحياء من رفاقه". كان جواب رشيق يفترض أن كل قرطبة لا بد وأن تعرف من هو أبو الأحوص، الخائن. تظاهرت بالفهم، وسألت عن أصحاب الرؤوس التي أخذ الجند يعلقونها على سور القصر على جانبي باب السدة. "هذه رؤوس المشركين الذين استمعوا له ولم يستسلموا عندما طلبت منهم". باركت فعله، وأصبح علي تجميع خيوط قصته من مصادر أخرى، فلو اهتم مني الجهل بإنجازته ربما كانت العاقبة وخيمة.

بعد عودتنا من شذونه كان رشيق قد أرسل إلى مدينة لاردة، بين برشلونة وسرقسطة، ليحلل بها مؤقتاً بدل هشام التجيبي الذي ذهب إلى العدو وعاد منها إلى قرطبة قبل أيام فقط. في لاردة هرب من السجن أبو الأحوص، وهذا هو معد بن عبد العزيز التجيبي، وهو مرتد أودع السجن من قبل أبناء عمومته، قادة كورة لاردة المجاورة لمنتشون، لأنه اتهم بمساعدة الأعداء وإرشادهم إلى عورات المسلمين. هرب من السجن ولجأ إلى حصن الرشد الذي يدفع سكانه النصاري الجزية كل عام إلى قادة لاردة. بالطبع في ظل الظروف السائدة سهل عليه إقناعهم بعدم الدفع عندما حان موعده. خرج إليهم رشيق بالجند والمطوعة فحاصرهم، وحضر جند قومس مجاور لنجدتهم فقطع رشيق عليهم الطريق وأباد بعضهم وتحصن بقيتهم خلف الأسوار. استمر الحصار وضاع أمل المنشقين ففاوضوا على تسليم أبي الأحوص والعودة للطاعة ودفع الجزية

مقابل تأمين حياتهم. علقت الرؤوس المجلوبة وأودع الأحياء في سجن المطبق، وأمر الخليفة رشيق بالحقاق بالجند والقائد غالب في الثغر، والنزول عن مدينة لاردة لهشام، فنفذ ذلك فوراً.

جاء عيد الفطر قبل أن يصل قرطبة أخبار عن حسم الوضع في الثغر، ولأول مرة منذ سنوات احتفل الخليفة في قصر قرطبة كونه لم يعد مع هشام إلى النساء في الزهراء إثر شفائه الجزئي من الفالج. ليلة العيد أبلغ جدي أولاده وأنسابه أنه سيذهب بهم في صباح اليوم التالي للتسليم على الخليفة والأمير، ولم يكن عمي عيسى قد عاد من مالقا. طلب مني جدي إبلاغ جارنا خسوس إذا كان يريد المشاركة وأيضاً سؤال ابن عمران الذي تصادف وجوده في الحاضرة، وعندما تساءل أبي عن الهدف وصحة القرار، أسمعته أبوه أن لهم حقوقاً وعليهم واجبات مثلنا، ولا يوجد سبب يمنع مشاركتهم في تهنئة خليفتهم بالعيد وبالشفاء. طلب مني الذهاب أيضاً إلى شقنדה لإبلاغ أبا مريم بالأمر "وإذا لم تعجبه فكرة التسليم على الخليفة، أدعوه للمشاركة معنا على الغداء بعد ظهر العيد".

في الصباح وقف جدي بالباب وحوله خمسة عشر من الأبناء والأنساب والجيران، وكنت مع ابن عمي سعيد على يمين ويسار جدي الذي أبلغ صاحب التشريقات: "خالد أبو قريب القلعي، مربى الأمير هشام، ومعه أبنائوه وأحفاده وأنسابه وجيرانه، جيران الخليفة والأمير هشام في الزهراء وقرطبة" رحب بنا المسؤول وشرح لجدي أن الخليفة لن يستقبل هذا العيد سوى إخوته وخاصته الذين سينتقلون من عنده للسلام على الأمير هشام، وطلب منا الانضمام إلى مقعد بياض رجال قرطبة ريثما يبدأ الاستقبال. عرفنا لاحقاً أن الخليفة استقبل فقط أخين وأكابر أهل الخدمة من الوزراء وانتقلوا من مجلسه الغربي في دار الروضة إلى الأمير هشام في المجلس الزاهر حيث جرى الاستقبال. الاستنتاج الحتمي لذلك ان الخليفة لا يريد للعامة رؤية وجهه عن قرب، أو أنه منهك من المرض.

في المجلس الزاهر جلس أبو المطرف المغيرة ابن الخليفة الناصر

على يمين ابن أخيه، وجلس أبو القاسم، عمه الثاني على يساره، وتغيب عبد العزيز لمرض أصابه، كما قيل، وبالطبع لم يحضر، كالعادة بقية إخوة الخليفة أبناء الناصر الذين كانوا يحيطون بالدهم في مثل هذه المناسبات، ولم يحضر أي من أولادهم الكثير. عن يمين الأعمام ويسارهم حجب الأمير كبار الوزراء مثل جعفر وزياد وأحمد ومن بقي من رجال قرطبة ولم يسافروا للثغر. بالطبع كان هناك محمد العامري، والكثير من الخدم والحشم والكتاب والصقالبة. سلمنا بعد القرشيين والحسينيين الذين كان معهم يحيى وحسن ابنا قنون الذي تخلف عن الحضور مثل الشيخ حنون، لمرض أصابهما. تالنا الفقهاء أهل الشورى وقضاة الكور وممثلو سائر الأجناد. لقد أحسن حنون بالتخلف عن الحضور لأن بعض الشعراء أنشدوا سخافات لا تمت للوضع في الثغر بصلة وإنما تتغنى بالانتصارات في العدو وتستهزئ بالفاطميين في مصر. وبالطبع فإن قائل شعر كهذا أكد أن هشام هو الخليفة العاشر في الأندلس وصاغ بدايات أبياته لتشكّل اسم أبي الوليد هشام.

وصلنا الخبر السعيد بالفتح والنصر وهزيمة المعتدين الذين تألبوا على حصن غرماج وبانهزامهم خائبين. فشل حصارهم للحصن أربعة وسبعين يوماً، فعاد شانجة بن غرسية البشكنسي إلى بنبلونة، وعاد صهره غرسية بن فرذند القشتلي إلى برغش، وفرذند بن الشور وبنو غومس إلى البه والقلاع. سبق إقرار عجزهم أمام غرماج، حضور رذمير بن شانجة بن رذمير من ليون برفقة عمته حلوية، التي أقنعت بانتهاز الفرصة لأخذ البيعة من قادة وأمراء ممالك الشمال إذا نصرهم وحقق لهم هذا الإنجاز. كانت تطمع مثل غيرها لتوسيع نفوذ النصارى في الأندلس، وظنت أن الانشغال في العدو يقدم فرصة جيدة. كل هؤلاء المتآمرين من ناكثي العهد كانوا يرسلون سفاراتهم سنوياً طلباً للسلام والأمان.

ذو السيفين والقوات التي ارتحلت شمالاً لم تكن هي التي هزمت جموع جيوش ممالك الشمال. التفاصيل التي وصلتنا في قرطبة أفادت بأن المحاصرين لغرماج أجمعوا يوم الأحد على مبايعة رذمير، واتفقوا

على الهجوم واقتحام الحصن يوم الإثنين. تيقنوا من النصر لأن غالب وقواته في برهون، ويحتاج إلى يوم للوصول بالقوات وحينها يكون الحصن قد دُمر ونُهب. يقع غرماج في شمال النهر ويحميه الماء من ثلاث جهات، ولا بد لقوات غالب من قطع الماء قبل الوصول للأسوار. طوال يوم الإثنين صمد المسلمون المحاصرون وقاتلوا كرجل واحد مستفيدين من أسوار ومتانة حصنهم، ولم يتركوا للمهاجمين فرصة الاستراحة في الليل إذ شاغلهم بالنبال حتى ارتدوا مع السحر، فخرج خلفهم كل أهل الحصن يعملون بهم الرماح والسيوف، وتجاوز الفارون والمهاجمون معسكرات الجند فداسوها. تمنعوا عن الملاحقة خشية أن يكون الأمر مكيدة يراد منها استدراجهم. أخذوا في طريق العودة كل ما عثروا عليه مما تركه الفارون المذعورون المنقلبون لمدنهم. وصل الخبر إلى غالب فنهض إلى الحصن وقطع الماء ليجد أن كل شيء قد انتهى، ولا توجد آثار للمعتدين. على الأرجح أن القائد الأعلى عرف بأن الخبر طار إلى الخليفة، فكتب إليه التفاصيل، وأخبره أنه عندما تصله الرسالة سيكون قد لاحق فلولهم ودمر مدنهم.

في البريد اللاحق وصلت أخبار أن غالب أداخ مناطقهم وانتسف زروعهم وأحرق شنت اشتبن القريبة من غرماج. قرب ابرلنقة كمنت قوات غرسية بن فرذلند في الواد، ولكن الله هزمهم وقتل جلهم وهرب البقية للشعاب. عبد الرحمن بن هاشم التجيبي أرسل من سرقسطه بريداً أنه لاحق فلول رذمير شمالاً قرب تطيلة حتى أوصلهم إلى مزارع قشتيليه، وأثناء العودة مساء اجتز ثلاثين من رؤوس قتلاهم، منها رأس أمر حصن شوس، ووصلت الرؤوس مع البريد وعلقت كالعادة، على السور حول باب السدة.

بين الجنة والنار

رغم التذمر في قرطبة فأحوالنا كلنا في الأندلس لا تقاس بغيرنا من ممالك الشمال وبيزنطة وروما والشرق الإسلامي والهند والسند وبقية الأمم، وذلك حسب أقوال الزوار والتجار والبحارة الأندلسيين العائدين من سفراتهم. قبيل نهاية العام الهجري، ثلاثمائة وأربعة وستون الذي وافق الأسبوع الأول من سبتمبر 975 للميلاد، عاد إلى قرطبة عيسى ومريم ومعهما ابنتهما الرضيع مروان، منتهزين فرصة حلول عيد الأضحى المبارك، ولإطلاع الأجداد على آخر إنتاج عائلة القلعي. كان عيسى على الدوام مهتماً بمتابعة أخبار الشرق وكنا في قرطبة مهتمين هذه الأيام بالأخبار من الشمال. بشكل ما فتعاسة الأخبار الواردة من الشرق، مقارنة بحياتنا وظروفنا وباتتصاراتنا في الشمال، جعلتنا نحمد ربنا أكثر على الجنة التي نعيش فيها. الحياة رغبة، والدنانير متوفرة، والتعاش الديني لم يتأثر من إخلال ممالك الشمال بالعهود. قرطبة تعودت من تجربتها التاريخية على الفصل بين الدين والمواطنة. يمكن محاربة المسلمين الشيعة في العدو، والنصارى في الشمال من دون تأثر العلاقات بين المواطنين داخل الأندلس. إلى جانب ذلك تعود الأندلسيون على انتهازية ملوك الشمال، ففي كل مرة يتغير فيها أمير أندلسي، أو يشعرون بضعف ما، يقومون فوراً بنقض العهود ومحاولة الزحف لاقتطاع أراضي أندلسية. الكل عندنا يعرف أن نقض العهد عندهم لا يحرجهم كثيراً، فهم، والبربر في العدو، ليسوا كالعرب الذين تربطهم الكلمة وتكتفهم. لقد شعروا بقوة وحدتهم، وعرفوا بحروب الأندلس في العدو، وشاهدوا سحب القوات من الشمال وإرسالها عبر الماء

للجنوب، وحتماً وصلتهم كل الإشاعات والحقائق عن مرض الخليفة والخلافات القائمة، وتكليف هشام ببعض مهام والده، فلماذا لا يحاولون إذا اختبار القوة والزحف جنوباً؟ المهم انهم، للآن، فازوا بالخسائر أكثر من الفوائد، وعادت الثغرات تُسد في الثغور.

خسرت قرطبة قبل انقضاء هذا العام أحد أشهر علمائها، وهو موسى بن شنوك، وعزيت مع جدّي وأبي جارنا السادس، وطلبنا منه مصاحبتنا أيضاً إلى حاخام قرطبة حيث أعرب جدّي عن اسفه عما أصاب الجالية اليهودية من خسارة بفقدان العلامة موسى. قصة موسى بدأت كأسطورة إذ قيل إن قرصاناً أندلسياً أسر سفينة مغادرة إحدى الموانئ الرومانية وكان بها، إلى جانب آخرين، أربعة أحبار يهود من خريجي معاهد بابل. أحد الأربعة كان موسى بن شنوك وابنه حنوخ، بالإضافة للحرين سحرية وهوسيل. بيع موسى وابنه كعبيد في قرطبة، وبيع هوسيل في القيروان وسحرية في الإسكندرية. قيل إن كلاً منهم قد أفتدي وانشأ في مدينته مجمعاً علمياً لنشر معارفهم البابلية. في قرطبة تم افتداء موسى وابنه من الاستعباد فوراً، واشترك موسى بالفعل في إقامة المجمع بمساعدة ودعم من حسداي بن شبروط طبيب الناصر وابنه الحكم. ولازال حسداي يواصل عمله من المجمع وينشر علومه عبر العالم. يوفر المجمع فرص تعليم الأدب والموسيقى والرياضيات، والطب طبعاً بإشراف حسداي، إلى جانب العلوم الدينية بإشراف موسى وابنه. من حسن الحظ أن الأحبار الأربعة كانوا من اتباع مدرسة سعديا الفكرية ولم يكونوا من القرائين الأصوليين. سعديا كان يؤمن بالوحي والتواتر، أي الشريعة المكتوبة وغير المكتوبة، مثل القرائين، ولكنه كان أيضاً يؤمن بالعقل ويطالب إذا تعارض نص الكتاب المقدس مع العقل أن يُفترض بأن النص المعني لا يمكن للعاقل أن يأخذه بحرفية. كان سعديا أيضاً يرفض التسليم بأوصاف الله التي عمل بها القراؤون إذ حددوا حجمه وطول ذراعه ولحيته، فالله ليس إنساناً ليأخذ مثل هذه الأوصاف، حسب مدرسة سعديا.

بالعودة لما سمعته من عمي عيسى عن أخبار بغداد، فقد ثارت هناك فتنة بين السنة والشيعة عندما خرج حاكم المدينة بختيار لجلب أرزاق الجند. انتهز جندي تركي الفرصة واخذ زمام الأمور واحرق دار الحاكم عز الدولة بختيار، ثم طالب الخليفة، المطيع، أن يخلع نفسه ويتنازل لابنه. أطاع المطيع، وكان هو الآخر مصاباً بالفالج، واصبح ابنه، الطائع بالله، خليفة، تحت إمرة الجند الأتراك طبعاً. خرج التركي لمحاربة حاكمه الأول المخلوع عز الدولة، واخذ معه الخليفة وأباه، وفي الطريق مات الأب ومات التركي وعاد الجند لبغداد وعينوا تركياً آخر اسمه البتكين. القصة تتوالى باستنجد عز الدولة بختيار بابن عمه سلطان فارس، فيأتي لنجدته ويهزما البكتين ويفر بجنده، لكن ابن العم طمع في بغداد وسجن ابن عمه.

أما أخبار مصر فتوجز بالقول إن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي أرسل ظالم العقيلي إلى دمشق لإخراج قوات القرامطة منها، وبعد نجاح مهمته حدثت فتنة بين قواته وبين أهل دمشق. هرب القرامطة إلى الرملة في فلسطين واحتلوا ساحل طبرية ثم قرروا الزحف على مصر طالما قواتها في دمشق. لكن الخليفة الفاطمي اتفق سراً مع قبيلة الطائي التي تناصر القرامطة ووعد زعيمها بمائة ألف دينار إذا تظاهر بالانهزام أمام القوات الفاطمية وخذل القرامطة. في هذه الأثناء دخل بتكين وجنده الأتراك الهاريين من معركة بغداد، دخلوا دمشق واحتلوها وأعلنوها تابعة للخلافة العباسية وليس الفاطمية. على الجبهة المصرية هرب الزعيم القبلي مقابل الدنانير وخذل القرامطة فطوردت قواتهم وتشتت وعاد من نجا منهم إلى الاحساء بلدهم الأصلي في جزيرة العرب.

حتى تكتمل صورة الشرق نورد انه في شمال دمشق، أرسل الإمبراطور البيزنطي زيمسكس قائداً أرمنياً لغزو ديار بكر وربيعة، لكن أمراء المنطقة هزموا قوات الإمبراطور واسروا القائد وحملوه مكبلاً إلى الموصل حيث مات هناك من جراحه. بالطبع الإمبراطور جهز حملة

جديدة للانتقام من ديار بكر. في هذا العام توفي في القاهرة الخليفة المعز لدين الله، وتسلم الخلافة ابنه العزيز بالله. أثناء مرض الخليفة الحكم تمكن الوزير جعفر المصحفي من إقناعه بتوفير نفقات قادة العدو وفي مقدمتهم حسن بن قنون وإبعادهم من البلاد بشرط ألا يعودوا إلى المغرب حتى لا يثيروا المشاكل هناك. اخذ المصحفي عليهم الموائيق والأيمان، وتركهم يغادرون. ركبوا البحر من المربة إلى الإسكندرية فالقاهرة حيث استقبلوا هناك بحفاوة من الخليفة الفاطمي الجديد الذي أرسل إلى الخليفة الحكم المستنصر هجواً وذماً، فرد عليه الحكم بعبارة واحدة قال فيها: "قد عرفتنا فهجوتنا، ولو عرفناك لأجبناك." وكان هذا اشد طعن في أصول الخليفة الفاطمي ونسبه.

فسيفساء سياسية لا نهاية لها، وخلفاء شكلاً بينما الحكام جند مرتزقة وفئات متنازعة وأمن مفقود وفرق لصوصية تجمع ضرائب وتقطع الطرق. كل ذلك يفسر طبعاً زيادة أعداد الوافدين إلى الأندلس، عمال يسعون للرزق، وتجار يبحثون عن الأمان والأرباح، وعلماء طامعون في العطايا وحرية القول والتأليف، وكثر الأفارقة السود الذين وصلهم الإسلام مع التجار واصبح من الطبيعي لهم التجول في بلاد الإسلام. هذا كله من دون نسيان أسواق العبيد التي تضح الصقالبة من شرق أوروبا وجزر البحر.

طلائع الشقاء

مرت أربعة عشر شهراً من الإقناع والتحايل والدلال حتى نجحت صبح بإقناع الخليفة الحكم إعلان ولدها هشام ولياً للعهد. في يوم الجمعة مستهل جمادى الآخر من عام 365 جلس الخليفة في قصره بالزهراء وافتتح الكلام بما عزم عليه وألزم الحضور بذلك وأخرج الكتب الموقع والمشهود عليها إلى كل كور الأندلس، وطلب من الأئمة الدعاء لهشام كولي عهد من على المنابر. كان هشام قاصراً، ولا يجوز شرعاً منحه الولاية، لكن الأئمة لم يرفضوا، بل إنهم لم يطالبوا على الأقل أن يحدد الخليفة أوصياء من أعمام ولي العهد. ترك الأمر للأقدار، أو بالأحرى لهيمنة صبح على ابنها إذا غاب أبوه. حمل كتب التولي وأمن وصولها، محمد بن أبي عامر وهو صاحب الشرطة وأشد الفرجين بهذا المستقبل القريب لوكيله هشام. منذ ذلك الحين أصبحت دار العامري في الرصافة مكة المتسقين والمحتاجين والمتملقين الذين غشوا بابه ووجدوا سهولة وحسن استقبال منه. أصبحت موائده عامرة لمن يتتاب الدار التي وسعت مساحتها على وجه السرعة. بينما كان العامري يكتسب الناس ويوسع عزوته، فإنه لم يتخلف يوماً عن زيارة دار الحاجب جعفر المصحفي والتودد إليه.

في هذا العام خرج من قرطبة ابنا الأندلسي جعفر ويحيى بن علي ومعهما قوات جديدة إلى العدو ليحلوا مكان الوزير يحيى بن هاشم وقواته، الذي عاد لاحقاً إلى قرطبة ثم ارتحل عنها إلى سرقسطة. ابنا الأندلسي أصلهما من الشيعة البربر وانضموا للأندلس ورحب بهما الخليفة الحكم حتى سمع عنهما التشنيع في حقه فأمر بحبسهما حتى اعتذرا

ووافقا على الخروج للقتال في العدو، فأخرجهما من السجن مكرمين. الخبر الآخر الذي انتشر في قرطبة وأثار بعض الاستغراب، كان إصدار الخليفة الحكم أمراً إلى الوزير جعفر المصحفي بإطلاق سراح أبي الاحوص التجيبي من سجن المطبق مع أصحابه الذين جلبهم رشيق أسرى من لارده. لم نعرف إذا كانوا قد سجنوا ظلماً، أم أن جريمتهم صغيرة وعقابهم كان كافياً. على الأغلب أن أقاربه من عائلة التجيبي توسطوا في الأمر وتعهدوا بردع قريبهم الخائن وضمان حسن سلوكه في المستقبل.

عاود الفالاج الخليفة في مطلع الشهر الثاني، صفر، من العام الهجري 366، وكان هذه المرة وحيداً في حمام قصره بالزهراء. عشر عليه خادمه الصقلي جودز وقد توافاه الأجل، فأخبر خادمه الآخر فائق، وكلاهما من كبار الصقالبة، فائق مسؤول عن البريد، وجودز صاحب سوق الصاغة والبيازة، وكلاهما مخول بأمر الصقالبة في القصر وخارجه. تبادل الإثنان في الأمر قبل الإبلاغ عن الموت، وقررا إخفاء الجثة ريثما يعلمان المغيرة، أخت الخليفة، بالأمر ليرتب بدوره شأن تولي الخلافة بعد أخيه. السبب في انقلاب الصقليين على أمر وليهما الميت بمبايعة هشام، يعود لخوفهما على مصير الصقالبة في القصر وفي البلاد لو أدار المصحفي والعامري الأمور كأولياء وحجاب على هشام. أراد خليفة قوياً يؤمن الاستفادة منهم بدل متنازعين متنازعين على رقابة وحجابه طفل مما سيضعف موقع الصقالبة.

"سنخبر مولانا المغيرة ونطلب منه أخذ الخلافة بدعم منا وبشرط أن يحافظ لابن أخيه هشام على ولاية العهد عندما يكبر".

"هذا رأي حسن يا فائق لو أراد الله، فهكذا نقوي أنفسنا، ونفي لمولانا الحكم بضمان الخلافة لولده. دعنا نطلب من الوزير جعفر المصحفي الحضور إلى هنا بدعوى مقابلة الخليفة ثم نضرب عنقه، فيتم أمرنا ونرتاح من الانقلابات".

"سبحان الله يا جودز، تشير بقتل حاجب مولانا وشيخ من مشايخنا

راوي قرطبة

دون ذنب، ولعله لا يخالفنا فيما نريده، الأفضل ألا نفتتح الأمر بسفك الدم، دعنا نستشير ونفهمه أن هذا ما نريده".

أرسل فائق في طلب جعفر، ولم يكن أي شخص آخر حتى هذه اللحظة يعلم بموت الخليفة. عرضا عليه الخطة فعرف بالسليقة أن معارضته الآن ستعني ضياع رأسه، فوافقهما بحماس "هذا والله أسد رأي وأوفق عمل، والأمر أمركما، وأنا وغيري فيه تبع لكما. فاعزما على ما أردتما، واستعينا بمشورة المشيخة، فهي تكره الاختلاف، وأنا أسير إلى الباب فأضبطه بنفسي، وأنفذ أمركما".

خرج جعفر وأغلق باب القصر، ولكنه أرسل لإحضار الأعوان مثل زياد بن أفلح وقاسم بن محمد، ومحمد بن أبي عامر، وهشام بن محمد بن عثمان وأشباههم من الوزراء الأنصار للخليفة ولابنه ولي العهد، كما استنجد بأعيان بني برزال كونهم من بطانته واستحضر سائر قواد الأجناد الأحرار في قرطبة والزهراء، وبالطبع لم يرسل في طلب أي من إخوة الخليفة. في الاجتماع نعى جعفر لهم الخليفة وأخبرهم بنكث الصقالبة لبيعة هشام وياشر يحثهم ويحرضهم: "إن ضَمِنَا الدولة إلى هشام أمِنَّا على أنفسنا وصارت الدنيا في أيدينا، وإن انتقلت إلى المغيرة سيستبدل بنا آخرين طلباً لشفاء أحقادنا ضدنا".

تشاور القوم واقنعوا أنفسهم أن أياً من أولاد الناصر أعمام هشام، لن يحفظ لهم شأنهم ومناصبهم. أشار البعض بقتل المغيرة فوراً قبل أن يعرف بالأمر، وبذلك يرتدع بقية إخوته ويتمسكون بالبيعة التي أعطوها لابن أخيهم في العام الماضي. إتفقوا على القتل وجبنوا عن التنفيذ حتى استعد لهم العامري، فقد أحس بسرعة أن هذه ساعته.

"يا قوم إني أخاف فساد أمركم، ونحن تبع لهذا الرئيس جعفر المصحفي، فينبغي ألا نختلف عليه، وأنا أتحمل قتل المغيرة عنكم إن أمرني الرئيس بذلك، فخففوا عنكم". أعجب جعفر بهذا التأييد السريع من العامري وضمن الرئاسة التي أعطها له من دون اعتراض بقية الحضور. أسعده العامري أيضاً بالاستعداد لقتل المغيرة، فوافقه.

"أنت أحق بتولي هذا الشأن الكبير نظراً لخاصتك بالخليفة هشام ومملك في دولته". قال جعفر ذلك معزراً بدوره موقع العامري، وأرسله مع طائفة من الجند الذين يثق بهم وحدد لهم المهمة التي تحركوا من ساعتهم لتنفيذها بينما الآخرون مجتمعين. كان مع العامري القائد بدر، مولى الخليفة الناصر، ومعه مائة من غلمان الخليفة. أحاطوا بدار المغيرة في رصافة قرطبة، ودخل محمد وجماعته عليه فوجدوه مطمئناً على غير استعداد وعلم. نعى العامري إليه أخاه الخليفة وأبلغه أن هشام تولى الأمر وأن الوزراء يخشون خلافه في ذلك. خاف المغيرة واستلطف العامري وأعلن الاستيثار بخلافة ابن أخيه وقال: "أبلغهم إنني سامع مطيع وافٍ ببيعتي، فتوثقوا مني كيف شئتم".

تقول الرواية التي شجع العامري على نشرها، بعد أن استتب الأمر له، إنه عطف على المغيرة وأرسل لجعفر يخبره بقول عم هشام وأنه لا خطر منه حسب الصورة التي وجده عليها، وسأل جعفر مراجعة الأمر بالقتل. حسب الرواية فإن جعفر رد عليه يلومه في التأخير ويعزم عليه في التصميم بكتاب جاء فيه: "غررتنا من نفسك، فأنفذ لشأنك، أو فانصرف، نرسل سواك". عرض العامري الكتاب على المغيرة وتركه في يده وخرج. على الفور دخل عليه الغلمان وقتلوه خنقاً وعلقوا جسده في سقف غرفة نومه وكأنه انتحر. كل ذلك أمام عائلته التي تلقت التهديد من العامري أن يغلقوا على أنفسهم الدار ولا يتحدثون بما جرى إذا أرادوا ضمان حياتهم، وأجبرهم على دفن الجثة في حديقة المنزل. قبل أن يغادروا دار المغيرة أشاعوا أنه خنق نفسه عندما أكرهوه على الركوب لابن أخيه لتقديم الطاعة. كان سن المغيرة سبعاً وعشرين سنة، وهشام لم يبلغ الثانية عشرة، بينما مات الحكم عن خمسة وستين عاماً.

سمع فائق وجودز بقتل المغيرة وبإعجاب الحاجب جعفر من وزيره القاتل، محمد العامري، فقال جودز لفائق: "نصحتك أن تقتل جعفر فلم تسمعني. دعنا نسرع إليه الآن ونظهر السلامة طلباً للأمان". وصل خادما الخليفة إلى الحاجب قائلين: "إن الجزع أذهلنا عما أرشدك الله إليه،

راوي قرطبة

فجزاك الله عن ابن مولانا خيراً، وعن دولتنا وعن المسلمين". أظهر
جعفر لهما بعض القبول حتى لا تتعكر الأجواء في فترة الاستعداد لأخذ
البيعة بخلافة هشام. لكن النفوس لم تصفَ بالطبع.

صراع الثعالب

أخذت البيعة لهشام من الخاصة والعامة بعد انتشار خبر قتل المغيرة. اختير لهشام بسرعة لقب "المؤيد بالله"، ونقش على خاتمه الخلافي "هشام بن الحكم، بالله يعتصم" وجلس بين يديه وكيله العامري، بينما قاضي الجماعة محمد بن اسحاق يأخذ له البيعة على من حضر المجلس من الأعمام وأبنائهم والوزراء وطبقات أهل الخدمة ورجالات قريش ومشاهير قرطبة. يوم الجمعة دعا الأئمة في مساجد قرطبة للخليفة الجديد، لكن الحضور لم يظهروا تأييداً شديداً أو يرفعوا أصواتهم بقول أمين يا رب العالمين، ناهيك عن أية مظاهر غبطة حقيقية بين الناس لهذه البداية. في يوم السبت طاف الخليفة الجديد في قرطبة بأزهى الحلل على حصانه وبصحبة العامري ومن حولهم وخلفهم الجيش لإرهاب كل من تسول له نفسه بالخلاف والنقد، أصبحت الرسالة واضحة للجميع. بعد الظهر نودي في قرطبة بإسقاط ضريبة الزيتون المأخوذة على الزيت، وكان الناس يكرهون تلك الضريبة، فعم السرور بعد موجة الإرهاب، وسرت الإشاعات أن صاحب الفكرة هو العامري وليس هشام. في هذا اليوم أيضاً، كما عرفنا لاحقاً من المنادين، قلد الخليفة الحجابة إلى وزير أبيه جعفر، ورفع العامري إلى خطة الوزارة بدل الشرطة الوسطى وعيّن مساعداً ونائباً للحاجب. كان ذلك بالطبع شكراً من صبح، أم هشام، لجعفر وللعامري على ما فعلاه ولضمان طاعتها لها كونها المشرف الحقيقي على ولدها الخليفة.

في الحقيقة، وكما يعرف كل أندلسي، فإن العامري من صنع صبح البشكنسية، ولكنه ثبت نفسه أيضاً بخدمة الحكم وبتقريبه لقبائل العدو

عندما عينه الخليفة هناك أثناء الحرب. أما جعفر فهو رفيق للحكم منذ الصبا، كونه ابن عثمان بن نصر المصحفي الذي تأدب الحكم في الصغر على يديه. عندما تقلد الحكم الخلافة بعد والده الناصر سلم جعفر، بعد ثلاثة أيام فقط، خطة الوزارة والكتابة الخاصة، ورقاه باستمرار حتى أدار الشؤون بالنيابة عنه أثناء مرضه. الآن أصبح جعفر يتيماً وإن كان لا زال في أرفع منصب كحاجب للخليفة الجديد، ولكن عليه التقرب إلى صبح مباشرة او عبر العامري الطموح. الترجمة الحتمية لذلك أن التنافس بين الرجلين لا مناص منه، وعليهما تنصيب مؤيديهم في مواقع كثيرة وحساسة لضمان السيطرة والمستقبل. أيضاً على كل منهما كسب المؤيدين من الرجال والقوات وقادة الأجناد، وكان جعفر قد نصب الكثيرين من أقاربه بعد مرض الحكم.

قبل أن ينقضي العام الأول على تنصيب هشام كانت أحوال العامة والخاصة والقصور في قرطبة قد ارتجفت وتغيرت بما لا يصدق في الخيال. شاء الله أن يموت ذلك العام أيضاً أبو علي القالي مؤلف الأمالي، والنحوي محمد بن يحيى، والأديب أبو مروان المرادي، وعبد الملك بن سعيد، فشاع أنها سنة الأذباء.

أول الضحايا للمتغيرات السياسية كان عامة الناس وأمنهم، فقد انتشرت عصابات مجرمين في شوارع المدينة ليلاً مما اضطرت الناس إلى تناوب الحراسة والحماية لشوارعهم وأحيائهم وبيوتهم. أحياناً كانت الإشاعات تؤكد أن جعفر يحرك الإرهابيين ويمنع التعرض لهم، وأحياناً أخرى دارت الإشاعات ضد العامري. الضحية الثانية كانوا الصقالبة، وكان تعدادهم أكثر من ألف من الجند في القصور خدموا الناصر والمستنصر، بل إن الحكم المستنصر سكت سابقاً عن تعدياتهم على الناس وقال حينها إنهم "أمنأونا وثقاتنا على الحرْم، فينبغي للرعية أن تلين لهم". كان التخوف بينهم وبين جعفر إثر إفشائه خطتهم قد أخذ مداه، وأذكى جعفر عليهم العيون وبلغه أن فائق وجودز يدبران ضد الدولة، وهذا ما دفعه لاستشارة العامري في التخلص منهم. خطة

العامري كانت أن يفرق شملهم، فأخذ أمراً بالإشراف على خمسمائة منهم، فأحسن إليهم واكتسبهم واستقوى بهم وهو يدعي لجعفر أنه فرق شملهم وتحكم فيهم. إلى جانب الصقالبة انحاز بنو برزال إلى العامري، وهم أول أهل العدو الذين ايدوا الخليفة وقتلوا زيري وجماعته وأصبحوا نواة لقوات مغاربية في خدمة قرطبة. إلى جانب الصقالبة وبني برزال كسب العامري أيضاً سائر جند الحضرة، فحفّت وزن بقية الصقالبة عنده. حاول جودز الفوز برضاء الخليفة هشام عبر الاستئذان بالذهاب إلى داره ظناً منه أن طلبه لن يستجاب وموقعه سيُعزز، ولكن جعفر تركه يستقيل، وأصبح الصقلبي دُري قائد الصقالبة. هنا أيضاً أشار جعفر على العامري التخلص من دُري، فدفَع هذا ببعض الناس للشكاية من تعديت الصقالبة وقطعهم للطريق، وعندما قدم جعفر الشكاية للخليفة ايده العامري.

التفاصيل التي عمّت قرطبة حول نهاية الصقالبة تقول، إن دُري طُلب للحضور إلى بيت الوزارة للتحقق من الشكاية ضده. عندما وصل إلى هناك توجس شراً بعد مشاهدته الاستعداد القائم فارتدّ عائداً، لكن محمد بن أبي عامر منعه، وعندما حاول القبض عليه حدث عراك بينهما وأمسك دُري بلحية العامري وأخذ يهزه منها. لم يكن العامري قبل الآن مقاتلاً، فأخذ يستنجد بالحضور وأجابه بعضهم من بني برزال وخلصوه من دُري وأوجعوه ضرباً وأصابته ضربة بعرض السيف أطارت عقله، فحُمِل إلى بيته وخنق هناك تلك الليلة. النتيجة الحتمية لهذه التطورات توجيه أمر لفائق وبقية الصقالبة بالخروج من القصور إلى ديارهم وعدم مغادرتها. استكمل العامري المهمة بملاحقتهم في بيوتهم وتجريدهم من أموالهم وأملاكهم، وهرب فائق إلى الجزائر الشرقية مقهوراً. مما أشعر به سعيد الشنتريني في تلك المناسبة قوله الركيك:

أُخرج من قصر إمام الهدى كل فتى منبسط جائر
فمن رأينا منهم قال لا مساس فعل الناس بالسامر
فخف ظهر الملك المرتضى قد خف من ثقلهم الظاهر

وسال ماء العلم من وجهه مذ زال من جهلهم الخائر
فلازم الاقراء في قصره مع الوزير الخير الطاهر
الضحية الثالثة للعامري في تسلقه السريع للسلم كانوا سكان ممالك
الشمال. كالعادة تشجع ملوك النصارى بموت خليفة وناوشوا الثغور،
فاستنجد أهلها بقرطبة، ولم يتمخض عن جعفر المصحفي غير نصيحة
إلى سكان قلعة رباح بهدم سد الماء على النهر لإبعاد خطر المهاجمين.
كانت هذه سقطة لجعفر واستهجن الناس هذا الأمر، فأخذ جعفر يكيل
التهم لغالب في تقصيره في حماية مدن الثغور. إنتهز العامري الوضع
وهوّل لجعفر الخطر المفترض والمحتمل بعد تولي هشام، واقترح إعداد
جيش قوي للجهاد. لم يكن هناك موانع أمام جعفر الذي أراد ردم قصة
هدم السد، وأيضاً كسر شوكة منافسه القديم القائد الأعلى غالب خوفاً
من عودته لقرطبة والاستيلاء على الأمور، خصوصاً وأنه الرجل الأشهر
والمحبوب من الرعية. عرض جعفر قيادة الجيش على الأكابر في قرطبة
ولكنهم رفضوا، فتطوع العامري للمهمة، وربما كان رفضهم بطلب من
جعفر حتى يتخلص من العامري الذي اشترط التجهز بمائة ألف دينار،
وعندما اعترض بعضهم على ضخامة المبلغ قال له العامري "خذ ضعفها
وامض، فليحسن غناؤك". فسكت المعترض.

تسارعت التطورات في صالح العامري الذي خرج بالجيش لينجز
أولى غزواته. لم يتوجه إلى تجمعات جند ممالك الشمال، ولم يهدف
إلى استعادة الأرض التي زحفوا عليها في السابق، وإنما تحرك إلى
حصن الحامة القريب والتابع لجليقية، فحاصره وعمل سبياً ونهباً في
ربضه وجواره وعاد بعد ثلاثة وخمسين يوماً إلى قرطبة فوزع السبي
والغنائم على الجند الذين زادوا حباً له بعد إكرامه لهم وإغداقه عليهم
في الرزق والموائد أثناء المسير. لم يهدر العامري الكثير من الوقت
وكتب إلى القائد الأعلى غالب بأن الدسائس كثرت ضده وأنه يبذل كل
ما في وسعه لضمان هيئته ومركزه عند حرم الخليفة الحكم وابنه. وبالفعل
عزز العامري موقف غالب وأزال الإشاعات التي روجها جعفر عن

تقصيره في مواجهة الأعداء وفاز له من الخليفة بمنصب خطة الوزارتين. عندما وصلت رسالة الخليفة إلى غالب بذكر منصبه الجديد جاء فيها أيضاً أن عليه الاجتماع مع ابن أبي عامر على تدبير الصوائف سوياً وأن يدير العامري جيوش الحضرة ويدير غالب جيوش الثغور.

بعد ثلاثة وثلاثين يوماً فقط تحرك العامري بالصائفة بشكل درامي إذ خرج يوم عيد الفطر للقاء مع غالب في مدينة مجريط التي بناها الخليفة الناصر رحمه الله. هناك رتبا للمؤامرة بينهما ضد جعفر، وكان العامري قد كسب فؤاد غالب إثر دعمه في القصر وعند الحریم. خرجا سوياً بالقوات وفتحوا حصن مولة وفازوا منه بسبي كثير كان معظمه لغالب الذي تنازل عنه للعامري. هبطا إلى مدينة سالم بعد الغزوة، وقبل أن يفترقا متفقين على تفاصيل خطتهما ضد جعفر، قال غالب للعامري: "سيظهر لك بهذا الفتح والسبي والغنيمة اسم عظيم وذكر جليل في قرطبة، وسينشغل الجميع عما خططنا له والقصة التي عليك تنفيذها. إياك أن تخرج عن الدار وقرطبة مجدداً قبل أن تعزل جعفر عن المدينة وتتقلدها لوحده". إنتفخ العامري بهذا التأييد من حامي الحمى، وعندما وصل قرطبة عرف أن غالب سبقه برسائل إلى الخليفة أظهر فيها إبداع العامري في الحرب وحسن تصرفه ونسب إليه السعي والاجتهاد. كان من بنود الخطة أن يوزع العامري الغنائم على أهل قرطبة ويبيع عليهم السبايا بأرخص الأسعار، فاكتمسب من يومها لقب "الجلاب" فكان ذلك ذا معنيين لأهل قرطبة، فالجلاب هو النحاس بائع العبيد، وبائع الحمير جلاب أيضاً.

ضحية جديدة

ضبطت شرطة العامري بعض اللصوص الذين يروعون قرطبة، واشيع اعترافهم بعلاقة مع أحد أقارب جعفر. هكذا اقترح العامري على هشام وأمه أن يحدوا من صلاحيات جعفر من دون إشهار السبب لأن الخلافة سيصيبها الضرر إذا عرف أهل قرطبة علاقة الحاجب جعفر بهدر الأمن. كتب الخليفة أمراً بخلع جعفر عن المدينة وتقليدها لابن أبي عامر الذي لبس الخلع الخاصة بهذا المنصب وخرج إلى المجلس ليجد عثمان بن جعفر جالساً بفخامة على كرسيها. تقدم العامري وصحبه ينهرون ابن جعفر الذي حمل لباسه وهرول، فاتبعوه بدابته لتحمله إلى داره. أصبح العامري مالكا للشرطة، وللجيش، وللبيربر، ولقلوب الحرير في القصر، ولم يبق لجعفر أي تأثير أو منفذ يصل منه إلى وضعه السابق، واصبح عليه أن يبحث عن منخرج ومهرب. أما العامري فقد ضبط أمر المدينة فوراً وتبخر خطر اللصوص والمجرمين، وقمع الفاسقين واغلق بيوت الدعارة. لاستكمال المسرحية أمر العامري بجلد علني لابن عمه عسقلجة بحجة تعديه على أهل السوق، ثم عين ابن عم آخر، هو عمرو بن عبد الله بن أبي عامر، على المدينة وأوصاه بالمزيد من ضبط الأمن. هذا التعيين جاء للوفاء بعهد قطعه العامري على نفسه لبعض أصدقائه أثناء تنزههم في قرطبة، ويبقى لإكمال العهد أن يتولى ابن المارعزي السوق وابن الحسن القضاء في مالقا ليشيع من التين هناك.

قبل انقضاء عام التحولات هذا، رمى جعفر بآخر شبابه. كاتب غالب ولاطفه وخطب ابنته أسماء لابنه ونجح في تحرير عقد المناكحة، لكن العامري عرف بالأمر وذكر غالب بالعهد وتمنى عليه فسخ العقد

لأنه يريد أن يخطب أسماء لنفسه. أرسل العامري واسطة من كبار القوم لإقناع غالب، ففُسخ العقد مع جعفر وعقد لأسماء على محمد بن أبي عامر الذي تعهد أن تصبح أحظى نسائه إلى قلبه.

جاء موعد غزوة العامري الثالثة، فدخل إلى طليطلة واجتمع مع صهره غالب فاستقبله بعظمة وفخامة. خرجا سوياً لافتتاح حصن المال وحصن زنبق ومهاجمة مدينة شلمنقة واحتلال أرباضها. مرة أخرى عاد العامري محملاً بالغنائم والسبايا ورؤوساً مقطوعةً إلى قرطبة بعد أربعة وثلاثين يوماً فقط من مغادرتها. لم يعد أحد من قبله بهذا الحجم من الغنائم مجلوبة من تلك المسافة البعيدة بمثل هذه السرعة.

تحولت سرعة حركة الجيش إلى حديث أهل قرطبة قبل أن تطغى علينا أحداث جدد. في الجامع تطرقنا في دروس الفلك وعلى هوامش تعليمي اللاتينية، تطرقنا مثل غيرنا لنقاش عنصر السرعة، هل الأمر سليماً أم كذباً؟ هل يمكن للجيش القيام بجولة طولها حوالي ثمانمائة ميل وتتخللها معارك، في أربعة وثلاثين يوماً؟ وماذا يعني هذا الحدث والتطور لو كان صحيحاً؟ كنت في حلقات النقاش من مؤيدي احتمال القيام بالجولة بهذه السرعة أو أسرع. قلت إن ساعة سير جاد على الأقدام أو الخيل تنجز أربعة أميال، وبالتالي فمسيرة نهار تؤدي لأربعين ميلاً من دون ركض أو استراحة طويلة. هكذا فالعشرة أيام تعطي نتيجة أربعمائة ميل للذهاب ومثلها للعودة وبقاء أسبوعين للاستراحة والمعارك وحسابات الطوارئ. كان المعترضون يقولون إن هذه الغزوة جاءت في الصيف وشملت شهري سبتمبر وأكتوبر، والجند والخيل يحتاجون لطعام واستراحة تسلب منهم أوقاتاً من النهار. عموماً لا يمكن تركيب كذبة ضخمة يشترك فيها كل الجند بالادعاء أنهم وصلوا طليطلة وصعدوا منها إلى شلمنقة قبل عودتهم هنا، وبالتالي فقد فعلوها، وكان بوسعهم السير أسرع. بالطبع فهذا الطريق سالك منذ مئات السنوات، والأطعمة والمبيت مرتب عليه ويستعمله الجند مرتين في العام، ولم تكن الأموال تنقص العامري وغالب حتى الآن.

العنصر الأهم الذي سمعته من أبي صراحة، ومن بعض الشيوخ في الجامع مواربة، لا يتعلق بالسرعة، وإنما مغزى الغزوات. "ماذا يعني أن تذهب للقمر وتعود بسرعة إذا لم تمكث هناك وتفتح البلاد وتنشر الإسلام والعدالة؟ هل نحن بحاجة للأموال والنساء لنرسل جنودنا للنهب السريع والترويع والسباق في العودة لكسب دعم الرعا في قرطبة؟" كانت تساؤلات أبي غاضبة تذكرني بما كان يقوله لي منذ سنوات عن العامري الذي يتسلق السلم الآن بسرعة البرق ويحشد التأيد من دون أي إنجاز حقيقي. مما تعلمته أيضاً في الفروسية ومبادئها ان لا يتطرق المسلم للنهب والسلب، وإنما جهاد الدفاع وجهاد إعلاء كلمة الله. غزوات العامري للآن تسلب وتنهب وتوصم القرآن والمسلمين بغير صفاتهم.

كان الناس يضحكون وهم يتبادلون خبر أن راتب العامري ارتفع الآن إلى ثمانين ديناراً، الأهم طبعاً أنه بهذا الإنجاز ارتقى إلى منصب خطة الوزارتين مثل صهره غالب، الذي استجاب لطلب الخليفة وحضر مع ابنته أسماء إلى قرطبة لتزف إلى محمد العامري في مشهد فخم داخل قصر الخليفة بالزهراء. تولى هشام أمر العروس الشرعي وتولت أمه والحريم إعدادها، وشهد كل من رآها على روعة جمالها وحسن تأديها. كان المستفيد مؤقتاً من انشغال محمد بجمال عروسه أسماء طوال ثلاثة شهور العسل، هو جعفر المصحفي. لكن في العاشر من شعبان صدر الأمر بالقبض على جعفر وابنه وخدامه وعلى ابن أخيه هشام أيضاً. إتهمهم العامري بالاختلاس، وعزلهم عن مناصبهم، ولاحقهم كما لاحق الصقالبة من قبلهم. أخذ أموالهم وأعادها لخزينة الخلافة في الزهراء، برضاء صبح طبعاً، وطالبهم بأموال أنفقوها ولم تعد معهم، فعجزوا عن السداد. أودعهم محمد السجن، وانتهك حرمتهم وشتت عائلاتهم، وباع قصر جعفر في الرصافة لسداد المال. انتقم من هشام، وأخرجه لأهله من المطبق جثة هامدة. سبب كراهية العامري لهشام هذا أنه سرق في الغزوة الثالثة رؤوساً مقطوعة للنصارى حملها العامري لقرطبة، وأمر غلماناً أن

يرموها في النهر، فاغتاظ منه العامري آنذاك وخنقه في أول فرصة أتاحت. بدل أن يتوجس أهل قرطبة شراً من العامري وتصرفاته، تشفوا في بهدلة جعفر واعتبروا ما يمر به انتقاماً ربانياً عما فعله بالمغيرة وتمنى له البعض نفس المصير.

أهل الشائعات في قرطبة رفضوا تصديق أن صبح أشرفت على زينة وزفاف أسماء لمحمد، فذلك يهز قصصهم الشائعة عن الغرام بين محمد وصبح، لكن بعد اعتقال جعفر عادت الشائعات تعشش في الرؤوس إذ تم تفسير تقبل أم الخليفة بزواج محمد وأسماء كضرورة للتحايل على أبيها غالب ليساعدهم، أو ليسكت، عما سيفعلونه في جعفر. هكذا أصبحت صبح مشاركة في مؤامرات محمد إلى درجة قبولها زوجة جديدة سيكون على عشيقها محمد تكريمها لزمن ريثما يتمكنون من الاستغناء عن أبيها. في هذه الأيام أغلظ أهل قرطبة في أوصاف أهل السياسة وعمت الأشعار تقبح أفعالهم، ومما قيل وصفاً للواقع وتقبيحاً لسلوك وخنوع القاضي ابن السليم وتوقفاً لما هو قادم:

إقترب الوعد وحان الهلاك وكل ما تكرهه قد أتاك
 خليفة يلعب في مكتب وأمّه حبلى وقاض يئناك
 لم يقتل محمد العامري جعفر المصحفي فوراً، أخذ يهينه ويحد من هيئته ليثبت للجميع انحطاط نفسه، وربما أراد العامري ادخاره لفترة من الزمن ريثما ينتهي مما يخطط. ساقه إلى مجلس الوزراء مراراً للمحاسبة على التهم التي اختارها له من ماضيه، وكان بعض الوزراء يتملقون العامري بمهانة وبعضهم الآخر لازال يملك بعض المروءة في قول الصدق. في الجلسة الأخيرة للتحقيق بقصر الخليفة في الزهراء أحضر السجنان، واثق الضاغط، جعفر وهو يحثه على الإسراع في المسير من السجن بينما هذا يقول له "رفقا بي يا واثق، ليتني أموت وأستريح". كان الذل قد أوهن عظامه ولكن ذهنه كان متقدماً إذ أنشد في الطريق:

لا تأمنن من الزمان تقلباً إن الزمان بأهله يتقلبُ
 ولقد أراني والليوثُ تهابني وأخافني من بعد ذاك الثعلبُ

حسبُ الكريم مهانة ومذلة ألا يزال إلى لئيم يطلبُ
دخل جعفر مجلس الثعلب العامري بحضور الوزراء ولم يلق عليهم
السلام، فأسرع إليه الوزير محمد بن جابر يعنفه ويوبخه على ترك
التسليم، بينما جعفر لا يرد عليه حتى أكثر ابن جابر في التعنيف فقال له
جعفر: "يا هذا جهلت المبرة وأصول المواقف فاستجهلت بقولك العالم
بها، وكفرت بيدك وقصرت عن أسدوا لك". إضطرب الوزير ولكنه بدل
التأمل في كل ما سمع عاد للقول منكرًا أية أيادٍ بيضاء من جعفر عليه
وأخذ يعدد له التهم والإساءات.

"تتناسى إذًا يوم أنقذتك من تهمة الاختلاس للمال؟"

"أي اختلاس هذا! التهم ثابتة ضدك الآن وتنكرها، ثم تدعي أنك
أنقذتني من بوائق؟"

خاطب جعفر الحضور: "أنشدُ الله من له علم بما ذكرت أن
يتكلم". لم يكن أمام الوزير ابن معاش سوى قول "قد كان بعض ما
ذكرته" وطالب زميله الوزير بالرفق في معاملة جعفر.

دبت المروءة في أوصال الوزير محمد بن جهور فخاطب الوزير
محمد بن جابر "أو ما علمت أنه من كان في سخط السلطان تحاشى
السلام على أوليائه، لأنهم إن ردوا السلام عليه أغضبوا السلطان
لتأمينهم له من إخافة، وإن تركوا الرد، أغضبوا الله لمخالفتهم ما أمر به
من رد السلام؟ فكان الإمساك عن إلقاء السلام أولى! ومثل هذا لا
يخفى على أبي الحسن، جعفر". خجل الوزير ابن جابر من تذكرهم
لاختلاسه وإظهارهم لجهالته بالأصول واصفر وجهه خوفا وسكت.

بدأ الوزراء المناظرة حول المال المفقود سائلين جعفر بالسداد فقال
لهم: "قد والله استنفدت ما عندي من الطارف والتالد، ولا مطمع في
درهم طرفي ولو قطعت إربا إربا". أمر العامري بإعادته إلى سجن
الزهراء، وأبلغ مجلس الوزراء فيما بعد أنه لن يحكم عليه أو يقتله قبل
الاعتراف بمكان النقود.

"سأحملة معي في الصوائف والشواتي، وأعيده للحبس كلما حلت بقرطبة".

ظنون جعفر بالعامري دفعته لوداع أهله وكأنه ذاهب للموت. إنتظروه على باب السجن فأخبرهم: "لقد وقعت إجابة الدعوة، وأنا أنتظرها منذ أربعين سنة!" سأله الأهل أن يفسر لهم ما قال.

"أيام الخليفة الناصر وشى بعض الناس برجل، فأمرت بضربه وتغيير نعمته وإطالة حبسه. بينما أنا نائم ذات ليلة إذ أتاني آت فقال لي: أطلق فلاناً فقد أُجيبت دعوته فيك، ولهذا أمرُّ أنت لا بد لاقية. على إثر ذلك قمت مدعوراً من النوم وأحضرت الرجل وسألته إحلاله، وبعد تمنع واستحلاف أبلغني بما خصني به من الدعاء وقال: نعم دعوت الله أن يُميتك في أضيق السجون، كما أعمرتني به حقبة. والآن كما ترون فقد وجبت دعوته وندمت حيث لا ينفع الندم، ومنذ أطلقت سراح الرجل وأنا أرتقب الموت في السجن".

الانبهار من غزوات العامري، أو التشفي مما يفعله بالمصحفي، أرضى شعور العامة، بينما الخاصة من غير المنافقين ومن غير الملتحقين بخدمة العامري، توقعوا شراً لا بد آت من جراء هذه السياسة التي بدا ظاهراً أنها تطوي صفحة الأمويين بسرعة. بالطبع محمد العامري يتصرف كحاجب للأمير هشام ويستصدر منه التعليمات والأوامر، لكن الحقيقة أيضاً أنه تخلص من الحاجب الذي كان قد اختاره الحكم لذاته، ومن الصقالبة، وأخذ يقرب البربر ويطعم بهم جيش الحضرة الذي عادل بسرعة جيش الثغور تحت قيادة صهره. مؤيدو العهد الأموي يجدون أنفسهم الآن أمام خيارات الخنوع، أو التملق، أو التمرد. أصبح الخوف سيد المواقف للجميع خصوصاً بعد تسرب أمراء بني أمية من قرطبة والتخفي في كور الأندلس خوفاً من مصير مشابه للمغيرة. غالبيتهم اعتزلوا العمل والقول في شؤون الحكم أكثر مما كانوا معتكفين أيام الخليفة الحكم. أحد أهم مشاكل الأمويين عندنا في الأندلس كانت دوماً موقف العائلة من المناصب، إذا وجدوا الفرصة أو الإذن للمشاركة فإنهم

راوي قرطبة

يختلفون ويقتتلون كما حدث مراراً، وإذا أُبعدوا وحرُموا من المشاركة واتخاذ القرار، كما فعل بهم الخليفة الحكم، فالنتيجة كما نرى تحولت إلى تشريد للأمويين وربما كارثة للأندلس لأن سياسة العامري غير مُجربة وغير معلنة ليتم تقييمها.

غزوتي الأولى

كان والدي شبه مقتنع منذ فترة أن العامري يعرف عدم شغفه به، ولم يكن جدّي أكثر راحة في توقعات المستقبل. أحاديثنا اتجهت أحياناً لطمأنة الذات بالقول، مثلاً، إن العامري يمّني الأصل مثلنا، وأنه بحاجة لدعم عربي يشد أزره رغم أنه لا يتبع سياسة العصبية القبلية وإنما يمارس الأساليب السياسية. أو القول أحياناً أخرى إنه بحاجة إلى مؤيدين نظراً لكثرة خصومة الآن، وبالتالي لن يوسع هجومه إلا على مضاده. إستقر رأي جدّي وأولاده على بيع دار عمي عيسى في الزهراء وشراء غيرها في شقنדה، وأن يشتري عمي عباس هو الآخر منزلاً في قرطبة من دون بيع منزله في الزهراء. في هذه الأجواء قررت إبلاغ أبي برغبتني الاشتراك في صائفة عام 368 الحالي. رتبت الأمر مع جدّي مسبقاً، وقبل إعطاء أبي فرصة لرفضه الفكرة أخذت أعدد محاسن الاشتراك الآن. قلت إن القائد الأعلى لازال على الأغلب يتذكرني، وأن محمد العامري يعرف العائلة ورآني مراراً مع الأمير هشام، وبالطبع سأخذ الإذن والتوصية من الخليفة، ولن أشارك في المعارك وإنما ستكون مهمتي تسجيل الوقائع، وهي المهنة المختارة لي أصلاً ولا بد من ممارستها. أضاف جدّي على ما قلته آراء تصب في خانة أن الاشتراك الآن أكثر أمناً لي من الاشتراك لاحقاً، فعمري الآن يقترب من الخمسة عشر عاماً والظروف كلها تحول بعدم اشتراكي في القتال، وإنما الفائدة المنشودة هي كسب الخبرات والمعينة لتحديد خيارات المستقبل. "لا تنس أن غزوات العامري سريعة، وهي باتجاه الشمال وليس الجنوب، وجند وأهل ممالك الشمال يتركون بلادهم قبل وصول جنودنا، ويعودون إليها

بعد مغادرتنا، وسيكون سليمان قد عاد إلينا قبل أن نفتقده. " كلامٌ مبالغ فيه طبعاً، ولم يكن أمام أبي سوى الموافقة.

بدأ البروز للصائفة بتوافد أجناد الكور وتعسكرهم في فحص السرادق قرب قصر الرصافة القديم الذي بناه الأمير عبد الرحمن الداخل شمال قرطبة. آنذاك كان القصر ومنيته بعيداً عن الدور، والآن اتصل العمار وأصبحت ساحة فحص السرادق تجاور الرصافة من الشمال. وصل عبد الرحمن ضمن ثلاثمائة من جند شذونة، وأوفيت بوعدني أن أعرفه على عمي عيسى وعلى بقية العائلة، وكان في ذلك طمأنة إضافية إلى والدي، وبالطبع لأم سليمان. إكتمل تجمع حوالي تسعة آلاف رجل هم خليط من المتطوعين وجند الكور وجيش الحضرة الذي يقيم في الزهراء وأصبح يضم أعداداً متزايدة من البربر الذين يجتلبهم العامري ويزيد أعدادهم مع كل غزوة. في العادة كان الخليفة، أو من ينوب عنه، يقود الجيش ويخرج به حتى ينضم تحت إمرة جيش الثغور أيضاً، لكن الترتيب القائم الآن أن يقود العامري جيشنا ويخرج بنا من قرطبة، ويبقى جيش الثغور تحت إمرة القائد الأعلى غالب الذي يقترب عمره من الخامسة والسبعين. التوقعات بين الجند أن يترك غالب لصهره اليد الطولى في أمر الجيشين كما فعل في المرات السابقة.

إنتهى البروز في أقل من شهر، وخيم العامري محاطاً بجند الحضرة في وسط السرادق أثناء اليومين الأخيرين. كنت متسلحاً بكتاب الخليفة الذي يكلفني بكتابة سيرة الصائفة ضمن رواية وكتاب آخرين، وعزز جدّي وأولاده موقعي بزيارات متتالية للفحص وتعريفي بمعارفهم. طلب مني العامري بحضور جدّي وأبي أن أهتم أثناء المسير بخيران وأعلمه اللغة العربية. خيران هذا في حدود العاشرة من العمر، وهو أحد الصبية الذين سباهم محمد العامري في غزوته الأولى واتخذه كأحد غلمانته الذين يتباهم ويرافقونه وأصبحوا ينتسبون إليه.

لم يكن لدينا هدف معلن نحققه هذه الصائفة. خرجنا باتجاه الشمال يصاحبنا صدى الطبول، وكانت البغال المحملة بخيام قد سبقتنا، وقبلها

بأيام خرج البريد إلى كور الوسط والشرق والغرب الأندلسي بموعد المسير، كما خرج جواسيس وكشافة لمراقبة الطرق التي نسلكها، وكان على بعضهم استباقنا إلى مدن الثغور وخط نهر دويرة لتحديد قوات واستعداد وأماكن تجمعات العدو. كان جواسيس الثغور يقومون بمثل هذا العمل أيضاً، ولكن العامري أكثر من جواسيسه وحافظ على تواصل بريدي دائم معهم طوال الرحلة. كل يوم ينضم إلينا الكثير من المتطوعة وأجناد الكور الذين يوافوننا على الطريق التقليدي بين قرطبة وطليلة مروراً بعشرات القرى وعدة مدن كبيرة. على الطريق وجدت أيضاً قلاعاً وحصوناً وفيما بينها أبراج البريد التي يفصلها عن بعضها حوالي عشرة أميال. قبيل حصن الارك وصلت للعامري أخبار دفعته إلى تغيير مسارنا من الشمال الشرقي باتجاه طليلة إلى الشمال الغربي، وحاذينا نهر وادينا على ضفته الشمالية لثلاثة أيام قبل أن نعود لاتجاه الشمال مخترقين سلسلتي مرتفعات متوسطة وصولاً إلى نهر الترمس الذي قادنا إلى شلمنقة. من هنا أصبحنا على مسيرة يومين إلى سموره شمالاً أو أربعة أيام إلى بلد الوليد شمال شرق.

لم يكن عدو أو صديق يعرف وجهتنا حتى الآن، أي جواسيس للنصارى كانوا سيؤكدون لأسيادهم وصول العامري وجيش الحضرة إلى شلمنقة، واقتراب جيش الثغور من بلد الوليد. ترقد سموره وبلد الوليد وبرغش على مسافات متعادلة على ضفة نهر الدويرة. هذا النهر يشكل منذ زمن الحدود بين الأندلس وممالك النصارى الشمالية، ويهبط من برغش في الشمال الشرقي إلى بلد الوليد جنوب غرب ثم يواصل جريانه للغرب باتجاه سموره ويصل إلى برتقال على شاطئ المحيط. المهم أن جواسيس النصارى وقادتهم لا يمكنهم حتى الآن معرفة المنطقة التي ستتلقى ضربة هذه الصائفة. من الممكن أن يسير بنا العامري من شلمنقة إلى سموره، أو إلى بلد الوليد لنخترق مع جيش الثغور النهر شمالاً، أو مواصلة المسير سوياً إلى برغش، أكبر وأهم مدن قشتالة، أو بالطبع ننتظر وصول جيش الثغور هنا لنهاجم سموره والمنطقة شمالها، حيث مدينة ليون حاضرة الجلالقة.

في اليوم التالي واصلنا المسير المريح للشمال وخيمنا على مسيرة يوم من سموره. كل جند هذه الصائفة التابعين لجيش الحضرة كانوا خياله، لم يكن معنا أي جند مشاة، وبلغ تعدادنا أكثر من إثني عشر ألف خيال. سار معنا هجانة، ستون جملاً، وكان هذا الحدث هو الأول في تاريخ الغزوات في الأندلس. إعتلى البربر ظهور الجمال. عشرة جمال حمل كل منها رجلاً طبالاً وآخر زماراً، والبقية حملت نبّالين. عندما خرجنا من قرطبة كان الطبال يضرب على أربع طبالات، إثنين متدلّيتين على جانبي الجمال، وآخرين متجاورتين أمام الطبال الذي كان يلف أذنيه بعمّة حتى لا يصاب بالطرش من الزمار خلفه. كل يوم أثناء المسير كان عرفاء الجيش يعطون الأوامر بالركض على نغمات معينة من الطبل والمزامير حتى تتعود الخيل على نغمات الهجوم المفترض أن تسبب الإزعاج لجند وخيالة العدو. في الأسبوع الأول كنت بالكاد أتحكم في الأغر عندما يرتفع الضجيج، وأعتقد أن ما أزعجه، مثل بقية الخيل، هو منظر الجمال وأصواتها وحركاتها، وليس بالضرورة دقات الطبل التي كانت التجربة الأولى للأغر أيضاً. في تلك الليلة صدرت الأوامر ألا نشعل النار ولا نحدث ضجيجاً. وافترق عنا قبل المغيب حوالي ثلاثة آلاف خيال ساروا للشمال الشرقي، وطلب منهم إشعال نيران توهي بأعداد كثيرة من الجند، وألا يقيموا الخيام، وينطلقوا مع الفجر إلى الشمال الغربي ويحترقوا نهر الدويرة للقاء مع بقية الجند حول سموره.

قرب مخيمنا وجدت قرية هجرها سكانها بسبب الهجمات من جند العدو في سموره، وتفرق بعض العرفاء وتوابع العامري للمبيت في بعض بيوتها وخرائبها. حملت أغطيتي للنوم وبحثت مع خيران عن موقع مناسب. دخلنا خرابة ظننا أنها فارغة، فإذا بها رجل وعجوز يصعب التعرف من لباسه على منصبه. كان الرجل يخلط القمح المجروش بالماء ويصنع ما يشبه الخبز ويقدمه للعجوز من دون طهي. سألته الامتناع عن ذلك كونه سيؤذي لمغص في أمعاء من يتناوله، وقدمت للعجوز بعض ما حملت من الخبز وقطعة صغيرة من اللحم المجفف حملته من قرطبة ولم

أستهلكه كله نظراً لتوفر الأغذية طوال المسير، فهذه أول ليلة لا يسمح لنا فيها بإشعال النار والطبخ. قدمت للرجل بضع حبات من التمر كان خيران قد جلبها من بغال الطباخين في زيارته اليومية لهم. "بارك الله فيك من فتى شهم، وماذا تفعل أنت ورفيقك هنا؟"

"أنا سليمان القلعي، وهذه أول صائفة أشارك فيها لأسجل وقائعها، وهذا خيران العامري، أحد من سباهم ابن أبي عامر في غزوته الأولى، وأساعده في تعلم العربية".

"وأنا جعفر المصحفي، وهذا عثمان ابني، أصر صاحبكم أن نرافقه في غزوته هذه أيضاً". كان العجوز يتحدث وهو يمضغ لقمته الأولى وينظر إلى الطعام في يده، أما عثمان فقد حرك بعض الحجارة تسهيلاً لوضع حملتنا ومجالستهم، ثم تناول حبات من التمر ومضغها مع الخبز الجاف. لم يعد من المناسب رفض هذه الدعوة غير المنطوقة، وحسبت في ذهني أنه لا يوجد أمر بعدم مجالسة عثمان وأبيه، وهذه فرصة لمحادثة الرجل.

"لقد رأيت من هم أكبر منك سنًا من المتطوعة الذين يصاحبون هذه الصائفة، وغداً إن شاء الله نشعل النار ويقدم لنا الطباخون شيئاً ساخناً". كانت هذه محاولة مني بادعاء التجاهل إذا لم يكن يريد الحديث، أو مدخل للحاجب والوزير السابق ليقول ما عنده وما يريد قوله خصوصاً وأني أشعرته بمهنتي في تسجيل الوقائع.

"المتطوعة تطوعوا بالمشاركة، وكبار السن منهم يريدون الشهادة، أو ربما صحتهم تناسب اشتراكهم. أما أنا فلا أريد، ولم أتطوع، وصحتي أتعبتني، لأن الكلب يعضني ويجرجرنني معه من مطبق إلى خيمة أو عراء دون أية عناية كما ترى، ولولا أن عثمان يخدمني لكنت بين الأموات الآن. أما إذا قتلني أحد النصارى يا سليمان، فلن أحسب شهيداً لأنني لم أنو الغزو والجهاد". من الواضح أن الرجل فقد أي تهيب وخوف من العامري ويعرف أنه لم يعد لديه شيء يفقده ويخاف عليه، وهكذا لم يعد هناك ما يجبرني على المجاملة والتمثيل.

"كل الناس لديهم أخطاء، وإذا كنت أنت بدون خطأ وظلمت من أحد فإن موقعك عند الله سيكون في الصف الأول. لكن لا أخفي عليك أن أهل قرطبة يعتقدون أنك ظلمت الناس أيام مقدرتك".

"أنت شاب صريح وطيب القلب وكريم الطبع. قل لي ما هو أكثر شيء سمعته عني كرها".

"لا أخفيك أنه أمرك بقتل المغيرة، فكل شيء قيل غير ذلك من اختلاس واغتناء لا يصيبك أكثر من غيرك، فكل من تسلم سلطات اختلس ونهب، ولكن قتل أمير لم يكن يتأمر أو يعرف بموت أخيه الخليفة، وإنما زُج اسمه في رغبة الصقالبة دون علمه ويقتل هكذا، فهذه قبيحة، أعذرني فأنت الذي طلبت سماع الإجابة وامتدحت الصراحة".

"لقد ساهمت في القتل ووافقت عليه، لكن القصة التي روّجها الكلب صيغت ضدي ولتعطيه براءة رغم أنه الذي نفذ، ثم من الذي قتل أمراء آخرين وشرد بقيتهم بينما أنا في المطبخ؟"

"الأفعال لا تقاس بحجم الإساءات، وقاتل البريء الواحد ليس بأفضل من قاتل عشرة أبرياء، كما أننا لا نعرف أي عقاب قد يصيب هذا ومتى، وأي عذاب يلم بذاك وكيف، إن الله عليم حكيم. لو كان جدّي معنا لنصح بتناسي الأوقات العصبية وتذكر أيام الراحة والهناء، إذ حينها تزول آلام النفس وتبقى آلام الجسد وهي أهون". أردت بذلك جر العجوز ليتحدث عن تجربته السابقة أو يفشي بشيء من الأسرار، لكنه تنهد ووضع ما بقي بيده من خبز وأنشد:

تأملت	صرف الحادثات فلم أزل	أراها توافي عند مقصدها الحرا
فلله أيام مضت	لسبيلها فإني	لا أنسى لها أبداً ذكرا
تجافت بها	عنا الحوادث برهة	وأبدت لنا منها الطلاقة والبشرا
ليالي لم يدر	الزمان مكاننا	ولا نظرت منا حوادثه الشزرا
وما هذه الأيام	إلا سحائب على	كل أرض تمطر الخير والشرا

مناجق سموره

تركنا مخيمنا والحمولات مكانها تلك الليلة وانطلقنا مع الفجر خفياً إلى سموره. قرعت الطبول وزعقت المزامير ظهراً عبر النهر مقابل السور الجنوبي. كانوا مستعدين لنا واستقبلونا بالسهام من فوق السور، ورميناهم بمثلها دون أن يصيب أي طرف الآخر. بعد ساعة وصل الثلاثة آلاف من الشمال الشرقي واحتلوا المنطقة شمال الأسوار وقطعوا بذلك خطوط الإمداد والهروب للمحاصرين الذين توزعوا في كل الاتجاهات وخف تصديهم لنا من الجنوب. لضمان عدم الإصابة من سهام سموره اخترقت قوات أخرى النهر من منطقتين أبعد قليلاً في الشرق والغرب وانضمت للمحاصرين من الشمال، وبقي أقل من نصف الجند على الضفة الجنوبية مع العتاد والمطابخ، وأضحت سموره محاصرة. المدينة مقامة على جزيرة وسط النهر، وعمرها العرب منذ فتح الأندلس، لكن جند مملكة ليون أخذوا ينازعونها العرب ويحتلونها حيناً ويطردون منها أحياناً طوال نصف القرن الماضي. أرسل العامري للمحاصرين من يعطيهم الأمان إذا سلموا المدينة من دون قتال وخرجوا منها حتى ظهر اليوم التالي بدون حمولات.

يبدو أنهم استهانوا بقدرة الخيالة على عبور الماء واقتحام الأسوار، وتأملوا في نصرة لهم من ليون، فلم يغادروا مدينتهم. في الليلة الأولى للحصار لم تحدث مناوشات وأشعلت النيران في معسكراتنا على ضفتي النهر، وخرج الكشافة والجواسيس باتجاه ليون للتعرف على أية تحركات حربية ومنع المفاجآت. طلب العامري من الطباخين شواء اللحوم ورمي الدهون في النار لإغاظة المحاصرين في سموره وإفهامهم أن الانسحاب

المبكر غداً أفضل لهم. تعشينا لحوماً مشويةً وشوربات قمح مجروش مطبوخة مع العظام. كان طعام الجند الساخن طوال المسير شوربات حمص أو فول أو عدس، وبقولاً أخرى جافة تطبخ في الماء مع بصل ولحوم أي دواب يصيبها أذى أو جرح ذلك اليوم. أثناء النهار كان الجند يأكلون مما حملوا معهم من الطعام، ولم يمر يوم في المسير دون المرور بمصدر ماء نقي للشرب وملء القرب.

في صباح اليوم الثالث على الحصار انتهى مهندسونا من تصنيع ثلاثة مناجق مناسبة للضرب داخل المدينة وإثنين للضرب في الأبواب والسور، وقد ساعدهم الكثير من المتطوعين أصحاب الدراية في قطع الأشجار وصناعة الخشب، وجمع غيرهم حجارة بأوزان معلومة كومت حسب وزنها في مناطق قرب المواقع التي ستنصب بها المناجق. في ذلك اليوم وصلت طلائع جند الثغور فطلب منهم العامري تعزيز الحصار في الشمال وتسيير مشاتهم باتجاه ليون ونهب وتدمير وإحراق كل شيء على مسيرة يومين شمالاً من دون أن يصلوا إلى ليون. بدأ القصف بالمناجق، بين كل قذيفة وأخرى من المنجنيق ذاته عددت من واحد إلى مائة. في البداية رجمناهم بالحجارة التي هطلت على كل بقعة في المدينة بفعل المناجق الثلاثة المتقاربة التي رمت الحجارة الخفيفة بعيدة المدى، ثم بالأثقل فالأثقل حتى تساقطت الحجارة على السور الجنوبي. منجنيق رابع ركز ضربه على نقطة محددة بين دعامات السور. عندما نجح المنجنيق الخامس في تدمير الباب، توقفت محاولة تدمير السور وقذفت المناجق الخمسة كرات نيران مشتعلة وسط المدينة فهول السكان والجند هارين من الأبواب وبدأ الجند يجمعونهم من الماء ويكبلونهم في الحبال، وحاول بعض الأشداء منهم الهروب في مجرى النهر فلاحقتهم السهام. كانت فرصتهم أفضل لو صمدوا للمساء وهربوا في الليل مع مجرى الماء شرقاً وغرباً، أو بالطبع لو استسلموا وخرجوا بأمان. لم يكن عددهم كبيراً، الأسرى في حدود ثلاثمائة ومعظمهم من الجند، وقتل من الحجارة والهدم حوالي خمسين، وأقل منهم ممن حاولوا الهروب.

التوقعات، كما ظهر من تصرفات جنودنا، كانت بأسر أعداد أكبر وسي ونهب وغنائم أفضل، لكن المدينة الصغيرة كانت خالية من معظم سكانها، ولم يعثر الجنود عند اقتحامها على أشياء كثيرة تستحق النهب. احتوى القصر على قطع أثاث لا تستحق عناء حملها وفتش الجند عن خزائن أو نقود ضرائب أو حلي ولكن من دون جدوى. صدرت الأوامر قبل اقتحام المدينة بعدم تدمير بقيتها، والسبب أن العامري أراد تحويلها مجدداً إلى ثغر.

في ساحة القصر قرب إسطلب الخيل شاهدت ثلاث جثث بدا أنها لعائلة من أب وأم وابن هُدم عليهم جدار، تقدمت إليهم ولاحظت أن الطفل يتنفس بسرعة. لمستته فانفض، وحضر خلفي متطوعة يتحسسون الجثتين الآخرين وأخذوا في التفتيش عن أي شيء ثمين معهم. سحبت الصبي عنهم وهو يبكي دون صوت، وأخبرته باللاتينية العامة وبالإيحاءات ألا يخاف وأنه آمن معي. شاركني خيران بتهدئة روعه ونفضنا عنه الغبار ونحن نتحرك ونتحدث. لم أكن متأكداً إذا كان من حقي سبي أسرى، وعرفت فوراً أن البعض سيحاولون أخذ الصبي كونه سلعة سهلة البيع غالية الثمن في سوق العبيد بقرطبة. أفهمت الصبي أن فرصته في الحياة هي الالتصاق بنا، ويبدو أنه اطمأن لخيران كونه من سنه ويعرف لغته بطلاقة. قررت عمل المستحيل للاحتفاظ به وحمايته، وظننت أن رؤية الجند لي طوال أيام مضت مع خيران، فتى العامري، سيجعلهم يظنون أن هذا الفتى عامري أيضاً، كما أن الجند لا يعرفون موقعي ومقامي بالضبط وإن كانوا يظنون بأنني على مقربة من العامري، وهذا كله يساعد في التورية وأخذ الصبي إذا تحكم في تصرفاته بشكل شبه طبيعي معنا. المهمة التالية كانت الطلب من خيران أن يحفظ لسانه، وأخبرته أن ثرثته ستؤدي لموت الصبي أو بيعه من الجند، وأنا سنخبر سيده العامري بالأمر لاحقاً عندما تهدأ الأمور في طريق العودة إلى قرطبة، فوافق على الكتمان وتمثيل العلاقة الثلاثية. كان الصبي ممتلئ القوام أصفر الشعر وقصيره لدرجة أبانت رقبتة وأذنيه في قصة تخوله

لادعاء أنه صبي قرطبي، لو لم يكن لون شعره والخوف على محياه يفضح في هذه الظروف. صنعنا له عمة من ستارة في إحدى الغرف التي تجولنا بها. أخذنا ندور في البيوت مثل الباحثين عن النهب، ولكن حواسي كلها تركزت على إنقاذ الصبي من أيدي الآخرين فأصبحت أحاطبه وخيران بالعربية كلما نظر إلينا أحد، وهما يتجاوبان تماماً، خيران بلغة مكسرة والصبي بإيماءات وكأنه فاهم ما يقال له.

في المساء حسمت أمري وسجلت لدى عريف الغنائم أسري للصببي، وأخبرته أنني أتحدث لغته وأن خيران سوف يساعديني في الاعتناء به ريثما يتوجب تسليمه، وأقنعت العريف بعدم الحاجة إلى تكبيله ووضع مع بقية الأسرى. عبر هذا التسجيل لم يعد هناك خطر أن يسرقه أو يعتدي عليه أحد. سألت العريف عن حجم الغنيمة التي سجلت لأن، فأكد لي أنها لا تستحق الذكر، وأثمن ما فيها هم الأسرى الجنود إذا وجد من يفتديهم، أو من يشتريهم. لكن الخبر انتشر في المعسكر أننا سنواصل المسير شمالاً باتجاه ليون. كانت ألسنة اللهب ترتفع من الحقول، ولم يبشر ذلك بالعثور على أية غنيمة بعد انطلاق خيالة ومشاة الثغور أمامنا.

تحركنا إلى الشمال ومررنا بقرى صغيرة جداً ومدمرة، ولا يحتمل أن يكون سكانها أكثر من عشر عائلات. بعد يومين من المسير اتبعنا فرع النهر الشمالي الغربي باتجاه اشتركة وتركنا التفرع المائي باتجاه ليون تحت إشراف جند الثغور. أراد العامري بذلك أن يمنع جند ردمير الثالث من مغادرة ليون التي يزحف عليها مشاة وخيالة الثغور ببطء بينما أسرعنا إلى اشتركة التي وقعت تحت إشراف العرب طوال المائة وثلثين سنة الأولى على فتح الأندلس. الطريق من سموره حتى اشتركة هو جزء من الطريق الروماني الأقدم الذي يوصل بخط مستقيم من الشمال للجنوب، بين خيخون على المحيط الأخضر ثم اشتركة وسموره وشلمنقة وماردة وإشبيلية حتى قادس قرب مضيق الماء الموصل إلى العدو المغربية وأفريقيا. ليون حاضرة الشمال وأكبر مدنه يقطنها أقل من ثلاثة آلاف

نسمة، أما سكان اشترقة فكانوا أقل من ذلك ولكن لمدينتهم سور قوي مرتفع تكثر الدعائم المستديرة بين جدرانه لتقوي تماسكه. بين فرعي النهر ومدينتي اشترقة وليون وجدت مزارع حبوب وعشرات التجمعات السكانية البائسة في بيوت منخفضة وحظائر للدواب والخنازير تحميها سياجات خشبية متهالكة. إذا عرف هؤلاء التعساء حالة إخوانهم النصارى في قرطبة وبلاد المسلمين، فإنهم وبالتأكيد سيرحلون وينضمون طوعاً للإدارة الإسلامية. جيوشنا التي تخرب بقية خراب هذه المنطقة لا يوجد ما يعيقها عن الفتح والاحتفاظ بالبلاد والرفق بأهلها وكسبهم وتشغيلهم بشكل أفضل. خربنا المنطقة حول اشترقة وعدنا أدرجنا مسرعين إلى سموره. في المسير شمالاً كنت وخيران مع جند المؤخرة، وفي طريق العودة كنا في المقدمة، وكان الصبي خورخي يتبادل الركوب معي على الأغر وغالباً مع خيران على بغلته القوية.

قبل الافتراق عن جند الثغور، الذين حضروا بدون القائد غالب، جمعت الغنائم، وأخذ متطوعة الثغور نصيبهم، وقرر العامري إعطاء الباقي للبربر ولمتطوعة قرطبة وغيرهم ممن انضموا إلينا في الطريق. قوات أجناد الكور وجند الحضرة لم يحصلوا على شيء من الغنيمة. قدّر عريف الغنائم سعر خورخي بعشرة دنانير، ولأنني الذي أسرته فقد طلب مني دفع ثلاثة دنانير إذا أردت الاحتفاظ بالصبي، فأنقذته الدنانير فوراً إذ كنت أحمل عشرة منها كاحتياط، وكتب لي عقداً بملكية خورخي. أصدر العامري تعليمات لجند الثغور بإعمار سموره وسكناها وحمايتها كجزء من مدن الثغور.

في طريق العودة أخذ المرتزقة البربر يتسابقون على الخيل، أحياناً ينبطحون تحت بطونها، ثم يصعدون ليقفوا فوق ظهورها بينما الدواب تسابق الريح. لم أرَ مثل خيالة البربر في طلاقة وسرعة الركوب، وأكثر ما أدهشني هو سرعة الجمال عندما تنطلق في العداء إذ تنقل ساقيها الأماميين والخلفيين سوياً مثل الخيل، وكنت أظن أنها فقط تنقل الأقدام واحدة بعد الأخرى. هذه المسابقات وصراخ البربر غير المفهوم كانت

راوي قرطبة

تنعكس قرفاً على وجوه جند ومتطوعة قرطبة وبالأخص عرفاء الجند. بعد ثلاثة أسابيع استقبلتنا قرطبة بالأفراح لفتحنا سموره وترويع ملوك وممالك الشمال. إتفقت مع خيران على اللقاء مرتين في الأسبوع لاستكمال دروس اللغة.

في اليوم التالي على وصولنا شرحت لخورخي أهمية وضرورة مرافقتي إلى الحمام ليغتسل، فرفض بحجة أنه اغتسل في بيتنا مساء وصولنا وهو الآن نظيف الجسد واللباس. أصررت على أن يذهب معي، وكانت أمي تتابع الحديث عبر ما أترجمه لها، فطلبت مني الذهاب لوحدي وتعهدت أنها ستقنع خورخي بمصاحبتني في المرة القادمة. تعجبت من كلام وموقف أم سليمان التي لم تكن تتقن لغة خورخي، فلماذا تؤيده في البقاء، وهل أخبرها بالسبب وهو الذي لا يعرف العربية أو الموزرابة؟ هل فهمت من كلام الصبي ما لم أفهمه؟

عندما عدت إلى البيت وجدتهم مجتمعين، أبي وأمي وجددي وأختي فاطمة وجارنا خسوس وزوجته ماري، وكان عمي عيسى وزوجته وطفله قد حضروا للتهنئة بالعودة سالماً من الصائفة. كنت أتوقع هذا الاجتماع وأكبر منه غداً الجمعة إذ سيحضر أخوالي وعماتي وعائلاتهم. شخص كل الحضور عيونهم إلى خورخي الذي واصل النظر إلى الأرض، ولاحظت شيئاً في نظرات بعضهم غير الاعتزاز بي على إثر هذه الغزوة، كان هناك شيء من العطف في عيون أمي. عانقني عمي مرحباً وأسر في أذني "لقد عرفوا أنها بنت وليس ولداً".

"من هو الولد والبنت والذين عرفوا، ماذا تقول؟" قلت بصوت منخفض بينما عيسى يجرنني بعيداً عن الحضور وشرح الموقف.

"حضرت مع أم مروان لزيارتك، وكانت أمك قد استدعت ماري للتفاهم مع خورخي التي أخبرتهم أنها فتاة، وعندما أبلغونا ذلك قلت إنك بالطبع تعرف إنها فتاة وسكت على تنكرها لمنع الجند عنها، وطلبت من جارتكم أن تبلغ خورخي بذلك". سكت عمي، وفكرت في هذه الفضيحة إذا عرف الجميع أن البنت ضحكت عليّ لأكثر من شهر.

"وماذا قالت لك أم سليمان؟"

"قالت، من دون أن تسمعنا جارتكم، أنك أردت أخذ البنت إلى الحمام. طلبت منها السكوت بعد أن أخبرتها إما أنك تحاول التمويه أو أنك أردت إرسالها لحمام النساء، وكنت ستخبر الجميع بالأمر في الوقت الذي تريده". لقد أنقذني عمي مرة أخرى.

"الحمد لله أنك وصلت في الوقت المناسب للبيت قبل انفلات الأمر، لا مناص من مواصلة التمثيل". قلت ذلك وعدت أسلم على الجيران، فشدتني ماري إلى جانبها وأنا شبه مخدر مما سمعت للآن.

"الحمد لله أنك أنقذتها" ثم وضعت ماري شفيتها في أذني "إنها ابنة حاكم المدينة" وعادت لصوتها الطبيعي "أنا وخسوس نأمل في تبنيها إذا أطلقت سراحها". همست في أذنها أنني أعرف من هي وأصلها، وطلبت منها كتمان الخبر وإفهام البنت بالكتمان وإلا ستؤخذ مسبية إلى القصور لأنني اشتريتها في ظروف كاذبة. صنعت ماري بيدها إشارة أن فيها مخطط، ووعدتها خيراً، وأسرعت بالسماح لها بأخذها منذ الآن إلى بيتهم ريثما نبت في الأمر والإجراءات. قبل أن تغادر خورخي البيت أفهمتها بضرورة الاحتفاظ بالاسم، وربما تحويله إلى خورخي وبالادعاء أنها من أقارب خسوس. كررت لها أن أي إخلال بذلك والبوح بأصلها سيؤدي لضرر لا يمكنني ردعه عنها. إنتهت القصة بسلام إذ لم يعرف الحقيقة سوى خورخي وعمي، وشكوك لدى أمي ربما أخبرت أبي عنها ولكنه لم يتحدث في الأمر. أما خيران، الذي أصبحت ألتقيه دوماً، فذكرت له لاحقاً أن عمي أرسل خورخي إلى مزرعتنا في مالقا ليتعلم ويعمل هناك.

لم أفهم سر إعجاب ماري وخسوس الفوري بخورخي، فسوق العيد في قرطبة يوفر فرصاً دائمة لشراء الصبيان والبناات من كل الأنواع والأشكال. على الحدود بين الأندلس وممالك الشمال تزدهر أيضاً تجارة العيد بسعر بخس، إذ يجلبهم الفرنجة من بلاد شمال وشرق أوروبا ويبيعونهم على تجار الأندلس اليهود والمسلمين مقابل دنانير ذهبية، ومن

الحدود ينقلون لمزارع التسمين أو معاهد التعليم والخصي في ليسانة ليباعوا بعدها في أسواق عبيد مدن الأندلس، أو يعاد تصديرهم إلى الشرق. كان بوسع ماري وخسوس جلب فتاة معهم من رحلة حجهم إلى شنت يعقوب. فكرت في سبب الإعجاب والحب هذا بعدما أفقت تدريجياً من الصدمة وبعد إعطاء ماري الوعد بمنحها خورخي. لم أندم على القرار، ولكنني وددت معرفة السبب، وظننت أنه قد يكون الاطمئنان على أنها لم تمس من أحد إثر فراقها عن والديها على عكس وضع بقية العبيد طبعاً. في الأيام التالية سجلت على ظهر عقد الشراء أنني منحت خورخي الحرية، وأشهدت شخصين ووقعا أمام القاضي الذي لم يطلب رؤية خورخي، لحسن الحظ. لقد صغت الكلمات بشكل تجنب تحديد إذا كان خورخي هذا ذكراً أم أنثى مستعملاً الاسم فقط. لم يكن في العقد الأصلي ذكر لسن خورخي، وبالتالي لم أتعرض لأسئلة عمّن سيكون مسؤولاً عن هذا العبد المحرر. أشغلت القاضي برواية من أنا، ومن أبي وجدّي، وأنني فزت بهذا العقد من مشاركتي الأولى مع العامري في الصائفة الأخيرة. أردت بالثرثرة أن أبعد عن أي سؤال شرعي، مثل سني أو أي شيء عن خورخي. كان من الممكن بالطبع طلب مساعدة أبي أو خسوس، ولكنني أردت إبعادهم عن الاشتراك في تزوير الحقائق تجنباً للعواقب لو كشف الأمر. سلمت العقد بشكله الجديد إلى جيراننا الذين نشطوا لإغراء البنت بالتعلم في قرطبة. أقنعوها أن الأمر فرصة طيبة لها جاءت من هذه النكسة والمأساة.

"أنت حرة الآن يا خورخي. هذا عقد يؤكد ذلك، وعندما ترغبين بالعودة إلى بلدكم سنعمل كلنا على تسهيل وصولك".

"سأجرب التعلم والحياة هنا، لم يعد لي أحد في سموره بعد موت أبي وأمي". ضمتها ماري، وكانت في الفترة السابقة قد عوضتها بالحنان وبالاعتناء عما تفتقده.

"تعرفين خيران! أصوله من منطقتكم، وكان بوسعه الهروب والعودة

إلى أهله ونحن هناك. وضعك أفضل من وضعه في بلادكم طبعاً، ولكن اكتساب العلوم هنا لن يضر".
"ستبقى هنا، وقالت لي ولخسوس إنها ستكتب رسائل لأقاربها أنها بخير".

من الواضح أن أهلها الجدد قد حادثوها سلفاً واستجابت لهم بأن تتلقى التعليم هنا وتعيش معهم كإبناتهم. بوسع خسوس وماري الآن الاتفاق مع أي معلم ليشرّف على تعليمها مقابل مبلغ سنوي يتفق عليه، وسيختارون بالطبع أحد مجيدي اللاتينية بشقيها العادي والدارج ليعلمها ما يختارونه لها بتلك اللغة، ويعلمها اللغة العربية طبعاً. قبل أن أتركها ذلك اليوم اتفقنا سوياً أن نلقبها خوخة كإسم للتدليل. بالنظافة واللباس الأنوثي أصبحت بعض ملامحها وتقاطيعها تشابه الخوخ في أكثر من صفة.

عدوى التنكر

استمرت اللقاءات مع خيران بسلاسة وصدافة وتفاهم رغم اختلاف السن بيننا. لم أبلغه بقصة خوخة طبعاً، لكنني حولته مراراً ذلك الصيف إلى فتاة. أعجبتني فكرة التنكر عموماً وتقمص الجنس الآخر أيضاً. أزعجني فشلي في اكتشاف خوخة التي التصقت بظهري، ونامت بجنبي، وساعدتني في إطعام وإسراج الأغر. عندما أتذكر الآن مجريات المسيرة، أرى أنه كان علي ملاحظة تملص خورخي الدائم من البول الجماعي، أو التعري بأي شكل عند الاغتسال، ولم أشعر متى وكيف قضى حاجته طوال أسابيع المسير. أردت التوصل إلى النتيجة المعاكسة مع خيران، تحويله لفتاة وإدخاله حمام النساء وإخراجه منه دون شر. لم يكن شعر ذقنه أو شاربه قد نميا بعد، وحتى لو كان عنده بعض الشعر فهو أشقر، وكثير من فتياتنا ونسائنا مشعرات حتى في الصغر ويذهبن للحمام لنزع الشعر عن كل مواضع أجسادهن. شعر خيران القصير حللت مشكلته بلبس غطاء للرأس يتناسب مع بقية ملابس البنات، ولم تنقصني المعرفة فهو في مثل سن فاطمة وخوخة. صوته لم يكن قد خشن بعد، وبقي استعمال بعض الزينة والعطور. كحلته، وصبغت شفثيه بعصير عناب، كان من الكافي لو عض شفثيه قبل دخول الحمام، لكنني توقعت أن يذهب دمه من الخوف.

تدرب على تقليد مشي وحركات البنات، ثم صاحبتة إلى حمام وسط البلد بعيداً عن حارتنا. عليه الآن إبلاغ البوابة أن سيده أرسله في إثر سيدته لسؤالها عن شيء يريد فوراً، وإذا سألته البوابة عن سيدته فاسمها صبحة أم محمد، وعليه إعطاء أوصاف عامة تنطبق على غالبية

النساء. في الحمام سيتجول في غرفه كلها ويحفظ ما يراه من أوصاف ويختار أجمل الفتيات لنتظرها وتابعها إلى بيتها. طاوعني خيران تماماً في هذه الفكرة الخطرة عليه، وأخذت منه العهد ألا يفشي السر. خطة الهروب إذا ضبطته كانت أن يصرخ طويلاً وحينها سأحضر لخلق فوضى تؤهله من الهرب. أوصيته ألا يتوقف وهو يتجول في الحمام، وألا يبخلق في الحضور، ولا يركض، ويخرج بعد جولة واحدة فقط. أردت إثبات النجاح في التنكر، لكن هذا العمل لم يكن فريداً، بل هو أحد الأسرار المعروفة بين الرواد في الجامع، وحتى لدى الرواد الأصغر عند شيوخ تعلم القرآن في الجوامع. عصابات الصبية القرطبيين هي الأخرى كانت تتبارز في النجاح بالدخول السري للحمام، وبعضهم كان يفشي بموعد محاولة المنافسين فيضبطون ويجلدون. آخر نكسات عصابة الفهري العام الماضي كان ضبط خمسة منهم تأمروا في الدخول للحمام كفتيات، فجلدوا وأمر القاضي إركابهم الحمير بالمقلوب وتحميلهم أمعاء حيوانات مذبوحة على أكتافهم والطواف بهم في قرطبة مع المناداة بفعلتهم. وضعي وخيران يختلف طبعاً، فسرنا بيننا فقط، وخيران جميل بالفعل ولا يعوزه الكثير من التنكر، ونختار الحمامات بعناية. مع حلول عيد الميلاد كانت الحصييلة دخول خيران ثمانية حمامات، وجمعنا أوصاف وعرفنا مساكن صاحبات أجمل أجساد قرطبة، كان بالوسع تكرار الخطة خمسمائة مرة، لكن ذلك كان يهدد بالخطر لأن خيران سيفقد حذره، كما أن الحاجة انعدمت لهذا الفعل الذي لا يعني الكثير لخيران الصغير، ولا يفيدني إلا قليلاً لمعرفة أين تسكن الجميلات وأدق تفاصيلهن، ولم يكن هذا الفعل يمت للفروسية من قريب أو بعيد، فكففت عنه من دون القيام به ولو مرة واحدة.

تعلم خيران العربية بسرعة، وكنت أطلب منه وصف الفتيات بالعربي وأعلمه الكلمات والجمل المطلوبة للوصف الدقيق. كان يتنقل بين الزهراء والقصر، حيث يقيم العامري، مقابل الجامع وقرب بيتنا، وشاهد خوخة في الشارع مراراً ولم يعرفها، لم يشك أنها من بنات الجيران.

ابتعاد العامري عن السكن في الزهراء، فسره البعض في قرطبة بخوفه من القتل، واكتفى غيرهم بالقول إنه رغبة من محمد بالتححرر من صبح وتدخلاتها. مهما يكن فقد باشر الحاجب هذا العام ببناء مدينة منافسة للزهراء دشنها على الطرف الآخر في شرق قرطبة باسم الزاهرة. حتى لا يحدث ما لا تحمد عقباه وهو بعيد عن الزهراء، أبلغ العامري أم الخليفة باكتشاف جواسيسه لمؤامرة من الأعمام وأبنائهم لقتل هشام، وضرورة فرض الرقابة الشديدة على الحركة داخل الزهراء. كان خيران من ضمن جواسيس العامري على هشام وما يدور في حرم الزهراء، وهذا سهل عليّ أيضاً زيارة الخليفة كصديق قديم، ومصاحب لخيران وبالتالي خمن الحراس أن حضوري يتم بمعرفة العامري.

لم تقتنع صبح بالتفسير ولا بهجر العامري للزهراء أو إنفاقه المال الآن على بناء مدينة جديدة، ولكن لم يكن بيدها شيء، سوى التآمر، وهذا يحتاج إما لحزب الصقالبة، أو الأمويين، أو بالطبع الجيش وغالب. كل هؤلاء وغيرهم جعلتهم صبح أعداء لها منذ البداية، وها هو العامري يمتنع عن دخول الزهراء ولم يعد من الممكن قتله بالسم أو غيره. تبرير عزل الخليفة بهذا الشكل وبهذه السرعة تطلب حملة صاخبة لمطاردة المتآمرين أعمام الخليفة وأبنائهم وعائلاتهم، فزاد تشتتهم وتخفيهم في كور الأندلس. الحلقة الأضعف أمام صبح هي العجوز غالب، صهر العامري، الذي من الممكن استعطافه وإثارة نخوته حول محاصرة الخليفة والمعاملة التي يتلقاها، ولكن هذا يحتاج لإقناع صعب عبر مراسلات غير مأمونة من جواسيس العامري.

إلتقيت المعارف العائدين من صائفة العام التالي للاطلاع على الأحداث، وسمعت منهم خيبة آمالهم والأجناد والملتوعة لنقص الغنائم وزيادة تأثير البربر المرتزقة الذين يقبضون رواتبهم مثل جند الحضرة والثغور ولا يعينهم كثيراً وجود غنائم أم لا، فالمهم عندهم هو التدمير السريع والعودة بأي عدد ممكن من الرؤوس المقطوعة. هذا الحال ساد أيضاً في العام الماضي، وعلى الأرجح لن يتغير قريباً نظراً لفقر سكان

المناطق المهاجمة ومعرفتهم بمواعيد الصوائف حتى وإن يجهلوا أماكنها. يسمعون باقتراب الغزوة فيحملون حاجياتهم ويرحلون للشمال، ثم يعودون لأراضيهم بعد رحيل الغزاة.

واصل العامري استرضاء البرابرة ورفع منزلتهم في قرطبة، وأصبح كل قادم منهم على حمار أو على قدميه بلباس أعجف، يفوز بلباس الطراز والحرير ويركب أعرق الخيل الأميرية، ويسكن بيوتاً كالقصور لم يكن يرى مثلها في أعظم أحلامه. هذا الحال بالطبع أغضب الجند والأجناد والمتطوعة وأهل قرطبة الذين أصبح عليهم تحمل هؤلاء الناس الذين يستجلبهم العامري ويستقوي بهم.

كذب المنجمون

أقيمت الزاهرة على النهر الكبير بحشد من الصناع والآلات وشيد سور حول أبنيتها وحدائقها، وأقام الوزراء والكتاب والحجاب فيها وحولها قصوراً لهم على أراضٍ منحها العامري. تنافس المنافقون في السكن قرب العامري تقليداً للسكن قرب الناصر رحمه الله في الزهراء. أصبحت مدينة العامري، بعدما اكتملت في عامين فقط، مقر الحكم ونقلت إليها دار السكة لضرب الدنانير، ولم يعد للخليفة هشام في الزهراء سوى اللقب. كتب العامري إلى كور الأندلس وللعدوة بأن تحمل إلى مدينته الجديدة أموال الجبايات، وأن يقصدها أصحاب الولايات وكل من له طلب وحاجة، وحذر الجميع من العرج إلى باب الخليفة في الزهراء. الرواية التي شاعت حول اختيار العامري لهذا المكان لبني مدينته، أو ربما هي سبب البناء أصلاً، تقول إن الخليفة الحكم، رحمه الله، سمع عن قطعة أرض صالحة للإعمار فأرسل العامري ليتحرى الأمر ويشتريها للخليفة قبل أن يأخذها غيره. عندما وصل العامري للمنطقة سأل عجوزاً هناك عن حال القطعة وصلاحها، فقالت إنها سمعت تناقلاً عن الأقدمين أن هذه المساحة سيبنى فيها مدينة تكون أساساً لملك واسع وقوي. في نهاية الأمر لم يشتري الحكم تلك الأرض وبقيت على حالها حتى تمكن العامري من البلاد كلها فأقام مدينة ليعزز نبوءة الأقدمين، فهو مولع بالمنجمين وقراءة الغيب، وقصصه معهم كثيرة. طلب العامري ذات يوم إحصار ثلاثة منجمين ممن يجلسون في أسواق قرطبة، ونوى على جلدهم ولكنه لم يبلغ أحداً. عندما حضروا سأل كلاً منهم على حدة ماذا يتوقع من حدث في هذا اليوم. إثنان أخذوا

يسرحان ويمرحان في القول وضرب الأسداس في الأخماس واستنطاق الكواكب والمجرات وتوليف كلام حول الانتصارات القادمة ونجم الحظ للعامري. ثالث المنجمين كان ذكياً وتوجس شراً، قال: "يا مولاي إني لا استحق ما نويت فعله بي، ولكنني راض بما ستفعل". قال له العامري "إذا أخبرتني بتفصيل ما نويت فعله بك فسأمنحك مالا يغنيك عن عمل الشوارع".

"إن مولاي لا يقتل ظلماً، وسجنه لا يفتح إلا للزنادقة ومنكري النعيم، وأنا لست منهم، وأظن مولاي قرر الأمر بالجلد كأهون عقاب على المبشرين بالخير في عهده". ضحك العامري من ذكاء وصراحة المنجم ومنحه صرة دنانير وأمر بجلد الإثنين لغبائهما.

في الأعوام الثلاثة التي تلت اشتراكي في الصائفة، واصلت اللقاء مع المعارف قبل خروجهم وبعد عودتهم. تواصلت اللقاءات مع خيران، ولكنها كانت في تناقص بعد أن أجاد اللغة بما يكفيه وكثرت مشاغله، ولكنني حافظت على مصاحبته لزيارات غير منتظمة للزهراء. كان جل وقتي مسخراً للعمل مع والدي في الإشراف على نسخ الكتب وشراء كل جديد منها، وفحص بعض الترجمات من العربية إلى اللاتينية التي أتقتها بما يسمح من إعطاء الرأي في جودة التراجم. في كل زيارة للخليفة كنت أعيد إليه كتباً وأخذ بعددها من مكتبة والده لينسخها العاملون ثم أعيدها. أقنعت أبي أيضاً بصنع قوالب خشبية منحوت عليها زخارف مناسبة لكل كتاب ونختم هذه بالحبر في صفحات وزوايا وهوامش الكتب مساهمة في تجميلها وزيادة أسعارها. الكتب المستعارة من مكتبة الخليفة كانت قيد النسخ ليل نهار منذ دخولها مشغلنا، ناسخ يقوم وآخر يجلس مكانه.

في عصر كل جمعة كنت أرافق فاطمة وخوخة وابنتي جارنا السادس، رفته وشفه، في التمشي على رصيف النهر وفوق القنطرة. نمت رفته بسرعة في هذه السنوات إذ كانت تكبرني ببضعة أشهر ولكنها تحولت إلى آنسة أنيقة رشيقة متكاملة الجسد، بينما الصبايا الثلاث متقاربات السن والحجم ولا زال من السهل قراءة بقايا الطفولة في

راوي قرطبة

عيونهن وعلى ضحكاتهن. في ذات جمعة من ربيع عام 370 الذي وافق عام 981 للميلاد لاح خيران مسرعاً على فرس قادم من الغرب متجهاً للشرق على طريق الرصيف. توقف عند رؤيتنا وأسرعت إليه إذ كان منظره يعلن حدثاً مهماً.

"عبيد صبح اشتبكوا مع الحراس الذين منعوا هشام وأمه من الركوب مع خدمهم في جولة إلى قرطبة. أنا في الطريق إلى الزاهرة لآخذ الأوامر وطلب المزيد من الجند". كان وفرسه يتصببان عرقاً، ورأيت أنه طارد الريح من الزهراء ولم يعد بوسع الفرس إيصاله للزاهرة بالسرعة المطلوبة. أحضرت له حصاناً حسن المظهر ممن تؤجر للنزهات، وأخبرته أن يعيده لصاحبه في طريق العودة الليلة وأن فرسه سيكون عنده. عندما همز خيران الحصان وانطلق يحثه على الإسراع حاول الحمار ملاحقته، ثم ارتد إلي فأفهمته أن هذا من فتيان العامري وأن حصانه لن يصاب بأذى وطلبت منه الاعتناء بفرس خيران ريثما يعود إليه، وأنقذته درهمين، واحد بدل الكراء والآخر للاعتناء بالفرس وتوعدته إن لم يحسن إليه.

أخبرت رفقه بالأمر، الذي لن يبقى سراً حتى الصباح في كل الأحوال، ولكنني طلبت منها عدم إبلاغ الأخريات وإنما إخبار أبيها. عدنا مبكرين قبل بداية عطلة سبت اليهود بفترة، إذ أردت إبلاغ جدّي وأبي بما يجري في الزهراء، فلنا مصالح شخصية هناك مثل دار عمي عباس، والكتب التي نستعيرها سراً، ومصير صديقي المسكين بعد هذا العمل اليائس من أمه لتظهره أمام الرعية بدون رفقة الحاجب. قبل مرور أسبوع كانت قصة الجولة التي لم تتم في متناول كل الألسنة، البعض استهجن فعل صبح، والغير رأوا أن من حق الخليفة التجول وليس من المنطق اعتبار ذلك محاولة للتخلص من العامري الذي أشاع بدوره أيضاً أن الخليفة فوضه النظر في كل شؤون الملك لأنه تخلى عن الإدارة ويريد التفرغ لعبادة ربه دون إزعاج من أحد. في هذه الفترة قررت الخروج في الصائفة التالية التي ستوافق مطلع 371.

بين الربيع والصيف نشط مروجو العامري بملء الفضاء قصصاً عن عدالته وأمانته وورعه، وعن ذكائه بالطبع. قصد بذلك التغطية على مطاردة الأمويين وترهيبهم، وكسب قلوب العامة تمهيداً لمخططاته التي لا تنتهي. روجوا أن محمد بن أبي عامر قد نسخ القرآن الكريم بخط يده، وأنه يحمل تلك النسخة معه في غزواته ليطالع ويتمعن في كتاب الله. ما لم يقل بالطبع أنه يشرب الخمر في الظهرية والمساء، وهي حقيقة يعرفها أهل قرطبة وكل من رافق العامري في غزواته أو شارك في مجالسه الليلية للسمر والتملق بالشعر. الخليفة الحكم كان يشربها هو الآخر وامتنع عنها في سنتي المرض فقط، ونسبة كبيرة من أهل قرطبة يشربون الخمر الذي ينتج ويبيع بإشراف الدولة ويحقق دخلاً معقولاً من الضرائب. ذلك كله معروف، لكن أن نصدق أن الرجل ورع ويسير حسب أحكام كتاب الله، فهذه ثقيلة.

القصة الأحدث إشاعة الآن، أن تاجراً من عدن في اليمن، حضر بجواهر وأحجار نفيسة إلى الأندلس وعرضها على العامري فاختر بعضها وأنقذ التاجر صرة بالدنانير. سار التاجر في طريق الرملة ثم قرر تبريد جسده من حرارة النهار فخلع لباسه ونزل للنهر، فإذا بحدأة تنقض على ملابسه وتخطف صرة الدنانير وبقية الجواهر وتحلق بها بعيداً. إغتم التاجر وهو يتابع الطير في سماء مدينتنا، وعندما حان موعد دفعه ثمن البضائع التي طلبها من تجار الأندلس سلفاً ليحملها لليمن، لم يكن معه نقود أو جواهر للمقايضة. وصلت قصته للعامري فجلبه لسماع التفاصيل وعاتبه لعدم التبليغ الفوري.

"هل اهتديت إلى الناحية التي أخذ الطائر إليها؟"

أجاب التاجر العامري: "مر مُشرقاً على سمت هذا الجنان الذي يلي قصرك".

على الفور طلب العامري رئيس الشرطة وقال له: "جئني بمشيخة أهل الرملة الساعة".

وصل مشايخ ريبض الرملة على وجه السرعة ودخلوا على العامري

ولم يعرفوا بعد سبب هذا الاستدعاء. "تذكروا من تغير حاله في حاراتكم من دون تدريج بين يوم وليلة إلى الأحسن". تناظر المشايخ في شؤون أهل حاراتهم في ربض الرملة ثم أنابوا من قال: "يا مولانا! ما نعلم إلا رجلاً من ضعفائنا كان يعمل هو وأولاده بأيديهم، ويتناولون السقي بأقدامهم عجزاً عن شراء دابة، فابتاع اليوم دابة، واكتسى هو وولده كسوة متوسطة". في اليوم التالي أحضروا الرجل، وحضر التاجر أيضاً، وقرب العامري الرجل بين يديه وقال له: "سبب ضاع منا وسقط إليك، فماذا فعلت به؟"

"هذا هو يا مولاي". وأخرج الصرة من سراويله، فصاح التاجر طرباً، وطلب العامري من الرجل رواية ما حدث فقال: "بينما أنا أعمل في جناني تحت نخلة، إذ سقطت الصرة أمامي، فأخذتها وراقني منظرها، فقلت إن الطائر اختلسها من قصرك لقرب الجوار، فاحترزت بها. لكن دعنتي فاقتي إلى أخذ عشرة مثاقيل عيوننا من التي كانت معها مصرورة، وقلت أقل ما يكون في كرم مولاي أن يسمح لي بها". أعطى العامري التاجر الصرة وسأله أن يفحص محتواها ففعل وصاح: "وحق رأسك يا مولاي ما ضاع منها شيء سوى الدنانير التي ذكرها، وقد وهبتها له".

"نحن أولى بذلك منك، ولا ننقص عليك فرحتك، ولولا جمعه بين الإقرار والإنكار لكان ثوابه موفوراً عليه". ثم أمر للتاجر بعشرة دنانير تعويضاً، وللجنان بعشرة ثواباً لتأنيبه عن إفساد ما وقع بيده، وأعلمه أنه لو أحضر الصرة قبل السؤال عنها لفاز بجائزة أعظم. أما التاجر فأخذ يردد: "والله لأبئن في الأفتار عظيم ملكك، ولأبينن أنك تملك طير عملك كما تملك إنسها، فلا تعتصم منك ولا تؤذي جارك". يعني التاجر سيذيع أن العامري مثل سيدنا سليمان الحكيم الذي عرف لغة الطير والحيوان.

نهاية صهر

في صائفة 371 سار معنا جعفران، جعفر المصحفي كهلاً أسيراً ذليلاً لم يعد ينال احترام أحد لقبوله هذا الحال وعدم الانتحار، والجعفر الثاني هو ابن علي ابن الأندلسي الذي التصق طوال المسيرة إلى جانب محمد العامري. كان برايرة جعفر، وغيرهم ممن حضروا للأندلس للانخراط مع جيش العامري، يغنون ويتفننون على ظهور الخيل ويطلبون من على ظهور الجمال. سرنا أبطأ من المعتاد، وكثر الطعام والشراب وكأنا في زفة خرجت من قرطبة وغايتها طليطلة ومن ثم حصن مجريط ومدينة وادي الحجارة التي كانت بها طاولة سيدنا سليمان، عليه السلام. غايتنا بعدها مدينة سالم للقاء مع القائد العام غالب، ذي السيفين، والوزارتين. لم ينضم إلينا الكثير من المتطوعة، ولكن جند الكور لم يتخلفوا فهم ملزمون بالاشتراك في الصوائف والجهاد مقابل الإقطاعات التي يديرونها ويدفعون من خيراتها الضرائب أيضاً. قرب قرية الجورة على مسافة يوم من مدينة سالم وصل البريد من غالب أنه ينتظر صهره في حصن اتينسة غرب مدينة سالم وشمال الجورة مباشرة وعلى مسافة أقل من يوم للخيال. خيمنا على طرف الجورة وانطلق العامري فجراً ومعه جعفر بن علي وبعض مسؤولي أجناد الكور وكبير عرفاء جيش الحضرة وبعض البربر والصقالبة لحمل الرايات وآلات الأبهة. سُمح للكتاب بمصاحبة الركب، وكنت من بينهم. سرنا في الواد الذي يفصل ضفتي سلسلة جبال البوديرة ووصلنا اتينسة بعد الظهر إلى وليمة طعام في انتظارنا داخل الحصن. تصدر غالب الفراش ومن حوله قادة جند الثغرة،

في مواجهة صهره وإلى جانبه جعفر بن علي وبعض من حضروا، بينما توزع البقية حيثما تيسر حول موائد الطعام.

شبعنا ترحيباً ولحماً ورزاً، وغسلنا الأيدي ثم عدنا للفراش لتناول حلويات وقهوة مرة. فجأة عم الصمت على ثرثرتنا وتنبهت الحواس لحديث غالب والعامري، وتحديداً عندما قال الأخير بصوت مرتفع "أتصدق أكاذيب جارية، وتكذب صهرك ومن ناصرك؟"

"الجارية هي التي صنعتك، وهي أم خليفتنا، وأنا لم أتفق معك على الإساءة إليهما وسجن الخليفة في الزهراء، عليك أن تتعهد الآن بالعدول إلى الصواب".

"وإذا لم أتعهد، ماذا ستفعل أيها العجوز؟"

"سأقطع رأسك يا ابن الكلب". عندما سحب غالب سيفه من جرابه أفاق القوم من الصدمة، إنقلب العامري للخلف رافعاً يديه لتلقي الضربة التي وصلته خفيفة إذ هونتها أيدي المتدخلين الذين قيدوا حركة غالب لوقف الشر. هرول العامري والدماء تنزف من أنامله وخلفه جعفر، وارتفعت الأصوات تهدئ الوضع وتطلب استغفار الله، ولم يصدق أي من الجند نداء غالب بالقبض على العامري فتركوه، ظنوا أنه نداء غضب ضد صهره وشريكه، خصوصاً وأنه على ما يبدو لم يخطط لقتله أو اعتقاله مسبقاً ولم يوصى باعتقاله. رغم أنني وبعض من جاؤوا مع العامري لم تتأخر كثيراً في الحصن إلا أننا احتجنا لجهد في تحصيل العامري ومن معه إذ طاردوا خيلهم بأقصى سرعة للنجاة مما ظنوه مؤامرة وتوقعوا المطاردة. قبل صلاة العشاء دخلنا معسكرنا. في الليل أشيع أن غالب تحالف مع النصارى وأراد اغتيال العامري، وفي الفجر زحفنا على الحصن للقضاء على تحالف غالب والنصارى.

أحاط بربر جعفر الستمائة بالعامري ومن حولهم وخلفهم بقية الجند. قبل الوصول إلى التلة المطلة على الحصن ظهر جند غالب واعتلوها قبلنا، ثم انحدروا علينا شاهري السيوف رافعي راياتهم البيضاء، فانقلب بربرنا على أعقابهم وانتشر أجناد الكور شمالاً ويميناً فلم يكن أحد

متأكداً من حتمية الطعان، ولم يبق حول العامري سوى بعض بربر جعفر. اقترب جند غالب مسرعين وهو في وسطهم وعلى رأسه طشتانه الذي كان كبيضة ذهبية معصبة بعمامة حمراء على رأس العجوز الذي قارب الثمانين، وشد فوق حاجبيه حزاماً أخضر من القماش. تقدم إليه بعض البربر بأمر من جعفر فجندلهم دون أن يتوقف، وتهرب من تلاهم من ضرباته. تسمر العامري على حصانه دون أن يتقدم أو يتأخر، وأخذ يصفق بيديه إعجاباً بصهره، بينما ركبه ترتعش خوفاً وشللاً إذ أيقن الموت. فجأة نزلت يد غالب ممسكة بالسيف إلى جنبه وواصل حصانه الانقضاض تجاه العامري المتسمر. قبل أن يصل حصان غالب للعامري ويدهسه، تقدم جعفر وأمسك بالحصان وأوقفه، فإذا بغالب يخر صريعاً من ظهر جواده دون أن يصيبه طعن أو ضرب. إنها معجزة أنهت حياة غالب ووهبت الحياة للعامري.

توقف القتال فوراً بعد سقوط غالب، واجتمع العامري مع قادة جيش الحضرة والشغور وقادة الأجناد واتفقوا على المسير لقتال النصارى خلال الأيام القادمة بعد تهدئة النفوس ودفن غالب. وصل إلى برغش، وهي على مسير ثلاثة أيام، خبر المعركة والاختلاف في صفوف المسلمين وموت غالب في معركة ضد العامري. أرسل القشتالي ابن غنصالص في طلب النجدات من شانجة غرسية الثاني في نبارة ومن ردمير الثالث ملك ليون. ظنوا أن هزيمة المسلمين أصبحت ممكنة في هذه الظروف وسيقتضى عليهم في فترة قصيرة. أما حسابات العامري فكانت تقوده إلى ضرورة إحراز نصر على النصارى ليربط بينهم وبين غالب، وليعيد اللحمة لقوات المسلمين ويعود منتصراً إلى قرطبة.

انتقل مخيمنا من الجورة إلى بلدة نهاريا جنوب الحصن، ومن هناك انطلقنا في الواد بمحاذاة سلسلة جبال العيون قاصدين عرندة الدويرة إذ وصلت العامري أخبار عن تجمعات لجند قشتالة بين عرندة وبرغش. من عرندة انطلقت بعض فصائل الخيالة شمالاً إلى موقع تجمع القشتاليين، فشتتوهم وعادوا بحوالي عشرين رأس جزوها عن أجساد أصحابها،

وأحرقت الضيعات الصغيرة والمزارع شمال الدويرة. لم يصعد العامري بالقوات إلى برغش بل سرنا غرباً إلى شنت منكاس وسمورة، واتخذنا الضفة الجنوبية لنهر الدويرة. كان المسير سريعاً، خيالة البربر وجند الحضرة وأجناد الكور في المقدمة، ومشاة الثغور في الوسط، وخيالتهم في المؤخرة تحميهم من أية قوات معادية قد تلحق بهم كون جند قشتالة لم يبادوا في المعركة، وجند نبارة لم يكونوا قد حضروا بعد. ضمن هذا المسير تأخر الوسط والمؤخرة عن المقدمة بمدة يوم كامل بين عرندة وشت منكاس.

بلاد النصارى عريضة الاستطالة، جبلية التضاريس، سيئة الطرقات، قليلة المدن، صغيرة في عدد وحجم القرى الخاضعة للإقطاعيين مقابل خدماتهم الحربية والضريبية تجاه ملكهم. كان ينقصهم المال والبضائع والصناعات، وكان جندهم ثقال الحركة من كثرة التدرع خوفاً من الموت طعناً، وبريدهم غير منظم. عامل الضعف الأهم لديهم أنهم كانوا على خلاف مع بعضهم ولديهم خلافات داخلية أيضاً. هذه المعطيات واجهها نظام إداري إسلامي قوي وغني في بلاد كثيفة السكان. هكذا أراد العامري التحرك السريع لضرب قوات النصارى قبل أن تجتمع سوياً. أصبحنا نتحرك بسرعة ككتلة قوية ضخمة متماسكة لضرب تجمعات عسكرية غير متكاملة، وتدمير الزرع والضرع، وأسر البشر في طريقنا. تعتبر شنت منكاس الزاوية السفلى لأضلاع مثلث مع ليون في الشمال الغربي وبرغش في الشمال الشرقي. كل من المدن الثلاث تتبع لنظام سياسي مختلف، فشنت منكاس إسلامية، وبرغش مقر إمارة قشتالة المستقلة حديثاً عن مملكة ليون الجليقية. قسم العامري الخيالة إلى قسمين، الأول انطلق إلى برغش والآخر إلى ليون، وكانت كل من المدينتين على مسيرة خمسة أيام من شنت منكاس. صاحبت خيالة ليون، وتقدمنا دون مقاومة تذكر من جنود، ووجدنا ضياعاً فارغاً من البشر، وفي بعض القرى رأيت سكاناً لا يمكن وصف الفقر الذي يعانون منه، ملابس لا لون واضح لها من طبقات الأوساخ، وأطفالهم حولان

العيون، والكثير منهم بشفاه مقطوعة من الوسط، وامتنع الجند عن أسر أي منهم. في تلك اللحظات أيقنت أن الذين يصلونا كعبيد ليسوا من أفقر طبقات ممالك النصارى، ولهذا فهم يتعلمون بسرعة ويحتلون مناصبهم بين الصقالبة وفي حياة قصور ومشاعل ومصانع الأندلسيين.

لم يكن هدفنا الوصول إلى ليون أو برغش، ولكن تنظيف النصف السفلي من المثلث. بعد ثلاثة أيام من المسير شمالاً اتجهنا إلى الشرق للقاء مع الخيالة الذين ساروا باتجاه برغش، ثم هبطنا باتجاه شنت منكاس لنجد أن المشاة قد أحرقوا كل منطقة المثلث السفلي. بعد أسبوع على ذلك اليوم كنا قد ابتعدنا لمسيرة يوم واحد عن شنت منكاس في الطريق إلى قرطبة. وصلنا نبأ أن جند نبارة وقشتالة وليون يتجهون إلينا بعد أن تجمعوا على نهر الدويرة، جنوب غرب شنت منكاس. مع حلول المغرب نشر العامري القوات في نصف دائرة عريضة، وأمر الضلعين المتقدمين بعدم إشعال نار، وأشعل نيراناً عاليةً في الوسط حيث قلة من الجند مع بغال الأحمال والمطبخ. خيوط الفجر الأولى أيقظت معسكر جند النصارى ليروا أنهم محاصرون بقوات تزحف إليهم من الجهات الثلاث، ولولا صيحات البربر وطبولهم المبكرة لأمكن أسر الجند نياماً. من وصل منهم لدابته كتبت له النجاة، ومن هرب على قدميه لحقه من أطاح برأسه، أما الذين نجوا فقد انضموا إلى ملوكهم وقادتهم على الضفة الشمالية للدويرة وعادوا إلى مدنهم. بعد ذلك الكمين الحاسم، حمل البربر الرؤوس المقطوعة على القضبان وأخذوا يغنون بكلمة واحدة كال دراويش على دق الطبول "المنصور، هم هم" وقبل انقضاء اليوم لم نعد متأكدين إذا كانوا يقصدون بذلك العامري أم جعفر بن علي الذي نصر العامري حين أوقف حصان غالب عن دهسه.

أوكل العامري عبد الرحمن بن مطرف التجيبي صاحب سرقسطة بالإشراف على جيش الثغور وحماية الحصون على طول نهر الدويرة في الفترة بين الصوائف، وعبد الرحمن هذا زعيم قبيلة التجيبي الذين شاركوا جند الحضرة في حروب العدو أيام الخليفة الحكم، والذين يديرون

سرقسطة ونواحيها منذ دهر، ولاقى هذا الاختيار ارتياحاً لدى جند الثغور الذين فقدوا شيخهم غالب. في الطريق لقرطبة عرف كل الجنود أن العامري يجمع الغبار عن وجهه وملابسه بعد كل معركة، ويضعها في صرة حتى يغطي بها جسده عند الدفن، وعرفنا أيضاً أن الرجل يحمل معه كفته الذي غزله بناته بأيديهن من كتان مزرعة صغيرة ورثها عن أبيه. القصد هنا أنه مجاهد حقيقي طامع لرضاء الله إلى درجة التكفن بشيء من صنع الحلال، ولم يرَ أحد في ذلك إقراراً من العامري أن ما لديه غير الكفن ليس حلالاً. سألت خيران عن قصة الغبار فقال إنه المكلف بجمعه الآن، وتشاورنا في أفضل الطرق لجمع كمية تستحق جهاد الرجل. قبيل الوصول لقرطبة أشيع أن العامري سيتلقب بالمنصور، وبعد أيام في حاضرة الأندلس تسمى بذلك ودُعي له على المنابر بالحاجب المنصور تشبهاً بالملوك من دون أن يقطع الدعوة للخليفة هشام. كتبه إلى الولاة والمعنيين أصبحت تتوج: من الحاجب المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر إلى فلان. تلا ذلك الأمر أن يناديه الوزراء وغيرهم بمولاهم، وانقاد لذلك الكبير والصغير، بل أخذوا يقومون ويلثمون أيادي أولاده أيضاً.

لو سُمح لجعفر المصحفي الآن تقييل الأيادي للإفراج عنه فربما لما تباطأ في ذلك، لكن بعد أيام من آخر مرة أعيد فيها جعفر المصحفي إلى بيت البراغيث في مطبق قرطبة، تخلص منه المنصور بدس السم إليه في الطعام. وشاء الله أن يموت جعفر بعد غالب وليس قبله، رغم أن ذله طال لسنوات. سار مع جسد جعفر إلى الزهراء كاتب المنصور العامري، محمد بن إسماعيل، وصاحبه أيضاً محمد بن مسلمة ومعه الأمر أن يسلمه إلى أهله وولده، ولا يتركهم إلا بعد إنزاله ملحده. لم يكن بجسده أي أثر لقتل أو طعن، حسب قول ابن إسماعيل، وكان عارياً ولا شيء يواريه إلا ثوب من أحد بوابي السجن. "فدعا له محمد بن مسلمة بغاسل، غسله على باب اقتلعه من ناحية الدار، وأنا أعتبر من تصرف الأقدار. خرجنا بنعشه إلى قبره وما معنا إلا إمام المسجد

المُستدعى للصلاة، وما تجاسر أحد على النظر إليه أو السير خلف نعشه". هذه الرواية باستغراب محمد بن إسماعيل من تصرف الأقدار، اشتهرت مع بقيتها في قرطبة بعد حين، وكان محمد هذا، مثل الكثيرين غيره، قد عرف الحاجب في أيام مجده، وسعى لإيصاله قصاصة كتب عليها حاجته. "وقفت له في طريقه أيام نهييه وأمره، فوالله ما تمكنت من الدنو منه بحيلة لكثافة موكبه وكثرة من حف به، وأخذ الناس للسكك عليه وأفواه الطرق، ينظرون ويسلمون عليه، حتى ناولت قصاصتي لبعض كتابه الذين نصبهم على جناحي موكبه لأخذ القصص". جعفر الحاجب، المتأمر، الظالم، المظلوم، هو من قال في أزمته وقد اتعظ:

صبرت على الأيام لما تولت وألزمت نفسي صبرها فاستمرت
فيا عجباً للقلب كيف اصطباره وللنفس بعد العز كيف استذلت
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى فإن طمعت تاقت وإلا تسلت
وكانت على الأيام نفسي عزيزة فلما رأيت صبري على الذل ذلت
وقلت لها يا نفس موتي كريمة فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت
تلك الأبيات ومثلها الكثير في المعنى والاتعاظ قالها الحاجب جعفر المصحفي بعد أن يؤس من عفو العامري عنه، فقد كتب قبل ذلك من المطبق الكثير من أبيات الاستعطاف بمحمد. ومما قاله في ذلك:

هبني أسأت فأين العفو والكرم إذ قادني نحوك الإذعان والندم
يا خير من مدت الأيدي إليه أما ترثي لشيخ نعاه عندك القلم
بالغت في السخط فاصفح صفح مقتدر إن الملوك إذا ما استرحموا رحموا

هذه الأبيات أعاظت العامري بدل أن تليينه إذ يمكن فهمها على وجهين، الأول الاستعطاف مع بعض احتفاظ قائلها بشيء من بقية كرامة، والوجه الآخر الذي يجوز أن تفهم به هو اتهام العامري بانعدام العفو والكرم ومبالغته في السخط وتذكيره أنه إذا لم يرحم فهو ليس بملك. وقد رد عليه العامري على نفس الوزن يذكره بوشايته به أيام المستنصر باختلاس المال من دار السكة إذ قال:

الآن يا جاهلاً زلت بك القدم تبغي التكرم لما فاتك الكرم
أغریت بي ملكاً لولا تشبته ما جاز لي عنده نُطق ولا كلم
فياأس من العيش إذ قد صرت في طبق إن الملوك إذ ما استنقموا
نفسی إذا سخطت لیست براضية ولو تشفع فيك العرب والعجم
عندما بلغت هذه الأبيات لجعفر أيقن ألا رجاء وفائدة من
الاسترحام، فدبت به بقية شجاعة إذ توزع في قرطبة أنه قال محذراً
للعامري:

لي مُدة لا بد أبلُغُها فإذا انقضت أيامها مُت
لو قابلتني الأسد ضارية والموت لم يدنُ لما خفت
فانظر إليّ وكن على حذر فبمثل حالك أمس قد كنتُ

في الشهور التالية ابتلع أهل قرطبة اعتقال هشام وأمه في قصرهما
بالزهراء، ولم يعترضوا بكثافة على تلقيب العامري بالمنصور وتقليد
الملوك. نجح المنصور أيضاً بإقناع العامة أن صهره غالب قد تأمر مع
النصارى وتوجب قتله، وذلك على الرغم من كثرة الأقاويل أنه استجلب
جعفر بن علي ليستقوي به وليخلصه من غالب في الميدان كونه من
الفوارس المشهود لهم. كل خطط المنصور بدت بديهية لنا في قرطبة،
ومع ذلك، وربما لهذه المعرفة أصلاً لم يتخوف المنصور من التذمر
عندما عرف بموت جعفر المصحفي بالسم. لقد توفر الأمن وهو المطلوب
الدائم للسكان في أوقات الأزمات أو أزمة الرخاء. تشددت أيضاً الرقابة
في الأسواق على الغشاشين للميزان ورافعي الأسعار واهتم محتسبو
الأسواق بشكل مميز بضبط المخلين بالآداب العامة أيضاً.

في ليلة الأحد الثالث من شعبان حدثت واقعة أفلقت أهل قرطبة
قليلاً قبل أن يبتلعوها كحدث أصغر مما شابهه من تصرفات الحاجب
المنصور. التفاصيل التي حدثني بها خيران بعد أيام تقول إن المنصور
جلس كالعادة في سهراته المسائية الشتوية وحوله عشرة من وزرائه
وغيرهم من كبار الإدارة. دقت الطبول والدفوف مع ألحان العود وزمرة

الزمار، وفي هذا الجو الصاحب تمايلت أنس القلوب وهزت أردافها فانتشى القوم، وعند وصول الخمر صب الساقى للمنصور، فقال للساقى: "إسقها أعز الناس عليّ" فاحتار الساقى المسكين لمن يقدمها لأن كل الجلوس من عليّة القوم. زجره العامري: "ناولها الوزير أبا أحمد! عليك لعنة الله". هنا قام جعفر بن علي مزهواً بهذا التخصيص الذي أصابه، فتناول الكأس وشرب واستخفه الطرب فرقص ولم يبق أحد في المجلس إلا فعل كفعله. أميلت الكؤوس إليه حتى أثمله السكر، وانصرف في جوف الليل مع بعض غلمانه. لم يتعد كثيراً عن المجلس حتى خرج عليه معن وأصحابه، ولم يكن به قوة لردهم، فأخذته السيوف وحُز رأسه ويده اليمنى وحملوا للمنصور سراً. بالطبع أظهر العامري عليه في العلن حزناً.

عندما سمعت القصة تذكرت هتافات البربر "المنصور هم هم" وقدرت بالتالي تخوف العامري من وجود أي منافس محتمل. تحالف مع المصحفي ضد الأمويين والصفالبة، ومع غالب ضد المصحفي، وجلب بن علي ليقاتل نيابة عنه غالب في الميدان إن تطلب الأمر، والآن تخلص من ابن علي واحتفظ بجنده البربر. أما قاتل ابن علي فهو أبو الأحوص معن التجيبي، الخائن من لاردة الذي كان يتآمر مع النصارى ويرشد جندهم إلى عورات المسلمين، واعتقل وهرب من السجن ثم أسره رشيق وأحضره مع عشرة من أصحابه ورؤوس أنصاره إلى قرطبة ليسجن فيها قبل أن يطلق الخليفة الحكم سراحه من السجن لاحقاً. هذا القاتل قُتل في اليوم التالي لحزه رأس جعفر بن علي.

نفي وجلد

مع عام 372 أنجز الحاجب المنصور تخلصه من بقية رجال الخليفة الحكم، رحمه الله. لم يستثن أحداً من سائر طبقاتهم، عزل الكتّاب، واستبدل عمال الكور، وغير القضاة، واستغنى عن أصحاب السيوف والأفلام. أقام بدلاً منهم رجالاً من تخريجه واصطناعه، فمحووا ذكر السابقين وأيدوا المنصور على أمره. التغيير الأساس جاء في نظام الجيش إذ نصب نفسه قائداً لجيش الحضرة وجيش الثغور، وواصل إقامة جيش مرتزقة من البربر خلطهم مع عناصر الجيوش الأندلسية بعد أن أنهى فعالية العرب، أجناد الكور. لم يكن لجند البربر أي تدريب ونظام يتوافق مع جند الأندلس من رتب عسكرية وتخصصات، وبدل أن يتعلم البربر النظام العسكري الأندلسي، نشروا الفوضى في صفوف الجيش بقلّة احترامهم للأصول العسكرية. اعتمدوا على نصره وتأييد المنصور لهم، وهو الذي أراد في الأصل خلق الكراهية بين العنصرين الأندلسي والبربري ليصبح المقتدر الوحيد على توفير السلام بينهما وضمان الولاء عبر الرواتب الشهرية للجنود. في الزاهرة نما عدد الصقالبة الجدد التابعين للمنصور بوتيرة سريعة، ولكنهم تبنا اسم الفتيان العامريين، واشترك البالغون منهم في الصوائف، وحسب تقدير خيران فهناك ألفا فتى تتراوح أعمارهم بين ست سنوات إلى ثلاثين سنة.

الظاهرة الجديدة التي يتحدث بها أهل قرطبة هي كثرة الجوّاري اللواتي استجلبهن المنصور للحاضرة من كور الأندلس ومن المشرق والمغرب وبلاد الصقالبة والإفرنج ومن المسبيات، ثم أعاد تصديرهن كهدايا إلى بيوتات الأندلس وإلى حكام الكور الجدد الذين عيّنهم، وإلى

القضاة والفقهاء، كل بما يناسبه من خصال في الجواري. ما لم يعرفه العامة أنهن تدرين على التجسس وكن يقدمن المعلومات للمنصور عبر كهرومانات على تواصل دائم معهن. ما يدور في البيوت من خصوصيات، أو أثناء حفلات ولقاءات وأحاديث، وما يقال عن المنصور ودولته في ساعات الاسترخاء والسكر، أو في الاجتماعات المشبوهة بين المتحزبين من المعارضين المتنوعين، كل التفاصيل كانت تصل حاجبنا.

أثناء تلقي دروس الفلك في الجامع قبل سنوات، مرّ ذكر كتاب ابن خرداذبه الذي ألفه قبل مائة عام في بغداد بعنوان "المسالك والممالك". ذلك العلامة الجغرافي تحدث بصراحة عن كروية الأرض ضمن تحديده لجغرافيا المعمورة وليس من باب التنجيم ورؤية الطالع. اهتمامي بالكتاب دفعني للبحث عنه في مكتبة الخليفة، ونسخته قبل إعادته إليها. الحمد لله أنني فعلت ذلك، لأنه أطعم للنيران قبيل الخروج للصائفة الجديدة في منتصف محرم 373 الذي توافق مع نهاية يونيو 983. أراد المنصور استرضاء الفقهاء المتشددين ليسكتوا عن أفعاله، فتظاهر بالورع والتمسك بالشريعة وأعطاهم الإذن باختيار الكتب الفلسفية والفلكية من مكتبة الحكم وإحراقها في بطن الوادي تحت القنطرة بحضور كبار المنافقين مدعي العلم مثل الأصيلي وابن ذكوان والزبيدي وغيرهم. "المسالك والممالك" كان من بين الضحايا في هذا اليوم المشؤوم. فيما يلي سأخط لكم جملاً كاملة مما جاء في الصفحة الأولى لذلك الكتاب الذي لا يتصل بالفلك أو الفلسفة، وإنما كُتب لتحديد ولتسهيل جمع الجباية التي تحصل من ممالك الإسلام الجديدة، ويحدد الكتاب مسالكها ويشرح أوصافها:

"بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب فيه صفة الأرض وبنية الخلق عليها وقبلة أهل كل بلد والممالك والمسالك إلى نواحي الأرض، تأليف أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة مولى أمير المؤمنين. قال أبو القاسم: صفة الأرض أنها مدورة كتدوير الكرة، موضوعة في جوف الفلك كالمحة في جوف

البيضة، والنسيم حول الأرض هو جاذب لها من جميع جوانبها إلى الفلك، وبينه الخلق على الأرض أن النسيم جاذب لما في أبدانهم من الخفة، والأرض جاذبة لما في أبدانهم من الثقل لأن الأرض بمنزلة الحجر الذي يجتذب الحديد. والأرض مقسومة بنصفين بينهما خط الاستواء وهو من المشرق إلى المغرب وهذا طول الأرض وهو أكبر خط في كرة الأرض من القطب الجنوبي الذي يدور حوله سهيل إلى القطب الشمالي الذي يدور حوله بنات نعش. فاستدارة الأرض في موضع خط الاستواء ثلاثمائة وستون درجة، والدرجة خمسة وعشرون فرسخاً، والفرسخ إثنا عشر ألف ذراع، والذراع أربع وعشرون إصباعاً، والإصبع ست حبات شعير مصفوفة بطون بعضها إلى بعض. يكون ذلك تسعة آلاف فرسخ، وبين خط الاستواء وبين كل واحد من القطبين تسعون درجة اصطرابية واستدارتها عرضاً مثل ذلك إلا أن العمارة في الأرض بعد خط الاستواء أربع وعشرون درجة، ثم الباقي قد غمره البحر الكبير، فحن على الربع الشمالي من الأرض، والربع الجنوبي خراب لشدة الحر فيه، والنصف الذي تحتنا لا ساكن فيه، وكل ربع من الشمالي والجنوبي سبعة أقاليم".

هذا كل ما جاء في الكتاب عن الفلك، ويبدو أن ما أغاظ المغالين من فقهاء قرطبة هي الإشارة لكروية الأرض وكيفية صمودنا عليها وانجذابنا إليها دون الوقوع عن جوانبها وأسفلها. في نفس الصفحة يتحدث المؤلف عن كيفية تحديد اتجاه القبلة للصلاة في دول الإسلام، وبقية الكتاب هي شروح للمسالك والمسافات بين كل ممالك الأرض وصفاتها. وعن تحديد القبلة قال:

"فقبلة أهل أرمينية وأذربيجان وبغداد وواسط والكوفة والمدائن والبصرة وحلوان والدينور ونهاوند وهمذان وإصبهان والري وطبرستان وخراسان كلها وبلاد الخزر وقشمير الهند، قبلتهم إلى حائط الكعبة الذي فيه بابها وهو من القطب الشمالي عن يساره إلى وسط المشرق. وأما التبت وبلاد الترك والصين والمنصورة فخلف وسط المشرق بثمانية أجزاء

لقرب قبلتهم من الحجر الأسود. وأما قبلة أهل اليمن فصلاتهم إلى الركن اليماني من الكعبة ووجوههم إلى وجوه أهل أرمينية إذا صلّوا، وأما قبلة أهل المغرب وإفريقيا ومصر والشام والجزيرة فوسط المغرب وصلاتهم إلى الركن الشاميّ ووجوههم إذا صلّوا إلى وجوه أهل المنصورة إذا صلّوا، فهذه قِبَل القوم والنحو الذي يصلون إليه".

عندما عاد المنصور من صائفته عرف من جواسيسه أن جملةً من أهل العلم غضبوا على فعلته في الكتب ومسائره للمتشددين، ووصل إليه قول بعضهم إن دولة بني عامر زائلة منقرضة، فأشاع أن القوم يتنبأون، وبالتالي يعملون في التنجيم. اعتقل محمد بن أبي جمعة وقطع لسانه، ثم قتله، وصلبه ليعتبر به الآخرون وإخراص ألسنتهم. أما الشاعر عبد العزيز بن الخطيب الذي أصابه كلام الجواسيس فقد أودع السجن لأنه كان من شعراء المنصور ولم يقتل. من السجن أخذ الشاعر يناق المنصور فقال:

ما شئت، لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهارُ
فكأنما أنت النبي مُحمد وكأنما أنصارك الأنصار

هذا النفاق اعتبره حاجبنا استهزاءً وليس استرضاءً، فأمر بجلد عبد العزيز خمسمائة سوط، ونودي عليه بأنه مستخف بالدين، ثم نفاه من بلادنا التي استقبلت في نفس الفترة فئة جديدة من البربر، بني زيري بن مناد الصنهاجي. اختلف الإخوة الصنهاجيون في بلادهم وحاربوا أخاهم حماد قائد القلعة المسماة باسمه فهزموهم. المهزومون زاوي وجلالة وماكسن وجماعتهم حضروا للمنصور وطلبوا منه السلاح والإذن لمحاربة النصارى. عرض الحاجب عليهم الجند لمرافقتهم شمالاً فقالوا ما يدخل معنا لبلاد العدو غير الذين معنا من بني عمنا وصنهاجة ومواليها. فسلّحهم المنصور ومولّهم وأخرجهم للشمال مع دليل ليشنوا غارات وكمائن يرهبون بها النصارى في كل أوقات العام، ينهبون الدواب ويسبون الإناث ويحرقون ما استطاعوا في هجمات سريعة غير متوقعة المكان والزمان. فازوا بالغنائم لأنهم لم يراعوا تقاليد ومواعيد وفاجأوا

المزارعين في مواسم العمل وليس كالصوائف التي تحدث في مواسم الحصاد فيأخذ جنودنا الغلة أو يحرقونها.

انتشر الإرهاب بيننا في قرطبة من تزايد السكان البربر ومخالفتهم لكل ما نعرفه، وعمّ الخوف تدريجياً كور الأندلس تحت حكام جدد، وانتشر الخراب في بلاد الجوار بفعل غزوات المنصور وغارات البربر. أما حياة قصور الزاهرة فتعج بالمجون الليلي، وتظاهر بالآداب والشعر تقليداً لأمرأ بني أمية. ورد على المنصور أبو العلاء صاعد البغدادي المجيد لشعر الغزل في الصبيان، كثير الادعاء والأكاذيب، ولكنه ظريف جريء وفاز بوصول المنصور رغبة منه أن يجاري به المرحوم أبا القالي مؤلف كتاب الأمالي للخليفة الحكيم، رحمهما الله. حلقات الشعر الراقية في بيوت وحدائق قرطبة ليلاً انحدرت إلى لقاءات شرب خمر وسجع وشعر خليع وأحياناً تنتهي بالتفاف الشعراء على صبي أو بائعة هوى. الأمن السائد عبر الخوف لم يعد يريح القراطة الأشراف. فيما يخصني فقد واصلت عملي في النسخ، والنزهة من الفتيات الأربع كلما تيسر الوقت في أيام الجُمع، ولم تنقطع لقاءاتي مع خيران، لكنني أخذت أفكر بجديّة في رحلة طويلة خارج الأندلس أعود منها للاستقرار العائلي. أكثرت من مطالعة كتب الرحلات والجغرافيا واستطلاع أخبار البلدان تمهيداً لاختيار الرحلة المناسبة.

فرح وحرز

في النزعات الثلاث الأخيرة تنبهت لشاب يرصدنا عن بعد منذ لحظة الخروج من شارعنا. يتبعنا أينما أخذتنا النزهة، سواء إلى القنطرة والرصيف، أو لوسط المدينة كما حصل في هذه المرة. إحمر وجه رفته عندما شعرت بملاحظتي لما يجري والتفاتي للبحث عنه. تركت الفتيات في دكان لبيع العصير واستدرت عائداً باتجاه الشاب دون أن أحسم مشاعري وما يحركني الآن.

"لماذا تلاحقنا منذ أسابيع عند خروجنا من البيت وحتى العودة؟" سألت الشاب، وكان في سني، بنبرة غاضبة بينما أظهرت علي وسطي سلفاً الخنجر اليميني المعقوف الذي أهداني إياه جدّي يوم رحلتي إلى مالقا.

"أرجوك لا تغضب يا سليمان، إن قصدي شريف، وأعرف ألا نية عندك في الزواج من رفته".

"وكيف عرفت أنني لا أريد الزواج منها، وهل يعني هذا الركض خلفنا كل جمعة؟"

"كلفْتُ عجوزاً خطابة بالسؤال قبل شهر، ولا أدري كيف جمعت معلوماتها، لكن إذا كانت مخطئة فلن تراني بعد الآن. أما سبب أنني لم أحسم أمري بعد، فيعود إلى أهلي، فأنا قلق من موافقتهم على الزواج من يهودية". كان الشاب يتحدث بأدب ويبدو عليه رقي وصاحب علم، وفكرت أن نهرة الآن والادعاء برغبتي في رفته قد يحرمها من فرصة جيدة في هذا الزمن الذي يصعب فيه العثور على عرسان لبنات قرطبة من كثرة ورخص ما يحضره الجلاب من سبايا غزوات وما يصلنا من جوارى.

"إسمع، لن أسألك الآن عن فصلك وأصلك، غداً نلتقي في الجامع بعد صلاة الظهر، أريد منك كل التفاصيل عن ذاتك وأهلك، وربما بعدها ساعدتك بالنصح كيف تفعل مع أهلك وأهلها، لقد صدقت الخطابة، فأنا أعتبرها مثل أختي بسبب الجيرة والصدقة منذ الطفولة". أصبح هدفي أن أسألها الرأي قبل أي شيء، وخطر لي بسرعة أن أعطيها فرصة لرؤيته بوضوح فقلت له "تعال معي إلى دكان العصير وابق هناك بعد أن نغادر". في الطريق للدكان عرفت اسمه، نصر البلنسي، موزراب ويعمل كمشرف على صناعة عائلته في الأقمشة. ألقى التحية على الحضور بصوت منخفض واشترى عصير رمان. أما أنا فناورت الوقوف بحيث يكون ظهري لنصر ووجهي لرفقه حتى تتأمل النظر في البلنسي. همست لها ألا تخجل وأن تنظر إليه بينما تحدثني، وأخبرتها أنني سأشرح الأمر لها لاحقاً. "المهم الآن أن تتألمي في سحنته دون تردد". غادرنا المحل وتركنا شفه وفاطمة وخوخة يسرن أمامنا، وأخبرت رفقه بعزمي الرحيل لفترة طويلة قريباً، ثم أضفت أنني اعتبرها مثل أختي، وهكذا لم يعد هناك شك في تفسير العلاقة بيننا ومستقبلها. في الواقع لم أشعر طوال السنوات الماضية بشيء أكثر تجاهها، ولم أشعر بشيء مختلف من ناحيتها، لذلك لم يفاجئها ما قلته، ثم أكملت لها ما عرفته عن نصر. اتفقنا على جلب المعلومات منه أولاً قبل اتخاذ قرار إبلاغ والدها. في ذلك المساء تأملت في ردّها الهادئ وسرعة تقبلها لفكرة الاقتران بالبلنسي، فشككت أن الخاطر راودها منذ أسابيع حيث شعرت هي من ملاحظته الأولى لنا بما لم أشعر به.

أفهمت نصر البلنسي أنه لن يراني في مفاوضات الخطوبة والزواج، ولكن عليه تذكر دائم بأنني أخ لرفقه، إذا أخطأ تجاهها فسيكون مسؤولاً أمامي. ووافق على أن يراعي تقاليد اليهود في الزواج، وأن يترك لها لاحقاً حرية احترام السبت أم لا، واقترحت عليه طرح ذلك عندما يتوجه للخطوبة لأن اليهود لا يزوجون بناتهم لغير اليهود في العادة، وإذا لم يطمئنوا ويتأكدوا أن لبنتهم حق التمسك بيهوديتها فإنهم لن يزوجه.

شرحت له وضع والدها الاجتماعي ومقامه بين اليهود وتجارته وأعماله الرائجة عبر الحدود مع الفرنجة. أردت من ذلك التلميح لنصر بفرصة توسيع تجارتهم للأقمشة خارج الأندلس، وإبلاغه بشكل غير مباشر أنه سيحصل مع رفقه على فيد لا بأس به وأثاث كثير سيحتاج لبيت مستقل لهما. استمع لكل المعلومات باهتمام ليسخّرها في إقناع عائلته بهذا الزواج، فرغم أنهم نصارى إلا أنهم يعيشون كالمسلمين ووسطهم ولا يختلفون عنهم إلا في الشعائر الدينية، بل الكثير من الموزراب غير متشددى الدين، ولهذا فأهل نصر يتقبلون فكرة الزواج من مسلمة أسهل من زواج ابنهم من يهودية.

أكثر نصر من اللقاءات معي للاستفادة في طمأنة أهله، ولم أتردد في زيارتهم لإبلاغ رفقه ووالدها بكل التفاصيل تباعاً عن وضعهم الاجتماعي وصناعتهم. كل شيء كان مناسباً للطرفين، عائلة صناع غنية مع عائلة تجار، وكلا الطرفين على درجة عالية من الرقي والتعلم وأبعد ما يكونون عن الاستعاشة من موارد الدولة، بل هم من دافعي الضرائب على ما ينتجون ويربحون، وبالتالي مستقبل هذا الزواج مضمون بعيداً عن غالات السياسة وتقلباتها هذه الأيام. في اليوم التالي على الخطبة بحضور رابي الحي وأصدقاء لابن عمران استقبلوا أهل نصر، أصبحت رفقه تغطي شعرها، وتقلل من خروجها، ولا تخرج وحيدة أبداً. في فترة قصيرة لاحقة تمت خطبة أختها شفه من شاب يهودي يعمل صائغاً في طليطلة، ويمت للعائلة بقرابة. هكذا لم يعد عندي من رفقة أنوثية سوى فاطمة وخوخة وكلاهما مكتملات الأنوثة ويقتربن بسرعة من النضوج. فاطمة كانت مخطوبة ضمناً لابن عمها سعيد، وبعد خطبة صديقتها تحسست قلقاً لديها، واكتشفت من مفاتحتها في الأمر أنها تحبذ بعض التأكيدات المعنوية والفعالية من سعيد الآن حتى لا تبقى معلقة على تفاهمات وهمية بين الأهل. على إثر ذلك أوعزت لسعيد بماذا يهديها إذا لم يكن قد غير رأيه، فأصبحت الهدايا تصلها بدون مناسبات. أما خوخة

فلم تعبر بكلام، ولكن نظراتها إليّ كانت أحياناً تسأل أين الهدية بهذه المناسبة، وأحياناً أخرى توحى بالتعلق ما فوق الأخوي.

تميز صيف 984 بالسعادة، ففيه بلغت سن العشرين، ورقصت في ثلاثة أفراس زواج، وتوسعت صناعتنا في نسخ وتجليد الكتب والأخبار والورق، وكان سعيد وعمي عيسى يديران زراعتنا وتجارتنا في التين بشكل ممتاز ولم تتعرض السفن التي تحمل صادراتنا في السنوات الماضية لأية قرصنة أو هجمات حربية. قرطبة ورغم ارتهاب أهلها من السياسة، لازالت تضاء ليلاً، وحلقات السمر والشعر تعمر حدائقها، ونوافيرها تضخ الماء، ونزهات أهلها في برّها ونهرها تخف أثناء الأسبوع وتكثر في نهايته وتزدحم في الأعياد. بالكاد يستطيع العرسان والمصيفون حجز فنادق قرطبة وبيوتها خارج السور. الكثير من القرطبيين تعايشوا، لسبب أو لآخر، مع فكرة إخماد نور الأمويين، والمعارضون علناً يُطاردون، والرافضون سرّاً قلقون. الغضب والكراهية تنصبّ على البربر، وليس على من يصطنعهم. هم الذين أفسدوا نظام الجيش، وحدّوا من أهمية الأجناد والعائلات العربية الفاتحة للبلاد، وهم الذين يزاخمون على الدور والقصور في قرطبة ويعيشون عالّة على هبات المنصور. هؤلاء البربر غير إختهم المزارعين والتجار الذين شاركوا في الفتح واستوطنوا مع العرب وتراهم الآن في الأسواق والمحلات يبيعون بضائعهم أو يعملون في بعض الوظائف ومعظمهم يقطنون خارج قرطبة. والذي كان من الفئة القلقة على الأوضاع منذ تسلم العامري لزام الأمور، رغم أنه لم يكن سعيداً أيضاً قبل ذلك من تصرفات الخليفة الحكم، لكنه أيضاً غير تعس ويفرق بين المعاش اليومي والقلق السياسي، وسافر مراراً في السنوات الماضية إلى طليطلة وبلنسية والمرية بحثاً عن مؤلفات جديدة وترويجاً لما ننسخه.

بقدر الفرح في الصيف ومهرجاناته التنكرية، وسعادة أعياد الأضحى والميلاد والنيروز، أصبح حزني لا يوصف في الثاني من رمضان عام 374 الذي وافق نهاية يناير 985. في هذا اليوم لم يفق جدّي من النوم

عندما أردت إيقاظه لتناول السحور قبل الفجر. لم يكن به مرض أو حتى توعك قبل يوم، لكن خالد بن عبد الله القلعي ولد في العام الأخير من القرن الهجري الماضي، واحتفظ بعافيته وصحته طوال خمس وسبعين سنة، وهذه نعمة من الله سبحانه وتعالى. تاريخنا المسجل منذ عهد أسعد بن باهر بن عبد الرحمن القلعي، الذي ولد في اليمن عام 58 هجرية وقَاتَلَ مع حسان في المغرب ودخل الأندلس مع موسى، ذلك التاريخ لأجدادي التسعة يشير إلى طول أعمارنا والحمد لله. عمر أبي الآن خمسة وأربعون عاماً، ورغم أن ابن عمي سعيد وأختي فاطمة في طريقهم لتأمين سلالة عائلتنا، إلا أن الواجب سيدفعني في القريب لتأمين سلالة فرع أبي، قريب، فهذا هو حال الله في عباده. حزنت بصمت على جدي، وفي قرارة نفسي تمنيت موتاً مشابهاً سهلاً وبعد حياة كحياته غزيرة بالعطاء والحب. انتشر الخبر في قرطبة والزهراء، وصلت على جدي عصر اليوم في المسجد الجامع جموعاً من معارفنا وأقاربنا ومئات من أبناء الجالية اليمنية الأصل. لم نترك أحداً يستقل في حمل نعش جدي، أبي وعمي عباس حملا الركنين الأماميين وأنا وسعيد في الخلف. كل من ساهم في حمل النعش أخذ دوره في الوسط حتى أوصلناه المقبرة ودفناه إلى جانب زوجته. رجوت عماتي وقرباتي ألا يصرخن أبداً، وطردت أكثر من جماعة حضرن قبل الدفن لعرض خدماتهن بالنواح والصراخ نيابة عن أهل المتوفى. بدل ذلك أوكلت لقارئ قرآن أن يتلو بصوت جهوري آيات في موضوع الموت طوال مسيرة الجنازة، وتولّى قارئ آخر التلاوة أثناء الدفن.

شياطين المقابر

حرصت أثناء فترة الحداد لأربعين يوماً على زيارة المقبرة مراراً وبمواعيد غير محددة، أحياناً بعد صلاة الفجر، إذا لم يكن الجو ممطراً، وفي كل أيام الجمع بعد العصر، وأحياناً في المساء. كان ذلك أول عهدي بزيارة المقابر، وفوجئت بوجود أرامل، بعضهن جميلات، يزرن قبور أزواجهن، أو يتظاهرن بذلك بينما هن عملياً يستعرضن أنفسهن ويُشهرن لمن كن زوجات، وأنهن يبحثن عن أزواج. مثل هؤلاء الأرامل صيد ثمين للرجال المحتاجين للمال إذ لا مهر لهن، بل يجلبن معهن ما ورثن من الزواج الأول. كل ما يحتاجه المهتم هو تحديد اسم المرحوم عن شاهد قبره والسؤال عما ترك. ظننت أن هذا هو آخر شيء يجب أن يحدث في هذا المكان ومن أرامل أمام قبور أزواجهن.

ذات ليلة بعد عيد الفطر اكتشفت أن ذاك هو الشرّ الأصغر، لأن الداعرين يلتقون بالداعرات هنا أيضاً معتمدين على ندرة عيون العامة في المقابر ليلاً خوفاً من أوهام الأرواح والأشباح والشياطين. للوهلة الأولى ظننت أنني أشاهد عائلات حزينة تتذكر موتاتها في خشوع الليل، رغم أن هذا غير متعارف عليه، إلا أنني سمعت صرخات وآهات، وعندما تسللت قربهم شاهدتهم يخشون بعضهم بعضاً. أصابني الغضب وهممت بالهجوم، لكن فكرة أخرى قفزت إلى ذهني ووجدتها أفضل، فانسحبت. في يوم الأربعاء زرنا المقبرة صباحاً ووزعنا التمر والقطين على المتسولين هناك، أو بالأحرى المختصين بجمع العطاءات في هذه المناسبات. كانت خطتي ليل مختلفة تماماً.

كان الداعرون يتناكحون في الحديقة وسط المقبرة وتحت الأشجار

بين القبور. في موعد صلاة العشاء إنطلق صوت مؤذن مصحوب بضرب شديد للطلل يقترب من طرف المقبرة إلى وسطها دون أن يُشاهد صاحبه، كان هذا من فعل خيران العامري. في الوقت ذاته انطلق من طرفين متقابلين وباتجاه الوسط أيضاً شبهان أبيضان طول كل منهما أربعة أمتار. كنت قد ربطت قماشاً أبيضاً ببعضه ببعض ورفعته بيدي على رمح طويل بحيث يغطي القماش من أعلى الرمح إلى أخصص قدمي. تقدمت ببطء مع تمايل يمين ويسار وبعض القفزات لأعلى أو للجوانب أحياناً. من الطرف الآخر تقدم سعيد بشكل مشابه مع فارق أن ساريتته كانت تلبس عمّة قاضٍ. ارتفع الصراخ ممن كانوا في الأطراف وركضوا بمؤخرات عارية باتجاه الوسط يتدعثرون في شواهد القبور وفي أجساد غيرهم من المضطجعين. انطلقوا من الوسط إلى الزاوية الرابعة وسط نباح الكلاب، وعندما التقينا في الوسط كانت المقبرة قد تطهرت من الرجس، وقرر خيران تطبيق أفعال مشابهة مع رفاقه من الفتيان على بقية المقابر. قلت لخيران إنه إذا لم ينفذ مخططه هذا، فعليه إشاعة أن أخوات، أو قريبات، زعماء عصابات الأحياء يمارسن البغاء في المقابر مقابل نقود، طبعاً مع الإشارة لاسم كل زعيم دون ذكر لاسم الأنثى، فهذا سيقضي على الظاهرة ويشغل العصابات بمنجسي المقابر.

خوخة شاركتنا الحزن طوال الأربعين يوماً ولم تكن تفارق أمي وبيتنا إلا للنوم في بيتها. قبل موت جدّي وعندما لم يبق من البنات غيرها، أصبحت تغطي رأسها كلما خرجنا سوياً. مع نهاية الحداد عرفت أنني نويت السفر بحراً إلى جزيرة صقلية وبلاد الفرنجة، وفاجأتني بكلام صريح لم أستطع الرد عليه فوراً.

"إذا أردت أن أنتظر حتى تعود من السفر مهما طال، فهذه غاييتي وأملتي. وإذا كنت تعرف أنه لا جدوى من الانتظار فلا تتردد في إبلاغي الآن وسنبقى جيران". لم أكن أفكر في الزواج قبل موت جدّي، والآن لا يوجد عندي أي خيار محدد للزوجة من بين بنات عمي عباس وبنات

أخوالي وعماتي، ولا أظن أنني سأجد بينهم أنسب من خوخة. لكني لا أريد حسم الأمر ولا أريد صدها بشكل تفهمه بشكل خاطئ. استبعدت الوقوع في حبال الحب أثناء الرحلة، ورأيت أن أشرح لها احترامي وامنحها الخيار.

"لا يمكن لباحث عن زوجة أن يجد أفضل منك يا خوخة، جمال، وأصول، وتعليم، وأدب، ومهارة. أنا لم أحسم أمري في قضية الزواج، ولا أدري متى تنتهي جولتي وكيف. أعرف الآن أنني لا أنوي الزواج أثناء الرحلة. إذا عدت ووجدتك متزوجة فسوف أستشيرك فيمن أختار زوجة لي، وإذا انتظرتِ عودتي سنتحدث في المستجدات ونقرر سوياً". قبل أن أكمل كانت زرقة عينيها قد تالأت خلف الدموع. أدركت أنني أجرح مشاعرها بهذا الكلام الحيادي الذي لا ينم عن عاطفة خاصة. ضممتها إلى صدري وشعرت بخلجات جسدها في كل مواضع جسدي المقابلة. "لم أكن أريد جرحك بهذا الكلام، أردت أن تحتفظي بحرية القرار بينما أنا غائب في المجهول. تعرفين كم أودك". كانت هذه أول مرة نلتصق ببعضنا متواجهين، واكتفت بما سمعت، وهَمَسْتُ "ستجديني في الانتظار متى عدت وعندما تقرر". لا أدري لماذا قفزت المقابر إلى ذهني الآن، لكنني طلبت من خوخة ألا تزور المقبرة لأي سبب كان وفي أي وقت، ولم أخبرها السبب، كما أنها لم تسأل في الأمر.

لا شيء يخفى على أم سليمان التي سألتني قبل يومين من السفر إلى مرسى دانيه، ماذا تقول لأية قريبة تسألها بالصريح أو التلميح عن احتمال الزواج من بنتها. حتى لا أغضب أحداً وأريح كل الأقارب قلت لأمي أن تنقل عني رسمياً ولمن يعنيه الأمر قراري بعدم الزواج من أية قريبة لأنني أحب كل قريباتي وأعتبرهن مثل فاطمة.

"يعني ستتزوج خوخة، صح؟" قدرت لأمي تدخلها المباشر في هذا الشأن الذي لم ينضج تماماً في ذهني، فهي أُمِّي، وتريد الاطمئنان، ومن المفيد لها أن تعرف كتنها المستقبلية من الآن إذا كنت قد اتخذت القرار، خصوصاً لأنني سأغيب فترة عن قرطبة.

"تودين أن تصبحي حمأةً لزوج ابني إلى جانب كونك حمأة لزوج بنتك؟"

"إذا كنت قررت وافقت معها فأخبرني الله يرضى عليك".
"ما رأيك أنت فيها، بالطبع لن أتزوج دون رضاك، هل تختارينها لي؟" ملاطفة متأخرة للوالدة وتظاهر بإعطائها دور في اختيار العروس.
"بالطبع أختارها لك، من أول يوم أحضرتها معك شعرت أنك ستتزوجها، وراعتها دوماً ككنة المستقبل. خوخة ست الكل في الجمال والتعليم، وأهلها من أكابر قومهم. لكن هل الموضوع رسمي أم لا؟"
"إجعليه أنت رسمياً ثاني أيام سفري، واخطيها من خسوس وماري حتى تجعلها كتنة لها حقوق وعليها واجبات." همت أمي إطلاق زغاريدها فذكرتها أن الخطبة تتم بعد سفري، والزغاريد بعد موافقة الطرف الآخر، أو عندما أعود. بهذا القرار تُسعد خوخة، وتشغل أمي عن التفكير بسفري الآن، كما أن كلا محبتي ستشغلان ببعضهما أثناء غيابي، بينما يشتد شوقي لقرطبة وأهلها مع مرور الأيام.

كنت في أشد الحاجة، وربما الشوق، للسفر والخروج من قرطبة وكل الأندلس. لا شك عندي بأن العالم الخارجي مضطرب وفقير ومتخلف وخطير، لكنني أريد رؤية ذلك بنفسي وتسجيل ملاحظاتي الذاتية وليس فقط مطالعة ما كتبه رحالتنا وجغرافيونا. الحقيقة أنني فكرت قبل ذلك في زيارة جريبر، في مدينة ريمس بأقصى بلاد الفرنجة، وبعد موت جدّي شعرت بحاجة للتجديد. تدارست مع أبي طرق توسيع تجارتنا للكتب ولوازم الكتابة في المدن التي سأمر بها. لم تكن هناك أية مشاكل في تسويق الورق وأنواع الحبر، أو حتى الأقلام التي توسعنا في إنتاجها، تخوفنا كان من استقلال بائعي الكتب الذين نوكلهم وقيامهم بنسخ الكتب بشكل سيئ أو مغلوط. إقترحت على والدي حلاً أعجبه واعتمدها، وهو أن أعطي كل وكيل في مدينته عشرين نسخة من كتاب واحد، ثم إيصاله بعد شهر أو اثنين نسخاً لكتاب آخر، وهكذا لن يرى أي بائع ضرورة لكتابة نسخ أخرى إضافية. إستأجرت خمسة بغال، ثلاثة

منها حُمّلت بالكتب ومبيعاتنا الأخرى، وركبت الرابع مع متاعي للرحلة، ورافقني عبد الجبار الإشبيلي للتعرف على الوكلاء الجدد وتسجيل لوازمهم وترتيب التواصل معهم، وهو مسؤول التوزيع في قرطبة وإشبيلية للآن. كان على عبد الجبار العودة بالبغال وأية مؤلفات جديدة نعثر عليها في الطريق، أو تحميل أية بضائع تحتاج للنقل من دانيه إلى قرطبة. حملت بين أمتعتي عدّة قناني حبر صغيرة زجاجية كهدية وللكتابة أيضاً، بعضها تحتوي حبراً أزرق وغيرها أسود وأحمر. كما وضعت في متاعي مائتي ورقة بيضاء، وكتاباً (تطبيب من لم يحضره طبيب) لأبي بكر الرازي، لاستعين به على الأمراض والأوجاع التي قد تواجهني في هذه الرحلة. وهذا كتاب سهل لتشخيص الوجع بدقة واختيار العلاج من أعشاب وأدوية وأفعال ذاتية، وليس مثل مؤلفات الرازي الأخرى، من طراز الحاوي، أو دراساته في التفريق بين النقرس والروماتزم، أو كيفية استعمال الموسيقى في علاج المرضى النفسيين. أخذت لجربير عدة مؤلفات كهدية، ومنها مؤلف الفلكي الأندلسي، مسلمة المجريطي، الجديد القديم والذي حوّل فيه زيح الخوارزمي من السنين الفارسية إلى العربية ليسهل التعامل مع أحدث منجزات علم الفلك وحركات النجوم. المؤلف الثاني كان كتاب صور الكواكب الثمانية والأربعين لأبي عبد الرحمن الصوفي الذي انتقل إلى رحمة الله قبل عشر سنوات. وددت حمل مؤلفات أكثر لكن رحلتي بحرية وبرية طويلة وسوف أضطر لحمل أثقالي لأيام وربما لأسابيع.

باتجاه صقلية

الوصول من قرطبة إلى دانيه متوفر بعدة خيارات. الطريق من قرطبة إلى مالقا ومن ثم بالبحر إلى دانيه حيث تكثُر السفن المبحرة إلى صقلية، أو الطريق البري سواء عبر مدن جيان والبسيط إلى دانيه، أو جيان غرناطة قرطاجنة مرسية لقنت فدانيه، أو بدون الهبوط من جيان إلى غرناطة وقرطاجنة، وهذا هو الطريق الأسرع والذي اخترته بعد أن قاومت رغبتني في المرور على عمي عيسى في مالقا. رأيت أن المرور بجان ومرسية ولقنت ودانيه يكفي للاطلاع على الربوع الجنوبية الشرقية، وعقد بعض الاتفاقيات لبيع الكتب والورق والحبر، والبحث عن أية مؤلفات جديدة في أسواق هذه المدن.

حالفني المناخ الربيعي طوال الرحلة البرية، ورزقني الله بمركب أبحر بنا من دانيه يوم الرابع والعشرين من شوال. بعد يوم مررنا بجزيرة يابسة أولى جزر البليار الإسلامية، وفي اليوم الثاني قابلنا جزيرة ميورقة وأختها منورقة، وبقي علينا يومان للمرور أمام سردانيه ويومان آخران إلى صقلية. كنا سبعة وثلاثين راكبا وأربعة بحارة ورئس المركب، حسن البحري، الذي كان بمظهره يبث الطمأنينة في قلوب المسافرين بين دانيه والإسكندرية. لهجة حسن كانت خفيفة واضحة أقرب إلى الفصحى. أخبرني أنه من جنوب مصر وقد بدأ حياته المهنية ملاحاً في بحر النيل، وهذه رحلته الخامسة بين دانيه والإسكندرية، سمع أمينتي بالتوقف ولو يوم واحد على الأقل في أحد جزر البليار، وقال إنه لا يتوقف في العادة إلا في صقلية.

"جزر البليار يقطنها ويحكمها مسلمون، ولكن اللصوص أفضل

منهم. أسعارهم عالية ويطلبون ضرائب لا نهاية لها على أية بضائع في المركب حتى لو لم تنزل أو تشحن من جزرهم، لذلك أتجنب مراسيهم، والحمد لله لم أضطر إليهم حتى الآن إلا مرة واحدة لا أنوي تكرارها طواعية".

"هل يشكلون خطراً على السفن في البحر؟"

"طبعاً، لديهم سفن قراصنة تحتمي في الجزر الأصغر، ولكنهم لا يهاجمون السفن العربية أو الإسلامية لأن ذلك سيؤدي إلى انتقام من بلد السفينة المعتدى عليها. يقرصنون على سفن الروم وينهبون ما بها من بضائع وبشر، بل يشنون غارات على مدن في السواحل الشمالية وإذا لم يحالفهم الحظ بغنائم يحملون سبايا من الأطفال والنساء وبييعونهم كعبيد". كان حسن يخفض صوته عندما يتصل الحديث بشؤون أخطار البحر، حتى لا يسمعه بقية المسافرين إذ لم يكونوا كلهم من المسلمين الذين لن يتعرضوا للسبي من قراصنة عرب أو مسلمين.

"مشكلة القرصنة محصورة في جزر البليار أم يمكن اعتراض طريقنا من غيرهم؟" لم أكن أتخوف بالفعل من قراصنة في بحرنا، وإنما أردت الاطلاع على معارف حسن وبعض تجاربه.

"بعض البربر من المغرب يقرصنون في البحر وعلى شواطئ الفرنجة والروم والصقالبة، وعرب طرابلس وقراصنة كورسيكا، المدارة من القيروان، يمارسون هذه الرياضة أيضاً، ومثلهم يفعل الروم والفرنجة. لكنهم لن يعترضونا، ولو فكر بعضهم في ذلك فلن يلحقوا بهذا المركب". شرح لي حسن بعض خواص مركبه وقال إن سبب سرعته ناتجة عن كونه غير مسطح فوق الماء، ولكن غاطسه كالمثلث مما يسهل انسيابه مهما كانت سرعة الرياح التي تنفخ في شراع كبير في الوسط وواحد أصغر في المقدمة وثالث في الجزء الخلفي. البضائع تحمّل في الجزء السفلي الغاطس تحت الماء، بينما المسافرون ومياه الشرب ولوازم الطبخ، من حطب وبقوليات وأمتعة وغير ذلك، توجد على السطح المحاط بسور ارتفاعه أكثر من ذراع. لم أكن أعرف قبل الآن أن السفن

الشراعية يمكنها الإبحار بعكس اتجاه الرياح، ولكن شروحات حسن كانت منطقية خصوصاً وأنا أشاهد على الطبيعة كيف تعمل الأشرعة بتنسيق مع الدفة ونحن نبحر من الغرب إلى الشرق بينما الرياح التي تملأ أشرعتنا الثلاثة تهب من الجنوب. أعجبتني الرحلة البحرية للآن، فهي أسرع كثيراً من السفر البري، وأسهل منه في العادة رغم معرفتي من المطالعة أن البحر غدار وخطير. الخصوصية معدومة في المركب، فأثناء الرحلة يتحول الركاب إلى عائلة بالإكراه، كل واحد يعرف خصوصيات الآخرين، نهمه في الأكل، شخيره في النوم، فظاظته أو لطف معشره، ثقافته أو جهله، وأشياء أخرى. كما أزعجتني فكرة محدودية المياه العذبة واستعمالها للشرب والطبخ فقط.

سبعة من المسافرين ووجهتهم صقلية والبقية سيواصلون الإبحار مع مسافرين جدد من صقلية إلى الإسكندرية. أشعرت حسن البحري بثقتي في أمانته وفطرته، وشرحت له الكثير عن مجال عملي وغايتي من الرحلة. بدل الاكتفاء بهدر الوقت للقضاء على الملل، اتفقت معه على أن يتصيد كتباً جديدة من مؤلفات أهل مصر أو ما يصلهم من الشرق، ويحملها إلى وكيلنا في دانيه، وكتبت للوكيل رسالة تخبره باستلام ما يصله وإرساله فوراً إلى قرطبة. عرف حسن بسرعة أن ضمان عدم حمل كتب موجود مثلها في الأندلس، هو أن يختار المؤلفات الحديثة، وأنقده عشرة دنانير ذهبية، ثمانية للشراء، واثنين أجرة نقل في مركبه، واستعد أن يكتب ثمن ما اشتراه في كل رحلة ويرسل بالمعلومة إلى قرطبة عبر الوكيل في دانيه، ولاحقاً سيكتب له أبي، أو أنا عندما أعود للأندلس، حول متابعة العمل وكيف، وربما طلب مؤلفات محددة. الأهم من ذلك بالنسبة لي هو حجم ونوع النصائح التي سمعتها من حسن عن طرق التحايل على الروم والتجول بينهم دون أن يعرفوا أنك مسلم، وكيف تخبيئ النقود وتدفع الأثمان. لكن ذلك ليس كل ما أخبرني حسن به، فبعد أن تمتنت العلاقة أخذ يسألني عن مغامراتي النسائية، وكلما شعر بترددي ينتقل ليروي تفاصيل مغامراته وطرقه مع النساء بما لم يكن

يخطر في أي من أحلامي. بالطبع لم أخبره أنني صفر التجربة حتى الآن، وكنت أجامله في الحديث بقول إنني لم أجرب هذا أو ذلك، بينما هو يتهمني بالتقليدية ويلح عليّ أن أمتثل به وأدعو له بالصحة، إذا أعجبني الأمر.

في مساء اليوم الرابع قابلنا نهاية البر الجنوبي لجزيرة سردانية وقطعنا بذلك ثلثي الرحلة، لكن الليل جلب لنا غيوماً تكاثفت بسرعة وحجبت عنا السماء والنجوم. ساد الهدوء أكثر من المعتاد ولم أعد أسمع سوى تتمات لصلوات ودعاء لعدة آلهة وبلغات مختلفة، بينما صوت الرئيس حسن البحري يلقي أوامر مقتضبة على البحارة تحثهم على إغلاق وتأمين الشراعين الصغيرين، وربط ما يمكن ربطه على السطح، وإغلاق كل الفتحات بين السطح ومخزن البضائع. هنا أخذ المسافرون أيضاً يجمعون حاجياتهم، وتكدّسنا سوياً تحت ما يشبه الغرفة التي تشغل مساحة الثلث الأمامي للمركب. كان بوسعنا من تحت سقف الغرفة مشاهدة البحر أمامنا وبقيّة المركب خلفنا، بينما تحجب الرؤيا لليمين ولليسار جدران الغرفة، ولذلك كان رذاذ الماء يصلنا طوال الأيام الماضية. تركت الغرفة وتحركت تجاه الدفة التي يديرها حسن. لم تكن الرياح قد عصفت بشدة بعد ولم أتغلب في توازن المشي لأقل من عشرين ذراع.

" يبدو أن الجو متقلب وقد يرتفع البحر، أليس الأفضل العودة إلى سردانية الآن بدل الإبحار إلى صقلية على مدي يومين؟ " كانت هذه محاولة للتعبير عن القلق دون إظهار الرعب.

" إذا لم تتطور الأحوال إلى الأسوأ، فهذه الرياح تفيدنا في التقدم والأفضل استغلالها ". صمت حسن قليلاً وهو يتأمل الغيوم ثم أضاف " العودة إلى سردانية أصعب وأخطر، تعرف أنها بلاد عجم، وقراصنتنا يهاجمونهم في العادة، وبالتالي قد ينتقمون منا. ولمعلوماتك فنحن لسنا ببعيدين عن الشاطئ الجنوبي، لكن المعضلة هي صعوبة الاقتراب من أي شاطئ أو مرسى في ظروف العواصف. خيارنا هو التقدم مع الريح،

والاقتراب من شواطئ صقلية لانتهاز فرصة لإنزالكم والتزود بالحطب والأطعمة. إذا حجبتنا الريح عن صقلية سأخذك للإسكندرية فهي أحلى من كل بلاد الإفرنج". إرتحت لكون حسن لم يفقد روح النكتة بعد، وسألته إذا أراد مساعدة فطلب مني العودة إلى الآخرين وطمأنتهم وحذرنى أن حاجياتي قد تتبلل إذا لم أحملها على ظهري "إذا انقلبت معدتك فأفرغها حيث أنت، لا تذهب إلى حافة المركب لتفرغها في البحر. أخبر بقية المسافرين بذلك". عدت إلى الغرفة بصعوبة مضاعفة إذ أصبح المركب يتمايل في الاتجاهات الستة ويخترق الأمواج شاقاً للمياه وراشقاً لرغوتها على الجانبين. بحلقت عيون المسافرين تجاهي بانتظار ما أنقله من الأخبار، فشرحت لهم الوضع بينما كنت أربط أمتعتي على ظهري خوفاً من بلل يدمر الكتب والأوراق. لحسن حظي أنني لم أحمل الكثير من الملابس والكتب، ولم آخذ معي في البحر أي طعام لأن الأكل كان مدفوع الثمن مع أجرة المركب. تذكرت ضعفي في السباحة واقتصار تجربتي على بضعة أيام زيارة مالقا والتعلم من أحمد، وطافت صورة أخته درة في ذاكرتي، لا بد أنها تزوجت وأنجبت الآن.

مر الليل بطيئاً، وكانت الرياح تضربنا من الشمال بعد أن كانت تأتي خفيفة فيما سبق من الجنوب، إنهالت الأمطار من دون أن تخفف كثيراً من شدة الريح، وربما لحسن الحظ أن الظلام رحمنا من رؤية الأمواج التي ترفعنا للسماء وتحطنا إلى القعر. لا أدري ماذا حصل مع حسن، لكن كل المسافرين أفرغوا ما في أمعائهم من شوربة عدس كانت آخر أكلنا عصر اليوم. ماء البحر وماء المطر كان يضرب وجوهنا كل بضع ثوانٍ مع نهاية موجة الهبوط وبداية الارتفاع حتى نعود للحضيض مرة أخرى. لوهلة قصيرة مرت حياتي أمامي كومضات، ضمت خوخة أيضاً، لكن الوضع كان يتطلب اليقظة والشدة والتمسك بالأذرع الخشبية على الجدارين، وكنا نظن أنها لتعليق المناشف والملابس. كنت أعرف أن جدران المركب بها فتحات تسمح بخروج الماء للبحر وبالتالي لن نغطس تحت ثقل الماء الذي ينصب علينا، ورغم شدة الموقف فأنا شبه

متأكد أننا نواصل الإبحار شرقاً. اقترب الفجر وبدأت قوة الرياح تتراجع، وتدرجياً اتضحت الرؤيا وحمدنا الله وباركنا لبعضنا بالنجاة. قبل الظهر اتضح للريس أننا انحرطنا للجنوب وأصبح من العسير أن يوصلنا إلى مرسى بلرْم، في نهاية الربع الأول على الساحل الشمالي، لأن الرياح لم تتراجع نهائياً. قال إن الأفضل له إنزالنا في أحد المراسي الجنوبية، ورجاه المسافرين من أهل البلاد أن ينزلنا على الأقل في اطرابنش على الساحل الغربي وهي على مسيرة يومين من بلرْم بدون ضرورة لاجتياز الجبال التي تفصل الشمال عن الجنوب. قبل المساء رسونا في اطرابنش ونزل كل المسافرين للاستراحة تلك الليلة والمبيت في جامع البلدة، لكن بعد أن تناولنا شوربة الصويا على الشاطئ. قبل أن نفترق في الصباح وافق حسن على حملنا إلى بلرْم وإراحتنا من المسير واستتجار الدواب، وربما ما أقنعه أيضاً هو نهاية العاصفة تماماً، وبالطبع هناك مسافرون للإسكندرية ينتظرونه في بلرْم، وذكرته بأننا لم نخسر أي وقت رغم المبيت على اليابسة هذه الليلة. بعد ظهر ذلك اليوم نزلنا في مرسى بلرْم وأمعناؤنا مليئة بطعام الفول المدمس المطبوخ على طريقة أهل جنوب مصر إذ يتركونه حياً يسبح في الشوربة. كان أسعد المغادرين رجل صاحبه ابنه الشاب في رحلة علاج إلى قرطبة وأجرى له الزهراوي عملية تفتيت للحصى في المثانة، وبالطبع فهو لا يفضل المسير الآن أو ركوب الدواب التي أتعبته في طريق العودة بين قرطبة ودانيه. تواعدت مع الرجل وابنه على زيارتهما أثناء إقامتي في بلرْم، وأمداني أثناء أيام الهدوء في البحر بالكثير من المعلومات المفيدة عن أسواق وأعيان بلدهم.

قاهر القيصر

قصدت المسجد الجامع بحثاً عن القاضي أو الإمام أو أحد رجال العلم لأبلغ عن وصولي لجزيرتهم وأخذ مشورتهم في إقامتي وعملي وعزمي على السفر لاحقاً. كان يوم سبت، ووجدت القاضي إبراهيم بن مالك جالساً للنظر في دعاوى رفعت إليه. في الخمسينات من عمره، يتخلل لحيته البيضاء المهذبة بقية سواد، بدا أنه يعاني من ضعف في عينيه إذ قرب الأوراق إليها كلما راجع محتوى إحدى الدعاوى. عمته تشبه عمم قضاتنا في الأندلس، لكن جبهته التي تلفح بها ضد برودة العصر كانت سوداء اللون. عرفته على نفسي قبيل الصلاة، وتواصل حديثنا بعدها في أحوال الأندلس وأفعال الحاجب المنصور، وقال لي إن أفضل مضيف لي في الجزيرة سيكون صديقه أبو النعيم، وهو علي بن حمزة، الملقب بالبصري لأنه من البصرة وسكن بغداد. لم يكن الاسم جديداً على مسامعي، لكنني لم أتذكر تفاصيل عنه فرجوت القاضي بالمزيد لأكون على استنارة عندما يعرفنا على بعض بعد صلاة المغرب. قال القاضي إن صديقه هو مضيف شاعر العرب، المتنبي عندما نزل ببغداد، وأن له مؤلفات في الرد على مشاهير أهل العلم ومنها رده على كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري، والرد على ابن السكيت في إصلاح المنطق، ورده على كتاب الحيوان للجاحظ، وسمى القاضي ثلاثة أو أربعة ردود أخرى في الأدب واللغة ومنهم ابن دريد والأصمعي وابن الأعرابي وغيرهم. كأن هذا الحظ كله لا يكفي، قال القاضي بأن أبا النعيم سَجَل بعد حضوره إلى صقلية أشعار المتنبي. لم يغادر القاضي إبراهيم الجامع بعد صلاة العصر، ومكثت معه حتى صلاة المغرب تتبادل

راوي قرطبة

الأخبار، وقد روى لي قصصاً شيقة عن فتح صقلية كنت أعرف بعضها من مطالعة كتب التاريخ. أحدث قصص الجهاد هنا هي ما عايشه أهل الجزيرة قبل سنتين فقط.

"أراد قيصر الروم، الذي يسمي بلاده الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وهو أتو الثاني، أراد غزو خصومة اليونان في كالابريه، التي نسميها قلوريا، وغزو جيرانهم العرب في صقلية". بدأ القاضي روايته بعد أن استراح في مجلسه وتوقعت فوراً قصة طويلة قد لا تنتهي قبل صلاة المغرب، بينما لم يدخل جوفي سوى فول الرئيس حسن البحري. "جمع قواته وهبط براً وبحراً مئات الأميال من الشمال إلى الجنوب حتى استقر في باري على الضفة الشمالية الشرقية للبايسة المواجهة لنا. هل تعرف أن باري هذه كانت عاصمة لإمارة إسلامية بين سنوات 232 و257؟"

"لا لم أعرف ذلك قبل الآن. قرأت أن جزيرة اقريطش كانت إسلامية مائة وثلاثة وثلاثين سنة وانتهى عهدنا بها قبل أربع وعشرين سنة، وأن الأندلسيين هم الذين فتحوها، وأعرف أن أندلسيين مغامرين أسسوا دولة في جبل القلال قرب مرسليليا وزالت قبل عشر سنوات". أردت بهذه الإجابة استعراض بعض معلوماتي على أمل اجتياز الحواجز بيني وبين القاضي، وحتى يُثني عليّ في تعريف صديقه أبي النعيم عني عندما يحضر للصلاة، إذ طمعت بالفعل أن أكون ضيفاً على مُضيف المتنبّي.

"ليس فقط اقريطش وجبل القلال المعروف لديهم باسم فراكستيوم، ولكننا حكمنا قبرص وندير كورسيكا ومالطا، إلى جانب إمارة صقلية، وأنتم في الأندلس تديرون جزر البليار. نعود لقصتنا، فقد عزم القيصر على حملة تآديبية، ولم يعترض اليونانيون، أهل القسطنطينية، طريقه على الرغم من وجود مدينة باري وكل قلوريا، التي تتمدد حدودها حتى نابولي، تحت تبعية باسيل الثاني وأخيه قسطنطين التاسع الخصمين لأتو الثاني. عندما وصلت الأخبار إلى خليفتنا أبي القاسم، رحمه الله، قرر

الانتقال بالجند من صقلية عبر البحر إلى فلوريا ليلتقي أتو بعيداً عن بلادنا. عبرت الجيوش من مسيني إلى ريو في بضعة سفن تناوبت على نقلهم. مسيني هذه مدينة على الساحل ويمكن للواقف فيها مشاهدة الواقف في مدينة ريو من بر بلاد قسطنطينية، ولذلك لم يشحن أبو القاسم الأسطول معه باتجاه باري لطول مسافة الالتفاف في البحر، ولسهولة الاجتياز والمسير البري الذي يتطلب أسابيع، وبالطبع لم يكن أحد يعرف أين سيتم اللقاء بين الطرفين. بعد أسبوعين من مغادرة بلرم اجتازت قواتنا إلى الساحل الشرقي، وشاهدت أسطول أتو في البحر بينما قواته تقترب من حصن منيع قرب بلدة ستيلو، وكانت بعض قواتنا المتقدمة قد احتلت ذلك الحصن". تجمع حولنا بهدوء بعض الحضور الذين يعرفون بدون شك هذه الرواية التي شارك فيها أهلهم قبل سنتين فقط.

"اللقاء في ذلك الحصن لم يكن متوازناً إذ أسرعت إليه جموع أتو قبل وصول بقية جيشنا، وقتلوا جند سريتين. كانت القلعة في منطقة جبلية تمكن منها الأعداء فقرر أبو القاسم الهبوط عائداً باتجاه السهل والساحل الشرقي، وطلب من قواده ألا يكسروا رأيه. لقد ظن بعض قوادنا أن أميرهم جبن عندما شاهد جند أتو بملابسهم الحديدية يركبون خيولاً ضخمة. بالطبع ظن القيصر أتو أن خصمه وليّ الإدبار فلحقهم بكل جنده مسرعين متخفين من أثقالهم ودروعهم وجدّوا في السير ولحقوا بالمسلمين في العشرين من المحرم سنة اثنتين وسبعين، فتعباً المسلمون للقتال، واقتتلوا، واشتدت الحرب بينهم. حملت طائفة من الإفرنج على القلب والأعلام حيث الأمير، فشقوا العسكر ووصلوا إلى القلب، وقد تفرق كثير من جماعتنا عن أميرهم، واختل نظامهم، فوصل الإفرنج إليه، وأصابته ضربة على أمّ رأسه فاستشهد، واستشهد معه جماعة من أعيان الناس وشجعانهم. ثم إن بقية المسلمين الذين ظنوا أن الهرب هو سبيلهم، رجعوا مصممين على القتال مع إخوتهم ليظفروا أو يموتوا، واشتد حينئذ الأمر، وعظم الخطب على الطائفتين، فانهزم أتو والفرنج

أقبح هزيمة، وقتل منهم نحو أربعة آلاف قتيل، وأسر من بطارتهم كثير وتبعوهم إلى أن أدركهم الليل، وغنموا من أموالهم كثيراً. أفلت قيصر الإفرنج هارباً ومعه رجل يهودي كان خصيصاً به، فوقف فرس القيصر من التعب، فقال له اليهودي: إركب فرسي، فإن لحقوني فأنت لولدي، فركبه الملك وقتل اليهودي. نجا القيصر إلى خيامه وبها زوجته وأصحابه. لم يطارده جندنا لخيامه ولكن بعض جند القسطنطينية أسروه مع خاصته وحملوهم في مركب، وتمكن لاحقاً أسطول أتو من إنقاذهم وعادوا لمدينة فيرونا حيث نصب القيصر طفله ملكاً على جرمانية وشمال بلاد الرومان، وكان عمر الطفل ثلاث سنوات. أما زوجة القيصر فقد هزأت من هزيمته تلك وتندرت به. مات أتو الثاني في العام التالي من غيظ الهزيمة وهو شاب دون الثلاثين. بقية المعركة قادها جابر ابن أبي القاسم، وعاد جابر مسرعاً بالجيش عبر قلوريا، ولم يمكنهم من إتمام الغنيمة، فتركوا كثيراً منها".

"رحم الله الأمير وكل شهداء المسلمين. جابر بن محمد ابن أبي القاسم هو أميركم إذا!"

"أميرنا الآن هو أخوه جعفر بن محمد، وقد تولّى العام الماضي، ويساعده أخوه عبد الله. أما ولاية والدهم الشهيد فكانت اثنتي عشرة سنة وخمسة أشهر وخمسة أيام، وكان رحمه الله عادلاً ووقف أملاكه على الفقراء وأبواب البر".

قبل أن ينتهي القاضي من روايته تنبّهت لوصول رجل يبدو أكبر سنّاً من القاضي، أدلى بالتحية ورددنا عليه بمثلها دون توقف في رواية القاضي الذي رحب به داعياً إياه الجلوس. عند النهوض للوضوء والاستعداد للصلاة عرفني القاضي على أبي النعيم ذاكراً أصلي اليمني والأندلسي ليقرب بيني وبين ابن الرافدين. استأذنت بالذهاب للوضوء مع تعليق من أبي النعيم أن القاضي أسرني طوال الوقت كعادته مع مُجالسيه. عندما التقينا مجدداً بدا من الواضح أن القاضي قد أطلع صديقه على انطباعاته عني وما عرفه عن عملي في الكتب ورحلتي القادمة، وأنه

اختاره كمضيف لي أثناء إقامتي في بلرم. لحية أبي النعيم قصيرة وشعر الرأس خفيف ويغطيه بطاقة مستديرة أشبه بطواقي الصبيان في الأندلس، وبدت أسنانه بيضاء كاملة العدد، ووجه أميل إلى الغامق منه إلى الفاتح مما يشير لكثرة تجوله تحت الشمس، وهذا ما ظهر في صحته القوية مقارنة بسنّه. عندما افترقنا عن القاضي أخبره أبو النعيم أننا لن نحضر لصلاة العشاء لأن الضيف يبدو متعباً، وردّ عليه القاضي بأن عيني غائرتين من الجوع أيضاً، وقد صدق. تعشينا سمكاً، ونمت على الفور كالمسطول، وكانت الأرض ترتفع وتنخفض تحتي طوال الليل دون أن أفرق بين الحلم والعلم.

وجدت نفسي صباحاً في صالون بيت أبي النعيم، وتذكرت أنني غفوت بالأمس بينما الرجل يحادثني فاعتذرت له ونحن نتناول الإفطار الساخن الذي صنعه خادمته التي تعرفت عليها بالأمس. أخذت الخادمة سعده ملبسي لغسلها من آثار الرحلة، وذهبت مع مضيفي إلى الحمام، ثم مررنا بالميناء لوداع حسن البحري إذ أراد أبو النعيم التعرف عليه وتحميلة رسائل وطلب بعض الأشياء من الإسكندرية ليحلبها له في طريق العودة. لم يُنزل المركب بضائع من الأندلس هنا، ولكنه أضاف خمسة عشر مسافراً إلى الإسكندرية وحمل بضعة قناطر من البندق والصنوبر، وبعض الكحل لزينة العيون وهمس لي الرئيس أنه يحمل صندوقاً مليئاً بقوالب خام الفضة. "إحرص على سلاحك في كل وقت" قال حسن ونحن نودعه، فضحكت وقلت له إنه دائماً على وسطي. لمحت لأبي النعيم أن الرئيس حسن يقصد خنجري اليمني، ولكن حسن قصد طبعاً المزاح وتذكيري بأحاديثه ثناء الرحلة.

طقس هذا اليوم الأول من ذي القعدة كان ربيعياً وكأن عواصف أمس الأول لم تكن. تخففت من العباءة عن ظهري ورميتها فوق كتفي ونحن نتجه إلى سوق حاضرة الإمارة. حمولة المركب فتحت الحديث عن خيارات الجزيرة، فقال مضيفي أن بها ذهباً وفضة وشباً وكحلاً

ومعادن الزاج والحديد والرصاص والنوشادر، المستخرج من بركانها في جبل النار، والذي يُحمل للأندلس أيضاً.

"هل صحيح أن صقلية خالية من الوحوش والسباع والأفاعي والعقارب؟"

"من عادات أهل الجزر الظن بذلك، لكن صقلية ضخمة المساحة وكثيرة الجبال. أنا لم أشاهد مما ذكرته من الضواري والسامات، ومثل هذه الحيوانات تهرب أصلاً من استيطان البشر، ولكنني أظن أن بها شيئاً منه، والله أعلم". تركنا سور المدينة خلفنا وقابلنا السوق الممتد من الشرق للغرب فاستدردنا غرباً وأنا أتبع أبا النعيم إذ أبلغته بقصدي شراء طاقم ملابس أشبه بلباس الفرنجة واستبدال بعض دنائيري الذهبية بدنائير صقلية وإفريقية. بلرّم مدينة تعج بسكانها داخل السور، وهي لا تشبه في ذلك مالقا أو جيان وغيرها من مدن الأندلس متوسطة الحجم، ولكنها تذكرني بازدهام قرطبة داخل الأسوار، وبالأحياء التي تحيط بالسور. بل عرفت من مرافقي أن الأمير خالد بن إسحاق أقام مدينة مجاورة اسمها الخالصة، وهي تحت بلرّم، وخصصها لمباني الإدارة ليعد أهل الحكم عن الازدهام، وليريح أهل بلرّم من أهل الحكم دون أن يبتعد الطرفان عن بعض كون الخالصة متصلة مع بلرّم. أما المرسي فهو في حي الصقالبة الذي هو خارج السور أيضاً وهو الأجمل والأرقى على ما يبدو. حارة المسجد هي الأخرى كبيرة وتلقب بمدينة ابن صقلاب، وهي على وادي العباس كثير الطواحين، وتجاور ابن صقلاب حارة جديدة أخرى. كل من هذه الأرياض له أسواقه وصناعه لخدمة سكانه، وقدّر أبو النعيم إجمالي السكان بحوالي مائتي ألف، مما يجعل حاضرة صقلية واحدة من أكبر أربع أو خمس مدن على وجه الأرض بعد قرطبة وبغداد والقسطنطينية. اشترت ثياباً متواضعة وقماشها بلونه الطبيعي دون أصباغ، ووجدت قميصاً مصنوعاً من سلاسل حديديه يستعمله جند الروم للحماية من السهام والطعان فاشترته أيضاً، ولم أنس شراء طاقة لدفع الرأس وتشبه ما يلبسه طلاب العلوم الدينية لدى النصارى.

إقترت موعدا صلاة الظهر بسرعة، وكرهت إرهاق مضيبي في جولة أطول فاقترحت العودة عن طريق المسجد الجامع. سلطنا شارعاً آخر لفت انتباهي بكثرة جوامعه، وانعدام المصايح فيه للإضاءة الليلية. التفسير الذي تلقيته بعد سؤالي عن ذلك كان، أن المساجد متوسطة الحجم داخل المدينة القديمة، وكانت سابقاً بيوتاً "كما أن بعض الجوامع الصغيرة تزار من العائلة الواحدة وتصلي فيها إنائهم خلف ذكورهم بدون وجود غرباء".

"هكذا يصلون بحرية وخصوصية، ويتفادون الازدحام، ويخففون منه بعدم زيارتهم للجوامع الأكبر". قلت لأبي النعيم ثم استرسلت: "لكن مهمة الجامع هي الانفتاح واجتماع الأمة فيه".

"هناك ما يكفي من المساجد الكبيرة الواسعة للقيام بالمهمة وبتعليم الناس أيضاً، وإنما الجوامع الصغيرة شيء إضافي، ربما كان ذلك أفضل قليلاً من الصلاة الفردية في البيت. في بلرم وأحيائها أكثر من ثلاثمائة جامع من كل الأحجام". قبل أن ندخل إلى المسجد الجامع تبسم أبو النعيم فسألته عن السبب. "تذكرت نكتة يردددها أهل صقلية حول المعلمين. بدل أن يروا بأن ثلاثمائة معلم هو عدد مناسب لسكان مدينة ضخمة، فهم يبررون سبب الإقبال على هذه المهنة بأن ممارسيها يُعفون من الاشتراك في الجهاد لصد الخصوم".

إسترخينا بعد الظهر في صالون أبي النعيم وكانت خادمتة الفرنجية، سعده، لا تتوقف عن إمدادنا بأطياب الشراب وخفيف الأكل، وعندما شكرتها قالت إنني سأحتاج للتغذية قبيل الإقدام على رحلتي إلى ريمس! يبدو أن سيدها أطلعها على الأمر، أو أنها سمعت كلامنا بالأمس. دفعت بالحديث رويداً رويداً نحو أبي الطيب، أحمد بن الحسين شاعر العرب المعروف بالمتنبي.

"هل ادعى صاحبك النبوة بالفعل؟"

"لقد فعلها وادعى ذلك أثناء إقامته في بادية السماوة، وهي من أعمال الكوفة. كان شاباً مغروراً بإجادته للشعر والتفت الناس حوله فخرج

إليه لؤلؤ، أمير حمص، واعتقله وزجره بعنف، فارتدّ وحلّ الأمير عقاله بعد أن استتابه. بعد ربح من الزمن لحق بالأمير سيف الدولة بن حمدان في حلب مادحاً له. كان ذلك في عام سبع وثلاثين وثلاثمائة، وأحبه سيف الدولة كثيراً وأغدق عليه الجوائز وأجرى عليه ثلاثة آلاف دينار كل سنة خلا الإقطاعات والخلع والهدايا. كانت أيام نعيم لأبي الطيب حتى جاء يوم تلاسن فيه مع ابن خالويه في مجلس الأمير المنعقد كل ليلة. وثب عليه ابن خالوية وضربه بمفتاح كان بيده فُشج رأس أبو الطيب. لم يتدخل سيف الدولة أو يدافع عن مادحه، فخرج أبو الطيب غاضباً ودمه يسيل وغادر البلد نهائياً بعد تسع سنوات فيها، رفع خلالها سيف الدولة وخلده في أشعاره". تمنيت على أبي النعيم بعضاً مما قاله أبو الطيب في سيف الدولة، فأسند ظهره إلى وسادة وقال: "سأخبرك أولاً بأبيات قالها وهو في السجن بحمص بعد أن أهدى إليه أبو دلف هدية بها طعام، وأبو دلف هذا كان قد ثلب أبا الطيب عند الوالي، فكتب من السجن إلى مُهديه:

أهون بطولِ الشواءِ والتلفِ والسجنِ والقيدي يا أبا دُلفِ
غيرَ اختيارٍ قبلتُ بركَ لي والجوعُ يُرضي الأسودَ بالجيفِ
كُن أيها السجنُ كيفَ شئتَ فقد وُطئتَ للموتِ نفسٌ مُعترفِ
لو كانَ سُكنايَ فيكَ منقَصَةً لم يَكُنِ الدّر ساكنَ الصدفِ

صاحب أبو الطيب الأمير سيف الدولة في غزوة للروم وظفروا بحصن برزويه، وفي طريق العودة إلى إنطاكية حضره إثنان وأربعون بيتاً، وإليك أربعة فقط مما قاله:

لُه عسكراً خيلٍ وطيرٍ إذا رمى بها عسكراً لم يبقَ إلا جماجمُه
أجلتُها من كلِّ طاغٍ ثيابُه وموطئُها من كلِّ باغٍ ملاغمُه
فقد ملّ ضوءُ الصبحِ مما تُغيرُه ومَل سوادُ الليلِ مما تُزاجمُه
ومَل القنا مما تُدقُّ صدورهُ ومَل حديدُ الهندِ مما تُلاطمُه

لقد مدح وذمّ وأحب وكره وعبر عن كل معاناته بأفضل الأشعار. قال
في صباه يُشبه الموت في الحرب كالعسل في الفم:

إلى أي حين أنت في زيّ محرّم وحتى متى في شقوةٍ وإلى كم
وإلا تُمّت تحت السيوفِ مُكرماً تُمّت وتَقاسي الذل غير مُكرم
فَثِب واثقاً بالله وثبةً ما جد يرى الموت في الهيجا جنى النحل في الفم
كل قصيدة لها قصة وزمن، ومعانيه الأصيلة تحتاج أحياناً إلى
شروحات وتفسير فهو يكثر من الوصف والتشبيه ويُسخر اللغة بفن راقٍ.
لقد فاجأني أبو النعيم بالتأكيد أنه يملك كل شعر المتنبي مخطوطاً مع
ذكر لكل مناسبة قيلت فيها القصيدة، وقبل أن أتمنى نسخها، كان قد قرأ
رغبتي في عيوني، وكنت ذلك اليوم قد توسعت في الشرح له عن عملي
وأبي في مجال نسخ وتجليد وتوزيع الكتب.

"إذا كنت ناسخاً جيداً فربما أنجزت واحدة في عدة أيام".

"تعلمت الخط والنسخ منذ طفولتي، ويمكنني نسخ حتى خمسين
صفحة في نهار واحد وبضع من الليل. لكنني أتمنى لو وجدت لي من
ينسخها، فيستفيد هو أجره، وأستفيد أنا من وقتي في التعرف على
مدينتكم وجزيرتكم الجميلة وعلى أهلها".

وافقني أبو النعيم الرأي، وتكفل بتكليف أحد الذين يثق في
مهارتهم بنسخ ديوان المتنبي وإنجازه في بحر أسبوع. عاد مضيفي
واستكمل بعضاً من قصة حياة المتنبي فقال: "غادر حلب إلى دمشق،
ومنها إلى مصر حيث مدح هناك كافور الإخشيدي على أمل منحه مقاطعة
يديرها، ولكن كافور خيب رجاءه فحاز على أشد الهجاء منه وهرب إلى
بغداد حيث كان في ضيافتي. من بغداد سافر إلى فارس وشيراز ومدح
عضد الدولة بن بويه فأجزل له العطاء. لم يمكث في شيراز وعاد إلى
بغداد". إعتلت مسحة حزن وجه محدثي وقال: "نجا من ملاحقة
الملوك، وقتله فاتك ابن أبي جهل الأسدي في الطريق. فاتك هذا أراد
الانتقام من هجاء قاله أبو الطيب في ابن أخته ضبة، وقد عرف أبو
الطيب بكمين فاتك ولكنه رفض الاستعانة بأحد، ورفض تأجيل السفر أو

راوي قرطبة

تغيير الطريق. على مقربة من دير العاقول غرب بغداد خرج عليه فاتك في الثامن والعشرين من رمضان عام 354 هجرية، فاقتتلا وقتله فاتك وقتل أيضاً ولده مُحسد، وغلامه مفلح، رحمهم الله". كان من الواضح أن أبا النعيم ملم بتفاصيل أدق حول الحادثة، ولكنني امتنعت عن السؤال، وتمنيت أن يكون كتب التفاصيل في أوراقه، وتشوقت إلى مطالعة الهجاء الذي أدى لقتل مبدع بهذا الشكل المأساوي وعلى يد نكرة لم يكن أحد سيذكر اسمه لو لم يقم بفعلته تلك.

خطة سعده

من خلال جولاتي اليومية في أسواق بلرْم وأرباضها والتعرف على بائعي الكتب، وعبرهم على التجار والاستماع لتجاربيهم ونصائحهم، جمعت الكثير من المعلومات الضرورية لرحلتي إلى ريمس. الطرق البرية شبه معدومة، والغابات كثيفة، والأفضل هو ركوب البحر بين البلدين والسفر في الأنهار وسطها. الماء هو الطرق الرئيسة لنقل التجارة بين ممالك ودوقيات وإمارات البر القسطنطيني والإفرنجي التي لا حصر لها. الخبر السار أن الدينار الصقلي يستعمل بشكل عادي من قبل دول البر القريب من صقلية، والأبعد أيضاً مثل روما وجنوة، وذلك في صفقات التبادل التجاري والمعاملات اليومية المهمة. الدينار المقصود هنا هو "الطري" ويسميه أهل البر، "التري" وهو دينار ذهبي غير مشهور في العالم الإسلامي. سُكّ دينار الطري من قبل الخليفة الغالبي عندما فتح صقلية قبل مائة وستين عاماً، وبعد طرد الفاطميين للغالبيين واصلوا سكّ الطري في صقلية وحافظوا على كتابة "لا إله إلا الله، محمد رسول الله" على وجه الدينار، واسم كل خليفة في زمن السكّ مع تاريخ الصنع بالتقويم الهجري على الوجه الآخر. أما المعاملات الصغيرة فيمكن استعمال عملة نحاسية من بقايا الإمبراطورية البيزنطية، لكن أسلوب المقايضة هو السائد بين الناس في بلاد الرومان والفرنجة. شاهدت أيضاً عملة ذهبية جديدة من إنتاج روما وتستعمل إلى جانب الطري منذ خمس عشرة سنة، وهي تقليد للطري، وكتب على وجهها بعربية غير واضحة لجهل الصناع باللغة، "لا إله إلا الله، محمد رسول الله" وتاريخ السكّ واسم الخليفة المعز لدين الله على الوجه الآخر. وزن هذا الدينار غرام

واحد وليس كالطري غرام ونصف، وصفاء الذهب فيه أقل، ونصحي التجار مراعاة ذلك في التعاملات والتخلص من هذا الدينار على الدوام. في بلاد الفرنجة يستعملون "البنّي الفضي" والأربعة منه تساوي طري، وكل دينار أندلسي يساوي أربعة طريات.

في صباح يوم الخميس إنتهزت سعده فرصة انشغال أبي النعيم في مراجعة بعض أوراقه، وأسرت لي وهي تلتفت خلفها : "إذهب إلى تاجر العبيد، فهو يعرف القراصنة كلهم، وربما ساعدك في الوصول إلى بلاد الإفرنج بأمان". لم تعطني فرصة للاستيضاح ووصفت لي دكان الرجل وموقعه، ثم أضافت: "إذا تصنّع الغباء يمكنني زيارته معك غداً وقت صلاة الجمعة، فهو لا يغلق دكانه". كنت بالفعل قد باشرت البحث عن سبل النقل حتى لا تضيق مني فرصة قد تكون ملائمة الآن ولا تتكرر إلا بعد شهور، وفكرت أن سعده لن تخبرني بمعلوماتها، التي تبدو سرية، لو لم تظن أن فيها شيئاً من الفائدة.

غظت الأتربة البضائع المتنوعة في دكان لا يوحي بتخصص محدد، واتضح لي أن البضائع لا تتغير وبالتالي فالرجل يتاجر في أشياء أخرى غير معروضة. سألته بشكل مباشر إذا كان يعرف طريقة مباشرة للسفر إلى شمال بلاد الغال. إهتم بي فور اكتشافه من لهجتي أنني غريب، ولكنه أخذ يستجوبني لماذا أوجه إليه هذا السؤال.

"لأنك تاجر عبيد وتتعامل مع القراصنة وغنائمهم، والقراصنة يستعملون السفن في نهب المدن، وأنا أريد السفر".

"ومن أخبرك بكل هذه القصص المختلقة؟" لم يكن عجوزاً ولكن وجهه كثير التجاعيد كمن يعاني من آثار مجاعة وصعوبة حياة تحت الشمس، وأظهر بعض التيسم وهو يطرح سؤاله.

"السؤال هو إذا كان أي شخص في بلرّم لا يعرف علاقاتك. مصدر معلوماتي هي سبية في بيت محترم، وهي تعرفك. عموماً إذا لم تكن لديك نية في المساعدة فسوف أتركك لشأنك الآن".

"لا تُزعل نفسك بسرعة، أخبرني كيف يمكن أن أساعدك إذا كان

لي أصدقاء قراصنة، إلى أين تريد السفر؟" أخذ يحك راحة اليد اليمنى بأصابع يده اليسرى كمن يتوقع قبض دنانير.

"أريد السفر إلى ريمس، ولا أظن القراصنة يصلون لهنالك، لكن لو أوصلوني إلى موقع في حوض نهر الرون يكون ممتاز".

"وماذا تريد فعله هناك؟"

"أقرضت صديقاً بعض النقود وأريد استردادها منه" مرّ بخاطري أن الرجل قد يبيعني للقراصنة ويقبض مني ومنهم فأضفت "وسأعود هنا في أقل من ثلاثة أشهر، وإذا تعثرت عودتي سيعرف أصدقائي هنا أن قراصنتك سبب غيابي، وستدفع أنت الثمن".

"موضوعك صعب، وشروطك معقدة. يمكن أن يوصلوك إلى اريس أو حتى افنيون، ولكن الطريق طويل إلى ريمس، وإذا حدث لك مكروه من الفرنجة تريدني تحمل المسؤولية! كم ستدفع؟"

"سأدفع عندما أعود وأسترد نقودي".

"أحضر في الغد، أريد أن أفكر في الفرص الممكنة وسؤال من يعرفون الرون من اللاجئين الذين أبحروا إلينا بعد سقوط دولتهم هناك، في جبل القلال". كلامه منطقي لأن نهر الرون كان حدود دولة جبل القلال من الغرب، وخروجهم من بلدهم لم يمر عليه عقد من الزمن. تواعدت مع التاجر غداً وقت صلاة الجمعة. أخبرت سعدة بما جرى، وأعربت عن ظني أنه أراد التخلص مني بهدوء دون رفض فوري حتى لا أفضح في البلد. كان رأيها غير ذلك وأخبرتني أنها ستحضر للدكان بعد وصولي.

كان سؤاله الأول لماذا لم أذهب لصلاة الجمعة. "أنا غير متدين وأصلي مرة واحدة في المساء، وأنت لماذا لم تغلق الدكان؟"

"أنا أبيع المسروقات والمسبيات وأصنع من الأحرار عبيداً، هل تتصور أن ربنا سيقبل مني أية صلاة؟" إجابة صريحة من متجدد الوجه الذي لم أسأله عن اسمه، أما سبب تغيبي عن صلاة الجمعة فيعود لكون القوم هنا على المذهب الشيعي، وتأكدت أن من عادة الإمام أن يشتم

بشكل أو آخر بقية المذاهب، وحتى لا أبدو خنوعاً، ولا اختلف مع الناس الطيبين هنا فأنا أقلل من زيارة المساجد، وقررت تجنب خطبة الجمعة. وصلت سعده في إثري، وباشرت تشرح للرجل الذي أسمته "جعلص" أنني ضيف أبي النعيم وصديق القاضي، فاتسعت عيناه ولم أضبط تغيرات أخرى في تجعدات وجهه.

"يجب أن تضمن وصوله إلى مدينة اريس في مدخل الرون، وسيذهب معه شخص آخر يراه ينزل هناك ثم يعود مع القراصنة إلينا لنطمئن". كانت تتحدث بثقة ولم تنسق خطتها هذه معي، ولم يعرف الرجل إن كانت تتحدث بعلم من القاضي أم لا. هكذا اعتذر جعلص بأنه لم يتوصل لمعلومات بعد، وطلب فرصة لبعض الأيام قبل إفادتنا بما يمكن عمله.

"ماذا فعلت يا سعده؟" سألتها بعد أن غادرنا الدكان وسرنا في سوق شبه خال من المارة ومعظم محلاته موصده "ومن الذي سيسافر معي ويعود بخبر السلامة؟" التفتت خلفها وأشارت لمن يسير وراءنا بالحاق، وعرفتني على فتاة، في حدود العشرين ولا يظهر منها غير وجهها وشيء من شعرها الفاحم. "هذه سمر، أنظر إلى وجهها حتى تعرفها، وسأحدثك عنها لاحقاً". نظرت هي اليّ بعيون واسعة عسلية اللون، وضمت بين حاجبيها قليلاً في مسحة من الحزن والرجاء، ثم طلبت منها سعده أن تذهب لشأنها فسبقتنا قليلاً قبل أن تنعطف في شارع جانبي من السوق. "سمر من مدينة ليون على نهر الرون، وخطفت قبل خمس سنوات، وتتمنى العودة. أعتقد أنها قد تفيدك في الوصول إلى هدفك". تأملتها من الخلف قبل أن تنعطف، كانت أقصر مني قليلاً، وممتلئة الجسم، تبدو بالرغم من الأغطية عريضة الكتفين، ورأيت عرقوبيها أبيضين ولا يبدو في كعبيها آثار لقيامها بعمل يومي صعب.

"ماذا تخططين الآن، تعرفين صعوبة تنقل الرجال في بلاد الإفرنج، فكيف تريدان لي مسابرة أنثى تبدو كالزهرة التي تجتذب الدبابير؟" ضحكت سعده من التشبيه وشرحت لي بأن معرفة سمر للمنطقة واللغة يمكن أن تنفع في تمثيل دور مُتفق عليه يضمن رحلتي هناك بسلامة.

"القراصنة يحملونك بأمان لنهر الرون، وسمر توصلك بيسر بعد ذلك في بلادها، على الأقل حتى مدينتها ليون".

تحولت بتفكيرى إلى إمكانية تنكر سمر كرجل، ولكن حجم مؤخرتها ربما أعاق الخطة، ومن لديها هذه القاعدة العريضة، فصدرها في العادة لا يستهان به أيضاً. أوقفت تخيلاتى عن الاسترسال وسألت سعه "أين تخدم سمر، ولماذا تريد الهرب؟" ترددت في الإجابة فأعدت عليها وأضفت: "إذا أخفيت أي شيء الآن فلا اتفاق بيننا وانسي القصة". أعادت عليّ تفاصيل خطف سمر، وفشل السنين في مساعدتها على النسيان، وقبل أن نصل إلى تقاطع طرق كان الأفضل أن نفترق عنده، قالت سعه إن سمر واحدة من الحریم في قصر أخ الأمير. هذه الجارية تريد أن تحول سعادتي كضيف عند أبي النعيم إلى شقاء، وربما توصلني للسجن.

منذ وصولي صقلية كان أبو النعيم يصحبني إلى لقاءات مسائية عند معارفه من المشتغلين بالأدب، أو يستضيف بعضهم في بيته. في اليوم العاشر استدعانا القاضي لتناول العشاء في بيته بالربض الجديد، ودار في البداية حديثٌ متشعب الجوانب بين المدعويين الخمسة فتذكرت سمر وطرحت على القاضي سؤالاً حول شرعية العبيد في الإسلام.

"أول إنجازات الإسلام هي المساواة بين البشر وتحرير العبيد، ولكن هذا معروف للجميع فما سبب السؤال؟"

"سألت بهذا الصدد كون تاريخنا الإسلامي وحياتنا للآن تشهد استمرار هذه الظاهرة، فالعبيد يباعون في الأسواق، والمسبيات يشكلن جزءاً من الحریم في كل البلدان". قصدت تعويم شأن الحریم تجنباً لإثارة أي من الحضور، أو الظهور كمن ينتقد أمير البلاد.

"يجب التفريق بين المسلمين وغيرهم، وأيضاً التفريق بين غير المسلمين الأحرار وبين غنائم الحروب. المسلم لا يستعبد من المسلم ولا يباع منه. الأسرى من غير المسلمين يمكن افتداؤهم من أهلهم وحكامهم واستعادتهم، وإلا فيباعون كعبيد إذا لم يدخلوا في الدين

الإسلامي. أسرانا يباعون كعبيد عند الغير أيضاً. لا تنسَ يا سليمان أن معظم العبيد يُجلبون لبلاد الإسلام ويبيعون لنا من قبل تجار غير مسلمين، بل من ملتهم". كنت أفكر أثناء حديث القاضي بأنني سأرد عليه بضرورة عدم تشجيع هذه التجارة، وبوجود من يقين في الحريم بعد أن أسلمن، لكن القاضي إبراهيم بن مالك استطرد قائلاً: "دعوتي لك اليوم لها علاقة بشأن الأسرى والعبيد. تذكر عندما حدثتك بقصة المعركة مع القيصر أتو، قولي بأخذ جند الأمير للكثير من بطارتهم أسرى. هؤلاء لا زالوا في السجن هنا، وطلبوا رؤيتي قبل ثلاثة أيام لمعرفة مصيرهم. أخبرتهم بعدم وصول أية أموال تفتديهم أو مراسلات بشأنهم وإذا استمر تجاهل ملوكهم لهم فسوف نبيعهم في السوق كعبيد". حتى الآن لم استنتج العلاقة بين دعوتي مع الآخرين للعشاء وبين الأسرى من البطارقة، لكن من بقية قصة القاضي عرفت أنه فاتحهم بوجود مسافر عبر بلاد الفرنجة إلى ريمس، وبأنهم تمنوا أن أحمل لهم رسائل إلى البابا في روما، وإلى ملوك وأمراء البلدان النصرانية التي قد أمر بها. ففز لخطري فوراً أن إنساناً آخر أخذ حرية التخطيط لمسار رحلتي، كما فعلت سعده.

"الفكرة جيدة، وفيها فعل خير للبطارقة، وربما يسرت رحلة سليمان". كان ردّي على كلام أبي النعيم هذا، أن الفكرة قد تجعلهم يأسرونني ليبادلوني بالبطارقة، "فهل أستبدل حينها أم سيتركني القاضي لهم؟" ضحك الحضور وأخذنا نناقش الخطوات التي قد تضمن السلامة. توصلنا إلى حقيقة أن أسلوب صياغة ومحتوى الرسائل هو أول الضمانات، وأن تقييمي للموقف في حينه هو ضمانة أخرى إذ سيكون بوسعي تجاهل ذكر الرسائل أبداً، أو إشهار المناسب منها عند الحاجة للتخلص من مأزق طارئ. استخلصنا من المشاورات الاتفاق مع القاضي أن يطلب من البطارقة كتابة رسالة موجهة إلى البابا من دون ذكر اسم نظراً لكثرة المتغيرات في ذلك المنصب. وكتابة رسالتين موجهتين إلى سيادة الدوق، بدون اسم محدد حتى أقدمها لأي دوق من حكام

الإمارات المتعددة في الطريق. وأيضاً كتابة رسالة بالاسم إلى الملك أتو الثالث أو للسيدة والدته القائمة بمقام الحاجب، وللبطارقة أن يختاروا الاسم أو الأسماء والألقاب بهذه الرسالة. أما الأخيرة فتُعنون باسم أسقف ريمس، جريبر ويُعطى فيها التخويل بالبحث عنم يفتدي البطارقة، وبالطبع رسالة إلى لويس الخامس ملك الفرنجة في حدودهم الغربية. في كل الرسائل عليهم الإشارة بأن حاملها صديق ساقه الرب إليهم بالصدفة لنقل نداءهم. طلبت من القاضي إخبار البطارقة بكتابة رسائلهم باللاتينية الصرفة حتى أكون على بينة بما فيها، وأن ينجزوها في أقرب وقت لأنني أتحين أول مركب يحملني شمالاً، إلى روما أو جنوة أو مرسييا.

في الأيام التي تلت زيارتنا إلى جعلص في السوق، كانت سعده تتساءل بعينيها إن كنت قررت شيئاً بصدد سمر، ثم أخذت تردد عليّ فصولاً من شقائها في الحريم وأنها تعرّفت عليها هنا ولا قصد لها سوى المساعدة الإنسانية، وتأكدت أن سعده عرفت بأمر رسائل البطارقة، إما عبر تنصتها على أحاديثي مع أبي النعيم، أو أن مضيفي لا يخفي عنها شيئاً كونها الإنسان الوحيد الذي يعيش معه في بيته. لم أحسم أمري بأخذ سمر معي، أو كيف سأفعل ذلك، ولكنني اقتنعت بفوائد مرافقتها لي، وأشرت على سعده إبلاغها بدوام الاستعداد للسفر بين ساعة وأخرى، وأن تقص شعرها الآن وتصنعه مثل شعر الرجال، وتتدرب أثناء النوم وقدر المستطاع على ضغط نديها على جسدها لأنني إذا صحبتها معي فيجب أن تبدو كرجل. تهللت أسارير سعده ولم تهتم ببقية شروطي أن تكون حذرة، وألا تحمل معها أي شيء مطلقاً قد يؤدي لاتهامها بالسرقة. لكن طلبي الأخير أوقف انشراحها لوهلة، إذ طلبت منها أن تدفع بسمر فوراً لإشهار إسلامها.

"إذا أسلمت أمام القاضي فوراً فلن يوجه لي اتهام بسرقة أو خطف واحدة من حريم أخ الأمير، على الأكثر سيقال إنها هربت مع عشيق، أو ما شابه". أفهمتها ضرورة ذلك بالنسبة لي ولوضعي الشخصي، وأكدت لها أن الأهم هو النجاح بعدم الربط بين سفري وبين هروبها،

راوي قرطبة

وأن إسلامها هو ضمانه إذا ما كشف الأمر. "يجب أن تعرفي يا سعدة أن افتضاح القصة سيعني ربط الأمر بك فوراً وسيقطعون رأسك، وتضرين كثيراً بمكانة أبي النعيم. كُفِّي لسانك، واحترسي في تصرفاتك، واطلبي منها الحرص أيضاً. إذا كنتِ قد ثرثتِ أمام أحد أخبريني الآن". كان الدم قد غادر وجهها وهي تستوعب احتمالات انفضاح الأمر، ولكنها حركت رأسها نافية أن تكون ثرثت.

ضييق المكان

في العادة تتخذ حركة سفن ومراكب المسلمين المسار في جنوب البحر للتنقل بين مراسي الأندلس وإفريقيا ومصر والشام حتى إنطاكية، وتمر أثناء إبحارها بين الشرق والغرب على جزر مثل مالطا وصقلية، أو اقريطش وقبرص، لكن الحركة بين الشمال والجنوب كادت أن تنحصر في القراصنة النصارى والمسلمين، وطبعاً سفن أهل جنوة التي بعضها للتجارة، وأخرى للقرصنة. القرصنة والتجارة هما عماد مداخيل ذلك الإقليم التابع للإمبراطورية الرومانية المقدسة، ولكنه إقليم ذو إدارة وحكم مستقل مقره جنوة. حملي للرسائل منحني اطمئناناً أفضل ودفعتي للابتعاد عن خيار مصاحبة القراصنة، كما رفضت مقترحات من البعض بالسفر براً إلى نابولي وروما نظراً لطول المسافة وصعوبة المسير. قبل انقضاء ثلاثة أسابيع على وجودي في صقلية تواجد في ميناء بلرمُ مركبان متجهان شمالاً. الأول مركب جنوي قادم من أثينا، والثاني من القيروان ومتجه إلى كورسيكا. لم يكن الخيار سهلاً، ففي مركب جنوة سأكون غريباً إلى بلاد غريبة، وفي مركب القيروان الوضع مختلف ويمكن أن أتصل في كورسيكا بأهل جبل القلال أو قراصنة يحملوني معهم إلى مدينة قرب مصب نهر الرون. حسمت أمري في صالح المركب الجنوبي لتجنب احتمال الانحباس في جزيرة كورسيكا تحت رحمة القراصنة. اتفقت مع قبطان المركب على حملي وخادمي إلى جنوة، وأبلغته أن الخادم سيحضر قبلي ببعض الحاجيات ومنتظني في المركب ريثما نبحر. أفادني القبطان إيجاباً بأن روما ستكون محطة لتنزيل بضائع قبل الإبحار إلى جنوة، أما الرحلة فتححتاج لأسبوعين.

ودّعت كل المعارف قبل يوم الرحيل وفي ليلته، وعندما تخطيت الرصيف إلى سطح المركب عرّفتني سمر على نفسها، ولو لم تفعل لما عرفتها، وكنت قد رتبت سلفاً اسمين جديدين لنا، انطونيو البرشلوني، وكارل الليوني الذي بدا ضخّم الجثة كونه، أو كونها، ربطت أقمشة على خاصرتها وبطنها لتقليل مظاهر الصدر والمؤخرة، فكان خادمي هذا مثل جذع شجرة، وصبغت يديها بخليط حناء يُقبحها، وغطت رأسها الحليق بشال بني التف من تحت الذقن ليغطي الأذنين والرأس. هكذا أخفت انعدام شعر اللحية، ولكن من يتأملها عن قرب وبشكوك، فقد يستنتج أنوثتها. طلب منها الانزواء قدر الإمكان وتذكر الاسم الجديد، والإقلال من الكلام، وإذا تأزم الوضع قليلاً التظاهر بالهبل. العشرة الأواخر من شهر إبريل كانت ربيعية باردة غير ممطرة ورياحها نشطة، وهذا كله ساعد كارل في التخفي بالملايس وادعاء البرودة. فيما يخصني فلم أبالغ في التحدث مع القبطان، جبتو، كما فعلت مع حسن البحري، وذلك تجنباً لعشرات الأسئلة التفصيلية في مثل هذه الظروف، لكنني عرفته على نفسي وعملي في تجارة الكتب بكل اللغات، وبمصادفتي لأسرى في بلرم حملوني رسائل لمن يمكنه دفع فديتهم لإطلاق سراحهم. في الليل كنا ننام متجاورين، كارل وأنا، ولحسن الحظ أن منامتنا كانت بعيدة عن منامة البحارة، فهذا المركب له شراعان، ولكنه يعمل أيضاً بالمجاديف على جانبيه، وهناك عشرون بحاراً جاهزون لهذه المهمة إذا خفّت الرياح أو توجبت السرعة. منامة البحارة كانت تحت السطح عند البضائع، بينما منحنا القبطان غرفة صغيرة بالكاد يمكن لشخصين الحركة فيها. كانت غرفة الملاح الذي يهتدي ليلاً بالنجوم وقد تنازل لنا طوعاً عنها إذ عاملوني بأسلوب أرقى من بقية الركاب العشرة الذين حملهم المركب من أثينا إلى جنوة، كما أن أجرتنا كانت أكثر.

في الليالي الأولى تهربت من ضيق المكان وحادثت الملاح في شؤون عمله وتبادلنا معلومات عن سير الكواكب والنجوم وسبل الاهتداء بها. في بقية الليل لم يكن لي مهرباً من الالتصاق مع كارل، فلو نام

بعيداً لربما انكشف الأمر ووقعنا في المحذور. مهما كان وضعنا أثناء النوم فلا بد من التلامس، على الظهر تتلامس أردافنا مع بعضها في الوسط ومع الجدران على الجانبين ولا بد للأيدي من مكان تستريح فيه. أما النوم على الجانب فيعني التقاء الوجوه والأنفاس. الوضع الأفضل الذي استقرينا عليه الليلة الأولى كان احتضانها لي من الخلف، وفي الليلة التالية احتضنتني نصفها ثم تبادلنا الوضع بإعطاء ظهرها لي. حتى أتجنب الاثارة، وضعت يدي بيني وبين مؤخرتها، فظنت غير ظني، ودفعت خفيفاً للوراء، ثم استقرت يدها اليمنى مع يدي الحاجزة بيننا. هل تكون أول تجربة نكح أنثى على هذه الشاكلة، قيد في الحركة، كثرة في اللباس، وكتماً للأنفاس؟ على الأقل لن تستنج انعدام تجربتي في هذا الظرف وستنسب أي خلل محتمل لصعوبة الحركة. تماسكت نفسي ذهنياً بينما الجسد يتمرد، وهمست في أذنها بأنها غير مُدانة لي بشيء، ولا يوجد سبب لفعل ذلك إذا لم تكن تريده.

"هذه أول مرة في حياتي أريد ذلك بالفعل".

"إذا سنحاول فعله بجودة قدر الإمكان." بعد ذلك التقارب أصبح النوم أسهل على النفس والجسد واتسع المكان الضيق.

استجبت في بعض الأمسيات لدعوة القبطان جبتو لتناول العشاء معه بمشاركة ثلاثة أو أربعة من ضباط المركب، وبالطبع اتجه الحديث حول عملي في تجارة الكتب وما يتشعب عن ذلك. للقبطان وجهة نظر مفادها أن العرب لم ينتجوا علوماً، ولكنهم ترجموا علوم اليونان والرومان التي اندثرت، والآن تترجم كتبهم إلى اللاتينية. لم يكن بوسعي رفض الفكرة بشكل مباشر، وإنما تعداد وشرح الفوارق الرئيسية بين ما ورد في العلوم الهندية واليونانية والفارسية، وبين ما يترجم الآن من علوم العرب إلى اللاتينية. طبعاً حرصت على عدم التلميح بإجادتي للعربية الفصحى. حدثتهم عن طواحين ومعاصر الماء وتنويعها للإنتاج، وعن النواير التي تحمل الماء من أسفل لأعلى وتسمح بالري للكثير من الأراضي، وأن اقتصادهم يسمح بإقامة مدن وسك عمالات "بالطبع لم يخترعوا التحضر

الذي وجد واندثر مراراً في آلاف السنوات الغابرة، ولكنهم استفادوا من القديم وطوّروا ومهدوا لأخذ الآخرين عنهم. الأفضل لنا أن نفرق بين كراهيتنا الدينية لهم، وبين تفوقهم الآن. وكما تعرف بالتأكيد فالإغريق والرومان أخذوا عن بابل واشور والفراعنة".

كان القبطان يتحدث مثلي باللاتينية العامية، وبالفصحى، ويزيد عني بتحدثه لليونانية ولغة محلية جديدة قال إنها واسعة الانتشار الآن في روما وجنوة وما بينهما. أما أنا فقد تميزت عنه بالحديث بالموزراب، ويفترض أنني أعرف القطلانية. عندما لم أتلق دعوة عشاء من القبطان، كنت أتناول الطعام مع كارل الذي جلب مونة تكفي لشهر من أطيب المجففات من اللحوم والأسماك والفواكه والأجبان. ننزل جانباً ونأكل في الهواء الطلق ما يختاره كارل من الكيس لتلك الوجبة حتى لا يعرف أحد ماذا نأكل والكمية التي نحملها. لحسن الحظ أن الله هدى كارل لجلب الطعام لأن المتوفر في المركب كان أتعس من شوربات فول وعدس مركب الريس حسن البحري.

استغرقت الرحلة إلى البر المقابل لروما أربعة أيام، والسبب في ذلك يعود للإبحار على مرأى من الشواطئ. لو كان إبحارنا من بلرم شمالاً إلى روما لما استغرقت الرحلة أكثر من يومين. بعد أن رسونا قرب الشاطئ اقتربت منا مراكب صغيرة بمجاديف، فانتشل البحارة بضائعها وأنزلوا إليها بضائع من المركب، وعرف القبطان من وكيله، المسؤول عن استلام وتسليم البضائع، أن البابا فرنكون مريض في فراشه وعلى وشك الموت طبيعياً، وهذا على غير العادة بموت البابوات ضرباً أو خنقاً أو بالطبع مسمومين. في مثل تلك الظروف وحسب التجارب العديدة في السنوات الماضية، فالأفضل عدم المكوث طويلاً في المدينة أو المنطقة. فرنكون هذا هو الذي نصّب نفسه بابا قبل تسع سنوات، وبعد شهر حمل أموال الكنيسة وهرب إلى القسطنطينية، وعاد قبل عامين فقتل البابا خنقاً بعد التجويع في السجن ونصّب نفسه مجدداً في منصيين، بابا، وقنصل حاكم لروما. أما البابا قبل المخنوق فقد مات

متأثراً من ضرب رجل ضبطه في الفراش مع زوجته. سألت جبتو ماذا نفعل بشأن رسالة الأسرى المنتظرين في بلرم، فاقترح أن نتركها مع الوكيل الذي يمكنه توصيلها للبابا الجديد في الوقت المناسب، ووافقته على ذلك.

"نحن الآن نواجه ميناء اوستيا على نهر التير، ولكننا لا نقرب منه بسبب العرب". تركني القبطان أتعجب لوهلة ثم أكمل "في عام 846 ، هجموا على روما ودخلوا بالسفن من الميناء إلى النهر ووصلوا وسط المدينة وخربوها بعد نهبها، وعلى إثر ذلك أغلق الرومان النهر وارتفع منسوب الرمال في الميناء الآن ولم يعد صالحاً للإبحار".

"لكن ذلك حدث قبل مائة وتسعة وثلاثين عاماً، ولا يوجد خطر خارجي الآن، أليس الأفضل إصلاح الميناء ومجرى النهر لخدمة المدينة؟" أكد القبطان جبتو أن الخطر لم ينته بالفعل، فالقراصنة ينطلقون من كورسيكا المقابلة لسواحل روما وجنوة ويهاجمون المدن الساحلية الصغيرة، ولهذا هرب السكان إلى مناطق داخلية. أفادني القبطان من علومه المكتسبة من الكتب القديمة أن روما امتلكت عدة أرصفة وسط المدينة، بعضها مخصص للزيت المجلوب من ايبيريا، وبعضها للحديد من مناجم الإمبراطورية.

"كانت أياماً مجيدة للإمبراطورية قبل ألف عام وبدون ديانات. هل تعرف أن السفن الرومانية كانت تبحر من برشلونة وجارتها نربونة إلى هنا وتصل روما في ثلاثة أيام؟" طرحت السؤال على القبطان بعد تذكيره بذهاب الإمبراطورية، ولإشعاره بسعة اطلاعي، وقبل أن يرد قلت له "ومن هنا في اوستيا حتى قرطاج في شمال أفريقيا كانت الرحلة تستغرق خمسة أيام على الأكثر، ومن قاديس على ساحل المحيط إلى هنا تسعة أيام". وددت الإشارة إلى حقيقة أن المسافة بين اوستيا وجنوة هي ثلث الطريق إلى نربونة، وبالتالي يجب ألا تطول رحلتنا عن يوم واحد، ولكنني أمسكت عن استفزاز الرجل بدون سبب، فليس ذنبه أن الرومان كانوا أسرع وأفضل نظاماً وأعمق حضارة من ورثتهم الآن. بدل الاستفزاز

أظهرت حاجتي إليه في مساعدتي على توصيل الرسالة في جنوة، وسألته المشورة كيف نصل ليون، بأسهل السبل، في طريقنا إلى ريمس.

"من جنوة إلى ليون برأ ثلاث مراحل، الأولى عبر سهل وبلدان عامرة يمكن أن تقطعها على بغل في ثلاثة أو أربعة أيام، والمرحلة الثالثة مثلها، لكن المشكلة هي الوسطية كونها ممرات في جبال الألب الشاهقة. ستحتاج إلى دليل وجلد والكثير من الوقت. الأفضل أن نعثر لك على مركب مبحر إلى برشلونة أو نربونة، وينزلك في مرسيليا. وهناك مراكب من جنوة أو مرسيليا تصعد في نهر الرون بالبضائع وتوصلك إلى ليون وما فوقها. الطريق النهري هو الأفضل والأسرع." معلومة متكاملة واستعداد من القبطان بالبحث لي عن وسيلة، وارتحت لفكرة المكوث لبضعة أيام في جنوة قبل الإقدام على المرحلة التالية من الرحلة. لم نمكث طويلاً قبالة اوستيا، وقضيت وقتاً مع القبطان أمتص ما يمكن من معلوماته عن جنوة، فأنا وكارل لا نتقن لغة القوم الجديدة التي اسمها فولغاريس لونغوي ولا نعرف شيئاً عن مدينتهم.

"تورث لودفيج الإمبراطورية من والده كارل الأعظم، ثم قسمها بين أولاده إلى ثلاثة أقسام، واقتسمها أولادهم وكثرت خلافاتهم. واحدة من تلك المقاطعات في الجنوب، هي ماركا اوباتنجا وعاصمتها جنوة. قبل عشر سنوات ورث ادلبرتو الحكم عن والده، ويدير البلاد برضاء القيصر وضمن السيادة للإمبراطورية الرومانية المقدسة. ادلبرتو على علاقة ممتازة مع ثيوبانو زوجة القيصر المتوفى أتو الثاني ووالدة أتو الثالث، وهي كما تعرف المتصرفة في شؤون الإمبراطورية لأنها توجت قيصرة مع زوجها. ذكرت هذا لك لأن ادلبرتو يمكنه تسلم رسالة وإيصال أخرى لثيوبانو المقيمة في فيرونا على مسيرة يومين من جنوة". سرحت قليلاً فيما قاله القبطان وقررت الاكتفاء بإيصال الرسالة إلى ادلبرتو لأنني أردت لجربير استلام رسالة أتو. شدّ انتباهي حديث جبتو بذكره مجدداً للعرب واعتذرت له بعدم السماع ورجوته بالتكرار فقال: "قلت إن العرب هجموا علينا قبل خمسين عاماً، أرسلهم الخليفة الفاطمي بمائتي مركب

إلى جنوة، وقادهم محمد أبو القاسم، واغتصبوا ألفي أنثى، حطموا الأسطول، أحرقوا البلد ونهبوا وسبوا ما وقعت عليه أيديهم. في طريق العودة فعلوا الشيء ذاته مع جزيرة سردينية".

"أتذكر أنني طالعت عن هذه الغزوة البربرية. آنذاك كان الخليفة اسمه القائم بأمر الله، وكان متعصباً في التشيعن وأمر بسبّ الأنبياء وأغضب السنّة، حتى أن بعض الكتب قالت إنه أعطى أوامر بإحراق مساجد وثار الناس ضده حتى مات، وهدأت الأحوال في عهد ابنه". سررت لتذكري هذه المعلومات عن القائم بأمر الله وصغتها بشكل يخفف من غضب الرجل على كل المسلمين، فرعايا الخليفة يعانون أحياناً من ظلمه أكثر مما يعاني الغرباء في بلاد بعيدة. عقّب القبطان أن جنوة لم تستعد وضعها السابق للغارة والدمار حتى الآن، وعانت من اضطرابات سياسية من جرّاء ما تحملته من وزر.

مضى الوقت سريعاً، أحياناً نواصل الحديث، وأحياناً أخرى يذهب انتباه القبطان إلى الإبحار، وخصوصاً عندما اقتربنا بعد الظهر من جزيرة صغيرة، ثم وصلنا بين جزيرتين إحداها تبدو متصلة مع البر، وقبل الغروب تكرر حال مشابه، وكان القبطان قد اقترب كثيراً من الساحل الشرقي. قيل لي إننا الآن في المنطقة الأقرب إلى كورسيكا، وكلما أسرنا في الإبحار شمالاً يزول خطر مدهامتنا ليلاً من القراصنة. لأول مرة في الرحلة اشتغل المجدفون ذلك المساء بالرغم من امتلاء شراعينا بالريح. كل نصف ساعة كانوا يسحبون المجاديف من الماء ويلتقطون الأنفاس قليلاً وتوزع عليهم مياه للشرب، ثم يعودون للتجديف. كرروا ذلك ستّ مرات ثم كفّوا عن الأمر، وقال القبطان إننا سنصل قبل الفجر إلى جنوة وندخل الميناء في ضوء الصباح. تواعدنا على اللقاء صباحاً، وعدت إلى كارل لمرسم خطة تحركنا بالتفصيل.

لفت انتباهي في الصباح تشابه بين ميناء جنوة قبل أن نبحر فيه، وميناء بلرّم بعد أن أبحرنا منه. كلاهما لساناً مائي داخل في الأرض وتحيط به مدينة محاطة بالجبال من جهاتها الثلاث. الفارق أن مدينة

راوي قرطبة

جنوة أصغر، لكن ميناءها أكبر إذ فيه أربعة أرصفة تسمح بتحميل وتنزيل ثمانية مراكب في ذات الوقت، وعلى مدخله منارتان متقابلتان تبدوان كمآذن جوامع. كل المدينة على طرفي الميناء ظهرت من بعيد كهلال. كلما اقتربنا من الميناء تتضح لنا تفاصيل أسوار المدينة، وعلى الطرف الشرقي كثرت بيوت عادية وخلفها بناء ذو قبة مستديرة ضخمة مقارنة بما يحيطها، وقال جبتو هذه كاتدرائية سان سيرو، ومقابلها قلعة مسورة يتقدمها برجان وخلفهما برج ثالث، وبها مقر دوق المدينة، ادلبرتو. خلف القلعة توزعت بيوت كبيرة وأخرى متوسطة. كثافة العمار تخف بسرعة كلما ابتعد النظر إلى المرتفعات المحيطة أو إلى الغرب. اقترح القبطان أن يرسل معي الملاح، صديقي من عالم النجوم، إلى الكاتدرائية فور الرسو على الرصيف، وهناك سأشرح للأسقف مهمتي وأطلعته على الرسالة لاستشارته حول أفضل الطرق لخدمة البطارقة الأسرى، وقال القبطان إنه سيحضر إلينا بعد انتظام تنزيل حمولته .

"إذا لم يدعك الأسقف للإقامة برعايته، أو إذا كنت لا تفضل الإقامة طرف الكنائس، يمكن أن تقيم لدى جارتنا العجوز، فلديها غرفة فارغة وأكلها جيد".

"إذا اتفقنا، إذا دعاني سأخبره أنني رتبت أمر الإقامة بمعرفة القبطان جبتو". كانت هذه نجدة من السماء وأراحتني من هموم كثيرة محتملة.

سرت مع الملاح باتجاه بوابة الميناء، حملت في جيبي رسالة واحدة موجهة إلى دوق غير محدد، وخلفنا سار كارل حاملاً الحاجيات. على البوابة تحدث الملاح مع حارس بلباس مزخرف وطاس حديد على الرأس ورمح طويل في يده، ثم تركنا نمر. أخبرني الملاح أنه أبلغ الحارس تكفل جبتو بنا وأنا في الطريق إلى الأسقف، وقال إن الحراس في العادة يراقبون حركة البضائع لتحصيل الضرائب. لم يمر وقت طويل حتى التقينا بالأسقف، فأوجز له الملاح علاقتنا بالقبطان وأنه سيحضر إلينا بعد قليل، ثم انسحب وبقيت لوحدي مع الأسقف بينما كارل

احتل، مع متاعنا القليل، مقعداً خشبياً قرب باب مكتب الأسقف. جلس الرجل بجلباب أحمر خلف المكتب، نحيل الجسد بعينين غائرتين. حدثته قليلاً عن صدفة مروري بصقلية ومقابلة الأسرى، وناولته الرسالة الموجهة إلى الدوق بينما واصلت شرح ما أعرف أنه غير مكتوب فيها، وتحديداً ظروف أسرهم وتاريخه وتناسي كل المعنيين لهم للآن.

"ماذا سيفعل بهم المحمديون إذا لم يقبضوا فديتهم؟" أجبت على سؤال الأسقف الذي طرحه عليّ بعد الانتهاء من مطالعه الرسالة ووضعها على المكتب أمامه:

"أعتقد، بل أنا متأكد، أنهم سيبيعون في السوق كعبيد. خياراتهم كما أفهموني إياها ثلاثة، اتخاذ الإسلام ديناً، وهذا ما يرفضونه، أو أن يدفع أحد فدية لهم، وهذا ما يبحثون عنه ويتمنون من سماحتكم المساعدة، والاحتمال الثالث بالطبع أن يباعوا كعبيد إذا طال الانتظار. لقد طلبوا مني أن أقابل أسقف جنوة وطلب مساعدته قبل إيصال الرسالة إلى الدوق".

"إنهم بحاجة لمساعدة الرب أولاً، ولشخص مخلص يملك المال. نحن لا نملك شيئاً هنا، كل رصيدنا مُسخر الآن لبناء كاتدرائية جديدة نأمل افتتاحها هذا العام".

"أعتقد أن أمير صقلية قد يقبل بفدية قليلة لهم بعد أن طال انتظاره ولم يعد الأسرى مهمين له".

"فناعتي غير ذلك، فهو يريد ثأر أبيه القليل، وإذا باشرنا التفاوض والمراسلات حولهم سيطلب بالكثير. لقد اعتقل العرب قبل أن نطردهم من جوارنا، اعتقلوا الأسقف مايول ولم يطلقوه إلا بعد أن دفع دير كلوني ألف ليبرة ذهبية. وعرب صقلية سيطلبون الكثير إذا أظهرنا اهتماماً بالبطارقة".

"سماحتكم أهل علم ودراية بطباع المسلمين، وربما أنت على حق في طمع الأمير، ولكن مجرد التفاوض عليهم من أي طرف قد يؤخر إرسالهم إلى سوق العبيد ويبقيهم في الأسر دون خطر على حياتهم".

راوي قردطبة

أردت بذل قصارى جهدي لصالح الأسرى، من دون إظهار أية معرفة معمقة بالعرب وطباعهم، ولأن لم يسألني الأسقف عن أصلي، ربما كان بانتظار القبطان.

"عندما يعرف الدوق ادلبرتو بالأمر، سيكون عليه إبلاغ القيصرة ثيوبانو" توقف الأسقف وتنهى ثم واصل حديثه وهو ينظر في عيوني مباشرة: "ثيوبانو كانت في تلك المعركة مع زوجها، ولم تعجبها النتيجة أبداً، ولا أظن أنها سوف تفرح بشيء يُذكرها مرة أخرى بما جرى". ها هي فرصة أخرى تغلق أبوابها أمام البطارقة المساكين.

"أعتقد أن بوسع سماحتكم إطلاق سراح الأسرى دون استشارة ودون الكثير من المال. هم أولاً وآخرأ رجال دين، وجنوة مدينة يسهل العثور فيها على تجار أغنياء يتبرعون ببعض المال". حاز حديثي على اهتمام متزايد ظهر في وجه الأسقف فواصلت: "ببعض المال يمكن توكيل شخص ما في بلرم أن يفاوض القاضي عليهم، أو ينتظر يأس الأمير وبيعهم كعبيد فيحصل عليهم بسعر زهيد". دخل علينا جبتو وقبل يد الأسقف، كما فعلت أنا بعد الملاح قبل ذلك، ثم شرح له الأسقف الوضع بلغتهم السريعة، وعرفت لاحقاً أنه أعجب بفكرة شراء الأسرى كعبيد بسعر رخيص وأنه يفكر بتكليف جبتو بالمهمة بعد جمع بعض المال سراً. تبادلت مع الأسقف كلاماً عاماً قبل المغادرة، وعرف أن وجهتي إلى ليون وريمس لزيارة جربير الذي تأكدت الآن أنه أصبح أسقفاً. "ستمر إذا على دير كلوني، فهو على طريقك بعد ليون. علينا اللقاء مرة أخرى قبل سفرك. سأحملك رسائل إلى أسقف ليون والأسقف مايول في كلوني وإلى جربير أيضاً". عاد الأسقف للحديث مع جبتو ليؤكد عليه إحضاري مجدداً للقاء معه قبل السفر.

هذه المهمة انتهت بعدم جدوى تسليم الدوق ادلبرتو الرسالة، وبالتالي تركها مع الأسقف الذي سيرتب خطة الإفراج بهدوء. في تلك الليلة كتبت رسالة باللاتينية موجهة إلى البطارقة، أخبرتهم أنني صادفت مرض وانتظار تغيير البابا وتركت الرسالة لتصل للبابا الجديد، وإني

أوصلت بعض الرسائل الأخرى وسأوصل بقيتها، وقلت "لا يجب اليأس من رحمة السماء، حتى العبودية قد تكون بداية للحرية الروحية". أردت لهم على الأقل أن يعرفوا بوجود شيء ما محتمل. أما الرسالة فسلمتها إلى القبطان وأخبرته أن القاضي سيوصلها للأسرى، "وربما سمح لك برؤيتهم ومحادثتهم، وإذا أقنعتهم بتعاسة وضعهم وأسباب رفض الجميع افتدائهم، فربما قبل منك أن تشتريهم. أخبره أن إيصالهم إلى بلدانهم سوف يسبب المتاعب للحكام والكنيسة والقيصرة، وحينها ستأخذهم بأقل مما سيجمع الأسقف من مال".

طلبت من جبتو إفادتي حول الأسقف مايول الذي أسره العرب بعض الوقت ويشرف الآن على كلوني، فأكد أنه سيخبرني بالقصة، "لكن الآن دعنا نذهب للبيت فلم أجمع بزوجتي منذ ستة شهور. غداً سنواصل الحديث، والأسقف يريد الاجتماع بك مجدداً، ربما نتمكن من عمل شيء لأصدقائك الأسرى".

في ليلتنا الأولى على اليابسة أخبرت كارل كم أفتقد الحمام، ولكنني متردد بالسؤال عن وجود شيء كهذا في جنوة حتى لا يظن بنا القوم الظنون. حرصت على مخاطبة كارل بخشونة وكأنه رجل ومناداته باسمه الذكوري حتى عندما نكون لوحدها. أحد مشاكلنا كانت أن لغة التفاهم الأفضل بيننا هي العربية، ولكن لا يمكن التحدث بها إلا همساً في الأذان، ولأني لا أعرف لهجة البروفانس كنت بقية الوقت أخاطب كارل باللاتينية العامة وأشير بالأيدي ليسهل الفهم، وتعلم الكثير من الكلمات بسرعة مما يؤهل لفهم المقصود من الجملة. بالطبع لم نكن نتحدث في شؤون الأدب والشعر بهذا الأسلوب، ولكننا طرقتنا بعض المواضيع الاجتماعية والدينية الحساسة عبر الهمس في الأذن معظم الليل.

حل كارل معضلة الاغتسال بجلب وعاءين من الماء الساخن وخلعت ملابسي، طبعاً بعد إغلاق باب الغرفة وتأمين أية منافذ يمكن للغير من الخارج النظر عبرها لغرفتنا في منزل العجوز جارة جبتو. بلل

راوي قرطبة

كارل قطعة قماش بالماء وفركها بالصابون وياشر بتدليك جسدي بداية بالوجه. بين الحين والآخر كان يغطس القماشة الخشنة في وعاء ماء ويغسل الأوساخ عنها قبل أن يغطسها في الوعاء الآخر ويكرر الأمر حتى انتهيت وغسلت شعري ببقية المياه النظيفة. كان الأمر أفضل من كيفية الاغتسال في المركب حيث كنا كل ليلة نغسل بقماشة مبللة بالماء والعطر مواطن العرق. إستبدل كارل المياه بغيرها وعاد للغرفة. هذه المرة وجب عليّ التدليك لجسد لم أره عارياً قبل الآن بالرغم مما حصل بيننا من تقارب في الرحلة. كنت أعرف أن جسدها غير ما رأيته في المركب، وأنها ليست كجذع شجرة، ولا زلت أتذكر وجهها بعد الخروج من دكان جعلص صاحب الوجه المجعد، لكنني بشكل ما تعودت على شكلها الثقيل المستدير. الآن تحللت من لفات قماش ملون وملابس تكفي لعشر نساء على الأقل، الجسد المتبقي كان تحفة سبحان من خلقها. صعدت الدماء إلى وجه كارل وفشلت لفحات الشمس وملوحة البحر في إخفاء حمرة الخجل. ياشر ذهني يطبخ كيف سنعيد إلى كارل شكله التقليدي، ولكنني أكرهت نفسي على التوقف عن أفكار الحيطنة والتمتع بجمال ما صنع الله في هذا الجسد الأنوثي. غسلتها كما غسلتني، ونمنا بدون لفافاتنا.

أسير فراكسنتيوم

لم يغادر كارل الغرفة في اليوم التالي، ولف رأسه بعصابات بحجة المعاناة من نزلة برد وعطس، وبالطبع عاد إلى تفاصيل جسده السابقة بعد أن استراح من الأقمشة طوال الليل. أما أنا فقد تجولت أثناء نصف اليوم في كل المدينة، وتأسفت لكون القوم يقتلون لغتهم اللاتينية ويحلون بدلها لغة أخرى، لا أتقنها. نجحت في شراء حمص مجفف وعسل نحل طلبها كارل، ولوز وتين مجفف اشتريتها حباً في المفاصلة مستعملاً اللاتينية والإشارات. لم تكن بحاجة لشراء الطعام أثناء إقامتنا مع العجوز التي تكفلت بالوجبتين اليومييتين وحُسبت ضمن الأجرة. سلمت المشتريات إلى كارل فتحرك بها إلى مطبخ البيت حاملاً في يده أيضاً ما يشبه الخيوط الصفراء، أو الشموع الرقيقة جداً، ووضع بعض الحمص في وعاء به ماء على أمل أن يلين ويجهز للطبخ غداً. بعد وهلة قصيرة عاد بصحن فيه الحبال وقد لانت كثيراً بعد طبخها في الماء وانتشالها منه، ووضع على ما سماه مكرونة، بصلاً مقلياً بزيت الزيتون. طعام جديد وغريب المذاق ولكنني تقبلته بسهولة، ويمكن أن أحبه أكثر لو سهل نقله بين الصحن والفم. قال كارل إن هذه وجبة خاصة بأهل صقلية ويتناولوها مُطعمة بالعديد من الصلصات، وبلحوم أو بخضروات أو حتى بالسمن فقط. حسب كارل، فالمكرونة تعيش مجففة لزمان طويل وبالتالي تناسب المسافرين. أما صناعتها فهي من قمح يتميز بالجفاف، يطحن ويعجن بالماء وبعض الملح ثم يضغط العجين عبر ثقب ليخرج كالخيطان من الطرف الآخر. بعد ذلك يجفف في الشمس بضعة أيام ويخزن لوقت الحاجة لطبخه بالماء الساخن. سجلت التفاصيل على ورقة

لأطلع أمي وخوخه على الوصفة، فقد كنت أعرف أن القمح الجاف متوفر لدينا في الأندلس ويخزن لسنوات دون أن يخرب، ويبدو أنه مثل النوع الذي يستعمله أهل صقلية لصنع مكرونتهم.

"لماذا تريد الحمص والعسل، هل تعرف وجبة جديدة..". قبل أن أكمل السؤال تغير وجه كارل إلى الأحمر، وتذكرت أمرين، الأول ضرورة توسيخ هذا الوجه قليلاً وتطوير سبل التنكر، والشيء الآخر الذي مرّ بذهني هو تذكر مطالعتي لوصفات مثيرة للشهية الجنسية، ومنها وصفة الحمص المغلي والمخلوط بعسل النحل، فقلت له مع مداعبة بلمسات يدوية: "الوصفة لن تكتمل بدون لبن الناقة، لكننا لسنا بحاجة للمقويات. المهم الآن العودة إلى شكل كارل المعتاد حتى لا نفاجاً من مضيفتنا، أو حتى دخول جبتو علينا من دون انتظار طويل على الباب". على الرغم من طبقة الأوساخ الاصطناعية على الوجه أثناء الإبحار، لفحت الشمس وجه كارل واقترب لونه بين الأحمر والبنّي. بقية أعضاء الجسد عادت للاختفاء تحت الأقمشة واللباس الرجالي. الحواجب لم تكن قد خُففت منذ زمن، والرموش لازالت كما كانت حين غادرنا بلرْم، قصيرة بعد قصها. حتى يكتمل التنكر، استعمل كارل بعض السواد من رماد المطبخ، والتزم بتوصيتي أن يحتفظ بغطاء الرأس والأذنين والخدّين تجنباً للبرد، مع مراعاة الجلوس خلف أي زائر ووضع اليد اليسرى على النصف الأسفل للوجه لتغطي من تحت الأنف حتى أسفل الذقن.

في عصر اليوم اصطحبني جبتو إلى الكتدرائية حيث استقبلنا الأسقف بترحاب وود وجلس معنا في ركن مكتبه بعيداً عن الطاولة. تبادلنا أحاديث عن الفوارق والتشابه بين جنوه وبرشلونه وتهربت من جهلي بظروف برشلونه بالتركيز على فوارق المناخ وتشابه حياة مدن الموانئ، وادعت أن سور برشلونه أعلى ويمكن للفارس السير عليه. "برشلونه وجنوه تتشابهان في صغر الحجم مقارنة مع بلرْم، وقيل لي في صقلية إن حاضرتهم أصغر من قرطبة. أسواق مدننا توجد في خارج

الأسوار، بينما أسواق مدن المسلمين في داخلها، ولديهم في كل حارة سوق فرعي. أما ميناء جنوه فهو أفضل ما رأيت للآن".

"حياتنا تعتمد على التجارة ومداخيلها. سفننا تجلبها من كل مكان ثم يعيد تجارنا توزيعها على بقية مدن الإمبراطورية وجوارها، الميناء والسفن هما عمادنا". اعتدل الأسقف قليلاً في جلسته مما أوحى لي برغبته في تغيير الموضوع. "في الواقع قد تساعد التجارة في تخليص البطارقة من أسرهم. إذا كانت لديك رغبة في الاشتراك فلديك فرصة متاحة الآن. عثرت على تاجر يريد إرسال بضائع إلى ليون، وبعد حديثي معه اقترح أن تصحب تجارته وتحميها في الطريق حتى تصل لوكيله هناك فيتولى بيعها وإرسال بضائع مختلفة إلى جنوه".

"لكني لا أعرف الطريق، ولا أجد اللغة الدارجة، وإن كان خادمي يعرفها كونه من ليون". أردت إظهار بعض التردد أمام الأسقف، ولم أكن أعرف سبب هذا الاختيار.

"أنت وخادمك تعرفان سوياً بينكما من اللغات ما يسهل مهمتك ويؤهل للتعامل مع كل المخاطر، كما أن صحتك جيدة وذهنك صافٍ ولا ينقصك الذكاء وحسن التصرف. القبطان جبتو يمكن أن يساعدك في العثور على بحارة يثق بهم، ومهمتك تنتهي بإيصال المركب إلى ليون". أصبح من الواضح أن الرجلين التقيا بدوني وقيّما الأمور حسب ما لديهما من تجربة معي ومعلومات عني، وأخبرني جبتو لاحقاً أن الأسقف أعجب في اللقاء الأول بإخلاصي لمساعدة البطارقة وبأسلوبتي في الحديث دفاعاً عن مصلحتهم. وعلى الأرجح أن جبتو أخبره بمعرفتي بالاهتداء ليلاً. بالنسبة لي فهذا التطور مناسب جداً ويحل تعقيدات السفر، ولا يضرني أبداً بذل الجهود لإنجاح الرحلة. أعربت عن موافقتي على تحمل المسؤولية وشكرت الأسقف على ثقته بي، فأبلغني أن الأرباح من تبادل البضائع هذه المرة ستكون لصالح افتداء البطارقة، وبالتالي حشني على بذل الجهود لحمايتها. فهمت من سياق الحديث باللغة المحلية بين الرجلين وما يترجمانه لي أن الاستعداد يحتاج

راوي قرطبة

لأسبوع، وقال الأسقف إنه سيكتب رسائل لأحملها إلى مايول في دير كلوني والى أسقف ليون "ورسالة أخرى إلى صديقك جريير" أسقف ريمس.

"سوف يسعدني التعرف على أسقف ليون وعلى السيد مايول الذي سمعت الكثير عنه حتى الآن".

"إنه إنسان جليل، كبير السن ويقترب من الخامسة والسبعين". تجلّى من أسلوب حديث الأسقف أنه يكن الاحترام والتبجيل الشديد لذلك الرجل. "قبل عشر سنوات رفض عرضاً بتسلم منصب البابوية وفضّل البقاء في دير كلوني الذي يشرف عليه منذ ثلاثين سنة. كان صديقاً للإمبراطور أتو الأول وزوجته ادلهات، أم وحاجة الإمبراطور أتو الثاني، وجدة أتو الثالث. من أصدقائه المقربين أيضاً هيو كأبيه، الذي شارك في المعركة مع أتو الثاني ضد أمير صقلية". لم أقاطع الأسقف بأي سؤال إذ بدا أنه يريد الحديث الفاض، وفضّلت بدوري سماع روايته الخاصة. "كان سماحته كثير السفر وزيارة قصور الحكام سعياً للإصلاح وانتشال الكنائس مما أصابها من الرجز. ذات مرة وهو عائد إلى كلوني، من زيارة الإمبراطور في فيرونا، أسره المسلمون في جبال الألب وعادوا به إلى مدينتهم في فراكستيموم. كان ذلك قبل اثنتي عشرة سنة، واعتقلوه في القلعة وقيده بالحديد لكنه تخلص من قيوده بالدعاء. ذات يوم داس أحد الحراس على كتاب ديني كان مايول يطالعه، وفي تلك الليلة تشاجر هذا الحارس مع زميل له، ف وقعت ضربة سيف على رجله التي داست على الكتاب وقطعتها. كل ذلك دفع بالمسلمين للخوف منه واحترامه".

"ربما كانوا سيطلقون سراحه لو لم تُدفع فديه له". لم أتمالك نفسي من إطلاق هذا التعليق، ولحسن الحظ أن الأسقف لم يرَ في كلامي أي نقد أو تشكيك في القصة.

"احترامهم له شيء وحبهم للذهب شيءٌ آخر. لقد أصروا على ألف لييره ذهبية جمعها ودفعها دير كلوني مقابل إطلاق سراحه". انشرح وجه

الأسقف وهو يستكمل الرواية، "خلال عامين جند مايول قوات الأمير هيو كأبيه، والكونت حاكم ارل، وجراف ارادون حاكم تورين واستي، وهاجموا دولة فراكستيوم وحرروا منطقة جبال المورو من المسلمين. قبل ثلاثين سنة من وصول المسلمين إلى هنا، كان البرابرة النورمان قد باشروا غزوات متكررة ونهب وسلب وسبي خرب البلاد ودفع بسكان مدن السواحل إلى الهروب للسهول والجبال وحياة التنقل، وواصل المسلمون القراصنة، وإخوتهم الذين احتلوا الجبال، واصلوا هذه الأعمال بعد النورمان، وانضم إلى الهجمات برابرة المجر من الشرق أيضاً. إنهارت القيم وانقسمت ممالكنا وتقاتل حكامنا وانحدرت البابوية، نهبت وفرغت دور العبادة حتى انتشرت الدعارة في بعض الكنائس وبمشاركة من قساوسة حظوا من سمعة الدين والكتاب المقدس. هذا الحال استمر لمائة وخمسين سنة، مايول هو الذي بدأ حملة التصحيح بالقول والفعل، بالتحريض للحكام وبتقديم المثل الجيد للقساوسة ليشاركوا في البناء. لكن الطريق لازال طويلاً". كلوني إذا تدير حركة تجديد للكنيسة والمجتمع بعيداً عن روما والبابوية هناك، والجماعة نجحوا في تحرير جبل القلال، وفشلوا في محاولة احتلال صقلية. يعيدون بناءهم الذاتي من الانحطاط، بينما نحن في الأندلس ننحدر عن القمة بفضل سياسة الحاجب المنصور، وفي يوم ما سيشعرون أن قوتهم عادلنا ضعفنا وحينها سيحاولون احتلال الأندلس.

"للأسف إن الأباطرة لم ينجحوا للآن في تثبيت منصب البابوية، وفشلوا كل مرة في الحفاظ على من رشحوه للكرسي. أي تصحيح سيبقى مشلولاً بدون إصلاح الرأس في روما، أليس كذلك؟" تدخل جبتو للتعليق على تساؤلي مؤيداً أن البابوية يجب أن تكون شاملة لكل النصراني، "لكنها الآن تحت رحمة أهل روما ونبلاتها، بينما حكام الإمبراطورية المقدسة يفشلون في فرض مرشحهم".

"على الطرف الآخر للعالم النصراني، تعاني بيزنطة الآن من حرب أهلية وانشقاق بين باسيل وقادة الجيش". كان جبتو قد أطلعني أثناء

سفرنا على أوضاع بيزنطة وجزر اليونان التي أبحر منها إلى صقلية ثم إلى جنوه، فأدليت بهذه الإضافة العامة.

"نعم، هذا الجدل ثار أيضاً حين رشح الإمبراطور أتو مايول للبابوية. لكن الكرسي المقدس وما يحيط به بحاجة لقلب الأوضاع، وميزان القوى هناك، في روما، لازال أضعف من حماية أي بابا صالح. لذلك كان الأفضل أن يتم الإصلاح من القاعدة إلى القمة. والحقيقة أن أهل روما صعبى المراس، فهم مواطنون تعودوا السيادة وحكم العالم، ولا يحترمون أي بابا، بل يرون في الكرسي مصدراً لجمع المال لمدينتهم ولسيطرتهم فقط". كان الأسقف يتحدث بينما ذهني يقارن ما أسمعه الآن، بما أعرفه عن تقارب مع أوصاف أهل قرطبة، وبدأ مستقبل أسود يرتسم في مخيلتي إذا أصابنا ما في أهل روما. لم أعد أسمع ما يقول الأسقف، لكن جبتو هزني بعد وهلة لا أعرف زمنها "يبدو أنك سرحت في مخاطر الرحلة، لا تدع ذلك يزعجك، سوف أمدك بكل الطرق للتهرب من القراصنة".

"أنا لا أهرب من أحد، سأخذ الاحتياط وأسلح المركب لهزيمة أية مهاجمين، أعثر لي على بعض رماة الرماح الأشداء مجيدي التصويب، وجرتين من القطران واترك الباقي لي". نهض ثلاثتنا، وربت الأسقف على كتفي وهو يودعنا ويواعدنا على لقاء آخر قبل السفر لأخذ الرسائل. البضائع التي سيرسلها تاجرنا إلى ليون هي مواد مستوردة، أو منهوبة من سفن أخرى، مثل الحرير والدمسك وسجاد جداري ومرايا زجاجية، بالإضافة إلى منتجات محلية ومنها السمك البحري المجفف، ونبذ وشمع من عسل النحل. عندما مررنا بالميناء في طريق العودة للبيت أشار جبتو للسفينة التي سأكون مسؤولاً عن حمايتها وأمنها. كانت مسطحة القاع، وذات شراعين، ولها مواطن ثلاثة مجاديف فقط على كل جانب. لم تسعدني التفاصيل ولكن جبتو ذكّرني بأن هذا المركب مؤهل للإبحار في الأنهار إذ يمكن أيضاً دفعه بالارتكاز على العصي.

"لكنه سيكون بطة كسيحة أمام أي هجوم للقراصنة في البحر".

"سأقلل عليك المخاطر بالعثور على عشرة رجال أشداء وقبطان يعمل بإرشادك وقت الأزمات، ويعرف مسالك السواحل والأنهار". اشتغل ذهني فوراً في توفير أفضل وسائل الدفاع، وهو السرية والتضليل. "المهم ألا تعرف كل جنوه نوع الحمولة وموعد الإبحار، فالقرصنة لا تقتصر على المسلمين". فقهه جبتو وأعرب عن ثقته بنجاحي في المهمة، وطلبت منه اختبار قدرات الرجال العشرة على استعمال الرماح ورمي السهام، "من يريد نهينا عليه أن يعرف أنه لن يسلم جلدنا بسهولة. ولا بأس أن تشيع أننا نبحت عن ثلاثين رجلاً". مرت الأيام مليئة بالعمل والتدريب، وقررت إبعاد كارل من البيت إلى المركب لينام فيه ويراقب ما يجري ليلاً في الميناء قبل ثلاثة أيام من موعد إبحارنا. بالطبع كنت أفضي عدة ساعات من النهار وبعض الليل معه نتبادل المعلومات ونتفحص المركب والبضائع التي تصل تدريجياً. ليلة الإبحار توالت الأخبار المزعجة. ذهبت لوداع الأسقف حاملاً خمس وعشرين ورقة بيضاء كهدية إليه مما كان معي لاستعمالي الخاص ولإهدائه إلى جريبر، فطلب الأسقف المزيد ووعدته بإرسال حمولة كبيرة من الورق عندما أعود إلى برشلونه. سلمني الأسقف صرة نقود شارحاً أنها كلفة الضرائب في الطريق، وعرفت أن لكل مدينة حدود وضرائب وتفتيش وأنتني سأدفع أربع مرات، والمبلغ قابل للتفاوض، وإمكانية رشوة الجنود واردة بالطبع. حصلت على نصيحة بالقول إن البضائع في طريقها إلى أسقف ليون، وعرفت أنه لا جدوى من حمل رسائل توصية لأن الجنود أميون. هذه أخبار لا تسر القلب، لكن كارل أضاف للقلق مبررات أخرى حين أفادني بأن سفينة غادرت الميناء فجراً وبها أكثر من ثلاثين رجلاً ولم يكن غاطسها قد تعمق في الميناء ولم يشاهد قبل ذلك تحميلها ببضائع. مرّ بخاطري جدنا هانيبال، وفكرت، إذا كان قد وصل مع جيشه وأفياله من أفريقيا عبر الأندلس والألب إلى روما ماراً قرب جنوه، فلماذا لا أنجح في إيصال بضعة بغال عبر الألب من جنوه إلى ليون؟ لقد تجاوزنا نقطة العودة الآن ولا مناص من الإبحار وتحمل المسؤولية.

ندم القراصنة

المسافة بين جنوه ونيس تشكل ثلث الطريق إلى مصب نهر الرون، ومن نيس إلى جبل القلال، الذي يسمى الآن فراكسنت، أقل من الثلث. بقية الطريق حتى المصب ومروراً بميناء مرسيليا تكثر فيها الجزر الصغيرة قرب الساحل، ولذلك اقترح جبتو أن نبحر تلك المسافة أثناء النهار. حتى بمركب بطيء كهذا يفترض ألا تطول الرحلة عن ثلاثة أيام في البحر وأقل من ذلك في النهر صعوداً إلى ليون، مدينة كارل وعائلته. أبحرنا فجراً، وفي بداية المساء مررنا بمدينة نيس دون أن نشاهد أياً من عمارتها كوننا بقينا في خط مستقيم دون الالتفاف مع الشاطئ داخل الخليج. طلبت من الرجال أخذ قسط من الراحة والنوم مبكراً مكتفياً بدفع الشراعين ريثما نصل إلى جبل فراكسنت والجزر القريبة مع الفجر. كان ذلك يناسبني أيضاً، إذ وددت إلقاء نظرة من بعيد على تلك الدولة الإسلامية التي تشكلت بعد غيرها وانقرضت قبلهم. أردت أيضاً للرجال أن يكونوا على أتم استعداد ولياقة إذا هاجمنا القراصنة. إكتمل القمر وصدفت الرؤيا، وهبت رياح مناسبة لأشروعنا من الجنوب دفعتنا للغرب. كارل وأنا تبادلنا السهر لمراقبة أي مركب يقترب منا ولم نعتمد على عيون مساعد القبطان.

قبل الفجر شاهدت اللسان الجبلي الممتد من جبال المورو داخل البحر، وأدار مساعد القبطان الدفة لتوجيه المركب جنوباً حتى نبقى على مسافة من اليابسة. رويداً رويداً أخذ بصيص الضوء ينتشر، وألقيت نظرة متفحصة على الجبال فوق الخليج. هنا بالذات هبت عاصفة على مركب إسلامي في عام 888، التجأ الركاب إلى شاطئ الخليج واحتلوا المنارة.

في الصباح أعجبته المنطقة، فقرروا الاستقرار فيها وأقاموا قلعة أحاطوها بسور من خشب الغابات بعد أن دبوا أطرافه. بقية الرواية كما سمعتها في جنوه، أن المسلمين باشروا بالهجمات على محيطهم، وأرسلوا في طلب الدعم، فوصلهم مائة رجل وخيال وتبعهم آخرون من قرطبة حتى نمت قوتهم إلى بضعة آلاف وأصبح ميناؤهم مرسى للسفن الإسلامية. مارسوا سياسة الإيقاع بين سكان المناطق المحيطة بدعم طرف ضد الآخر، وهاجموا ونهبوا في المثلث ما بين نيس ونهر الرون وجنيف. في واقع الحال لم يكن للأندلس علاقة مع بناء هذه الدولة أو تأثيراً عليهم، وتأكد هذا من رد الخليفة الناصر، رحمه الله، على سفارة من القيصر أتو طالبه فيها بالتدخل لكف شرهم، ولكن الخليفة نفى أية علاقة ورفض التدخل، ولم يؤثر موقفه سلباً على العلاقات الجيدة بين أتو والناصر آنذاك.

تنهت من تأملاتي في الخليج، وتأكدت من مشاهدة مركب يتجه جنوباً بدفع مجاديف فقط، ويبدو أنه يريد قطع الطريق علينا. في دقائق كان كل منا قد احتل موقعه، لبست قميصي الحديدي وطلبت من القبطان أن يذكر الرجال بأن كل من لا يصيب القراصنة بسهمين من كل ثلاثة سيعتبر عميلاً لهم وسيعاقب. واصلنا الإبحار بالشراعين ودون تجديف، وأبلغني كارل أن هذا المركب هو ذاته الذي خرج قبلنا من جنوه. على مسافة ثلاثمائة ذراع عدل القراصنة موقع مركبهم من الاعتراض إلى الموازة مع سيرنا، ورفعوا أسلحتهم وهم يتوعدون. طلبت من كارل رفع الراية البيضاء، ومن الرجال الاستعداد النهائي للرمي بالسهم. تحركت باتجاه الأشعة وتظاهرت بالعمل على إنزالها، وعندما اقتربت مقدمتنا من مؤخرة مركبهم وأصبحوا في مدى الرمي صرخت على الرجال بالهجوم. إنتشل كل منهم قوسه وأطلق رماحه، وأشعلت إبريقي فخار مليئين بالقطران ومحاطين بالقماش كنت قد ركنتهما إلى جانب الموقد، وقذفتهما داخل مركب القراصنة الذين لم يردوا علينا بأي سهم للآن إذ أخذتهم المفاجأة تماماً. قبل أن تتعد مؤخرتنا عن موازة مقدمة مركبهم

إنهال على القراصنة أكثر من عشرين سهماً نارياً من رجلين كنت قد اصطفتيهما بمساعدة جبتو وأطلعتهما على غايتي باستعمال النيران وتدريبوا على الإصابة بأسهم ذات مقدمة أثقل.

إذا نجا مركب القراصنة من الحريق والغرق، فلن يتمكن أي من الناجين العودة إلى جنوه، إذ تعرف القبطان والرجال في مركبنا على معظم القراصنة. احتلت مقاعد التجديف الستة للابتعاد السريع عن المركب المشتعل، وتناوبنا على التجديف لنصف النهار حتى أطلت مرسيليا في الأفق.

قضينا الليلة في إمارة ارل قرب مصب الرون، ثم دفعنا ضرائب أخرى في الصباح عندما مررنا بدوقية ابينيون، وكلاهما مثل فينيه وليون تدار محلياً وتتبع إلى مملكة برغندي التي أصبحت تضم فراكسنيت المحررة وجارتها نيس. علّق القبطان على تدمري وقال إن الإبحار في نهر اللوار هذه الأيام يتطلب سبعين وقفة لدفع ضرائب، أي أن الوضع في مملكة برغندي ليس كارثياً. هذه المملكة محصورة في الجنوب بين المملكة الفرنجية الغربية، والمملكة الفرنجية الشرقية. ويحدها شمالاً برغندي العليا ومدينة جنيف، وفوقهما مملكة أخرى، وكلها ممالك صغيرة على الضفة الشرقية لنهر الرون بين غرب وشرق فرنجة.

بعد أن أصبحنا في أمان من القراصنة وتحت رحمة الجنود جابي الضرائب، أخذ شوق كارل يتصاعد وهو يحدث الجنود والناس الذين نقابلهم بين الحين والآخر على ضفة النهر. أصبح يحدثني بعيون واسعة عن والديه وأخيه الذي يكبره وعن أقاربه، لم يكن أي شك يساوره بأنهم سيستقبلونه بالترحاب، أو أن الإقامة ستطيب له في ليون.

"أتمنى أن يكون جميع أهلك بخير، ولكنني أريدك التحوط لما قد تلاقيه الآن. أنت لا تعرف من مات ومن بقي على قيد الحياة، ولا تعرف ماذا قال أهلك عن ظروف غيابك، وبالتالي لا تعرف ردّة فعلهم عندما ستقف أمامهم. الكراهية السائدة الآن للمسلمين قد تشجع على توجيه الكثير من الاتهامات إليك". كنت قد فكرت سلفاً في كل كلمة

سأقولها لكارل حتى لا يورطني مع أهله إذا عرفوا أصلي، ولا يورط نفسه إذا كانوا قد ادعوا موته تجنباً لتبعات الإعلان عن خطفه قبل خمس سنوات. "عندما نصل ليون غادر المركب وحافظ على تنكرك واجمع ما يمكن من أخبار عن أهلك وعن قصة اختفائك. في كل الأحوال لا تتحدث عني، أو أنك حضرت بهذا المركب. سأبقى في ليون يوماً أو اثنين، وسأعطيك تفاصيل تحركي حتى تتمكن من اللقاء معي في الأسابيع القادمة إذا لم يناسبك ما ستجد في ليون". اتسعت عيون كارل وهو يسمع إنذاراتي إليه، ويتأمل في ما قلته عن احتمال اللقاء مجدداً. منذ مغادرتنا صقلية أبلغت كارل بالكثير من المعلومات عني، ومن ضمنها أنني خاطب لفتاة من أصول نصرانية، وأن جولتي ستحط بي في قرطبة مجدداً، وعملي يتطلب الترحال في مدن الأندلس وبلاد أخرى.

"إذا كانوا قد قالوا إنني مت قبل خمس سنوات، فكيف يتصرفون الآن عندما يشاهدونني؟"

"عليك التفكير في الآخرين وليس فقط في نفسك. الظروف تتغير في خمس سنوات، وكل شيء يتوقف على ما أشاعوا آنذاك. لقد غبت خمس سنوات، ولن يضريك الصبر خمسة أيام أو أكثر قليلاً لتفحص الوضع واتخاذ القرار. يمكنك أيضاً مفاجأتهم في ذات مساء وتندارس الأمر سراً معهم. ربما لن تجد منهم سوى الترحاب والفرح، لكن المدينة قد تضيق عليك بسرعة. ترو في الاقتراب، ثم قرر لمصلحتك ومصلحة الآخرين".

"وإذا لم تعجبني التطورات، هل سترحب بي مجدداً؟"

"تعرف ظروفني بالتفصيل، فإذا أردت التكيف معها والتصرف في إطارها فأنت على الرحب كصديق أو شريك في التجارة، ولن أدخر جهداً في مساعدتك".

"مهما كان الأمر فأنا أريد الاشتراك معك في تجارة ورؤيتك مجدداً. لقد حملت من قصر الأمير الهدايا الثمينة التي أعطاني إياها، وأريدك أن تأخذها الآن عربون شراكة". لم أكن أتصور أن كارل سيغير

قراره بهذه السرعة، فأصررت عليه بالتروي وإخفاء جواهره عن أي بشر، وأن يعيد التفكير في قراره بعد وهلة من الزمن، ورفضت محاولاته اقتسام الجواهر أو أخذها ضمن شراكة تجارية، أردت له التحرر من علاقتي ورفقتي لوهلة قبل حسم الأمر. طوال اليوم الأخير من رحلتنا رتبت معه كيف يمكن اللقاء معي في كل مرحلة، وكتبت له رسالة موجزة إلى وكيلنا في دانيه بأن يساعد حاملها ويخبرني فوراً بوصوله، وشرحت لكارل كيف يمكنه الوصول لهنالك. عملياً الرحلة نهراً وبحراً من ليون إلى دانية أقصر وأسهل من رحلتنا هذه. رويت لكارل أيضاً كيف خرج الوالي عنبسه من قرطبة إلى شمال جبال البرت وغزا قرقشونة ونربونه ثم وصل لمصب نهر الرون وصعد على الخيل من هنا واحتل في طريقه مدن اوتان عاصمة برغندي واحتل ليون وما فوقها مثل ماسون وشالون. كان ذلك عام مائة وخمسة للهجرة، أي سبعمائة وثلاث وعشرين على ميلاد المسيح. من مدينة شالون تفرع جند المسلمين لاتجاهين، الجزء الأول صعد إلى ديجون، بينما عنبسه سار مع ضفة نهر السارون شمالاً حتى مدينة سانس على مقربة من جنوب باريس. أردت من تلك الرواية تهوين الأمر على كارل وطمأنته بأن الفراق هنا ليس نهاية المطاف بيننا طالما وجدت دواب للحمل أو سفن تتنقل بين الموانئ، ومازحته بالقول إن أصوله ربما كانت عربية من جراء تلك الغزوة قبل 262 سنة.

بعد مدينة ارل، قرب مصب الرون، لم أشاهد سوى جسرٍ واحدٍ قديم في ليون، التي عرفت أنها كانت حاضرة المقاطعات الإفرنجية الثلاث في العهد الروماني. الطرق الرومانية القديمة لم يعد لها آثار، ولذلك لا يمكن التنقل سوى على دواب أو في مجاري الأنهار، ويستحيل استعمال العربات. رغم كثرة الضرائب فالأمن منعدم وقطاع الطرق ينتشرون في الغابات التي تغطي المساحات بين المدن وقرب مناطق عمل المعديات التي تنقل الناس عبر الأنهار. بعض الفلاحين كانوا يحرقون الأرض بشيران أو حمير، لكن غالبية الذين شاهدتهم على ضفتي النهر كانوا ينكشون بأيديهم.

أوصلني كارل إلى الكاتدرائية وافترقنا على أمل اللقاء، وفي فترة قصيرة من الوقت تدبر الأسقف الوضع، وتسلم الوكيل المركب والبضائع، وانتهت مسؤوليتي بنجاح. يبدو أن الرسالة من أسقف جنوه أطنبت كثيراً عليّ، إذ أخبرني الأسقف، بورشار الثاني، أنه سيكلف من يذهب معي إلى دير كلوني ويواصل رفقتي حتى ريمس، وذلك بعد نيل قسط من الراحة، وكنت قد أبلغته في بداية اللقاء معه بتفاصيل قرصنة الجنوبيين علينا حتى يكتب للأسقف هناك بما حصل. ساورتني شكوك بأن كارل سيسرع إلى اللقاء بأهله، وتوجست شراً، فتمنيت على الأسقف الاستعجال في مساعدتي على مواصلة الرحلة قدر الإمكان. لو تعامل أهل كارل بسوء تجاهه، أو عرفت تفاصيل قصته، فسيكون من السهل اتهامه بالتجسس للعرب، أو بالسحر كنتيجة لحياته مع العرب والمسلمين خصوصاً وهي متنكرة بزي رجل، وستكون النتيجة صلبها أو حرقها، وبالطبع لن يختلف مصيري عن مصيرها، وما أحمله من كتب عربية عن النجوم والطب ليس بالضرورة شهادة حسن سلوك.

"يراودني الشك عبر مشاهداتي للآن، أنه كلما توجهنا شمالاً تتراجع مستويات الحضارة، هل هذا صحيح؟" وددت بهذا السؤال الاطلاع على معلومات الأسقف تجاه ما سيلاقيني في الرحلة.

"نحاول قدر الإمكان تعميم الخير في كل المناطق، لكن الحقيقة أن التواصل صعب جداً، والاختلافات كثيرة، والأمان غير مضمون سوى داخل الأسوار. ملاحظتك صحيحة، وهذا الحال لم يتغير منذ أيام الرومان الذين عانوا من هجمات برايرة الشمال وقبائل الشرق الألمان والمجر. هل تعرف أن الدين المسيحي لم يدخل الدنمرقه إلا قبل عشر سنوات تلبية لشرط من القيصر أتو على صاحب الناب الأزرق ومن تبعوه، كئمن للصلح بعد هزيمتهم؟ وقبل مائتي عام كان الألمان يعبدون شجر البلوط، ولا يمكن القول الآن إن الإيمان وصل إلى قلوبهم. أما الروس وجيرانهم فلا زالوا وثنيين". كنا نجلس في صالون استقبال فخم داخل الكاتدرائية بينما الأمطار تهطل في الخارج، وقطع حديثنا دخول

راهب شاب قوي البنية مهذب اللحية، اعتذر وخاطب الأسقف باللهجة البروفانسية السائدة في البروغندي، فطلب منه الأسقف التحدث باللاتينية، وأخبرني أن القس عثر على مركب مناسب للرحلة، وعرفت أن هذا القس سيكون رفيقي حتى ريمس. اتفقت معه على اللقاء بعد قليل للتفاهم على متطلبات السفر وتوفير اللوازم، ثم استدركت الحديث مع الأسقف.

"إذاً الحرب الأهلية القائمة في الإمبراطورية البيزنطية منذ تسع سنوات، والصراع المستعصي في روما، وتشردم الدول والإمارات في مملكتي الفرنجة، أهون مما في الشمال والشرق؟"

"نعم، ولكننا نحاول تحسين وتطوير الكنيسة كأساس للبناء. قد تكون هناك انتكاسات كبيرة، إلا أننا نجحنا في عدة أمور أيضاً. هنا في ليون مثلاً حرم كبير أساقفتنا، سان أجوبار، قبل مائة وخمسين سنة، المحاكمة بالمبارزة حتى الموت. عادى الخرافات التي توسع انتشارها والتصقت بالدين، ومنع عبادة الصور، ورفض تفسير الزواج كعمل ناتج عن السحر، وفضح التدجيل المستخدم في محاكمة الساحرات". كانت التعابير التي استعملها الأسقف قوية وتنم عن تأييد لتلك الإنجازات، ولكنها تعابير توحى أيضاً بعدم التخلص للآن من هذه المفاصد في معظم مناطق ودول العالم المسيحي. أشار محدثي أيضاً إلى جهود كبير أساقفة ريمس الإصلاحية والذي توفي قبل مائة عام، وكيف عممت أفكاره على عشرين كتدراية. تمنيت بدوري أن ينجح دير كلوني في مهمة الإصلاح بشكل أشمل. قدمت للأسقف رزمة أوراق بيضاء نالت إعجابه، وتأسفت لعدم حملي الكثير منها، لكنني وعدته بالحصول على كمية كبيرة من قرطبة عندما أعود إلى برشلونه، وبأنني سأرسل من يزور ليون ويبيعه حاجته من الورق.

المفاجأة التي أثلجت قلبي سمعتها من فم القس جوييه حين أخبرني لاحقاً في بداية اللقاء أنه قام بالرحلة إلى ريمس ثلاث مرات، واستنتجت من حديثنا أن مهمة الرجل هي نقل الأخبار بين الكنائس

والبلدان وجمع المعلومات وتقييم الوضع أينما حل. استبعد فوراً أي حديث عن تنقل بري على دواب، وعرفت أن المركب الذي اختاره صغير وخفيف يتوسطه ساريه وشراع، يتسع لأربعة ولا يحمل أكثر من ستة، ويمكن للأربعة أن يحملوه إذا تطلب الأمر الانتقال من نهر إلى آخر. رفض جوييه عرضي المشاركة في تكلفة الاستئجار، وقال إننا لن نحتاج لحمل طعام لأكثر من ثلاثة أيام إذ سنجدد احتياجاتنا من الممدن والكنائس في الطريق. تقبلت فكرة أنه غير مطلوب مني عمل شيء سوى المشاركة الجسدية عند اللزوم، وأخبرته بقدرتي على استعمال السيف والقوس والسهم، وأنها رفيقي الدائم الذي أتمنى عدم الحاجة إليها.

دير الاصلاح

طريقنا ستكون من ليون إلى ماسون حيث سنترك المركب ونتجه بمسيرة يوم إلى كلوني. ثم سنعود للمركب ونبحر شمالاً داخل نهر الساون إلى شالون ومنها شمال شرق لنصعد مع فرع صغير للنهر على يمين ديجون إلى لنجرس ثم إلى شالون أخرى، حيث سنسير منها عبر غابات لأقل من يومين إلى ريمس. لو كان الطريق برياً وآمناً لأمكن الوصول من ليون إلى ريمس في عشرة أيام على الفرس، لكننا سنحتاج إلى ضعف هذه المدة في النهر، إذا حالقنا الحظ بماء غزير ورياح مواتية تسهل علينا وتريحنا من الدفع، وربما من حمل المركب بين الأنهار إذا انخفض منسوب الماء. في هذه الرحلة سنغادر البروغندي إلى المملكة الفرنجية الغربية، ثم يحملنا النهر إلى المملكة الشرقية ويعيدنا إلى الغربية. كل مدينة ومحيطها لها بالطبع حكامها وجنودها وقانونها وجباتها الذين يراقبون الأنهار ومداخل المدن ويتابعون تفاصيل أوضاع الفلاحين في الإقطاعات.

لأن المشاكل في العادة تأتي مجتمعة، انتابني شكوك في هدف رحلتي هذه. جريير الآن ليس طالب علم في قرطبة التقيه في الجامع قرب بيتنا، وأنا لست طفلاً، كل منا تغير وها أنا أنتحل شخصية نصراني برشلوني، ومتورط في تحرير عبيد، وأستغل اسم الرجل لتسهيل رحلتي، ويمكن فهم اهتمامي بتحرير الأسرى وكأنني أساعد أمير صقلية لتحصيل الفدية عنهم. نفضت من رأسي هذه الوسوس وأية احتمالات لردود فعل سلبية من جريير، وقررت الاستمتاع بما أرى والاستفادة مما أسمع وشكر الله على ما يسره لي من تسهيلات حتى الآن.

في صباح اليوم الثالث على وصولي أبحرنا في فرع النهر المتجه شمال غرب، وشعرت ببعض الندم على التسرع في مواصلة السفر وعدم معاينة ليون. لم أخف أحاسيسي عن جوبيه الذي هون عليّ بادعاء أن ليون لا تملك ما لا يوجد في غيرها من المدن التي سنمر بها، كما أن الفرصة ستتاح عندما أعود من ريمس. لم أود التفكير في رحلة العودة وإذا كان جوبيه سيمكث بعض الوقت في ريمس، وإذا كنت سأعود من الطريق ذاته أصلاً. المهم الآن أن نصل إلى ريمس وننجح في قطع المراحل العديدة أمامنا. كنا أربعة مسافرين، فقد انضم إلى صاحب المركب رجل رابع قوي البنية، لؤي، ولم يعترض جوبيه على رفقته لنا. أبحرنا بعكس انسياب النهر، ووافتنا نسماوات جنوبية دافئة قليلاً ملأت شراعنا، لكن الغيوم كانت توشي بتواصل المطر في أي حين. خلال اليومين الأولين كان لؤي وصاحب المركب يتجاوران في الجلوس ويجدفان لبعض الوقت، بينما جلست إلى جانب جوبيه على المقعد الخلفي، وكانت حاجياتنا تحت وفوق المقعد الأمامي. ترتيب جلوسنا كان يختلف إذا انعدمت الحاجة للتجديف، إذ كان المراكبي يحتل المقعد الخلفي ليدير الدفة، ويجلس لؤي مع الحاجيات في المقدمة. اتفقت مع جوبيه على النوم في المركب دون توقف، وتوجب على المراكبي الإشراف على الدفة طوال الليل وأخذ نصيبه من النوم في النهار. تكوّم لؤي في المقدمة ونمت جنب جوبيه في الوسط واضعين نصف أجسادنا تحت المقعد. في الصباح الباكر توقفنا على الضفة لبعض الوقت لقضاء حاجتنا وتليين أجسادنا، ثم توقفنا مجدداً بعد حين إذ وصلنا لحدود المملكة الفرنجية الغربية التي تضم ماسون ودير كلوني. اقنع جوبيه ثلاثة حراس بعدم حملنا لبضائع، ودفع لهم ضريبة على مرورنا كمسافرين.

"سأحاول التفاوض على حدود المدن ورفض الدفع مجدداً لأننا دفعنا الضرائب عند اجتياز حدود المملكة، وسنرى ردود الفعل".

"تريد توحيد المدن تحت إشراف مركزي! في برشلونه والممالك

راوي قرطبة

النصرانية المجاورة، لا توجد ضرائب على حركة الناس، وإذا كانوا رجال دين فإن الخدمات تقدم لهم مجاناً. حتى تنقلاتنا إلى الأندلس حرة وبدون رسوم إلا عند بيع بضائع".

"وضعكم هناك أفضل لأنكم تواجهون الخطر الإسلامي على حدودكم، كما أن هدف استرداد الأندلس يؤلف بين قلوبكم. مشاكلنا هنا مختلفة وتعقد التفاهم. لا توجد مركزية سياسية، وجباية الأسياد الإقطاعيين تدمر الفلاحين وتعيق التواصل وتضعف بناء جيوش وتؤلب على الاقتتال حول القليل المتاح. ولا توجد أيضاً مركزية دينية توحد الناس في كل الأقطار كما هو الحال عند جيرانكم المسلمين". اتضح لي فجأة حجم إدراك جوبيه لما يدور في العالم، وتوقعت نقاشات طويلة في الأسابيع القادمة يتوجب عليّ عدم التهور فيما قد يكشف ميولي وانتمائي. "لقد حاول هنكمار، كبير أساقفة ريمس، الذي حدثك عنه الأسقف في ليون، حاول إقامة دولة دينية أيام الملك شارل الأصلع، لكن المحاولة فشلت على الرغم من تأليفه ستة وستين كتاباً، وراثته لأكثر من عشرين مجلساً كنسياً موزعة في البلاد".

"لكن المسيحية دين للروح ولا تضم شرائع وتفصيل تنظيم الحياة اليومية والسياسية كما هو الوضع لدى المسلمين".

"هذا صحيح" قال جوبيه وأضاف بعد وهلة "لهذا حاول هنكمار في كتبه تقديم تفسيرات دينية تصلح لتنظيم الحياة والدولة". فقلت مقاطعاً لجوبيه:

"ولأنه بشر، ورؤيته ليست أوامر ربانية أو تشريعات نبوية، كثرت النقاشات والتفسيرات وبالتالي الاختلاف". هز جوبيه رأسه مؤكداً، ولم يكن المراكبي ولؤي يفهمان ما نقول، ولكنهما تدخلتا للإبلاغ عن وصولنا لمرسى ماسون. شاهدت لؤي يضع كيس الطعام الذي أسعدنا بمحتوياته حتى الآن، يضعه بهدوء فوق كيس حاجياتي وكتبي. إقترنا من المرسى بينما جوبيه يحسن في هندامه واعتمر طاقيته ليسهل على الجميع معرفة هويته ووظيفته كرجل دين. بعد نصف ساعة من المجادلات التي

لم أفهم منها سوى رفض جوبيه الدفع، واصلنا الإبحار ولم ننزل في ماسون. أثناء النقاش مع الجنود فتح لؤي كيسه ليروا ما بداخله. لأن جوبيه رفض دفع ضريبة الدخول للمدينة، توجب علينا الابتعاد، وحمدت الله أن الجنود لم يفتشوا أشياءي أثناء التأزم، فلو فعلوا لعثروا على الكتب العربية، وربما تأزم الوضع. هكذا قررت إبلاغ جوبيه بُعيد ابتعادنا عن محيط ماسون أنني أحمل كتباً عربية كهدية إلى جريبر. بعد أقل من ساعتين، ومع حلول المساء وصلنا إلى قرية بها بناء حجري واحد وعدة بيوت مصنوعة من جذوع الشجر والطين يقطنها الناس وحيواناتهم. "سنقضي الليلة هنا وننطلق فجرأ إلى الدير. الطريق من هنا أقصر مما لو انطلقنا من ماسون". حاولت التهوين على جوبيه لفشله في دخول ماسون، وأكدت له أن النوم في القرى والبراري أفضل من البقاء في المدن وروائحها وإزعاجاتها.

بعد ثلاث ساعات من المسير وسط غابات في أراض منبسطة، قال جوبيه إننا اجتزنا أكثر من منتصف الطريق، لكن المسافة الباقية تتطلب المسير في مسالك جبلية قبل الوصول إلى السهل حيث يوجد دير كلوني. أفطرنا مما أخرجه لؤي من "الكيس السحري" كما سماه جوبيه وواصل ثلاثتنا المسير بينما ضوء شمس الصباح يحاول الوصول للأرض من بين فروع أشجار عالية، قلة منها كستناء وبنديق، ومعظمها غير مثمرة، لكن الثمار البرية الشبيهة بالتوت انتشرت في كل مكان وجمع لؤي لنا الكثير منها لأكلها طازجة. صعدا الجبل للشمال الغربي لساعة، وهبطنا للجنوب الغربي ساعتين حتى وصلنا إلى الدير مروراً بكروم عنب يعمل بها فلاحون ورهبان بعباءاتهم البنية المحزومة على أوساطهم، وحمى بعضهم رأسه بطاقيّة العباءة. قطعنا جدولاً من الماء أقيمت عليه طاحونة، قال جوبيه إنها تستعمل لعصر العنب وصناعة النبيذ، كما تستخدم في طحن الحبوب أيضاً. بدا الدير من الخارج مثل قلعة جيدة الدفاعات، الأبنية أحيطت بسور دائري شمل الكنيسة. داخل السور تجاوزت أبنية خشبية مختلفة الأحجام بشكل عشوائي في المساحة خلف الكنيسة.

أقيمت هناك مبانٍ تضم الإسطبل والمخبز وحظيرة أبقار وورشة معدات، ويجاورها مباني المعيشة والمطبخ وغرف النوم، وبالطبع بناء الكنيسة للتعبد فيها. بدا فوراً أن هذا الدير جديد البناء، وعرفت لاحقاً أنهم لم ينتهوا بعد من تشييده. داخل الكنيسة وجد ضريحان احتوى كل منهما على بقايا من بطرس وبولس أصحاب المسيح. ضخامة كنيسة سان بيير، أو القديس بطرس، تعكس عزم بناتها هنا، طولها يفوق خمسين ذراعاً، وعلى جانبها الأيمن أقيمت أبنية متصلة بالجزء الرئيسي وشكلت سوياً مربعاً في وسطه ساحة منفتحة على السماء.

"هذه الكنيسة أكبر بثلاث مرات من سابقتها التي لم تعد تتسع للرهبان، هي وكل الدير بناء جديد قام به مايول، واستخدم للصلاة منذ أربع سنوات فقط". كان الفخر يشع من عيون جوييه وهو يقدم هذه المعلومات بعد اجتيازنا للبوابة وتحركنا إلى مبني المعيشة تحت ظلال السقف الذي يربط الأبنية حول ساحة الكنيسة.

"هل تعرف الأب مايول وكل الرهبان هنا؟"

"الأب مايول نعم، أما الرهبان هنا فهم بالمئات، يحضرون للتعلم ويغادرون بعد سنوات، بينما أنا لا أمكث هنا سوى بضعة أيام في كل زيارة" في غرفة المعيشة تعرف بعضهم على جوييه واستقبلوه بترحيب وقادونا إلى إحدى غرف نوم تضم أكثر من عشرين سريراً، فوضعنا حاجياتنا تحت ما خصصوه لنا، وعدنا إلى غرفة المعيشة حيث استأذن جوييه في الذهاب لتحية مايول وتركني مع لؤي. بعد وهلة قصيرة استغل لؤي انشغال الرهبان عنا وأخرج من بين ملابسه ورقة ناولني إياها حائماً بإشارات من يديه وعينه على مطالعتها. انفرجت أساريري وفهمت الآن سبب الكثير من تصرفات لؤي تجاهي، لماذا يقترب مني، ولماذا أكرمني بصدر البطة في اليوم الأول ووزع بقيتها على الآخرين، ولماذا كان يعطيني إشارات بالنوم منوهاً أنه سيبقى ساهراً، ولماذا خبأ حاجياتي تحت كيسه ثم أصر على حمل متاعي طول مسيرنا إلى الدير.

كانت الرسالة بالعربية جاء فيها: حاملها أخي، يمكنك الاعتماد

عليه. يعرف القصة منذ اللقاء في سوق بلرم، وأنتك برشلوني تحمل كتباً عربية إلى الأسقف ويجب حمايتها وحمايتك. الاستقبال لي من الأهل كان كما توقعت أنت وأنا. رحبوا بي ولكنهم طلبوا عدم الكشف عن هويتي وأن أبقى رجلاً. سأنتظر عودتك للهجرة جنوباً، وربما تركت المكان قبل ذلك وانتظرتك في العنوان الذي أعطيتني إياه. مع تحيات وحب كارل. نسيت أن أخبرك قبل الافتراق أمام الكاتدرائية أن كبير الأساقفة بورشار الثاني هو ابن غير شرعي لكونراد ملك برغندي، الذي تلقب، فأرض السلام، بعد اشتراكه في القضاء على دولة المسلمين بجبال المورو.

عمّت مسحة من الخجل ملامح لؤي عندما لاحظت ابسامتي وأنا أطلع الرسالة، فاستدرت الأمر وقلت له ببعض التعابير البروفانسية التي تعلمتها من رفقة أخته ومن رحلتنا القصيرة عبر النهر "كارل إنسان جيد، وأنا أحترمه، وسأراه لاحقاً". ثم طلبت منه بالإشارات أن يبقي أمر الرسالة بيننا، ولم أكن بحاجة لقول ذلك بالطبع، شكرته وربت على ذراعه فقام وتعانقنا وسط دهشة الرهبان في الغرفة. في المرتين اللتين التقيت بورشار خلالهما، استغربت قليلاً حداثة عمره مقارنة مع المنصب، وها أنا أعرف السبب، وأكتشف سبب مرور بضاعتنا من جنوه عبر الرون بسهولة عندما قلت إنها لكبير الأساقفة، أي لابن الملك.

كما توقعت، قال جوبيه عندما عاد إلينا أنني سأتعرف على الأب مايول على العشاء، وتمنيت عليه تزويدي بما يعرف عن تاريخ الدير ومايول، ففعل وأطال، وفيما يلي الموجز:

في الحادي عشر من سبتمبر عام 910 أهدى الدوق وليم غيوم الأول، الملقب بالمؤمن، قطعة أرض كبيرة إلى اثني عشر راهباً بندكتياً ليقيموا فيها ديراً لبطرس وبولس. تعود الأغنياء إهداء الرهبان والكنائس إعطاءات ليكفروا عن أفعالهم أو ليخلدوا أنفسهم. الهدية كانت كلوني هذه بين التلال، وضمت قرى صغيرة مجاورة للبناء القديم، والحقول والغابات وما عليها من أبنية وزرع وماء ودواب وبشر من الجنسين، لأن

الدوق كان يملك كل شيء في المنطقة. بعد سبعة عشر عاماً أعاد رئيس الدير آنذاك، أدو، النظر في قواعده ونظامه وشدّد الصرامة الأخلاقية ويسر الجهود الجسدية. منع التقشف المبالغ فيه والعقاب الجسدي، وطالب الرهبان بالاستحمام ووفر الطعام والجمعة، وفي المقابل عزز قيم العفة والطاعة التي مارسها الرهبان الفقراء قديماً. اشتهر الدير وزادت الهدايا والهبات إليه وتوسع نفوذه في أماكن أخرى وتأثيره على كنائس منتشرة في البلاد. لكل من الأديرة والكنائس في العادة قانونها الخاص وترتبط بشكل ضعيف مع أساقفة محليين أو تخضع لرؤية أسياد وإقطاعيين، لكن الأديرة التي أقيمت على نظام كلوني مرتبطة بالدير هنا وبقوانينه، والكنائس المنتمية يرأسها رهبان يخضعون للدير مباشرة. طوال خمسة وسبعين عاماً، وتحديداً في عهد مايول انتشرت حركة تأخ بين كنائس في كل أوروبا، وفاق عددها للآن خمسمائة. الهدف هو تنظيم قواعد الرهبنة بواسطة الرهبان وإصلاح الدين بجرأة وشجاعة قولاً وفعلاً، وإنهاء المتاجرة بالدين والفساد. وذكر جوبيه نصاً يحفظه عن ظهر قلب قاله أدو الذي يعتبر قديساً هنا، "إن بعض رجال الدين في الأديرة وخارجها يستهترون بآبن العذراء استهتاراً يستيحون معه ارتكاب الفحشاء في ساحاته نفسها، بل في تلك البيوت التي أنشأها المؤمنون الخاشعون لكي تكون ملاذاً للعفة والطهارة داخل حرمها المسوّر، لقد فاضت هذه البيوت بالدعارة حتى أصبحت مريم العذراء لا تجد مكاناً تضع فيه الطفل عيسى".

"يا للهول، ولكن كيف وصلت الأمور إلى هذا الانحطاط؟" إستكمل جوبيه شروحاته ورد على سؤالي بكلام سمعت مثله قبل ذلك، ومفاده أن حروب الملوك أشاعت الفوضى في ربوع فرنجة، ثم خربت غارات النورمان المدن، وأكمل المجريون البرابرة المهمة التي أنهاها القراصنة المسلمون. هكذا ترك الناس مدنهم والرهبان كنائسهم، ولما عادوا تدريجياً وجدوا أن الإقطاعيين اغتصبوا الأديرة ونصّبوا عليها أعوانهم ونهبوا مداخيلها فعمّ الفساد. قبل موت القديس أدو استلم الدير

ثمانين هدية أخرى، وفي السنوات التي تلت ترأس ايمار الدير وجمع مائتين واثنتين وسبعين هدية منتشرة حول كلوني وفي حوض الساون ومناطق أبعد. أما في فترة السنوات العشر الأولى تحت رئاسة مايول فقد بلغت الهدايا تسعمائة، منها القرى والأراضي والأبنية ومداخيل مربوطة لصالح كلوني ومنها أديرة وكنائس بما تملك.

قبيل الجلوس إلى طاولة العشاء قدمني جوبيه للأب مايول "هذا هو أنطونيو البرشلوني". صافحت العجوز النحيل طويل القامة وقبّلت يده، فباركني بلمس رأسي وشدني لأعلى فطاوعته بخفة وانتصبت إلى جانبه وتوجب عليّ النظر لأعلى لأرى عيونه أثناء الحديث. "يسعدني رؤية شاب مخلص مثلك يتحمل تعب الترحال لزيارة أصدقاء وخدمة أسرى".

"هذا أقل ما يمكن عمله". لم أكن أعرف ما قاله جوبيه عني، ولم أعد متأكداً من نوع العلاقات بين أسقف ليون ومايول، لذلك جهزت رسالة أسقف جنوه إلى مايول ورسالة البطارقة الأسرى المعنونة إلى من يهيمه الأمر، وقدمتهما إلى مايول معلناً مصدر كل منهما.

"سأطلع عليها بعد العشاء، تفضل لمشاركتنا بما أنعم الرب". دفعني برفق وأرشدني للجلوس إلى جانبه على طاولة تضم حوالي خمسين راهباً. مرر الحضور الخبز والشورية إلى بعضهم ليأخذ كل منا نصيبه، ثم تلا أحدهم صلاة شكر قصيرة وانشغلنا في نشل شوربة القمح بملاعق خشبية. "ما رأيك فيما رأيت من كلوني للآن، تعرف أننا لم نفرغ من البناء بعد؟"

"بناء ضخّم أتوقع أن يتحول إلى مدينة بسرعة. إنه الآن مثل مدينة صغيرة مستقلة محاطة بالأسوار للحماية وتكتفي مما ينتج سكانها من أراضيها".

"بل يكفي أيضاً حاجة الحجاج الذين يزوروننا باستمرار، ونقدم خدمات لسكان المناطق المحيطة ونطحن حاجة ماسون، ونعيد تصدير الملح لكل المناطق".

" يبدو أن جوبيه أحضرنا إلى هنا من طريق غير الذي تستعملونه في تجارتكم ".

" لقد أخبرني بتصرفات الجنود، يبدو أنهم جدد في عملهم، سأكتب للأسقف هناك وسيتغير الوضع بشكل نهائي. زوارنا وتجارنا لا تدفع أية ضرائب في كل أطراف المملكة، وأي تعطيل يعود لعوامل الجهل والطمع ". صمتنا قليلاً وكان الرهبان يحادثون جيرانهم بصوت منخفض، وهذا من إجازات دير كلوني إذ لا يتحدث القساوسة والرهبان في العادة أثناء تناول الطعام. مال مايول تجاهي قليلاً وهمس " ماذا تحمل لصديقنا جريير؟ "

" هل تعرفه حقاً؟ وهل زار كلوني؟ " أردت حسم الأمر فيمّ يعني الأب بكلمة " صديقنا ".

" نعم يمر من هنا كلما اتجه إلى مناطقكم، وزرته مراراً في ريمس، والتقىنا في قصور الإمبراطور ".

" لقد حدثني أنه علم الإمبراطور ". أمسكت لساني وعدت بسرعة للإجابة على سؤال ما أحمل لجريير " أعرف أنه يحب الكتب العلمية العربية والورق الأبيض من شاطبة الأندلس، فحصلت له على بعضها وحملتها لأهديه إياها.

" أدعو الرب أن لا يسبب له شغفه بعلوم المسلمين مشاكل نحن في غنى عنها ". قال مايول بهمس وواصل " اترك الورق الأبيض لنا، سأكتب له أنني صادرتة وسيقدر لك الهدية وكأنها وصلتته. أعتقد أن لديه مصادر جيدة للحصول على ورق الأندلس. نحن بحاجة لإتقان هذه الصناعة هنا في كلوني ". تأسفت له على قلة الكمية، وخطر ببالي عقد صفقة مربحة، فالدير ومايول من أغنى أغنياء الغرب على ما يبدو، وهم بحاجة للورق لنشر أفكارهم.

" إذا رأيتم، يمكنني أن أتدبر من هنا الآن طلب كمية ورق كبيرة تصلكم قبل شهرين أو ثلاثة، وربما قبل عودتي من ريمس ". نظر مايول إليّ بعيون تنم عن الاندهاش والرضى، فأكملت " لقد تركت خادمي في

ليون لزيارة أهله، قبطان المركب الذي حملنا من جنوه يعرف بيتهم في ليون، ويمكنني الكتابة إليه مع لؤي، وحينها سيسافر خادمي فوراً إلى برشلونه وسيتدبر والدي الحصول على الورق وإرساله إلى كلوني، المهم هو أن الثمن سيكون غالياً، لأن الورق سيجمع من تجار أندلسيين موزراب، وطبعاً سيكون عليكم أن تضمنوا مرور البضاعة إلى هنا".

"هذا جيد". قال مايول وعاد للشوربة وكففت عن التحدث لتقييم هذا الجواب والاستماع منه للمزيد. "متى تعرفت على جريير؟ تبدو لي صغيراً في السن؟" كنت أتوقع مثل هذا الموقف إذا تقابلت مع من يعرف جريير ويسمع عن علاقتي به، وجهزت إجابة خرجت كعفوية.

"في الواقع هو صديق لأبي، تعارفا أثناء دراستهما في جامع قرطبة. أما أنا فرأيت الأب جريير أثناء زيارة مع والدتي لأبي في قرطبة، ورغبت بالترحال فقررت زيارة صقلية وجنوه والوصول إلى ريمس، ومعظم ما حصل في الطريق هو من الصدق السعيدة، وأهمها التعرف عليكم وزيارة كلوني". كان لدي إجابات تهريبية جاهزة أخرى لو سألني عن أوضاع برشلونه ورجال الدين هناك، وأكملت حديثي بأن ما حصل من قرصنة جنوه كاد أن يودي بحياتنا، ولم يلح مايول في أسئلة شخصية.

"سأعطيك بعض النقود الإسلامية التي نملكها لترسلها مع خادمك لتأمين الطلبات، والبقية سيأخذها من يوصل البضاعة إلينا".

"لا حاجة لذلك الآن، تكفي كلمتك، والقبض يتم عند التسليم في ليون مثلاً، وبأية عملة ذهبية حسب وزنها. إذا أردتم بضائع أخرى، أخبرني بها حتى الغد لأخطها في رسالتي." تصافحنا قبل الانتهاء من الطعام وتمت هذه الصفقة التي سيتوكل بها كارل ويساعده لؤي ووكيلنا. عليّ الآن شرح الأمر في رسالة لكارل ليسخر المجوهرات كراس مال لكلفة الورق والشحن، ويقبض بالذهب في ليون باسمي مع أرباح مائة بالمائة. في اليوم التالي تبادلت القصص والأخبار وبعض الأفكار مع الأب مايول، حدثته عن مشاهداتي في مدن الأندلس الإسلامية، وركزت

على شأن الاغتسال والاستحمام، والمياه الجارية في المساجد والبيوت والمراحيض، وكثرة النوافير، وجمع القمامة، وتقييد حركة الحيوانات في المدن، والشوارع المرصوفة والمضاءة في الليل. "كل ذلك غير متوفر في مدننا الايبيرية ولم أشاهد مثيله في جنوه أو ليون، على الرغم من أن تعاليم ديركم تحبذ مثل هذه الإنجازات".

"بعضها نعم، لكن المزيد من الرفاهية يؤدي إلى الفساد. سترى أن بعض إنجازاتهم ستؤدي للقضاء عليهم. إنتصاراتهم جاءت في فترة تقشفهم العظيم، وكلما أسرعوا في الرفاهية سيعجلون إلى نهايتهم. غايتنا العثور على طريق وسط بين تسهيل الحياة وتنمية القوة".

"أعذرني في السؤال إذ أنني عاجز عن كبح فضولي، هل بالفعل قُطعت رجل الحارس المسلم، وفُكت قيودكم من ذاتها أثناء الأسر في القلعة؟"

"البعض يظن أن المبالغات تفيد الدين وتعطيه قوة فعل ذاتية خارقة، لكن من يقبل مبالغة إيجابية سيكون عليه قبول مبالغة سلبية من أمثال المبالغات التي تنتهي بمحاكمات الساحرات وإحراقهن. القصة أن حارساً داسَ على كتاب أطلعه من دون قصد، فأغضبني ونهرته، وفي اليوم التالي استبدلوا ذلك الحارس بثلاثة، وفكوا قيودي. كانوا بانتظار الفدية ولا يريدون أذيتي. تلك القصة تطورت إلى ما سمعته أنت". بعد وهلة من تفحص أوراق العنب والعناقيد الصغيرة، واصلنا التمشي في الكرم وعاد مايول إلى موضوعنا. "لقد استعدنا القلعة وطردهم من كل المنطقة وأزلنا شرهم، هذه حقيقة أهم من الخرافات. فشلنا في صقلية هو الآخر حقيقة، خسرتنا قواتنا، ومات القيصر بعد ذلك متأثراً بالنتائج". خطر لي التلميح بأن خطر القرصنة لم ينته مع زوال دولة القلال، لكن نبرات العجوز كانت قد امتلأت بالحزن لأنه على ما يبدو يحمل نفسه مسؤولية ما حدث، فقد كان المحرك الأول لدفع أصدقائه لخوض الحرب، القيصر أتو والملك البرغندي كونراد غيوم، وكونت مقاطعة ارل الذي يسيطر على مدخل نهر الرون، وحاكم تورين.

" طالما المسلمون أقوياء في الدفاع، وتوقفوا عن القرصنة، أليس الأفضل تقليدهم وفتح بلاد المجر والروس وتنصيرها؟ "

" لقد نصرنا ضفتي الراين لكسب سكانها إلى جانبنا، وها نحن ننصر بلاد الدنمارك في الشمال. لكننا نحتاج لرهبان ولأسس قوية ومثال جيد لنشر الدين بين أمم ترفض أن تكون أفضل من أسلافها. تقوية ذاتنا يجب أن يترافق مع الهجوم على المسلمين لاسترداد ما أخذوه من بيزنطة وروما والقوط. لاسترجاع ما ضاع منا عبر الحروب، يمكن أن نوحدهم ذاتنا ونشد أزر الدين ". النظرية إذا، بدل الاستفادة مما أنجزه المسلمون حضارياً ونشر المسيحية شرقاً وشمالاً، هي بناء القوة الخشنة لتدمير المسلمين الذين أوصلتهم حضارتهم للتنعم والاسترخاء. عدنا إلى الدير إذ توجب على الأب مايول كتابة رسائل لنحملها للأديرة والكنائس في طريقنا، ورسالة إلى بورشار الثاني في ليون بصدد صفقة الورق وتسهيل وصولها، وبالطبع قائمة الطلبات التي يريدها من الأندلس. وكان عليّ أيضاً الكتابة إلى كارل ووكيلنا في دانيه ووالدي في قرطبة.

دين وسياسة

انطلقت بنا ستة بغال في فجر اليوم التالي عائدين من الطريق ذاته إلى مركبنا. اتفقت مع جوبيه أن يصحبنا لؤي، فإذا عشر على مركب متجه جنوباً إلى ماسون وليون سيركبه، وإلا سيجاري الساون على البغل حتى ليون. راهبان سيواصلان الرحلة معنا لتوصيل رسائل لأديرة بعيدة عن المجرى المائي، وراهب ثالث سيعود بالبغال بعد إبحارنا. لم يثمر ركوبنا البغال في تعجيل مسيرتنا، ولكنه بالطبع تكريم لنا لم نفكر في رفضه. شرح جوبيه للؤي أهمية عودته بالرسائل، وكنت أحرك رأسي بالموافقة طوال الوقت وأعطيه إشارات بعيني. سلمت لؤي رزمة رسائلي وأمسكت بكلتا يديه ونظرت في عينيه بتأكيد وأسمعته جملة ركبتها سلفاً بلغته "هذه كلها إلى كارل فقط" أكد لي أنه استوعب الأمر وأعدت عليه التأكيد بالإشارات أنها لكارل فقط، وليست لقبطان المركب أو للجندي في ماسون أو بورشار في ليون. ولم يساورني شك أنه استوعب الموقف وخطورة اكتشاف الرسائل، وأهميتها أيضاً، وربما استنتج أن أخته هي التي ستجلب الورق وبقية البضاعة. في حزمة الرسائل خططت أيضاً ترجمة لطلبات مايول الأخرى. قبل العصر اقتربت عبّارة محملة بالخشب في طريقها إلى مرسليليا، جاورهم جوبيه بمركبنا وأقنعهم بأخذ لؤي إلى ليون.

"إذا حالفنا الحظ سننام بقية الليلة في ضيافة أسقف شالون" ذلك يعني التجديف وعدم الاعتماد فقط على الشراع، وتطوع أحد الراهبين لمساعدة المراكبي، وتعهد جوبيه بأخذ نصيبه على أمل تحقق ظنه بقضاء بقية الليل في شالون، لكننا وصلنا مع الفجر، ونزل أحد الراهبين قرب

الكنيسة وسلم الرسالة ثم عاد إلينا دون تأخير. لم أشاهد حراساً أو بشر، بعض الخنازير كانت تلتهم ما تيسر في القمامة المنتشرة في طرق طينية. في عصر اليوم أصبحت مدينة ديجون على يسارنا، ومع المغرب ودعنا راهب كان يقصد المدينة ونزل قرب تجمع سكاني متواضع هو الأقرب بين النهر والمدينة ويبعد مسيرة يوم عن ديجون. هرع بعض السكان للتبرك بالرهبان، وتطوعوا بمعلومة أن المطر كان شحيحاً وفرع الساون هذا منخفض المياه. الحل الجاهز لهذه المعضلة عند جوبيه هو اكترواء بغل يسير مع صاحبه بمحاذاةنا حتى لانجرس ليساعدنا إذا احتجنا لقوته. افتقدت بسرعة كيس لؤي السحري، ومنذ أن غادرنا ونحن نبخر بموازة المملكة الفرنجية الشرقية، أما بعد لنجرس فعلينا مغادرة مملكة لويس الخامس، الكاروليني الملقب بالكسول، إلى المملكة الشرقية الجرمانية، وربما احتجنا لنصف يوم إبحار مع النهر حتى يعود بنا للغربية. كلا المملكتين بالطبع وما بينهما من ممالك وإمارات، وما تحويانه من دوقيات ومدن مستقلة، كلها تقع تحت عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة، التي على قمته الآن الطفل أتو الثالث تحت حجابة أمه وجدته. والدة أتو الثالث تنتمي للعائلة المالكة في الإمبراطورية البيزنطية، وقد تقبل ملوكها أن تشملهم الإمبراطورية الرومانية المقدسة أيضاً، إذا تزوج أتو الثاني منهم، وإذا أصبحت ابنتهم إمبراطورة متوجة إلى جانب الإمبراطور، وهذا ما حصل بالفعل ولذلك تحكم ثيوبانو الآن بلقب إمبراطورة، بعد موت زوجها، وريثما ينضج ابنها أتو الثالث.

"فيم تفكر يا انطونيو؟"

"في أشياء كثيرة. أرى المركب أسهل حركة بعد أن خف الوزن، وأفكر في كيس لؤي السحري، ولا أخفيك أنني فكرت في والدة القيصر وأصولها. هل تعرف أنه لو لم يصمد البيزنطيون أمام الغزوات الإسلامية المتكررة أثناء القرن الإسلامي الأول، لكان مسلمو الأندلس التقوا هنا مع مسلمي الشرق، ولكان حال هذه البلاد كلها الآن أشبه بحال الأندلس؟"

"الحمد للرب أنهم صمدوا هناك، وأنكم صمدتم بيننا وبينهم، وتردونهم تدريجياً الآن إلى أفريقيا". يبدو أن موقف جوييه يشابه رؤية مايول وأنه من مشجعي الحروب والخسونة، ولم يخطر بباله أبداً أن حال نصارى الأندلس لا يقارن بحال النصارى هنا، لم أرغب في انتقاده، وجاريت موقفه.

"إننا ندفع ثمناً رهيباً كل سنة من غزوات المنصور الذي يدمر المدن ويحرق الزرع ويعود بالسبي إلى قرطبة ليعزز مكانته هناك". كان المركب ينساب ببطء ونحن نتجاذب أطراف الحديث باللاتينية.

"قدركم أن تصمدوا أمامهم ريثما نعزز قوانا ونتحرك صوبكم لنظردهم ونطاردهم حتى استرداد بيت المقدس".

"ضمن السائد هنا الآن من تعثر، فأنت تتحدث عن قرون من الزمن".

"لا تستهن بما ننجز، ولن ننتظر إلى ما لا نهاية لاستكمال الاستعداد، ولا تنس أنهم في تراجع دائم الآن. لقد أصابهم الرب بالقحط في بغداد وربوعها العام الماضي ومات آلاف منهم من قلة الطعام وارتفاع سعر المتوفر منه. ولا تنس الاقتتال فيما بينهم، وكيف أصبح حكامهم الآن أجانِب، وجيوشهم مرتزقة لا يفهمون لغتهم. في أقل من قرن سيكون بوسعنا إعلان الجهاد المقدس وتحقيق انتصارات".

"بمناسبة الحديث عن اللغة، لاحظت أن أهل جنوه تركوا اللاتينية، وأن ما يستعمل هنا يختلف عن جنوه والبروفانس ويتغير كلما اتجهنا شمالاً". فضلت تغيير مادة الحديث حتى لا يذكرني بالمنصور والخلافات الإسلامية، وحتى لا يُسهى عليّ وأقع في خطأ فاضح.

"ملاحظة صحيحة، في مرسيلىا يسود خليط لغوي يغلب عليه اليونانية من كثرة المهاجرين فيها. البرغنديه البروفانسيه تختلف عن غيرها، وفي المملكة الفرنجية الغربية تختلط الآن اللاتينية بأنواعها مع الكلتيه وبعض من الجرمانية وتشكل سوياً لغة إفرنجية جديدة تستعمل بمزيد من التوسع منذ بداية القرن، وأخذنا نكتب بها حديثاً".

"إنها إذاً عامل توحيد للتشردم اللغوي، وماذا عن المملكة الشرقية؟"

"تسودها في الوسط الجرمانية بتشعبات كثيرة، ولغات متعددة في الشمال والشرق. لكن لاتينيتك تؤهلك للتنقل إذا وجدت رهباناً يساعدونك".

"يبدو أنك لا تشجع على الترحال في تلك البلاد" لم يُجب بل ضحكنا. إستأذنت للنوم، وقال جوبيه إنه سيفعل مثلي، وأخبر الراهب والمراكبي أننا سنتسلم القيادة منهما بعد منتصف الليل، وتنبأ أننا سنبيت الليلة القادمة في لانجرس. تسلمنا مهمة التجديف بعد نوم عميق، وحرصنا على عدم التحدث لينال الآخرا ن قسطاً من النوم حتى الصباح حيث أشعلت، بصعوبة، ناراً على ضفة النهر للحصول على إفطار من الخبز المسخن بعد أن وضعت شرائح جبنة بين شريحتي خبز مما زدنا به رهبان الدير. وكان المراكبي قد حمل معه من ليون وعاء طبخ وأكواباً حديدية، فرأيت غلي الماء ومعه نعنع جاف حملته معي من صقلية.

"أهل صقلية يشربونه مع السكر الذي يصنعونه من القصب، ولكنه مقبول للشرب بدون سكر أيضاً" وافقني جوبيه الرأي بعد أن جربه، وأخبرته أنني شاهدت في الطريق إلى الدير نعنعاً برياً يمكن استعماله بهذا الشكل قبل أو بعد تجفيفه. قبل أن ننتهي من الطعام أدركنا البغل وصاحبه إذ سار ببطء في الليل. اقترحت على جوبيه أن نضع الأحمال على البغل، ونترك المراكبي لوحده في المركب ونسير بمحاذاته، فإذا ضحلت المياه رمينا إليه بالحبل المربوط بالبغل ليسحب المركب. أردت من ذلك تحريك جسدي، ولكن تحذير السكان من الليلة السابقة ثبتت صحته، ففي أقل من ساعة بدأت متاعب البغل والمراكبي لينسقا في السحب والتوجيه، ولم يكن بوسع البغل النزول في وسط المجرى، بينما تعذر على المراكبي استعمال الدفة ولجأ إلى عصا طويلة يدفعها في الأرض حفاظاً على بقاء المركب في المجرى.

"إذا جفت المياه أكثر، فربما الأفضل أن نحمل حاجياتنا ويحمل البغل المركب". طمأنني جوبيه بأن الوضع سيتغير بعد قليل إذ سيضيق المجرى المائي ويرتفع المنسوب فيه. هكذا واصلنا الرحلة، وكلما ارتفع منسوب الماء ليطفو المركب أرحنا البغل من السحب. غابت الشمس ونحن في منطقة شبه جافة فقررنا المبيت في العراء. أخرجنا المركب من الوادي وركزناه مقلوباً ليحمينا تحته من احتمال المطر، وفي الصباح وضعناه بالعرض على ظهر البغل وتناوب أربعتنا في إسناد طرفي المركب لمساعدة الدابة على الحمل والإسراع في المسير. تدريجياً غاب النهر عن الوجود وسرنا على يمين سلسلة جبلية متوسطة الارتفاع حتى العصر.

توقعات جوبيه هذه المرة خالفت أمانينا بليلة كاملة وثلاثي يوم، وحالفنا الحظ بعدم هطول أمطار، بل أطلت الشمس علينا أكثر مما حجبته غيوم خفيفة حتى ظهرت لانجرس أمامنا على سطح تلة. "إنها مدينه بيشوبيه منذ القرن الثالث، وأسقفها، برونو دوروسي، يشرف الآن على ديجون أيضاً." الانشراح في ملامح جوبيه كان كافياً لتأكيد أن ديجون ولانجرس تقعان ضمن تأثير دير كلوني. لقد ذكرتني المدينة من بعيد بقلاع الأندلس التي تحتل المرتفعات، أحيطت بسور حجري مرتفع، قدرت دورانه بثلاثة أميال. أنزلنا المركب في بحيرة على يمين التلة، وتركنا بقية الطعام عند المراكبي وصعدنا بحاجياتنا إلى المدينة عبر بوابة قديمة من بناء الرومان ولا زالت تحمل اسم بوابة النصر. هنا أيضاً تجاور المارة من البشر مع الخنازير والبط والأوز في شوارع طينية بها بلل، وتمنيت لو كان ذلك مطراً خص الله به لانجرس.

"أعتقد أنك ستقضي وقتاً في المحادثات هنا، وربما الأفضل أن تجد لي نزلاً لقضاء الليلة فيه، وسنلتقي صباحاً في المركب، إذا ناسبك ذلك". فهم جوبيه من كلامي أنني لا أريد الاطلاع على شؤونه، وفي الواقع تخوفت أن يشركني في أحاديثه بعدما لاحظ احترام مايول لي، لذلك رأيت الابتعاد كما أنني تشوقت لأكل اللحوم وللإغتسال وللنوم في غرفة خاصة بي، وهذا ما لن أجده في منامتهم، ووجدته في نزل يواجه

الكاتدرائية مقابل اثنين من عملة البني الفضية الكارولينية. كنت سأدفع بني ثالثاً لو وافقت على عرض صاحب النزول أن تشاركني السير إحدى الشابات العاملات هناك.

في الفجر التقيت مع المراكبي واسترجعت خبرتي التي جمعتها في شذونه عند أخوالي، واصطدت خمس سمكات كبيرات أفرطنا على اثنتين وشويت بقيتها أيضاً لتناولها عصراً. كان النهر قرب لانجرس يتجمع في منطقة منخفضة ويشكل بحيرة يواصل النهر جريانه عبرها، وقد اختلف السمك هنا نوعاً وحجماً عما كان في النهر. عاد جوبيه إلينا مع راهب آخر يريد الوصول معنا إلى شالون ليواصل منها السفر على قدميه لأكثر من يومين إلى فردون الواقعة في لوترجن ضمن المملكة الشرقية، وقد تولى أمر التحدث مع الجابي على النهر عندما دخلنا إلى المملكة الشرقية وأراحنا من الدفع والسؤال عما نحمل، وأرحناه من التجديف في نهر مارنيه طوال الأيام الأربعة حتى وصلنا إلى شالون. كان الرجل في حدود الخمسين من عمره، لطيف العشرة وكثير الحديث ويبدو أنه قرر إرضاء تطفلي في التعرف على مجريات التاريخ. بعد تبسيط وتكرار وتفريق بين الملوك متشابهي الأسماء خرجت منه بروايات تبدو للوهلة الأولى أغرب من الخيال وأبعد من التصديق، ولكن عند التأمل فيها تجد أن مثلها تكرر في كل البلاد.

شارل، أو كارل، الأعظم، أسس الإمبراطورية الكارولينية التي تمددت من حدود الأندلس الشمالية حتى روما جنوباً وسلوفاكيا شرقاً والبحر شمالاً. تورث هذه الإمبراطورية ابنه لودفيج الذي تأثر بالكنيسة وتلقب بالموثمن. لودفيج هذا قسم الإمبراطورية بين أولاده الثلاثة، بين ولوثر ولودفيج الملقب بالألماني، وعندما أراد الأب اقتطاع أجزاء من الأقسام الثلاثة ليصنع جزءاً رابعاً لابن كارل، الأصلع، رفض الإخوة الأمر لأن كارل من أم غير مهم، وثاروا على والدهم مرتين في أعوام 830 و833. الابن لوثر كان قد توج قيصرًا مع أبيه قبل ذلك في ريمس، حتى يرث الإشراف الأعلى على أقسام الإمبراطورية الثلاثة،

وقبل الاختلاف مع أبيه شنّ حروباً حول روما ووسع منطقتة الوسطى وفاز بتأييد ودعم البابا آنذاك. شعر لوثر بالقوة وبتأييد البابوية فعزل والده من الحكم، وهنا خاف أخواه من تسلطه عليهما أيضاً وضم منطقتيهما، فانضموا للوالد وأعاداه سويًا للكرسي القيصري. عندما مات الأخ بين بدا أن المشكلة انتهت إذ حصل كارل على قسم ببن وهي غرب الإمبراطورية، لكن بعد موت والدهم تحالف كارل في الغرب ولودفيج في الشرق وهاجما أخاهم لوثر في المنطقة الوسطى التي تضم من روما وكل حوض الرون الذي أبحرنا فيه حتى بلاد الدنمرقه شمالاً. بعد ثلاث سنوات حروب عقد الإخوة اتفاقاً للصلح في فردون عام 843 وتقبلوا تقسيم إمبراطورية والدهم لثلاثة أقسام. كلما مات أحد الإخوة كان إقليمه يوزع على أولاده، وأصبح هناك في القسم الشرقي بفاريا وماين فرانكن، وتورنجن، وساكسن، والمانيين. في القسم الأوسط وجدت برغندي السفلى وأختها العليا وضمت بقية المناطق للشرق والغرب، وبالطبع ولدت منطقة جبل القلال شرق جنوب برغندي، كما تشكلت ممالك جنوب وشمال حول روما.

ضاع ميراث كارل الأعظم ولم يبق من أحفاده الآن سوى لويس الخامس ملكاً في الشطر الغربي، وهو الملقب بالكسول لأنه تراخى عن الاشتراك في الحرب ضد المسلمين في صقلية مع أتو الثاني وشركائه الملوك ورجال الكنيسة. أما عائلة أتو فأصولها من القسم الشرقي وارتفع شأنها بعد موت ملك برغندي إذ حاول أحد النبلاء المحليين الزواج عنوة من ادلهات زوجة الملك المتوفى، فاستنجدت باتو الأول الذي أنجدها وتزوجها ووقعت بلادها تحت طاعته. وفي مقابل الخدمات التي قدمها للبابوية، تم تنصيب أتو الأول قيصرًا للإمبراطورية الرومانية المقدسة ضمن حدود إمبراطورية كارل الأعظم، ولكن بالطبع دون ضمان طاعة كل الممالك في المنطقة. وكما نعرف، زوج أتو ابنه أتو الثاني أميرة بيزنطية توجت مع ولده قيصرًا في مقابل تقبل الإمبراطورية البيزنطية للدخول الحر ضمن إمبراطورية أتو. الجديد الآن أن بلاد السلاف التي

احتلها أتو قبل ثلاثين سنة ووكل حكمها إلى رهبان ماينز لينصروهم تمهيداً للانضمام للإمبراطورية، ثارت ضد التنصير والإمبراطورية بعد فشل أتو الثاني وهزيمته أمام عرب صقلية، وفقدت السيطرة الآن على تلك البلاد.

بعض التعليقات التي خطرت ببالي أثناء الاستماع والنقاش في تلك الروايات قولي "إن هذه الصراعات بين الإخوة تكررت لدى ملوكنا في الشمال الايبيري، ولم تنته بعد، بل وصلت الأمور لدرجة احتكامهم للخلفاء الناصر وابنه الحكم في قرطبة، وتحالف بعضهم مع المسلمين ضد بعض". وعلق جوييه أيضاً بالقول:

"ما يفعله المنصور بالأمويين أسياده يشابه أفعال الإخوة ببعضهم، وما يفعله الإخوة والأبناء ببعضهم الآن في بغداد وبلاد المسلمين الأخرى، أفحش، والحمد لله، مما حصل عندنا في الماضي". أما راوينا الراهب فكان يرد على مثل هذه التعليقات فلسفياً، "للكرسي إغراءاته ولذاته غالية الثمن".

في واقع الحال كل هؤلاء يحاولون تقليد الوضع الخلافي في الإسلام، أي توحيد السلطة الدينية والديوية في شخص واحد، كما هي في يد الخليفة لدى المسلمين. أتو والكنيسة سعوا للتقرب من بعضهم، وكل يريد الاستفادة من سلطات الآخر. الكنيسة تريد سيفه للتنصير وللحماية، وهو يريد تأييدها لفرض هيمنته على كل بلاد النصرى. ضمن هذا السياق نشط مايول هو الآخر لدفع أتو الأول والثاني للحروب، وجلب لهما دعم الأمراء والنبلاء في المعارك، ويحافظ على علاقات مميزة مع كل العائلات المالكة، ويسعى لإنقاذ الدين مما حلّ به. حتى في قضية التنصير فهم يحاولون تقليد المسلمين الذين فتحوا البلاد بالغزو، ويسعون بالتالي لفرض المسيحية على شعوب الشمال والشرق بالقوة. هذا طبعاً تقليد سطحي للمسلمين، الذين تركوا الخيار في الدين حراً لأهل البلاد المفتوحة، تبني الإسلام ونيل المساواة، أو الاحتفاظ بديانتهم ودفع الجزية مقابل تأمين الحماية. في بلاد الإمبراطورية المقدسة

راوي قرطبة

لا تقبل سوى للنصرانية، بل هناك خلافات بين الكاثوليكية في منطقة إرث كارل الأعظم، وبين الأرثوذكسية السائدة في بيزنطة. في المدينة الواحدة، أو البلد الواحد لا تقبل لديانات أخرى، ناهيك طبعاً عن تجاوز يهود ومسلمين ونصارى في شارع واحد.

جربير مجدداً

في شالون وجدنا أنفسنا أمام خيار ركوب دواب إلى ريمس، أو مواصلة الإبحار بقية اليوم ومعظم الليل حتى الوصول إلى قرية على النهر قريبة من ريمس. أخذنا بالخيار الثاني. الحقيقة أن جوبيه وأنا لم نرغب في قضاء وقت في شالون الآن إذ سيكون بوسع كل منا زيارتها في أي يوم لاحقاً، أو بالطبع في طريق العودة. كل من المدينتين كانت إقطاعية دينية مستقلة ذاتياً في الإدارة. ريمس تتوسط الحدود لإدارة ذاتية امتدت بين نهريين تفصل بينهما مسيرة يومين، وعرض المنطقة أشبه بطولها، وهي هدية من لودفيج الرابع في عام 940 إلى كبير أساقفة ريمس آنذاك، ارتالدوس. كنت على الدوام مستعداً لمواجهة الأخطار، ألبس قميصي الحديدي وسيفي على خاصرتي وقوسي ورماحي قرية المنال، ولكننا لم نواجه طوال رحلتنا أي لصوص في النهر أو على الأرض، حتى الحيوانات المتوحشة التي كثر الحديث عنها في المدن تركتنا وحالنا، وشاهدت بضعة وعول وغزلان أثناء الإبحار. السماء أيضاً رحمتنا من البلل حتى يومنا الأخير في المسير وسط الغابات، إذ فتحت أبواب الغيث لتعوض الأيام الخوالي لهذا الربيع. في البداية حجبت الأشجار عنا المطر، وبعد وهلة قصيرة بدا وكأن قنوات متشابكة فتحت علينا. ربطت حاجياتي حول وسطي، والكتب وبقية الأوراق القليلة تحت ملابسي، واتخذت من أفرع أشجارٍ قطعتها مظلةً عريضة فوق رأسي أنفض الماء منها بين حين وآخر، ثم أسرعنا الخطى، وكان ثلاثتنا أشداء البنية. تمنيت لو أحضر المراكبي بعض أواني الطبخ لاستعمالها في حماية الكتب على الأقل، ولكننا تركناها مع المركب كأمانة عند كبير سكان

راوي قرطبة

القرية ريشما نعود أو نقرر ماذا سنفعل. حمدت الله أن قنوات وأنهاراً لم تعترض طريقنا، ولو كنا عرفنا بقدوم مثل هذه الأمطار لمكثنا وهلة في شالون نسلك بعدها بالمركب قناة صغيرة تربط النهر بريمس، ولكن قدرنا أن نتبلل وتحجب الشمس عنا ونسرع الخطى دون توقف حتى الاحتماء في بوابة السور الجنوبية ريشما رشح بعض الماء عنا.
"لي عندك أمينتان".

"تفضل وأخبرني بهما، واعلم أنني لا أملك قدرة وقف المطر".
قال جوييه دون أن يفقد بعض دعابته.

"المطر في النهاية خير وبركة وضروري وأمل تواصله الآن بعد وصولنا بسلام. أميني الأولى أن نعثر على ماء ساخن للاغتسال والنجاة من أمراض الصدر، والأمنية الثانية ألا نقابل جريير قبل ترتيب هندامنا والرجاء ألا تخبره بحضوري، أريد أن يراني كمفاجأة ودون إنذار".
وافقني جوييه على ذلك وركضنا إلى مبنى قريب من الكاتدرائية يقطنه الرهبان.

في صباح اليوم السابع منذ مغادرة دانيه، وقفت مع جوييه أمام غرفة في مدرسة الكاتدرائية، قال إن بداخلها صديقي جريير، مدير المدرسة وسكرتير كبير الأساقفة. تعمدت اختيار لباسي من اللون الأبيض ليشبه لباس طلاب جامع قرطبة، وضغطت تحت إبطي عمة حتى لا ينتبه جوييه لماهيتها. رد صوته من الداخل على طرق الباب إذناً بالدخول، فاستأذنت من جوييه حتى لا ينسى وعده ويدخل معي، وفتحت الباب متفحصاً في الغرفة فوجدته لوحده وتعرفت عليه بسهولة. كان لازال شاباً في أواسط عقده الرابع ومحتفظاً بملامحه من أوائل عقده الثالث. أغلقت الباب خلفي وتقدمت إليه وأنا أضع العمة على رأسي وخاطبته بالعربية:
"السلام عليكم".

"وعليكم السلام ورحمة الله". قالها بالعربية الفصحى ووقف ليصافحني، أو ليحترس مني، فلم يكن قد تعرف عليّ بعد. "يبدو أنك عربي ولست من متعلمي العربية، تفضل بالجلوس".

"صدق حدسك، لكنني الآن انطونيو البرشلوني، ويفترض أن تعرفني باسم آخر، من أيام شبابك وطفولتي". جلست أثناء الحديث ونزعت العمامة خوفاً من دخول أحد فيتعقد الموقف. لاحظت الحيرة في وجهه ولكنه لم يتضايق من عدم التعريف الفوري عن نفسي وبدا أنه يحاول التذكر، فأضفت: "جمعتنا، رغم فارق السن، عدة مفارقات. تعلمنا في مكان واحد، واشتركنا في الشيوخ وإن لم يكن في الوقت ذاته، وأصداؤنا على مستوى الملوك".

"سليمان القرطبي". قالها ووقف فتصافحنا مجدداً وتبادلنا قبلات على الخدود، ولم أكن سمعت أحداً من قبل يلقبني بالقرطبي، ولوهلة بدا اسم سليمان ذاته غريباً. شرحت له الموقف بإيجاز بداية من موت جدي، رحمه الله، وشوقي للسفر وزيارته، والملابس التي تلت بسبب البطارقة الأسرى ونتائجها. ترحم جربير على جدي، وتذكر بعض فضائله، وقال إنه لولا عناية الله وملابس قضية البطارقة لما وصلت هنا سالمًا. اتفقنا على الاحتفاظ بهذه الصفة، وادعى لو أنه الذي عمدني، لاختار لي اسماً آخر. كان يتحدث وينظر لي متفحصاً ومستغرباً نموي السريع، وأحياناً يقطع حديثه ليعود ويرحب بي، وعندما استأذن جوبيه بالدخول شكره على عنايته ومرافقته لي، فأثنى جوبيه بأني الذي رعيت في الطريق وقصرت عليه المسافة بالأحاديث الشيقة.

"أنطونيو، أمل أن تقيم معنا فترة طويلة، سأخصص لك غرفة مستقلة للسكن في المدرسة، ومهمتك الأولى أن تدرس وتجرب إعادة تشغيل الحمامات الرومانية الساخنة الموجودة تحت الكاتدرائية". ضحك جربير وهو يتابع ملامح وجهي أثناء استماعي لطلبه، كان متأكدًا أنني سأنفذ، ويعرف أنني أفقد الحمامات.

"بمساعدة الرب سنجرب كيف كان الرومان يتحممون في أقرب فرصه ممكنة، سأحدد لكم المدة بعد معاينة المكان". انتقلنا بعد ذلك للحديث عن الرحلة وسلمته رسالة من البطارقة ليحملها إلى بلاط القيصر. أخبرته أن البابا مريض جداً، وأوجزت له التجربة في جنوه

والقرصنة في الطريق، ثم تحدث جوييه عن بقية الرحلة وأراحني بالإبلاغ أن مايول صادر الأوراق البيضاء التي حملتها له.

"لكنه بالطبع لم يأخذ الكتب التي حملها انطونيوي، كما أن ما في رأسه أثمن بكثير مما في جعبته". إستغرب جوييه قليلاً من كلام جريير عن الكتب، وتشكك فيما لو كنت أعلمته بحمل هديه من الكتب أو أن جريير يعرف الغيب. بالطبع كان جريير متأكداً أنني سأحمل إليه كتباً كوني أرسلت إليه بعضها مع جارنا اليهودي عندما حملته تجارته إلى هنا منذ زمن. الغرفة امتلأت برفوف الكتب التي تكوّم بعضها أيضاً على مكتب جريير وطاولة أخرى مرتكزة على جدار تحت النافذة. كتب بمواضيع شتى وبلغات متعددة منها اللاتينية والعربية واليونانية والكتالونية وغيرها مما لم أتعرف عليه فوراً ولم أتطفل بالسؤال. إضافة للكتب رأيت خرائط للبلدان مرسومة بألوان على كرات خشبية، وتظهر البحار والأنهر والحدود على اليابسة. قلت لنفسني إذا كانت هذه مواد تدريس للطلاب في كتدرائية، فسيكون القوم هنا قد سبقونا في حرية العلم، وودت إبلاغ جريير بما حصل للكتاب الذي تحدث عن كروية الأرض، لكنني فضلت السكوت بوجود جوييه.

"هل انتهيت من مشروع استعمال الأرقام العربية؟"

"انتهيت من الكتابة به وضبطه من كل جوانبه لتحل الأرقام الجديدة بدل القديمة، وشرحت كثيراً أهميه الصفر، لكننا لازلنا في بداية نشر الفكرة، واستبدال الأرقام".

"ظننت أن قلة المتعلمين والمدارس يساعد في سرعة الانتشار".

"الأمر يحتاج لتعود أكثر مما يحتاج لتوضيح. الأرقام الرومانية يسهل تعدادها رغم طولها وتعقيدات الجمع والطرح فيها، لكن الرقم العربي يحتاج ممن يتعلمه إحصاء الزوايا، وسيضطر لتعدادها حتى يرتبط شكل الرقم في ذهنه بما يعنيه، وبعدها يسهل استعماله. بعض الطلاب يستوعب أهمية الصفر ويسهل عليه استعماله بسرعة، وبعضهم أنهى التعليم وغادر من دون الاقتناع بضرورة الصفر".

"عندما تنتشر الحاجة لاستعمال الحساب وعلوم الجبر سيرى الجميع ضرورة الصفر والرقم العربي، تعلم الشيء نظرياً بعيداً عن الحاجة إليه واستعماله صعب جداً، ولهذا تنتشر علوم الفلسفة والطب والفلك أكثر من الحساب والجبر".

عرفت لاحقاً أن جربير يشرك الطلاب في تجاربه ليربطهم بمواد التدريس. في العام الماضي أجرى تجربة داخل الكاتدرائية وأشرك فيها أربعة وستين من الطلاب، كلاً منهم يحمل عصا ويحرك اسطوانة خشبية حسب تعليمات يصدرها لهم من موقعه العالي على كرسي الأرغن المشرف على الأرضية، وذلك بعد أن رسم عليها خطوط كل منها يخص مجموعة من الاسطوانات. كانت التجربة تمثل آلة العدّ الصينية الصغيرة ذات الكرات التسعة، ولكنه سعى هنا إلى حساب أرقام ضخمة لم يسبقه إليها أحد، وبالطبع أراد شدّ اهتمام الطلاب للحساب. كان ذلك بعد عودته من دير بوبيو القريب من جنوه في العام الماضي بعد موت صديقه وتلميذه السابق القيصر أتو الثاني. حاول تخليص الدير والمنطقة التابعة له من المبيقات ولكنه يئس بعد موت أتو، وأرسل إليه كبير أساقفة ريمس عرضاً ليعود إلى مدرستها كمدير هذه المرة وسكرتير للأسقف ادلبيرو، وليس فقط معلماً كما كان قبل تسلم موقعه كأب لدير بوبيو.

حرصنا بسرعة على ترتيب لقاءات لوجدنا أكثر من مرة يوماً نتبادل فيها الآراء والأفكار وحل بعض المعضلات الميكانيكية التي تواجهه. سألته ذات مرة عن سبب عودته من الدير الغني بدخله وأرضه إلى التدريس هنا فأسمعني ما عزز ظنوني بأنه رجل علم وفكر وسياسة أكثر مما هو رجل دين، ولا جلد له في إصلاح العقول المتحجرة والقلوب المتجمدة. قال دون تردد: "التعامل مع الرومان من أسوأ ما يخطر على بال، خداع وكذب وتدجيل وتجارة باسم الدين وتدليس لبيوت الله".

"ألا يخافون من عقاب الجحيم بعد خمسة عشر عاماً؟" سبب سؤالي هذا هو سماعي بعض طلاب المدرسة يتحدثون عن إعلان قديم

راوي قرطبة

لمجلس كنسي بأن نهاية العالم ستكون مع نهاية هذه الألفية، وهذا ما ذكرني بمجنون قرطبة الذي كان يصرخ في الليل، تُولف ولا تُولفان.

"ليتهم صدقوا تلك المقولة، على الأقل كانوا سيخشون الله ويكفوا عن المنكر والفحشاء، وربما زادت هبات الأغنياء للكنيسة. الميسورون والنبلاء هم سبب الداء. سيواصلون الإثم، لو كانوا صدقوا الأمر لتعبدوا في هذه السنوات الباقية. هل انتشرت القصة في قرطبة أيضاً؟"

"معروفة عندنا نعم، يصرخ بها مجانين في الليل بعد الزوابع والزلازل. لكن أبي يقول إن ألفتنا لا زالت بعيدة، وفسر الأمر لي وأنا طفل أنهم يدعون أنها تُولف ولا تصل لعام ألفين. أي أماننا أكثر من ألف عام أخرى". ضحكنا إثر ذلك وسألني عن أبي فأخبرته بتوسع صناعة الورق والأقلام والحبر ونسخ الكتب وتوزيعها، فأشرق وجهه وهنأني على هذه المهنة، فأضفت بأني عقدت صفقات مستقبلية مع الأساقفة وأكبرها صفقة كلوني التي تعدت الورق إلى قائمة مواد أخرى منها كتب مترجمة عن العربية وحرير لتغطية مقام السيدة العذراء.

"الاستفادة من توزيع ونشر العلم يا سليمان، أصلح في الدنيا والآخرة من مكاسب الحروب أو السكوت على تعميم الجهل". وافقته على هذه الحكمة وتذكرت حديثنا قبل ذلك حول رغبته في تطوير أرغن آلي.

"ذات مرة صحبت قواتنا العائدة من أفريقيا في الطريق بين شذونة وقرطبة. تحدثت مع أحد قادة الفصائل في شأن الطواحين المائية فدلني على مقاتل شاهد ماكنة في إحدى مدن أذربيجان، طورها عالم مسلم هناك ولا تحتاج لنهر جاري". اشتد اهتمام جريير وأعرب عن أمله ألا يكون الرجل مبالغاً في الوصف فيوصلنا للنهر ونرجع عطشى. شرحت له بتفصيل فائض التركيب من طاحونتين بحجرين لكل منهما ريشتان، بينما الماء في قبو مرتفع ومرتبط بأنابيب من كل طاحونة. عندما يهبط الماء في الأنبوب على الريشة تدار الطاحونة بينما ينضغط الماء لأعلى ليصب على الريش الأخرى، فيبقى الماء ذاته لا ينقص والطاحونة لا تتوقف.

كنا نبحث عن أسلوب يساعد جربير في اختراع أرغن موسيقي يعزف بدون نفخ من أرجل عازفه. لا أدري إذا كانت فكرتي قد ساعدته، لكنه قال بعد أيام إنه سيجرب البخار وليس الماء في تشغيل الأرغن. كان هدفه تطوير جهاز كبير تصدح أنغامه لمسافة خارج الكنائس، ومثل هذا الجهاز تعجز أرجل العازف عن توفير الهواء له. تصورت الأرغن والبخار ينطلق من جنباته وقلت ونحن نضحك: "على الأقل سنزيل خوف القوم من حمامات البخار"، فرد فوراً: "أو نعاظم خوفهم إذا حدثت وانفجرت إسطوانة".

عزم جوبيه على مغادرتنا لإكمال رحلته إلى ميو وباريس وشارتر، فاعتذرت عن مرافقته واتفقنا على اللقاء عند عودته. سألته أمام جربير إذا كان سيذهب بالمركب أو على دابة، وعندما تردد في حسم أمره طلب جربير من أحد معاونيه إحضار رسالة قديمة كان قد بعث بها أحد الطلاب الذين سلكوا هذا الطريق على دابة. مما جاء في الرسالة أن الطالب، ريكور، خرج مع رسول حضر من شارتر ليأخذه، فركبا حصانين وخرج معهما من ريمس خادم على بغل. في المساء وصلوا اوريس فأكلوا وناموا في ضيافة رهبان الكنيسة. في اليوم التالي خرجوا إلى ميو، لكنهم ضاعوا في الغابة. مات البغل وتعقد الموقف من شدة الخوف إذ هطلت عليهم أمطار غزيرة وغابت الشمس. قرروا ترك الخادم مع الحاجيات في الغابة وركب الإثنان على خيلهما إلى ميو فوصلا بعد الظلام بكثير. جسر المدينة كان مليئاً بالثغرات فخافوا السقوط في النهر، بحثوا عن مركب ولم يوفقوا فأخذ الدليل يتحسس الثغرات وهو يتحرك على ركبته، ثم عاد وقاد الحصانين بصعوبة وكان يستعمل درعه لتغطية الثغرات في الجسر واستعان أيضاً ببعض الخشب الذي عثر عليه. في كنيسة سان فارو كان الرهبان يحتفلون ويتناولون شراب الحب، مكث ريكور ليلته عند الرهبان وعاد الدليل بالحصانين لإحضار الخادم والحاجيات. وصل متأخراً فناموا في الطريق عند فلاح لم يطعمهم أي شيء. قبل إكمال القصة قرر جوبيه أنه سيبحر في النهر إلى باريس والثالث الأخير من الرحلة على دابة إلى شارتر.

سرت معه لمدة نصف ساعة خارج المدينة لأودعه والمراكبي ورفيق جديد انتهز الفرصة لمصاحبتهم. خطر لي سؤال جويبه عن إمكانية البحث عن زبائن لبضاعتي من ورق وأحبار وأقلام وكتب، أو ما خف وزنه وارتفع ثمنه من بضائع برشلونه والأندلس وصقلية. "سيصعب على من ترسلهم أن يوصلوا البضائع ويضمنوا قبض الثمن، وربما سرقهم قطاع الطرق. كلوني وريمس ستأخذ كل ما ترسله، وبالطبع يمكنني أن أوزع لك الباقي بعد دفع ثمنه في ليون وإراحة وكلائك من عناء السفر".

"هذا بالفعل أفضل، إذاً تفحص ما يمكن لمعارفك الاستفادة منه وستفاهم في التفاصيل أثناء رحله العودة". بالطبع من الأسهل لتجارتني أن تنتهي في ليون طرف جويبه، وعليه إيصال حاجة كلوني ومدرسه جريير والتصرف في بقية الطلبية كما يريد، ولكن بعد دفع الثمن سلفاً في ليون. ودعتهم وعدت أدراجي إلى ريمس التي أصبحت أعرفها بشكل حسن بعد عشرة أيام من الإقامة فيها. ربما كانت أقدم من عهد الرومان، ولكن هم الذين صنعوا أول سور لها من الخشب والتراب. سورها الآن حجري وروماني أيضاً، ولكن من مرحلة متأخرة، ويبدو أن أصحابها لم يتوقعوا الهجوم عليها إذ وافق الملك لويس المؤمن، ابن ووريث كارل الأعظم، على طلب كبير أساقفة ريمس الأسبق، ايوب، باستعمال حجارة السور لبناء كتدرائية جديدة. حتى الآن لم يتم ترميم السور، ولكن منذ عام 816 توج ملوك الإفرنج هنا في كتدرائية ريمس. هذه الخصوصية ميزت المدينة عن غيرها، وبالطبع كونها مركز إقطاعية دينية بإدارة مستقلة منحها مداخيل مالية جيدة، وسهل تنظيم الحياة فيها. أخرجوا تربية الحيوانات من المدينة إلى الريف المحيط، ونشطوا استعمال سوقها الروماني بمحلات نظيفة متلاصقة تشكل دائرة واسعة إلى جانبها ساحة مظلمة ذات أرضية بلاط وتستعمل للاجتماعات والاحتفالات، وبذلك تشبه ريمس الكثير من المدن الرومانية عبر الأرض. بناء الكاتدرائية اختلف عن أبنية الرومان، فهي من طابقيين ولها باب واسع على شكل قوس، وعلى طرفيه قوسان أقل ارتفاعاً، وفوق الأقواس في الطابق

الثاني ثلاثة أخرى ولكنها نوافذ يعلوها في الوسط نافذة مستديرة. الجزء الخلفي للكاتدرائية، حيث توجد المدرسة، أقيم فوق الحمام الروماني.

الرموز الأهم في المدينة الآن ليست أبنية وآثاراً، ولكن جريبر ومدرسته، وكبير الأساقفة ادلييرو. بفضلهم تحولت ريمس إلى ملتقى العلماء والمفكرين الإفرنجيين، ومصنع للعلماء والفلاسفة. يبدو لي أيضاً مما أسمعته في المجادلات والآراء السياسية أن كلاً من جريبر ورئيسه لديهما موقف مشابه لمايول إذ لا يجذبون تواصل السلالة الكارولينية في حكم المملكة الغربية، ويميلون إلى سلالة أتو، ويدعمون أمراء وقادة الشق الغربي مثل هيو كأبيه البورغندي. لم يتوافق أن اجتمعت للآن مع كبير الأساقفة هنا، لكن ما ينقل عنه في النقاشات لا يقبل لتأويل فهو أيضاً ينبذ سياسة لويس الخامس ولا يسميه إلا بالكسول. حرية الحديث في السياسة هنا، سواء في المدرسة أو خارجها، يذكرني بالمناخ السائد في جامع ومدينة قرطبة أثناء مرحلة نهب المنصور للسلطة من الأمويين. لا أرى منصوراً في ريمس الآن، ولكن كل شيء يشير إلى جهود لإنهاء سلطة الكارولنجيين.

كان في المدرسة خمس غرف للدراسة كل منها مخصصة لإحدى مواد التعليم، رياضيات وموسيقى، وهما من اختصاص المدير، وعلم منطق وفلسفة، الكهنوتية وعلوم الدين، والشعر والأدب اليوناني والروماني. بالطبع شؤون السياسة الحالية تندمج مع أي من هذه المواد، وأشارك في بعض الفصول التي تستعمل اللاتينية، ولا أتخلف عن اللقاءات التي كانت تضم كل الطلاب، الأقل من مائة، ومعلميهم، ويشترك في اللقاءات بعض الرهبان بشكل غير منظم.

في لقاء مصغر حدث بالصدفة وحضره جريبر وثلاثة من المعلمين وبعض الطلاب، طرحت سؤالاً سياسياً لم يتشكك أحد من الحضور في مبرراته كوني غريب عن بلدهم وأنشد المعرفة. "إذا افترضنا أن كل، أو معظم ما ترجونه من إصلاح للكنيسة والبابوية والحكم الملكي أو القيصري، قد تحقق غداً، فما هو أسلوب الحكم الذي ترغبون فيه؟ ما

هو الدور المطلوب من البابا والأسقفيات والملك والأمراء؟" صمت الجميع لوهلة من دون إعطاء إجابات فواصلت "أسألکم ذلك لأن الوضع في ممالكنا منظم بين الملك والكنيسة، والوضع لدى جيراننا المسلمين مختلف ولكنه منظم هو الآخر، فكل السلطات الدينية والسياسية في يد الخليفة ولكن مع وجود قضاء يطبق على الجميع حسب شرائع معروفة".

"الحال في الأندلس بشقيها المسلم والمسيحي يختلف عن بلاد الغال وما خلفها من الأراضي في الشمال والشرق. في منطقتنا الغربية هنا، وفي كل البقاع المسيحية المجاورة تشوه استعمال الدين منذ القدم. في البداية حورب الدين من الحكام، ثم تحور ليناسب معتقدات أقدم، ثم استُغل ليخدم التحكم في الناس ونهجت الكنائس أحياناً نفس الطريق. الملوك لم يرتابوا في قدرتهم على ابتياع مواقع في السماء، فأفسدوا في الأرض وخالفوا الأخلاق وعددوا الزوجات ومارسوا الزنا والفحشاء وقتلوا الخصوم، ثم وهبوا الأسقفيات الأراضي والأموال كدليل على التوبة". ساد الصمت وبدا أن جريير عازم على إلقاء محاضرة موجزة في تطور العلاقات السياسية والكنسية. أضاف: "علينا تذكر أن القراءة والكتابة لازالت محصورة في رجال الدين، وهذا على عكس الوضع في بلاد المسلمين حيث غالبية الناس يجيدون القراءة والكتابة ويكثر أهل الاختصاص. رجال الدين هنا هم الذين عمروا الأراضي وأقاموا الجسور، واليهم احتكم الناس في شؤون الدين والدنيا، وهم الذين حموا اليتامى والأرامل وحرروا العبيد. بالطبع قلة منهم انغمست في الرذيلة تماشياً مع الحكام والملوك الذين لم يهتموا بأحوال الناس والبلاد. هكذا تكونت العلاقة بين الكنيسة والحكم، أما صراع وتنافس، أو استغلال وإساءة. هذا الحال لم يتواصل في الستمائة سنة الأولى فقط، ولكن تواصل الفساد بسبب غزوات وقرصنة تلت، ولم يتحسن كثيراً للآن رغم مساعي المخلصين. لو تحققت الأماني غداً لرغبنا في وجود رقابة دينية على حكم عادل، وبالطبع كنا سنواصل نشر الدين بين

الأمم الجاهلة الكثيرة. لأن الفرضية التي بنيت عليها سؤالك من الصعب أن تتحقق في القريب، فهدفنا الآن هو الإصلاح المتوازي لرجال الدين ولرجال الحكم ليستفيد عامه الناس من النتائج".

"إذا أردت المقارنة بين نظام الحكم الإسلامي ونظامنا، فلكل محاسنه ومثالبه. تجد بعض مناطقهم الآن بعد أقل من أربعمئة سنة، أتعس من بعض مناطقنا التي وجدت بها المسيحية لأكثر من ضعف تلك المدة" كان هذا المتحدث هو مدرس الفلسفة، وأضاف: "الحاكم يمكن له التفرد إذا كان عالماً حكيماً مطبوعاً على العدل والرحمة، وشجاعاً مغواراً حاسماً. بدون معظم هذه الصفات مجتمعة يسهل تحول الحاكم المتفرد إلى غاشم متسلط إرهابي، خصوصاً إذا لم تكن هناك مؤسسة دينية أخلاقية تعترض عليه وتنتقده وتقومه. هذه إحدى الفوارق بين نظام المسلمين ونظامنا. اختلاف جوهري آخر يتمثل في نظام الميراث للحكم. ابن الحاكم ومهما كانت صفاته لديه حق عند المسلمين بأخذ مكان أبيه. أما لدينا فالأسر الحاكمة تورث، ولكنها تتغير أيضاً، كما أن السلطة الدينية لا تورث بين الأبناء بعكس الوريث في الإسلام الذي يشرف على الدين والدنيا بالوراثة".

"هذا يعني أنه لا توجد علاقة بين نظام الحكم الإسلامي، وبين توسع بلادهم وجودة حياتهم من علم ومعيشة ورفاهية؟" لم يكن هناك تخوف من سؤالي هذا لأن الجميع هنا يقرون بوجود الفوارق لصالح بلاد المسلمين وسكانها.

"نشروا دينهم بالسيف، وكل نجاحاتهم تحققت في المائة سنة الأولى، وهم الآن في تراجع، ولا تنس أن الخلافات دبّت بينهم بعد موت محمد فوراً وتعاضمت مع كل حاكم حتى ذبحوا بعضهم البعض. يمكنك القول إنهم وصلوا للقمة بسرعة وينحدرون عنها الآن، بينما نحن نصعد ببطء وسنبقى هناك مدة أطول".

"إذا كان نشر الدين بالسيف خطأ ويعود بالمساوي، فلماذا نشره الرومان علينا هنا بالقوة، وفرضناه على الجيران في الشرق والشمال

راوي قرطبة

بنفس الأسلوب، ونتمنى توحد قوانا لنشر هذا الدين ما بين الروس والجرمان؟" سؤال منطقي توجه به الطالب رنيه إلى جريير وليس لأستاذ الفلسفة.

"من الظلم القول بنشر الإسلام بالقوة، لقد ركبوا الخيل وقتلوا في الحروب، ولكنهم لم يمنعوا بقية الأديان. إندفاعهم جاء في مناطق الفراغ والضعف. لو كان الحكم في اييريا عادلاً والدين قويماً لما نجح سبعة آلاف عربي في هزيمة جيوش القوط واحتلال بلاد واسعة عريقة ومليئة بالبشر الذين يئسوا من إصلاح نظامهم وحكامهم فتقبلوا نظاماً وسادةً جديداً منحوهم الأمن والرخاء وحرية الدين. إذا رأيت أية أمة أن لدينا هنا مثلاً جيداً أفضل مما عندهم فإنهم بالطبع سيتقبلوننا. أما الحرب فهي ضرورية لإزالة الحكم البائد". إنتقل جريير بالحديث بعد ذلك عن أنظمة قديمة وكيف كان زعيم القبيلة هو الفائز بالبطاح بين المتنافسين على المنصب.

البلغار الروس

لم يكد يمر يوم أثناء إقامتي في ريمس من دون حديث مع جربير في أحد شؤون مخترعاته العلمية أو نظرياته الهندسية والفلسفية، كنت أتذكر عناوين أو بعض محتويات كتب عربية راجعتها فأخبره بما أعرف، وأسجل ما يريد من أسماء الكتب لأرسلها إليه فيما بعد. ذات يوم فاجأني بطلبه أن أقص عليه آخر الخرافات العربية التي سمعتها، وكأنه يريد الاطمئنان للتشابه بين العامة في كل مكان .

"أثناء إقامتي في بلرْمُ سمعت رواية حديثة نقلها مسافرون عائدون من الحج. تقول الرواية إن طائراً ضخماً، أكبر من الفيل، قد ظهر على تلة قرب ساحل عُمان، وصاح بلسان فصيح : قد قرب، قد قرب، قد قرب، ثم غاص الطير في الماء. لم يحدث ذلك مرة واحدة، وإنما ثلاث مرات على ثلاثة أيام متتالية ثم غاب ولم يُر بعد ذلك".

"هذا مثال لتراكم المبالغات في الحديث عندما تطول المسافات ويكثر الرواة. هناك بالفعل حيوان بحري له أجنحة صغيرة، ولكنه لا يطير وإنما يغوص في الماء، ولكنه ليس أكبر من الفيل، وزعيقه لا يمكن أن يفسر بكلام فصيح إلا إذا كان الذي سمعه مخبولاً".

"وما رأيك في مؤلف محترم ذكر في كتاب رحلات عن وجود جزيرة نساء لا يوجد فيها رجال، وإذا أمسكن بواحد قتلنه. بالطبع لم يفسر كيف تتكاثر تلك النسوة إذا كرهن الذكور بهذا القدر".

"صاحبك هذا لم يرَ الجزيرة، بل قرأ عن أسطورة يونانية مشابهة وتقول إن مقابل هذه الجزيرة واحدة للرجال، وإن الطرفان يجتمعان مرة في السنة. يبدو أن المؤلف طالع ترجمة موجزة جداً، ولم يفهم الفرق

بين الأساطير وما نراه في الرحلات ونسجله في الكتب. ثم إن الكثيرين من رحالتكم يركزون على شؤون الجنس، ويسرحون في خيالاتهم".

"هل طالعت رحلة السفير ابن فضلان إلى بلغار وبلاد الروس؟" توقف جريير عن تقليب الاسطرلاب بين يديه، وانتقل إلى خارطة كروية يبحث عن مدينة بلغار.

"من أين انطلق ابن فضلان إلى هناك؟ لم أطلع رحلته، هل هو رجل منطقي وصادق؟"

"تسجيلاته دقيقة، وأخشى أنه بالغ قليلاً في الوصف الجنسي. انطلق من بغداد بأمر من أمير المؤمنين هناك، المقتدر، قاصداً إلى ألمش بن لطور ملك الصقالبة، الذي أرسل لمدينة السلام سفيراً لطلب بعثة تعرفه على الدين الإسلامي وتبني له مسجداً وحصناً يحميه من الملوك المخالفين. إنطلقت الرحلة سنة تسع وثلاثمائة للهجرة، أي قبل خمس وستين عاماً من وقتنا هذا. عبروا إلى همذان ومروا في نيسابور، ومرو، وبخارا، وحوارزم، والجرجانية حيث تجمد نهر جيحون ومكثوا هناك ثلاثة أشهر. وكان ابن فضلان يُشبه كلام أهل البلاد التي يمر بها مرة بصياح الزرازير وأخرى بنقيق الضفادع". ضحك جريير وقال إن هذه من صفات من لا يفهمون لغات الآخرين، وطلب أن أتذكر ما جاء في الرحلة من أحاديث عن الروس. "سأرسل لك كتابه لتطالعه ففيه تفاصيل عن العملات والأسعار والديانات وطرق الزواج. بعد أن جمد الثلج والبرد شوارب صاحبنا ولحيته، إنطلق مع مائة جمل في بلاد الترك. قال عن قبيلة الغزية إنهم يرتحلون كالبدو ولكنهم كالحمير الضالة لا يدينون لله ولا يرجعون لعقل ويسمون كبراءهم أربابا، وأمرهم شورى بينهم لكن بوسع أحسهم أن ينقض الاتفاق. بالطبع في أمر النظافة الجسدية فهي منعدمة، وأنت لا تريد سماع تفاصيله. لكنه قال إن نساءهم لا تتستر من رجالهم أو غيرهم، وادعى أنه نزل يوماً على رجل منهم وامرأة الرجل جالسة معهم، فبينما هي تحدثهم إذ كشفت فرجها وحكته وهم ينظرون، فستر أحمد وصحبه وجوههم واستغفروا الله، ولكن زوجها ضحك وقال

للترجمان : قل لهم تكشفه بحضرتكم فترونه وتصونه فلا يُوصل إليه، وهذا خير من أن تغطيه وتمكن الآخرين منه. قال أحمد بن فضلان عن القوم إنهم لا يعرفون الزنا، ومن تأكدوا أنه زان شقوه نصفين بربطه على شجرتين بين أغصان مشدودة. نحن لم نصل إلى الروس وأفعالهم بعد، ولكن هؤلاء جيرانهم، وربما وصلتموهم بالتنصير قريباً قبل أن نسبقكم ونهديهم للإسلام، وربما سبق أهل بيزنطة كلانا".

"لست راوياً مُجيداً فقط وإنما أنت شيطان رجيم أيضاً، لا يغيب عنك شيء، اعطني بقية ما عندك".

"لا يحبون اللواط ويعاقبون عليه بشدة. إذا مرض أحدهم نصبوا له خيمة في الصحراء حتى يموت أو يشفى. يذبحون القرايين ويأكلون لحومها ما عدا الرؤوس إذ تعلق أمام باب الميت ليركب عليها إلى الجنة. هل لاحظت أن للكفار جنة وللنصارى جنة كما للمسلمين؟"

"مع فارق أن جنتكم مليئة بحور العين اللواتي ينتظرن الأفاضل عاريات، ماذا عن الترك والروس؟"

"قال ابن فضلان إن الترك في تلك النواحي ينتفون لحاهم إلا قليلا منها يبقونها تحت الذقن، فيبدون للناظر من بعيد كالتيوس. أعلم أنهم يجيدون القتال، إذ شاهد رحالتنا أحدهم ينزل أوزة من السماء بسهم واحد بينما دابته تركض تحت الأوزة. قطعوا في طريقهم بعد ذلك الكثير من الأنهار التي لا أتذكر اسم أي منها، بعضها يبعد عن بعض مسيرة يومين أو أربعة أيام، وشاهدوا قوماً يأكلون القمل ويسمون الباشگرد، وهم يقطعون هامة الرجل ويأخذونها ويتركون جسده. ولهؤلاء أرباب كثر، للموت والأرض والسماء والشتاء والصيف والمطر والريح والماء والليل، وغير ذلك من الأرباب، بل بعضهم يعبد الكراكي. سبب هذه العبادة أن أعداءهم هجموا عليهم وقتلوا منهم الكثير، وبينما الأعداء المنتصرون منسحبون طارت الكراكي فخافوا أن يكون ذلك كميناً، فتفرقوا وانقضّ بقيه القوم عليهم وشتتهم، وعبدوا الكراكي التي نصرتهم. عندما وصل موكب السفارة إلى بلاد الصقالبة بعد أحد عشر

شهرًا، أحسن الملك استقبالهم وهدوه للإسلام وأقاموا الجامع. من عاداتهم عند الطعام أن الملك يبدأ في الأكل ثم يقطع لحمًا ويعطي من يريد، وحينها يقدمون لهذا الشخص طبقه الخاص، ويستمر الحال هكذا حتى يوزع الملك على الجميع، وما يزيد في الأطباق يأخذها الضيف إلى بيته". توقفت عن الحديث وتابعتنا خط سير الرحلة على الخارطة، وقلت لجربير إن رسومه تنقصها الكثير من الأنهار بين الجرجانية وبلاد الصقالبة، وعينت له بلدة بلغار التي لا تبعد كثيرًا عن مدن فلادمير وريسان وموسكو إذ تقع بلغار على النهر أسفل فلادمير وشرق موسكو ببضعة أيام فقط.

"أعرف بلغار الفولجا وهم غير بلاد البلغار على نهر الدانوب المجاورة لبيزنطه، وإن كانت أصولهم واحدة من بلاد الترك التي رحلوا عنها قبل قرنين من الزمان. بلغارك هوجموا من طرف إمبراطورية كييف قبل عشرين سنة".

"إذا موسكو وفلادمير وريسان وغيرها من المدن تتبع إلى كييف؟ هل هم كفار أيضاً؟" شرح لي جربير جغرافيا بلاد الروس الكفار وأن حدودها تتمدد بين الدانوب وشمال شرق الفولجا، بينما بلغار الفولجا على وسط وشرق النهر حيث يحتلون موقعاً على خط التجارة، وعاد للسؤال عن رحالتنا.

"إذا لم يصل ابن فضلان إلى موسكو؟"

"لا، ولكن الروس وصلوا إليه. دعني أحدثك أولاً عن أهل بلغار ثم أسمعك قصص وأوصاف جيرانهم الروس وأعرفك بأربابهم الحاليين". أسرت جربير لروايتي ورأيت تصعيد تشويقه عن الروس إلى النهاية. "في الصيف ليلهم قصير جداً، والعكس في الشتاء. في الليل يعرف الرجل من يقابله من مسافة، ولا تظهر عندهم سوى بضعة نجوم. على مسيرة ثلاثة شهور، كما قال ملك بلغار لأحمد، يوجد قوم ليلهم لا يطول عن ساعة واحدة. وشاهد أحمد من العجائب هناك الكثير، منها رؤيته قبل مغيب الشمس بساعة أفق السماء وقد احمرت إحمراراً شديداً

وسمع أصواتاً قوية وهمهمة عالية. عندما رفع الرجل رأسه شاهد غيماً أحمر مثل النار قريباً منه وفيه أمثال الناس والدواب وأشباح في أيديها السيوف والرماح فأخذت الصور تحمل على بعضها وكأنها تتقاتل. بالطبع فزع أحمد وأصحابه وأخذوا بالدعاء إذ تيقنوا الموت، فضحك عليهم القوم وفسروا لهم الحدث بأن هؤلاء من جنسي الجن، المؤمنين والجن الكفار يتقاتلون كل عشية". فتح جريير عينيه ودفع رأسه للخلف مستهجنًا، وتحول التعجب إلى تبسم وموجة من ضحكنا المتواصل. "قلت لك إن خياله واسع، ولكنه قال إن ذلك حدث في الليلة الأولى على وصوله ولم يعد لتكرار التفاصيل. رأى هناك تفاحاً شديد الخضرة وحامضاً مثل خل الخمر، تأكله الجوارى فيسمن عليه، وشاهد كثرة من شجر البندق يملأ الأرض، وشجراً مفرط الطول وساقه أجرد ورؤوسه تشابه النخل، ويشقون موضعاً في الساق ويضعون تحته إناءً فتجري إليه ماء أطيب من العسل، وإن أكثر الإنسان منه أسكره كما يسكر من الخمر. هل لاحظت أن صاحبنا ضليع في شؤون الخل والخمر والشرب والسكر؟" وافقني جريير بأن ذلك لم يخف عنه. "كلهم في بلاد بلغار يلبسون القلانس، ولكنهم يخلعونها ويضعونها تحت إبطهم إذا نزل الملك إلى السوق. نساؤهم لا تبكي على الميت وإنما يبكيه الرجال. يفصلهم عن الروس مسافة قصيرة ويصلهم تجار الروس في نهر إتل. قال إن الروسية أتم ما شاهد أبدانا، كأنهم النخل، شقر حمر لا يلبسون القراطق ولا الخفاتين، ولكن يلبس الرجل كساء يشتمل به على شقيه ويخرج إحدى يديه منه. مع كل منهم على الدوام فأس وسيف وسكين. نساؤهم تلبس على الصدر عقوداً إما من الحديد أو فضه أو نحاس أو ذهب، حسب وضع الزوج. كل عقد يدل على امتلاك الرجل لعشرة آلاف درهم. إذا نزلوا من النهر أقاموا بيوتاً من الخشب يتسع كل منها لعشرين أو أكثر. ينزلون بجوارهم وينكحونها أمام بعضهم، وربما نكح عشرين منهم جوارهم في الوقت ذاته وهم متجاورون، وإذا دخل عليهم تاجر يريد الشراء فلا يزول الواحد منهم عن الجارية حتى يقضي أربه".

"ربما لم يكن أحمد يبالغ هنا، فضيق المكان والحاجة للدفء وعدم وجود موانع دينية وأخلاقية قد تسبب هذا التصرف، الذي ساد هنا في الماضي أيضاً، ولا زال الفقراء ينامون في غرفة واحدة، وبالطبع يتناكحون على مسمع من بعضهم على الأقل، فما بالك بأقوام لا دين سماوي لديهم؟ المهم، ماذا عنى ابن فضلان بنهر إتل؟" مثل هذا التجرد هو الذي يعطي جريير وزنه واحترامه بين كل مستمعيه وطلابه. راجعنا الخارطة الكروية وعرف أن النهر المقصود هو الفولجا.

"الحديث عن قلة النظافة والاعتسالات أشبه بغيره من الأحاديث، ولكن الروس تميزوا بغسل الوجوه كل صباح، وذلك كالتالي: تحضر جارية قصعة ماء كبيرة وتضعها أمام كبيرهم، فيغسل وجهه وفمه ويبصق في القصعة ويتمخط بها. عندما ينتهي تنقل الجارية القصعة إلى التالي، فيفعل مثل الأول، حتى تدور القصعة بالماء ذاته على الجميع. ما تفسيرك لهذا الإجراء؟" مط جريير شفثيه ورفع حاجبيه، وقال بعد تأمل قصير إن هذا التصرف ربما له علاقة بالمعتقدات، أو تقبل دور وموقع كبيرهم. واصلت حديثي عما جاء في كتاب ابن فضلان عن رحلته والذي طالعه مع عدة كتب رحلات أخرى قبل سفري.

"ربما يهملك أن تعرف ماذا يعبدون في بلاد الروس، فقد كتب رحالتنا أنهم يحملون الخبز ولحماً وبصلاً ولبناً ونبيداً، ويهبطون من السفينة عند وصولهم المرسى، ويتجهون إلى خشبة طويلة أقاموها، ولها وجه إنسان وحولها صور لصغار وخلفها خشب نصبت في الأرض. يسجد كل منهم أمام الصورة ويطلب ربه بالريح ويعدد ما جلب معه من بضائع وجوارٍ وحيوانات وجلود السمور، ويتمنى أن يرزق بتاجر غني يشتري كل بضاعته بسعر جيد. إذا تعسر البيع لعدة أيام يقدم الروسي هدية إلى كل صورة ويتضرع للتوفيق في البيع. يتواصل الفعل حتى يبيع ما لديه وحينها يقدم قرباناً لربه عبارة عن أغنام وأبقار يذبحها ويوزع جزءاً قليلاً من لحومها ثم يعلق الباقي أمام الخشب. في اليوم التالي تكون الضواري قد أكلت اللحوم ويقول الرجل إن ربه أكلها ورضي عنه.

كان الله في عون من سيهدي القوم". سجل جربير الكثير من الملاحظات، فأكدت له أنني سأرسل الكتاب مع غيره، إذ بلغ عدد ما طلبه للآن خمسة وعشرين كتاباً وخولني بإرسال ما أراه مناسباً أيضاً. كما طلب أقلاماً جديدة مما نصنعها في قرطبة، واتفقت معه بهذا الصدد أن أرسل له كتباً مجلدة وفارغة المحتوى ليكتب فيها ما يريد ولا يتغلب في شأن التجليد والزخرفة الملونة على أطراف الورق. قبل الانتهاء من موضوع الروس سألت جربير بين المزاح والجد ماذا سيفعلون باليهود في تلك النواحي إذا نجحوا في تنصير الروس.

"لو كنت المسؤول وصاحب الأمر هناك فلن يزعجني وجود اليهود. هم الآن هناك، كما تقول، ولكنهم فشلوا في إهداء الناس، أو ربما لا يريدون توسيع ديانتهم على الآخرين. أنت تعرف أنهم يعيشون هنا أيضاً".

"أعرف ذلك، وأعرف أنهم لاقوا الأمرين في ايبيريا وكل بلاد النصرى، وهم الآن متهمون دوماً بكل المساوئ ويعمل المؤامرات، وإذا أخطأ أحدهم تُحمل المسؤولية لبقية اليهود، وبدون أخطاء يُتهمون بشرب دماء الأطفال النصرى".

"يمكن القول إن وضعهم هنا ليس بجودة وضعهم في الأندلس أو بقية بلاد الإسلام. ولا يمكنني التكهن بما قد يؤول إليه الوضع. تقديري أنه لن يكون في بلاد تنصر حديثاً أفضل مما هو هنا الآن. ربما انتهى اليهود بعد حين في بلادكم الإسلامية فيستريحوا ويريحوا".

دمار برشلونه

مرت أيام الزيارة بسرعة، وبدأت رحلة الإياب أسهل من الذهاب، إذ اعتدل المناخ ودفئ الهواء، وكان تيار الماء يساعدنا في الانسياب جنوباً. رغبت في زيارة مدينة سانس، التي وصلها من قرطبة الوالي عنبسه في غزواته، لكنها بعدت عن طريقنا إلى الجنوب الغربي وكانت زيارتها ستعني أسبوع سفر ونقل المركب على اليابسة، وهكذا تركت الزيارة لرحلة أخرى، إن شاء الله. لم أكن أتوقع أن التقى كارل في ليون عائداً بالورق وطلبه دير كلوني، واتفقت مع جوبيه على تفاصيل العمل عند وصول البضاعة، وأصبح شريكاً معنا بعد اقتناعي أن عمليه التنقل لن تنجح بدونها. سيأخذ البضائع بالجملة ويدفع ثمنها، ثم يوزعها بسعر آخر ولكنه لن يربح كثيراً من جريبير، حسب اتفريقي معه. بدون جوبيه سيتعين على البضائع أن تُعرض في كل مدينة تمر بها لعدة أيام لإعطاء حكامها ورعيتهم فرصة لشراء ما يريدون، وما يتبقى عن حاجتهم يحمله التاجر إلى المدينة التالية ليتكرر الأمر ذاته. هذا يعني أن البضائع لن تصل لأصحابها الذين طلبوها، ولن يقبض التاجر الثمن الذي يريده، وبالطبع يتعطل سفره لشهور بدل أسابيع. هذا كله من دون الحديث عن الضرائب والجمارك ومخاطر السطو التي سيتحملها الآن جوبيه بعد الاتفاق على تسليم البضائع وتسلم ثمنها في ليون.

أفادني جوبيه في ليون أن لؤي قرر الذهاب مع كارل لجلب البضائع من برشلونه، وأنهما أبحرا إلى مرسى نربونه، ومن هناك سيتدبرون أمرهم. لم يعرف أحد بالطبع أن كارل هو أخت لؤي وتمنيت لو أنهما عثرا على سفينة حملتهم إلى دانيه، هدفهم الفعلي. انتظرت في

ليون بضعة أيام حتى وفقت بمركب في طريقه إلى مدينة افينيون، وأصبح يوسعي الإبحار إلى مرسيليه بحثاً عن مركب مناسب، أو السفر براً من افينيون إلى نربون ومنها إلى برشلونه لأتدبر أمري من هناك. لجأت لاختيار السفر البري بعد أن سمعت بسهولة الحركة على الطريق الروماني القديم الذي لن يحتاج لأكثر من ثلاثة أيام إلى نربونه. معظم دنائيري لا زالت معي ولم أنفق الكثير منها، أو حتى من العملات الإفرنجية التي حملتها من صقلية. إشتريت في افينيون حصاناً ضخماً ولقبتة هرقل، وتزودت بالكثير من الجبنة واللحم المجفف والخبز لسد حاجتي، وكيس شعير لهرقل على أمل تمتين العلاقات بيننا، وانطلقنا للجنوب الغربي سعياً للساحل.

دارت أفكار في الطريق حول الأحاديث في ريمس ومع جوبيه أثناء العودة، وكثر تذكري لقرطبة وأهلي وخوخه التي أخذت صورتها تستحوذ بشكل متزايد على مخيلتي، وسرحت مراراً في كيفية التعامل المستقبلي مع كارل. داهمتني المنغصات كلما استشففت ما ستؤول إليه سياسة الحاجب المنصور التدميري في الداخل والخارج، وحتماً فإن مساعي إصلاح الدين والدنيا الإفرنجية لا تعني هي الأخرى الخير للمسلمين. التأمل في سياسة المنصور وضع أمامي سؤالاً لم يخطر في بالي قبل رحلتي هذه. إذا كان المنصور قد أفسد بين الجميع في الأندلس، واستغل البربر ضد العرب، والعرب ضد بعضهم، وضرب الصقالبة والأمويين، وافسد تركيب الجيش، وأحرق الكتب لاسترضاء وكسب الأصوليين، ويهاجم ممالك النصارى مرتين في العام، فلماذا لم يستغل ورقة اليهود على شاكلة استغلالها من ملوك النصارى؟ الجواب الذي اهتديت إليه لا علاقة له بأخلاقيات الحاجب، وإنما انعدام الأرضية في الأندلس لكراهية اليهود، فلو حرّض ضدهم لما ضمن كسب رضى بقية الشعب.

في الطريق من نربونه إلى برشلونه، وقبيل الوصول إلى مدينة جيرونة، مررت بأناس عائدين إلى مدينتهم تصحبهم حمير وبغال وأغنام

وأبقار، ويحملون أواني طبخ وبعض الأغذية. بعض الأطفال والعواجيز اعتلوا ظهور الدواب. لولا البؤس على الوجوه والفوضى في مسيرهم لأمكن الظن أنهم عائدون من رحلة جماعية، لكن كل شيء أوحى بأنهم لاجئون. عثرت على قس وتبادلت معه بعض المعلومات وباشرت التبليغ إنني قادم من ريمس بعد رحلة دراسية طرف جريير ومتجه الآن لزيارة برشلونه. عرّفتني القس على نفسه وأبلغني أن القوم عائدون إلى برشلونه وإلى مدن وقرى إمارتهم بعد الهروب منها، وذلك بعد هجوم المنصور المفاجئ واقتحام مدينتهم يوم الاثنين السادس من يوليو الذي توافق مع منتصف صفر من العام الهجري الجديد 375. كان حذري طوال التنقل في بلاد النصارى قد دفعني للاكتفاء بالحديث باللاتينية الفصحى أو العامية، والتركيز على عدم النطق بموزراب أو عربي، لكن كل هؤلاء القوم العائدين إلى بلادهم الآن يتحدثون الكتالانية التي أجهلها. جاورت بحصاني القس على بغلته وكان يواسي بوضع كلمات كل من نتجاوزهم بين الحين والآخر، ويتبادل المعلومات مع بعض الجند الذاهبين لجيرونة وبرشلونه على خيولهم أو القادمين من ذلك الاتجاه. حصيلة محادثاتنا رسمت الصورة التي تتضح معالمها كلما اقتربنا من جيرونة. عرف جند حاكم الإمارة، بريل الثاني، أن المنصور سلك في صائفة هذا العام طريق الساحل الشرقي عبر بلنسية، فارتفعت لديهم وتيرة القلق يوماً بعد الآخر، لكن هدف القوات المسلمة لم يكن معروفاً. كان من الممكن أنهم في الطريق إلى طرطوشة وبعدها إلى لاردة شمالاً وبعيداً عن الساحل، أو ربما كانوا في الطريق إلى سرقسطة ليغزو من هناك بنبلونة ومملكة الباسك. لم يكن من السهل على أي من ملوك أو أمراء الشمال ترك بلاده استعداداً لنجدة بلاد أخرى دون التأكد أين ستحل ضربة المنصور.

طوال أسابيع من المسير في طريق طويل يسلكه المنصور لأول مرة من قرطبة إلى الساحل الشرقي، ثم صعوداً عبر الأراضي الأندلسية، لم ينضج خلالها القلق إلى رعب في كتلونية وحاضرتها برشلونه إلا عند

دخول المنصور مدينة طركونة المسلمة، على مسيرة يومين فقط من برشلونه. كل غزوات المنصور الإثنتي عشرة للآن كانت في جبهات الثغور الوسطى والغربية، ولم يكن المسلمون قد غزوا برشلونه في المائة سنة الماضية، بل إن الاشتباك الأخير آنذاك باشر به صاحب برشلونه عندما أراد إفشال اتفاق بين الأمير محمد في قرطبة وبين إسماعيل بن موسى في لاردة. فقد اختلف موسى وأولاده مع أميرهم وصادقوا الكتالونيين، وعندما عادوا للصلح مع قرطبة رفض أمير برشلونه هذا التطور وهاجم لارده. آنذاك انقض إسماعيل على المهاجمين ولاحقهم إلى برشلونه ووصلته تعزيزات من قرطبة، كما وصلت برشلونه تعزيزات نصرانية ومن إفرنجية. دُمرت أرباض برشلونه وقتل الكثير من جندها، وبقي القتلى في البراري دهوراً طويلاً. حدث ذلك قبل مائة عام، وشهدت الفترة اللاحقة علاقات طيبة وسفارات وتبادل هدايا بين برشلونه وقرطبة. إحدى السفارات حملت هدية من عشرين صبياً صقلياً وعشرين قنطاراً من فراء السامور وخمسة قناطير من القصدير وسيوفاً ودروعاً تقبلها الخليفة الحكم ووافق على تجديد السلم لبرشلونه، وتلاها السفارة التي حضر معها جريبر.

قبل تلك الواقعة كان المسلمون قد غزوا برشلونه أربع مرات بعد أن سقطت من أيديهم في عام 185 هجرية. فتحت هذه المنطقة بقوات طارق بن زياد وموسى بن نصير، ودام الحكم الإسلامي لها ثلاثة وتسعين عاماً أقيمت أثناءها الأبنية والمساجد وتم تجديد أسوارها وبناء سور مدينة جيرونة وتوسيعها هي الأخرى. المدينتان وما يقع إلى شمالها من بلاد الفرنجة سقطت في الفترة التي انشغل فيها الأمير الحكم الأول ابن هشام في الحروب والفتن مع عميه عبد الله وسليمان، وأقام الفرنجة في برشلونه إمارة ماركا هسبانيكا التابعة لهم. الأمراء الأمويون الذين تبعوا الحكم الأول في قرطبة لم يعيدوا فتح المنطقة واكتفوا بالغزو والتدمير عند الحاجة كما فعل عبد الرحمن الثاني ابن الحكم الأول إذ احتل برشلونه وجيرونة لشهرين كاملين تاركاً للجند حرية النهب والتدمير.

راوي قرطبة

الأمير محمد بن عبد الرحمن غزاها مرة مثل أبيه، وسمح بغزوها مرتين دون اختراق أسوارها وإنما تدمير الأرباض واحتلال برجين من السور، وكان اللقاء الأخير حين دعم الأمير محمد، إسماعيل بن موسى للدفاع عن لاردة ومهاجمة برشلونه .

أسوار جيرونة عربية البناء والطراز وتوحي بالترحيب، لكنني عرفت من رفيقي القس أن الأمير بريل الثاني والناجون من قواته يعسكرون داخل المدينة بعد أن تركوا جند المنصور يعيشون فساداً كما شأؤوا في برشلونه. خارج الأسوار نُصبت خيام وسواتر من الخشب ومن فروع الأشجار والقش وما تيسر من المواد لحماية اللاجئين من حر النهار ورطوبة الليل. أغلقت أبواب المدينة أمام غير أهلها، لكنهم سمحوا بسهولة للقس ولي بالدخول بعد أن أبلغهم مضيفي أنني قادم من بلاد الفرنجة وفي طريقي للكنيسة في برشلونه. أسلمنا الدواب لراعي إسطلب الكاتدرائية وأخبرني القس أنها كانت المسجد الجامع لجيرونة. وجدت نفسي أحك جلدي من كثرة الأوساخ التي تذكرتها عندما هممت بدخول هذا البناء، فقد كنت أغسل نفسي بالماء فقط كلما سمحت ظروف الرحلة حين المرور بنهر جار أو نبع ماء نظيف، وهذا ما لم يتوفر إلا مرة واحدة في الأيام الخمسة منذ غادرت نربونه. "هل يمكن الاغتسال في منامة الكنيسة أو مكان آخر، لم اغتسل منذ زمن طويل". سألت القس وشعرت ببعض التهور على الفور لأن حب الاغتسال من سمات المسلمين المعروفة عند النصارى ويربطون بين المغتسلين وبين المكثرين في الصلاة ودخول المساجد، وها قد ذكر المسجد على لسان القس وذكر الاغتسال على لساني ونحن على أبواب ما كان مسجداً.

"ربما تُفاجأ لو قلت لك إن لدينا في جيرونة حماماً عربياً متواضعاً يديره ويزوره الموزراب. الحمامات الرومانية والعربية القديمة كلها هدمها الفرنجة. أنا لا أنصحك بالذهاب الآن إلى حمام، سنجد هنا فرصة للاغتسال والطعام والمنامة بسلام". صعدت الدرجات إلى جانب القس وخيل إلي أنه ملم بكل أسراري ولا ينوي لي أي شر، فأسلمت له

أمري. نمت دون قلق بعد أن أخبرني أنه تلقى علومه الكهنوتية عند جريير أثناء تعليمه في مدرسة كاتدرائية ريمس، وسألني إذا كنت أعرفه منذ دراسته في قرطبة، فأكدت له ذلك وانتهى حديثنا في هذا الشأن. في الصباح نصحني صمويل بعدم سلوك الطريق إلى برشلونه حيث تكثرت حركة الجنود، وقال إنه لن يتجه إلى برشلونه فوراً لأن أخباراً غير مؤكدة تشير لاستمرار تواجد جند المنصور هناك، والعامّة لن يعودوا قبل عودة جند بريل الثاني للمدينة.

"سأكتب لك رسالتي تعريف، واحدة لقس فكوس والثانية لقس مدينة منرسة التي تليها. على مسير يوم شرقاً مع النهر ستصل فكوس، فلا تدخلها وواصل الاتجاه إلى منرسة وستصلها بعد يوم آخر. إذا سرت بعد ذلك ليلة ويوماً بحذر في تلك المنطقة خالية السكان ستصل إلى لاردة". رسم صمويل خارطة تقريبية لمجاري الأنهار، من جيرونة إلى فكوس باتجاه الشرق مباشرة، ومن فكوس لمنرسة مع مجرى نهر آخر إلى الجنوب الشرقي، ثم طريق جبلي إلى الشرق يوصل إلى سهول لاردة. "إذا كنت مجيداً في الفلك، مثل جريير، فأكثر من المشي ليلاً فلن يعاديك سوى الذئاب. الرسائل معك للاحتياط". إلى جانب الرسائل زودني المضيف بخبزين مستديرتين تكفيان لإطعامي أسبوعاً ومعها بعض من السمك المملح. الأهم أنه أعطاني قفطان قسيس وسألني أن ألبسه إذا رأيت خطراً بشرياً لا يمكن تفاديه.

"عندما تزورني في قرطبة ستجد القفطان في انتظارك مع كل شكري، وأملي في رد معروفك".

"إنني بالفعل متشوق لزيارة قرطبة ومدن الإسلام الأندلسية للاطلاع على حياة إخوتنا هناك، ولا تستغرب لو شاهدتني في إحدى الكنائس أو شوارع مدينتكم". تمنيت عليه فعل ذلك وشرحت له سهولة اجتياز الحدود لرجال الدين وغيرهم إذا تجنبوا مسيرة الصوائف ووقتها، ولم أتركه حتى وعدني بالزيارة في اليوم الأول على وصوله لقرطبة، إن زارها. أوجزت له اشتغالي بالكتب والورق والحبر وأن بوسعه طلب ما

راوي قرطبة

يريد بهذا الصدد وسأرسله له فوراً مع المسافرين أو بالبريد إلى كنيسة طركونة. رافقني صمويل في الخروج من أحد الأبواب الشرقية لسور جيرونة المزود بإحدى عشرة بوابة، وسرنا بمحاذاة النهر حوالى ساعة تعارفنا خلالها بشكل أفضل وتبادلنا بعض الآراء والرؤى المستقبلية.

"هذا القتل والبؤس والسبي والخراب الذي حلّ بكم وبغيركم لا يسعد كل أهل الأندلس. عندما تزور قرطبة سوف تتأكد من ذلك بنفسك، وسترى أننا مرتهبون أيضاً من حكم المنصور". نظر صمويل بتساؤل وتشوق وشيء من الاستغراب. "هذه حقائق، خليفتنا أسير في قصره، وسأريك ذلك بعينيك إذا زرتني. بربر المنصور غلب عددهم على جيش الحضرة وخرّبوا نظامه، الضرائب ترتفع لدفع كلفة الجند والغزوات ورواتب المرتزقة. مدننا الثغورية أصبحت تتخوف من ردود فعل الهجمات، وتتذمر من تصرفات وإطعام الجند والمرتزقة الذين يأكلون دوابهم وينهبون دوابكم".

"لكن جندكم يغزوننا منذ قرون وملوككم يريدون نشر الإسلام وتدمير المسيحية، الفارق بين السابقين وبين المنصور أنه أشدهم إيماناً وتسرعاً في تحقيق الهدف". مرت في ذهني خاطرة تعجب وأنا استمع لصمويل، فقلت لنفسي لو كان مقتنعاً بالفعل بما يقول فلماذا يساعدي على تخطي الصعاب، هل هو واحد من ندرة البشر الذين لا يعممون المسؤولية، ويميزون بين الأفراد وليس بين الأقسام؟

"الحاجب المنصور ليس متديناً أبداً، ولا يحترم شعائر الإسلام، فهو يسكر ويلهو ويملك عبيداً وجواري ويقا تل في الأشهر الحرم، وهذه كلها ممنوعة في القرآن. ما يفعله هو لأغراض سياسة داخلية ليستقر له تولي الحكم من الأمويين. جند الأندلس لم يعتدوا عليكم بهذا الشكل سابقاً، صحيح أننا أخذنا البلاد، ولكن ما لدينا الآن حالة أفضل مما لديكم، ولم نطرد السكان، ولم نُحرم المسيحية أو اليهودية، ولدينا كنائس وكُنس إلى جانب المساجد، ولم أر في بلاد الفرنجة أي مسجد. في الأندلس يحتفل كل الناس بأعياد بعضهم، وها قد مر عيد الأضحى

ورأس السنة الهجرية دون أن أشعر بهما في بلاد الفرنجة. بعد يوم أو اثنين ستعود إلى برشلونه، ستجدها قد نهبت وخربت، ولكن لن تجد أن المنصور فتحها وأعادها للإسلام، فهو لم يفعل ذلك للآن ولا أعتقد أنه سيفعله لاحقاً".

"يبدو أن أمراءنا من رأيك، لقد سمعت أنهم يرغبون في إرسال سفارة وعرض دفع جزية للمنصور ليكف شره عنا. أصحاب هذا الرأي يظنون أنه يبحث عن الغنائم والنهب، وقد يكف شره إذا أخذ هدايا ومالاً. أنا شخصياً أعتقد أن الأفضل شراء خيول وصنع سلاح بهذا المال، وغزو مدن الثغور في الشتاء ليكفوا عنا في الصيف، وحين يهجمون في الصيف نهرب للشمال ونعيد الكرة والتصدي لهم بالمزيد من الخيل والسلاح. كل اللاجئين الذين رأيتهم يتوجب أن يحصلوا على خيل وسلاح ليدافعوا ويهاجموا". هذا رجل دين يفكر في الحرب، بينما رجال الحرب يفكرون في دفع الجزية للبقاء في مناصبهم حكماً للفقراء. لم يكشف سري للجنود، ولكنه يأمل في عقاب سكان المدن المجاورة دون تمييز لموقف البشر فيها.

"أحياناً يا صمويل لا أدري كيف سينتهي بنا الحال. يبدو أن صليل السيوف يتغلب دوماً على صوت العقل. لكن حب البقاء في السلطة يبدو فطرياً لدى أبناء كل الأمم، فالملوك يحاولون التوسع إذا رأوا فرصة، ويخنعون لهيمنة الآخرين عندما يشعرون بالضعف. غايتهم دوماً البقاء في الحكم. إنها من حكم الله قبض أرواح كل الناس، ولو لم يفعل لامتألت الأرض الآن بالملوك محبي الدوام".

"ماذا تقصد بهذا القول يا سليمان؟"

"قصدت الإشارة إلى أن أمراءكم يتحينون كل فرصة للانقضاض على المزيد من الأرض دون مراعاة إذا كانوا يخدمون بذلك الرعية أم يضرّونهم. وأقصد أن الاختلاط في الأندلس وحرية الأديان لم ينجح في التوصل إلى سلام مع الجيران". تمنى صمويل أن يعم السلام قريباً، أبطأ بغلته إيذانا برغبة في العودة إلى جيرونة بعد أن قطعنا مسافة بعيداً

راوي قرطبة

عن حركة البشر، قلت له وأنا أودعه "هل تعرف أن ستة من أمراء وخلفاء الأندلس التسعة بعد جدّهم عبد الرحمن الداخل هم أبناء أمهات نصرانيات؟ لو نصّبتم أبناء مسلمات حكماً لكم فربما تقترب من السلام".

"قد يكون ذلك من أسباب دوام دولتكم حتى الآن. عموماً من يدري، فربما حكمت الظروف والتطورات بتحالفات أخرى. أما الآن فإننا نعاني من نتائج الحرب، وسيغلب علينا التفكير بالانتقام. اذهب بسلام، وإلى لقاء في قرطبة".

المعجبون بهرقل

كان الطريق جبلياً متعرجاً صعب المسير، فاخترت منذ البداية لحصاني هرقل أن يحملني ونسير في مجرى النهر، أحياناً في وسطه عندما تشح المياه، وأحياناً أخرى على أطرافه إذا ضاق الممر وعمقت المياه. عندما تكثر الأحجار في المجرى كنت أترجل وأسير أمام الحصان، وكثيراً ما وجدت نفسي في قعر الوادي بين جبال حادة الارتفاع على الطرفين. كان هذا أقصر الطرق وأكثرها أمناً. نمت قبل العشاء شبعان رويان وآمن مقدراً أنني اقتربت من فكوس. لم أشاهد في المجرى أية مطحنة مائية للغلال أو الزيوت، ولا نواعير تنهل الماء من تحت لفوق. عندما استوت الأرض مع النهر، وهذا نادراً، وجدت أراضي حصدت غلتها من البقوليات أو الحبوب. قبل الفجر تأكدت من صحة موقعي قرب فكوس وسلكت الطريق أعلى المدينة الصغيرة وغادرت منطقتها قبل أن يفيق أهلها من نومهم. مع الظهر التقيت بالوادي الآخر وهبطت فيه جنوباً إلى منرسه. قبيل المساء وصلت إلى ملتقى النهرين حسب وصف صمويل، ومن هناك أصبح عليّ التوجه جنوب شرق إلى سهل لاردة. المساحة شرق هذا الواد هي أرض خراب بين المسلمين والنصارى، غربها جبلي وشرقها سهلي. أما منرسه فمدينة ثغرية للنصارى تقع شمال برشلونه بمسيرة أقل من يومين، وهي على مسيرة أكثر من يومين شرقاً إلى لاردة، وشمال لاردة توجد بربشتر، وجنوب شرق لاردة توجد طركونة وأسفلها على الساحل طرطوشة. أما غرب لاردة على مسيرة أربعة أيام فتوجد سرقسطة وشمال شرقها بيوم ونصف وشقة، وشمال غرب سرقسطة بيومين هناك بلدة تطيلة على نهر ابرة

راوي قرطبة

وأعلاها بيوم على النهر قلهرة، وهي الآن أقصى قلاعنا شمالاً، وهذه كلها بلاد مسلمين يؤتمن منها المسير إلى قرطبة جنوباً.

كنت أتمنى رؤية برشلونه وجيرونه وبلاد الإسلام الأخرى التي ضاعت، والاطلاع على حياة مدن وقرى النصارى في هذه الجهات، وها هي ظروف الحرب تجبرني على إنكار شخصيتي والتسلل متكرراً في الوديان. أوصلني النهر جنوب منرسة بميل تقريباً، وسرت طوال اليوم منحدرًا في طريق جبلي إلى الجنوب الشرقي حتى اقتربت من قرية على حافة نهر. لبست قفطان القساوسة وتحسست سيفي القصير المعلق تحت القفطان على ظهري، وقصدت القرية. كانت محاطة بجذوع الشجر، وحولها خندق بعمق وعرض مترين، ومنازلها مستديرة ذات نصف سفلي من جدران الطين، ونصف أعلى وسقف من البوص والخشب. وصلتهم قبل رفع جسر خشبي عن الخندق، وكانوا قد أدخلوا الماعز والغنم والخنازير إلى وسط القرية.

اطمأنوا إلى لباسي، وإلى حصاني الضخم الذي لا يستعمله العرب، وبالكاد تفاهمنا باللاتينية العامية إذ لم يتحدث أي منهم سوى الكتلانية. تذكرت أقوال جدّي، رحمه الله، بأن التفاهم بين الناس يحدث بالنظرات والإيماءات وقراءة التعابير، وما اللغة إلا لإظهار الآداب والتفاصيل. أخبرتهم أنني متوجه إلى برشلونه، وعرفت منهم أن النهر يتجه إلى هناك، وأن الطريق السهلي للجنوب يصل إلى طركونة، والطريق السهلي للغرب يوصل إلى لاردة، وأن الأفضل أن أعود إلى منرسه لأن المسلمين في كل مكان. طمأنتهم أن أخبار منرسة تؤكد أن المسلمين انسحبوا من برشلونه، وأن الخطر زال.

ضمت القرية سبعة بيوت، وأقل من أربعين نسمة يبدو أن الماء والسهل الخصب والجبل الغني بصيده أغراهم على الاستيطان في هذا الموقع القريب من مدن الثغور، ومن أسواق المدن المتوسطة وبرشلونه بالطبع. أفهمتهم أن مهمتي تتطلب السفر فجراً، فطلبوا أن أقرأ عليهم صلاة. لم يكن ذلك صعباً إذ معي بعض الكتب باللاتيني، وأحفظ بعض

الدعوات من الإنجيل، ولا يوجد بينهم من يعرف اللاتينية. قرأت عليهم بنية صافية، وقبل انتهاء الاجتماع كانوا قد غيروا رأيهم وعزموا على انتهاز نهاية الحرب ووجود قس بينهم لعقد قرانين في الصباح. كان بوسعي الهروب فجراً، ولكنني أقنعت نفسي أن إتمام المهمة لن يضر بقداسة العقد وسيريح القوم من انتظار وصول قس إلى منطقتهم هذه، وإعفاءهم من النزول إلى برشلونه التي يعمها الخراب الآن، إذ كنت متأكداً مما أعرفه عن مرتزقتنا ومما سمعته في الطريق إلى جيرونة أن أعالي برشلونه انقلب إلى أسفلها وتركت خراباً ينقع فيها الغربان. كان الزوجان الأولان شاباً وشابة في مقتبل العمر، والفريق الآخر شاب وطفلة لم تتجاوز العشر سنوات، وفهمت أنه لا توجد مهور أو لوازم تقدم من طرف لآخر لأن كلاً من الشابين بادل الآخر بأخته دون تبادل أي مواد حية أو جامدة. قبل أن أعطي المباركة الجماعية للطرفين أفهمت عريس الطفلة ألا يدخل عليها لسنتين قادمتين، ولكنها ستعيش وتعمل عنده، فوافق.

زودوني بخبز جديد وجبنة وملأت قربتي بالنبيذ. رفضت عرضهم أن يصحبوني لوهلة في الطريق حتى لا يستغربوا اتجاهي للجنوب الغربي إلى طركونة. أردت استكمال الهبوط من قريتهم إلى السهل على هذا الطريق لأكون قريباً من طركونة عند الضرورة، أو الاتجاه غرباً بعد حين إلى لاردة. مررت بثلاث قرى مشابهة للتي تركتها مع فارق أنها كانت محترقة وتنتشر روائح فاسدة من داخلها فأسرعت بالابتعاد والجد على الطريق الطيني خوفاً من تفشي الأمراض وانتقال العدوى. مع المساء التقى الطريق مع مجرى نهر فقررت المبيت في منطقة منخفضة. واصلت المسير قبل الفجر على الطريق، وعندما اتضحت الرؤيا شاهدت غباراً بدا أنه من فعل بشر، وبعد وهلة وصلتني أصوات أهازيج صادرة من بين كتلة الغبار المتجهة غرباً. تعمدت الاقتراب منهم تدريجياً بعد أن خلعت زي القس ولففت رأسي بعصبة بيضاء وتقلدت السيف على خاصرتي. قبيل الظهر ألقيت السلام على القوم وأوصلوني إلى قائدهم عبد الرحمن بن

محمد بن هاشم التجيبي، صاحب الشرطة الوسطى في قرطبة أيام الخليفة الحكم والذي أوقفه الخليفة لدعم القائد غالب أيام الهجوم على حصن غرماج. تواجد إلى جانب عبد الرحمن، ابن أخيه عبد الرحمن بن يحيى. كانوا في الطريق إلى سرقسطة بعد أن شاركوا المنصور في خراب برشلونه. عرفتهم بنفسي وعملي وعلمي بأخبارهم في حروب العدو ودور عائلتهم القديم في إدارة الثغور في لاردة وسرقسطة وقلعة أيوب ومناطقها الشمالية. أوجزت خبر رحلتي رغبة مني في الإجابة على استغرابهم من ركوبي هذا الحصان الضخم الذي أخذ الجميع يتعجبون من حجمه ويسألون كيف أشبعه علفاً وأرويه ماء. رفعتني هرقل بحوالي ياردة كاملة عن هامة عبد الرحمن وغيره من حولي، فسرت على مسافة جانبية من كبيرهم حتى لا أنظر إليه من علي. لمزيد من طمأننتهم سألت عمّن شارك في الغزوة وسألت عن أفراد معينين من اليمينيين ومن فلسطينية شذونة، وعمّن صاحب المنصور من غلمانته.

في المساء أخبرت التجيبيين ما تذكرته بأن جدي سجل في أوراقه عن عام 360 هجرية دخول أربعة من التجيبيين للجلوس مع الخليفة الحكم في عيد الأضحى، وأن يحيى دخل بعد إخوة الخليفة الثلاثة مباشرة، بينما أخواه هاشم وعبد الرحمن وابنه عبد الرحمن دخلوا مع الوزراء، وأنني شاهدت خروج التجيبيين من قرطبة بالجيش لدعم القائد غالب في العدو. أردت بهذه اللفتات إرضاء غرورهم وكسب ثقتهم والبقاء في قريتهم، وأضفت أنني حضرت المعركة بين المنصور وغالب أيضاً.

أصبح من المقرر أن ينفصل عنا في الصباح أهل لاردة وتوجب الفصل في نصيبهم من الغنيمة. عرفت تلك الليلة من غزاتنا بأن حاكم برشلونه كان قد ترك المدينة وهرب عندما تأكد من وصول المنصور إلى جارتهم المسلمة طركونة. تبعه أهل البلد حاملين ما استطاعوا من أشياءهم واتجهوا شمالاً إلى جيرونة وإلى الجبال، وبالتالي كانت الغنيمة أقل مما لو تمكن المسلمون من حصار المدينة وإسقاطها بما فيها. ثلثا الغنيمة

حملها المنصور ومن عادوا معه على الطريق الساحلي من سكان تلك المناطق الشرقية حديثة الاشتراك في الغزوات، وثلث الغنيمة بقي مع التجييين وجماعة الثغور الشمالية الذين جاؤوا من مدينة سالم وقلعة أيوب وسرقسطة ولارده وأعمالها ويقدرون بعشرة آلاف مقاتل. نصيبهم من الغنيمة كان حوالى ستمائة رأس من مختلف الدواب، وحمولة خمسة بغال من الأواني النحاسية، وعشرين بغلاً محملة بالحبوب والزيوت. الأواني الفضية، والأسرى الصغار، والسبايا من الاناث اللواتي لم يهربن أو تم العثور عليهن، سيقوا إلى قرطبة، وخذ أهل طركونة وبلنسية والبسيط غنائم من طراز نصيب سكان الثغور الشمالية. أقر عبد الرحمن تقسيم الغنيمة إلى أربعة أرباع، وتجاهل التقسيم حسب عدد الجنود هذه المرة، واقترح أن يتنازل المقتدر من الجند لغير المقتدرين من أهل بلده الذين خرجوا معه. غادر معظم الحضور الخيمة للإشراف على التوزيع وضمان السلامة، وبقيت مع عبد الرحمن، أبو المطرف، الذي يعامل من القوم بمثابة أمير كون أبناء عائلته يديرون لارده وسرقسطة وقلعة أيوب.

"هذه المعضلة أصبحت تتكرر كل صائفة، وقد شعرت عندما شاركت في غزو جليقية أن جنودنا والمتطوعة المجاهدين يتأفون مما يفعله ويأخذ البربر". صمت قليلاً ولم يتجاوب الأمير فوراً فأكملت حديثي، "أليس من الأفضل للجميع لو مكثنا في كل بلد ومنطقة نفتحها ونعيد إعمارها بأهلها ونعطيهم الأمان ونسكن المسلمين معهم، ثم نقبض من الضرائب كما هو حال بقية كور الأندلس؟ هكذا هم يستفيدون ونحن نجني أرباحاً أكثر ولا نضطر للتخريب وجني الكراهية".

"لو فعلنا ذلك فأين سنتوقف يا بني؟ لو فتحنا البلاد حتى المحيط الأخضر كما فعل موسى، وفتحنا برشلونه وجيرونه مرة أخرى، فإنهم سيأتون من خلف الجبال حيث نربونة وقرقشونة وطلوزة التي حكمها أجدادنا ثلاثة عقود. بلادهم كبيرة وأعدادهم غفيرة، وقد دفعونا للوراء عن جبال البرتات ونسعى الآن لتثبيت الحدود على نهر الدويرة في الثغور الغربية ونهر ابرة هنا".

"لكن التخريب والحرب سيثيران عطف إخوتهم في البلاد الكبيرة وربما واصلوا دحرننا للخلف".

"لقد حاولوا على الدوام الهجوم علينا كلما شعروا بفرصة، أو توهموا الضعف فينا. لن يكلوا إلا إذا استمر الضغط عليهم. بالطبع الهجمات الموسمية يسهل عليهم تفاديها، وحرث مدينة هذه المرة يقلل من الغنائم في المرات القادمة، لكننا في الحقيقة لا نجاهد من أجل الغنائم، فبلادنا غنية ونريد فقط إضعافهم". صمت المجاهد العجوز وتفحص وجهي ثم عاد للحديث "أنتم معشر اليمينية مشهورون بالذكاء واللماحة، وأنت في مقتبل العمر، فسجل في أوراقك عني القول: إنه لا خطر على الأندلس من ممالك الشمال إذا بقينا مخلصين متوحدين". توقعت المزيد من التوضيح ولكنه امسك، فقلت: "كل الأجساد القوية ينخرها المرض من الداخل". لم تكن هذه حكمة طبية بل ربما هي مقولة مغلوطة، ولكنني زججت بها ونظرت إلى وجه الرجل، فلم أحصل سوى على إيماءة، فغيّرت مجرى الحديث بالسؤال عن رأيه في حروب العدو التي شارك فيها.

"في برشلونه أخبرنا المنصور أن حسن بن قنون عاد من القاهرة إلى العدو بدعم من الخليفة الفاطمي، وقال إنه أرسل قبل خروجه لبرشلونه تعزيزات من قرطبة إلى العدو لقتال هذا المرتد".

"رحم الله جعفر المصحفي، فلو لم يبخل بدفع نفقات حسن وربعه ولم يخرجهم إلى الإسكندرية أيام مرض المستنصر، لما كان هناك حاجة لقتالهم اليوم. هل حسن عائد للقتال أصلاً أم لقضاء آخر أيامه في بلده بعيداً عن المنفى؟"

"لو كان خطره كبيراً لما خرج المنصور إلى برشلونه واكتفى بدعم جند العدو، لكن حسن لن يموت في الفراش بأي حال". هذه مقولة خطيرة من فم هذا الرجل المجرب، والأفضل عدم إعادة السؤال فيها، وهكذا اكتفيت بالتأسف على كل الذين سيموتون في حروب الإخوة وأهل الدين الواحد. التعليق التالي من أبي المطرف كان سؤاله لي إذا

كنت أعرف ما حلّ بابنة القائد غالب، زوجة المنصور بعد موت أبيها في تلك الظروف، فأخبرته أنني سمعت ممن رآها بعد ذلك أنها مقيمة في ركن خاص في أحد بيوت الزاهرة، وأنها لم تنجب للعامري، ولم تُقتل أيضاً.

التلميح لاسم غالب في أثر الحديث عن حسن بن قنون وعن المخاطر المحتملة على الأندلس، دفعني للتأمل، أثناء أيام المسير إلى سرقسطة، في مقاصد هذا الشيخ المجرب، لكنني فكرت أيضاً في تجارتنا للكتب والبحث عن الجديد من مؤلفات عشرات العلماء والأدباء والشعراء ممن يُنسبون بالاسم إلى سرقسطة، وتسويق مؤلفات من الشام وبغداد وقرطبة في هذه المدينة الجميلة والشهيرة. تبعت نصيحة وتوصية عبد الرحمن بزيارة قاضي المدينة، الذي عدّ لي بدوره أكثر من عشرين من أهل المدينة ألفوا كتباً متوفرة هنا ونصفهم يلقب بالسرقسطي، وخصوصاً الذين هاجروا إلى بغداد أو مكة أو القيروان ووصلت نسخ من كتبهم إلى سرقسطة. بعض أطباء هذه المدينة يخدمون بلاط المنصور في قرطبة، مثل أبي عبد الله الكتاني الذي تعلم المهنة عن عمه محمد بن الحسين وتلقى العلوم الأخرى عن غيره أمثال سعيد بن فتحون السرقسطي وعن تلاميذ الأسقف ربيع بن زيد سفير الخليفة الناصر، رحمه الله. من الأطباء في سرقسطة الآن، منجم بن الفوال الفيلسوف وعالم المنطق، وهو يهودي وألف كتاب، كنز المقل، على أسلوب السؤال والجواب ويشتمل عدة مواضيع منها أصول إعطاء البيعة. وجدت مكتبة سرقسطة في المسجد الجامع، الذي اختطه حنش الصنعاني هنا عندما دخل مع موسى بن نصير، ودفن في مقبرة المدينة. وقع اختياري على كتاب قاسم بن ثابت السرقسطي الذي رحل مع أبيه إلى مصر وبغداد ومكة، وكان ثابت قاضياً في سرقسطة وتوفي عن خمس وتسعين سنة، وعنون قاسم الكتاب عن رحلته وأبيه، غريب الحديث.

كنت أثناء المسير بين لارده وسرقسطة قد تعرفت على أبي العلاء، وهو خطاط ممتاز، واتفقت معه على كتابة عشرين نسخة من ديوان

المتنبي الذي حملته من صقلية، ثم طلبت منه خمس نسخ لكتاب قاسم ونصحته الاستعانة بمهنيين آخرين وأن يحضر ما ينجزه إلى قرطبة لأطلعه على تفاصيل العمل وأوكله بأعمالنا في سرقسطة ومدن وحصون الثغور الشمالية قرب نهري ابرو والدويره من غرب البلاد إلى شرقها.

طوال الأيام الثلاثة على إقامتي في سرقسطة كثر من يريدون شراء هرقل أو استبداله بفرسين عربيين، ولكنني رفضت العروض ممازحاً بوجود صداقة متينة لي مع حصاني الإفرنجي. في اليوم الرابع خرجت باتجاه قلعة أيوب ومدينة سالم لزيارة بعض من تعرفت عليهم من الجند أثناء أيام المسير الأولى. لحقني خيال من سكان قرية المنية الواقعة بين سرقسطة وقلعة أيوب. بعد وهلة قصيرة عرفت أن الرجل يملك مزرعة خيول في المنية وتمنى عليّ على الأقل أن أترك هرقل ليخصب إحدى خيوله الأصيلة. أخبرني أن عرضين مما تلقيت لشراء هرقل جاءا منه عبر آخرين، وأنه مثل غيره يعتقد أن نسلأ جديد من هذا الحصان الضخم وفرس عربية أصيلة قد ينتج نوعاً قوياً وسريعاً؛ يجمع بين صفات الدابتين. تلك الليلة فاز هرقل بأفضل العلف وسيقت إليه أفراس بهية، وأنجز المهمة مع اثنتين بعد أن ساعده عمال المزرعة بحيلة أثمرت ألا يتكئ بثقله على الفرس تحته. صاحبني مضيفي في اليوم التالي على الطريق إلى قلعة أيوب ووصلناها في المساء عبر طريق سهل يوازي نهر الياون الذي يواصل جريانه عبر السهول حتى مدينة سالم. نمت هنا ليلة، وفي أقل من يوم وصلت الجورة، التي خبرتها في غزوتي مع المنصور قبل اللقاء بينه وغالب في القلعة.

في طليطلة أوصلت رسالة من عبد الرحمن التجيبي إلى صاحب المدينة عبد الله بن عبد العزيز المرواني الذي لم يخرج وجماعته للصائفة هذا العام. في مجلس المرواني عرفت من حديث القوم أن حسن بن قنون استسلم في العدو، وطلب الأمان فأعطي إليه، ثم حملوه إلى قرطبة، ولكن قائد الجند وبتكليف مسبق من المنصور قتل حسن في الطريق. كان الغم على وجه كل من سمع بالخبر الذي لا يمكن تأويله

بغير الغدر والخيانة، فالعرب يؤمنون قاتل أبيهم إذا لجأ إليهم طالباً للأمان.

شهرٌ من المسير بعد سرقسطة وعدة استضافات أطول من المقرر في قلعة أيوب ومدينة سالم وطليطلة، أوصلني إلى قرطبة. لم أهدر كل الوقت في المضافات وحديث السياسة، بل زرت كل الأسواق واتفقت مع الورّاقين وبائعي الكتب أن يبلغوني بما ينقصهم وما يكثر الطلب عليه من الكتب حتى أرسل لهم ما يريدون من قرطبة. لمست أن بعض القلق المنتشر بين سكان هذه المدن من جراء التبدلات السياسية، لم يؤثر كثيراً على إقبالهم للاطلاع على الآداب والعلوم وكل جديد مما تحمله الكتب بين دفتيها، وربما كان السبب في ذلك أنهم لا يشاهدون التطورات بالعين مثل أهل قرطبة. روّجت لأشعار المتنبي كأحدث ما أنتجته بغداد وادعيت أنها لم تُنشر بعد في كتاب، وتحدثت لمن لا يعرفونه من البياعين عن علاقة هذا الشاعر بعالم السياسة وبالعديد من حكام الشرق، وكان يكفي أن استعيد من ذاكرتي على أسماعهم بعض الأبيات لإقناعهم بطلب الكتاب فور إنجازه. لقد بعث خمسين نسخة من الكتاب قبل الوصول إلى قرطبة، وكتبت من حصن الأرك إلى أبي العلاء في سرقسطة أن يزيد عدد النسخ، وحددت له أسماء الذين طلبوها والمبلغ المطلوب قبضه منهم لينجز الصفقات في طريق حضوره إلى قرطبة.

من أول أبيات أبي الطيب أحمد بن الحسين الجعفي التي ارتجلها وهو صبي، قوله:

بأبي من وددته فافترقنا وقضى الله بعد ذاك اجتماعا

فافترقنا حولاً فلما التقينا كان تسليمه عليّ وداعا

بعض ما أبلغت بائعي الكتب عن المتنبي، أنه ولد بالكوفة عام

303 ومات مقتولاً بعد واحد وخمسين عاماً، أي قبل عشرين سنة فقط.

زار دمشق في صباه وكان يستشهد في إجابته على الأسئلة اللغوية التي

توجه إليه بنظم وشعر العرب، وأن لقب المتنبي ألصق به كونه ادّعى

النبوة، حيث ظن أن إجادته للغة تؤهله لقول كالقرآن، ولقي الأذى من

راوي قرطبة

ذلك، ثم انتقل لمديح الأمراء وطمع في موقع سياسي. أخبرتهم، طبعاً، أن الرجل لم يمت قتيل أهل الحكم وإنما على يد المدعو فاتك، الذي غضب من قصيدة هجا بها المتنبّي ابن أخته، ضبة ووصفه بالجبن عن الأخذ بثأر أبيه، فتأر فاتك لابن أخته. وأكدت للبائعين أن ترجمة حياته الشقيقة ستكون في الكتاب.

روائح قرطبة

كلما اقتربت من قرطبة كانت تفاصيل خوخه تتشعب في غزوها لمخيلتي أكثر من أي وقت مضى، وتذكرت نبض جسدها أثناء عناقنا اليتيم، لكنني غلبت شوقي وتوجهت إلى المقبرة لقراءة الفاتحة على قبر جدي قبل العودة للمنزل. دخلت المكان من الشمال سيراً يتبعني هرقل، وأيقظني من حزني وذكرياتي أمام قبر جدي صوت نباح وصراخ كلاب آتياً من جنوب المقبرة. دفعني فضولي لمصدر الضجيج خلف الأشجار التي تحيط بالمقبرة، فإذا بالعشرات من أشقياء قرطبة التفوا حول كلبين يتصارعان وتسيل الدماء من أطرافهما، بينما الحضور يشجعون ويحثون الحيوانين على العض لأن النتيجة ستحدد مصير رهانهم. أمسكت لجام هرقل بشدة بيدي اليسرى لتهدئته، ووضعت اليمنى على سيفي، وأخذت ألعن في الحضور وأجدادهم وأصولهم على ما يفعلونه من منكر بالرهان، وما يسببونه من ألم للحيوانات، وتدنيس للمقبرة. بالطبع لم أتوقف هناك، وتحكمت في غضبي ومنعت نفسي من الاشتباك معهم حتى لا أخسر حياتي أو أحد أطرافي قرب أسوار قرطبة بعد رحلة آمنة عبر الأندلس والعالم طوال خمسة أشهر.

وددت لو كان أولئك الأوغاد قد طالعوا كتاب "تفضيل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب". لابن المرزبان المحولي. إنه كتاب تملأه قصص الحكماء والأنبياء عن فضائل الكلاب، وتمنى بعضهم لو أخلص المسلم لأخيه كإخلاص الكلب لأصحابه أو رعايته للماشية. من إحدى روايات الكتاب أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، مرّ برجل قتيل فقال: "ما شأن هذا الرجل قتيلاً؟" فقالوا: يا رسول الله وثب على غنم

أبي زهرة، فأخذ شاة فوثب عليه كلب الماشية وقتله. قال صلى الله عليه وسلم: "قتل نفسه وأضاع دينه، وعصى ربه عز وجل، وخان أخاه، وكان الكلب خيراً من هذا الغادر". ثم قال الرسول: "أيعجز أحدكم أن يحفظ أخاه المسلم في نفسه وأهله كحفظ هذا الكلب ماشية أربابه". ماذا يا ترى كان عليه الصلاة والسلام سيقول لهؤلاء الأوغاد وهم يعذبون هذا الحيوان المخلص مقابل مراهنه محرمة، وفي مكان يرقد فيه صالحون وصالحات؟ لقد صدق القائل في أمثال هؤلاء:

ذهب الملح من كثير من النا س ومات الذين كانوا ملاحا
وبقي الأسمجون من كل صنف ليت ذا الموت منهم قد أراحا
أسرعت المسير إلى المنزل من دون الركض بهرقل في شوارع
قرطبة، أردت مفاجأة الأهل واستباق وصول الخبر إليهم لو تباطأت في
الطريق. كانت حرارة آب اللهاب تتصاعد من شوارع المدينة التي أفاقت
من القيلولة وتستعد لحياة المساء والليل. أوقفت هرقل بجانب الجدار
واتكأت على أرجلي ونهضت بجسدي قليلاً فإذا بي أطل على صحن
منزلنا. تنحنحت وألقيت السلام على أهل البيت، فإذا بأب سليمان واقفة
في وسط الساحة تشد المنديل على رأسها وتنظر أعلى الجدار لتتأكد من
القادم وتطمئن عليه قبل أن تلعلع زغاريدها في أرجاء الحي. فتحت أمي
الباب الخارجي بينما كنت أترجل عن هرقل، ونظرت إلينا ببعض
التعجب ولكنها لم تكف عن الزغاريد حتى أخذتها بالحضن، ولا أدري
متى انضمت خووخه إلينا في عناق ثلاثي.

"اتركنه قليلاً ليتصرف مع هذا الحيوان". كان صوت أبي مزيجاً من
القلق والأمر والتدليل للأثنين بينما كان يحاول وقف اندفاع هرقل للأمام
تجاهي. أمسكت لجام هرقل باليسرى، وقبّلت يد والدي ثم عانقته،
وأنزلنا حمولة الحصان حتى يتمكن من العبور إلى المنزل، وتقدمت
خوخه من هرقل دون وجل تحادثه بامتنان وتؤمن احتياجاته بينما هيأت
الوالدة الصالون لاستقبال الأقارب والجيران الذين توافدوا ولم ينقطع
ذهابهم وإيابهم لساعة متأخرة من المساء. هذا الوضع لم يمنعي طبعاً من

اختلاس بعض القبلات البريئة من خوخه، أو الاكتفاء بلمس شعرها أو كتفها إذا كانت هناك أعين تراقبنا. أردت لها أن تطمئن على صمود اتفاقنا.

صحت على صوت أذان الفجر من شيخ المسجد الجامع، لكنني مكثت في الفراش بأفكار مشتتة بين الماضي القريب والمستقبل المنظور. أفقت مجدداً على روائح إفطار أم سليمان الملوكي، حمص وزعتر وجبنة ماعز وبيض مسلوق يسبح في زيت الزيتون، قالت الوالدة إنه طازج من مزرعة جيراننا ماري وخسوس، وسمك مدخن وباذنجان مقلي وبالطبع خبز محمص. سبق ذلك كله قهوة حلوة افتقدتها منذ مغادره البيت. شاركني المائدة أختي فاطمة وزوجها سعيد الذي أحضرها من الزهراء في وقت متأخر من مساء أمس وبدت كأنها في أسابيع حملها الأخيرة. إلى جانب فاطمة جلست أمي وخوخه التي وصلت من الصباح الباكر لتساعد حماتها في شؤون البيت، ولم يكن والدي قد ذهب للعمل حتى الآن واتفقت معه على اللقاء في القيلولة، إذ رغبت التجول في قرطبة صباحاً وقضاء جلسة مطولة في الحمام.

"كل ما طلبته من دانيه حمله لؤي وأبحر به إلى ليون. هل سنحتاج إلى ورق آخر؟"

"سنحتاج لكل ورقة يمكن وضع اليد عليها. الأفضل أن نبحث في الأمر بشكل مختلف إذ سنحتاج لتصنيع إضافي، واتفاق دوري مع مركب، وربما تجليد كتب فارغة." قلت لوالدي وشرحت له باختصار انعدام الورق واستعمال الفرنجة للرقائق الجلدية واللفائف. "التقيت بالقلة الذين يديرون عالم التعليم والكتابة، وكلهم جوعى للورق والأقلام والحبر. صديقنا جريير حملني الكثير من التحيات إليك، يدير الآن أشهر مدرسة في بلاد الفرنجة تعتبر مركز العلم والفكر". تواعدنا على الحديث في التفاصيل لاحقاً، واحجبت عن سؤاله إذا كان لؤي سافر لوحده أم رافقه أحد، فلم أكن أعرف إذا كان كارل بقي على حاله أم عاد لأنوثته. "هل أخبرك أحد بالأمس أن عبده أنجبت قبل أيام ولداً"

راوي قرطبة

للمنصور؟" أَلقت خوخه سؤالها بعد مغادرة والدي المنزل وقبل الابتعاد عن طاولة الإفطار.

"سمعت ذلك ضمن الأخبار بالأمس، وهل هو جميل مثل أمه أم يشبه أباه؟"

"لم أرَ أمه، وهي بالطبع جميلة مثل كل بنات الملوك، وإن شاء الله لا يشبه ابنها أباه في شيء". ضحكنا، ولم أستشف في وجهها وجلاً من هذه الإشارة إلى المنصور، كانت حيادية الملامح ولم تحمر وجناتها لذكري أمر الجمال الذي أردت منه بعض الغزل الخفيف.

"أنت أجمل من عبده، وبالطبع لا مقارنة بين وسامتي وبين سحنة المنصور، وسأعمل لك ولدًا كالبدن". خفضت خوخه رأسها وتوردت وجناتها ولم تعلق، لكن فاطمة ضمتها باليسرى وضربتني على كتفي عبر الطاولة يمينها واتهمت الفرنجة بتعليمي السماجة، فأكملت حديثي وسألت خوخه: "ماذا سنسمي بكرنا؟" استعادت موضوعيتها بسرعة واقترحت أن يكون الولد الأول باسم جدّي، والثاني باسم أبيها، ووقعنا هذا الاتفاق بقبلة عبر الطاولة.

المنصور وعبده لقبا ابنيهما عبد الرحمن، وهو آخر الأبناء والبنات الشرعيين للحاجب، وأول من تلدهم عبده ابنة سانشو غرسيه الثاني ملك نبره الملقب أبركه، الذي رأى فوائده في مصاهرة المنصور فعرض عليه ابنته التي تحولت إلى الدين الإسلامي وتلقبت عبده كاسم مؤنث لعبده الذي يطلقه النصارى على كل مسلم يقترن اسمه بأحد أسماء الله الحسنى. جاء قرار ملك البشكنس بعد هزيمة قوات مملكة ليون وجيوش الممالك التي ناصرتها في معركة شنت منكش قبل أربع سنوات وبُعيد تغلب المنصور على القائد غالب. على الأرجح أن الملك طمع في تثبيت اتفاق بعدم مشاركته في حروب ضد الأندلس، وبالمقابل عدم اعتداء صهره المنصور على مملكة نبره. سيثبت التاريخ إذا كانت هذه خطوة موفقة أم لا. الثابت أن ابن عبده ليس وريث والده المباشر، فهناك عبد الله، وعبد الملك وكل منهما من زوجة مختلفة. دروس التاريخ تعلمنا

أن مثل هؤلاء سيختلفون. للمنصور أيضاً بنات من زوجاته الأربع، اختار لهن أسماء ورود، مثل بهار ونرجس وبنفسج. بالطبع أكثر الشعراء المبتدلين في نظم أبيات ذات علاقة بهذه الأسماء طمعاً منهم في العطاءات.

خمسة أشهر بعيداً عن قرطبة بدت لي كدهر من الزمن، ربما يسهل فراقها لو كانت المدن المنشودة أفضل منها، لكن ما رأيته من مدن الأندلس الأخرى، وفي صقلية وجنوه ومدن بلاد الفرنجة، لا تقارن بشيء من خصال وفضائل حاضرة العالم. لم يستوعب سعيد أثناء مرافقتي للحمام لماذا نذهب لوسط المدينة متجاوزين العديد من الحمامات، ولا يرى مبرراً للسير ببطء وتَنَشُّق الروائح وتجول العيون في ما هو ليس بجديد علينا. روائح عطور النساء المارات في الطرقات، حركة البيع والشراء الصباحي لكل ما يخطر على البال من بضائع، حرير وملابس قطنية بألوان زاهية، وأغطية رأس متنوعة وسراويل وقمصان، كل شيء متوفر بخيارات عديدة في الشكل واللون والسعر. عشرات أنواع الحلوى والمشروبات، مطاعم في الطرقات، أزيار ماء سبيل أمام محلات يريد أصحابها كسب حسنة عند الله بإروائهم للعطشى، حلاقين يزينون الرجال ويصبغون الشعر واللحي بالحناء، عطارين يبيعون عشرات أصناف التوابل والأعشاب البرية ويصنعون خلطات علاج طبيعي، حمالين يلهثون خلف سيدات قرطبة، وبعضهن يقفن أمام المنجمين لقراءة طالع اليوم بينما أنزل الحمالون المشتريات عن أكتافهم لالتقاط الأنفاس واجترع كوب ماء بارد من أحد أزيار الفخار.

أمسك سعيد بكتفي وشدني للخلف حيث وقفت أمام بيع خبز. لم يكن المتجمعون ينتظرون دورهم لشراء الخبز الطازج المجلوب من فرن قريب لمحل البياع، ولكنهم متطفلون يتابعون محتسب السوق وهو يختبر وزن الأرغفة. على ما يبدو أن زيارته جاءت استجابة لشكاوى مواطنين، فقد تنصّل البياع من المسؤولية وادعى الجهل بالأمر وعدم الانتفاع من زيادة أو نقصان الوزن. "أنت وصاحب الفرن ستدفعان غرامة وستركبان

الحمير بالمقلوب يوم الجمعة". لم يكن المحتسب بحاجة لأمر من القاضي أو صاحب المدينة لفرض حكمه الفوري، فضمن اختصاصه حماية مصالح الناس في الأسواق من غش الميزان والبضائع التالفة وملاحقة مروجي الدنانير المزورة، ومنع الرذيلة أو مضايقة النساء، ويمكنه فوراً إقرار الغرامات والعقاب المعنوي باللفظ أو التطويق على حمير والمناداة على الراكب بالمقلوب لفضحه والتعريف به والسخرية منه. أي عقاب أكبر من ذلك مثل مصادرة المال لتعويض المتضررين، أو جلد اللصوص والسكران، يحتاج لأمر من صاحب المدينة.

أعطيت سعيدة إجابة مقنعة عن سبب تبسمي ونحن نجتاز عتبة الحمام الذي لم يدخله في السابق. لم يكن بوسعي الآن الإقرار بشيطنة الصبا مع خيران في رصد أجمل أجساد فتيات قرطبة ومعرفة بيوتهن. "إذا خرجت من قرطبة ستعرف حجم نعمة الله في فرصة الاختيار بين عشرات الحمامات في ريبض واحد. في بلاد النصارى كنت أشعر كلص كلما فكرت في غسل جسدي". أنهيت جملي وسمعت سؤال الحمامجي عما نريد من اغتسال. "البرنامج كله دون نقصان، بخار فرك وتدليك وصابون وحلاقة شعر وتبييض أسنان وتعطير. ماذا لديك من العطور؟" طلبني هذا كان يعني على الأقل ثلاث ساعات عمل مقابل أعلى ثمن. "يبدو أنك عريس ودخلتك الليلة، مبروك. لدينا للرجال عطر الليمون وخشب الصندل".

"فقط عطران؟ الفرنجة يقولون إننا مجانين ندفع آخر درهم نملكه لشراء الصابون بدل الخبز، وأنت لا تعرض في حمامك سوى عطين؟" "هناك العنبر وخمسة زيوت عطرية مختلفة، ولكنها في العادة تستعمل للنساء". لم يعرف الرجل من نبرة صوتي لو كنت جاداً أم ممازحاً، وتركته دون توضيح لتخميناته، لأضمن أفضل خدمة. اخترت عطر الليمون، ووافقني سعيد، وطلبت من الرجل إحضار زجاجات عطور النساء، ثم اخترت زيت الياسمين الذي يتميز به هذا الحمام عن غيره،

واشترت خمس قوارير كهدايا لإنات العائلة، واستكملت بمساعدة سعيد تذكر محارمنا لشراء هدايا تبدو لهن وكأنها من خارج قرطبة.

"ماذا ستهدي خوخي إذا؟"

"هذا يا سعيد ما أفكر به الآن. سأعطيها أحد شالات الحرير، أو قارورة عطر مثل الأخريات. لكن بعد يومين أو ثلاثة لا بد من إظهار التميز بهدية قيمة".

"طالما قررت الزواج، فلا بأس من عُقد أو أساور ذهبية. دعنا نخرج، بعد الاغتسال، على سوق الصاغة فربما عثرت على مبتغاك". لم نحتج إلى الابتعاد كثيراً عن طريقنا، وكنت أعرف كل محلات الصاغة في السوق من كثرة زياراتي له مع فاطمة ورفقه وشفه عندما كن يحلمن بالعرسان وهدايا الذهب ويخططن لما يناسبهن من الحلبي، إن وافقهن الحظ بابن حلال ميسور. بعض القلائد الذهبية صنعت مما يشبه حبات قمح كبيرة مجوفة ومرتبطة ببعضها عبر حلقات، وبعضها الآخر دنانير، أو مجموعة أهلة معلقة في سلسال. لم تعجبني أيُّ منها، ولا حتى الحلبي على شكل زواحف مثل الجعارين والشعايين والسلاحف. خطرت لي في محل صائغ يهودي فكرة إقتنح بها بعد تردد، ولكنه طلب عدم تحديد السعر سلفاً ومنحه بضعة أيام لتنفيذها. نقدته خمسة دنانير ذهبية ليتأكد أن جهوده لن تذهب هدراً، واتفقنا على أن السعر سيكون حسب الوزن مع إضافة المصنعية.

"كم تريد بدل مصنعية يا ابن العم؟ عليك مراعاتي فكللفة الزواج باهظة".

"وأنت تبدو ميسوراً جداً حتى تترك كل الحلبي وتختار شيئاً غير مسبوق، بل إنك غارق في الحب على ما يبدو. أريد ثلاثة دنانير ذهبية بدل الصنعة ولن أحسب عليك جدائل الحرير. أما إذا كنت مستور الحال فيمكنك استئجار ما تريد من الحلبي لبضعة أيام".

"حرام عليك، ثلاثة دنانير هي أجرة عامل لسنة كاملة. دعنا نحسب ربع دينار عن اليوم، وبمهارتك فلن تحتاج لأكثر من يومين".

"الزبال في السوق يأخذ عشرة دنانير في السنة، والوزير يقبض خمسة عشر في الشهر، وأنا أريد نصف دينار يومياً لأربعة أيام، هذا أفضل عرض".

"سأعطيك نصف دينار لليوم لثلاثة أيام، وإذا لم يعجبني ما صنعت سأتنازل لك عن دينار واحد فقط كتعويض عن جهودك." مددت يدي إليه ورسمت بملامح وجهي أن هذا آخر عرض، فشدّ على يدي موافقاً وأعدنا شرح المطلوب. حبات عنب ذهبية متراسة ومعقودة على حبل حرير أخضر مفتول لتشكل قلادة يتوسطها خوخة ذهبية.

ودّعنا الصائغ وأنزلنا حمولتنا من المشتريات بعد دقائق قليلة في مطعم عبدو، وهو الأشهر من بين العشرات في أسواق قرطبة، ليس لحجمه أو رونقه، وإنما للذة الكباب والكفتة الحارة ومشروبات اللبن المالح التي تخصص المطعم في طبخها، ويوزعها على أصحاب المحلات في السوق حسب طلبيات مسبقة. في المحل توجد خمس طاولات فقط ومتقاربات جداً، وغالباً ما تدفع النسيمات دخان الشواء من الرصيف إلى المحل فتشعر بحرقه في العين من جراء الفلفل الأخضر الحار الذي يخلطه مع الكفتة أو يشكه بين قطع الكباب قبل تعليقها فوق الفحم. لم يكن لديه مأكولات أخرى، ولا حتى مقبلات مثل الحمص أو المتبل أو أنواع من السلطات كما هو الحال في معظم المطاعم الأخرى. فقط لحوم وصحن زيتون وبعض المخللات.

"لم تفقد الكثير من وزنك في هذه الرحلة يا سليمان، وما تفعله الآن خطير، إلا إذا كنت عازماً على الزواج هذا الأسبوع". الخطورة في نظر سعيد كوني أعزب، واللحوم تقوي الطاقة الجنسية التي لا بد من تصريفها بشكل أو آخر.

"لست بحاجة للتعويض في الوزن، لكن الشوق للطعام صعب الكبح، ثم لا بأس من تخزين الطاقة. نصف كيلو من اللحوم لكل منا يُستهلك في ركض ساعة على الأغر". لم أكن قررت أي موعد للزواج بعد، لكن ذكريات التجربة مع سمر طوال الرحلة من صقلية حتى ليون،

ورؤية خوخته مساء الأمس وصباح اليوم اجتمعتا سوياً لتهيج خواطري، وأصبح عليّ السفر قريباً إلى دانيه، فاعتبرت أن من الأفضل حسم أمري سلفاً. "أريد بالفعل الزواج في أقرب فرصة، سأتحدث مع أبي في شؤون العمل أثناء اليومين القادمين، وأسجل تفاصيل الرحلة قبل نسيانها، ثم سأعقد قراني على خوخته". لم أطلع سعيد على قصة سمر، وشعرت ببعض الخيانة تجاهه لكتمانني السرّ عن ابن عمي، كنت أعرف أن بوسعه كتمان سرّ أكله في المطعم حتى لا تغضب حماته. لكن سرّاً من حجم قصتي هذه، كان سيخبر فاطمة به فوراً، وهي لن تخفي عن والدتي سرّاً وهذه ستبوح لزوجها بالأمر. هكذا سيشعر جميعهم بشفقة على خوخته لأنهم لن يخبروها ولن يتطاولوا على نقدي، وبالطبع لم يكن ذلك ضمن نهجي، فزوجتي يجب أن تشعر بالفخار وتحاط من الجميع بالتقدير والاحترام. إلى جانب ذلك لم تكن هناك حاجة لإثارة وتحريك خيالات سعيد بينما فاطمة في أسابيع حملها الأخيرة.

فلسفة خلافية

طوال الأسبوع التالي ضغطني العمل بشدة لكن دون أن يحجيني أي شيء عن تحريك مشاعر خوخي مرةً أو أكثر كل يوم ونحن نجهز ليوم عقد القران. في النهار أخطط مع الوالد لتسيير وتوسيع العمل في شتى مجالات النسخ والتجليد. قرنا أيضاً فتح معمل لصنع الورق لنستقل في عملنا، وتوسع في تجارته؛ وسدّ الحاجة المتزايدة لهذا الاختراع الجديد بالنسبة لنا. إلى جانب ذلك أستمتع تباعاً من أبي لما فاتني من أحداث لأسجلها، عملاً بوصية جدّي أن أتحمّل مسؤولية الرواية. في المساء يحضر الأقارب للتسليم والاستماع للنوادر مما شاهدته وسمعته في بلاد الإفرنج. أكثر ما كان يعجب الأقارب هي قصص الساحرات، وقهقهوا عند سماعهم كيف يتأكد الفرنجة من تهمة السحر. رويت لهم أن القساوسة، أو غيرهم من الرجال، غالباً ما يتهمون النساء اللواتي يتمنعن عن مطاوعتهم جنسياً بأنهن ساحرات، سواء أكان ذلك للانتقام، أو تحسباً من فضحهن للأمر، أو لإخضاعهن لرغباتهم بالوعد أنهم سيبرثون ساحتهن. كانت معظم الساحرات فقيرات، أو أرامل، أو يشتغلن في طب الأعشاب. للتأكد من البراءة تُكتف المتهمة بالسحر بالحبال وتُشد أيديها إلى أقدامها خلف الظهر ثم تلقى من جسر في النهر، فإن طفت على سطح الماء ينتشلونها ويحرقونها بعد ثبوت مساعدتها من الشيطان الذي نجاها من الماء، وإن غرقت فهي بريئة وتعتبر شهيدة مصيرها الجنة. أخبرتهم أيضاً أن المولود المتوفى قبل تعميده في الكنيسة لا يدفن في المقابر مع الآخرين، وأنهم يعتقدون أنه يبقى محروماً من الجنة وبعيداً عن النار.

معظم بقية الليل، بعد مغادرة الأقارب، كان الحديث يدور منفعل العواطف منخفض الصوت، بين والدي وأصدقاء له، بعضهم جدد بالنسبة لي، ويبدو أنهم سوياً يتفقون في انتقاد الوضع السياسي في قرطبة ويمهدون لتوحيد رؤاهم أو ربما يهدفون فقط لتنفيس خوالجهم. هؤلاء الرجال كانوا الأكثر اهتماماً بمشاهداتي وتقييمي للوضع في بلاد الفرنجة، والتعرف على رؤية القوم لنا في الأندلس ولببلاد الإسلام بالإجمال. بعض أصدقاء أبي كان على دراية، تبدو تفصيلية وشيقة، لما يجري في المغرب ومصر والشام وبغداد، وأخذتنا الحوارات إلى شتى المجالات، مثل دور العبيد والجواري والنساء في دول المسلمين، والفرق بين الملك والسلطان والخليفة والامبراطور، وما هو دور الحجابة، وأي مصير يتوقعونه هم للخليفة الأموي وللمنصور. قضايا فلسفية وسياسية خطيرة ومعقدة ولكنها لم تسلخني نهائياً عن أفكاره الخاصة، فقد تعلمت بسرعة كيف أعيش كل ظرف باهتمام وانفصال عن الظرف الآخر. وممارسة التجارة والصناعة كمن لا هم له غير جمع المال، وخوض نقاشات سياسية كمن وهب روحه للإصلاح وخدمة الأمة، وملاطفة مع خوخته كالعاشق الولهان، عملاً بحكمة أن الحياة بلا حب كالجدول بلا ماء.

تقييمات رُفقاء والدي عن الوضع العربي والإسلامي كانت، بالطبع، كلها متشائمة وتوقع مصائر مأساوية، فزدتهم بما كنت أقوله تعاسة تدفعهم للتأفف المتواصل واستغفار الله وطلب الرحمة لمصيرنا. أخبرتهم بمن التقيت من علية القوم والمؤثرين في صناعة القرار. "يمكنني التأكيد أن المعنيين يسيرون ضمن نهج منظم طويل الأمد أرى أنهم سيبلغونه ولو بعد حين. لديهم أديرة منظمة وتدير إصلاحاً ينتشر بسرعة، ويتحكمون في مدن وإقطاعات مستقلة، وحرّضوا على عدة حروب خارجية، كانوا المحرك لاسترداد جبل القلال ومحاولة القيصر أتو الثاني احتلال صقلية. لا يريدون تقدماً حضارياً، ويتوقعون لتقدمنا أن يغرقنا في الرفاهية ويضعفنا، ويرون أننا في المشرق نُحكم من غرباء لا يعرفون لغتنا.

هدفهم التركيز على بناء القوة الحربية فقط، والإصلاح الديني، ثم دمج الدين والقوة في حرب مقدسة يقولون إن هدفها توحيد البلاد وتنصير الشمال والروس والشرق، ولكنني أعتقد أنهم سيتجهون ضدنا إذا تلمسوا الضعف من المسلمين. سمعت من كل المعنيين هناك أن مسؤولية تخريب بلادهم تقع على القرصنة الإسلامية والغزوات المجرية والنهب النورماندي. ناهيك طبعاً عن قناعتهم أن كل بلاد حوض البحر الرومي، كما يسمونه، نهبها العرب من بيزنطة. ويعولون على ممالك النصارى الشمالية أن تواصل دفعنا للتقهقر حتى نعود لأفريقيا، وربما لاحقونا هناك أيضاً". بالطبع أسمعهم في الليلتين الأوليين من النصوص المنقولة عن الأساقفة ومانويل، وقصص وتاريخ القوم ما يثبت ذلك التحليل للوضع.

"هل من جدوى لإبلاغ المنصور بما يخططون...؟" قبل أن يكمل جمعه رأيه قاطعه الآخرون بالرفض.

"وماذا سيفعل؟ مزيد من الهجمات أم الكف عنها؟ إنه نهَاب محاط بمرتزقة لا طمع لديه سوى تثبيت سلطته، ولا همّ لهم سوى النهب والسلب. الخطر الآن ليس الفرنجة، وإنما الترددي لوضعنا الداخلي. ما هو مصير الخلافة الأموية؟ وهل سيُسلم المنصور الحجابة لأبنائه؟ لو كان ينوي خيراً لأعاد السلطات إلى الخليفة هشام الذي بلغ الرشد، بل عمره الآن واحد وعشرون عاماً ولا زال أسير القصر منذ تسع سنوات بعد موت أبيه الحكم... رحمه الله". كاد أبو صالح أن يتجاهل طلب الرحمة للخليفة الحكم، ولكنه استدرك، ثم استغفر ربه وهو يمرر يده على لحيته التي اختلط فيها السواد مع البياض. تدخلت في الحديث طالباً منهم توحيد الله، وندمت على بثّ التشاؤم بينهم في الليالي السابقة وأخذت أتحدث عن مساوئ الوضع في بلاد ومؤسسات الفرنج والروم والبيزنط وتشابهه سيطرة النساء والحجاب على القياصرة الأطفال، وعن صراعات الإخوة، إضافة إلى فساد البابوات إلى درجة البغاء والقتل والتسميم، وهو ما ليس عندنا ولله الحمد. "هذا لا يعني أنهم سيقبضون

كذلك، ولكن هناك وقت كافٍ للعمل على تنشيط الوضع الإسلامي، فربما رزقنا الله بحاكم جيد يصبح أمثلة يحتذي بها الآخرون".

"لماذا تظن يا سليمان أن وضعنا هنا أفضل منهم؟ ما يفعله البابا من محرمات ويستهجنه الناس هناك، يحدث من بعض القضاة والأئمة والوزراء وغيرهم ولكن من دون أن يثير أحداً. الفعل في الحاليتين تمنعه الكتب السماوية والشريعة والأخلاق. لديهم كرسي بابوي واحد حالفه سوء الأخلاق لكل من جلس عليه في القرون الماضية، ولدينا ثلاثة، واحياناً خمسة خلفاء لله أو للرسول، وكلهم يخالفون الله والرسول قولاً وعملاً". كلام علي، وهو أصغر المجموعة سناً ولكنه يكبرني على الأقل بعشر سنوات، أقنعتني على الأقل أنني لست المسؤول عن تشاؤم أصدقاء أبي، فانتهزت فرصة التطرق للخلافة لتغيير نهج الحديث من حوار طرشان وعميان، إلى بعض من المعلوماتية وسألت إذا كان الخليفة لله أم للرسول، وحرصت على قول عليه الصلاة والسلام، ولم أوجه السؤال إلى علي رغم أنه الذي طرح الإشكالية.

"بعدما اختار أصحاب الرسول، عليه الصلاة والسلام، أبا بكر الصديق كخليفة .." تناول أبي الحديث بهدوء وبنبرة عرفت منها أنه يريد إنهاء الحديث والسهرة "..أخذ الناس ينادونه: يا خليفة الله. قال لهم لست بخليفة الله، وأنا أخلف رسوله بعد موته، والله حي لا يموت ولا يُخلف، فقولوا: يا خليفة رسول الله. حسب هذه الواقعة المثبتة فالأمر محسوم، أو هكذا يفترض. وفي الواقع استمر اللقب في عهد الخلفاء الراشدين حتى استولى معاوية، عن البيت الأموي، على الخلافة ووضعوها في ورثتهم وأنكروا الاختيار بالشورى. حينها أعلنوا القدرية واعتبروا أن كل شيء يتم محدداً سلفاً من الله، وبالتالي ما يقوله ويفعله ويأمر به الخليفة متفق مع إرادة الله، أي أن الخليفة هو خليفة الله. تلا ذلك أن العباسيين ادعوا أن الخلافة يجب أن تبقى في بيت رسول الله، بينما فريق ثالث هم الخوارج أرادوها بالاستشارة واختيار الصالح من المؤمنين. هكذا ولدت الخلافات التي قسمتنا منذ الأيام الأولى، وعندما

راوي قرطبة

ضعفت الخلافة العباسية في بغداد بعد أن قضت على الأمويين في الشام، أعلن الفاطميون خلافة ثانية في المغرب، وتبعهم إعلان الناصر، رحمه الله، في قرطبة لخلافة ثالثة ولكنها أموية بالطبع ولدينا الآن ثلاثة خلفاء، وغيرهم في أفريقيا، ولا يحتكم أي منهم حتى على حريمه في قصره، وكلهم يتلقبون بأسماء تستمد سلطتها من الله مباشرة".

لم يكن في حديث أبي مبالغة على الرغم من قسوة الحقيقة. خليفتنا هشام أسير القصر في الزهراء والخلفاء في بغداد يعزلون ويعينون ويساقون من سجن إلى آخر بأوامر من الجند المرتزقة. تخوفت على مستقبل أبي من صحبة هذا الفريق، وتجرات بعد انفضاض سهرتهم على سرد قصة قصيرة على مسامع والدي قبل النوم. قلت إن أحدهم طلب نصيحة من حكيم، أيُّ الناس أحق أن يُتقى شرهم؟ كان جواب الحكيم: عدو قوي، وسلطان غشوم، وصديق مخادع. وهمست له بأن المنصور قوي وغاشم، وتساءلت إن كان والدي يثق بأصدقائه، وذهبنا للنوم دون ازادة. في تلك الليلة قررت كتابة تقرير موجز عما يدور في بلاد النصارى وتسجيل ما أعتقد أنهم يخططون له، ورأيت أن يحمل خيران التقرير إلى الحاجب المنصور مباشرة. في الوقت ذاته سألجأ إلى التحدث في حلقات الجامع حول رحلتي ومشاهداتي واستنتاجاتي، ولكن بشكل موسع، مع الإكثار من شرح الفوارق بين نظم الحكم. هذا بحد ذاته سيعطيني فرصة للحديث عن الفوارق لأنظمة الحكم في بلاد الإسلام أيضاً، ولن أتهم بالتحريض ضد أحد كوني سأكتب للمنصور سلفاً تاركاً له حرية طلب السماع للمزيد أو إهمال الأمر دون التفات إليه.

إشكالية الحكم كانت واضحة في ذهني، المشكلة هي كيف أطرحها في العلن لتفهم من البعض بين السطور دون أن ترتد سلباً عليّ. الخليفة عليه تنفيذ حكم الله من عدل ومساواة وفرض الواقع الإيجابي المثالي كما في القرآن الكريم، أي وظيفته دينية ودنيوية. السلطان، وكما يدل اسمه، يحكم بالتسلط لتنفيذ ما يخدم مصالحه. الملك لا يتغير عن السلطان وغايته التملك للبلاد وتوريثها من بعده ولا يوجد ما يُلزمه

بتطبيق الأحكام السماوية. عندما خلط الخلفاء في رؤاهم، أسرع انحطاطهم. في كل بلاد الإسلام وصلنا إلى أوضاع لا نُحسد عليها وأصبح العبيد والجواري يديرون الحكم ويتملكون ويتسلطون ويتلاعبون بالخلفاء. بداية العلة ولدت مع فرض نظام التوريث الخلافي بدل التولي بالشورى. أصبح الخلفاء يخافون من حولهم فاستجلبوا المرتزقة الأجانب إنثاءً وذكوراً صغاراً وكباراً. الجواري أصبحت تلد الخلفاء الجدد، والعبيد الصغار كبروا وتملكوا الجيوش وأداروا القصور، فعزلوا وعينوا من أرادوا، كما هو الحال منذ زمن في المشرق. وضعنا في الأندلس مشابه جداً مع فارق أن المنصور ليس ابن جارية، ولكنه احتال على الجارية أم الخليفة وتوصل إلى سدة الحكم بالغش والخداع والقتل وعبر دعم مرتزقة من البربر. يدير الخليفة كيفما شاء، ويتملك ويتسلطن ولكن مع تمسكه بلقب حاجب. بدون شك إن وضعنا هنا هو الأفضل بين دول الإسلام وفي العالم كله، لكن السؤال إلى متى يستمر ذلك التميز؟ كل ذلك بحاجة لصياغة حيادية يضاف إليها شروحات أخطار الفرنجة إذا أسرعوا في تحسين أوضاعهم ولم ننجح في سد الثغرات للحفاظ على التفوق. والخطوة التالية هي إيصال المحتوي للشيوخ والعلماء في الجامع. لو كان الخليفة الحكم قد صمد أمام رغبات صبح، أم هشام، وولّى أحد إخوته حاجباً على ابنه، لما كانت البلاد قد وقعت في براثن العامري.

سنة الحياة

جلس بجسده المتكور بين الوسائد، وتدلت ساقاه من الأريكة بينما طيات دهون بطنه ترتكز على فخذية وتقترب من ركبتيه. كان أحد مساعديه يناوله الملفات الخاصة بقضايا من يقفون أمامه، بينما مساعدون غيرهم ينظمون دخول الناس بعد أن قبضوا منهم الرسوم قبل الدخول. كرهت أن يكون ابن ذكوان هو القاضي الذي يوقع على عقد قراني مع خوخته، لكن اختيار قاضٍ آخر كان سيعني السفر خارج قرطبة وتسجيل زواجنا في مدينة أخرى مما سيؤثر على قضاء حاجياتنا الرسمية في المستقبل من بيع وشراء للممتلكات. كان شكله في صالون بيت القاضي مقابل الحمام الخلفي يوحي بصدق كل ما يقال عنه. هو الذي وقف خلف إحراق الكتب الفلسفية من مكتبة الحكم، وهو الذي يُسوغ كل إجراءات المنصور، ويبرر احتجاج هشام بترويح قصة الحاجب أن الخليفة معتزل للتعب. كل من يختلط به وبمساعديه يعرف أنهم يمطمطون القضايا ليتمكن المساعدون من ابتزاز الرشاوى لإنجاز المعاملات. بدل أن يكون قاضينا سيفاً للحق كونه أعلى مرتبة دينياً من الحاجب، فانه يُسوغ الشر. أحياناً أتصور أن الله تعالى يحاسب ويعاقب البعض قبل يوم القيامة، يعاقب أحياء بمرض يمحو كنز القناعة لديهم، أو بفقر ناتج عن طمع فائض، أو يرزقهم بخلف بائق، وغيرهم بتخمة تحرمهم من متاع الدنيا، كما هو في حالة ابن ذكوان.

وقفت مع خوخته أمام القاضي، وأحاط بجوانبنا أبي، وأبوها خسوس، وعمي عيسى الذي حضر من مالقا خصيصاً مع عائلته للمشاركة في الفرح. كان ابن عمي سعيد هو الشاهد الثاني. تمت الإجراءات

بسرعة، وردد خسوس كلام ابن ذكوان جملة بعد الأخرى أنه زوجني ابنته، وقبلت أنا بالتالي العطاء، وقبل ذلك سألت القاضي خوخي إن كانت راضية عن هذا الزواج، فأكدت رضاها. خرجنا من صالون بيت القاضي تحت زخات الرز التي انهمرت علينا في الخارج من الأقارب الذين رافقونا بالأغاني حتى باب الجامع الكبير. طلبت منهم عدم الانتظار في الخارج ووعدهم باللقاء في البيت بعد وهلة. دخلت مع خوخي لأول صلاة مشتركة بيننا في هذا المكان الجديد في كيانها والذي يمثل ركناً أساسياً من كياننا. في ساحة المسجد كان خسوس وماري ينتظراني حسب اتفاق بيننا دون معرفتهما بقصدي. أردت لخوخي أن تراني بعد الزواج منفرداً مع عائلتها الصغيرة لتشعر بخصوصية، وكنت أتخوف أن تتذكر والديها وأهلها فتضيق نفسها.

صحبتهم في نزهة خارج أسوار قرطبة، واتجهنا من باب إشبيلية إلى الغرب ليجدوا أنفسهم أمام كنيسة شنت اجلح. أمسكت بذراع خوخي ودخلنا الكنيسة مع خسوس وماري، وأشعلت خوخي شمعتين عن روح والديها الموتى وتجولنا قليلاً في أرجاء الكنيسة بينما والداها الأحياء يؤديان صلاتهما.

"لم أدخل هذه الكنيسة قبل الآن، وفي السابق كنت أزور مع خسوس وماري كنيسة الحي القديم".

"لذلك أحضرتك لتريها. هذه كنيسة ذات تاريخ عريق. عندما اقتحم فرسان العرب قرطبة بقيادة مغيث هرب الحاكم القوطي وبقية المدافعين من قرطبة واحتموا بالكنيسة وأسوارها طوال ثلاثة شهور. حين قطع عنهم مغيث الماء هرب الحاكم ولكن مغيث أسره وانتهى الوضع باستسلامهم". كانت خوخي منصتة تماماً، ولكنني اختصرت القصة ولم أبلغها بتفاصيل المعركة. "كانت هناك كنيسة أخرى مكان الجامع الكبير، وقد اقتسمها المسلمون مع النصارى للصلاة. في عهد عبد الرحمن الداخل احتاجت زيادة المسلمين لجامع أكبر، وهكذا اتفق مع النصارى أن يشترى نصف كنيستهم لتوسيع الجامع، وأن يساعدهم في إعادة ترميم هذه الكنيسة للاستعاضة بها عن الأخرى".

كانت المفاجأة الأخرى لخوخه حين ألبستها قبل مغادرة الكنيسة العقد الذهبي من صنع الصائغ اليهودي القرطبي، حيث تدلّت ثمرة خوخ بين صفي حبات العنب واستقرت أعلى ملتقى ثدييها. بينما اغرورقت عينا خوخه بالدموع، كانت ماري تعبر عن إعجابها بالعقد بفرح شبه طفولي، وألحت علينا بالذهاب إلى مُنجمها المفضل لاستشفاف طالع زواجنا. تيقنت من فشل خسوس في إقناعها بعدم الذهاب فتدخلت في الأمر.

"وهل تظنين أنني تركت تاريخ الزواج للصدف، لقد ذهبنا صباح اليوم للمنجم وأكد لنا حسن الطالع. هذه الأمور يا ماري يجب أن تتم قبل الزواج وليس بعده".

قررت سلفاً الاكتفاء باحتفالات زواج مختصرة حتى لا أتقيد في المراسم طوال أسبوع كامل، واتفقت مع خسوس وماري ألا يجهزا خوخه بأي من الأثاث الآن ريثما ننتهي من بناء بيتنا الريفي في مزرعة اشتريتها أخيراً شمال قرطبة. في واقع الأمر لا يمكن اختصار قصة هذه المزرعة بقول إني اشتريتها. عندما عدت من سفري إلى قرطبة وجدت أن عجوزين قويتي البنية قد انتقلتا للسكن في شارعنا. واحدة منهما لا تحب الرجال ولم تفكر في الزواج، حسب قولها، والثانية أحبت شاباً ولكن إخوتها الأربعة كرهوا حبيبها ورفضوا تزويجها منه، فرفضت هي تزوج غيره وبقيت عانساً. علاقة العجوزين ببعضهما قديمة منذ أيام الصبا، وتطورت للسكن المشترك منذ عقود. التي حُرمت من حبيبها أُجبرت إخوتها على دفع تعويض لإعاشتها فتنازلوا لها عن قطعه الأرض التي أصبحت مع الزمن ملكاً مشتركاً بين الاثنتين. جارتانا قررتنا أن تبيعاني تلك الملكية بثمن زهيد، ولكن بشرط أن ألتزم بإعاشتهما طوال بقية حياتهما، وإذا مت قبلهما أن تعود الأرض لهما مرة أخرى. بالطبع قبلت بالشروط، كون السيدتين تعجزان عن إدارة الأرض والاستفادة منها بشكلٍ مجدٍ، ولو باعتها الآن فربما لا يكفي ثمنها لسد حاجتهما بقية العمر الذي قد يمتد لعقود أخرى، فكل منهما لم تبلغ الستين.

لن أحدثكم عن تفاصيل ليلة فرحي، فذلك شأن يخصني ويخص خوخي فقط، لكن يمكن الإشارة إلى أن أحاسيسي تنوعت وتخطت النسوة وشملت غرائز الحب والالتزام وبناء أسرة وحماية أفرادها، وشعرت تجاه خوخي بعطف إضافي وربما تأنيب ضمير واحترام من جرّاء ما حلّ بأهلها ومن تحملها مسؤولية الاستمرار بالحياة والإقبال عليها. كان زواجنا يوم الخميس الحادي والعشرين من جمادى الأولى عام 375 الذي توافق مع الثالث عشر من أكتوبر عام 985.

هلّ علينا شهر رمضان الكريم بعد ثلاثة أشهر ونصف من زواجنا، ولكنني كنت قد أنجزت عدة مهام قبل بداية الصيام، الذي لم يكن صعباً هذا العام كونه جاء في برودة يناير وفبراير 986. زرت دانية بحمولة ورق وكتب جديدة ضمت مائة نسخة من ديوان المتنبي لتوزيعها على أسواق المدن في الطريق، ولإرسال بقيتها هدية إلى علي بن حمزة ليوزعها على الأصدقاء والأعيان في صقلية. وجدت كارل قد عاد إلى الجنس الأنوثي، واتخذت اسماً جديداً هو جميلة، وادعت أنها زوجة التاجر الموزرابي لؤي، الذي تصادف رجوعه من رحلته الأولى قبل مغادرتي دانية. شرحت لجميلة مستجدات زواجي وعملي وتفهمت الأمر، ولم تتوقع غير ذلك إذ كانت قد انتحلت شخصية المتزوجة. اتفقنا على تفاصيل الشراكة التجارية وسلمتني بقية حليّها ومجوهراتها لتوسيع نشاطنا، وكان لؤي قد أحضر معه طلبات جديدة متنوعة، وتوصل لنجاعة الإبحار من دانية إلى نربونه حيث تتوفر مراكب كثيرة بعضها يُحضر العبيد والخصيان، ومن نربونه يستأجر مركباً صغيراً إلى ليون أو يسلك الطريق الروماني البري القديم. أقنعت جميلة المباشرة في تأليف كتاب عن صناعة الأطعمة يضم الأكلات الصقلية والفرنجية والأندلسية، وتعهد لؤي بالسؤال عن تفاصيل الأكلات من بلاد أخرى وأينما حل، وأخذت منهما وعداً بزيارتنا في قرطبة متى أرادا، وإذا تأخرا في الحضور من ذاتهما فعليهما الاستجابة لأية دعوة مني لاحقاً.

قبل العودة من دانية تركت الكتب مع وكيلنا ليسلمها لحسن البحري

ليحملها بدوره إلى معرفتنا المشترك علي بن حمزة، أبو النعيم، وتركت مع الكتب رسالة خاصة إلى مُضيفي ومُضيف المتنبّي، كما تركت رسالة إلى قاضي بلرمُ بصدد مهمتي تجاه البطارقة الأسرى. في نهاية الرسالة لأبي النعيم رجوته أن يذكر شكري أيضاً إلى خادمته سعده، وأني قد أوصلت أمانتها وصليت لها ركعتين في جامع قرطبة. عندما تسمع سعده بذلك ستعرف أن سمر وصلت بسلام لأهلها. لم يكن بالوسع الإفصاح أكثر من ذلك لأن خبراً من صقلية وصل إلى دانية ومفاده أن عبد الله تولى بدل أخيه جعفر، وكانت جميلة، سمر سابقاً، من حريم عبد الله، وبالتالي فالأفضل عدم التذكير بما قد جرى. أبلغت جميلة بذلك الخبر ورجوتها ألا تتهور بالاتصال مع سعده حتى لا تُعرض أياً من المعنيين للمخاطر. أما الرسالة للقاضي ابن مالك فقد اشتملت على موجز مفيد عن تصوراتي للوضع الروماني والإفريقي والكنسي، وتطرقت إلى قضية الأسرى مؤكداً رفض أي من المعنيين دفع فدية لهم، ونوّهت للقاضي بأن أفضل عمل يخدم الإسلام ويضر مساعي توحيد الفرنجة والروم هو إطلاق سراح البطارقة بإكرام، وإرسالهم إلى بلدانهم. هذه الفكرة ستبدو للقاضي معقولة جداً، خصوصاً بعد الانتهاء من مطالعة رؤيتي لما يدور في بلاد النصارى.

احتفالنا بعيد الفطر امتزجت به الأخبار والمشاعر، فقد جاء فبراير ببردٍ شديدٍ وعواصف سجنتنا في البيت. قبيل العيد وصلت رسالة من دانية بأخبار من حسن البحري مفادها أنه سلم الكتب والرسائل في طريقه، وعندما توقف في طريق العودة بين الإسكندرية ودانية كالعادة في بلرمُ، عرف أن أبا النعيم توفي في مطلع الشهر المبارك وأن القاضي إبراهيم بن مالك صلّى عليه وكبّر خمساً في الجامع. عزيت نفسي بأن الرجل على الأقل شاهد قبل مماته إنجازنا لديوان المتنبّي حسب روايته. أضافت رسالة حسن أخباراً وصلت لمصر عن بغداد، بأن حاكمها صمصام الدولة زاد الضرائب على الملابس القطنية بعشر الثمن، فاجتمع الناس في جامع المنصور وعزموا على قطع الصلاة، وكاد البلد أن يُقتن

مجدداً، ولكن صمصام عاد فأعفى الناس من الزيادة. كما أن صمصام أطلق سراح القائد البيزنطي ورد. قبل الحديث عن صمصام وورد، والتطرق لما جاء في رسالة حسن عن مصر، لا بد لي من القول إن سعادتي فاقت المعقول في أيام العيد، إذ أصبح من المؤكد أن خوخه حامل في طفلنا البكر.

صمصام الدولة هو كاليجار المرزبان بن عضد الدولة البويهى المتوفى قبل ثلاثة أعوام في بغداد بعد أن أوصى لصمصام بالولاية، وهو ما لم يكن بوسع الخليفة رفضه، بل لقبه بأمر الأتباع. في عام توليه ثار عليه أخوه شرف الدولة واستقل ببلاد فارس والأهواز. أما ورد الرومي فهو قائد بيزنطي حكم لفترة واختلف عليه الروم ونصّبوا غيره، فما كان منه إلا مصاهرة الأمير العربي، أبو تغلب، ليستقوي به على أهله. وتطورت الحرب إلى هزيمة ورد فسار إلى ديار بكر مستجيراً هذه المرة بعضد الدولة أبو الصمصام واستعدّ بالطاعة ودفع الجزية إذا نصره عضد الدولة. خلاف الروم هذا نشب بعد موت ملكهم أرمانوس مخلفاً طفليين، مما أدى لاستيلاء قائد الجيش نقفور على الحكم وزواجه من والدة الطفليين التي تأمرت عليه بعد فترة ودفعت بمن قتله وهو الشمشقيق، ثم دفع أخوها الخصي لمن قتل الشمشقيق، وهنا طمع ورد في الحكم فاقترب من المسلمين في الثغور ليسانده ضد ابني الملك وقائد جيشهما ورديس بن لاون. عندما دارت الحرب ضد ورد استنجد بعضد الدولة، لكن الملكين الصغيرين كانا قد راسلا عضد الدولة وأغرياه بالعطاء فما كان منه إلا اعتقال ورد، وذلك حدث قبل خمس سنوات. يبدو أن صمصام أطلق سراحه الآن ليعيد محاولته في الحرب ضد ملكي القسطنطينية، وقائدهما ورديس. الأمر ليس تصرفاً اعتباطياً بالطبع، لأن ورديس قائد جيش بيزنطة هاجم وحاصر حلب قبل ثلاث سنوات ولم يتركها إلا بعد استعداد أميرها سعد الدولة الحمداني بدفع الجزية السنوية. ثم هاجم ورديس في العام التالي حمص ونهبها وأحرق

راوي قرطبة

جامعها، وبالتالي كانت مسألة وقت حتى يهاجم بغداد، فرأى صمصام الدولة أن يشاغله بخصمه القديم ورد.
الأخبار التي تصلنا في قرطبة عن مصر ودمشق وفلسطين ليست وردية هي الأخرى، لكن ما تحدثت عنه رسالة حسن البحري في الشأن المصري لم يتجاوز شرح افتتاح الخليفة الفاطمي الخامس، العزيز بالله، بابنته ست الملك، التي بلغت ستة عشر ربيعاً هذا العام، وكان ميلادها أثناء فترة خلافة جدها المعز؛ باني مدينة القاهرة، من أم جارية نصرانية تزوجها العزيز. نقلت الرسالة عن أهل مصر حبهم لست الملك الجميلة جداً، وتناقلهم الأقوال بأن والدها الخليفة يستشيرها في شؤون الحكم، وأن سعادة المصريين اكتملت بميلاد صبي لخليفتهم العزيز هذا العام.

سنوات الخصوبة

تواصلت أعيادنا الدينية التي لا حصر لها، وأكثر منها كانت مهرجانات الصيف التي تطول لأسابيع. بالطبع لم تتوقف الصوائف والغزوات في شمال أفريقيا وشمال الأندلس، وازدهرت أسواق العبيد والجواري من كثرة السبي. حتى الحواة والمنجمون زاد الطلب على خدماتهم وتضاعفت أعدادهم في الأسواق. سعده وصلت من صقلية إلى دانيه لتقيم مع جميلة، التي أصبحت من أشهر التجار، وأنهت تأليف كتاب انتشر في الأندلس واشتهرت وصفاته للأكل، مع إشارات لبعض فوائد أنواع الأطعمة في تقوية الضعف الجنسي، ولكنها لم تتزوج، وحسب علمي لم تقترب من الرجال في فراش. لم يغير موقفها موت الأمير عبد الله وتولي ابنه يوسف الحكم في صقلية. أحياناً كنت أفكر فيها وأتحمل بعض التآنيب الذاتي كوني تركتها ولم أشجعها على الزواج من آخر. كانت تظن لوهلة بإمكانية أن تقترب بي على شكل زواج متعة من الطراز المتعامل به في صقلية بين الشيعة، ولكنه غير سائد بين السنة، ولم يكن متقبلاً أبداً في تربيتي وعقليتي أن أقترن بزوجة، أو زوجات لفترة زمنية محددة سلفاً وتنتهي بعدها الالتزامات بين الطرفين. أخبرتها آنذاك ونحن نقرب من ليون بعدم شيوع ذلك الزواج عند السنة، وبأنني مرتبط نفسياً بإنسانة أخرى، واتفقنا حينها على تواصل الصداقة التي تطورت بيننا إلى شراكة تجارية أيضاً، وصداقة عائلية إذ زارتنا مع لؤي وسعده في قرطبة مراراً، وقضينا أعياداً كثيرة سوياً في مزرعتنا.

أجمل ما حدث لي في السنوات العشر الماضية هو تحولي إلى أب، إذ أنجبت خوخه ثلاثة أطفال، ابننا البكر خالد وأخته أمنة،

وأخاهم الأصغر قريب. أعطيناهم أسماء جدي وأمي وأبي، الذين لا يمكن وصف بهجتهم عبر معاشتهم لأحفادهم. كلما استوعبت حجم حب أبي لأبنائي كنت أفهم محبة جدي لي، وأصبحت أذكره مراراً، مثل الأيام التي تلت وفاته، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته. طفلنا الرابع، في الطريق، سيحمل إن شاء الله اسم جدّه أو جدتها، والديّ خوخه المتوفين. أطفالنا الثلاثة لديهم القناعة أن خسوس وماري هما جدهما، وكانوا مغمورين بالحب والرعاية اليومية من أربعة جدود أحياء وجيران.

سكن جميلة في دانية، ورحلات لؤي أتاحت لي فرصة متابعة أخبار المشرق الإسلامي والغرب النصراني، وتبادل الرسائل مع جربير. من اللقاءات مع عمي عيسى والزيارات إلى مالقا كنت على تواصل بأخبار العدو المغربية. ناهيك بالطبع عن كون قرطبة مصدراً للأخبار ومصنعاً لها، ويتمم معلوماتي عن بقية الأندلس زيارات الوكلاء لنا وزياراتي لهم في مدنهم. خالد كان يصاحبني كثيراً في رحلاتي، وقد أنهى العام الماضي تدريباته عند أخوال جدته في مدينة شذونه.

في بغداد تجدد الخلاف والاقتتال بين السنة والشيعة، ومن الموصل وصلتنا التفاصيل بانتشار الوباء من جرّاء الحر وقُتل الكثير من الناس عام 378، واشتدت المجاعة في مصر مع هبوط مستوى نهر النيل. حتى في قرطبة أصابنا القحط عام 380 إذ شحّت الأمطار وارتفع سعر ربع الدقيق إلى دينارين. في ذلك العام طهر المنصور ابنه الشنجول، عبد الرحمن، وطهر معه 577 صبياً من أهل قرطبة في حفل كلف 500 ألف دينار بينما كان القحط يعم البلاد. تمنعت عن طهور ابني خالد مع أولئك الصبية حتى لا يرتبط نفسياً مع الشنجول ومع عائلة المنصور. الشنجول هو ابن الحاجب وعبدّه، وحفيد سانشو غرسيه الثاني أبركه، ملك نبره طوال ربع القرن الماضي الذي توفي هذا العام. خال الشنجول غرسيه شانجه الثاني تولى الحكم بعد أبيه، وعلى الأرجح أن ابن خاله سيرث مملكة نبره يوماً ما. هل يعني ذلك احتمال التعايش بين الأقارب لو

توصل الشنجول إلى حكم الأندلس؟ الله اعلم، ولكن خلفاء وأمراء أمويين كان أحوالهم نصارى، ولم يتوقفوا عن الاقتتال مع أقاربهم طوال القرون الماضية.

فيما يتعلق بأفعال الحاجب المنصور خلال العقد الماضي يجدر القول إنه أعطى الأوامر بتوسيع المسجد الجامع تقليداً لأعمال الأمراء والخلفاء الأمويين منذ فتح الأندلس. جاءت التوسعة في الجانب الشرقي، ويشهد له تعويضه بالشراء أو الاستبدال للبيوت والمستغلات التي هدمت لإتمام التوسع. كل شيء يضيق في قرطبة إلا مسجدها فيتوسع. الأرياض ضاقت بالبربر الذين جلبهم المنصور، وبالناس المتواردين على الحاضرة التي تنهى جلالها، هذا من دون الزيادة الطبيعية للسكان.

إلى جانب الزيت، رتب المنصور إحراق الشمع في المسجد الجامع الذي أصبحت سواريه الحاملة لسماه ألف وأربعمائة وسبع عشرة سارية، حسب إحصائيات خالد وأصحابه في حلقتهم التعليمية. وأخبرني ابني أن عدد الثريات مائتان وثمانون ثرية. أما ما يحتاج إليه الجامع من زيت في السنة فهو خمسمائة ربيع يصرف نصفها في شهر رمضان حيث لا تُطفأ الأنوار. وقيل لخالد أيضاً إن زنة فتائل الكتان للشمع والمصاييح، في شهر رمضان فقط، تبلغ ثلاثة أرباع القنطار، وثلاثة قناطير من الشمع. وزن الشمعات الكبار، مثل التي توقد بجانب الإمام يصل إلى خمسين أو ستين رطلاً، ولكنها تصمد حتى آخر الشهر. تعداد خدم المسجد من أئمة ومقرئين وأمناء ومؤذنين وسدنة وموقدين وغيرهم من المتصرفين أصبح في دولة بني عامر مائة وتسعة وخمسين شخصاً.

من نافل القول إن أعمال المنصور ليست كلها صلاحاً، فرغم صومه وصلاته وتظاهره بالعدل وإشاعة القصص لتأكيد ذلك، فهو لم يتوقف عن شرب الخمر ومصاحبة الجواري. كما أن حروبه استمرت في كل الاتجاهات وغدره بلغ درجات أذهلتنا، وخصوصاً عندما قتل ابنه الأكبر عبد الله. وقد استعجبت من أوضاعنا أبيات شعر جاءت من المغرب وانتشرت في قرطبة:

فيما أرى عجبٌ لمن يتعجبُ جَلَّتْ مُصِيبَتُنَا وضاق المذهبُ
 إني لأكذبُ مُقلتي فيما أرى حتى أقول غلطتُ فيما أحسبُ
 أكونُ حياً من أُمية واحد ويسوسُ ضخم المُلْكِ هذا الأحذبُ
 تمشي عساكرُهُم حوالى هودج أعوادهُ فيهن قرد أشهبُ
 أبني أُمية أين أقمار الدُجى منكم وما لوجوهها تتغيبُ

تشبيه المنصور بالقرد والإشارة إلى حذب ظهره واستنهاض بني أُمية لم يغير الحال بالطبع، فقد كان المنصور يواصل غزواته، ويواجه خصومه بدراية من علوم جواسيسه. كل من عارضه يموت، بينما البقية يتعيشون من أسلوبه. شهد عام 379 صائفة المنصور ضد بلاد البشاكسه، وفي تلك الغزوة أوعز المنصور لبعض أهالي سرقسطة أن يشتكوا من أميرهم عبد الرحمن، وبالفعل نفذوا ذلك أثناء مرورهم في وادي الحجارة. النتيجة كانت صرف المنصور لعبد الرحمن التجيبي عن حكم سرقسطة وقلدها لابن أخيه حتى لا يثير التجيبيين. تبع ذلك اتهام عبد الرحمن بالتردد في العسكر عن خوض القتال، ثم قبض عليه وحُمل إلى الزاهرة حيث قتل بين يدي المنصور لاحقاً وصلب مع كلب على يمينه وخنزير على يساره. سبب هذا الحقد أن عبد الله ابن المنصور سخط من إحطاء أبيه لأخيه عبد الملك، فتآمر مع صاحب سرقسطة وصاحب طليطلة وبعض الأمويين والجند والوجوه في قرطبة على الوثوب بوالده المنصور. كل تفاصيل المؤامرة وصلت للحاجب، كالعادة، فصرف عبد العزيز المرواني بلطف عن طليطلة ثم ألزمه داره في قرطبة، وفتك عبر الحيلة بعبد الرحمن. أثناء القتال في شنت اشتين فر ابنه عبد الله وستة من غلمانه والتحق بغرسية بن فرذند صاحب البه، فقبله غرسية وأجاره على أبيه. بالطبع تحرك المنصور إلى غرسية وطالب بابنه ثم شن الحرب واحتل حصن وخشمه وأسكنه، لأول مرة، بالمسلمين حتى رضخ غرسية وسلم عبد الله إلى أبيه.

نُقل عن شاهدوا الحدث، اقتراب عبد الله وأصحابه على البغال، وخروج سعد الخادم لاستقبالهم. دنا سعد من عبد الله وكان على بغل فاره، وبحلية ثمينة وثوب عجيب الصنعة، فقبل يده وهون عليه ثم سلّمه

لمن قتلوه. ونقلت الرواية أن عبد الله لم يمتنع عن النزول ومشى إلى السيف مظهراً صرامةً عجَبَ لها من شاهده. تقدم إليه ابن خفيف الشرطي فضرب عنقه، وذلك يوم الأربعاء منتصف جمادى الآخرة سنة 380 للهجرة. رأس عبد الله، أرسلها أبوه إلى الخليفة هشام ليُرهب الرعية. بالطبع قتل المنصور سعد وابن خفيف قتله ولده، علماً بأنه روج فيما بعد أن عبد الله هذا ليس ولده، وإنما كانت أمه حاملاً فيه عندما دخل عليها، ولكنها أخفت الخبر وادعت الاستبراء قبل دخوله بها بعد أن اشتراها، وذلك قبل أربعة وعشرين عاماً، عندما كان يخدم طفل الخليفة وأمه صبح.

في العام التالي زالت أية شكوك حول نوايا المنصور في إدامة العهد العامري. تنازل عن لقب الحجابة إلى ولده عبد الملك، وقصر تسميته على لقب المنصور وأن يُكتب باسمه: من المنصور أبي عامر (وفقه الله) إلى فلان. إلى جانب الحجابة تسلم عبد الملك القيادة العليا وسائر خطط أبيه.

توابع قصة إطلاق صمصام الدولة في بغداد للقائد ورد من الأسر جاءت بعكس الأماني. جمع ورد الأنصار في طريق العودة ووزع عليهم مال صمصام واحتل بعض المدن وراسل ورديس واتفق معه على عزل ابني ارمانوس، باسيل وأخيه قسطنطين. لكن الملكين الصغيرين راسلا ملك الروس واستنجداه وعرضاً عليه الزواج من أختهما، أنا، ومعها بائنتها عبارة عن بلاد القرم. تقبل فلادمير عرضهما وحارب الخصمين وقتل ورديس، ثم قُتل ورد مسموماً. قبل أن يدخل فلادمير على عروسه أنا، أصرت أن يتحول إلى النصرانية، فقبل برغبتها وحول معه بلاد الروس إلى النصرانية وأقروا بسلطان القسطنطينية الديني عليهم. هكذا انتهت الحرب الأهلية في بيزنطة وتفرغوا لمشاغلة البلغار في الشمال الشرقي، وعقدوا تحالفات مع السنة ضد الخلافة الفاطمية في مصر. ظني أن جربير وجماعة دير كلوني لم يبتهجوا كثيراً لسقوط الروس تحت سلطة القسطنطينية.

في العقد الماضي احتدم الصراع بين الحمدانيين والفاطميين واستجاب باسيل إلى استنجد سعد الدولة واحتلال حلب والرقّة. بعد

موت سعد أرسل الخليفة الفاطمي العزيز جيشاً بقيادة منجوتكين للاستيلاء على حلب، لكن لؤلؤ وريث سعد، استنجد مجدداً بالبيزنطيين فأرسل له الإمبراطور قوات من إنطاكية. كانت النتيجة هزيمة الروم وتعيين الخليفة العزيز للقائد منجوتكين على دمشق وجوارها. وبينما كان صمصام الدولة يقاتل أخاه بهاء الدولة على البصرة والأهواز، والجند يشاغبون في بغداد بسبب فساد النقد والغلاء، أغار الأسطول البيزنطي على مصر وتصدى له الأسطول الفاطمي أمام الإسكندرية وهزمه وأسر الكثير من البيزنطيين. في العام التالي توجه باسيل إلى الشام واحتل قلعة شيزر ومدينة حمص وتوقف على أسوار طرابلس.

فيما يخص أخبار جربير، وصلني أثناء العقد الماضي تفاصيل لبعض ما مر به من تجارب صعبة. قبل سبع سنوات عُقد مجلسٌ كنسي لاختيار ملك جديد لبلاد الفرنجة، وذلك بعد موت آخر ملوك السلالة الكارولينية. جربير كان من بين المجتمعين، وأيد اختيار هيجو كوبيه ملكاً، كونه أقرب للعائلة الكارولينية ومن الذين شاركوا في غزوة صقلية مع أتو الثاني. عندما مات كبير الأساقفة في ريمس، ادلييرو، تأمل جربير أن يُعين في المنصب، لكن ملك الفرنجة هيجو انحاز إلى جانب تعيين أسقف آخر في المنصب، ارنولف، كونه ابناً غير شرعي من البيت الكاروليني. بعد أقل من عام ثبت بالدلائل خيانة هذا الأسقف للملك، فتم عزله في اجتماع كنسي خاص وتعين جربير بدله كبيراً للأساقفة في ريمس بالرغم من اعتراض البابا. أحدث ما وصلني من أخبار جربير أن مبعوثاً رسولياً من البابا أقنع مجلساً كنسياً في مواسون أن يفصلوا جربير من منصبه ويعيدوا ارنولف، فارتحل جربير غاضباً من ريمس إلى بلاط تلميذه، أتو الثالث، الذي استقبله بمظاهر الترحيب واصطحبه معه إلى روما للمشاركة في مراسم تنويجه قيصراً. من المؤكد أننا سنسمع أخباراً كثيرة عن صديقي جربير فيما بعد، فهو الآن في مركز التأثير في صنع القرار.

كنز الخليفة

أثناء الشهر الماضي مرت قرطبة بفترة قلق أخرى، وحكمت الصدف أن أعيش الأحداث عن قرب. استغلّيت صداقتي مع خيران العامري، واستفدت من معرفته بحراس الزهراء، وأقنعته أن يساعدني في اختراق الحصار وترتيب زيارات متكررة إلى الخليفة هشام، صديق طفولتي. اهتدينا إلى الاستفادة من إشاعات المنصور بأن الخليفة مُحتجب عن الرعية ومنهمك في العبادة، فقدمني خيران لقائد الحرس كإمام وعالم سيحتاج الخليفة أحياناً لأرائي. في كل زيارة كنت ألبس زي الأئمة المناسب للوظيفة، ولم يلتفت أحد للأمر كون خيران من الفتيان العامريين الموثوق بهم، كما أن الخليفة لم يحتج على زيارتي التي كان محتواها أبعد ما يكون عن الشأن الديني. في الواقع أن هشام هو الآخر لم يكن ملتزماً بالمبادئ الدينية ولا حتى مواظباً على الصلاة، أو متعظفاً عن الجوّاري. في زيارتي الأولى دُهلت للدهون والشحوم المتكومة على جسده، ولاحقاً تلمست شهوته للطعام وخموله. تخوفاً من أن تكون بعض جواريه جواسيس للمنصور، كنت أظاهر بالأصول الدينية وأفهمته أهمية أن يسايرني في ذلك حتى تتواصل لقاءاتنا. لم يكن خاملاً فكرياً أو عديم المروءة أو جاهلاً بما يدور حوله، ولكنه مغلوب على أمره. ذات يوم تشعب حديثنا إلى وضعه الشخصي فأُنشدني بما يلخص حالته:

أليس من العجائب أن مثلي يرى ما قل ممتنعاً عليه
 وتُملك باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شيء في يديه
 واسيته بالتنويه أن وضعه أفضل من وضع الخليفة الطائع في بغداد،
 فقد أجبروه على خلع نفسه ومبايعة أبي العباس أحمد بن المقتدر وتلقيبه

القادر بالله. أضحكت هشام بحديثي عن الانتقام الرباني الذي جاء عندما زوج بهاء الدولة ابنته للخليفة الجديد، صنيعته، بصدّاق مائة ألف دينار، ولكنها ماتت قبل أن يدخل عليها. أسمعت صديق طفولتي أيضاً أن الخليفة المقتدر ابن أم ولد، وقصدت من ذلك إشعاره أن أبناء الجوّاري لا زالوا يعينون خلفاء في الشرق وبالتالي فوضعه الضعيف هنا مرتبط بعوامل أخرى. لم يتقص خليفتنا هشام شيء في الزهراء التي تحولت إلى سجن ذهبي، ولكن الأمور نسبية، فهو يريد نفوذاً وقوة، وهذه لا تأتي بسهولة. كما أن النقود لم تكن تنقصه بالطبع حتى ذلك اليوم من شهر جمادى الأولى عام 386 الذي توافق مع 28 مايو 996. حضرت والدته صباح من قصرها في قرطبة إلى الزهراء، وعرفت من خيران أن زيارتها تكررت أخيراً أكثر من المعتاد، وكانت بالطبع تأمر وتنهى على خدم وصقالبة الزهراء. لم يبق في ملامحها شيء من الدلال والوداعة التي صبغت محياها أيام حياة زوجها الخليفة، بل بدت أكبر من عمرها رغم كونها لازالت قوية الجسد. باشر الخدم في حمل أكواز من داخل القصر وبدا أنهم يخرجونها من الزهراء. لفت انتباهي ما كتب على رؤوس الكيزان من أسماء تدل على محتواها، مثل الشهد، والمري، وغير ذلك من أطعمة وأصباغ مما يحفظ في قصور الخلافة، ولكنه لا يمر في صالونات القصور ويحمله كبار الخدم. لم تغب هذه الملاحظات عن عيون جواسيس المنصور في القصر رغم أن صاحب الزهراء لم يتنبه بسرعة للحقيقة وترك الخدم يحملون الاكواز خارج المدينة إلى قصر أم الخليفة في قرطبة.

أشهر لاحقاً أن الكيزان المائة مليئة بالذهب والفضة بما يعادل سبعمائة ألف دينار صكت في عهد الخليفة الحكم وحاجبه جعفر المصحفي. عندما تأكد المنصور من الخبر تصرف بمكره المعتاد. لم يعتد على الزهراء أو على مكان إقامة حليفته السابقة في قصر قرطبة، بل أحضر جماعة من الأعيان إلى الزاهرة وأعلمهم أن الخليفة منهمك في التعب ومشغول عن حفظ المال، وأقنعهم أن تضييع المال من قبل صبح

آفة على الدولة. هكذا رأت الجماعة أن وضع الأموال بيد المنصور أسلم، وهو على حفظها أقوم. في ذلك اليوم تعلل المنصور بأن ألم النقرس في أقدامه اشتد عليه ويعجزه عن الركوب إلى قصر صبح، فطلب من ابنه عبد الملك أن يستعد للركوب والقيام بالأمر نيابة عنه. وصل الخبر إلى صبح، فاستنجدت بمن ظنت أنهم ينصرونها، وبالفعل أحيط القصر بالمسلحين لحماية زوجة الخليفة المتوفى وأم الخليفة الحي. حضر عبد الملك بألفين من الفتيان العامريين واستبعد البربر من هذه المهمة. وقفت صبح وقلعة من الحرس خلفها بعد أن ذاب الأنصار من حول القصر. ارتفع صوتها ليُسمع في كل أرجاء السوق شاتمة لعبد الملك وأبيه من دون أن يجيبها ابن المنصور بكلمة واحدة، لكن فتيانه نقلوا كل الكيزان، وعندما أرادوا حمل أموال أخرى من القصر أشهر الحراس سلاحهم بأمر من صبح، فتراجع عبد الملك حتى لا يقع المحظور بجرح أو قتل أم الخليفة.

كانت فضيحة مجلجلة للمنصور إذ لم توفر صبح أية صفة قبيحة من دون إطلاقها عليه وعلى أبنائه وزوجاته. بعد أن زال خطر المواجهة الشخصية مع صبح، تحامل المنصور على ألم النقرس في أقدامه وذهب مع الجماعة، التي أشارت بأخذ المال، ذهب معهم لزيارة الخليفة وأقنعوه بصحة عملهم. أيدهم هشام فيما فعلوه واستهجن فعل أمه، خصوصاً وأنهم روجوا أنها أرادت إرسال ذلك المال إلى زيري في العدو ليدخل الأندلس ويزيل المنصور من قرطبة. حتى يمحو إية إشاعات عن وجود جفوة بينه وبين الخليفة، نظم المنصور ركوباً عظيماً لهشام في جولة على الناس، ولم يكن معظم أهل الأندلس قد شاهدوا هشام مطلقاً حتى الآن. ركب المنصور إلى جانب هشام، بينما أمسك الحاجب عبد الملك بلجام حصان الخليفة وسار أمامه على قدميه، تحفهم فتيان بني عامر وغلمان القصر وطوائف من الجند. تلك التطورات حتمت علي إلى حين وقف زياراتي المتفرقة إلى الزهراء.

على الأرجح أن إشاعة التواطؤ بين أم الخليفة وبين زيري بن عطية

في العودة لم تكن خالية من بعض الحقيفة، كما دلت الأحداث التي تلت. حتى ذلك الحين كان زيري، صاحب فاس، يتبع خلافة هشام وحليفاً لمحمد بن أبي عامر في قرطبة واجتمع معه عام 379. زيري من قبائل زناته الذين أسلم جدهم على يد الخليفة الراشد الثالث، عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وبالتالي فزناته تدعو للأمويين وتحارب صنهاجه وأمراء أفريقيا أتباع الخليفة العزيز بالله في القاهرة. مما يتوجب تفسيره من أحداث الأعوام الأخيرة في المغرب، أن الخليفة الفاطمي العزيز بالله ولى إمارة أفريقيا إلى أبي الفتح المنصور الذي تحرك بعساكره لقمع ثورة في كتامة. كان أبو الفتح يأمر بتدمير كل ما يمر عليه، ودمر مدينة ميله وأمر سكانها بالرحيل إلى باغاية حيث نهبهم أتباع الأمير هناك عندما وصلوا المدينة. أما أبو الفتح فوصل إلى كتامة وهزم أهلها وأسر الثائر أبا الفهم بعد أن هرب للجبال. ضرب الثائر ولطم بشدة، ثم تنفوا لحيته، وأشرف على الموت فحمله رجال الأمير ونحروه وشقوا بطنه وأخرجوا كبده، فشويت وأكلت، كما قيل. أما عبيد الأمير فقد شرحوا لحمه وأكلوه حتى لم يبق إلا عظامه. ترك الأمير أبو الفتح كتامة خراباً ثم عاد إلى القيروان والمنصورية.

ثائر جديد، اسمه أبو البهار، حاول التصدي لأبي الفتح، ولكنه فشل وهرب إلى الغرب وكاتب العامري في قرطبة أن ينجده ويطلب من حليفه زيري بن عطية مناصرته. رد عليه العامري "إن كنت على نية فيما وصفته عن نفسك، فأرسل إلي ابنك يكون رهينة عندي، وأفعل معك ما أحببته". فوجه إليه ابنه مع آخرين في مركب غرق بهم في البحر، فاتبعه بولده الآخر. هنا أرسل العامري لأبي البهار أموالاً، وكتب إلى زيري أن يعاضده وينصره. وهكذا توجه أبو البهار إلى فاس واتفق مع زيري بن عطية على مشاغلة جند أمير أفريقيا في تهرة والمغرب الأوسط. قبل أن يتحرك زيري بتوسع ضد المغرب الأوسط، بدأت الأقاويل تنتشر الآن في قرطبة بأن المنصور يجهز قوات لمهاجمة زيري، وهذا يعني تأكد المنصور من تأمر زيري مع صبح. هذه قضية حساسة بالطبع كون معظم

الذين يعتمد عليهم المنصور هم من البربر المنتشرين في قرطبة وكل الأندلس، وسيكون عليه إقناعهم بأن زيري خصم مشترك لهم جميعاً. بدون ذلك سيخذلونه في المعارك، وربما ارتدوا عليه في قرطبة.

هل كانت أم الخليفة تعرف هذه الحسابات، وهل بالفعل اتفقت مع زيري؟ عموماً تلك الأموال بقيت في الكيزان ولم تصل للعدوة بل انتقلت إلى الزاهرة. أما انتصار زيري للخليفة هشام، إن وجد بالفعل، فجاء متأخراً وأشيعت أخباره بعد قصة المال والتأمر. في المستقبل القريب ستتضح الأمور. إن كانت الإشاعات كاذبة سيبقى كل شيء على حاله، وإلا فإن أحد الطرفين سيُقدم على خطوة ضد الطرف الآخر.

طوال العامين الماضيين تصاعد إلحاح خالد أن أرسله مع إحدى الصوائف. اتفقت معه منذ أن ظهرت رغبته هذه ألا يتحدث في هذا الشأن مع والدته، ثم وعدته بأننا سنذهب سوياً في صائفة. هكذا لم يكن ليترك فرصة من دون تذكيري بالوعد. أحياناً كنت أطلب منه التروي متعللاً بضغط العمل، وأحياناً أخرى أدعي أن الظرف غير مناسب للإبلاغ أمه بهذا الخبر الذي سيزعجها، وبالتالي علينا انتظار فرصه للإبلاغها. عندما تشكك خالد في صحة وعدي، أخذ يتحالف مع جده ليُفند معه ذرائعي واتفقا على مفاتحتي، بل نصبا فخاً لي، إذ قال والدي إنه سيقوم بأعمالي كلها إذا قررت الاشتراك مع خالد في الصائفة القادمة. في مساء ذلك اليوم قالت خوخة إنها تفضل ذهابي مع خالد على أن يذهب لوحده، واتضح لي أن ابني وضعني أمام الأمر الواقع.

"الأفضل يا ولدي أن نسافر في رحلة خارج الأندلس، إلى مصر مثلاً، وبعدها نشترك في إحدى الصوائف". كانت هذه محاولة أخيرة لإغراء خالد. لم يكن قلقي الأشد نابعاً من الخوف على حياتنا، فعمري ثلاثة وثلاثون سنة وصحتي والحمد لله ممتازة، وخالد في الحادية عشرة من عمره ويبدو أكبر من ذلك، ولكن الصوائف تغيرت وأصبحت أكثر من أي وقت مضى حملات تخريب ونهب، وهذا قد يصقل روح خالد بالسلبية.

"السفر إلى مصر، وربما إلى الحج أيضاً، فكرة جيدة، خصوصاً بعد أن أجرب نفسي في رحلة داخلية طويلة في الأندلس. إذا وجدت أنني قادر على التحمل فسوف أذهب معك إلى مصر، وإلا فسأبقى مع الوالدة وجدي في قرطبة". لم يعد من المجدي تذكيره بأن السفر إلى مصر أهون، فهو يعرف ذلك ويتماكر حتى يجبرني في الحديث ويسألني: متى اشتركت في أول صائفه، وكم كان عمري، وهل ذهب أبي معي؟ والكثير من هذه الأسئلة التي لا تهدف للاستعلام، والتي سمع إجاباتها مرة بعد الأخرى. عندما صمْتُ عن إعطاء الموافقة أضاف خالد: "الخليفة هشام تسلم المهمة هنا وهو في سني، والخليفة الفاطمي الجديد في القاهرة لا يكبرني بعام كامل. أي منهما لم يتلق تعليماً عسكرياً أو ضرب بسيف أو رمى برمح مثلي..." قاطعته بأننا سنذهب في الصائفة القادمة، وأنني سوف أباشر في ترتيب المطلوب ومعرفة وجهة الصائفة إن أمكن، فتهللت أساريه وهجم علي يقبلني بطفولية جعلتني أندم على قراري الذي لم تمض عليه لحظات.

إشارة خالد للخليفة الفاطمي الجديد استنبطها من روايتي له حول وفاة العزيز بالله، إذ قلت إن ابنة الخليفة، ست الملك، لم تخلف أباهما على الرغم من تجربتها في الإدارة والإطلاع على ما كان يفعله والدها، ولكن تولى الخلافة ابنه الصغير أبو علي، الذي تلقب بالحاكم بأمر الله. في العام الماضي، 386، توفي أيضاً أمير أفريقيا أبو الفتح المنصور، وتولى ابنه باديس الحكم وله من العمر إثنتا عشرة سنة. وكان الخليفة العزيز قد كتب منذ سنوات لباديس بولاية عهد أبيه. باديس هو الآخر له أخت تكبره في السن وكانت هي الأخرى تساعد والدها ومطلعة على دقائق الأمور وتدير البلاد أثناء غزوات والدها. من المفترض الآن أن ست الملك تساعد أخاها الخليفة الحاكم بأمر الله في القاهرة، وأم ملال تفعل الشيء ذاته مع أخيها باديس أمير أفريقيا.

قبيل وفاة الخليفة العزيز في شهر رمضان، كان قد أرسل أسطوله

إلى غزو مدن وسواحل بيزنطه، بينما تحرك هو مع القوات من القاهرة إلى قتال البيزنطيين في مدن الشام. لم تصلنا الكثير من تفاصيل موت الخليفة في مدينه بلبيس، ولكن الجميع استغرب الأمر كون العزيز كان دون الثلاثة وأربعين سنة، قوي الجسم وعريض المنكبين، طويل القامة إلى درجة أنهم لم يجدوا نعشاً على مقاسه وعاد محمولاً على نعش تظهر منه قدماه. بالطبع لم يتذكر أحد أن العزيز، رحمه الله، عانى من النقرس مثل العامري، ومن الحصى والقولنج وكان يتداوى منها يوماً. في يوم وفاته ألبسوا ولي العهد عمامة مرصعة بالجواهر، وقلده رمحاً في يده وسيفاً على وسطه ليسير تحت مظلة أمام نعش أبيه ليشهد أهل القاهرة على وفاة خليفة وتولي خليفة، بينما المنادي يردد على مسامع الناس: "أمنكم الله تعالى على أموالكم وأرواحكم". أما الأسطول الفاطمي فواصل غزوته، ونهب وسلب في السواحل البيزنطية وعاد الجند بغنائم إلى مصر ليجدوها فقدت خليفتها المحبوب وتشهد صراعاً بين أرجوان، أستاذ الخليفة الطفل الذي أصبح حاجبا، وبين الوزير الحسن بن عمار الكتامي. خسر الأخير منصبه خلال أشهر على الرغم من انتمائه لقبائل كتامة الذين لعبوا الدور الأساسي في إقامة الخلافة الفاطمية في المغرب الأوسط قبل تسعين سنة، وهي الدولة الشيعية الأولى التي انتقل منها، وبها، المعز فاتحاً إلى القاهرة قبل تسعة وعشرين عاماً حاملاً معه توابيت أجداده، وذهب دولته الذي صهره على شكل أحجار طواحين وحملها على الجمال. الآن هناك خليفة طفل في القاهرة وأمير طفل في المغرب الأوسط يُسيران الدولة الشيعية الفاطمية بمساعدة من أختيهما.

القديس يعقوب

"أريدك أن تفهم أنني عند وعدي، لكن ما عرفته الآن عن هدف الصائفة لهذا العام يتطلب منك إعادة التفكير في قرار المشاركة. إذا بقيت عند رغبتك فسندهب سويا إن شاء الله، وإن قررت التأجيل فيمكننا الاشتراك في صائفة أخرى فيما بعد، أو السفر إلى مصر لزيارة القاهرة التي لا زالت من أحدث مدن الإسلام عمراً وعمارة". كنت أتمشى مع خالد على رصيف نهر الوادي الكبير، ووقفنا على يمين الناعورة وضوء شمس بعد الظهر ينعكس على الطواحين والقنطرة. لم يعترض خالد على حديثي وظهرت علامات الاستفهام على وجهه وفي عيونه الزرقاء التي ورثها من أمه بينما أخذ مني سواد الشعر وملامح الوجه الذي لفحته شمس قرطبة. "المعلومات التي جمعتها من أصدقاء تؤكد أن الصائفة هذا العام ستتجه إلى شنت يعقوب لتدميرها. يبدو أن المنصور يريد وقف سيل الحجاج النصارى إلى تلك الجهات".

"عدم الاشتراك سيضيع علينا فرصة تسجيل الأحداث كما نشاهدها نحن. يمكننا أيضاً الاشتراك من دون أن نشارك في القتل والتدمير". كانت نبرة خالد تنضح بالتردد، وأسعدني أن ردة فعله الأولى كانت حول مهنتنا في تسجيل رواية التاريخ.

"سيكون بوسعنا اللقاء مع العديد ممن سيشاركون في الصائفة لنجمع منهم التفاصيل بعد عودتهم. ما أتمنى أن تفكر فيه هو ردة فعل خسوس وماري عندما يعرفون أنك شاركت في دمار مدينتهم المقدسة، وربما قبر القديس. أنت تعرف أن جدتك ماري تؤكد أن يعقوب هو أقرب الناس للمسيح وأنه ابن يوسف النجار. وشتت يعقوب عند نصارى

الأندلس بمثابة مكة عندنا". واصلت شروحاتي لخالد باستحالة الاشتراك في صائفة من دون الاشتراك في القتال، وأن الحيادية لا تنفع وقت الانغماس في المعارك، ولا يمكن أن تكون بين الجند وتعارض خطاهم وأفعالهم. قلت لابني إن غالبية الجند من البربر ولا يمكنك حتى مناشدتهم في شيء لأن هدفهم هو السلب والدمار. "فكر في قرارك والخيارات التي عرضتها عليك. في كل الأحوال لا تخبر جدتك ماري عن هدف الصائفة، دعها تعرف بالأمر بعد حدوثه ومن أناس آخرين".

"ألا يمكن أن يغير المنصور رأيه ويتوجه إلى مدينة أخرى؟"

"لا أعتقد ذلك. لقد حشد القوات البحرية في قصر دانس وحمل المراكب بالميرة المطلوبة للجند الذين سيسرون على الساحل الغربي بمحاذاة الأسطول حتى يصلوا إلى أقصى الشمال الغربي". تنهد خالد وابتلع ريقه، وعدنا باتجاه الجامع لصلاة المغرب قبل عودتنا للبيت. أخبرت جده بما عرفته من أخبار وبما طرحته على خالد، حتى يتجنب التطرق إلى ذلك الموضوع الذي لم يعد أحد في بيتنا يتحدث عنه. أخبرنا ماري وخسوس أن خالد يفكر في تأجيل الاشتراك في صائفة هذا العام وأنه سوف يشغل وقته في الإشراف على مزرعتنا ومتابعة تربية الخيول من أبناء وأحفاد الأغر وهرقل.

لم تكن شنت يعقوب في غليسيه قد فتحت من العرب قبل اليوم. عندما وصل رسول الخليفة من دمشق إلى فاتح الأندلس، موسى بن نصير، يطالبه بوقف الفتح والعودة إلى دمشق فوراً، كان موسى في مدينة لك على مسافة يومين من شنت يعقوب. آنذاك أرسل موسى إلى طارق بن زياد أن يهبط هو الآخر ويكف عن الفتح، وكان طارق غرب شنت يعقوب يفتح البلاد على سواحل المحيط الأخضر. هكذا تحولت مناطق شمال غرب غليسيه إلى معقل للمتمردين وجند القوط الناجين، ومن هناك عادوا للتوسع شرقاً وجنوباً حتى أوصلوا الحدود إلى برشلونة في الشرق ونهر الدويره المتمدد من برتقال غرباً حتى سامورا في شمال الوسط.

غزوة شنت يعقوب أصبحت الثامنة والأربعين في تعداد غزوات المنصور الذي يحكم الأندلس منذ عقدين من الزمان، إذ غزا مرتين في العام. خرجت قوات المرتزقة من قرطبة يوم السبت الخامس والعشرين من جمادى الآخرة الذي وافق نهاية الأسبوع الأول من تموز عام 997 للميلاد. كان تعدادهم يقارب العشرة آلاف، وانضم إليهم في الطريق ومن مدن الثغور الشمالية عدد مشابه، وبضعة آلاف من جند البحر الذين أخذوا على عاتقهم حمل الأرزاق والمعدات الثقيلة وإقامة الجسور على الأنهر الكثيرة التي تقطع الأندلس من الشرق إلى الغرب. تحركت القوات من قرطبة باتجاه أراضي مريده إلى الشمال الغربي، ثم شمالاً إلى قيصرية، وقطعوا نهر التاجو إلى مدينته قورية، ومنها عبر السهول الخضراء إلى برتقال حيث مصب نهر الدويره. في برتقال كان الأسطول ينتظر الجند، إذ دخلت السفن في النهر واصطفت بجانب بعضها البعض وربطت بالحبال لتشكل جسراً عبرت فوقه الخيول. بعد اللقاء بين الجند والأسطول انتهت حاجة الجند لأخذ طعامهم من سكان المدن والأرياف الأندلسية، إذ كانت السفن محملة بكل بالميرة، وأراحت الجند من الأثقال وسارت في البحر توازيهم في زحفهم شمالاً عبر أرض العدو. كل محدثينا عن أخبار هذه الغزوة أكدوا لي ولخالد أن قوامس النصارى المتمسكين بالطاعة كانوا ينضمون بجندهم إلى جند المسلمين أثناء المسير في غليسيه. وقد تعجب خالد من تصرفهم هذا، فشرحت له بأنهم ليسوا أحراراً مثلنا ليشاركوا أو يمتنعوا عن غزوة كهذه، وإنما يتوجب عليهم تلبية شروط معاهدات الصلح التي عقدها مع المنصور، والتي تقضي بالآل يحاربوا المسلمين وأن ينضموا إليهم ويساعدوهم في حروبهم.

قطع الغزاة بعد نهر دويره ستة أنهار مرتبطة بالبحر الأخضر حتى وصلوا إلى جبال فصلتهم عن شنت يعقوب، ولم يهتد الأعداء إلى طريق تتسع للجند والأثقال، فأمر المنصور بتوسيع الطريق، وشقها الفعلة العمال بالحديد وسهلوا شعابها. قبل الهجوم على شنت يعقوب اجتاز قسم من الجند الماء إلى خليج قريب التجأ إليه الكثير من سكان المنطقة

ظناً أن الماء سيحميهم، ولكنهم سُبوا ونُهبوا وأخذ الجند الغنائم، ثم اجتازوا نهر أيله إلى دير شنت بريه فدمروه. عند الوصول إلى دير شنت يعقوب أمر المنصور بوقوف بعض الجند لحماية القبر أثناء تدمير كل الأبنية الأخرى، ولم يكن في الدير إلا شيخاً قال إنه يوانس يعقوب، فترك لسبيله. بعد خمسة وثلاثين يوماً من مغادرة قرطبة، وفي يوم الأربعاء الثاني من شعبان، دخل الجند مدينة شنت يعقوب فوجدوها خالية من أهلها، وحاز المسلمون غنائمها وهدموا أبنيتها وأسوارها، وغادروها هشيماً في يوم الإثنين التالي. من هناك انتشر الجند في البسائط شمالاً وغرباً لجمع الغنائم والسبايا، ثم سار المنصور إلى عمل برمند بن اردون ليعاقبه على مفاصده. في حصن مليقه كسا المنصور ملوك وقادة النصارى المعاهدين ومن أحسن الأداء من المسلمين مقدار ألفين ومائتين وثمانين شُقه من صنوف الخز الطرازي، وواحداً وعشرين كساء مزخرقة بصدف البحر، وكساءين عنبريين، وأحد عشر سقلاطونا، وخمس عشرة مُريشات، وسبعة أنماط ديباج، وغير ذلك من الكساء والهدايا. هكذا انتهت الغزوة رسمياً وصرف المنصور القوامس المعاهدين بعد أن نالهم نصيبهم من الكساء، وقفل بالجند إلى قرطبة تتبعه أحمال الغنائم وطواير السبايا، فدخلها دخولاً لم يُعهد، وتباهى والمرتزة تحفه وكأنه فتح للتو كل بلاد الفرنجة. في واقع الحال أن المنصور لم يواجه أية مقاومة من جند، بل هرب الناس خوفاً على نساءهم وأطفالهم من السبي. في الأشهر التالية على الغزوة انتشرت قصة وأشعار ابن شهيد في قرطبة والأندلس. هو أحمد بن عبد الملك الذي عمل مع الناصر والحكم، رحمهما الله، وتولى الوزارة للمنصور بعض الوقت. لم يشارك ابن شهيد في غزوة شنت يعقوب لأن النقرس ضغط على أقدامه، ولأن المنصور نسي أن يهديه كالعادة شيئاً من الغنائم، فقد كتب ابن شهيد إليه:

أنا شيخ والشيخ يهوى الصبايا بالنفسِ تقيك صَرف الرزايا
ورسول الإله أسهم في الفياء لمن لم يخُب فيها المطايا

فاجعلني (فديت) أنكحُ معرو فك وابعث بهن عذاب الثنايا
هو عرف فان تحول صهراً كان والله آيه في البرايا
استجاب المنصور للشيخ، مؤلف كتاب التاريخ الكبير، الذي ضم
الأخبار مرتبة على السنوات من أربعين للهجرة حتى الآن، وأرسل إليه
بإحدى عقائل الروم ومعها ثلاث من جواربها، شبههن من شاهدهن من
أهل القرطبة بالنجوم. كتب المنصور لوزيره، صاحب الأيادي والفضل
عليه من أيام الخلفاء، بعض الأبيات ومنها:

قد بعثنا بها كشمس النهار في ثلاث من المهى أبكار
فاجتهد واتئد فإنك شيخ خفي الليل عن بياض النهار
صانك الله عن كالك فيها فمن العار كلُّ المسمار
إدعى ابن شهيد أنه افتضهن جميعاً في ليلة واحدة وكتب للمنصور
بيشره بهذا الفتح:

قد فضضنا ختام ذاك السوار واصطبغنا من النجيع الجاري
ونعمنا في ظل أنعم ليل ولهونا بالبدر ثم الدراري
وقضى الشيخ ما قضى بحسام ذي مضاء غضب الظبي بتار
فاصطنعني فلست أجزيك كفراً واتخذني سيفاً على الكفار

هذا هو حال قرطبة والأندلس، وهذا هو زمان المنتفعين أمثال ابن
شهيد الذي يصلي جالساً بحجة مرض النقرس، ثم يتحامل على نفسه
ويرقص على قدميه في سهرات المنصور للسكر والخمر في الزاهرة. على
الأرجح أن المنصور أفضل من أصحابه، وربما يختار أنصاره عمداً من
ضعاف النفوس. إجمالاً فإن القصص التي يتناقلها المقربون منه توحى
برؤيته بزوال حكمه، ومنها قوله أثناء رحلة نهريّة وسط الزاهرة كاملة
الجمال: "ويهاً لك! يا زاهرة الحسن. لقد حسن مرءك وعبق ثراك
وراق منظرک وفاق مخبرک، وطاب تربک وعذب شربک! فليت شعري
من المرید الذي يعدمک ويوهن رکنک ويهدمک، ويخلي ميدانک ويضوي
قصبک وأفنانک! فيؤساً له إذ لا يروقه حسنک فيكف عن تغييرک! إلا

تسببه بهجة منظره، فكيف عن محو أثرك". فاستعظم من سمعوه ممن كانوا في المركب معه، واستنكروا ما صدر عنه، واستعاذوا بالله من الشيطان والوسواس، فقال لهم المنصور: "والله كأنكم لا تعلمون ذلك! نعم سيظهر عليها عدونا في أقرب مدة، فيهدم هذا كله ويعدمه. وكأنني بحجارتها في هذا النهر". بماذا كان الرجل يفكر في تلك اللحظات؟ في إعدامه للأمويين وملاحقة الأحرار، أم في الانتهازيين الذين يحيطون به، أم في أبنائه وشكوكه أنهم أعجز عن مواصلة التحكم في إدارة البلاد؟

بالطبع لم يسأله أحد من المتنزهين معه في المركب من هو هذا العدو الذي سيهدم الزاهرة في أقرب مدة. على الأرجح أنه لم يكن يفكر في عدو خارجي عبر المضيق من العدو أو من ممالك نصارى الشمال الذين يتمنون رضاه ويخشون نقمته. رؤيته التشاؤمية عادلها بما أشاع من قصص عن عظمته. أفصح الأخبار في ذلك أن أحد رسله الكثيرين سار إلى بلاد غرسيه صاحب البشكنس، فأكرمه وسار معه لأيام متفرجاً في كل المواضع حتى صادف أسيرة عربية. عرفته العجوز بنفسها وأنها أسيرة منسية وخاطبت الرسول: "أيرضى المنصور أن ينسى بتنعمه بؤسي؟" وناشدته واستحلفته بأغلظ الأيمان أن يخبر المنصور بحالها. فور سماعه هذا الخبر ركب المنصور إلى بلاد نسيه التي لم يهاجم مدنها بعد زواجه من عبده أم الشنجول. سمع غرسيه باقتراب المنصور وسبب الركوب إلى بلاده فأسرع وأرسل العجوز مع اثنتين وحملها كتاباً يقسم فيه أنه ما أبصر الأسيرات ولا سمع بهن قبل الآن وأنه هدم الكنيسة التي حوتهن، وتضرع للمنصور بالسماح، فاستحى منه وكف الجيوش عنه. لو لم يكن المذنب نسيه لدمر بلاده كما فعل حتى الآن مع بقية ملوك الشمال، من أقصى الشرق في برشلونة إلى أقصى الغرب في شنت يعقوب.

عجائب الدنيا

في طريقنا إلى الإسكندرية، سمعنا الكثير من الأخبار المثيرة عن مصر وخليفته الطفل صاحب اللقب الفريد في تاريخ المسلمين. مصدر معلوماتنا كان قبطان شاب صاحب المركب الذي حملنا من ميناء مالقا وتصادق منذ اليوم الأول للرحلة مع مروان، ابن عمي عيسى الذي أصر على مرافقتنا في هذه الرحلة ليستريح من أعباء المزرعة. لا أنكر أن الفكرة أعجبتني جداً، فمروان يأتي في السن بيني وبين خالد في هذا الربيع، إثنتي عشرة سنة لخالد وثلاثة وعشرين لمروان بينما عمري أربعة وثلاثون سنة، وكل شيء في مروان يذكرني بوالده في ذلك السن. هكذا أقنعت عيسى بالموافقة، ولم يكن يمانع بجديفة في الأصل.

"دعه يرافقتنا، فربما عاد لكم بزوجة مصرية نساغده في اختيارها".

"إذا كنتم في طريقكم للحج، عليكم اعتماد النوايا الآن، وبالتالي لا تفكير في تجارة أو زواج. الأفضل ألا يكون هدفكم الحج، فالطريق خطر جداً وفي العام الماضي لم يحج أحد من أهل الشرق، ولم يصل حجج إلى مكة إلا من اليمن". كان عيسى قد أخبرني في اليوم الأول على وصولي والعائلة إلى مالقا بأن طريق الحج مغلق خوفاً من قبائل بدوية تقطع الطريق وتنهب الحجج القادمين من الشرق والشمال والغرب قبيل وصولهم إلى الأراضي المقدسة. حينها مرت في ذهني مقارنة بين قطاع الطرق في الطريق إلى مكة وبين مرتزقة المنصور الذين خربوا الحج على نصارى الشمال في الصيف الماضي. وصلت إلى مالقا مع خوخي وخالد وآمنه وقريب وليان، آخر العنقود التي حملت اسم جدتها أم خوخي، وأخبرت عمي بعزمي تركهم طرفه طوال الربيع والصيف. لم يكن

أبي قد بلغ الستين بعد، وصحته جيدة وتساعده على متابعة عملنا ومراعاة شؤون مزرعتنا قرب قرطبة، ولهذا بالذات أردت الترحال مع خالد، ورأيت أن تغير العائلة أجواء قرطبة قبل أن تربطنا أعمالنا فيها إذا تغيرت صحة أبي. عيسى من طرفه أظهر السرور لهذا القرار وفرصة تقارب زوجاتنا وتمتين الود بين أطفالنا رغم فارق السن بينهم. المعضلة التي واجهناها كانت إقناع إخوة مروان الثلاثة بعدم السفر معنا. كانوا أكبر من خالد عمراً، وناشدناهم بالحاجة إليهم في مالقا للعمل، وأقنعناهم بعدم الحكمة في المغامرة بكل الأبناء، لكن ما أسكت إلحاحهم هو الوعد القاطع مني أن يكون إثنان منهم رفقائي في الرحلة التالية، وأن يُختارا بالقرعة، أو بالتراضي.

في كل يوم من أسابيع الإبحار الثلاثة كنا نتعرف على مصر وأهلها عبر قصص القبطان وبقية البحارة. أحياناً نقهقه ضاحكين من نكاتهم وبعض رواياتهم التي يختلط فيها الواقع مع الخيال الواسع، وأحياناً أخرى تقشعر أبداننا مما يذكرون من أشكال القتل كعقاب، مثل الصلب والسُلخ في الساحات العامة للمخالفين وهم أحياء. آخر الذين سُلخوا وُصِّلوا في القاهرة كان علاقة، وهو قائد اختاره أهل صور على رأس عصيانهم ضد الدولة الفاطمية، إذ قتلوا المغاربة البربر جند الخليفة الحاكم بأمر الله وتحصنوا في مدينتهم. عندما سير أرجوان، وهو بمثابة حاجب للخليفة الحاكم بأمر الله، جيشاً إلى صور وأسطولاً حاصرهما، استنجد علاقة بملك الروم باسيل الثاني الذي أرسل إليه أسطولاً لنجده. كانت النتيجة انهزام أسطول باسيل وأهل صور ونهبت المدينة وقتل الكثير من جندها بينما حُمل علاقة أسيراً للقاهرة. الذين غزوا صور واصلوا بعد ذلك الطريق إلى دمشق فخرج الروم منها وأذعن أهلها وطمأنهم قائد الحملة باسم أرجوان وأباح دم كل مغربي يتعرض لأهل دمشق. هذا القرار له علاقة بالعداوة التي نشبت بين أرجوان وبين الوزير حسن بن عمار الكتامي على إثر موت الخليفة العزيز. كانت سيرة قبائل كتامة غير محببة في مصر وبلاد الشرق إذ اعتدوا على الأموال وحریم

العامه، وانتهى الخلاف بثبات أرجوان في إدارة شؤون الحكم باسم الحاكم بأمر بالله وملاحقته لأتباع الكتامي الذين عينهم في مدن الشرق. ثورات أهل الشرق في دمشق وحلب وحمص والرمله وعسقلان وغزة وطبرية وصور وطرابلس، كانت تتكرر قبل وأثناء وبعد عهد الخليفة العزيز، والاستنجد بالقوات الرومية كان حدثاً متكرراً. أما أهل مصر فكانوا ينفسون عن ضيقهم بكتابات جدرانية وفي قراطيس. بمثل هذا الأسلوب احتجوا على تعيين العزيز بالشام يهودياً اسمه منشا، وتولية عيسى بن نسطورس النصراني لمنصب كاتبه في مصر، وكتبوا في القرتاس : "بالذي أعز اليهود بمنشا والنصارى بعيسى بن نسطورس، وأذل المسلمين بك، إلا كشفت ظلامتي". وعندما وقع نظر العزيز على أحد القراطيس ورأى الصور فيها أمر بالقبض على اليهودي والنصراني وأغرمهما الكثير من المال بعد ثبوت ما أخذه من الناس رشوة. النكات والأشعار والرسوم والكتابات الجدرانية لم تتوقف بعد موت العزيز، وعرفنا من القبطان أن أكثر المبدعين شعراً في هذا المجال هو الحسن بن بشر الدمشقي الذي قال معرضاً في الخليفة ووزيره يعقوب وقائد القوات فضل :

تنصر، فالتنصر دين حق عليه زماننا هذا يدل
وقل بثلاثة عزوا وجلوا وعطل ما سواهم فهو عطل
فيعقوب الوزير أب، وهذا العزيز ابن، وروح القدس فضل
"ماذا تتوقع أن ترى يا أبا خالد؟"

"منارة الإسكندرية، أو بالأحرى بقيتها، فقد طالعت في مؤلف ابن حوقل أنها لا زالت قائمة رغم سقوط أعلاها وأتوقع مشاهدتها الآن ونحن نقرب من الإسكندرية وننظر برها". أجبت القبطان على استفساره بما كتب ابن حوقل عن المنارة، بأن بانيها مجهول، ويظن البعض أنه باني الهرمين وقصد من البناء تدعيم علم الفلك، لأن البحر لا سراب له كالأرض والصحراء وبالتالي تتسع الرؤية أمام الفلكي من قمة المنارة. تذكرت أيضاً استنكار ابن حوقل لادعاءات المحليين بأن المنارة بنيت

لمرآه وضعت في أعلاها ويمكن لمن ينظر إليها رؤية أية سفينة أو شخص يدخل بحر الروم في إي مكان، ووصفه ذلك بالحماقات.
 "لكن ابن حوقل لم ير المرآه، بينما قال عبد الله بن عمرو أن من يجلس تحت المنارة وينظر في المرآه سيرى من هو بالقسطنطينية".
 "من هو عبد الله بن عمرو، وهل جلس هناك وشاهد أهل القسطنطينية، أم تخيل ذلك لارتفاع المنارة وإمكانية الرؤية البعيدة؟" كان السؤال موجهاً من مروان إلى صديقه القبطان، رشيد.
 "ابن عمرو بن العاص فاتح مصر، وكانت المنارة حينها غير مهدامة. إسأل عمك".

"هذا صحيح، ولكن عبد الله، رحمه الله، لم يقل إنه جلس وشاهد، وإنما ذكر المنارة ضمن عجائب الدنيا الأربع، وقال: كان يجلس الرجل تحتها فيرى من بالقسطنطينية وبينهما عرض البحر. هذا يعني أنه قال ما وصله من مقولات وفي صيغة الماضي. لو أمكن رؤية ما يدور في القسطنطينية من هنا لما عجز المسلمون عن فتحها آنذاك والآن. أنت تعرف يا رشيد أن العين لا يمكنها رؤية إبحار أسبوع كامل من سارية أية سفينة مهما علت".

"لكن المنارة لم تكن سارية سفينة، والمرآه غير عادية بالطبع وربما كانت لديها قدرات تقريب، أو كانت مسحورة. لو لم تكن هكذا فلماذا تحايل الروم على الخليفة عبد الملك لهدمها؟" قبل تمكني من الرد على هذا الاتهام للخليفة الأموي أخذ رشيد يسرد علينا قصته، فرأيت الإنصات واقتنعت بعجزني عن إزالة الخرافات في بعض المعتقدات السائدة. قال رشيد إن الروم يعرفون سر المنارة التي بنيت قبل حكمهم للإسكندرية، ولهذا كرروا المحاولات لهدمها بعد أن فتح المسلمون مصر. ملك الروم أرسل أحد أتباعه الأذكياء إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك، فوصله وأخبره أن ملك الروم يريد الشر بالخليفة، وأنه شخصياً يريد الإسلام على يده. ثم بدأ هذا المسلم الجديد بإرشاد الخليفة إلى أماكن كنوز ويستخرجها، وعندما اطمأن إلى طمع الخليفة أخبره بوجود

راوي قرطبة

جواهر الإسكندر الأعظم وكنوزه مدفونة في نفق تحت المنارة. هكذا أرسل الخليفة جيشاً لهدم المنارة واستخراج الكنز، وبالطبع هرب الداهية الرومي قبل اكتشاف كذبه، وغضب الناس على بداية الهدم وعرفوا أنها خدعة. رواية رشيد تركز على أن الجزء العلوي من المنارة سقط في ذلك العهد، أو بالأحرى أيام الخليفة عبد الملك وليس ابنه الوليد. بعد مائة وثمانين عاماً قام أحمد بن طولون بترميم بعض من المنارة وأقام في أعلاها مسجداً، ولكن الرياح لم تُبق الآن سوى الجزء الأسفل المربع البناء وبعضاً من الجزء المثلث فوقه. يؤخذ عن المؤرخين الذين عاينوا المنارة كاملة أن الجزء العلوي كان مستديراً وفي أعلاه المصباح المحاط بمرايا لتقوية الإنارة وإرشاد السفن من مسافات بعيدة، ومثل هذه المنارات لم تكن معروفة في بلاد العرب قبل الإسلام، لكن شواطئ وجبال الأندلس مليئة الآن بالأبراج لمراقبة سفن الأعداء وإرسال الإشارات بالنيران والمرايا حتى تصل إلى أهل الشأن.

رويت لرشيد وخالد ومروان إشاعات قديمة وردت في السجلات وتدعي إحداها بأن المنارة أقيمت قبل الإسكندر، وكانت قبعتها ترسل أشعة حارقة على السفن المعادية، وعندما عمر الإسكندر الإسكندرية أصلح القبة واستبدلها بمنارة للسفن. نقلت لهم عن المسعودي، صاحب الكتب الجغرافية، قوله إن من بنى الإسكندرية ومنارتها والأهرام هو باني روما، لكن الإسكندرية نسبت إلى الإسكندر لشهرته بالاستيلاء على ممالك العالم. في كتاب ابن خردادبه، الذي حملت نسخة منه إلى صديقي جريير في ريمس، جاء أن البعض يعتقد أنها طلسم أقيم لحماية مصر من ماء البحر.

حتى لا نفترق عن رشيد وهو غاضب علينا من موقفنا تجاه رواياته كررت الحديث بأن الجميع يتفقون على كون المنارة إحدى عجائب الكون، وأن من بناها قد أحسن الصنع وحمى حجارته بالرصاص من ماء البحر وكفيها مجدداً إرشاد السفن. عند زيارتنا المنارة فيما بعد قدرنا سمكها بثلاثمائة ذراع. وصلنا إليها من خارج السور على رصيف تحيطه

المياه ويوصل إلى الجزيرة التي أقيمت فوقها المنارة. دخلنا إليها فوق جسر خشبي صاعد إلى بابها وإذا أزيل لا يمكن الوصول. كان في داخل البناء غرف كثيرة فوق بعضها يربطها طريق لولبي صاعد بدون درجات بمحاذاة الجدران، ويقدر عرض الحائط بعرض الطريق، وكل منهما ذراعان. ضخامة البناء الحالي توحى بأن ارتفاع المنارة الكلي ربما بلغ مائة وخمسين ذراعاً.

الآثار الباقية في كل مكان بالإسكندرية تنطق عن ملك وقدرة أهلها الأسبقين، وتدفع لنسج القصص والأساطير عن عظمة الماضي. شوارعها، قديمة التصميم والبناء، عريضة ومفروشة بأنواع من الرخام والحجر الملون، وأعمدة بناياتها محاطة بالنحاس والاسطوانات المنقوشة بالصور المعبرة عن قصص معينة أو وقعات حربية. كل ذلك لا يوحي بعلاقة إسلامية في العمارة أو الفن. أهل الإسكندرية من أجناس مختلطة، ويبدو أن كل قوم غزوها تركوا بها جالياتهم وتعايشت أجيالهم سوياً.

في العهد الروماني كان للإسكندراني مثل حقوق مواطني روما، لكن عراقية المدينة أقدم من الرومان، ومكثبتها الشهيرة سبقت عهدهم وأكلتها النيران قبيل الفتح الإسلامي، وعلى الأرجح أن لفائفها كانت باليونانية والرومية اللاتينية لأن اللغة العربية دخلت مصر والإسكندرية مع الإسلام، وربما حوت المكتبة لفائف البردي الفرعونية. يقال إن الملك بطليموس كان يصادر كل كتاب ورقعة تصل للإسكندرية مع السفن وينسخها ثم يعيد النسخة ويحتفظ بالأصل في المكتبة سعياً منه لجمع كل علوم الدنيا. كل فئة من سكان الإسكندرية الآن، ذكوراً وإناثاً، يتميزون بأنواع اللبس عن غيرهم ولم يتوحدوا في اللباس الإسلامي. ربما لهذا السبب لم يلتفت إلى ثلاثتنا أحد أثناء التجوال في المدينة على الرغم من اختلاف زينا عنهم ولهجتنا عن لغتهم. كما أن الفوارق واضحة بين الفقراء المعدمين والأغنياء المنعمين، لكن الجميع يشكون ظلم الحاكم ومن هم حوله، وخصوصاً أهل الأسواق أمثال الزياتين والصيارفة

راوي قرطبة

والصيادلة والحدادين والطرابين والسماكين والجزارين، وبالطبع العطارين وغيرهم من أهل المهن الذين يملأون الأسواق وينتهزون كل فرصة لبث الشكاوى من ضيق الحال. والشكاوى عادة دارجة وتوحد بين سكان مدن ورعايا ممالك حوض البحر الذي يتوسط بلاد الإسلام والنصارى.

لم نمكث طويلاً في الإسكندرية كوننا توقعنا الإقامة بها مرة أخرى عندما سنتنظر مركباً يعيدنا إلى أحد شواطئ الأندلس. خرجنا من الفندق يوم الاثنين، عشرين ربيع الأول الذي وافق مع يوم السادس والعشرين من مارس 998 للميلاد، وفي نيتنا ترتيب السفر ظهراً باتجاه القسطنطينية والقاهرة. تنبه خالد لبعض مظاهر الاحتفال في الشوارع، وتزين الناس بلباس نظيف، وتواجد عائلات على شاطئ البحر وأخرى في الحدائق العامة يحملون معهم حاجياتهم للجلوس ومأكولات وكثيراً من البصل الأخضر والبيض المسلوق والمزخرف بألوان زاهية ونبات الحمص الأخضر الناضج.

في حديقة النخيل التي تتوسطها السارية المشهورة، عرفنا أن اليوم هو عيد شم النسيم عند المصريين والذي يحتفلون به منذ أيام الفراعنة كل اثنين بعد يوم الواحد والعشرين من مارس، بداية فصل الربيع. استضافنا عجوز وزوجته حضراً للحديقة مع أحفادهم وكانا ينتظران ابنهم وزوجته. شرح لنا المضيف خلفية هذا العيد عندما عرف أننا غرباء ولا نحتفل به في بلادنا. قال إنه يرمز عند الفراعنة لبعث الحياة، وأن أكل البيض له علاقة بتقديس البيض الذي ينمو منه، وهو جماد، شبيء حي، كما أن أكل السمك المملح يعود لتقديس النيل. أما البصل فله فوائد صحية غذائية. "نبات الخس يقوي الطاقة الجنسية، وإذا ذهبت إلى القسطنطينية والمعابد القديمة ستجد صورته مع صور الفراعنة". قال العجوز ذلك همساً لي حتى لا نسمعنا زوجته أو أحد أحفاده.

"أبي، مروان يريد تسلق السارية والجلوس على قممها". نظرت لخالد مستفسراً، وأقر العجوز باستحالة ذلك، ونظرت للسارية وأيدت العجوز بإيماءة من رأسي. "لقد تراهن مع شبان مصريين أنه يستطيع

تسلقها وذهبوا يبحثون عن أحزمة جلدية طلبها منهم". ذهبت مع خالد أسفل السارية ونظرتها فإذا بها عمود رخام هائل وأعرض من عدة نخلات مجتمعة ويفوقها علواً.

"هذا رخام أملس كيف تتسلقه؟ إذا أردت، يمكنك الانسحاب وإبلاغ من راهنتهم أنني منعتك".

"إذا منعتني فلن أتسلقها، ولكنها ليست أصعب من تسلق النخيل. سأعتمد على الأحزمة التي تلفني والسارية أثناء الصعود والهبوط".

"أصعد أربعة أذرع وأهبط، فإذا نجحت بذلك أعيد الكرة إلى القمة، أريد التأكد من متانة الأحزمة وصحة الأسلوب. عندما تصل القمة لا تجلس فوقها ولا تخرج الأحزمة عن السارية. يمكنك التظاهر بالجلوس، ولن يعرف أحد ممن ينظرون لأعلى أي وضع اتخذت". وافقني مروان على ذلك، وكان بودي لو منعه من التسلق، لكنني رأيت أن نجاحه سيعطيه ثقة بالذات، وفشله سيكون بمثابة درس في التواضع هو بحاجة إليه. كل الحضور الذين تجمعوا أكدوا استحالة المهمة وأنهم لم يسمعوا بمن نجح في تسلق هذه السارية. ربطت بين حزام مروان حول خصره وبين الحزام الملتف حوله وحول السارية. في دقائق صعد وهبط أذرع التجربة، ثم صعد إلى القمة وهبط بسلام، وطلبت منه التسامح وعدم جني مريح المراهنة، ولكننا حصلنا على الكثير من السمك المملح، الفسيخ، أي المتفسخ من فعل الملح، وتركناه لصاحب الفندق إذ كان أكله يحتاج لشرب الكثير من الماء.

عرفت فيما بعد عن شم النسيم أنه كان يوم الحادي والعشرين من شهر برمودة، وأن مغيب الشمس ذلك اليوم تنعكس على قمة الهرم فتبدو وكأنها انشقت نصفين. اليهود اتخذوا من ذلك اليوم عيد الفصح الذي يرمز لنجاتهم من فرعون. استدانوا أوعية المصريين الفضية والذهبية قبل يوم ثم غادروا بها مصر مع سيدنا موسى أثناء انشغال المصريين باحتفال شم النسيم. بعد دخول المسيحية إلى مصر اتخذ معتنقوها يوم الأحد التالي للواحد والعشرين عيداً للقيامة، بينما يحتفل المسلمون في مصر يوم الاثنين الذي يليه بشم النسيم دون إقرانه بالدين.

بحر النيل

أخذنا بنصيحة عدم اكتراء بهائم تحملنا إلى مصر، وإنما ركوب النيل، الذي يسمونه البحر، ويعللون هذه التسمية بأن القرآن وصف نهر النيل باليم، أي البحر. المراكب بالمثات، تتقاطر وتتقابل في الاتجاهين محملة بكل شيء بين أقصى الصعيد جنوباً حيث أسوان وبعدها السودان، وبين الإسكندرية شمالاً وبابها على النيل هي قرية رشيد. المسافة بين القطبين مسيرة شهر، ولكن المدن والقرى تكاد تكون متصلة. هذا ما طالعه من كتب الرحالة والجغرافيا، وما شاهدته في الطريق بين الإسكندرية والقاهرة. في يومنا الأول مررنا بقرى الصير والكريون القائمة على ضفتي فرع النيل الغربي المتصل بالإسكندرية. كنت أود زيارة جزيرة تينيس قرب دمياط، ولكنها تقع في الطرف الشرقي من ملتقى فرع النيل والبحر. خرائط ابن حوقل لهذه المنطقة تظهر مثلثاً مائياً تحده وتتخلله أذرع النهر بين الإسكندرية ودمياط وشطنوف القريبة من الفسطاط والقاهرة والجيزة. مثلث يعج بالمدن وتسبح به مياه القنوات والترع المتفرعة من النيل وأذرع وتعود إليه بعد ري كل شبر من الأرض طوال العام. رغبتني في زيارة جزيرة تينيس مردها ما قرأته عن ثورة أهلها على الفاطميين قبل ست وعشرين عاماً وقتلهم الوالي وجنده، ورفعوا علم بني العباس الأسود. آنذاك أرسل إليهم الخليفة المعز جيشاً بقيادة فاتح مصر للفاطميين، جوهر الصقلي، فقمعهم. شهرة تينيس هي صناعتها للحلل التنيسية التي ليس في الأرض ما يدانيها من القيمة لرقتها ودقتها، حسب وصف أهل الخبرة، ويصنعونها من الكتان الرفيع. الحلة المطعمة بالذهب قد يصل ثمنها مائتي دينار، وما لا ذهب فيها مائة دينار. أثمان الصنع

الدمياطي والشطي مشابه، أما بقية ما كان يصنع في المنطقة على غرارها فهو أرخص قليلاً. وذكر أن حمل الجمل إلى بغداد وصل إلى ثلاثين ألف دينار قبل أن يعطل أبو الفرج، وزير العزيز، هذه الصناعة بفرض الغرامات الفائقة والمكوس وتسخير الصناع له، وقبض جزية على جميع الداخلين والخارجين من تنيس.

"نحن نسبح فوق هذا اليم الذي حملت مياهه سيدنا يوسف والنبي موسى عليهما السلام، وأنت سارح الذهن، فأين أنت؟" كانت الشمس تهبط تدريجياً وتلقي بأشعة حمراء على سطح الماء عندما نبهني صوت مروان الذي انتهى من الانشغال مع خالد في تجربة صيد السمك بشباك ترمى في الماء ويحتفظ بخيط منها في اليد فتشد منه مجدداً مغلقة على ما صادفها من السمك البوري النيلي فائق الصيت.

"هذه الشمس يشاهدها أهلنا في مالقا الآن، وتضيء أسوار المدينة". في الواقع لم أكن أفكر في ذلك ولكن خطر لي تأنيب ضمير خالد ومروان، ثم شرحت لهما ما جال بخاطري من تذكر قصة تنيس واستيلاء الوزراء على صناعتها الفاخرة.

"دعاية العباسيين لم تتوقف على حقهم الديني في الخلافة، ولكنهم روجوا ضد فساد ونعومة عيش خلفاء بني أمية في دمشق. بعد إبادة الأمويين أصبح خلفاء بني العباس في بغداد مضرراً للترفه الذي أشده ملوك النصارى وقلده أمراء بني أمية في الأندلس. غطس العباسيون في رخائهم حتى ضاعت قوتهم، وتراجع بنو أمية في الأندلس حين ضاع والد هشام بين الكتب. القصة تكررت في المغرب التي وصلها الفاطميون من اليمن والجزيرة وأقاموا خلافتهم على دعائم التبعية لبنت الرسول، عليه السلام، والعدل والتشف. فجأة تركوا المغرب إلى رخاء أكبر في مصر وأقاموا القصور ولبسوا رفيع الحلل، وعلى الأرجح سيحل بهم ما حدث لغيرهم. في المغرب سمتهم الرعية المشاركة، وفي المشرق يسمونهم الآن المغاربة".

أنزلنا المركب في محلة نفيده بعد مرورنا على قرنفيل وشبروا أبو

مينا وقرطسا وذنشال، وكلها قرى كبيرة عامرة بالأسواق ودور العبادة من مساجد وكنائس قبطية، كنا نشاهدها من المركب ونتبادل التحيات مع الناس على شواطئها ونراهم في شوارع توازي مجرى الماء، أو يعملون في المزارع بين القرى. محلة نفيده لم تكن من القرى الكبيرة، ولكنها تقع على مفترق للمجرى النهري تلتقي نهايتهما في شطنوف ثم تنساب لمقصدنا من مدن مصر الوسطى. رزقنا بفندق صغير يتبعه حمام، وعرفنا أن معظم القرى بها فنادق وحمامات، أو بالطبع مسجد يمكن المبيت فيه عند الضرورة. لم نحمل أية سمكة مما صاده مروان وخالد، وتعشينا دجاجاً مطبوخاً في ملوخية خضراء لم نأكلها قبل ذلك. رفيقاي أكلا الدجاج مع الرز بعد تنظيفه من لزوجة الملوخية التي أعجبنى طعمها ولكني لم أبالغ في الكمية تحسباً للعواقب من أكل أي جديد.

قبيل الانتقال للنوم أعاد خالد سيرة عبد الله بن عمرو بن العاص سائلاً عن عجائب الدنيا الأربع. "عجائب الدنيا غير ثابتة، وهي لدى كل قوم مختلفة العدد والقصد، ولو جمعت ما قيل عنه عجائب الدنيا لوصلت ثلاثين. عجائب عبد الله الأربع هي المنارة التي رأيتها، وفرس من النحاس كان قديماً بأرض الأندلس عليه فارس باسط يديه بما يعني "ليس خلفي مسلك وهنا نهاية الأرض". أما ثالثها فمنارة من نحاس عليها راكب نحاسي أيضاً وهي في أرض عاد ويهطل منها المطر في الأشهر الحرم، والعجيبة الرابعة شجرة من نحاس يحرسها سودانية من نحاس في أرض الروم وتلقي الطيور إليها بحبات الزيتون فتعصر لأهل روما حاجتهم لأكلهم وسرجهم". كان الإثنان قد أخذوا في الضحك، فقلت لهما إن النص على لسان عبد الله ورد في كتاب ابن خردادبه المعنون بـ "المسالك والممالك" ونقله عمّن سبقوه ولم يقل إنه رأى تلك النحاسيات.

"ما هي عجائب الآخرين إذا"

"سأخبرك أنت ومروان عجائب الروم السبع ولكن باختصار شديد وربما فصلت عليكم إذا تمنعتم عن الضحك. واحدة من السبع

رأيتموها، واثنان سترونهما في مصر وهي الأهرام، وسفنكس المعروف أيضاً بأبي الأهوال، وهناك أعجوبة حدائق بابل المعلقة. أيضاً معبد مدينة ايفسوس اليونانية التي دمرت وغرقت في البحر، وتمثال إله الشمس هيلوس في جزيرة رودوس المصنوع من البرونز ويقدر طوله بأربعين ذراعاً وكانت السفن تمر من بين قدميه وله نقش على العملات القديمة. تمثال الإله الإغريقي زيوس اعتبر من عجائب الدنيا المتواجدة قبل ميلاد المسيح والتي انقرضت كلها ما عدا ما بقي منها في مصر. والآن دعونا ننام"

بعد منتصف الليل هزني مروان من النوم، وتبينت تدريجياً كلما صحت اضطراباً في وجهه، وحتى لا نوقظ خالد من النوم انتقلنا إلى غرفة مروان المجاورة التي منحنا إياها صاحب الفندق من دون أجره إضافية. نظرت لمروان متسائلاً عما يزعجه وكنت أتوقع سماع شكوى معوية. "لقد اغتصبتني الليلة أنثى، ربما بنت صاحب الفندق". فتحت عيني وفركتهما غير مصدق ما أسمع من شاب ممتلىء الجسد مفتول العضلات أسود الشعر أزرق العينين. "شعرت بها تداعبني، ظننت أنني أحلم، تدريجياً وبعد فوات أوان المقاومة كانت قد ركبتني ولم تنزل عني إلا بعد أن انتهيت".

"متى كان ذلك؟" سألته بينما ذهني باشر العمل بسرعة لدراسة الاحتمالات وردود الأفعال.

"قبل قليل، وفكرت لبضع دقائق قبل إيقاظك، ورأيت الأفضل أن أخبرك لتكون على حذر". جمعت منه المعلومات عن وصفها وما قالتها وإذا كان شاهدها اليوم. لم يكن عنده الكثير من الإجابات غير أنها ناضجة ممتلئة الجسد ثقيلة الوزن، وأنه لم ير شيئاً من جسدها إذ حافظت عليه مغطى. عرفت منه أن هذه ليست تجربته الجنسية الأولى، وطمأنته بأن المخاطر محدودة طالما مرت العملية دون اكتشاف في حينه من طرف آخر، واتفقت معه أن يؤمن باب الغرفة من الداخل، ويتصرف بشكل طبيعي ريثما نستطلع الخبر.

في الصباح استقبلنا فطوراً متنوعاً لم نتوقع مثله، بيض مسلوق، وفول مدمس ساخن ساحت فوقه سمنة بلدية طازجة، ولبن رايب في زبادي فخارية، وسمك بوري مقلي، وبالطبع خبز ساخن يكاد يكون على شكل مكور. شكرنا صاحب الفندق على حسن الضيافة، وطلبت منه أن يشكر من جهزوا لنا الإفطار. نتيجة الحديث كانت أنه وزوجته يشرفان على الفندق والحمام، وأنهما لم يرزقا بأطفال. هكذا قررت أن أخبره بقصة بعد أن حورت محتواها ليناسب ما نحن فيه. قلت له إن رجلاً لم يرزق بأطفال طلب نصيحة بعض الفطناء فقال له أحدهم: أخبر زوجتك أن مُنجماً حكيماً رأى أنها ستموت بعد شهر. ثم شجعها على التعبد والابتعاد عن الأكل قدر الإمكان، فإذا ضعف جسدها وخف وزنها فجامعها وستحمل بإذن الله. وشرح صاحب النصيحة هدفه معتبراً أن الزوجات السمينات لا يحملن نتيجة للدهون في الرحم وحوله.

"وهل حملت زوجته بعد أن خافت وخف وزنها؟"

"الرواية تقول نعم، لأن الموت هو الشيء الوحيد الذي يربع الإنسان ويبعده عن الطعام. لكن هناك زوجات نحاف ولا يحملن، وهذا كله بإذن الله وقدرته". لم يعلق الرجل بعد ذلك، وغيرت موضوع الحديث سائلاً إياه عن الطريق الأفضل، وتواعدنا على الزيارة إذا عدنا من هذه الناحية. لم أخبره بالطبع بما أعرفه حول عقم الرجال أيضاً، وظننت أن تخفيف وزن زوجته ربما ساعدهما في حل معضلة الإنجاب، فإذا كانت ثقيلة وزائرة الليل وخففت وزنها، ولم يكن العائق منها، فلن تكون لدى الرجل شكوك في حمل زوجته.

اكترينا جملين مع حاديهما للانتقال عبر الريف إلى شطنوف اختصاراً للوقت، وأيضاً حتى نرى البلدان وأهلها بشكل أقرب مما لو ركبنا النيل. بلاد أبعد ما تكون شبيهاً بأندلسنا، منبسطة بدون تلال وجبال، يعمها الخضار والمزروعات، وتكثر فيها الأغنام والجواميس والحمير ومنها أنواع خاصة بمصر، وبعض القرى تربي الخنازير. المدن الأكبر يوجد بها عبيد ومقاتلة وعاملها يأمر على خيالة للحراسة والحماية

ولمساعدة الجابي على جمع الأموال، هذا ما كان مثلاً في شابور وهي عامرة الضياع وغزيرة الغلات. أما ترنوط فيكثر فيها الرهبان والقساوسة وأسواقها عامرة وبها حمام مثل معظم القرى والمدن التي مررنا بها. ما عدا في الإسكندرية، فلم أشاهد حتى الآن في الأسواق وراقين أو أية كتب معروضة، وطني أن القراءة والكتابة بين الرعية شحيحة وتشابه بلدان الروم. زراعة القصب منتشرة في الريف ويصنعون منه السكر ويشربونه عصيراً أيضاً طوال العام كونه قابل للتخزين. الريف به نخيل وعنب وقليل من التين في شجرات متباعدات، ويزرعون الرز على مياه كثيرة، ولا ينقصهم أي من أنواع الخضروات والأعلاف.

لقد صدق من قال: لو عمرت مصر لوفت بأعمال الدنيا. علوم كتب الجغرافيا تؤكد إمكانية تعمير ثمانية وعشرين ألف ألف فدان، ولكن المعمر منها ألفا ألف فقط، ومع ذلك فهو يزيد عن حاجة أهلها. أخبرنا شيخ جامع شطنوف أن مدينة بلبيس في الشمال الشرقي ومدينة المشتول التي يكثر فيها الطواحين، قامت قبل الفاطميين بميرة الحجاز من دقيق وكعك طوال العام. الآن يمكن أن أفهم لماذا افتخر فرعون على العالم بمصر التي تكرر ذكرها في القرآن وبها آثار الأنبياء وعجائب موسى وفيها تاه اليهود، وإليها هاجرت مريم بالنبي عيسى عليه السلام. الذين انصفوا مصر كتبوا أنها قبة الإسلام، ونهرها أجل الأنهار وبخيراته تعمم الحجاز، وبأهلها يبهج موسم الحج. لكن من يأمنون إليك في الحديث يقولون إن ذلك كان في الماضي. الجباية تنوعت وثقلت على الناس الآن إلى درجة أن عام قحط واحد يودي بحياة مئات ألوف البشر، لأن مخزونهم شبه معدوم ويعيشون على غلة العام وتحت رحمة فيضان النيل، إذ نادراً ما تهطل الأمطار في هذه البلاد التي قد يمتد قحطها لسبع سنوات.

جبا عمرو بن العاص مصر للخليفة عمر بن الخطاب اثني عشر ألف ألف دينار في السنة، وذلك جزية من غير المسلمين ما عدا المكوس. وعندما تولى عثمان الخلافة صرف ابن العاص عنها وولاها

إلى قريبه عبد الله أبي سرج فجاها أربعة عشر ألف ألف دينار، فقال عثمان لعمره: أبا عبد الله علمت أن اللقحة درت بعدك. فرد عمرو: نعم ولكنها أجاعت أولادها.

أما جوهر الصقلي فقد جباها للخليفة الفاطمي المعز سنة تسع وخمسين وثلاثمائة، وهي السنة الثانية من دخوله إليها، بمقدار ثلاثة آلاف ألف دينار وأكثر، على الرغم من زيادة الذين أسلموا ونقصان الذين يدفعون الجزية. سبب هذه الزيادة أن جوهر قبض عن الفدان سبعة دنانير بعد أن كان المبلغ نصف ذلك قبله. طبعاً لا توجد جباية إذا لم يصل فيضان النيل إلى مستوى معلوم، وذلك أن لمصر عادة منذ أيام الفراعنة في استخراج الخراج والجباية إذ لا يستوفى شيء من أهلها إلا عند تمام افتراش الماء على سائر أرضها لزمن معلوم يبدأ في الصيف ويرمون حينها بباكورة بذور الرز، ثم تنحصر المياه في الأسبوع الأول من أكتوبر. والأرض في كل مصر لا يملكها أحد بعينه، وإنما يأخذونها من الولاة بالكراء ويحسب وفرة الفيضان. في البداية يحصدون الرز، وآخر زرعهم هو السمسم. الجباية تبدأ بقبض الثمن ثم الربع وبعد أشهر الربع الثاني ثم يدفعون بقية الخراج مع حصاد أول الزرع، ولا زالوا في ذلك لأن يستعملون أسماء الأشهر الفرعونية. عرفنا من الناس أنه عندما يفيض النيل تصعب التنقلات على ظهور الدواب وربما تطلبت الحاجة أخذ مراكب للتواصل بين مناطق هذا المثلث الضخم من أرض مصر.

يومنا الأول على الجمال أكسبنا شعوراً مختلطاً. تنظر إلى الأرض من علو، ويخيل إليك صعوبة السيطرة على هذا الحيوان غير الأليف إذا ما قارنته بسلاسة الخيل، وهو لا يستجيب للأوامر بسرعة، ويرغي ويزيد إذا ضربته، وليس من السهل الجلوس على ظهره، ولا بد من حركة دائمة لأعلى الجسد لتناغم حركة الجمال للأمام والخلف. أما إذا ركض قليلاً فإنه يقذف براكبه لأعلى وعليك تثبيت نفسك بالأيدي في سرجه. لكن الحادي أخبرنا بسلاسة الركوب إذا ما أسرع الهجين في الركض

فتصبح مثل الطائر في الهواء. في المساء صرفنا الجمال وحاديها وكان علينا اتخاذ بعض القرارات قبل الصباح.

"الليلة سننام جميعاً في بيت واحد". خالد لم يفهم المعنى ولم يعلق بينما وافق مروان دون تعليق. "سنجرب الملابس التي اشتريناها في الطريق ونعتمرها فوق ملابسنا حتى لا نبدو غرباء ولا يعرفون أننا غرباء إلا من لهجتنا".

"أليس من الأجدى التكر بلباس المغاربة وتقليد لهجتهم فنبدو مثل سادة البلد وليس الرعية؟" لم يكن صعباً علينا تقليد لهجة المغاربة إذ يقطن الكثيرون منهم في قرطبة ويمرون بمالقا، لكن ذلك سيجعلنا كاذبين إذا ما اكتشف أحدهم حقيقتنا. لم أرغب في إقلاق مروان بوجود خطر من هذا التصرف وتذكيره بالخصام القائم بين الفاطميين في المغرب وغيرها من البلدان، وبين أهل الأندلس، فقلت إن الأفضل هو وسط الأمور وعدم الكذب، لأن غايتنا هي سهولة التحرك وليس تغيير الشخصية. إستذكرت أسئلة الجابي المتكررة في رشيد عن سبب رحلتنا إلى الفسطاط طالما أننا لا نحمل أية تجارة، ومر بخاطري القبطان حسن البحري وقصصه حول المغاربة حكام مصر وشكوكهم في كل شيء وإنسان.

"البربر يركبون الجمال في الغزوات مع المنصور، فدعنا يا أبي نجرب ركوب هذا الحيوان مرة أخرى وننتقل به إلى الفسطاط". أعجبنى الاقتراح، بل فاجأني إذ كنت متأكداً أن خالد لم يكن ليصمد طوال اليوم لو لم نسترح مراراً ونتبضع ونأكل في الأماكن التي مررنا بها. "لكن الأفضل أن نختار جمالاً حسنة ويكون لكل منا هجينه". في الصباح اكتبنا ثلاثة جمال قوية وبغلاً لمرافقتنا وكاحتياط لمن لا يصمد على سنام الجمل. أنعم الله بيوم ربيعي منعش، ومن على ظهر الهجين شعرت ببعض البرودة تلفح وجهي، لكن الجلاية الصوف حمت الجسد من البرد وإن كانت أكمامها واسعة وصدورها مفتوح، وغطيت رأسي بشال صوفي طويل يمكن أن يتدلى على الصدر أو يلف حول الرقبة، تبعاً للحرارة

راوي قرطبة

والبرودة، وإذا هبت رياح رملية يمكن أن يكتم به الوجه ولا يرى منه سوى العينين.

أخذنا الجانب الأيمن من النيل باتجاه الجنوب، وهو طرف الأهرام وأبي الأهوال ومدينة الجيزة، وقبل انقضاء نصف ساعة بدأت محاولات ابني وابن أخي لتكريض الهجينين. أعطوا أوامر شفوية، ثم ضربوا بالسيقان على الظهر، ولكن الحيوانين تجاهلاهنا. "إمسك بالسرّج بقوة، وأرخ الرسن بطول رقبة الجمل، وقل له هط هط". بعد هذه التعليمات ضرب الحادي الجملين على مؤخرتهما وارتفع صوت مروان وخالد بعشرات الهط هط. ركضت الجمال الهوينا، وتبعهما جملي والحادي خلفنا على البغل، ثم تزايدت السرعة ولم أعد أشعر بملامسة خفاف الجمل للأرض، وأصبح بالرغم من ضخامته يطير كفراشة تلامس الأرض بانتظام أثناء الطيران، لا يدب على الأربع، وإنما ييمناه الأمامية ويسراه الخلفية سوبا ثم بالاثنتين الأخريين، وفي كل مرة تلامسان الأرض تحت بطنه. كانت تجربة فريدة، وأشفت على الجمال الضخمة من الركض السريع فصرخت على الشابين برحمة الدواب، وأخذت أشد رسن جملي رويداً رويداً حتى عاد للمشي الطبيعي، ولحق بنا الحادي على البغل بعد وهلة.

الحاكم بأمر الله

رأينا الأهرام في منتصف النهار، ووصلناها قبل المغرب حيث استقبلنا فتيان أعراب سحبا جمالنا إلى مضاربهم واستضافنا شبانهم وكبارهم في خيمة كبيرة سوداء بخطوط حمراء مغزولة من صوف الجمال. لم يسألونا غايتنا لكن الشيخ مسعد لمح إلى طول الزمن المتبقي على موسم الحج إذ كنا في الأسبوع الثالث من ربيع الأول وتفصلنا سبعة أشهر عن الموسم، بينما الطريق إلى مكة من هنا تحتاج لعدة أسابيع فقط. تدريجياً عرفت أنهم يستقبلون حجاجاً ويتفقدون مع بعضهم على مرافقتهم إلى الصعيد وتحديداً إلى ادفو، ومن هناك يوصلهم أقاربهم إلى عيذاب ليقطعوا البحر إلى مكة.

"لم نعزم على الحج موسم هذا العام، لكننا نختبر الطريق وربما وصلنا إلى الصعيد. في البداية، ومن الليلة سنزور الفسطاط والجيزة والقاهرة".

"أهلاً وسهلاً، ولم الاستعجال، أنتم ضيوفنا لثلاثة أيام على الأقل، تتفرجون على الأهرام والجيزة وهذه النواحي قبل قطع النيل إلى الفسطاط ودفع الدراهم للقباض على كل داخل وخارج. هل سافرتكم من بعيد؟" لم أشأ الاستفسار عن كل صغيرة وكبيرة، واقتنعت بحسن الرأي أن نبيت طرفهم وندخل الفسطاط بعد الانتهاء من هذه الناحية.

"شكراً على دعوتكم، نحن من الأندلس، ووصلنا إلى الإسكندرية بحراً". واستدركت بالقول إن أصولنا من اليمن. إنشرح وجه الشيخ عندما عرف بأصولنا من الجزيرة وبأننا من المسلمين السنة، وأخبرنا أنه من قبائل الهلالية، وأبدى اهتماماً بمعرفة أحوال أفريقيا والمغرب الأدنى

راوي قردطبة

والأوسط والأندلس، فأخبرته عن يسر الحال في الأندلس وما عرفته عن أفريقيا.

"لقد أقفرت مراعيينا في نجد وسمعنا بخصب نواحيكم في الغرب وعزمنا على التغرب. عندما وصلنا إلى مصر منعنا الفاطمي من اجتياز النهر إلى المغرب وطررنا. بعض قبائلنا عادت إلى نجد، وبعضها تحرك إلى الشام، وغيرنا هبط إلى الصعيد على الطرف الشرقي للنهر وحطوا بين النهر وبحر جدة يرعون ويساعدون الحجاج على اجتياز الصحراء. أنا وأولادي قطعنا النهر ونزلنا هنا على طريق حجاج الغرب". طراً لي أن هؤلاء السفراء هنا يوصلون الحجاج لقييلتهم في الجنوب، وربما أقارب آخرون لهم هم الذين يقطعون الطريق على الحجاج، أو على الأقل يقطعون طريق من لا يستعين بخدماتهم.

"أي فاطمي منعكم من اجتياز النهر، الحاكم بأمر الله أم والده، وبأية حجة؟"

"أبوه منعنا، ولكن الحاكم لم يغير الرأي للآن. لقد اتفق على هدنة عشر سنوات سلام مع ملك الروم باسيل، لكن جنده يحاربون العرب في مدن الشام". خبر هدنة السنوات العشر كان جديداً علي وعرفت لاحقاً أن الأمر أشهر في صلاة الجمعة الماضية فقط. "منعنا العزيز لأنه خاف أن نخرب بلاده في المغرب التي ولد بها وجاء منها مع أبيه إلى هنا، وخيرنا بين العودة من حيث جئنا أو النزول إلى الصعيد للعيش بجانب الأقباط". لم يجد الشيخ حرجاً من الشرح بتفصيل عندما لمس جهلي بالهلالية وحروبهم وعلاقتهم بالرسول، عليه السلام. أراحني اطمئنانه لي والحديث عن السياسة الفاطمية دون خوف، وشوقني حديثه لمعرفة المزيد عن ظروف حياة البداوة في جزيرة العرب. لكن التعب والنعاس بعد العشاء أجبر خالد إلى النوم وهو متكئ على الوسائد، وصمدت مع مروان لفترة أخرى بمساعدة أقداح من القهوة المرة التي تغلى على النار أمام بيت الشعر. الشيخ مسعد يروي قصصه سجعاً وشعراً بأسلوب سلس ولغة فصحي جميلة، وبين روايتين منه كنت أسمع بعض أشعار من

الأندلس أو بعض أشعار أبي الطيب التي تتماشى مع الحكمة مما رواه الشيخ. قبيل انتصاف الليل كانت الخيمة مليئة بذكور القبيلة، لففت الشال الصوفي على معدتي حماية من البرد، وغطيت خالد بعباءتي الصوفية وتشاءبت.

"تبدو مرهقاً من الترحال، سنترككم للنوم الآن. عليكم التعود أن تناموا في النهار وتقضوا شؤونكم في الليل". لم أهتم بما قاله الشيخ، واستغربت من ضحك الآخرين عندما سمعوا طلبه هذا مني. أعربت لهم عن قدراتي على السهر في الظروف العادية، وشكرتهم على تفهمهم وتمنيت لهم صباحاً خيراً. على الأرجح أنني غطت في النوم على الفور، وعندما صحت مع دفء أشعة الفجر كان القوم نياماً، فطالعت في بعض الأوراق التي حملتها عن الأهرام والفسطاط.

ما سمعت وقرأت عن الأهرام لم يتماشى مع مشاهدتي طوال اليوم. ليست هرمين وإنما أكبرها اثنان، ويستدل من بقايا الأساسات أن مجموعها ربما فاق العشرة، ويمكن بوضوح رؤية اثنين صغيرين على مقربة من الهرمين الأكبرين لكنهما محاطان بتلال رملية إذ لا يمكن رؤية قاعدتهما مثلما تُشاهد القواعد ومحيط الحجارة للهرم الأكبر. كل الأهرامات تتفق في الشكل المخروطي وتربيع القاعدة، مع تشابه ضلع القاعدة مع ارتفاع الهرم الذي ينتهي ك رأس رمح. لا أدري لماذا كثرت الكتابة عن احتمالات كون الأهرام طلاس، أو مخزن سيدنا يوسف من الغلال، أو الظن بأنها مليئة بالعلوم التي جمعت وكتبت من قبل سيدنا إدريس عندما عرف بقدوم الطوفان، وهناك من قالوا إنها مليئة بالكتابة اليونانية! من الواضح أنها قبور لملوك عظام من عهود بائدة لم تكن لغتهم يونانية، ولكنها رسوم وأشكال هندسية يتكرر بعضها. في الممر المفتوح في الهرم الأكبر وجدت بعض التوابيت الحجرية الفارغة، وهذا يؤكد أنها قبور لأناس أرادوا تخليد ذكراهم بهذا البنيان الذي لا تؤثر فيه رياح أو زلازل. تأكدت في الأيام التالية أنها قبور بعدما زرت مقابر المصريين الحاليين التي تشبه البيوت ويسكنون فيها عائلات تحرسها،

وفي وسطها مساجد فخمة وحالها أشبه بالمدن والحياة، وأبعد ما تكون عن الموت والسكون السائد في مقابر الأمم الأخرى. المصريون هم أكثر قوم ينفقون على موتاهم ويحتفلون بهم ويكثرون من زياراتهم، وهذا كله على الأرجح ورثوه من الفراعنة ولا زالوا يمارسونه رغم تغير الدين واللغة مراراً. أما تمثال أبي الأهوال فربما كان إلهاً مصرياً جسده كالأسد ورأسه بشري، وربما كان المصريون بهذه الرسوم قد سبقوا اليونان الذي لديهم رسوم مشابهة تخلط بين هيئة البشر والحيوان.

من الطبيعي في عالم المسلمين الذي تُحرم فيه رسوم البشر والحيوانات أن تشاع القصص بأن الشيطان يدخل لأبي الأهوال ويحدثه، ولذلك كسر أنفه وشفته. خالد أخذته روعة الرسوم على الجدران داخل الهرم ففضى وقتاً ينقل بعضها على الورق، بينما أصر مروان على مجازاة بعض شبان الهلالية، الذين أفاقوا من النوم بعد الضحى، في تسلق قمة الهرم. تمنيت لو تسلقت الهرم مثلهم لمشاهدة مصر من هذا العلو، لكنني كنت أتخوف من النزول والانزلاق على الرغم من نتوءات متفرقة يمكن استعمالها كدرجات.

عندما ودعنا الشيخ مسعد وربعه قبل المساء كرر علينا قوله بكثرة برابي الفراعنة والقدماء المنتشرة بين الأهرام وأسوان، وبعضها يشبه مدناً كاملة ومعابد وتمثيل. أراد إغراءنا بزيارة الصعيد وقومه الهلالية هناك. وعدته ببذل جهدي لإتمام الزيارة وأكدت له عزمي رؤيته على كل الأحوال قبل العودة إلى الأندلس. أوصلنا الحادي إلى الجزيرة وعاد بالجمال إلى الريف إذ لم نكن نعرف مدة البقاء هنا، وخبنا عدم الحاجة إلى جمال للتنقل في المدينة. وصلنا إلى الفسطاط بعد اجتياز جسر معقود من ثلاثين سفينة بين البر وجزيرة الروضة وسط النيل، وجسراً آخر يوصل إلى الضفة الشرقية. قبل أن نجتاز الباب دفعنا للجابي ديناراً عن كل منا، وأعطانا رقعة تثبت استيفاء الرسم، ونصحنا حملها حتى لا ندفع مجدداً عند الخروج والدخول، أو عند دخول القاهرة.

الفسطاط من تعمير عمرو بن العاص بعد فتح مصر. قبل ذلك كانت

الإسكندرية حاضرة البلاد، وقبلها كانت مناف حاضرة الفراغة الذين أقاموا مدناً أخرى كبيرة على ضفتي النيل. شوارع المدينة عجت بالناس يتحركون بهمة على أرجلهم، وعلى ظهور حمير، وأعداد لا تحصى من السقائين فوق جمال يتحركون بين عمائر يصل ارتفاع بعضها إلى ست طبقات. سألنا عن مسجد عمرو ونزلنا في فندق باب المدينة في زقاق القناديل المزدهم بالمحلات والبائعين. بشر يحتكون ببعضهم أثناء المسير من كثرتهم. استقبلنا في صالة الفندق رجلٌ ممتلئ الجسم، بل سمين ووجهه أبيض كأنه لا يشارك المصريين شمسهم. خيرنا في أي طابق نسكن، فاختر خالد ومروان أعلاها قبل أن استفسر عن محاسن ومكاره السكن العالي.

"بلادكم مزدحمة على الرغم من ضخامة حجمها وطول نيلها."
 "إذا رغبت الهدوء فتجول في شوارعها صباحاً وظهراً، فلن تشعر بالزحام". يبدو أنني كنت فاغراً فاهي وأنا أحاول فهم ما يقول. "نحن نعمل بقرار من الخليفة في الليل ونسكن في النهار، ألا تعرف ذلك؟"
 "أعرف ماذا؟ تريد القول جاداً أنكم تنامون في النهار وتعملون في الليل وذلك بأمر من الخليفة، أطل الله عمره؟"
 "هذا بالضبط ما قلته. حتى الخليفة يعمل في الليل ويعقد الاجتماعات مع الوزراء على ضوء المصابيح والشموع. كل أصحاب المصانع والمحلات والأسواق يعملون في الليل، ويغلقون معظم النهار طبعاً".

بعد تساؤلات وإجابات عديدة وتعارف على حمدان توصلت إلى سبب هذا الإجراء الفريد في العالم والتاريخ، فالخليفة يقلق في الليل ويحب التجول بدل النوم، ولذلك رأى أن يسهر معه الشعب وأن يضيئوا القاهرة بمصابيحهم. هكذا عم الضجيج في الليل، وسكن نهار الفسطاط والقاهرة والجيزة، أو على الأقل هدأ صباح وظهر الأيام، إذ يستحيل قضاء كل الحاجات ليلاً. السقاؤون مثلاً لم يطبقوا القرار، فرغم أن عددهم حوالي عشرة آلاف، إلا أنهم بالكاد يقضون حاجة سكان عمائر

مصر متعددة الطبقات والتي يقطن في بعضها أكثر من مائتي نسمة بحاجة متواصلة لماء الشرب والاعتسال وتنظيف المراحيض والحفاظ على جريان مياهها. كل هذه المياه تنقل من النيل على الجمال، ثم على أكتاف السقائين إلى البيوت في كل الطوابق. أعلى بناء سكني شاهدهته قبل الآن كان من ثلاثة طوابق، أما هنا فالثلاثة هي المتوسط، وبعضها يصل إلى سبعة، وهي ليست نادرة بل هذا البناء هو الغالب على وسط المدينة. من أحاديث جدي خالد، رحمه الله، أتذكر وصفه لعمائر في اليمن تصل إلى أربعة طوابق أقيمت من الطوب وطلبت بالطين وفصلت بين طوابقها أخشاب قوية وزخرفت واجهاتها بألوان زاهية. الفئة الأخرى من أهل المهن الذين لم يطبقوا قرار العمل ليلاً هم المراكبية، وعددهم أكثر من السقائين، وقيل لي بوجود أكثر من ثلاثين ألف مركب، للخليفة وللرعية، تسبح فوق النيل بين أسوان والإسكندرية.

من نافذة غرفتنا في الطابق السادس تعذر علينا مشاهدة النيل أو الأهرام إذ اعترضت عمائر أخرى مجال الرؤية. من السطح أمكننا مشاهدة بركة مياه شرقاً وخلفها حي السيدة نفيسة والقرافة حيث يسكن الأحياء مع الموتى، ووراء ذلك جبل المقطم الذي يمتد بعيداً للجنوب. يشاهد الناظر جنوباً شطراً من مسجد عمرو ومن أسوار قصر الشمع جنوب المسجد. إلى الشمال وعلى بعد أكثر من ميلين كانت القاهرة ترقد بين أسوارها، ولم يكن بالوسع مشاهدة أبعد من جامع ابن طولون وسط الفسطاط. حي المنصورية يقع شمال المدينة ويحد أسوار القاهرة، ولكن كل الأبواب السبعة للمدينة الجديدة فتحت في الأضلاع الثلاثة الأخرى ولم يوجد باب واحد يربط الفسطاط بالقاهرة التي بنيت كمدينة للجند الذين حضروا مع جوهر الصقلي من المغرب وقهروا مصر. اختيار موقع المدينة الجديدة يضع الفسطاط بين النيل وجبل المقطم المترابط مع الصعيد، ولا يمكن الوصول من الشام والشمال للفسطاط إلا عبر أسوار القاهرة.

"الملوخية ممنوعة في مصر يا سادة، يمكنكم طلب شيء آخر، أية خضار أو لحوم، أو الصدف، حتى لحم الخنزير موجود إن أردتم". يبدو أن نادل المطعم ظن أننا من الروم، وهو معذور إذا نظر لوجهي خالد ومروان، فعرض علينا لحم الخنزير.

"لكنني أكلت ملوخية قبل أيام في الريف..." خففت صوتي قبل إكمال جملي وتذكرت أن أحترس فيما أقول.

"ربما أكلت شيئاً مشابهاً وقيل لك إنها ملوخية. الملوخية ممنوع زرعها وأكلها بقرار من الخليفة".

"معاه حق، أنا أؤيد هذا القرار، فهي خضار غريبة المذاق وصعبة التناول". ضحك النادل وهو يرد على خالد بأن طريقة طبخها خارج مصر ربما كان سبب كراهيته لها. قبل أن ينزلق النادل في شرح طرق طبخ الملوخية في مصر والدفاع عن طعمها طلبت لحوماً مشوية وخضار الموسم المتوفرة مطبوخة في الفرن.

"هل تؤكل الكلاب في مصر؟" استهجن النادل سؤال مروان وهو يمزج في قطعة لحم، وتوجست شراً في عيونه.

"قصده هل تؤكل في أوقات الأزمات والحروب، طعامكم ممتاز هنا". أخرج النادل الهواء الذي كتبه في صدره عندما سمع كلامي.

"قبل عشر سنوات حلت مجاعة وارتفعت الأسعار، وترصد بعض الجوعى كلاب الأغنياء وخطفوها من الشوارع". أراد مروان التعليق فأعطيته إشارة من حواجبي أن يكف. همست له بعد وهلة أننا غرباء هنا ولا نعرف طباع الناس، ولا داعي لاستفزاز مشاعرهم.

"لكن طعم اللحوم لا يشبه شيئاً أعرفه، والكلاب تملأ بيوتهم ولا تكف عن العواء..."

"وحد ربك يا مروان، هؤلاء مسلمون ولا يأكلون الناب. إذا لم تعجبك اللحوم أتركها واكتف بالخضار من الفرن".

كف عن اللحوم والتعليقات حتى غادرنا المحل فعاد لنسج آرائه والاستنتاج أن تربية الكلاب وكثرتها تعني أكل لحومها على شكل كفته

أو لحوماً مطبوخة طويلاً. ذكرته بأن مصر بلاد تحترم القبط والكلاب منذ عهد الفراعنة، وأن أكلها في المجاعات لا يعني استساغة لحمها، كما أن البلاد مليئة بالمياه والخيرات والخضار التي تؤهلهم لتربية الحيوانات. لم يقتنع مروان، وكان رأيه أن وجود عناصر الخير يفترض أن تُملأ المخازن وتمنع المجاعات أصلاً لأنهم ليسوا أسرى الأمطار. "لكن النيل ينخفض في بعض السنوات ولا يروي الأرض".

"نظام زراعتهم فرعوني قديم، لم نشاهد من الإسكندرية إلى هنا أية ناعورة لانتشال الماء، ولا قنوات مائية معلقة لري الأراضي المرتفعة عن جريان الماء. يبدو أنهم يعتمدون على نوايا النيل، إن فاض يروي لهم ما تصله المياه، وإن نقص تذهب مياهه كلها إلى البحر. أنهارنا في الأندلس كلها منخفضة طوال العام، ولكننا نروي منها قمم الجبال". دار حديثنا هذا في الطريق إلى القاهرة، مررنا بجامع ابن طولون وصلينا المغرب ولم نمكث طويلاً. الفسطاط مع الغروب زاد وهجها إذ أشعلت مصابيحها في الشوارع والمتاجر الفخمة والأسواق العظيمة. حتى أطراف حدائقها أضيئت وبدت نضرة وخضراء ينتشر فيها الناس رويداً رويداً وتعظم الحركة.

واصلنا المسير عبر حي المنصورية الراقي وضحكنا على أمنية خالد أن تؤكل الكلاب أو تمنع تربيتها في البيوت، إذ كان نباحها متواصلاً وكل منها يعلن للكلاب الأخرى عن اقتراب المارة. دخلنا القاهرة من باب السعادة إلى حي المحمودية وفي نيتنا زيارة جامع القاهرة الجديد الذي بناه جوهر ويستعملونه الآن لنشر الدعوة الفاطمية ويركزون العلم فيه بعد أن كان في مسجد عمرو الذي أشرف على بنائه صحابة الرسول عليه السلام. قبل الوصول للجامع تنبهنا لجلبة على اليسار، حيث توجد قصور الخليفة وأمامها حدائق القاهرة بين بابي الفرج والقنطرة على السور المواجه للنيل. موكب يتقدم ويحجبه عنا أناس يركضون أمامه بينما بقية الرعية الحضور منتشرين على جانبي الطريق.

"إنه الخليفة الحاكم بأمر الله في موكبه الليلي". قال أحد المارين

بنا بعد قراءته لجهلنا على ملامحنا. اتجهنا للموكب ثم عدنا معه على الجانب فاغري الأفواه مما نشاهد. حملة المصاييح يتقدمون ويتوازون مع طوابير الحرس حول الخليفة الصبي على ظهر حصان أبيض تحيطه خيول أصيلة مكسوة بالسروج المذهبة والمرصعة بالجواهر ومماسكها من العاج، بينما رأس ورقبة حصان الخليفة مزين بقلائد ذهبية وفي حوافره أساور. رأس الحاكم كلته عمه بيضاء مرصعة بالجواهر، ولباسه حريري يللمع وكأنه يضيء من كثرة الصدف الرقيق والجواهر وخيوط الذهب المطرزة فيه. منظر باهر يجمع بين الأبهة والسرور ولا يوحي بالتسلط والعنف، ولا يدل أيضاً على التدين والتكشف لكنه لا يخلو من اطمئنان الحاكم للمصريين بالرغم مما يظهره موكبه من فوارق بينهم.

درس في الحب

الصورة في مسجد القاهرة اختلفت تماماً عن موكب الخليفة. هنا، قبل صلاة العشاء، تنتشر حلقات الذكر والتعليم في أروقة الجامع الثلاثة حول صحنه. تنقسه الزخارف والفسيفساء الدقيقة والآيات المنقوشة، لكنه يشابه مساجد الأندلس في حوامل أقواسه الرخامية الرقيقة، وزخرفة أعلى أسواره بالمثلثات المدرجة. ليس بمساحة مسجد ابن طولون أو عمرو بن العاص، وإنما يتماشى مع طبيعة المدينة الجديدة المقامة للجند وفي وسطها قصور الخليفة.

بعد العشاء انضمنا إلى حلقة الشيخ منصور إذ بدت أصغر من غيرها وهذا أوحى بإمكانية الحصول على إجابات. عرفت من الشيخ بعد سؤال مباشر أن أول درس هنا كان قبل ثلاثة وعشرين عاماً حيث قرأ قاضي القضاة أبو الحسن بن النعمان على حشد من الناس مختصر ما كتبه أبوه عن فقه آل البيت. في السنوات التالية أشرف الوزير يعقوب على تعيين فقهاء للتدريس وحدد لهم رواتب وأسكنهم في منازل قرب الجامع، وذلك تلبية لرغبة الخليفة المعز بن العزيز ووالد الحاكم.

"هل نلت تعليمك هنا يا شيخ منصور؟ عمي تعلم في المسجد الجامع بقرطبة، وأنا تعلمت في مسجد مالقا، وخالد يتعلم الآن في قرطبة".

"لا طبعاً، كل من هم فوق الثلاثين تلقوا علومهم الأولية في مساجد أخرى. مسجد القاهرة هذا لا يُعلم أصلاً صغار السن القراءة والكتابة ويتدرجون إلى مراحل تخرجهم. الدروس هنا في اختصاصات

فقه آل البيت وأصول الدعوة وتعليم الدعاة، ويناها المتعلمون من جامعات وجوامع البلاد الإسلامية".

"مروان تعلم الهندسة الزراعية، يجيد بناء القناطر وقنوات الري ويُركب أنواع الشجر على بعضها، وهذه أول رحلة له خارج الأندلس". أردت بذلك التعريف طلب الصفح سلفاً عن أي سوء تقدير قد يحدث منه ومنا، ثم أخبرت مروان بصوت منخفض ولكنه مسموع من الآخرين أن أهل مصر شيعة ولهم خصائصهم في العبادات.

"ليس كل أهل مصر شيعة. كل المذاهب ممثلة في البلاد، لكن هذا الجامع يُدرس الدعوة الفاطمية الشيعية، ويرده طلاب العلم من أقصى أفريقيا حتى أنطاكية. الدعاء لمولانا الخليفة ينطلق من منابر مدن الشام ومصر وأفريقيا الوسطى والقصوى، لكن سكان تلك البلاد لا يجبرون على التشيع".

"ومنكم نستفيد يا شيخ منصور، ليت حكامنا في الأندلس يملكون هذا التسامح المذهبي تجاه بقية المسلمين. تسامحنا هناك مع النصارى واليهود الذين يعيشون بيننا، لكن تاريخ بلادنا فرض على الأمراء الأمويين منذ البداية التحوط من العباسيين، والخوف من الدولة الفاطمية الجديدة في المغرب". انضم رواد جدد إلى حلقتنا، وتواصل الحوار بشكل عتاب ناقد من الشيخ منصور لحكام الأندلس، وتفهم وتأييد من طرفي، وحمدت الله على إنصات مروان وخالد.

"لقد هرب أوائل دعائنا من ملاحقة العباسيين إلى المغرب، والعباسيون هم خصوم آل البيت وخصوم بقية الأمويين في الأندلس. بدل تفاهم الفاطميين والأمويين باشر الناصر من قرطبة يؤيد القبائل ويغريها بالتصدي والثورة على الفاطميين وأعلن نفسه خليفة. حتى بعد فتح مصر واتخاذها قاعدة للدولة الفاطمية، لم يتوقف هجوم الأمويين وبعدهم العامري على أطراف دولتنا في المغرب". وافقت منصور بإيحاءات جسدية وإن لم أكن أؤيده في بعض ما قاله.

"ليت الحكام يسمعون منك يا شيخ منصور ويتفقون على محاربة

الأعداء الروم. لسوء الحظ أن أهل الشام تكثرت ثوراتهم ضد الولاة الفاطميين، وأهل المغرب يتقبلون الدعم من العامري، بينما الروم يهاجمون بلاد المسلمين. على الأقل نجح وزيركم في عقد هدنة سلام عشر سنوات مع الملك باسيل الثاني. لو تمكن أهل الخير من عقد هدنة أو تحالف فاطمي أندلسي لتعززت السيطرة الإسلامية على حوض البحر. إنها أمنيات ندعو الله أن تتحقق". فهم منصور بوضوح ما عينته وظهر ارتياح وأسف على محياه حين علق بشكل عابر أن القوات تُحشد الآن لشن حملة على برقة وطرابلس الغرب. أحد الحضور أبلغنا أنه سمع المنادي يعلن عفو الخليفة، الحاكم بأمر الله، عن شيخ قبيلة طيبي مفرج بن دغل بن الجراح الذي ثار في الرملة بفلسطين محاولاً الاستقلال عن الخلافة الفاطمية لكن أمير دمشق، جيش بن الصمصامة، أخضعه وأرسله أسيراً إلى القاهرة. تذكرت قبيلة بني هلال والشيخ مسعد قرب الأهرام وبقية قبيلته التي تشتتت في جنوب مصر والشام ونجد.

تشعب حديثنا وأخبرتهم عن غزواتنا الصيفية والشتوية لنصارى الشمال، ومخاوفنا من وحدتهم وتراخي قواتنا. لم أتحدث عن البربر تحسباً من وجود بعضهم في مجلسنا، ولم أخبرهم بسفري إلى بلاد الفرنجة. استفسر منصور عن مهنتي فأخبرته، ورجوته أن يرشدني إلى أسواق الكتب في مصر، وتواعدنا على التواصل. هممنا بالمغادرة فإذا بقراءة تشبه النياحة أطلقها قارئ، وهي خليط من الدعاء والإرشاد والقصة. عمّ الهدوء، ورافقنا الشيخ منصور إلى الباب الموصل للصحن وهو يشرح بهمس أننا دخلنا إلى ثلث الليل الأخير، وهذا الدعاء يومي ويطول للفجر.

سرنا في شوارع عامرة بالأضواء والناس، الأسواق مفتوحة، بائعون متجولون ينادون على بضائعهم، حانات خمور إلى جانب صيادلة ومطاعم ومعاصر وفنادق وحمامات. توقف خالد أمام زيرٍ لماء السبيل وغسل يديه بينما قسمت وجهه تُظهر القرف.

"ماذا بك؟ تريد الوضوء لصلاة الفجر؟" سأله مروان، وجاءه

الجواب: "تلطخت يدي بمخاط تركه بعضهم تحت الحصيرة في الجامع". نفض مروان بيده الملابس على مؤخرته خوفاً من أن يكون جلس على شيء مشابه. خيّرتهم بين زيارة القرافة أو ضريح السيدة نفيسة أو نزهة نيلية، فاختارا الذهاب إلى الفندق.
"ثوبك نظيف من الخلف، لا ضرورة لكل هذا التلفت وضرب مؤخرتك".

"لا تلتفت الآن يا عمي، ولكن صاحب الجلباب الصوفي البني الذي انضم إلى جلستنا في الجامع يسير خلفنا". تلفت خالد تلقائياً بعد سماع حديث ابن عمه. أمسكت مروان من كتفه وأدرته إليّ وكأنني أنظر إلى لباسه على ظهره وأدرت عينيّ فيمن خلفنا دون العثور على الشخص المعني. قال خالد الذي تابع الرجل بأنه انزوى في الزقاق على ناصية المعصرة. دفعت بالإثنين إلى محل لبيع الأقمشة كان الأقرب علينا، واحتللنا مواضع لا يسهل رؤيتنا فيها من الخارج، عينُ تراقب الشارع وأخرى تتفرج على القماش. تولى مروان مهمة مشاغلة البائعة مدعياً أنه يبحث عن حرير أندلسي. هروا الرجل من أمام المحل وأخبرنا خالد الذي تتبعه بعيونه من الباب بأنه يركض ويلتفت في كل الاتجاهات. "الآن ينظر في المحلات. توقف. استدار." أنهى المراقبة وعاد إلى جانبي خلف لفات الأقمشة، ففرصنا نتفحص البضاعة على الرف الأسفل.

"لكن هذا حرير صيني لا يُعلى عليه، سأعطيك إياه بسعر معقول".

"الحرير الأندلسي هو الأفضل، ألم تسمعي بحرير المرية ومالقا؟"

"بصراحة لم أسمع، وهل سعره رخيص؟"

"لا يوجد عندنا رخيص، كل شيء للحلويين هو الأعلى والأفضل،

لكن الغالي يرخص". انخرط مروان مع البائعة التي رفعت له حواجبها وأدارت عيونها السوداء الواسعة بعد أن انزلق غطاء رأسها عن شعر أملس طويل بلون الفحم.

"وهل أنت من الأندلس؟"

"كيف عرفتِ؟ من اللهجة أم من لون العيون؟"

"لون عيونك مش فريد، عندنا الكثير من الحلوين مثلك وأجمل. طالما أنك من الأندلس لماذا لم تحضر معك حريراً من هناك؟" نظر خالد إليّ وكتمنا بالأيدي ضحكة كادت تفلت، وواصلنا الاستماع إلى مناداة هذه الفتاة لغرور مروان بينما الفجر يقترب.

"لو عرفت أنني سأقع في شباك الحب لجلبت معي حرير الأندلس وحلية لأهديتها للحبيب، لكني الآن مضطر للبحث هنا".

"هون عليك، فالبنات هنا تقنع بالقليل طالما الغرض شريف، والأهل يزودونها بما تحتاجه وأكثر. يبدو أنك ممن يحبون بسرعة، وهؤلاء بيتعدون بسهولة، وربما تظن أنك تحب، فمن يصف الأمر بالوقوع في الشباك لا يدري عما يتحدث". هكذا فتحت الفتاة لمروان الطريق إذا كان يقصدها، وفي ذات الوقت استنفرت ثقافته ومعارفه فيما يعرف عن الحب.

"الحب طمع يولد في القلب ويضاف إليه حرص الحبيب وغيرته لينتج الالتهياج والقلق والشهوة، وهذا يحرق الدم ويحيله للسواد فينقص العقل ويفسد الفكر وربما يصاب الحبيب بالجنون..."

"لا مبرر للجنون، وأفكار ابن داوود هذه، التي أخذتها من كتاب الزهرة، تشابه آراء اليونان في الهبل حين يقولون إن الله خلق الإنسان من شقين ثم فصله من النصف فأصبح كل نصفٍ يبحث عن نصفه الآخر ويحبه إذا رآه، حتى لو كانا ذكراً أو أنثيين". صمتت قليلاً حتى يتجرع مروان الصدمة ويستوعب عمق اطلاعها ودرايتها، ثم واصلت، "الحب يا أندلسي امتحان في طاعة المحبوب وإدراك لمشقة المخالفة. فإذا استوعب المحب القيمة سيدرك حجم رضى الله عليه لأنه الأجدر أن تتجنب مخالفته".

"يعني الحب الإنساني مقدمة للحب الإلهي".

"نعم، ولا زال هناك فرصة لإنقاذك طالما أنك استوعبت الأمر

بهذه السرعة. إذا كنت لا تزال تبحث عن حرير بلادك فعد إليّ بعد أيام
فربما عرفت من يملكه من التجار".

لم أعرف سبب ردة الفعل بالدخول للمحل والتخفي من الرجل
الذي تبعنا، ربما كان يريد إيصالنا معلومة أو يعيد إلينا شيئاً نسيناه في
الجامع، لكن شعوراً باطنياً أوحى بالتخفي، وربما كانت إرادة الله أن
تلقن هذه الفتاه مروان درساً في الثقافة والجرأة والتواضع. شرد عقل
مروان طوال المسير إلى الفندق، والتهم العصافير المقلية من الطباخ
المتجول دون أن يبدي أي تعليق.

"هل عرفت اسمها على الأقل؟" سأله خالد.

"لا ولكنني أعرف المتجر وسأحفظ اليوم بعض الأشعار وأنازلها".
نظر إليّ مستنجداً فأخبرته أن ما أحمله من الكتب لا شعر فيها، وأية
كتب شعر محلية ربما كانت الفتاة تحفظها عن ظهر غيب. تعكر وجهه،
فأشفقت عليه وطمأنته أنني سألقنه بعض ما أحفظ من الشعر، ونوهت
إليه بأن مروج الذهب للمسعودي فيه فلسفة عن الحب وسأبحث له في
المساء عن نسخة. أصبح يعرف أن منازلتها في الأدب تحتاج إلى
استعداد طويل وذكرته بكثرة الأديبات المشهورات، وبوجود أعداد كبيرة
من المطالعات والمطلعات على شؤون الأدب والعلم.
"إن كيدهن لعظيم، بالفعل". قال مروان مع بزوغ الفجر ونحن
نستعد للنوم.

مساخيط النيل

صحوت ذات ضحى مضطراً لقضاء الحاجة، وانتظرت بعيون نصف مغمضة حتى يخرج الذي في بيت خلاء طابقنا السادس. فقدت الأمل في انفراج سريع وهبطت للدور الخامس. أفلتت مني نظرة عبر النافذة إلى سطح المبنى المجاور حيث بعض الغرف وفي إحداها نافذة تقابل نوافذ بيوت الخلاء في الطوابق الأعلى لفندقنا. فتاة تعري وتغطي صدرها، ثم تستدير وتخفض لباسها عن بعض مؤخرتها، فتعود لتغطيها مع حركات راقصة. راقبت أداءها متستراً لبضع ثوان، واقتنعت أنها تستجيب لإشارات متفرج، إما أن يكون في الطابق السادس أو الرابع. مللت من رؤيتها بسرعة، أو بالأحرى شدني الشوق لمعرفة المُشاهد. هرولت للرابع فإذا ببيت الخلاء فارغ والجميع نيام، فصعدت للسادس وجلست في غرفتنا وتركت الباب مشرعاً. بعد وهلة خرج من بيت الخلاء جارنا، الشيخ حسنين، المتواجد هنا في زيارة لأقاربه، فانزويت حتى لا يشعر أنني رأيته. إستغفرت ربي، وصدقت ما سمعته عن شرب بعض الشيوخ للخمر، وكنت أظن ذلك تبلياً على رجال الدين فإذا بي أعيش هذا الحال.

دهمتني خاطرة أن مروان وخالد ربما كانا يغيبان أكثر من العادة، ويكثران التردد على بيت الخلاء، لنفس السبب الذي أطال بقاء حسنين، بل ربما هما اللذان شجعا الفتاة على التعري، وهي لا تعرف بالضبط من يقف خلف النافذة فرقصت لحسنين الذي ربما لم يعض البصر. في تلك اللحظة كدت أن أوقظهما من النوم ولكني ترويت وخططت لضبط أي منهما متلبساً في البصبة.

"زنا المقابر وجامعها وسكانها الأحياء، وصلينا في مساجد القاهرة والفسطاط، وأكلنا الترمس والذرة المشوية على شاطئ النيل، فما رأيكم أن نزور الهلالي، الشيخ مسعد، ونسق معه رحلة إلى الجنوب للتفرج على برابي الفراعنة الأخرى؟" تردد مروان في الاستجابة فأكملت "لن نسافر فوراً وسنزور الفسطاط عند العودة، وبالتالي لن نُحرم من رؤية الحبيب فجأة ونهائياً".

"هذا اقتراح حسن، سنرى ماذا سيفعل بها بعض الفراق".

"أو بك أيضاً" قال خالد بسرعة خاطر.

خرجنا لصلاة الجمعة في مسجد عمرو بن العاص الذي يتوسط الأسواق، وهو أحد مسجدين من أصل خمسة في القاهرة والفسطاط لصلاة الجمعة. وصلنا في الموعد لكن المسجد كان قد امتلأ، واصطف في الشارع بضعة آلاف فردوا حصرهم للصلاة. اشترينا بسرعة من بائع متجول ثلاث حصر وجلسنا بين الجموع نستمع للخطبة قبل الصلاة. ذهب الإمام إلى بدايات الإسلام في مصر وبناء هذا المسجد على يد عمرو بن العاص بإذن من الخليفة عمر بن الخطاب، وكلاهما من صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام. الأربعة الذين أشرفوا على البناء كانوا أيضاً من الصحابة، وهم أبو ذر الغفاري وأبو بصرة، ومحمية بن جزء الزبيدي، ونبيه بن صواب البصري. وقال الإمام إن الذين حددوا قبلة هذا المسجد كذلك تسعة من الصحابة. لم يتطرق الإمام لشؤون الحياة الدنيا للمؤمنين الآن، بالطبع كان يشير بالدعاء للخليفة أينما تطلب الأمر، ولكنه لم يمدح ولم يذم أو ينتقد، وإنما توسع في شرح تاريخ المسجد. عرفنا أنه أول مساجد مصر وأفريقيا والرابع في الإسلام أثناء العقدين الأولين. أولها مسجد المدينة الذي بناه الرسول، ثم مسجد البصرة من بناء عقبة بن غزوان وثالثها مسجد الكوفة الذي بناه سعد بن أبي وقاص. هنا كانت محكمة فض النزاعات الدينية، وبالمسجد كان بيت المال. عبد الله بن عمرو بن العاص أسس في هذا المسجد أول جامعة إسلامية في مصر، وهنا كان الإمام الشافعي، مؤسس أحد

راوي قرطبة

المذاهب الأربعة في الإسلام، يلقي محاضراته على حوالى ألفي طالب علم. الشافعي ولد بغزة في فلسطين، وتعلم في مكة، وولي على اليمن أيام هارون الرشيد، ثم درس الفقه في بغداد وحضر للفسطاط حيث ألف كتبه ووثق مذهبه المنسوب إليه. فصل الإمام في الخطبة مساحة المسجد ومآذنه وتوسعاته المتتالية وتوقف عند تجديد خماروية بن أحمد بن طولون للمسجد بعد الحريق الذي شب فيه قبل مائة وثلاثة عشر عاماً.

معلوماتنا عن الشافعي سمعناها من أحد خدام قبوه في القرافة الصغرى إلى جانب قبو الحسين بن علي. كل من يمكن حصر أسمائهم من آل البيت تجد لهم مزارات في الفسطاط، ولا يصدق المصريون أن بعض أولئك ماتوا ودفنوا في بلدان أخرى. وبالطبع معظم الأنبياء دفنوا في مصر، ومن لم يدفن هنا فله آثار تدل عليه ويتبارك بها الناس ويقصدونها للدعاء وطلب الفرج، ويخرجون صدقات على الفقراء قربها. ومن لا قبر له هنا، فلا بد من قبر لقريب له، مثل خال الرسول، ومولى عائشة زوجة الرسول، وأبناء أبي هريرة راوي الحديث.

بعد الخطبة والصلاة انضممنا في المسجد إلى حلقة للاستماع عما يتحدث فيه أهل العلم عن شؤون الحاكم والمحكوم. هنا أيضاً استمعنا إلى قصة من بداية عهد فتح مصر. تقول الرواية: لما افتتحت مصر أتى أهلها عمرو بن العاص حين دخل شهر بونه، فقالوا: أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجري إلا بها. إذا كانت إثنتا عشرة ليلة من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها، فأرضيناها وجعلنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها في النهر، فقال لهم عمرو: هذا ما لا يكون أبداً، إن الإسلام يهدم ما قبله. فأقاموا ذلك الشهر وشهراً آخر وشهراً آخر لا يجري فيه النيل بقليل ولا بكثير حتى هموا بالجلء عن الأرض يأساً من بذرها.

كتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بالخبر، فرد الخليفة عليه: إنك قد أصبت بالذي فعلت، وإن الإسلام ليهدم ما قبله. وبعث عمر ببطاقة في داخل كتابه وكتب إلى عمرو: إني قد بعثت إليك بطاقة فالقها في

النيل. نظر عمرو بن العاص للبطاقة وقرأ فيها، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر أما بعد، فإن كنت إنما تجري من قبلك فلا تجر، وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك فنحن نسأله تعالى أن يجريك. ألقى عمرو بالبطاقة في النيل وقد تهيأ أهل البلاد للجلاء فأصبحوا بالنيل وقد أجراه الله ستة عشر ذراعاً، وقطع الله تلك السنة السيئة عنهم إلى اليوم. كان الراوي يشع ثقة، والمستمعون في غاية الخشوع والدعاء والتسبيح. عندما غادرنا المسجد تساءل خالد إذا كان من المعقول أن يرسل ويخاطب خليفة مثل عمر، جماداً مثل النيل، وعلق مروان بأنه لو جاء مدع للنبوة هنا فسيعثر بسهولة على أتباع.

"لا تفعل ذلك وكف عن الخطف حتى لا يسخطك الله حجراً".

"توكل على الله ولا تحشر أنفك فيما لا يعينك، هذا حمامي وأناديه للأكل". قال الشاب من على سطح بيت وهو يلوح براية بيضاء للتحايل على الحمام بالهبوط. لكن الشيخ الذي حذره عندما مررنا به في الشارع لم يصدق أن الشاب يستعيد حمامه من الفضاء.

"يا ابني ما تفعله خطير، هداك الله أن تكف. لو شاهدك أحد رجال السلطان لظنوا أنك تتصيد الحمام الزاجل للتجسس على المراسلات، وستضيع في غياهب السجون".

"إذا شاهدني أحدهم، ولم تبلغ أنت عني زوراً، وإذا جاؤوا، وإذا ضبطوا عندي أي حمام لهم أو لغيرهم، فحينها يمكنهم عمل ما يريدون".

"سأدعو لك بالهداية، وأدعو عليك أن تُسخط حجراً مثل خادمة فرعون، إذا سرقت حمامة أي إنسان آخر". تحرك الشيخ يأساً وصوت الشاب يقول، آمين. سألته عندما تجاورنا في المسير عن الخادمة المسخوطة فوصف لنا مكانها وأنها تحمل طشتاً للغسيل على رأسها، ولأنها سرقت سخطها الله من بشر إلى حجر.

"لكن ذلك تمثال حجري يا شيخ، والفراعنة كانوا قبل الإسلام،

وفي وقتهم كثر السحر، يعني إن لم تكن نحتاً من الحجر فيمكن واحد سحرها لسبب ما". نظر الشيخ إلى مروان وهو يستغفر ربه ويدعو بحسن الخاتمة، لكن مروان لم يسكت وأفتى له: "الله سبحانه وتعالى خير الإنسان في الدنيا ليعاقبه أو يثيبه في الآخرة، فلماذا تُعاقب المسكينة الخادمة بالسخط قبل أن تموت؟"

"أتريد الاحتجاج على أمر الله في سخط عباده؟"

"استغفر الله يا شيخ، كل ما أقوله أن الحجر تمثال لامرأة عندما كان من المسموح به صنع التماثيل. بالطبع ربنا قادر على سخطنا وإياكم في أية لحظة". إتجهنا عند مفترق طرق شمالاً بدل أن نواصل السير للأمام، المهم الآن الفصل بيننا وبين هذا الرجل.

"لو ارتفع صوت الرجل أكثر يا مروان، وتجمع حولنا خلق الله ليعرفوا الخبر، فهل تظن أنهم سيصدقون كلامك أم كلامه؟"

"كلامه طبعاً، يبدو أن الكثير منهم يؤمنون بالخزعبلات، ولا زال تأثير الفراعنة متمكناً فيهم".

"لماذا إذن تريد تورطينا مع خلق الله؟ تعود الاستماع، ثم تقدير ووزن من أمامك قبل أن تعطي إجابات في بلد نحن فيها غرباء ولا نعرف طباع أهلها". تأسف مروان على فعله، وطيب خاطرته بأن طبيعة المصريين كما يبدو سلسلة ومحبية وتشجع على الاختلاط والمحادثة، "لكن الشيوخ في كل مكان يجب الاحتياط منهم وتجنبهم حتى تتأكد من صفاتهم. وفي كل الأحوال فالتروي خير وبركة".

قضينا بقية يوم الجمعة وطوال ليلها في ضيافة الشيخ مسعد واتفقنا على أن يصاحبنا بعض الأدلاء إلى رحلة للجنوب بعد يومين، ولكن على الخيول حسب رغبة خالد ومروان، وكنت أيضاً قد تشوقت لمطارادات سريعة من على علو منخفض. لقاؤنا الأول مع الهلالية شوقني لروايات مسعد عنهم، أما الآن فقد ترسخت قناعاتي بأهمية تسجيل تاريخهم وأشعارهم وقررت أن أكتب في بعض وقت النهار كل ما أسمعته منهم

وعنهم في الليل، وطمعت في المزيد إذا وفقنا الله ووصلنا مضاربتهم بين أسبوط وادفو.

أصول بني هلال تعود إلى الزير سالم أبو ليلي المهلهل، أحد أبطال العرب قبل الإسلام. من الجيل الثاني هناك قصصهم عن عامر الذي تزوج بامرأة من أشراف العرب ولدت له غلاماً في ليلة وفاة جده الجرو. سمي الولد هلالاً وأنجب بدوره المنذر. هلال هذا زار مكة ومعه أربعمئة فارس وطافوا بالبيت وتشرف بمقابلة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام. أمر النبي هلال أن ينزل مع فرسانه في وادي العباس لمحاربة العشائر المعادية للإسلام هناك. حمي وطيس المعركة فهرب جمل فاطمة الزهراء بنت النبي مرتعباً من صليل سيوف الفرسان، فدعت فاطمة على من كان سبب هيجان جملها بالشتات والبلاء. لكن والدها أوضح لها من هم بنو هلال وطالبها بالدعاء لهم بالنصر، فدعت. الفكرة السائدة عند الشيخ مسعد، وعلى الأرجح عند بقية الهلالية، أن شقي دعاء بنت النبي تحقق فيهم، إذ ينتصرون دوماً في المعارك، ولكن الشتات رافقهم منذ ذلك الحين.

في وادي العباس تجمعت القبائل حول هلال، ووقع المنذر بن هلال في حب ابنة شيخ قبيلة أخرى، ورفض أبوه أن يخطبها له لأن "حسبها ونسبها دون حسبنا، فهي تنسب إلى عشيرة جساس بن مرة وهم من الأوباش". هذه القبيلة خصم للهلالية منذ ما قبل الإسلام. بالطبع تكدر المنذر لرفض تزويجه من حبيبته وتحول إلى قاطع طريق يؤدي من يقع تحت عينه حتى لو كان من قبيلة أبيه وممن يدفعون العُشر.

كانت الرواية تتواصل شعراً ونثراً وتتغير وجوه المستمعين فرحاً أو حسرة، على الرغم من أنهم سمعوا تفاصيلها مراراً. قصة المنذر تحولت لخلاف وقتال بين الابن والأب، وهزيمة المنذر، وندم هلال وشوقه لابنه، وعندما أراد الصلح معه وجد أنه هاجر وجماعته إلى دمشق وحمص وحماة وحلب، يمكن في كل بلد فترة ثم يسافر حتى وصل بغداد. هناك يتحالف المنذر مع قبيلة كبيرة يتزعمها الأمير مهذب، فيصبح

وزيراً ويتزوج ابنه مهذب، هذبا، "أجمل النساء وألطفهن" وكانت "أحبته من أول نظرة". تمر السنون ولا ترزق هذبا بطفل، فاتفق معها المنذر أن يتزوج بأخرى فوافقت وتزوج ابنه الملك صالح من بلاد السرو.

يقول المثل "لولا الغيرة ما حبلت النسوان". حسب الشيخ مسعد، فاستنتجت فوراً أن القديمة والجديدة حملتا، وواصل الشيخ الرواية بتفاصيل وتصوير شعري يستفاد منه أن الاثنتين ولدتا في نفس اليوم، ابن هذبا سموه جابر، وابن عذبا سموه جبير. تعلم الإثنان كل فنون الحرب، ولكن المنذر أحب جابر أكثر من جبير بفعل أم الأول. عندما ألحت عذبا على معاملة عادلة لابنها مل منها المنذر وانتهى الأمر إلى هجرة عذبا وجبير، وبداية كراهية ومطاردة من جابر لهما على مضض من المنذر. كل بني هلال الآن من سلالة جابر وجبير، أحياناً يتفقون وأحياناً أخرى يتحاربون حتى قرروا الرحيل إلى المغرب، فمنعهم الفاطميون الذين يحكمون في مصر والشام مرتكنين لصلتهم ونسبهم إلى فاطمة بنت النبي. قصصهم طوال ما يقارب أربعة قرون لا يمكن ذكرها هنا حتى ولو موجزة، إذ لا بد من سماع الشعر وتشرب كل التفاصيل فتنحاز مع طرف ضد الآخر، بينما غيرك من المستمعين ينحاز لغيرهم، فكل حسب ما يلائمه من طباع الأبطال والشخصيات ذكوراً وإناثاً. فيما يخص رواية أبناء المنذر، فقد أجذبت أرض الأب وجابر، واكتشفوا أن أكرم الناس ما هو إلا جبير الذي تزوج حسنا بعد أن أقنعت أباه الملك النعمان أن يعزز جبير وينصبه ويزوجه لها، ثم تزوج ثلاث نساء أخريات وأكرم الشعراء فأذاعوا صيته بين العرب وتصالح مع والده وأصلح بين أمه وأبيه ولكن أخاه واصل الكراهية فطرده المنذر واصفاً إياه بأخس الرجال.

فاتك السجان

على مقربة من الفندق توقفت مع مروان لتناول بعض الإفطار في مطعم يتقن صناعة الفول المدمس الساخن بالسمن البلدي وخبز طازج، وسبقنا خالد إلى الفندق معلناً عدم امتلاكه الشهية. عدنا لتبادل نفس مادة الحديث مع الفوال، لماذا لا يستعمل زيت الزيتون بدل السمن، وكررنا نصائحنا له بإنتاج خبز رقيق لين بدل هذا الخبز المتكور والذي يجفف ويخزن ويستعمل بعد أسابيع وحتى بعد شهور.

"أنا أكرمكم دوماً بالخبز الطازج قبل أن يجف، وهذا الفول بالسمن ستعرفون قيمته وتعودكم عليه عند فوات الأوان وعودتكم لبلادكم، وربما تفتحون هناك مطاعم مختصة بهذا الطعام".

"أمين يا رب العالمين، إن شاء الله نعود قريباً، وإذا قرصنا الشوق للمدمس وافتتحنا المطاعم فأعدك يا عم سليم بتسميتها، مطاعم النوبي".
إنشرح وجه سليم لتجاوب مروان وشغفه بالفول، وتذكر الرجل الطيب والده وترحم عليه.

"مشتاق للنوبة يا عم سليم وربنا فاتح عليك هنا وكاتب لك البركات؟"

"قوي قوي يا شيخ سلمان، وهل هذا سؤال...؟" دخل خالد بوجه مضطرب فقطع سليم حديثه.

"صعدت للغرفة، وتبعني حمدان وقال إن الرجال في الصلاة من الشرطة السرية وينظرونكم من الفجر. قلت له إنك في المطعم فأخرجني من باب خلفي لأسرع وأحذر. قال إنه لا يعرف السبب ولكنه يقترح أن نتفرق، أو يعود واحد منكما فقط لأنه سيأخذونه معهم للتحقيق".

راوي قردطبة

"أنا في الخدمة يا شيخ سلمان، إحنا أولاد بلد واللي تشوفه نمشيه. يمكن لخالد ومروان الاختفاء بمعرفتي، أو نخفيكم كلكم ونخرج الحاجات من الفندق بالسر".

"شكراً يا عم سليم، لا داعي لذلك، لم نفعل شيئاً خطأ نخاف منه.. قاطع الرجل حديثي وهمس شاتماً الخليفة وأهله وملته وحراسه، وأكد أنهم لا يحتاجون لشيء خطأ للإساءة للناس.

"سأذهب أنا إليهم، وإذا غبت طويلاً سيتصرف مروان بمعرفتك لعمل اللازم لتخليصي منهم".

تداخل حديث مروان وسليم، الأول يريد أن يسلم نفسه بدلي والآخر يرفض الفكرة وينصح بالهروب والإفلات بجلدنا. تلاحقت الأفكار متسارعة، لم نغلط ولم نسرق ولم نكفر أو نشتم، إذا تغيينا لفترة تاركين حاجياتنا سيعرفون أننا هربنا، سيهدلون كل من تعرفنا عليهم، سيحمل الزاجل الأخبار والأوامر بالقبض علينا وحينها تثبت ضدنا أي تهم يريدونها. طلبت من مروان أن يتخفى في الأهرام عند الشيخ مسعد، ويبقى خالد في الغرفة ويتواصل مع ابن عمه عبر عم سليم. أسررت لمروان أن يعود مع خالد للأندلس إذا غبت أكثر من أسبوع، وأسمنت الإثنين أن لدينا أمانات عند حمدان، وطلبت من خالد أن يخبره بعدم الإبلاغ عنها لو سألوه. اضطرت لتكرار ذلك مراراً لأن مروان كان يتفلسف ويريد الذهاب وحيداً لتسليم نفسه متعللاً بقدرتي على المتابعة من الخارج ومساعدته. أقنعتهم أنهم يريدونني في الأصل وإقناعي لهم من الداخل هو الأسلوب الأفضل.

"إذا سألوني عنك سأقول إنك سافرت يوم الخميس للحج، فإن ضبطوك هنا أخبرهم أن سفرك تأخر". ودعت الإثنين، ولم يكف سليم عن استغفار ربه وتمني العواقب السليمة.

كانوا خمسة رجال، أحدهم يحمل أصفاداً. أنظفهم شكلاً سألني عن مروان وخالد فأخبرته أن الأول توجه للحج ولن يعود قبل شهر، بينما ابني "الصغير" لم يتعود النوم في النهار وقرر قضاء اليوم في

زيارات لمساجد المدينة. استفهمت عن سبب هذا الإجراء فأنكروا المعرفة، وعندما اقتنعوا بعدم جدوى الانتظار أراد بعضهم تقييدي، لكن نظيفهم رفض الفكرة وأعلم الآخرين أن الأمر هو إحضاري، ولأن أحداً لم يقل لهم إنني خطير، ولأنهم خمسة ضد واحد فلا داعي للقيود. لم يضيفوا طوال الطريق أية معلومة أخرى، وظني أنهم لا يعرفون سبباً لهذا الاعتقال.

"أهلاً وسهلاً في فندق عم إسماعيل". قالها رجل مجعد الوجه ويبدو في عينيه بقية طيبة ويصعب التعرف على بقية ملامحه في الغرفة شبه المظلمة أمام باب غرفة الاعتقال. شكرته على الترحيب فعرف من لهجتي أنني غريب. "ولا يهملك كلها كم يوم وتخرج. الكثير من الأجانب زارونا هنا وخرجوا بسلام". إطمأنت أن ترحيبه لم يكن مزاحاً ثقيلًا. في الغرفة تمدد في صفيين حوالى ثلاثين شخصاً رؤوسهم للجدار وأقدام نصفهم تتلاقى مع أقدام النصف الآخر. أزحت الأحذية وجلست قرب الباب ريثما يفيقون من النوم. جولت أعيني في الجدران والسقف فخيّل إلي أنها تتحرك من كثرة الحشرات المنتشرة عليها. زاد بدني قشعريرة عندما تأملت في أقدام القوم العارية، كان بعضها منتفخاً، وكلها تنزف دماء من ندوبها أو تجمدت عليها الدماء. تدريجياً تبينت أن الأجساد واجهت شديد العذاب، وأخذ الأنين أثناء النوم معانيه، فندمت على التسرع وعدم الاستماع لنصيحة الفوال النبوي.

قصص الذين أفاقوا وتعارفوا علي أغرب من روايات بني هلال، وأكثر تشويقاً من كتابات الجاحظ، وأقرب للخيال وعمل الشياطين. قبل أن يحين وقت التحقيق الليلي كان أكثرهم يستفسرون عن طرق السفر إلى الأندلس وفرص الحياة هناك، إذا كتبت لهم النجاة بالخروج من السجن. أخبرتهم أن الأندلس خليط من البشر والأديان والأجناس، والخليفة هناك سني، وطرق السفر كثيرة ولا يتطلب الدخول والخروج إذناً أو ضريبة. أضاف أحدهم أنه لا يوجد شيعي واحد في الأندلس، وأنهم

يحاربون الفاطميين في أفريقيا والبحر. لم أعلق على الرجل سوى بالله أعلم.

أول قصة سمعتها كانت لشاب فلاح قوة جسده لم تخفها الأورام. ما كاد يبدأ حتى انخرط في البكاء. ذنبه هو الصلاة في مسجد صغير على أطراف عين شمس يبدو أن بعض الجماعات الدينية المعارضة كانت تجتمع فيه، وعلى الأرجح أن أحد الجواسيس شاهده يتحدث أو يلقي التحية على القوم الذين نجوا من القبض عليهم. "ألم يصدقوا ألا علاقة لك بهم وأنت لم تهرب معهم؟"

"يصدقوا مين يا عم عربي، حلفت بكل الأيمان وبرأس الله وحق علي، ولكنهم كانوا يعاظمون الضرب. قلت لهم أعترف بما تريدونني أن أعترف به، لكنهم باشروا تعليقي من عراقيبي وضربي على مؤخرتي وظهري حتى تفتحت الجروح".

"هون عليك، سيرون ألا علاقة لك بالأمر وأنت مستعد للاعتراف بما يريدون وسيطلقون سراحك إن شاء الله". وددت أن يكف عن العويل وأن لا يريني الآثار تحت ملابسه، لكنه لم يصدق أنه سيفرج عنه قريباً فهو على هذا الحال منذ شهر. سأل أحدهم عن سبب وجودي هنا، فأنصت الآخرون، لكنهم لم يسمعوا سوى جهلي التام بالأمر. تمتم أحدهم، الله يستر من تهمة التجسس. تذكرت الشيخ ناهي سارق الحمام واستبعدت الفكرة من ذهني.

"قبل أن ننام صباح الغد سأخبركم بالتهمة، إن كان هناك تهمة".
"تشجع واصمد، فكر في كل الاحتمالات إلا احتمال أنهم جلبوك هنا ولن يوجهوا إليك تهمة". كان الصوت قادماً من خلف الباب حيث يجلس عم إسماعيل مع سجل بأسماء الزوار. عندما مررت بإسماعيل في طريقي لبيت الخلاء المجاور، رأيت الشيب يملأ رأسه، وفمه خلا من نصف أسنانه، والمتبقي منها متفرق هنا وهناك. بالكاد قضيت حاجتي وعدت لرفاق الغرفة حامداً ربي أن بيت الخلاء خارجها وأن نسبة قليلة هي التي تصلنا من روائحه. قصصهم لا نهاية لها، وكل واحد ينكر أنه

الذي كتب الشتائم ولعن أبا الخليفة على الجدران، أو عضواً في جماعة سرية تخطط لاغتيالات، أو يصنع الأحجية السحرية لتطليق زوجات، وآخر أقسم أنه ضحية لمروجي دنانير مزيفة وليس المزيف أو المروج لها. لم يكن بيننا لصوص وقتلة .

في المساء استبشرت خيراً أن المحقق عرفني على نفسه، وأنه رومي. على الأقل ليس ضليعاً في الإسلام ولن يحاججني في شؤون الدين، لكن الباب مشرع لعشرات التهم الأخرى. "لقد راقبناك منذ دخولك الفسطاط، وتتبعنا خطاك في المساجد والنزهات والاختلاط بالأعراب في الصحراء. لم تبع تجارة ولم تشتتر، لم تسافر للحج مثل ابن أخيك، إن كان بالفعل سافر إلى هناك. آسف لاحتجازك مع المجرمين في غرفة واحدة. الآن أريد منك أن تقنعني بسبب وجودك في مصر".

"وعدت ابني منذ سنوات أن أفرجه على قاهرة المعز، رحمه الله، وقبل السفر تعلق بنا ابن أخي. في العادة تمر تجارتنا من هنا إلى الحجاز والهند والصين. عائلتنا تتاجر في التين المجفف، وأنا شخصياً أستورد كتب العلماء من الفسطاط والقاهرة والإسكندرية ونسخها ونبيعها في مدن الأندلس".

"وأنت هل تؤلف الكتب أيضاً؟"

"لا، أنا أعمل في النسخ والبيع فقط، ولا آراء عندي لأكتبها".

"لكنك تجيد الكتابة".

"الكتابة والقراءة وأحفظ القرآن الكريم كله، مثل كل البالغين في الأندلس". لم أتأكد إذا كان هذا التعميم عن الأندلسيين لصالح أم سيراه فاتك بن عبد الله الرومي غرورا.

"زرت بلادكم لفترة قصيرة وأعجبتني، وأحب أن أعرف عنها تفاصيل أكثر. أنت تجمع تفاصيل عن بلادنا ومن حقي الحصول على ما تعرفه".

"كل من يزور الأندلس يسحر بها، تماماً كما يقال هنا إن من

راوي قرطبة

يشرب من النيل يعود لزيارته. معلوماتي قليلة عن بلادكم، ولكنني أعرف عناوين كتب كثيرة تحدثت عنها وعن الأندلس. لو رغبت يمكنني تذكر الأسماء وربما الحصول على بعضها من أسواقكم". هل هربت بنجاح من فخ سؤاله أنني أجمع معلومات عن بلاده؟

"لست من أهل الكتب لتحيلني إليها. أريد منك معلومات محددة عما تراه هنا ومعلومات مشابهة عن الأندلس. إن فعلت ذلك ستجد إقامتك سهلة وسأعفي تجارة التين من الضرائب وسأرسل لك كتباً مما تريده، وأرحب بك في زيارة كل سنة لنا". هذا معناه أن الرفض سيكون ثمنه عكس ما قال، سأحاول الاستعباط مرة أخرى، ولكن يجب التوقف قبل إفلات الأمور.

"يسعدني التعاون معك، سأكتب لك بما رأيته هنا، وسأهتم بالملاحظة أكثر في بقية الوقت، وسأجيب لك عن أي سؤال تريده بقدر ما أعرف إجابته".

"إذا اتفقنا. مهمتك الأولى هي تنفيذ الرحلة لمضارب بني هلال وتسجيل مواقفهم من الخليفة، بدقة. وأثناء الرحلة تذكر كل شيء مهم عن الأندلس وسجله. إهتم بنقاط الضعف والقوة هناك. سأعطيك كتاباً يسهل رحلتك وإقامتك في الصعيد، وسأعمم فوراً بين القاهرة والإسكندرية عدم السماح لك بالتنقل إذا لم تحمل مني رسالة بحرية السفر".

"لا مانع عندي البتة في تلبية رغبتك".

"سأرسل معك إلى الفندق من يشرح لك المزيد من تفاصيل المطلوب".

"لا أحبذ ذلك، لقد فهمت كل شيء، وإذا كان الشرح ضرورياً فالأفضل الانتهاء منه هنا والآن. رغبتني هي العودة للفندق من دون تأخير إضافي وبدون مرافق. ربما لحقت بابن أخي وأقنعتني بتأجيل الحج". لقد عرفت ما يريد، وليس بوسعي الرفض الآن، وأصبحت بحاجة للحرية لترتيب وضعي. أي عترسة للوضع الآن ستؤدي للتعذيب وستعقد فرص

التفاهم فيما بعد، وبالتالي لن أغادر البلد، والأرجح أنهم يعرفون كل خطوات مروان وخالد الآن. سرح ذهني أثناء شرح شخص آخر لتفاصيل لم أستوعبها لأنني لم أسمعها، وكلما تنبعت لما يقول كنت أسأل الشارح عن موقع فاتك في الدولة، فأفشى إلي بأنه من بلاد الأرمن وأنه كان من رجال القائد بنجوتكين مولى الخليفة العزيز، وأنه الآن من رجال الخليفة الحاكم بأمر الله المقربين، ولقبه أبو شجاع.

قبيل شروق شمس الأحد صبحت على عم سليم النوبي، فأخذني بالحضن والترحيب وكأني أخوه الغائب منذ دهر. "لم تذهب للفندق بعد، أهلاً وسهلاً بك في محلك. خالد في الغرفة، ومروان يراقب من فوق السطوح. رفض بالأمس ترك ابنك وحيداً، ولم يذهب للصحراء. ماذا أرادوا منك؟ هل أهانوك؟ لا يبدو ذلك". كان الرجل يدلي بما لديه ويعبر عن مخاوفه ويسأل ويجيب.

"كل شيء خير يا عم سليم. يبدو أن هناك سوء فهم، أو اختلطت عليهم الشخصيات. سألوني عن غايتي من الزيارة وعملي في الأندلس أخبرتهم بالحقيقة وتركوني من دون أية إساءة".
"لعنهم الله، وهل الإرهاب والرعب منذ صباح الأمس عمل خير؟"

"لو شفت اللي شفته، واكتشفت أن القصة التباس وخرجت بسلام لاعتبرت نفسك محظوظاً جداً جداً. الله لا يوريك يا عم سليم اللي شفته وسمعته". أراد الرجل تقديم الإفطار، فأخبرته أنني لم آكل منذ الأمس، ولكنني أفضل أولاً زيارة الحمام والاعتسال لنصف يوم. سألته إذا كان سمع بفاتك الرومي.

"أعانك الله وأعان الأسرى والمساجين. المظالم يملأون السجون بسبب فاتك وأمثاله. كان أحد مماليك بنجوتكين الكثر من الهند وأرمينيا وبلاد الصقالبة، وخدم بنجوتكين أثناء الإقامة في الشام. الآن يشرف على سجون مصر وكلما قبضوا على معارض في أي مكان يحضره كعابي ليراه فاتك وزمرته ويقرروا مصيره". حمدت الله أنني نجوت حتى الآن، وباشر ذهني يعمل بشكل مضاعف للنجاة والخروج من هذا البلد.

المأمون وخصيب

في الفسطاط شاهدنا رسوم الفراعنة للتماسيح والقطط والكلاب والصقور أيضاً. وأخبرنا الشيخ مسعد أن تماثيل التماسيح على النيل قرب الجيزة هي طلاس تم منع وصول هذه الدابة إلى تلك الربوع. بعد أسيوط وقبل اسنا نظرنا التماسيح لأول مرة وأفزعت دوابنا. قبيحة الشكل طويلة الفم والذنب، الأسنان متباعدة وجلد التماسيح يبدو غليظاً جداً. قال دليلنا إن التماسيح يأكل أي شيء يمسك به في الماء إلا الجاموس الضخم. وعلى الأرض خطره أقل لقصر أرجله الأربع وقلة سرعته. هنا يوجد أيضاً حيوان برمائي آخر أصغر من التماسيح وأملس يسمى السقنقور، ويصطاده المصريون لاستعمالهم شحومه في علاج قصور الجماع والنكاح، وربما يُباد السقنقور قريباً من شدة الطلب عليه. الحمد لله على خلو الوادي الكبير وأنهار الأندلس من التماسيح، فهذه دابة نحن في غنى عنها.

للاحتياط من تطورات طلب فاتك طالعت مجدداً ما كتبه ابن حوقل عن الأندلس وعن الصعيد. ووفقت في الحصول على نسخة من كتاب المسالك لابن خرداذبه وكتاب الخراج لأبي الفرج، وهما مما اعتمد عليه الحوقلي مضيفاً ما رآه في رحلاته التي بدأها من مدينة السلام، بغداد، قبل عشرين سنة من تحكم الفاطميين في مصر. دخل الحوقلي البغدادي الأندلس وقرطبة أوائل عهد الأمير عبد الرحمن الناصر، ولم يتنبه إلى ثورة ابن حفصون والفوضى السائدة آنذاك ولم يشر إليها، بل على عكس ذلك تطرق إلى عظيم الرخاء، وكثرة المياه، ووفرة الأموال، وجهل الحكام، وفقدان شجاعة القتال وخوف جند الأندلس من وضع

أقدامهم في ركاب الخيل، بل كتب أنهم لا يعرفون الركاب. أعدت صياغة مثل هذا المحتوى بكلمات أخرى وأشارت إلى عدم ارتياح الناس للحاجب المنصور واحتجازه للخليفة هشام في الزهراء، واعتماده على البربر في الجيش، وسجلت مثل ذلك من الأمور المعروفة لجميع المطلعين والمطالعين، وأشارت لأوصاف البلد والجغرافيا كما أوردها ابن حوقل ومن سبقوه.

عن بلاد الصعيد كنت أسجل ملاحظات بدون تسميات للأشخاص، ولكن للبلدان ووصفها وما اسمعه عن تاريخها، ونسخت على الدوام نسختين لاحتفظ بواحدة إذا لم أجد سبيلاً للإفلات من فاتك وإعطاءه النسخة الأخرى. إحدى القصص التي سجلتها كانت لمنية بن خُصيب على شاطئ النيل قبل أسيوط.

يُحكى أن الخليفة العباسي المأمون غضب على أهل مصر. والمأمون هو ابن الرشيد وحكم بلاد الإسلام من بغداد طوال اثنين وأربعين عاماً وتوفي في رجب سنة مائتين وثمانية عشرة. لما غضب على أهل مصر قرر إذلالهم بتولية أحقر عبيده عليهم. رفع خصيب من عامل تسخين الحمام إلى العامل على مصر، متوقفاً منه الفساد وسوء العمل وإيذاء العباد. لكن خصيب سار في الناس على أحسن وجه واشتهر بالكرم وأصبح محطة لأقارب الخليفة يتلقون منه الهدايا ويكثرون في مديحه. غضب المأمون هذه المرة على خصيب فأمر بسمل عينيه وحمله لبغداد ورميه في سوقها. حضر جند الخليفة إلى منيته هذه، وحالوا بينه وبين دخول داره، وتصادف حمله لجوهرة عظيمة فأخفاها في لباسه. سملوا عينيه وحملوه لبغداد وألقوا به في السوق، وهناك زاره شاعر فقال: "يا خصيب إني كنت قصدتك من بغداد إلى مصر مادحاً لك بقصيدة، فوافيت انصرافك عنها، وأحب أن تسمعها".

"كيف بسماعها وأنا على ما تراه".

"قصدي سماعك لها، وأما العطاء فقد أعطيت الناس وأجزلت،

جزاك الله خيراً". وأنشد الشاعر بعد أخذ الإذن من خصيب الذي تبتعد عنه الرعية في السوق خوفاً من بطش المأمون:

أنت الخصيب وهذه مصر فتدफقا فكلالما بحر
وكانت قصيدة طويلة، فلما أتى آخرها قال للشاعر أن يفتق خياطة ملابسه، ففعل وأعطاه الجوهرة الياقوتة، وحسم تردد الشاعر بالقسم عليه أن يأخذها. عندما حاول الشاعر بيع الياقوتة قال التجار إنها تليق بالخليفة ووصل الأمر إلى المأمون فاستنطق الشاعر بالحقيقة. عند ذلك، تقول الرواية، ندم المأمون وأحضر خصيب وأجزل له وخيره، فاختر العودة والسكن في منيته بمصر وعاد إلى النيل ومات ودفن هنا. فيما يشبه الصدفة المعجزة، إلتقينا في منيه خصيب بمسافرين من الحجاز إلى مصر التقوا بمسافرين من بغداد للحجاز، ونقلوا لنا خبر تغلب أبي الفوارس، وهو عبد الملك بن نوح، على أخيه أبي الحارث ملك ما وراء النهر قبل شهرين، فخلعه ولم يقتله، وإنما سمل عينيه!

مدن وقرى الصعيد تنام ليلاً وتعمل نهاراً مثل جميع مدن وقرى بلدان المعمورة. هنا ترى القمر يتناقص كل ليلة مع اقتراب نهاية ربيع الثاني، ولكن ضوءه ينعكس على صفحة الماء ويعم الأراضي المزروعة الخضراء. كثيرون من أهل الصعيد الأقباط والمسلمين يخافون السير ليلاً حتى لمسافات قصيرة داخل مدنهم وقراهم، يخشون أذى الشياطين أو أن يركبهم الجن. يكرهون رؤية الغربان صباحاً ويستعيذون بالله طوال النهار. إنه عالم آخر يختلف عن الفسطاط والقاهرة، أكثر دعة وكرامة وحسن ضيافة. آثار الفراعنة المنتشرة بامتداد النيل توحى بعظمة الماضي، ويبدو حاضر الناس أمامها متواضعاً جداً. معابد وبنائات هائلة الحجم، تحرسها تماثيل أسود وعجول وتيوس ضخمة، وبجانبها على مقربة منها بيوت الفلاحين متواضعة. مدنهم، وبالرغم من غنى الأرض وكثرة خيراتها، تظهر كجزء غريب في الصورة. لباس الأقدمين لا يتشابه مع لباس ورثتهم. بعض الفرعونيات ظهرن في الرسوم الجدارية بملابس شفافة تظهر أجسادهن العارية، بينما نساء الصعيد يسترن أجسادهن الآن

بأقمشة داكنة طويلة ولا يظهر من أنوثتها سوى الوجه والشعر المنسدل خارج غطاء الرأس. فقراء الفلاحين يلبسون تنانير قصيرة أقرب إلى ملابس ملوك الفراعنة.

تجربة سجنى عكست نفسها على تغير في سلوك مروان، وهدوء أكثر وشروء ذهن خالد أحياناً. أصبحا يحسبان العواقب ويزنا سلفاً ما يريدان قوله، كما أن اهتمامهما بالأشياء تغير. معابد الفراعنة كانت تدفعنا للكثير من التأمل. إتفق ثلاثتنا أن كتابة الفراعنة أعجوبة. لم نفهم معانيها، ولكن بهرتنا صنعتها لاختلافها عما تعودنا.

"رسومنا وخطوطنا الجميلة في المساجد والقصور، مبرزة الشكل، مصنوعة من الجبص المصبوب في قوالب خشبية وتلصق على البناء. ليست سهلة الإنتاج بالطبع ولكن أمرها معروف". قال مروان وهو يتأمل رسوم وما نظنه كتابة على أعمدة المعبد. "هذه الرسوم منحوتة في الحجر الصخري، والمتكرر منها متطابق في الشكل والحجم. كيف حفروها بهذه الدقة في صخر كهذا؟"

"ربما كان الصخر طيناً طرياً قبل ذلك، وكانت الأشكال الكثيرة أختاماً يطبعونها على القطع والمسلات والأعمدة، ثم يجففونها ويلونونها."

"هذا يا ابن عمي هو الحل الوحيد القابل للفهم، ولكن الطين حين ينشف يتعرج ويتشقق، ومن المستحيل أن يعيش هذه المدة الزمنية ويصبح بهذه الصلابة والملاسه". تواصل الحديث بين مروان وخالد، وفكرا في احتمال استعمال أختام ساخنة، أو سوائل حارقة تحفر الصخر. كانا يستبعدان فكرة الحفر في الصخر بهذه الدقة المتناهية والعميقة بزوايا حادة وتطابق بين الأشكال المتكررة. فجأة قدم دليلنا الهلالي مخرجاً بدا معقولاً وإن كان بدوره يفتح الأبواب على أسئلة أكثر، قال: "ربما كان البشر قبل الطوفان أذكى منا، ولديهم أدوات اندثرت، ويمكن الملائكة هم الذي كتبوا ورسوموا وأقاموا كل هذا". لم يعلق أحد سواي بأن اللغز قد ينجلي عندما يتمكن الناس بالفعل من فهم هذه اللغة وفك رموزها.

راوي قرطبة

لأيام كنا نرى الماء والخضرة والصحراء الممتدة على الجانبين في وقت واحد. أحياناً نشاهد سلاسل جبلية تحجب الرؤيا بعد رمال الصحراء، وأحياناً أخرى تظهر آثار سور حجري لم نتيين له أولاً من آخر، ولم أعر له على تاريخ أو رواية فيما طالعت من كتب. أحاديث دليلنا الهلالي تطرقت أحياناً للتشبيه بين هذه "الجنة الخضراء النضراء" وبين "القحط والجذب في صحارى نجد والحجاز". ردودنا على هذه المقارنات كانت تدهشه، ولم يصدق بأن الأندلس لا توجد بها صحارى، ولكنها سهول وجبال ووديان وأنهار وخضرة، لا يحتاج المسافر في ربوعها لحمل ماء أو طعام. "إذا فاض نهر في الأندلس عن مجراه فهذه مصيبة على الناس، وليست نعمة كما تؤمنون هنا". تذكر مروان أن مرافقنا صحراوي عربي وليس مصرياً فاستدرك "كما يقول المصريون".

وصلنا إلى مضارب الهلالية لمشهد جديد يختلف عن الفسطاط وعن مدن وقرى الصعيد. على الفور صدمتني الفوارق في أشكال الرؤوس بين المصريين وعرب الجزيرة. جباه عريضة ومؤخرات جماجم مستطيلة للمصريين يقابلها هنا رؤوس مستديرة أصغر حجماً وجاه أضيّق لا تتمدد لأعلى الجمجمة. حدقات عيون فيها استطالة، بينما عيون الهلالية أقرب للاستدارة. الملابس واللهجات مختلفة، ومثلها البيوت، بل لا مجال لمقارنة بين خيام منسوجة من وبر الجمال، وبيوت ثابتة طينية أو حجرية. هنا عرب رحّل عمادهم خيلهم وإبلهم تحملهم خلف مواشيهم إلى المراعي، وهناك فلاحون ينتجون الخضرة من الأرض ويموتون لو خلعوا منها.

مئات الخيام المفتوحة بطولها، بعضها يستدير حول بعض لتوفير خصوصية، وبعضها الآخر مشرع لجلوس الرجال واستقبال الضيوف. كل مجموعة من الخيام احتلت موقعاً على بعد من المجموعات الأخرى، وقرب كل منها خيل وإبل، وفي المساء يعود الرعيان بالأغنام لتحلبها النساء.

حول النار استقبلنا شيوخ من بني هلال، وبعض ضيوفهم المسافرين للحجاز أو القادمين منها في طريقهم لمصر والإسكندرية. طوال اليومين الأخيرين من مسيرنا لم نمر بقرية أو فندق أو حمام، لكن دليلاً أكد أن الينابيع قرب المضارب دافئة وتصلح للاغتسال.

"أهلاً وسهلاً بالحجاج يا مرحباً". على الفور أعلنت بصوت جهوري إنما نحن زوار لبني هلال وسنعود أدراجنا بعض إراحة دوابنا. "في العام القادم إن شاء الله سنعود مع ربعنا للحج. الآن عرفنا الطريق واطمأنت قلوبنا".

"لهجتك شامية يا شيخ، وعساه خيراً ما دفعك لاختبار هذا الطريق. رحلتكم من الشام إلى مكة أسهل وأسرع". كان المتحدث شاباً اسود في مقتبل العمر يصعب تحديد سنه بدقه، ولم أعرف إن كان من عبيدهم حسب لونه، أو ابن أحد كبارهم حسب لهجته الواثقة. "إنما نحن من الأندلس، ومن قرطبة بالتحديد. لكن أصول أجدادنا الأوائل من اليمن وفلسطين".

"وأنا بركات بن رزق بن نايل بن دريد بن ثابت بن تامر الهلالي. أهلاً بكم في مضاربنا. هل جئتم عبر أفريقيا؟" لم أسمع في نسبه اسم جابر أو جبير الذين تحدث عنهما الشيخ مسعد، ولكنه يدعي أن هذه مضاربهم وأنه هلالي! ربما يتجاهلون الإشارة للإسمين كون الحضور من سلالة مشتركة.

"لقد ركبنا البحر من مالقا إلى الإسكندرية. هذا ابن أخي مروان، وهذا ابني خالد. من الإسكندرية أبحرنا ثم ركبنا الإبل حتى وصلنا للشيخ مسعد الذي يهديكم جميعاً تحيات ربه".

"كلنا أهل، ومن يزورنا يصبح من أهل البيت ونحن من الضيوف". إذا كان كلام الشيخ كرم فهو مبالغ فيه، ولكنه أضاف ما يُشتم منه عتاباً للشباب: "بركات من أهلنا في نجد وحضر لقضاء الربيع معنا". سكت بركات ولم يرد على تدخل شيخ العشيرة، وتأكدت أن الشاب ليس عبداً

والأرجح أنه مدعم عشائرياً في نجد إلى درجة تحد من حجم وشكل اللوم الذي سمعه على تقديم نفسه في الحديث.

" يبدو بركات رجلاً مُجرباً نبهياً ومهتماً بطرق السفر، وركب بالطبع البحر من نجد إليكم ". نظري وحديثي توجه للشيخ، وواصلت سعياً لتغيير مجرى النقاش. " هل يوجد يهود في مناطقكم هنا؟ "

" ولا واحد في كل الواحات. ولا أظن أنهم يوجدون خارج الفسطاط والإسكندرية. الغلبة العددية في الصعيد للأقباط. نحن نُدفعهم العُشر هنا ونوفر لهم الحماية. أقباط الصعيد فوقنا يدفعون في مدنهم للوالي ". "

" ألا تدفعون شيئاً مما تأخذونه منهم، أو عن إبلكم ومواشيكم للحاكم؟ "

" لم يسألونا الدفع ". ضحك الحضور، وأكمل شيخهم " نحمي الحجاج عبر الصحراء حتى عذاب ليقطعوا بحر جده، وبدوننا سيقطع اللصوص هذا الطريق مرة أخرى ". "

" أجركم عند الله عظيم لحماية زوار بيته الحرام. هذه مكافأة ربانية بدل منع الفاطميين لكم اجتياز النيل إلى المغرب. هنا الأمور ميسرة والحمد لله ". "

" بنو هلال أعدادهم لا تحصى يا أبا خالد، وهذه الربوع لا تكفيها لو انتقلنا إليها من جزيرة العرب. غايتنا هي بلاد الغرب، عندما يأذن الرحمن ". هذه المرة عبر بركات عن رأي هلالية جزيرة العرب وكأنه سفير عنهم، أو حضر في مهمة محددة. "

على مدار أيام الضيافة الثلاثة والثلث تحول بركات ومروان وخالد إلى ثلاثي لا يفترون، ويقضون معظم النهار في الصيد والمطاردات على الخيول، واكتملت عندي معلومات تؤكد أن بركات ابن أمير، وجده شريف مكة. أبوه قتل ملكاً رومياً حفيداً لهرقل عندما أراد غزو مكة فزوجه الشريف مكافئاً له بابنته الخضرا. وما قاله مروان في اليوم الثالث أدهشني، لأن بركات صمم على مرافقتنا إلى الغرب، وسعى جاهداً

لإقناعنا بركوب سفينة الصحراء، ولكنني اشترطت أن يركب معنا سفن البحر وطمأنته أننا سننزله قرب القيروان، أو قبلها إذا لم يعجبه ركوب البحر. قبيل الرحيل أسررت إليه أننا مطلوبون في الفسطاط، ولا ننوي المرور على الشيخ مسعد، وسوف نتنكر حتى تبهر سفينتنا من الإسكندرية، ورجوته أن يبقي ذلك سراً.

"لقد رزقك رب العالمين بي. أتقن لغات عدة، وأجيد فنون الصباغات والأعشاب، أما التنكر عندي فهو أسهل الأعمال". إنطلقنا بخيولنا عائدين للشمال، واصطحب بركات أربعة جمال بيضاء بهية الطلعة شديدة القوام، وادعى أمام أهله أنه يريد شراء بضائع من الفسطاط، ويحتاج الجمال لتعود بها. في مساء اليوم الأول انشغل الدليل في إعداد طعام، واستنظقت بركات عن علومه.

"في بداية تعلمي القراءة والكتابة ضربت أقراني الأولاد، فضربني الشيخ. سألته كيف يضربني وأنا ابن الأمير الزحلان، وهددته بانتقام شديد أخافه، فعرض مقايضتي السكوت مقابل تعليمي يومياً علوماً إضافية. قال لي:

يا ولدي بركات ليتك سالم وطول عمرك ما تشوف تكدير
فسامحني يا بركات واجبر بخاطري لأنني ندمت على ضربك كثير
وأنا أعلمك لسان الترك والكرد ولغة الروم ولغة البربر
ولسان فارسي وأجنبي ينفعك ولسان سرياني تصير مشير
وأعلمك علم الصباغات كلها فتصير مثلي فاهم وخبير
فقلت له إن فعلت وعلمتني لن أخبر الزحلان وسأعطيك كل يوم
ديناراً. علمني أيضاً مكاييد الحرب ولعب الرمح والرماية طوال خمس
سنوات".

"بركات، هل أنا نسييت، أم ماذا؟ سمعتك تقول إن أباك الأمير رزق قاتل ملك الروم، والآن تقول أباك الزحلان".

"أنت لا تنسى يا أبا خالد، وأنا صادق في الحاليتين. عندما ضربني الشيخ كنت وأمي طرف الأمير الزحلان، وكنت أظنه أبي لحسن معاملته

لي مثل ولديه نعيم ومنعم، ولم تخبرني أُمي بغير ذلك إلا عندما هاجم قوم أبي، رزق، مضارب الزحلان ودافعت حتى كدت أقتل أبي رزق، آنذاك قيل لي من هو أبي وتم الصلح. تفاصيل هذه القصة طويلة سأخبرك بها في القادم من الليالي والأيام".

"أبوك الأمير رزق، من سلالة جابر أو جبير؟"

"أراك أندلسياً من الغرب عارفاً بتاريخ العشائر. أنا من سلالة جابر وهو جدي السادس".

بدل مواصلة السفر إلى القاهرة اتجهنا غرباً إلى مدينة الفيوم، فائقة الشهرة لكثرة الخيرات والطيور فيها والأسماك في بحيرتها. تلقطنا المعلومات في الفندق والأسواق بأن الطريق القديم إلى برقة والمغرب لم يعد أحد يسلكه منذ عهد الأمير أحمد بن طولون. فقد أمر بإغلاقه على إثر ضياع عدة رحلات في الصحراء. كان هدفنا المعلن بعد الاستمتاع في الفيوم أن نساfer إلى القاهرة شرقاً، بينما الحقيقة أننا نريد الشمال الغربي عبر الصحراء من دون أن نتوغل فيها غرباً، أي الوصول للإسكندرية من الغرب. أرسلنا الدليل والخيول إلى الأهرام، وحملناه رسالة بعزمنا البقاء هنا فترة طويلة قبل أن نعود لمضارب الشيخ مسعد.

وصايا المنصور

بعد خمسٍ وعشرين سنة من الحكم في الأندلس إقترِب أجل المنصور محمد بن أبي عامر. وقع في مرض إضافي خلال شهر صفر، وكانت أوجاعه الأولى قد أكرهته نصائح الأطباء، فعالج نقراسه بالكفي وأوجاعه الأخرى بالتجاهل أو باتباع نصائح كاتبه الجزيري عبد الملك. في الصيف تركنا قرطبة واتجه بنا لطليطلة ومنها دخلنا إلى جليقية، عمل بني غومس. كنا خمسة عشر من أحفاد جدي خالد، رحمه الله، قد توافقنا على الاشتراك في هذه الغزوة مع المنصور. كنت أكبرهم سناً، إثنان من أبناء عمي عيسى، وإثنان من أبناء فاطمة وسعيد، وابني خالد، والبقية من أبناء أخت سعيد وأبناء عماتي وأحفادهن. كان مروان هو الذي أخذ على عاتقه تجهيز هذه المجموعة وترتيب مشاركتها متأثراً بجرعات من القبليّة والتماسك العائلي الذي سمعه من بركات أثناء سفرنا وقبل أن ننزله في برقه حسب طلبه.

مرض المنصور كان يخف عنه وقتاً ويثقل وقتاً. من أرض بني غومس قصدنا، مراد المنصور، إلى قشتالية، بلد شانجه بن غوسيه. كلما أحل المنصور غارة وألب الجماعة على الهجوم، يجهد نفسه فيزداد مرضه، وتقوى عليه العلة. صنع العمال له سريراً من الخشب يمكنه الاضطجاع عليه متى خارت قواه، وحمله جند من السودانية رشيقى المسير، وسارت إلى جانبه أشرعة ليتوضأ وليقضي حاجته بينها كلما أراد. جاريتان جميلتان ممن سباهن في غزوات سابقة، كن يشرفن عليه بين الأشرعة، وفي الأوقات الأخرى كن يسرن بين فتیان المنصور.

كل التطورات وصلتني بانتظام عبر خيران الذي توقع موت المنصور في أية لحظة. تركنا قشتالية واتجهنا طوال أسبوعين إلى مدينة سالم حتى

لا يموت المنصور ونحن في أرض العدو. في الطريق انتشر بيننا قول المنصور: "إن زمامي يشتمل عشرين ألف مرتزق ما فيهم أسوأ حالاً مني، وددت أن أقال من زلتي وأصبح كبعض هؤلاء السودان الحاملين لسريري". عندما يمرض الإنسان يكتشف مزايا العافية ويتذكر ربه وقوته.

ساعدني خيران في مدينة سالم على المداومة في قصر المنصور وقرب غرفته. في الأول من رمضان شعر بقليل من الراحة فطلب دخول بعض الجماعة من العلماء وفتيانه عليه، وكان في حضرته ابنه عبد الملك. بدا لي الرجل واهن الجسد، ولكن ذهنه نشط ولسانه طليق. تمنى له الجميع الصحة فأجاب إنه موقن من الوفاة، ورأيته يقبض على يد ولده عبد الملك ويلقنه. أمره بالخروج فوراً إلى قرطبة لضبطها قبل وصول خبر موته، وكلما هم عبد الملك بالذهاب يسترده ويوصيه. لم يتمالك عبد الملك دموعه وبكىنا معه وانتحب بعض الحضور عالياً.

"هذا أول العجز والفشل. تنبهوا لأمركم واحفظوا نعمة الله عليكم في طاعة عبد الملك أخيك ومولاكم، ولا تغرنكم بوارق بني أمية ووعود من يطلب منهم شتاتكم. وقدروا ما في قلوبهم وقلوب شيعتهم بقرطبة من الحقد عليكم، فليس يرأسكم بعدي أشفق عليكم من ولدي. وملاك أمركم أن تنسوا الأحقاد وأن تكون جماعتكم كرجل واحد. فإن فعلتم لا يُفل فيكم". أخذني الحزن على الرجل ولكنني تأكدت أنه كان يعرف ظلمه للأمويين، وأيقنت أنه كان يتهيبهم بالرغم من تشتيته لجمعهم.

وقعت عين المنصور على الشيخ خلف بن حسين، فطلب منه الاقتراب لسماع وتسجيل وصيته لابنه عبد الملك قبل سفره إلى قرطبة. أخذ يتحدث بهدوء مجازاة لخلف ليتمكن من التسجيل، وحتى يستوعب ولده ما يقال له.

"يا بني لست تجد أنصح لك مني، فلا تعدين مشورتني. قد جردت رأبي على حين اجتماع من ذهني، فاجعلها مثلاً بين يديك. قد وطأت لك مهاد الدولة، وعدلت لك طبقات أوليائها وغايرت لك بين دخل المملكة وخرجها. واستكثرت لك من أطعمتها وعددها، وخلفت جباية تزيد على ما ينوبك لجيشك ونفقتك، فلا تطلق يدك في الإنفاق. ولا

تقيض لظلمة العمال، فيختل أمرك سريعاً، فكل سرف راجع إلى اختلال لا محالة. إقصد في أمرك جهدك، واستثبت فيما يرفع أهل السعاية إليك. الرعية قد استقصيت لك تقويمها، وأعظم مناها أن تأمن البادرة وتسكن إلى لين الجنبه. وصاحب القصر قد علمت مذهبه، وأنه لا يأتيك من قبله شيء تكرهه، والآفة ممن يتولاه ويلتمس الوثوب باسمه، فلا تنم عن هذه الطائفة جملة. ولا ترفع عنها سوء ظن وتهمة، وعاجل بها من خفته على أقل بادرة، مع قيامك بأسباب صاحب القصر على أتم وجه فليس لك ولا لأصحابك شيء يقيكم الحنث في يمين البيعة إلا ما تقيمه لوليتها من هذه النفقة". توقف المنصور لاستذكار بقية ما يوصي به ولده، وقدم إليه أحدهم بعض الماء ولكنه رفض مؤكداً صيامه رغم مرضه الذي يعفيه لو أراد. عاد يتحدث عن الخليفة هشام قبل الانتقال إلى الوضع العائلي:

"إياك الانفراد في التدبير من دونه، بالرغم من بلوته وجهله وعجزه، وتمسك بالكتاب والسنة. أما المال المخزون عند والدتك فهو ذخيرة مملكتك، وعده لحاجة تنزل بك، فأقمه مقام الجارحة من جوارحك التي لا تبذلها إلا عند الشدة تخاف منها على سائر جسدك. ومادة الخراج غير منقطعة عنك بالحالة المعتدلة. وأخوك عبد الرحمن قد صيرت إليه في حياتي ما رجوت أني قد خرجت له فيه عن حقه من ميراثي، وأخرجته عن ولاية الثغر لثلا يجد العدو مساعاً بينكما في خلاف وصيتي فيسرع ذلك في نقض أمري، ويجلب الفاقة على دولتي. قد كفيتك الحيرة فيه فاكفه الحيف منك. كذلك سائر أهلك فيما صنعت فيهم بحسب ما قدرت به خلاصي من مال الله الذي في يدي. وخلافتك بعدي أجدي عليهم مما صرفته، فلا تضيع أمر جميعهم والحظهم بعيني فإنك أبوهم بعدي. إن انقادت لك الأمور في قرطبة فهذا وجه العمل وسبيل السيرة، وإن اعتاضت عليك فلا تلقين بيدك إلقاء الأمة ولا تطبيق وأصحابك السلامة فتنسوا ما لكم في نفوس بني أمية وشيعهم بقرطبة. إن قاومت من توثب عليك منهم فلا تذهل عن الحزم فيهم، وإن

خفت الضعف فانتبذ بخاصتك وغلماذك إلى بعض الأطراف التي حصنتها لك. واختبر غدك إن أنكرت يومك. وإياك أن تضع يدك في يد مرواني ما طاوعتك بنانك، فإني أعرف ذنبي إليهم".

يا إلهي! هل يعتقد الرجل أنه ذاهب للجنة أم للنار؟ أخذ السلطة من هشام والأمويين ووهبها لابنه من بعده، أخذ المال من صبح، أم الخليفة، وخزنه عند الذلفاء أم عبد الملك، اعتقل الخليفة في الزهراء وجهاز لابنه حصوناً يحتمي فيها إذا غلب على أمره، وهو لا ينكر ذنبه مع بني مروان. أنظر إليه وأحمد ربي على صحتي ورعاية الخالق لعائلتي، فلو توقعت هذه اللحظات سلفاً وخيرت آنذاك بين حياتي وحياة المنصور لما ترددت رمشة عين في رفض المبادلة. الرجل شبه متأكد بخلاف قادم بين ولديه، بينما لا تراودني أدنى شكوك في تماسك عائلتي. تذكرت أن ربنا يمهل ولا يهمل، ومرت بذهني خاطرة أن المنصور عوقب في حياته بالمرض وقتله لابنه وتأنيب ضميره له، وعلى الأرجح سيتواصل عذابه من رب العالمين.

إنطلق عبد الملك إلى قرطبة ليجد أن خبر مرض والده واقتراب نهايته قد عم البلاد، وعندما وصله التأكيد، بعد عيد الفطر، بوفاة والده يوم السابع والعشرين من رمضان، ركب إلى الخليفة هشام ونعى إليه المنصور، فأظهر هشام الإشفاق واستمع من عبد الملك إلى اضطراب الفتیان وعصيانههم. سمعت بعد عودتنا إلى قرطبة أن هشام أظهر بعض الحزم، فخرج مع عبد الملك وأمره بتدبير أمر الدولة بما يمنع الدماء ويحجب القتال، وخلع عليه وأرسل الكتب إلى الأقطار بتوليته الحجابة. كان الفتیان العصاة من موالي الأمويين ولكن موقف هشام ضدهم خذلهم عن استرداد الأمر، ولو لم تمت أمه صبح قبل عامين لما تمكن عبد الملك من ضبط فتیان الأمويين ونفيهم إلى سبته. لكنه فعل واسترضى الناس بإعفاء كل مناطق الأندلس من سدس الجباية السنوية. كانت قرطبة قد تجهزت للاحتفال بعودة المنصور، ويذكرى مرور ثلاثة قرون على فتح الأندلس، لكن شهر رمضان تحول إلى قلق، وعيد الفطر وما تلاه إلى حزن خفف منه قليلاً الإعفاء الضريبي.

في مدينة سالم دفنا المنصور في ساحة قصره حسب وصيته التي طلب فيها دفنه أينما واتته المنية. خمسة وعشرون عاماً وأربعة وأربعون يوماً من الحكم من ضمن خمس وستين سنة وعشرة أشهر هي كل عمره. أحضر فتيانه صرر الغبار الذي جمعه عن جسده في سنوات الجهاد ليغطوه بها، وكفنوه بقمماش كان يحمله معه في كل غزواته وهو من نسج بناته. على الشاهد الرخامي لقبره نقش العمال:

آثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيون تراه
تالله ما ملك الجزيرة مثله حقاً ولا قاد الجيوش سواء
"هذا أجمل قصور المنصور، اختار الله له الموت هنا ليدفن فيه، رحمه الله". قال أحد المنافقين ونحن نستعد للعودة لقرطبة، فسأله آخر: "لقد كتبت له الشهادة أيضاً، فرغم جروحه من القتال واصل الغزوة حتى قضت عليه". سألت نفسي، هل مات كالبعير على السرير، أم سيحسبه الله شهيداً كونه مات أثناء غزوة؟ لكن هل هذه الغزوة جهادية أم للنهب؟

لم نقم للمنصور جنازة في مدينة سالم، تقبل عبد الرحمن العزاء من الجميع أثناء الهبوط للحاضرة، ووصلت الأخبار عن عصيان فتية وموالي بني أمية، فاضطرب فتيان العامرية والحواء على عبد الرحمن بالإسراع لدخول قرطبة، لكنه رفض وعسكر بالقوات ينتظر أوامر أخيه عبد الملك. تحت الإلحاح وافق عبد الرحمن على إرسال عبيد الله بن بدر وسبعمائة فارس إلى قرطبة، واختار عبيد الله جل الفرسان من العرب وأهل قرطبة، وكنت وجماعتي من بينهم. حرمت مدينتنا من بهجة الاستقبال، وكان حزن وخوف على وجوه الناس بآداب، ولبس خدم وقيان وأهل المنصور المسوح والأكيسة بدل ما تعودوه من الوشي ونفيس الثياب. حزنوا على المنصور، ولكنهم أيضاً تيقنوا أن دولته أصبحت وراثته لبني عامر.

السنوات السوابق

بين الهروب من مصر براً وبحراً ومعنا بركات، واشتراكنا في آخر غزوة للمنصور، مرت أربع سنوات حملت إلى عائلتنا السعادة والمزيد من الرخاء، وهذا ما لا يمكن قوله عن العالم المحيط بنا. لو لم تكن علاقاتنا بالعالم واسعة لما عرفنا حجم سعادتنا وحسن حظنا، ولغرقتنا في مشاكل يومية سخيفة نظن أنها بحجم الكوارث.

في مساء يوم اعتقالني في مصر، ذهب مروان إلى ليلى وأخبرها رغبته بالزواج منها، وطلب منها الانتظار ريثما تنفرج أزميتي. في سفينة العودة كتب إليها رسالة بالاضطرار إلى السفر وأنه عند الوعد ويرحب بها وبأهلها لزيارة الأندلس والتعرف على الأهل قبل اتخاذ القرار. حمل بركات الرسالة ليوصلها للشيخ مسعد وعبره إلى ليلى. من مالقة واصل مروان الرسائل مع من تيسر من الحجاج والمسافرين إلى مصر، وفي نهاية ذلك العام حضرت ليلى وأخوها، فزوجها لمروان ومكثا بضعة شهور في تجوال وتبضع قبل مغادرة الأندلس. هكذا تواصلت علينا تفاصيل متتالية عن أخبار مصر، بعضها مضحك وبعضها مبكٍ وغيرها لا يصدقها عقل. خليفتهما، الحاكم بأمر الله، تراجع عن قرار العمل الليلي، لأن المدينة تحولت إلى ملهاة ليل وتعطل تسيير معظم الأعمال. الرعية لم تلتزم بالمكوث في البيت ليلاً. هكذا أصدر الحاكم بأمر الله أوامره بمنع النساء من الخروج بعد الغروب، ومن ضمنهم أخته ست الملك التي اتهمها بعشق قاده الجيش والفحشاء معهم. قبل ذلك أصدر أوامر بقتل كل الكلاب في مصر. تلا ذلك قتله لحاجبه برجوان واستوزر بدله أبا العلاء فهد بن إبراهيم، وكان نصرانياً. أتحدث عن هذا الوزير بصيغة

الماضي لأن الخليفة قتله هو الآخر ونصب أبا الحسن العباس وقلته،
ويبدو أن أيام الوزير علي بن الحسين المغربي معدودة.

بذلنا جهوداً إضافية لطمأنة ليلي على أهلها وبلدها في ظل هذا
الإرهاب الذي عم الوزراء والرعية، وأكثرنا من استقبالها في قرطبة
وزيارتها لمزرعتنا. أحياناً أخفى عنها مروان ما يصل من رسائل، فقد
كان بعضها يقول إن الخليفة يسير في السوق فيقف أمام أي محل ويقتل
صاحبه ويمضي. ولأن النساء لم يلتزمن بمنع التجول الليلي، فرض
عليهن منع نهاري أيضاً، وأمر بقتل كل كندرجي يصنع أحذية للنساء. أي
جدار يحمل شتائم للخليفة كان يُهدم أو يُحرق البيت. بالضيافة وإخفاء
الأخبار الأسوأ، وبعد أن رزقها الله بطفلين، تجانست ليلي مع الأوضاع
ونعمت بالراحة الأندلسية. شغلها أبي أيضاً معنا في عالم الكتب، تنسخ
ما يصلنا عبر مالقا وترسل الأوراق لتجليدها في قرطبة.

حملت ليلي إلينا طريقة تصنيع الجبنة الحلوم، وكانت تعلمتها من
والدتها. الحلوم تشبه جبنتنا البيضاء من حليب الغنم أو البقر، ولكنهم
في مصر يلفونها في قماش ويغلونها فتضمر وتصبح قابلة للقطع والأكل
كما هي أو بعد قليها في السمن ولا يذيبها القلي. الآن نصنعها في
مزرعتنا قرب قرطبة لاستعمالنا الخاص، بينما تصنع بتوسع في مزرعة
عمي عيسى وتباع في مالقا ويقبل عليها الناس بشدة.

في السنوات الأربع الماضية تقاربت نهايات الأعوام الهجرية
والميلادية. عام 998 مثلاً انتهى قبل الهجري 388 بخمسة أيام، وفي
العام التالي بعده بستة أيام، وانتهى عام ألف ميلادية، الذي أربع يومه
الأول الإفرنجية وعموم النصارى، في السابع عشر من محرم 390. لهذا
التوافق في المناسبات كان بعض العائلة ومعظم الأصدقاء يجتمعون في
مزرعتنا قرب قرطبة، فنحتفل بعيد الأضحى ونذبح الخراف، وبعيد
الميلاد ورأس السنة. نهاية عام 999 اختلط فيها الضحك بالخوف،
وحمل لؤي مع جميلة خبيراً لم أصدقه لعدة أيام. قال إن جربير هو البابا
سلفستر الثاني الذي تنصب في الربيع الماضي بعد موت جروجري

الخامس، وأن القيصر الشاب أتو الثالث هو الذي عينه، بل حضر للإقامة في روما هو الآخر وكأنه من أباطرة الرومان السابقين.

في اليوم الأخير من العام أصر كل الضيوف النصارى على الذهاب للكنيسة ليلاً إذ كان معظمهم متخوف من قيام القيامة قبل الفجر، خصوصاً ماري التي سحبت معها خووخه وخسوس وجارتينا العجوزتين المسلمتين اللواتي حرك الخوف أقدامهما، وذهب معهم لؤي ورفضت جميلة وسعده الذهاب. خوفهم لم يدفعهم مثل غيرهم لبيع بيوتهم وأراضيهم والحج إلى القدس أو توزيع الأموال. الكثير من الأغنياء النصارى احتفظوا بممتلكاتهم ولكنهم ارتموا تلك الليلة في الكنائس على بطونهم وتجاوروا مع الفقراء في الدعاء. لم تقم القيامة، ولا حدثت أية كارثة طبيعية، لكن في اليوم السابع ماتت شريكتي خديجة التي رفضت الزواج، وقبل أن نفض بيت عزائها لحقت بها رفيقة عمرها، مصيونه، التي رفض إخوتها تزويجها من حبيبها، فأحجمت عن الزواج. كانتا في السنوات الأخيرة نادراً ما تعودان للبيت في قرطبة، وتشغلان نفسيهما في أعمال المزرعة وإعطاء الأوامر للعمال، وكان أطفال العائلة يعتبرونهن كجدتين. لسنوات تلت كنا نتذكرهن بالخير ونروي لبعضنا من نوادرهن.

تمنيت السفر إلى روما، وراودتني فكرة اللقاء مع صديقي البابا وصديقه القيصر. لو أعلنت عن عزمي هذا قبل تنفيذ الاتفاق بغزوة عائلية مشتركة لكنت واجهت ثورة من الشبان. كتبت عزمي عنهم ونويت السفر بعد الغزوة. عندما وصلتني رسالة من لؤي عبر جميله في دانية أواخر صيف 1001، تندمت على التأخير. قال، بدون تفاصيل كثيرة، إن أهل روما ثاروا على القيصر فهرب ومعه البابا من المدينة. تدريجياً عرفت تفاصيل وأسباب ما حدث، ولم يكن فقط نتيجة تنفيذ سلفستر الثاني لبرنامج إصلاحٍ لم يعجب رجال الكنيسة ولا نبلاء المدينة. القصة أقدم من ذلك، جروجري الخامس كان أول بابا ألماني، اسمه برونو، ابن عم أتو الثالث. نصبه أتو في روما بالقوة ثم تلقى منه التتويج كقيصر عام 996. المعارضون من نبلاء روما كانوا تحت قيادة كريستوس وزوجته

استيفانيا، وكان هذا القائد مختاراً من النبلاء ومؤسساً لجمهورية يريد بها تقليد أمجاد الرومان السابقة. هاجمهم أتو وأنهى جمهوريتهم وعفا عن حياة كريستتيوس وعين ابن عمه برونو بابا ورحل عن روما. وما لبث الجمهوريون أن طردوا البابا الألماني، وجددوا إعلان جمهوريتهم وعينوا يوحنا السادس عشر بابا. بالطبع جهز أتو القوات وهاجم روما، خلع يوحنا، وسمل عينيه، وقطع لسانه، وجدع أنفه، ثم أمر بالطواف به راكباً بالمقلوب على ظهر حمار في شوارع روما. أما قادة الجمهورية الإثني عشر ومنهم كريستتيوس فقد قطعت رؤوسهم وعلقت أجسادهم على أسوار كنيسة سانت انجليو وأعاد أتو قريه لكرسي البابوية. بعد موت هذا البابا الألماني نصب أتو الثالث صديقه ومعلمه جريبر ليكون أول بابا إفرنجي. تشريعات البابا الجديد ضد الفساد السياسي وضد الزنا والفحشاء في الكنائس وهجومه على الأساقف غير الأنقياء، كل ذلك عاظم من جبهة خصومه فثار أهل روما واضطر مع أتو لمغادرة المدينة.

في مطلع عامنا الجاري، تقدمت قوات كنسية وألمانية إلى مدينة باتيرنوا قرب روما حيث يقيم أتو الثالث وجريبر، تمهيداً للغزو. قبل أن يصلوا هناك انتشر الخبر بموت القيصر أتو، البعض قال من الملاريا، وغيرهم قال إن استيفانيا أرملة كريستتيوس أغرته وقتلته بالسّم.

القليل مما يمكن رؤيته بايجابية من أحداث هذه الفترة، أن الفرنجة والروم لم يتفقوا سوياً مع بعضهما، أو مع بقية النصارى، وباسيل الثاني في القسطنطينية يتصرف مع بلاد المسلمين المجاورة وكأنه تربى معهم، يتحالف مع زيد ضد عمرو ليعود لعمرو ضد زيد، ولا توجد عنده برامج لنشر النصرانية، أو تقبل الإسلام. جيراننا النصارى في الشمال لا خطر منهم للآن، ورضخوا لمزاج المنصور ورغباته من دون أن يعفيهم من ضرباته.

التشتت الإسلامي الأشد ظهر في بغداد. كل عام وصلتنا أخبار فتنة جديدة. الشيعة احتفلوا بيوم الغدير، فاحتفل السنة بيوم الغار ونشبت فتنة. في العام التالي وقعت فتنة بين الأتراك والسنة من جهة وبين أهل الكرخ

الشيعة فأطلق اللصوص والعيارين أيديهن بالسلب والنهب. في العام الذي تلاه تصاعدت الفتن فتولى أبو الحسن على بغداد وتلقب بعميد الجيوش فمنع، بالقمع، الشيعة من النوح على الحسين يوم عاشوراء، وجهال السنة الذي اختلقوا عادة النواح على مصعب بن الزبير. هل ينجح القمع في منع الفتن؟ سنرى في السنوات التالية.

ملك تركستان هجم على السامانيين في بلاد جيرانه، ما وراء النهر، وأسر الأخوين السامل لعيون أخيه والمسمول أيضاً وأنهى دولتهم. في الموصل اغتيل حسام الدولة واستخلف ابنه قرواش، معتمد الدولة. أما الخليفة العباسي القادر بالله فعقد الولاية لابنه وعمره ثماني سنوات ولقبه الغالب بالله. في دمشق انقلابات متسارعة وتغيير للولاة قبل أن يصلنا خبرهم، بينما في حلب يموت الأمير فيتولى ولداه الحكم من بعده، وهذا أشبه بحال المغرب أيضاً فقد مات زيري بن عطية واستخلفوا ابنه المعز. صراعات المغاربة توالى، ولم يتوقف سيل الواردين منهم على الأندلس حتى ضيقوا علينا في البيوت والأسواق، وأكثر منهم المنصور في الجيوش المرتزقة.

لم يكن موت زيري طبيعياً فقد قام ابن عطية المغراوي في المغرب ضد المنصور، فتحرك إليه جيش كثيف ودارت حروب عظيمة. اتبع المنصور الجيوش بأخرى قادها ابنه عبد الملك، ثم تحرك المنصور وهبط في الجزيرة الخضراء على مقربة من المغرب حتى انهزم زيري، أو بالأحرى تم شراء ابن عمه الذي طعنه في قفاه وهرب ومات بعدها زيري من جرحه.

البابا الساحر

"أبي لقد دارت، هل تريد رؤيتها؟"
"أخيراً، بالطبع نريد رؤيتها". نهضت ولؤي وسرنا خلف قريب إلى رأس التلة. كان منظرها فريداً من نوعه، عجلة كبيرة من الخشب يحملها من وسطها عمود أسفله مربع محشور في حجر طاحونة مرتفع عن وسط حوض. كانت العجلة في وضع أفقي فوق العمود، ويحيط بها ثمانية أشعة تشبه أشعة صغيرة لمراكب النيل، ولم أصدق عيني حين رأيت العجلة تدور ومعها حجر الطاحونة.
"كل ما نحتاجه الآن القمح أو الشعير أو الذرة، وسيطحن الريح لنا أية كمية".

"لكن البغال ستحتج". قال لؤي وسط ضحك الذين تجمعوا، وهروا البقية من بيت المزرعة باتجاهنا للتأكد من نجاح فكرة قريب.
"وإذا سكن الريح؟" سألت آمنة أخاها، وبدت أكبر منه بأكثر من الستين الفاصلة بينهما.

"هذا الصليب جاهز ليُرَبط عليه بغل أو إثنان للدوران حول الحوض". كان يشير إلى عمود مربوط أفقياً فوق حجر الطاحونة وجدار الحوض.

"مبروك يا قريب، نجحت الفكرة، كنت على صواب. تحتاج الآن إلى غرفة مستديرة واسعة حول الحوض وسقف خشبي تحت العجل يحمي المطحون من الشمس والمطر". عثر قريب على مواصفات هذه الطاحونة الهوائية في عدة كتب، وأصر على تنفيذها ليوفر على المزارعين في المنطقة عناء حمل غلاتهم إلى المطاحن المائية على الوادي الكبير،

راوي قرطبة

حسب قوله. دافعه لتنفيذ الفكرة يعود لقراءته ما مفاده أن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، سمع أحدهم يقول إنه شاهد في سجستان طاحونة تعمل بالهواء، فطلب منه الخليفة أن يصنع مثلها، لكن الرجل خائته الذاكرة في حفظ التفاصيل وفشل. وضع قريب الرسوم لهذه الطاحونة، ثم ساعده خالد على صنع نموذج مصغر، ووافقت له على تشغيل من يريد من عمال المزرعة في صنع مخترعه، لكنه أشغلنا كلنا معه بشكل أو بآخر طوال أشهر الخريف والشتاء حتى نجح الآن عشية عيد الميلاد.

عاد لؤي يحدثني عما جمعه من أخبار، وتركنا قريب يصد عن الطاحونة أخته ليان وبقية الصغار من الأقارب الذين رغبوا في التعلق بصليها ليدور بهم الريح .
"هل يصدق الناس يا لؤي أن الأرملة سممت القيصر، وماذا يقول رجال الكنيسة؟"

"طوال هذا العام، منذ موت القيصر في نهاية يناير حتى الآن حملت البضائع إلى ليون وروما وجنوه وريمس، الرأي الأوسع انتشاراً هو موته بالسم. بعد موت زوجها، تقربت استفانيا للقيصر، وكان بحاجة لكسبها ضد بقية النبلاء وأنصار الجمهورية. وعندما خرج من روما أخذها معه".

"هل سمعت رأياً محدداً من البابا في هذا الموضوع؟"
"جربير تواجد على فراش موت القيصر. لو قدر لك رؤيته فسيخبرك عن أعراض الموت وربما تستنتج بعد ذلك إن كانت أعراض سم أو ملاريا".

"لقد مات، ودفنت معه أحلامه وأحلام جربير في إعادة مجد الإمبراطورية، الله يستر البابا الآن". تنحنح لؤي وشرب بعضاً من النبيذ الذي حمله زوارنا من مالقا.

"لا ترحمني وتخفي عني أي شيء".
"لا أنوي الإخفاء. بعد موت القيصر عادت استفانيا إلى روما،

وبعد وهلة عاد جربير أيضاً من دون قتال أو دعم من الجيوش. ربما كان الطرد السابق للقيصر فقط، وربما أفنعت أرملة قائد النبلاء أصدقاء زوجها بعودة البابا". ما معنى كلام لؤي هذا، أيتحالف جربير مع أرملة قتلت القيصر من أجل العودة للكرسي، أم أنها داهية تريد عودته حتى تقضي عليه انتقاماً لشراكته مع القيصر ضد زوجها؟ إن كيدهن لعظيم.

"إذا جربير الآن في روما يجلس على كرسي البابوية ويواصل برنامج الإصلاح، ولا خلاف حوله، وهذا هو المهم".

"عاد لروما ويحاول الإصلاح. لماذا لا تقول له يا لؤي ما يوجه الأساقفة من إشاعات؟" سألت جميلة أخاها وواصلت رواية ما سمعته من لؤي بين الذهاب والإياب إلى دانيه: "يشيعون أنه ساحر تلقى علومه عند العرب في الأندلس". لم أدر إن ظهرت علي ملامح الضحك، فواصلت جميلة: "ليس في الأمر مزاح، الإشاعة واسعة وعشرات القصص تؤكد لها للناس. يقولون إنه يحدث جمجمة يحتفظ بها وترشده وتعطيه الإجابات. إحك لأبي خالد قصة الكتاب". قالت لأخيها وكفت عن الكلام فوجهت نظري إلى لؤي.

"عندما حضر إلى قرطبة للتعلم تقرب من شيخ يتقن السحر. هكذا تقول القصة. تعلم من الشيخ قليلاً من السحر ولكنه أراد المزيد وفشل في الاطلاع على كتاب الشيخ المحتوي على كل فنون السحر. تحايل جربير على بنت الشيخ، الجميلة جداً، وادعى حبه لها وعزمه التحول للإسلام للزواج منها، لكن الشيخ رفض تزويجه ابنته. أحبته البنت الغبية واتفقت معه على الهروب، وأقنعتها على أخذ كتاب السحر معهما لينجحا في التخفي من والدها. في الليل وضعت مخدراً في طعام والدها فنام، وفي النهاية هرب جربير بالكتاب من دون البنت. عندما أفاق الشيخ وعرف بالأمر ركب حصاناً أسرع من الريح ومعه كلبه الذي يشم الأثر تحت جسر، فلم يشمه الكلب لأنه ليس فوق الأرض أو تحت الماء، ثم طلب نجدة الشيطان وعقد معه صفقه باع روحه فيها من أجل إنقاذه،

فرماه الشيطان عبر المسافات إلى بلاده، ومعه الكتاب طبعاً". أخذت جرعة طويلة من نبيذ مالقا لأنني لم أرد تصديق ما أسمع من لؤي وأخته وكلاهما من أذكي وأصدق الناس، كما أن لؤي الآن يختلط بعلية القوم في توريد الورق والحريير والكتب، ويسافر مع أنواع عدة من البشر ويخالط الجميع. سألته عن وريث أتو الثالث، وما يقال عنه، فلم أكن أعرفه بعد ولم أسمع عنه شيئاً.

"اسمه هاينرش الثاني، ابن هاينرش المشاغب، أحد أعمام أتو. بعد موت القيصر اعترض هاينرش الثاني الجنازة وأخذ كل رموز السلطة من أختام وخواتم وتاج وألبسة، وأعلن نفسه ملكاً بدل أتو من دون أن يعترضه أحد". نظرت للنبيذ ولم تكن الشمس قد غابت تماماً بعد، وبحلقت عيني في لؤي، فضحك وواصل: "أبوه هاينرش المشاغب خطف الطفل أتو الثالث بعد موت أتو الثاني، وكان في طريقه ليتنصب ملكاً، واحتفظ بالطفل رهينة حتى أقنعوه بإطلاق سراحه مقابل مزايا في بافاريا".

اقتحمت ليان الصالون بسرعة حصان الساحر والتصقت بي وهي تلهث. نظرت للباب فإذا بقريب قد زاد طوله وانتفخ صدره واحمر وجهه، ثم عقد ذراعيه ووضع يديه تحت إبطيه، وبدا مثل أوصاف فرخ الجان.

"لماذا أغضبت قريب، كسرت الطاحونة؟"

"طاحونته خرابانة من قبل، لم أكسرها".

"طاحونتي خرابانة، سأكسر أسنانك لتمضي العيد في الفراش هذا العام". بعد وهلة سامح قريب ليان التي قفزت وتعلقت بشراع على العجل فتمزق من ثقلها. تركت الزوار ورافقت الاثنين إلى الإسطبلات ورويت لهما عن الأغر، هدية جدي، وعن هرقل، وانها أصول كل الخيول في اصطبلاتنا وإليهما يعود فضل بعض الخير الذي يعم علينا.

عبد الملك

هدأ الجميع في قرطبة ما عدا الأدباء والشعراء، أو فلنقل ما عدا المنافقين منهم، إذ صدهم عبد الملك عن مجالسه. تجارتنا في الكتب لم تتأثر سلباً من جهالة ابن المنصور، على العكس، فقد أنفق الناس ما توفر لهم من إعفاء الجباية، على شراء الكتب والعطور والملابس الفاخرة والخدم والقيان. حتى النيذ ارتفع سعره من شدة الإقبال عليه، فقد تمثلت الرعية بعبد الملك في الشراب. قلة من العلماء والشعراء الذين اصطنعهم أبوه، تواصل تقبيضهم للهبات، ولكن الحاجب لم يجالسهم ولم يجدد فيهم، وفضل عنهم مجالسة العجم والبربر الذين لا يطربون لنغم أو يقدرون علماً. اشغل نفسه أيضاً في شأن تربية فتیان العامرية، وفاق عددهم الألفين، ولم يقصر في الغزوات لاسترضاء العامة. كتب إليه المعز بن زيري بالطاعة وطلب الصفح عن عصيان أبيه مع أبيه، فأقره عبد الملك على ولاية فاس وسائر المغرب، ووصل لقرطبة من العدو أعداد إضافية ممن يصفون أنفسهم بالمجاهدين قبل موعد الصائفة، فرأيت السفر إلى دانية وفي نيتي الوصول إلى روما إذا التقيت مع لؤي ليرافقني.

على مدار أسبوعين، كنت ألتقي يومياً مع جميلة في مخازننا، نراجع السجلات ونفكر في التجديد ونستذكر الماضي في انتظار عودة لؤي. لم يفارقها الجمال أو النضارة أو قوة الجسد، وربما كانت حياتها بدون زواج وأطفال تمنحها هذه الطلعة، أو ربما كانت ذكرياتي معها وتكرار تزاورنا هو ما طبع صورتها الأولى في مخيلتي وأعجزني عن رؤية فعل السنين.

راوي قردطبة

"لؤي تزوج في ليون، وأنت في عز شبابك، وبوسعي تخبيرك بين عدة أشخاص أعرفهم، كل منهم سيقنع بالحقيقة أن لؤي أخوك وليس زوجك، وسيتمنون رضاك".

"لم يعد من طائل لهذا الحديث، الوحيد الذي رغبته زوجاً تحول إلى أخ، والأخ الفعلي تحول إلى زوج وهمي. لم أعد أشتهي النكاح، وبالتالي لا مبرر عندي للزواج لأن الستر متوفر والرزق كثير، وثقتي أنك وأولادك ستعاملونني مثل خديجة ومصبونة".

"بل أكثر من ذلك". أغلقت الحديث وبالكاد جمدت دمعة من الهطول، واختلج قلبي وأنا أضمرها من دون تحرك أية مشاعر جنسية من التصاق جسدينا.

عاد لؤي في منتصف الصيف بشحنة سكر من صقلية، وتركني أربعة أيام أستعد للسفر إلى روما حتى فاجأني أثناء تناول عشاء صنعته لنا جميلة بما يحمله. "تريد أن نسافر إلى روما للمشاهدة، أم للتجارة أم زيارة جريير؟"

"وهل هذا سؤال؟ أنت الموكل بالتجارة، ولا أتمنى من روما سوى رؤية جريير، فالزمن يمر بسرعة".

"الزمن مر بسرعة، البقية في حياتك، البابا انتقل إلى السماء الأعلى". توقف الطعام في بداية البلعوم ونزل بعضه في القصبة الهوائية، فأخذت أكح وجميلة تضربني على ظهري وتلوم لؤي لأنه لم ينتظر حتى الانتهاء من الطعام.

"إنتظرت أربعة أيام. مات يوم الثاني عشر من مايو هذا العام. وقفت في روما لإنزال ركاب وبضائع، فقالوا البابا مات قبل أسبوعين. غامرت ومكثت في المدينة يومين لأحمل إليك تفاصيل، لكن لا جديد إلا القصة القديمة".

"أية قصة قديمة؟"

"الإشاعة تملأ روما بأن استفانيا سممته هو الآخر". لا أدري لماذا

وكيف قفزنا بالحديث إلى محتويات الطعام، وهل هذه وصفة جديدة أم من وصفات كتاب جميلة.

عدت ببطء إلى قرطبة فإذا بالمدينة مكتملة الزينة احتفالاً بعودة الحاجب مظفراً من غزوة زار فيها طليطلة ومر بقبر أبيه، المنصور، في مدينة سالم، قبل أن يدمر عدة حصون ويدخل برشلونة. في مدينة سالم حضر إليه فرسان ورسل وجند من النصارى لتجديد العهد، بعثهم اذفونش وشانجة بن غرسيه زعماء الجلالقة وقشتيلية والبة. من هناك سعدوا لحصن ممقصر وأخذوه بعد قتال واستسلام، فأوكل عبد الملك بالأسرى ابن عمه، الذي حكم عليهم مثل حكم سعد بن معاذ في يهود بني قريظة بعد موقعة الخندق، قتلهم جميعاً واستثنى الإناث والأطفال.

كان عبد الملك قد منع إحراق المنازل وأعلن دفع دينارين كل شهر لمن يستوطن في أحد البيوت في الحصن على أن يوفر لهم أيضاً المحراث، فقبل الكثيرون بذلك، وهذا على عكس ما كان يفعل أبوه. لكنه في برشلونة قرر التدمير والحرق، وذلك في شهر رمضان الذي حرم الله فيه القتال، وقضى عبد الملك عيد الفطر في برشلونة، وعاد إلى الحاضرة من أول غزواته يجز خمسة آلاف وخمسمائة وسبعين رأساً من السبي، بعد أن دمر عشرات الحصون وشتت سكانها، وسجل كل التفاصيل في كتب أرسلها لتقرأ على الناس في كل مدن الأندلس. ما إن وصل لقرطبة حتى ذهب إلى الزهراء فقبل يد الخليفة وأبلغه بالانتصارات، ثم انتقل إلى قصوره في الزاهرة لاستقبال وفود المهنتين.

تبخر حلم أتو وجربير في توحيد النصارى الفرنجة والألمان، وعاد ملوك نصارى الشمال يحتكمون لعبد الملك، وأطاعه المغرب، وشمخ البربر بأنوفهم لدورهم في الغزوات وأصبحوا يتأففون من كل شيء يُمنح إليهم وكأنه ليس من مقامهم.

في بغداد مات الخليفة فاستُخلف طفله، وفي مصر تواصل جنون الحاكم بأمر الله فنوناً. هذا الحال عبر العالم، لو استمر على هذا المنوال، سيؤجل الصدام المسيحي الإسلامي. لكن إلى متى؟ حتى ينفرد

تماسك الأندلس، أو يتوحد النصارى، أو يتمنى أهل مصر أن تحكمهم
بيزنطة وتريحهم من المجنون؟

سنوات حكم عبد الملك حملت إنذارات، أو هكذا اعتبرها الكثير
من الناس، وأهملها الحاجب. في غزوته الأولى جلس تحت الشراع
يعاين الحرب وبين يديه وجوه أهل الدولة والخدام، فإذا بحجر منجنيق
يفلت ويتجه بعكس الهدف ليسقط على رأس الفتى جعفر، وكان على
بعد شبرين من عبد الملك، فشدخه لوقته وحُمل متشر الدماغ.

في العام التالي، في اليوم الأخير من ربيع الأول، كسفت الشمس
في السابعة مساءً، وظهر النجم الذوّابي، وكانت من المنجمين أقوال
عظيمة وإنذارات وتمنيات على الحاجب أن يفكر في سياسته. تذكر
الناس ما قاله زعيم صناعة المنجمين عندما ولد عبد الملك. قال: لم
يولد في الأندلس أسعد منه على أبيه وعلى نفسه وحاشيته وأرضه
وناسها، وأنها لا تزال بخير في حياته، فإن هلك ما أراها الله إلا
الضد. فلما جاء الكسوف رأى المنجمون في ذلك تأييداً.

في السنة التالية، خرج الحاجب للغزو بتاريخ توافق مع الأسبوع
الأخير من شهر يوليو 1005، فقتلوا وسبوا ودمروا وأرسلوا الكتب
بالتفاصيل لما فعلوه في سموره، مدينه خوخه، من قتل للرجال وسبي
للنساء. عندما ركبوا للعودة، غيمت السماء، وعصفت الأهواء، واستغلظ
السحاب، وتوالى الرعد وتلته قصفات شديدة، ووقعت صاعقة في مسيرة
العسكر فأحرقت بعض الجند وارتاع البقية لهذا الحدث غير المعتاد
حدوثه في الصيف. عندما أشرقت السماء اعتبر الحاجب أن ذلك إيذاناً
بالرحمة ولم يعتبر ما سبقه إنذاراً بالعقاب.

غزوة العام التالي ضد حصون شمال بربرشتر شهدت تكرار الحدث،
قتل وتشريد وسبي، وفجأة هول عظيم من مطر شديد، وبرد كبير الحجم
يضرب الجند، وبرق ورعد قاصف أفزع الناس، فخشعوا وخافوا حلول
العذاب، وجهروا لله ضارعين ألا يشمت بهم عدوهم. لما صفا الجو
عادوا هذه المرة إلى قرطبة من دون سبايا وأسلاب وغنائم، فاستقبلهم

نخاس أسواق العبيد بالتعريض "مات الجلاب مات الجلاب" مشيرين إلى المنصور ومعايرين ابنه، وطاوعهم بعض أهل قرطبة في ترديد هذه الأقاويل. لكن القرطبيين قلقوا أيضاً على عبد الملك في غزوة عام سبع وتسعين، أنبهم الضمير أنهم دفعوه لغزوة جديدة ليجلب لهم كالمعتاد، وخافوا عليه وعلى أنفسهم وجنودهم، مع توارد الأخبار بأن ملوك النصارى اتحدوا ضده هذه المرة. لكنه هزمهم مجتمعين وتلقب بعد تلك الغزوة بالمظفر وهلل أقارب الجند عند قراءة الرسائل عليهم.

دخل عبد الملك قرطبة يوم الأربعاء قبل سبعة عشر يوماً من نهاية السنة الهجرية، وتطير المنجمون شراً من ذلك لأنه وافى استعلاء زحل، بينما قرطبة برجها العذراء كما هو مصور من قدماء حكمائها على باب سور الفنطرة. وانتشرت قصة على لسان مسلمة الفيلسوف، أن صديقاً له رأى أن أهون ما يكون نتيجة لهذا هو انقلاب كامل وانتقال الدولة إلى غير أهلها وتسلط الخراب على هذه العمارة بجملتها، ويحصل قتل ذريع ومجاعة لا عهد للخلق بها. هذه الأخبار وكل ما يتصل بأقوال المنجمين كانت تصلني من والدتي ومن ماري إذ تزوران كل أسبوع منجماً جديداً للتأكد مما يحمله المستقبل، بينما تفاصيل الغزوات يطلعني خالد عليها، فقد رافق كل غزوات عبد الملك لتسجيل الوقائع بعد أن وكلته بميراث عائلتنا وعلمته أسرارها.

ملخص لبعض ما سجله ولدي يفيد بأن هزيمة شانجه في صائفة أربع وتسعين اضطرته للسلم والحضور إلى قرطبة في العام التالي وعقد الصلح بعد استقباله البهي في الزاهرة. من شروط الصلح أن يساعد شانجه المسلمين في الحرب ضد بني قومه، وخرج مع عبد الملك ذلك العام لاقتحام جليقية وتدمير أعمال بني غومس، وهدى شانجه المسلمين إلى عورات النصارى وقادهم إلى مدينة ليونه، ولكن عبد الملك عجز، مثل أبيه المنصور، عن دخولها. وسجل خالد ورود رسول في العام التالي من القسطنطينية إلى عبد الملك أثناء وجوده في مدينة سالم، يحمل هدايا وكتاباً يسأله المواصلة على مثال ملوك بني مروان وبيزنطة

راوي قرطبة

في السابق. ولم ينس ولدي وصف رسالة الملك وكتابتها بحروف ذهبية،
وقول المنافق صاعد شعراً بالمناسبة جاء فيه:
زلزلت بالمرهفات صاحب قس طنطين حتى اتقاك بالكتب
يطلب فيها رضاك مجتهداً من قبل أن يتقيك بالهرب
فليس بالفئات البعيد مع الله إذا ما هممت بالطلب
كان صاعد على الأقل مجبراً أيام المنصور أن ينشد شعراً أفضل
من هذه الركاكة والتدجيل، فمرهفات عبد الملك أبعد ما يكن عن
صاحب القسطنطينية.

انتصار عبد الملك ضد جموع النصارى وفرح أهل قرطبة من بعد
خوف حركت الخيلاء عند ابن المنصور. حمل الخليفة في نزهة إلى
الزاهرة، وكان يبعد عنه الرعية أثناء التنقلات. ثم أخبره بالرغبة في
تلقيب طفله محمد وتنقله إلى المراتب العليا في الدولة لتوطيد مستقبله
للحجاجة. أعاد الحاجب الخليفة إلى قصره، فألحقه هذا بكتاب وكأنه من
بنات أفكاره، وطلب منه نشره على الناس. بعد التسمية باسم الله ومقدمة
سجعية مطولة جاء فيها أن انتصاراته أشفت الصدور، وتمنى أن تكون
تسميته له بالمظفر بركة عليه، وكتب الخليفة: كذلك أبحنك التكني في
مجالسنا ومحافلنا وفي الكتب الجارية منك وإليك في أعمال سلطاننا
وسائر ما يجري فيه اسمك معنا ودوننا انافة بمحلك لدينا ودلالة على
مكانك منا، وكذلك شرفنا فتاك أبا عامر محمد بن المظفر لادنا أسعده
الله بالإنهاض إلى خطة الوزارتين وجمعناه بها في التكني على المشيخة
والترتيب إثرك في الدولة وأنت الحقيق منا بذلك كله وبجميل المزيد عليه
لأنك تربيتنا وسيف دولتنا وولي دعوتنا ونشأة نعمتنا وخريج أدبنا، فأظهر
ما حددناه لك في الموالي وأهل الخدمة واكتب بها إلى أقطار المملكة.

كسا عبد الملك كل الجند بهذه المناسبة التي جعلته يجمع بين
لقبين، المظفر وسيف الدولة، حسب ما عنون الخليفة كتابه، وفرحه
بتثبيت طفله للحجاجة من بعده. بل منح الشعراء، على غير عادة، صلوات

لما نظموه، ومنهم مروان الطليق، قاسم بن الشباسي، عبد الله بن زياد، هشام بن جعفر، أحمد بن محمد، وبالطبع صاعد البغدادي.

شاتية ثمان وتسعين كانت أولى شواتي عبد الملك. خرج خالد مع الجند من قرطبة يوم الإثنين الثاني عشر من صفر، واحتلوا منطقة حصن شنت مرتين. حطوا الأثقال بأمر من الحاجب، ونهضوا من فورهم إلى سكان الحصن الذين برزوا للقتال بدل التحصن. هذه الظاهرة يُعثر عليها في كتابات خالد، وربما سبب الشجاعة هو الاستماتة في الدفاع لأنهم كل مرة يُقتلون وتُسبى نساؤهم وأطفالهم. هجم المسلمون فلم يلبث الكفار وولوا الأدبار تحت السيوف. أغلقوا الأبواب واعتلوا السور وقذفوا المهاجمين بالحجارة والنبال. بعد وهلة استعد رماة سهام المسلمين، وكلما ظهرت يد من السور بحجر أو بنبل يصيبها ثلاثة أو أربعة سهام فأنحزوا. تحرك للسور بناؤون والنقابون فحفروا فيه وحلوا حجارتها من بين خشبها وحشوا الثغرات بالحطب المضرج بالقطران وأطلقوا النيران فيها. طوال يومين توالى النيران في السور والمنجنيق يقذفهم والنبال تنهال عليهم داخل الحصن حتى تصلبوا في أماكنهم وغلب عليهم العطش فعزموا على تسليم الحصن. تقدم وفد منهم وأمر عبد الملك أخاه عبد الرحمن أن يسألهم مرادهم، فطالبوا بتسليم الحصن مقابل انسحابهم بسلام.

رفض الحاجب طلبهم وأصر على الاستسلام، ولم يكن أمامهم سوى القبول. أمر عبد الملك بإخراج الجميع من مساكنهم وفصل المقاتلين عن الذرية والعيال، وركب من مجلسه إلى الحصن لمعاينتهم. نهض نحوه الرجال الأسرى ورجوا عطفه عليهم أن يأسرهم، فنظر إليهم وقال: حُكم سعد بن معاذ، وأوماً لمن حوله فوضعوا في الرجال السيف، ووزعوا سبيهم على أهل الرباط وفرسان الوفود والبربر. بعد هذا النصر المبين أمر الحاجب كاتبه أحمد بن بُرد بإنفاذ كتاب بالفتح من نسختين، واحدة للخليفة، والأخرى تقرأ على الناس.

هذه الغزوة لم تخل من تأويلات هي الأخرى. لم تهطل الأمطار أو

تهب العواصف، ولكن بالقرب من قرطبة، وفي فحص بدر، أثار غلمان الحاجب وهم عائذون خنزيراً برياً ضخماً. هرب أمامهم فتبعوه بخيلهم حتى دخل قرطبة قبل عودة عبد الملك إليها. الغلمان يطاردون الخنزير والناس يتطايرون من أمام هذا الحيوان النجس والخطير، أو يتفرجون عليه من مأمن، حتى لحقوا به أمام قصر الخلافة. قصة كهذه لا يمكن أن تمر من دون تفسيرات، وكان أعمها أن جيوش النصارى ستدخل إلى حاضرتنا. في صائفة ذلك العام مرض الحاجب في مدينة سالم، وانفض المطوعة وعادوا لمدنهم، فعاد عبد الملك خالي الوفاض. استراح بضعة أسابيع بين محرم وصفر، وأمر بشاتية سريعة يفاجئ بها شانجه الذي ارتد عليه. لم ينتظر تجمع المقاتلين، ولم يتوقع أحد أنه سيغزو هذا الشتاء ولم يكن بين عودته ومغادرته سوى شهر. أذته الحركة في اليوم الأول وعاد مرضه، وركبته ذبحة تقوى كل ساعة. وضعه خدمه وغلمانه على جنبه، وأنكروا على العسكر ما به، واحتاروا ماذا يفعلون حتى وصلهم القاضي ابن ذكوان فأشار عليهم بإعادته إلى الزاهرة. هرولوا به وتفرق الجيش بفوضى. قيل إنه مات في الطريق وسير به في العمارية ميتاً حتى دخلوا به الزاهرة، وفي الصباح أكد عبد الرحمن النبأ، لكن أهل قرطبة، مثل أهل روما، اتهموا عبد الرحمن بالإيعاز لأحد الخدم بدس السم لأخيه.

الشنجول والذلفاء

"إذا تحققت بقية النبوءات فليرحمنا الله"
" لكن يا أم سليمان لم تتحقق أية خزعبله حتى الآن مما أشيع في السنوات السابقة. المنصور مات من المرض، وابنه الغبي السكير من قلة التروي، ورغبته في رشوة الناس هي التي أخرجته للغزو قبل أن يستعيد صحته. كان الأجدد به الكف عن الخمر". أردت بهذا القول إبعاد ذهن والدتي عن مخاوفها.

"لا خزعبلات، قيل إن موت عبد الملك سي جلب لنا الدمار والمجاعات، وها هو الشنجول يرثه".

"هذه كارثة بالفعل، ولكننا ظننا أن عبد الملك كارثة، فأحبه الناس، فربما سار الشنجول في طريق أفضل، الكرسي يا أمي يغير الناس أحياناً إلى الأحسن".

"هذا كله لا يغني من جوع. الشنجول أسفل من أخيه، ولم يختره أو يرضى به أحد، والبلد على كف عفريت. الله يرضى عليك يا سليمان، نسا فر كلنا إلى مالقا مع دار عمك حتى يفرجها الله. أبوك رفض كلامي، الله يرضى عليك تقنعه لنرحل فوراً". لم أر أمي جزعة بهذا الشكل طوال حياتي، وفي كلامها شيء من الحق، فكل يوم جديد منذ موت عبد الملك يحمل مقدمات لكوارث تبدو حتمية.

"من يرحل ومن يبقى يا أم سليمان؟ نحن وأبي فقط، أم فاطمة وعائلتها، وهل ننسى بقية عائلة عمي عباس وأحفاده، وماذا نقول لعماتي وأحفادهن، وإخوتك الذين تبعوك من سدونه، وأجداد مروان الذين غيروا دينهم ليناسبونا؟ ماذا نفعل في صناعتنا ومخازننا وكتبنا ومزرعتنا

راوي قرطبة

وخيولنا وعمالنا؟" بكت أمي وهي تستعذرنني، وبدت ملامحها أكبر من سنوات عمرها الخمسة والستين وهي تردد أن الله واحد والعمر واحد. شعور الخوف من المجهول لم يصبها لوحدها، كلنا في قرطبة الآن نتحرك مثل المسطولين المشلولين عن التفكير، نلتقط الأحداث ونوهم أنفسنا بإيجابية بعضها. حتى لقاءنا السنوي هذا العام خيمت عليه المخاوف من المجهول وخفت فيه ضحكات الحضور ونحن نودع عام 1008.

"هدئي نفسك، لا تدعي الأحفاد يشعرون بالفرع. ما تقولينه فيه بعض الحقيقة وسأبحث عن حلول".

أثناء الأربعين يوماً للعزاء بالحاجب المتوفى، كان الحاجب الجديد يجاهر بالخلاعة والمجانة. بالرغم من برودة شهر ديسمبر هذا العام، خرج من منية إلى سهرة مجون في منية أخرى، ومن منتزه في النهار إلى آخر ومعه الخيالة والمغنون والمضحكون. أشيع في كل قرطبة أنه لوطي ويطلب من أصدقائه أن يركبوا بعضهم بعضاً في حضوره. كل صحبه من أهل السوء. كنا نظن أن عبد الملك جاهلاً، فإذا بهذا تحت الصفر في كل شيء.

عندما نعى أخاه إلى الخليفة قلده هذا الحجابة التي كان منحها لابن المتوفى. لاطف الخليفة حاجبه الجديد قليلاً، فأكثر الحاجب من الزيارات اليومية وأخذ هشام لنزهات بعد طول الحجر عليه. كانا يتصرفان مثل أهبل ومخبول. تقرب هشام إلى عبد الرحمن بالقول إنهما أقارب بالمخولة، كون أمهاتهم نصرانيات سبيات، فظن الحاجب أن لديهما قرابة دم، وروج أن الخليفة منحه ولاية العهد من بعده ليصبح خليفة. بعد ذات سهرة وخمر، أوعز الحاجب لمن يوشي للخليفة أنه سيطلب منه ولاية العهد رسمياً، وانه قد عزم على قتله إذا رفض. شهر ونصف على موت عبد الملك، توجه الشنجول بالقوات إلى الخليفة وأجلسه أمام الجند والأعيان، وسلمه كتاباً من إنشاء أبي حفص أحمد بن بُرد يُقر فيه هشام بولاية عهده إلى الشنجول. أشهد بالتوقيع على

الكتاب، قاضي الجماعة أحمد بن عبد الله بن ذكوان، ووقع تسعة وعشرين من الوزراء بأسمائهم من بعده، وتلاههم مائة وست وثمانون من طبقات أهل الخدمة والحكام والفقهاء.

أعلن الأمر في الأندلس، وخرجت الكتب إلى الولاة بالدعاء للخليفة وولي عهده من المنابر. اختال عبد الرحمن في ثوب الخلافة وكأنها ضمنت له، وجلس يستقبل المهنيين في الزاهرة. وصله الناس قلوبهم تغلي من دون أن يظهر في وجوههم أثر. تملقوه خوفاً، ومن ضمنهم بنو مروان أقارب هشام المبعدون عن الخلافة، وبطون قریش، وأهل الحضرة، وكل من حضر بالباب سُمح له بالدخول على ولي العهد الجديد ليبارك له. أيام قليلة أخرى فإذا بالشنجول يولي طفله عبد العزيز خطة الحجابة ويعطيه لقب عمه الميت، سيف الدولة. تقرب للبربر ولجند الأندلس، لكن كل قرطبة استهجنّت أمره، واستغربت تصرفاته هذه، خصوصاً قبل أن يغزو وأن يتتصر.

ضيق أفقه لم يمنعه من تحسس كراهية رجال الدولة، فطلب ذوي الهيئات وأمرهم بطرح القلائس التي يزينون بها هاماتهم وتميز درجاتهم منذ قرون، وليس العمائم بدل منها. أراد إهانتهم، وإشغالهم بالأمر عما يفعل، والتقرب للبربر في زيهم. حضروا إليه في اليوم التالي بأشكال تضحك وتبكي نتيجة لجهلهم بوضع العمامة، فمن لم يجد بربرياً يعلمه أو إماماً يرشده، اجتهد في صنعها. كان يوم الجمعة الرابع عشر من جمادى الأولى يوم مسخرة. تخوف النصارى الوهمي من عام 999 ونهايته التي مرت بسلام آنذاك، إنتقل إلينا الآن في الأندلس حقيقة بعد تسع سنوات. عام 399 بدأ بعودة فاشلة لعبد الملك المريض، ثم موته في الشهر التالي، وها نحن في عمق المهزلة في منتصف الشهر الخامس، والله وحده يعلم ما ستحملة الشهور التالية وكيف سينتهي قرننا الرابع.

إقتنع والدي دون اعتراض بفكرة عقد اجتماع عائلي موسع لرجال عائلتنا والمقربون في مزرعتنا شمال قرطبة. لا أذكر أنه اعترض في السنوات الأخيرة على أي مقترح أعرضه عليه، ولم نختلف إلا في رغبته

بتزويج حفيده خالد ليراني جداً، كما يقول. أحياناً أدعي أن سنوات عمري الخمسة وأربعين لا تؤهلني لهذا المنصب، وأحياناً أخرى أطلب منه أن يقنع حفيده إن استطاع. أما خالد فكان قد تهرب بإعطاء الوعد لجدته أن يتزوج عندما يصبح عمره ثلث عمر أبي، وعليه الآن وقد بلغ الثالثة والعشرين البحث عن مخرج آخر.

حضر اللقاء تسعة وعشرون من الأقارب فوق سن الثامنة عشرة ولم تكن لدى معظمهم تفاصيل عن هدف اللقاء سوى التشاور المُلح في شأن العائلة. كنت قد استشرت مروان وأخذت موافقته سلفاً، ومن حسن الحظ أنه حضر احتفالنا بنهاية هذا العام ولا زال معنا بعد أسبوعين.

"اليوم أعلن في قرطبة عن الحشد للخروج مع شنجول بغزوته الأولى. أتمنى ألا يكون أي منكم يفكر في المشاركة. الوضع مضطرب وسنحتاج هنا لكل رجل لحماية أنفسنا وعوائلنا. بصراحة لا أخفي عليكم عزمي إرسال النساء والصغار بعيداً عن قرطبة. عمي عيسى ومروان لديهما من البيوت في مالقا ما يتسع لكل عائلاتكم، حتى نتفرغ هنا لحماية بيوتنا ومصالحنا وأنفسنا". طرحت الأمر هكذا دون مقدمات فأنصت الجميع، وشرحت باختصار مخاوفي من اقتتال العامريين والأمويين والفوضى التي قد تحدث.

"كل مرة يتغير فيها حاجب نتخوف من العواقب. هم في النهاية حجاب وإذا نجح الشنجول في غزوته فلن يجروء عليه أحد من الخارج أو الداخل، وهو شاب وخليفتنا أيضاً بصحة جيدة..."

"بصحة جيدة الآن، لكن إذا نجح شنجول في الغزوة فسيقتل هشام كما قتل أخاه. الخليفة الأهل منحه ولاية العهد ووقع بذلك حكم الإعدام على نفسه. هنا سيثور بنو مروان مطالبة بورثتهم. حتى لو خنعوا، فلا خير سيرجى من هذا اللوطي". كلام خالي رمضان هذا جاء رداً على رأي ابنه عبد الحكم، وعزز من موقفي. أثناء حديثه لاحظت ميل ابن عمتي على خالد والهمس في أذنه، فوقف وأخذ القرآن من المكتبة وسلمه لرفيق سنه.

"كلام أخوالي صحيح، والوقت ضيق. سأطلعكم على سر، ربما كان أحدكم يعرفه، وقبل ذلك أريد من كل واحد أن يحلف على القرآن بالكتمان". ناول حسن المصحف إلى خالد الذي رفع عينيه إلي فأومأت إليه بأن يفعل. أقسمنا الواحد بعد الآخر وانتظرنا ما يخفيه حسن الذي يدير فندق أبيه. "بعد ابتعاد الشنجول بالجنند عن قرطبة سينقلب بنو مروان على الحكم". أنصتنا ولحظت في عينيه تردداً.

"أعرف ذلك يا حسن، والجميع أقسم على الكتمان، وكما ترى قد تصل الأمور إلى حياة أو موت، ونحن عائلة واحدة لا يجب أن نضيع تحت أقدام المتصارعين. قدم كل التفاصيل طالما أنك أخذت منا القسم". هدفت تهدئته قليلاً، ولا أدري كيف ألهمني ذهني لهذا الادعاء بالمعرفة، أدهشتني المعلومة، فأردت الإلمام بالتفاصيل.

"الذلفاء، أم عبد الملك، متأكدة أن الشنجول بإيعاز من ضررتها عبده قد سمم ابنها. تريد الانتقام لدم ولدها باستخدام بني مروان. أرسلت خادمها الصقلي، بشرى، لكبارهم، وبشرى هذا تربى في قصور المروانيين صغيراً وبقي متشيعاً لهم بعد انتقاله لخدمة العامرية. إتصل بأحفاد الناصر مشجعاً ومعلنأ عزم الذلفاء على الدفع لأية تكلفة يحتاجونها لإعداد الثورة. أرشدوا الصقلي إلى محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن الخليفة الناصر، رحمه الله". أيدت كلام حسن بإيحاءات فسكت قليلاً، ورأيت أن أعزز ادعائي بالمعرفة بما يدور لآخذ المزيد من حسن.

"هي تريد الثأر وهم يريدون الثأر لما مر بهم، فحولوها إلى محمد الذي قتل ابنها عبد الملك أباه هشام حين اتهم وزيره عيسى بتدبير انقلاب ضده. أحد الذين حرضوا عبد الملك آنذاك ضد عيسى كانت أمه الذلفاء، وقتل هشام من دون ثبوت تهمة ضده، وكان خاطفه وقاتله الشنجول بأمر من أخيه. نسيت الذلفاء دورها في التحريض وتريد الآن إقناع محمد بأخذ الثأر لأبيه من الشنجول، وأخذ الخلافة من أهلها العامريين لخصومهم من بني مروان". أضفت الاستنتاج أن كل هذه

راوي قرطبة

المؤامرة ستؤول إلى شرور على قرطبة تستوجب منا الحذر. تحولت الأنظار إلى حسن، ولم يعد لأي منا شك أنه متآمر مع جماعة محمد بن هشام.

"أخبروها عبر الصقلي أن محمداً ناقم منذ قتل أبيه، وجمع حوله طائفة من الأشرار، وبنو مروان يتقبلونه ويأملون منه فعل شيء. كل الأمور تمت بسرعة بعد ذلك. إتفق محمد مع الذلفاء، وحصل على مبايعة سرية من أقاربه، وتحرك أنصار أبيه القدامى وحركوا الكثيرين لصالحه. نلتقي ليلاً في أحواز قرطبة وبسفح الجبل في الكهوف. فور تحرك الشنجول بالقوات ستبدأ الدعاية بوثوب قائم من آل مروان، ولا يُسمح لأحد الآن بذكر اسم محمد كزعيم مُبايع. عندما تبتعد الجيوش ستكون الثورة".

"هذا معناه أن أماننا فترة لا تتعدى الشهر لإخراج عوائلنا وضبط أمورنا وتأمين بيوتنا وبضائعنا". خلال ساعتين من الحوار اتفقنا على ترحيل النساء والأطفال والرجال فوق الستين، وتخصيص مهام جمع المعلومات لكبار السن المتبقين، وتقسيم الشبان في ثلاث مجموعات متوزعة قرب تجمعات بيوتنا ومصالحنا على أن يصاحب كل فريق واحد أو أكثر من الفتيان ليربط بين الجميع وقت الحاجة. في صباح اليوم التالي خرجت عشرة بغال محملة بالكتب وأربعة حراس إلى دانيه ورافقتهم جميلة التي أطلعتها على كل المعلومات. ثم توافق في اليوم التالي خروج الشنجول للشمال، ورحيل ربعنا إلى الجنوب بإشراف مروان. استبقيت أربعة خيول لي ولخالد وقريب، وحملت البقية بعضاً من حوالى خمسين نفرًا من الأهل وحاجياتهم إلى مالقا، وأعطاني، يوسف، جد مروان مفاتيح منزله في شقنדה.

إلتقينا يوم الجمعة التالي في الجامع، حسب الاتفاق، وتبادل الجميع مصاعب الحياة بدون الأطفال والعيال. اعتدلت الصفوف جلوساً وياشر الخطيب بقول معهود عن الجهاد، ولما بلغ الدعاء للخليفة وولي عهده وقف أمامه أحد فتيان القطنين واعترضه بأعلى صوت "آش هذا

الدلس يا شيخ السوء". ابتدره القوم، وأخذه حراس إلى السجن وهو يصيح في الناس أن حكم آل عامر زائل، ومصير أنصارهم النار. سجنوه، وحكم عليه صاحب المدينة بالصلب، وصنعوا له من جذعين صليباً ربطوه عليه بجانب البوابة قبالة الناعورة. خرج الناس لمشاهدته، ووصل الخبر إلى الخليفة الذي أصبح يسكن في قصر الخلافة بقرطبة، وقيل له إن الفتى مخبول، فأمر بسجنه ريثما يعود عبد الرحمن فينظر في أمره. قادوه إلى المطبق مرة أخرى وهو يصيح "أنا لا أصلب، المصلوب غيري، وستعلمون أمره في القريب." لا أدري إذا كان هذا أحد الدعاة الشجعان، أم أنه مخبول في عقله.

الأخبار التي كانت تصلنا من الجند كل يوم كانت محبطة. الشنجول واصل الشرب والمجون أثناء المسير، وكان معه ابن الرسان الذي جعله صاحب شرطته، وهو من أسفل أهل قرطبة. يشرب الحاجب ويقول لصاحب الشرطة ناد في الناس أن أمير المؤمنين يأمركم بالجلوس على الأرض، ثم يسأله: كيف ترى الناس هل أنكر أحد شيئاً؟ فيقول ابن الرسان لا. كلما حلوا ببلد كان يطلب من سكانها أشياء على نفس الشاكلة، ويسأل ويحصل على الجواب ذاته. كان هدفه طليطلة لينطلق منها إلى غزوة في جليقية.

الثوار النهاية

أخبرنا حسن قبل أيام أن إشارة الثورة ستكون يوم وصول خبر، وبعد قراءة كتاب الشنجول بدخوله جليقية. حدث ذلك يوم الأربعاء السادس عشر من جمادى الآخرة. وقفت مع قريب وحسن وصالح، ابن أختي فاطمة، أمام القصر نسمع كتاب الفتح. شمس الصباح تنعكس على سور القصر فتصيينا من أمام ومن الخلف وتصل إلى عظم ركبي كدواء في بداية الأسبوع الأخير من فبراير 1009. لحسن حظ الثوار أن النهر عاد لمجراه، وكان قد خرج عنه الشهر الماضي من شدة الأمطار. غلب على الحضور حول القصر الرجال، ولم ينتبه صاحب المدينة، عبد الله بن عمر، لما يدور من حوله، وظن أن كل الحضور نظارة، فعاد إلى غرفته.

"أترى السيوف تحت البرانس؟ هذا من تدبير محمد، أمرهم بالانتشار متفرقين انتظاراً للوثوب. على الأرجح أن بعضهم تحرك إليه الآن بخبر وصول الكتاب". انطلق قريب لإخبار الآخرين بأن الثورة اليوم، وابتعدنا مسافة آمنة باتجاه النهر. يبدو أن آخرين أرسلوا مراسيلهم، فقد تكاثرت المتظاهرون بالتفرج على القصر وكأن جنياً وضعه فجأة هنا. أشار حسن لحوالي عشرين رجلاً حضروا عبروا القنطرة، وقال إن الذي وسطهم هو محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن الخليفة الناصر. وصل بهم إلى باب القصر الخارجي، فدخلوه وخرجوا برأس صاحب المدينة على رمح، وألقوا بجثته في الشارع لتداس. تنبه حراس القصر فأغلقوا الأبواب وأحكموها. ذهب البعض برأس عبد الله يجوبون الأسواق، وباشرت الجموع تلك أبواب القصر دون جدوى. ظهر الخليفة

على السطح وعن يمينه ويساره خادمان يحمل كل منهما مصحفاً. أشار للعامّة بيده للسكوت والاستماع إليه.

"إذهب وشأنك، ليس لنا بك، وليس الحكم من شأنك. ابن عمك أولى به، وأنت تنازلت عنه لشنجلول". إختفى الخليفة عن السطح متأكداً من اليأس، ولم يرم حراسه أي سهم على الثوار. ربما أمرهم بالهدوء، وربما شمتوا فيه لأنه تنازل للشنجلول عن ولاية العهد فخذلوه. سهم واحد في صدر محمد كان سيُنهي الثورة. استمرت محاولات نقب جدران القصر، ولم تصل نجدات من حراس الزاهرة. نادى محمد على الصقليبي، فاتن، ضابط أبواب القصر وأفنعه بكلام يوصله إلى هشام الذي استجاب لما سمع وأمر بفتح الأبواب. صاح محمد في الحضور:

"هذا ابن عمي في قصري، لا تعيشوا فيه، كفوا عن نقب الجدران وانتظروا ما سأوصله لكم من أوامر". أثناء حصار القصر كان عنازون وجزارون وسائر الغوغاء قد وصلوا من الأسواق بعد رؤيتهم لرأس عبد الله، وشاركوا في نقب الجدران، واستولوا على خزينة السلاح في غرفة صاحب المدينة. دخل محمد القصر مع ثلّة من رجاله، وترك الآخرين يحرسون البوابة. خرج الأمر الأول من صاحب القصر الجديد بتحرير المساجين من سجن العامرية، وتكاثرت الحشود من الفوضويين واللصوص ومنتهزي الفرص للنهب.

عجز الحراس عن صدّ الناس من دخول القصر، فنهبوا بعضه حتى نادى محمد بهم أن يتجهوا إلى الزاهرة ويدمروها تماماً. فجأة خلا محيط القصر من خلق الله، فقلت لرفاقي لندخل وكأننا، مثل حسن، من رجال محمد. لم يعترضنا الصقالبة حتى وجدنا محمداً ورجاله في صالة الاستقبال ومعهم هشام يبدو كالمُعَيَّب عن الوجود. تقدم حسن من محمد وأخبره بخلو الساحة وأنه سيوصل إليه فوراً الأخبار التي تصل من الزاهرة. كان الخليفة يتأسف تارة ويعرض على محمد ولاية عهده وإقضاء آل عامر تارة أخرى.

"لقد أحببت آل عامر أكثر من أهلك، وصدرت حتى سفيهم عبد الرحمن الشنجلول وأعطيته ما لم يجعله الله له، وخرجت عن عترة

راوي قرطبة

الرسول عليه الصلاة والسلام. الناس استبانوا عجزك عن القيام بأمرهم. لا مجال ونفاذ سوى أن تخلع نفسك".

"أنا خالغ لنفسي من الخلافة وراضٍ بما يفعله الله لي، وأدعو الله لك بأوقات أفضل من أوقاتي". لم يسترحم ابن عمه، ولم يطلب النجاة أو الحياة. بدا كشخص آخر غير ما يقوله عنه الناس. إنتحى جانباً يراقب وصول أقاربه من بني أمية المؤيدين لمحمد ليساعده في ترتيب شؤونه وضبط البيعة. أمر حسن بعض الصقالبة تجهيز الشمع لإنارة القصر طوال الليل، وأوعز لهم بأخذ الشمع من الجامع للاحتياط.

أعلن محمد أنه جائع، ربما لم يأكل منذ يومين وهو مختبئ في شقنده بانتظار وصول كتاب الفتح. نهض ابن عمه، الخليفة الخالغ لنفسه، وصاحبته مع صالح إلى المطبخ. طلب ممن كانوا هناك إعداد أطعمة بشكل دائم لإشباع كل من سيصل من أقاربه طوال اليوم.

"هل تذكرني يا مولاي؟"

"سليمان، كم حسدتك منذ الطفولة، هل أنت وابنك مع هذه

العصاية؟"

"بإمكانك الآن أن تصبح مثلي حراً من مسؤوليات الحكم. لكنني عبدٌ لمتطلبات أهلي وأبنائي، ولست هنا بأكثر من مراقب بالصدفة. هذا صالح ابن أختي، ولدي ولدان في قرطبة الآن". أجبته حول تساؤلاته عن بقية عائلتي وعملي ورحلاتي، ولامني على وقف زياراتي. شرحت له بتفاصيل متناهية موقع بيتنا في قرطبة، وكيفية الوصول إلى مزرعتنا. خجلت من إبلاغه بالجوء إلي إن استطاع أو تطلب الأمر، ولكنه فهم ما لم أقله. حملنا بعض الطعام، وحمل صالح وخادم خلفنا المزيد منه، وهمس هشام: "ها نحن نحمل سويًا من مطبخ بيتنا الطعام إلى اللصوص".

"ليحمي الله بيوتنا الأخرى". لم أشعر أنني أخدم الخليفة الجديد بحمل الطعام، وإنما شعرت براحة في تهوين الأمر على خليفة لم يكن يدري ما يدور من حوله. واصل الخدم حمل الأطعمة، وقبل الانتحاء مع هشام في ركن خاطبني محمد بأن حسن أبلغه أنني مسجل للتاريخ وتاجر كتب كثير الرحلات.

"هذا صحيح إن شاء الله. جدّ أبي عمل كاتباً مع جدّ أبيك الخليفة الناصر، رحمهما الله". قبل أن أكمل، وربما لحسن حظي، قاطعني محمد، وأراحني من شرح إن كنت سجلت تاريخ بني عامر.

"أريدك معنا، وسجل لنا بإنصاف، وإن كان لديك نصح فلا تبخل به". كنت كعادتي أنظر في وجه محدثي. لم يساورني شكُّ بأنه أموي، فهو يشبههم في الشقرة والبياض، وقامته تامة لكن به انحناءة. منذ سمعت باسمه من حسن، بحثت في سيرته وعرفت أن أمه مزنة، أم ولد، نصرانية الأصل اشتراها أبوه من السوق وتلقب بالعرجاء.

"سأفعل إن شاء الله، ولن أبخل بنصح أو أتردد في إعطاء مشورة إن سألتني". دخل حسن وتحدث لمحمد فوراً بأن الأخبار من الزاهرة غير مشجعة للآن. الحراس أغلقوا الأبواب بعد أن صدّوا هجوم العامة من دون إراقة دماء. نادى محمد على طرسوس المجوسي وطلب منه الانتقال إلى الزاهرة لدراسة حالها وطرق اجتياحها. همس حسن لصالح بأشياء وغادر صالح القصر في إثر طرسوس. عاد محمد للحديث أثناء تناوله الطعام. "تبدو معرفتك بابن عمي قديمة؟"

"معرفة قديمة بالفعل، ولكنها ليست متينة. قرأت معه عند شيخ واحد في الزهراء. كان جدّي، رحمه الله، يعلمه تاريخ بني أمية، وبأخذني معه. انقطعنا عن بعض إثر تنصيبه لولاية عهد أبيه الخليفة، رحمه الله. يمكنك القول إنني أعرفه لأنه خليفة، ولكنه لا يعرفني".

"ولو رأيته بالطبع قبل اليوم لما عرفته لأن العامرية أخفوه وحرّكوه كما أرادوا".

"ندرة من أهل الأندلس يعرفونه لو شاهدوه". هنا قفزت لذهني فكرة جهنمية لإنقاذ هشام من موت ينتظره بعد أخذ محمد للبيعة، فأكملت: "عندما أنظر إليه الآن وأدقق في تصرفاته، فإني أتذكر جملة من الناس يشبهونه في الجسد والملامح، كل منهم لو لبس كالخليفة لوسعه ادعاء أنه هشام". نظر محمد إلى ابن عمه الجالس على أريكة في زاوية الصالون. "أي واحد يمكنه الادعاء بذلك لأن الناس لا يعرفونه".

"بل هناك من يشبهونه وسيصعب على خدم الخليفة تمييزهم عنه،

راوي قرطبة

ربما بمساعدة بعض الأصباغ والحشوات". دخل بعض أعمام محمد بلباس فاخر، فاعتذرت وانسحبت إلى جانب هشام. "سلم أمرك لله بدون أن تستسلم. كل ما تفعله الآن بحضور أقاربك قد يحسب لك أو عليك".

"كلهم لصوص يريدون دولتي وسلطاني. مهما فعلت سينتقمون مني. سيعاقبونني لنسب أمي، أو لفعل أبي في توليتي، أو لسكوتي على العامرين".

"جُلّ أمهاتهم من نسب أمك، رحمها الله. وأنت الآن بحاجة لكسب عطفهم لتنال الحرية وترتاح من الخلافة. أحضر لمحمد ملابس خلافية، وبعض ما في القصر من هدايا. إن لم تفعل سيفعلون". فكر هشام وهلة قصيرة ثم استأذن أقاربه في المغادرة. أرسل محمد معه اثنين من رجاله وعاد ثلاثتهم يحملون دروعاً وسيوفاً مطعمة بالجواهر. تقدم هشام وألبس محمداً حلة الخلافة ووضع عمامته وبقية الهدايا أمامه، لم يعط أقاربه من الهدايا تاركاً لابن عمه مسؤولية البخل والكرم في التوزيع. ألبس محمد نفسه بقية الرموز السلطانية، وأمر بوضع بقية الهدايا جانباً من دون التكرم بأي منها لكبار أقاربه.

صدرت أوامر بالقبض على كل الوزراء وجلبهم إلى القصر، كلف الخليفة الثائر بالتنفيذ ابن عمه، محمد بن المغيرة الذي أصبح لتوه صاحب شرطة المدينة. وسمي سليمان بن هشام ولياً للعهد، وذلك قبل أن يأخذ هو البيعة من أحد. أخذ يتمشي مزهواً في الصالون بحلته الجديدة.

"ماذا لدى راوينا من أخبار الخلفاء والملوك؟" كان يقصدني، ولم يعجبني وصفه لي براويته. فاجأني السؤال في وقت كنت أتوقع فيه أي حديث آخر غير هذا. انفتحت في ذهني نافذة واحدة فشلت في إغلاقها أو فتح غيرها، ولم يسعني طول السكوت.

"أحدث أخبار الخليفة الفاطمي أمره بهدم كنيسة القيامة في القدس". إلتفت إلى الرؤوس لهذه البداية بصوت مرتفع.

"أنت تمزح طبعاً حتى ذلك المجنون لن يفعلها". ضحك الحضور

لتعليق محمد.

"بل فعلها، ولم الاستغراب. لقد أجبر النصارى على أن يميزوا أنفسهم باللباس، ووضع في رقاب اليهود أجراساً ومنع غير المسلمين من ركوب الدواب".

"لكن لماذا يهدم أعظم الكنائس للنصارى من رعيته ويستشير بقية النصارى من جيرانه في بيزنطه؟" لم أتعرف على شخصية السائل، وبدا من شيوخ المروانيين وكبارهم.

"أولا لأنه مجنون، ثانياً فأمر الهدم يتبع أمره بإكراه اليهود والنصارى على اعتناق الإسلام، ومن يرفض يموت أو يرحل. بالنسبة له لم تعد هناك ضرورة لكنيسة القيامة في فلسطين الفاطمية". أردت الحديث عن الفوضى في روما وبلطجة هاينرش الألماني على الحكم، فإذا بطرسوس يدخل الصالون ويتحدث بصوت خافت مع زعيمه، بالطبع عن الوضع في الزاهرة.

"إذا صمدت الزاهرة خلف أسوارها، لن أحصل على البيعة الشاملة كما أريد، ولن ييأس الشنجول. أريد إزالتها من الوجود. إذهب إلى خدامها نظيف ونصر المظفري وأخبرهما أنها ستنقب حجراً حجراً وسينتهي أمرها غداً أرضاً قاحلة. أخبرهما إن أرادا الأمان والنجاة، فعليهما ترك المدينة ليلاً عبر النهر بما يتمكنون من حمله وسأغفر لهما تصديهما للناس اليوم. أحشد عليها طوال الليل وأشع في الناس، من يعثر على غنيمة في الزاهرة فهي حلال عليه". لم تكن هناك فرصة لتدخل ووساطة أحد من الحضور. من وجهة نظره فرأيه صحيح، ولكن هدر الأموال التي تحتويها الزاهرة وترك سبعمائة من حراسها وجموع أهلها يخرجون بما خف وزنه وغلا ثمنه، وإهداء المحتويات الباقية للنهابة الفاتحين، لن يخدم خزانة دولة محمد، ولن يجد الدنانير للدفع لجنوده ورشوة الناس ليلتفوا من حوله.

"أعذر تدخلني. لو أعطيت الحراس الأمان إذا حافظوا على خزائن المال، وتوعدتهم بالقتل إذا واصلوا الدفاع، لفهموا الإنذار وعرفوا أن حمايتهم للمال ستحميهم. إذا هربوا بالمال أو تركوه خوفاً على حياتهم، فربما وصلته أيدي العامة قبل جندك. دولتكم ستكون بحاجة ماسة لكل دينار". إستحسن الرأي وعدّل أوامره.

غابت الشمس وأنارت الشموع القصر، وتقدم مشايخ المروانية وأعمام محمد لبيعته. ثم توارد وجوه الناس من الوزراء الأسرى وطبقات أهل الخدمة ومن يليهم من الحكام والقضاة والفقهاء. وصلوا فرادى وجماعات إلى القصر مصحوبين بأصحاب محمد الذين يرسلهم تبعاً إلى بيوتهم ليحضروهم طمعاً أو كراهية. يحدثهم محمد بقيامه وأهدافه ضد فساد آل عامر عديمي التربية عدا علم اللصوصية، ويخبرهم أن هشام تسرع وخلع نفسه بعد أن اعترف بعجزه. طلب أبو عمر بن عبد الملك، أن يسأل هشام في خلع نفسه، فقرأ عليه هشام: "قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء..." حتى آخر الآية، فأعتبر ذلك إقراراً، ولقب محمد بن هشام نفسه بالخليفة المهدي، وهو لقب شيعي لم يحمله أموي من قبله.

في الصباح ذهبنا بدون حسن إلى الزاهرة. حول الأسوار تجمعت جماهير لم أكن أظن أن مدينتنا تحتوي أعدادهم. لم يبق في البيوت سوى المرضى وبعض العميان، وليس كلهم، والعجائز والخوافين من خيالهم وكل إنسان يحترم نفسه ويخاف ربه. اليوم لا خوف على بيوتنا ومحلاتنا فكل اللصوص هنا. توقف دكّ الجدران والأبواب، وصاح عبد الجبار، وهو ابن عم آخر لمحمد وعينه بالأمس حاجباً، إن الخليفة منح الأمان لسكان الزاهرة، فافتحوا الأبواب واخرجوا بسلام. تمنع أهل الزاهرة، فإذا بالعامّة قد دخلوا قصر الذلفاء على جانب الزاهرة ومعها ابن عبد الملك، فنهبوه وطرّدوا الذلفاء وأخذوا أمتعتها وهي التي ساهمت في صنع الثورة وحرّضت عليها ومولتها، لكن النهاية لم يعثروا على دينار واحد في قصرها. خاف جند الزاهرة مما شاهدوه للتو، فطلبوا من عبد الجبار كتاباً خطياً من الخليفة الجديد بالعفو، فجلبه لهم على وجه السرعة.

فُتحت الأبواب وسط هدير العامّة واندفعوا كالطوفان من خلف سدّ مهديم. انضم عبد الجبار إلى جند العامرية في حراسة الخزائن وبيوت المال وأسرة الحرم. عجز مع جنده الجدد عن منع النهب، وكان قد سجلهم في الصباح كجنود وفرسان وسلمهم الأسلحة وسار بهم للزاهرة

من دون تدريب. أصبح عدد المغادرين للمدينة محملين بما قدروا عليه، أكثر من أعداد الداخلين إليها.

طوال ثلاثة أيام انتقل من الزاهرة إلى قصر الخلافة في قرطبة خمسة آلاف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار، مع ألف ألف دينار من الذهب وخمسمائة ألف دينار. وعثر لاحقاً على خوابي تحت الأرض بها مائتا ألف دينار. في اليوم الثالث أذن بخلع وبيع الأبواب والحجارة. القرطبي الذي لم يدخل بيته نهبا من الزاهرة، دخله أكثر من ذلك شراء لبعض محتوياتها المنهوبة والمباعة في الأسواق .

تدفق الناس إلى القصر يبائعون محمداً تدفق الفراش على النار. رأينا في خليفتنا عودة لما خبرناه وسمعناه عن أمجاد أمراء بني أمية، واستعاضة عن طيش آل عامر، وخصوصاً الشنجول الذي تجرأ باغتصاب الخلافة. لم يتخلف عن مبايعة الخليفة الجديد وعن أخذ ماله واستحلال نهبه أي فقيه ولا عالم ولا إمام أو حاج أو تاجر، بل كلهم حملوا السلاح إلى جانب اللصوص والنهابين استعداداً لصدّ الشنجول إذا فكر في العودة.

ميز الخليفة في تعامله مع حرم آل عامر، أطلق حرائرهن واصطفى الإماء منهن لنفسه، ووهب قلة لوزرائه الجدد وأصحابه، وتساوى في ذلك مع الذين قام عليهم. أما الذلفاء وابن ابنها وجماعتها، فأذن لهم بنزول دارها بجوفي المدينة، وأطلقت يدها في مالها الذي أخفته قبل الثورة. كم تمنيت الوصول إليها لمجرد السؤال إذا كان هذا الشار والانتقام هو ما تمنته أو توقعته. على كل حال يمكن القول إنها ساهمت بما فعلت، في تحقيق رؤية زوجها المنصور لمستقبل الزاهرة بأنها سوف تُدك وتُطمس وتُنقض أحجارها وتلقى في النهر.

نبوءات تتحقق

أقيمت الزاهرة مُنافسة للزهراء، وبنها المنصور في ثلاث سنوات. بعد ثلاثين سنة شاهدها تُدمر في ثلاثة أيام ومُحيت من الوجود في أسبوع وكأن الجانّ رفعوها وأخذوها لمكان آخر. حديث الجوامع الآن هو قصة الفقيه القبري الذي نفاه المنصور وعاد لقرطبة بعد موته. مر الفقيه بالزاهرة مع بعض أصحابه بعد مغادرة الشنجول للغزو. وقف يتأملها وقال: "يا دار، فيك من كل دار، جعل الله منك في كل دار". هذه الدعوة تحققت في بحر شهر من نطق الفقيه لها، ليته دعا بشيء أفضل.

روايات الجند الذين رافقوا شنجول في غزوته الشتوية التعسة لم تخلُ هي الأخرى من الأقاويل. زعموا أن تلذذه باسم ولاية العهد كان عنده أفضل من التسييح لخالقه. ليلة دخولهم جليقية وقف شرطيه ابن الرسان بالباب ونادى عليه: "أيها المأمون، يا أمير المؤمنين، لقد أرسلنا الكتاب بالفتح المبين". بعد أيام وافاه الخبر بما فعل محمد، وتوالت عليه بقيتها تباعاً، فارتعب وجزع. تحرك إلى قلعة رباح وكتب لأهل طليطلة يستسمح ويتنازل عن ولاية العهد ويستنجدهم للخليفة المخلوع ولنصرة أهل قرطبة، ولكنهم تجاهلوه. من منبر جامع القلعة استحلف أبو الحدا القادة نصرتهم لولي العهد، فردوا عليه بأنهم حلفوا سابقاً وما جدوى التكرار.

كل يوم مرّ عاظم البربر جزعاً، إذ تركوا عوائلهم في قرطبة، ولو قاتلوا أهلها مع الشنجول، كما يطلب منهم، لانتقم الناس من أهلهم. تعاهدوا سراً على تسليمه للخليفة الجديد، أو على الأقل الانفكاك عنه.

أما القاضي أبو العباس ابن ذكوان فقد عجز عن إقناع شنجول بعدم الطلب من الجيش قتال أهل قرطبة وأخذهم بذب القلة. ونُسب لعكاشة بن ناصر حلفه بالطلاق ألا يقاتل مع شنجول لأنه سمعه يقول لمؤذن، لو قلت حي على الكأس لكان أفضل.

وصلت للجندي والبربر الأخبار برفع أموال الزاهرة، فلم يعد شنجول قادراً على إغراء أحد. أكثر من كتابة الصكوك والتعيينات والترفيح ففاقت الخمسة آلاف، من دون جدوى. بعض قادة البربر صدقوه القول إنهم سيتخلون عنه صوتاً لعيالهم، ونصحوه بالعودة للشغور والبقاء، عند الفتى العامري واضح، في مدينة سالم. ابن غومس الذي صاحبه ببعض جنود النصارى نصحه أيضاً بالقول إلى واضح وتدبير الأمر بترو، لكنه اغتوى ورفض. لم يكن يعرف الإشاعات التي دسها محمد بين جنده عن عطايه للناس وللجندي وكثرة الأموال التي تنتظرهم إن تركوه، ولا عرف تأثر الجندي بالأخبار التي تصلهم عن حب الناس وتأبيدهم لمحمد وتجندهم لحمايته.

سار بالجندي الذين يتناقص عددهم كل ليلة. بالقرب من قرطبة، في منزل هاني، انسل عنه البربر ليلاً وعادوا إلى قرطبة. معظمهم تخفف من أثقاله وأسرع إلى أهله، ومنهم جماعة أبي زيد بن دوناس، وزير ابن عرابه وجماعته، وحباسه بن ماكسن ووزير الصنهاجي، أكابر أمراء البربر. انقلب عليه تلك الليلة أيضاً القاضي ووجوه الصقالبة والأندلسيون وبقي شنجول مع نفر من خدمه وحريمه وابن غومس وجنده النصارى. سأله ابن غومس الانسحاب قبل الفجر، فرفض وكان يأمل في عفو من محمد، إذ وُكِّل القاضي وخزرون بن محرز ونصر بن أحمد أن يحصلوا له على الأمان. في الصباح وجد نفسه وحيداً، صمد إلى جانبه سبعون جارية صحبهن معه بعدد الليالي المقدرة للغزوة، ولم يتخل عنه ابن غومس لكنه سرح جنوده قبل وقوع المحتوم. واصل الشنجول مسيره خلف الحريم حتى وصلوا قصر ارملاط، على مسيرة ساعات من الحاضرة، ليجد أن الخدم قد غادروه. وضع حرمه هناك وودعهن وخرج

راوي قرطبة

وصراخهن يتبعه. هرب خوفاً من القبض عليه إذ خانته بقية شجاعته في اللحظات الأخيرة، أو ربما أفاق من خبله. تبعه شانجه بن غومس ودخلا في المساء إلى دير أسعفهما فيه الراهب من الجوع بخبزه ودجاجة مشوية فلم يكملا أكلها من شدة التعب والجزع.

بلغ الخبر محمداً في قصر الخلافة، فأرسل حاجب الخيل، ابن ذرى، وعمر بن أحمد، وبضعة فرسان في إثره. حسب رواية عمر لما حدث، أنهم وصلوا ارملاط فوجدوا الجوارى وأرسلوهن إلى قرطبة. تبعوا أثر شنجول، فقابلهم رجل كان قد راقب هروبه وتبعه حتى رآه يدخل الدير، فصحبهم إلى هناك. وصلته طليعة منهم فقال لهم: "ما لكم علي من سبيل، أنا في طاعة المهدي". استنزلوه من الدير وأشاروا إلى ابن ذرى في انتظاره وطمأنوا الشنجول أنه سينال ما يحبه. وصل شنجول لحاجب الخيل فنزل وقبل الأرض أمامه. قال بعضهم: "قبل حافر دابته" فقبلها. "قبل يد الحاجب ورجله" فقبلهما. نزعوا قلنسوته عن رأسه وساروا به. أما ابن غومس فقد نظر وصمت ولم ينطق بحرف.

قال عمر بن أحمد: "سرنا إلى أن غربت الشمس، فقلت للحاجب لو عدينا للواد توضحاً واصلينا، فقال نعم، فنزلنا فيه. أشار الحاجب بكتاف شنجول فقلت له أعط كتافك فإن أمير المؤمنين المهدي أمر ألا تحمل إليه إلا مكتوفاً".

"أين أمانكم لي، لقد كلفت القاضي وخزرون بأخذ الأمان من المهدي".

"قالوا للمهدي فيك أسوأ مما تظن، بل كانوا من أشد الناس عليك، فلم تحصل على أمان. لا بد من تكتيفك". ربطوا يديه ربطاً شديداً.

"نفسوا عني قليلاً".

تقول رواية عمر أنهم نفسوا رباط يديه، فطلب بعد وهلة فك يديه ليستريح ساعة، فكوه. "لما عدنا لتكتيفه سقط من كم قميصه سكيناً أراد به قطع الحبال ليلاً، فأمر الحاجب بقتله على الفور"، خوفاً من فشل

المهمة وتحمل عقاب المهدي لو أفلت الشنجول. "ضربته بالسيف فلم يبتز رأسه، وضربه الحاجب فلم يصنع شيئاً. أضجعتة على ركبتيه وقلت له، كذا قُتل أبوك لا رحمه الله، أبي رضي الله عنه، ثم ذبحته ذبحاً، وقتلنا ابن غومس بعده وبقي صامتاً لا ينطق. حملنا رأس شنجول تلك الليلة إلى محمد، فأمر بإعادته إلى جسده وإحضاره إلى قرطبة وشقّ بطنه ونزع ما فيه وحشوه بعقاقير تحفظه. ففعلنا ذلك وركبنا رأسه على جسده، وكسوناه قميصاً وسروالاً، وربط فوق بغل على خشبة ودار به صاحب شرطته، ابن الرسان، في الشوارع ينادي عليه: هذا شنجول المغبون، لعنه الله، وأنا ابن الرسان عليّ أشد لعنات الله". كان ذلك بأمر من الخليفة الجديد عقاباً لابن الرسان على مناداته لشنجول بأمر المؤمنين.

في الرابع من رجب انتهى مطاف الشنجول على الصليب الذي صنّع للفتى الذي اعترض دعاء الشيخ في الجامع، إذ بقي الجذع قرب باب السدة قبالة الناعورة، فصلبوا الجثة عليه، وشوهد بعض السفلة يُعرون سرواله ويصقون في دبره بينما العامة تتضحك من فعلهم.

طوال أسبوع تلا عمّ السرور بعض أهل قرطبة، وخيم الترقب على بعضهم الآخر. كثرت الولايم والأعراس في المدينة وأرباضها، وتنقلت فرق بالمزامير والملاهي من موضع إلى آخر. أحياناً لم يكن في الجامع الكبير سوى جماعتنا نلتقي لتداول أمورنا ونخطط لغدنا. بصعوبة كنت أقنع شباننا أن الأمر لم ينته بعد، وأن قرار الرحيل للعائلات لو كان خاطئاً فهو فرصة لهم لقضاء بقية الشتاء في مالقا والعودة في مطلع الربيع. لم أعد لدخول القصر بعد اليوم الأول إذ استحال الاقتراب من أبوابه، وكثر تواجد السفلة والزبالين والجزارين وكل من ظن أنه ساهم في صنع الثورة، صنع من نفسه حارساً ومحققاً من دون تدريب أو تكليف. مع عودة الجند، باشروا بالتوافد على القصر للاستئمان، ولم يفرق الثوار بين كبير وصغير واستخفّوا بالجميع وأسمعهم التوبيخ وعبأوا قلوبهم حقداً وأذكروهم كيف كان يعاملهم الحجاب باحترام في الدول السابقة.

راوي قرطبة

يوم الجمعة أخبرنا حسن أن المهدي أمر ألا يدخل القصر راكب أو حامل سلاح. فسرنا ذلك بتخوفه الاغتيال من بعض الجند. هذا الأمر لم يعلن على الملأ. في اليوم التالي شاهدت زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي يقترب على فرسه بكامل عدته الحربية. زاوي هذا ممن أيدوا العامريين في العدو ووقف ضد ابن عمه آنذاك، وهو من أمراء قومه، لكن المنصور رفض إدخاله للأندلس في حينه خشية من مكره وصيته وقوته. عبد الملك افتتح عهده بالموافقة على إدخال زاوي وأبناء عمه ورجاله، وأسكنهم الرصافة بقرطبة.

اقترب الشيخ يتقدم جماعة من صحبه من بوابة القصر، فصدّوه. عاود الكرّة فضربوا فرسه على رأسها، صرخ عليهم "أنا زاوي، هذه رأسي فاضربوها، لا ذنب للدابة فكفوا عنها. لعنكم الله من سفلة". استدار وأسند رجاله واقتحموا الجموع مغادرين محيط القصر وقد تعكر لباسه وخلعت عمامته.

استمر هيجان الثوار المنصّبين لأنفسهم حراساً: "من يظن نفسه؟"
"برابر سفهاء يصفوننا بالسفلة؟"

"ألم يسمعوا أمر مولانا المهدي، لا يركبن أحد من الغزاة ولا يحمل سلاحاً إلى القصر؟" استعدت بالله من الشيطان، وانسحبت مع صالح إلى ساحة المسجد. قبيل صلاة العصر دخل ابني قريب راكضاً وهمس لنا: "الرصافة اشتعلت. الثوار ينهبون بيوت البربر وحریمهم تولول".

"توضاً يا ولدي ودعنا نصلي العصر سوياً". لم أكن بحاجة لإشعار ابني وابن أختي أن بربر الرصافة هم رؤساء القوم.

"الحمد لله على سفر أهلنا". قال صالح، فحادثه عن بيت أحوال أمه في شذونه والأسرار الرومانية تحته، إندهش، فأخبرته إنه سر جدته وإن أبناء أحوالي لا يعرفون به، فتعهد بالكتمان. سألته إذا كان قد أقام علاقات مع فتيات هناك عندما تعلم الفروسية في قلعتها، فخفض رأسه واحمر وجهه خجلاً. صالح هو الابن الثالث لأختي وابن عمي سعيد،

وكان من المفترض أن يسافر إلى مالقا، ولكنه استجار بي فأجرته بالبقاء وعاهدت فاطمة على ألا يغادر عيوني.

إلتأم جمعنا على صلاة المغرب، ولم نكثر الحديث. نصحت الجميع ببيع ما يمكن بيعه، وبعدهم الاقتراب من حالات الفوضى وإنما المراقبة من بعيد. في هذا المساء وطوال الليل رافقني وجه أبي، وتردد في أذني صدى صوته وهو يودعنا: "اللهم لا تُرني مكروهاً في ذريتي ولا في قرطبة". في الصباح اصطحبت ولدي وابن أختي لزيارة قبر جدّي وزوجته، حملنا تمراً لنوزعه على الفقراء المتواجدين كالعادة في المقابر، فلم نجد أياً منهم.

عدنا لقرطبة فإذا بهم يطوفون برؤوس ثلاثة، وينادي عليهم بأنهم الذين نهبوا بيوت الرصافة، وهذا المصير سيواجه كل من يتعرض للبربر. قال من ساروا مع الركب إن المهدي استقبل زاوي ومعه حبوس وحباسه ابنا ماكس، وأبا الفتوح بن ناصر، واعتذر لهم ووعدهم بإعادة المنهوب وتعويضهم والمناذاة بقتل من يتعرض بربرياً. كنت متأكداً أن هذه خطوة متأخرة، فالبربري لا يرضيه تعويض مالي، ولا يؤمن لمن روع عياله وأنكر فضله، لقد تأبطوا شراً ولا نجاة سوى إخراجهم إلى العدو في غمضة عين. هذا مستحيل، ولو حدث، فلن يكفهم مضيق طارق عنّا. لم أخبر الشبان بما يدور في ذهني متمنياً خطأ الاجتهاد.

الفتنة

الشهر التالي، رجب، لم يكن أرحم علينا من سابقه. سليمان بن هشام، وليّ العهد الجديد من سلالة الخليفة الناصر، استاء من تصرفات خليفته وانتهز فرصة إساءته للبربر فأخذ يسعى عند رؤسائهم ضده. خدمه في ذلك أن المهدي أقصى سبعة آلاف بربري عن الجند المرتزقة، ونفى فتيان عامريين عن قرطبة فارتحلوا إلى شرق البلاد بما يملكون، وتزعموا هناك فور حلولهم بالمدن. بسرعة البرق فُضح مخطط وليّ العهد. إلتقى مؤيدو الطرفين في فحص السرادق، ليس استعداداً لغزوة للشمال، وإنما لحسم الخلاف بالقتال. إشتبك أنصار الجبهتين، فقتل جماعةً وليّ العهد وزيرين للخليفة، هما خالد بن طريف، ومحمد بن ذرى، حاجب الخيل إياه، ورفعوا رأسيهما. إنحاز الناس كل إلى فريق وانضم البربر إلى وليّ العهد وساروا لحصار المهدي في قصره. أرسل الخليفة إلى وليّ العهد قاضيه ابن ذكوان وأبي عمر بن حزم. عرفنا أنهما قبحا عمله وحذراه من الفتنة، ولكنه أغلق أذنيه وقال لابن حزم إنه أحق وأولى بالخلافة فانصرفا عنه وقد يشا من إقناعه.

جاء الدور على أهل المعارضة لينهبوا، فما إن تحرك عنهم الوسطاء حتى ذهب الزعماء ومؤيدوهم من العامة، وانضم إليهم بعض الجند، والبربر فأحرقوا سوق السرادق وداروا حول الحاضرة واجتازوا القنطرة من شقنده إلى القصر، فإذا بالعامة من الربض الغربي قد وقفوا للدفاع عن خليفتهم. اختلط الفريقان وارتفعت أصوات، "يقول لكم زيري فروا". فشل الهجوم واعتقل القادة وقطعت رؤوسهم أمام المهدي وفرّ البربر إلى بيوتهم، فحملوا عوائلهم وانسحبوا إلى ارملاط. إنصب غضب

العامّة على البربر وحملوهم مسؤوليّة هذه الفتنة، ولم يتبصر المهدي ذلك اليوم، بل نادى مناديه في الناس، أنّ من يحمل إليه رأس بربري سيقبض عشرة دنانير. كل من يقدر من الرعاع على القتل انحاز على من تيسر له، دُبح أناس في بيوتهم، وهُتكت أعراض الحريم، وسُبيت البنات، وسُحل البعض خلف الخيول في الشوارع، وقُتل قوم من أهل خراسان والشام على أنهم بربر. من لم يهرب أو يعثر على من يحميه ويخفيه عاش في رعب.

بعد يومين نادى منادي الخليفة بتأمين البربر ووضع السيف فيمن يعترضهم. محمد المغراوي ونفر من أبناء عمومته الذين اختفوا في المدينة عادوا للظهور واستقبلهم الخليفة وألبسهم القلانس والأردية وأمرهم بإزالة العمائم، حماية لهم من العامة، ففعلوا. أما البكري فركب بأمر من الخليفة في إثر البربر الفارين ووجدهم قد غادروا ارملاط في الطريق إلى قلعة رباح. عرض عليهم العفو فقالوا له: لو لم تكن رسولاً لقتلناك، وسيعاقب الله المهدي على أفعاله. لم يقل البكري بعد عودته للناس في قرطبة إنهم رفضوا العودة، إدعى أن الخليفة عفا عن البربر بشرط أن يعودوا إلى البلدان بعيداً عن الحاضرة، حرّاثين كما كانوا.

في منتصف الشهر زارنا مروان من مالقا حاملاً ما كان قلبي يتوجسه منذ مساء ذلك السبت. "حملني عمك ثلاثة أبناء، واحد يحزنك، ولكنه حكم الله، واثان يهونان عليك".

"في مساء السبت الأخير من الشهر الماضي انتقل والدي إلى جوار ربه. هذه حدستها، فما هي بقية ما تحمل من الأنباء؟" دُهش مروان إذ كان قد سأل غيري قبل تبليغي وتأكد من عدم معرفتي بوفاة والدي.

"يخبرك أبي أننا دفناه في المقبرة الجميلة التي تجولتما فيها في أول زيارتك إلى مالقا. الخبر الثالث، أن عمي لم يسمع بما دار هنا من قبائح". هوّنت التفاصيل عني قليلاً ووصفت لولدي جمال تلك المقبرة وشبهها بالحدائق وكثرة زهورها. أكد لي مروان أنه ترك والدتي بصحة جيدة ولا داعي للإسراع في رؤيتها. انصبت أفكارها كلها بحثاً عن إجابة

راوي قرطبة

لسؤال، إلى متى سنبقى هنا، وما جدوى البقاء، فقرطبة لم ولن تعود قرطبة. عُقد مجلس العزاء في بيتنا، واختصرته لثلاثة أيام، فلم يعد الحزن يعني أي شيء في هذه المدينة. في يوم العزاء الأخير أبلغت الأقارب عزمي على الرحيل، ولم أترك مجالاً للظن أنني أنوي زيارة أمي وسأعود. "قرطبة لم تعد آمنة، ولا تأثير لنا في القرارات المتخذة من المتصارعين. مس من الجنون أصاب الأغلبية، والغلبة الآن للفوضويين".

"البربر رحلوا، وواضح أرسل من مدينة سالم تأييده للمهدي وأصبح أمراً على كل الثغور، ونحن هنا نستطيع حماية أنفسنا كما فعلنا للآن". لم يكن عبد الحكم ابن خالي رمضان وحيداً في رؤيته ووطنه بزوال الغمة.

"أريد القول بوضوح إن قرار رحيلي سببه الخوف من عواقب الفوضى، ولا علاقة له بموت الوالد أو رغبتني بالسفر لمواساة والدتي. سأخذ صالح وقريب وخالد، وأنصحكم بمرافقتي، ومن يلتزم بالأمر مني فليعتبر رغبتني أمراً. فكروا في شؤونكم وليقرر كل منكم ما يريد أثناء اليومين القادمين. بالطبع يمكن لأي واحد اللحاق بنا متى أراد، وسنحافظ على تواصل بين قرطبة ومالقا". في وقت متأخر ذلك المساء طلبت من خسوس الاستعداد للسفر. "رفضت الذهاب مع خوخي والبنات، والآن ستسافر وماري معنا".

"لن تقبل، إن أفنعتها فلن أمانع. المزرعة تدار من الشركاء منذ عشر سنوات، ونصيبنا يصلنا إلى البيت. لا يوجد ما يعيقنا سوى ماري". "بصراحة لا أفهم تغير حالها، كانت طوال حياتها في مقدمة الخائفين ولا تتورع عن مغادرة البيت هرباً من الأمطار، والآن لا ترهبها الدماء الجارية والرؤوس المرفوعة على الرماح والجثث المصلوبة. أخبرها الليلة بسوء ترك خوخي والأحفاد لوحدهم، وطمئنتها أننا سنعود. سأسلط عليها قريب غداً ليهون عليها المخاوف من الرحلة". قبل ظهر اليوم التالي التحق بنا قريب في المزرعة فرحاً بأنه أقنعها.

"قلت لها الموت قادم لقرطبة بتأكيد من ثلاثة منجمين، وإذا لم ترافقنا سألني هنا معنا وسأمت فوافقت، لكنها أخذت مني وعداً بالعودة متى طلبت ذلك". حمدت الله، فلو عدنا بدون ماري وخسوس ستقيم لنا خوخي مناخه ولن تصدق أنهما بين الأحياء. تقبل قريب السفر بسهولة لتعلقه بأمه وأخته، وبعد زوال عقبة مرافقة جدية. التردد ظهر في تصرفات خالد، كثرت أسئلته كيف سيكتب التاريخ بعيداً عن أرض الحدث؟ وهل يحسن العمال تدبير المزرعة في غيابنا؟ أقنعت بالحلول لتلك المشاكل، وصارحت أن الإزعاج الحقيقي له غير منطقي: "لا تجعل قرار البعض بالبقاء هنا يقلقك. الفرق جلي بين الشجاعة والتعقل. لو هجم علينا أعداء حقيقيون الآن، نصارى الشمال أو الفايكنج أو حتى جيوش فاطمية، لركبت معك وقريب في أول المدافعين دون وجل على حياة. ما يدور الآن يختلف تماماً، أنا عاجز عن تحديد المخطئ من الحياة. هذه حرب أهلية لن تتوقف، بل عناصرها يا ولدي غير ثابتة. بدأت من محمد والذلفاء، وهما متضادان، وتطورت من أموية ضد عامرية إلى معاداة البربر، ووصلت الآن لتحالف بربر وأمويين ضد أمويين وعامريين. عامة الأندلسيين من عرب ومولدين توزعت وتغيرت ولائهم مراراً في ثلاثة شهور، النصارى والموزراب هم الوحيدون الآن خارج هذا الجنون، ولكن إلى متى؟ توكل على الله في الرحيل، ولن يمنعك أحد من التنقل بين مالقا وقرطبة ست مرات في العام. لقد قطعت المسافة مع عمي عيسى وأنا طفل في يومين وليلة". تلمست القبول في ملامح ولدي البكر، ورحلنا محمّلين بالقليل من حاجيات بيتنا. عدا صالح وولدي وجديهما، أقنعت الآخرين بإرسال أصغر شاب من كل عائلة ليكونوا في عون أهلهم في مالقا، ولتتعرفوا على الطريق.

تسارعت الأحداث بوصول البربر إلى قلعة رباح. عثروا هناك على أمير أموي اسمه سليمان بن الحكم بن سليمان، وهو ابن عم لولي العهد المقتول، عمره اثنان وخمسون سنة، وأمّه رومية أم ولد اسمها ظبية. في شهر شعبان بايعوه خليفة ولقبوه المستعين بالله. قدروا قواتهم فتأكدوا من

راوي قرطبة

ضعفها، فقرروا النهوض إلى مدن الثغور طمعاً في الدعم لفتح قرطبة وتنصيب المستعين بدل المهدي.

مع خروج البربر وقبل تسرب أنباء الخلافة الجديدة وما تُعده لأهل قرطبة، استشعر خليفتنا القوة فأعلن موت الخليفة هشام. حامل هذا الخبر كان في طريقه إلى سبته وبلغنا في فندق أبي الفضل قرب انتيقيره. كان صديقنا أبو الفضل قد انتقل إلى رحمة ربه، ويدير الفندق الآن الصبي اليتيم الذي تبناه في قرطبة مع السبية التي اشتراها. تزوج اليتيم والفتاة، وأصبحت زوجة أبي الفضل جدةً ليافعين. قال الرجل حامل خبر موت هشام إن المهدي أدخل على الجثة وزراء فعابنوا الخليفة المخلوع ميتاً، ولم يجدوا فيه آثار خنق أو طعن، فأعلنوا ذلك، وصلّوا عليه في القصر وأمامهم في ذلك القاضي ابن ذكوان، ودفنوه وعزّوا أقاربه وتقبلوا عزاءه. لم أصدق أياً من ذلك، بل لم أقرأ الفاتحة له، إذ كنت أشعر بأنه حي يرزق وأن محمداً استفاد من نصيحتي.

المأساة

وصل البربر أطراف مدينة وادي الحجارة، كاتب المستعين أهلها بالطاعة فأبوا، وأرسلوا الكتاب إلى المهدي. اقتربوا من مدينة سالم فخرج لهم واضح ليصدّهم، فإذا بأربعمائة من جنده البربر ينضمون إلى إخوانهم، واتجه جمعهم إلى وادي الحجارة، فنهوها واستباحوا أهلها. وصل الخبر لقرطبة فقال البعض: نغزوهم في الشمال، وقال غيرهم نقتل بقيتهم هنا. اكتفى المهدي بالبدء بحفر خندق حول السور والأرياض، وملاً مخازن القصر بالدقيق والملح والحطب. عاد البربر إلى مدينة سالم للطلب من واضح التوسط وخلع المهدي بسلام ومبايعة المستعين. لكن الفتى العامري واضح والذي بايع المهدي وأصبح صاحب الثغور، بدل أن يتجاوب مع العرض، خطط لاغتيال سليمان المستعين لحرمان البربر من سندهم الشرعي للقتال. فشل الاغتيال ووصل كتاب لقرطبة يؤكد استقواء المعارضين، لكن المهدي قرأ على العامة كتاباً مفتعلاً يتحدث عن قتل البربر واقتراب وصول ألف من رؤوسهم المقطوعة.

في شهر رمضان الكريم تفتقت عبقریات الطرفين والتقت وفودهم، من دون موعد، في شوال، عند ملك النصارى شانجه بن غرسية بن فرذلند. وفد المهدي حمل هدايا من التحف والكسي على خيل وبغال مع وعد بتسليم مدينة سالم، ووفد البربر وعد بالمدينة ذاتها وبحصون الثغور أيضاً. اختار شانجه مساعدة البربر ضد قرطبة، فهذه فرصة لا يستهان بها للكسب وتسعير الاقتتال بين المسلمين. أرسل لهم ألف عجلة من الدقيق وأنواع المأكّل، وآلاف من الثيران والشاه، وجميع ما يصلح حالهم حتى الفحم والعسل، والسروج للبهائم والحبال والأوتاد. التقاهم شانجه في

أيام عيد الأضحى ومعه تسعة آلاف من جنده، وساروا إلى مدينة سالم. هزموا واضح ومن تجمع عنده من جند الثغور، قتلوا من رفض المبايعة وعلّقوا رؤوسهم على أسوار قلعة عبد السلام.

انهزم واضح بأقل من ستمائة من الجند إلى قرطبة، وكانت أول أفعاله إحراق بقية ريبض الرصافة حتى لا يدخل البربر من هناك، كما روج، ولكنه أراد الانتقام ومنع البربر من العودة لبيوتهم خارج الأسوار. كالعادة اختلف أهل قرطبة، بعضهم أراد قتل بقية البربر في المدينة وأرباضها حتى لا يعود مبرر لعودة إخوانهم، وفريق آخر رأى عدم التعرض لهم. أما المهدي فأمر بخروج من يشاء منهم إلى العدو، لكن معظمهم اختفوا في المدينة وعند الفلاحين في الأطراف. حاول المهدي إقناع القاضي أو مصل بن حميد باللقاء مع البربر المهاجمين للتوسط، ولكنهما خافا ورفضوا. اقترب المقاتلون من الحاضرة، وتذكر المهدي الخليفة المخلوع الميت هشام، فاستحضره من مخفاه وأرسل ابن ذكوان إلى زيري والبربر ليقول لهم على لسانه، "إنما أنا قائم دون هشام بن الحكم ونائب عنه، كالخليفة والحاجب، وهو أمير المؤمنين". ردّهم الذي وصل لأسماع أهل قرطبة كان: "سبحان الله يا قاضي، يموت هشام بالأمس وتصلي عليه أنت وغيرك، واليوم يعيش وترجع الخلافة إليه". تضاحكوا وعاد ابن ذكوان مطأطئ الرأس.

نادى منادي المهدي في عموم قرطبة: "أعداء الله من البربر وجند الملعون شانجه يحاصروننا وعزمهم إبادتنا. كل من بلغ الحلم من الذكور عليه الخروج الآن لصدّ الغزاة، الحاجب سيكون في مقدمتكم. هذا أمر من الخليفة هشام بن الحكم أطال الله عمره". لا أعتقد أن أهلنا في قرطبة ضحكوا على النداء أو صدقوه، لكنهم تيقنوا انتقام البربر منهم على كل حال، فخرجوا عن بكرة أبيهم شباناً وشيوخاً وأطفالاً. كان يوم السبت الرابع عشر من ربيع الأول عام 400 المتوافق مع العاشر من نوفمبر 1009، حين برز البربر في سفح الجبل وبينهم وبين الناس الواد. اجتاز بعض جند واضح الواد يدفعهم الصراخ والتشجيع من العامة،

فانهال عليهم فرسان البربر من علٍ وداسوهم وواصلوا الهجوم. قبل أن يعبر المهاجمون الواد تراجع بقية جند المهدي وواضح، فوقعوا على بعضهم، وتراجع الناس حذراً ثم هرباً وداسوا بعضهم البعض، وتبعهم البربر يحصدون الرؤوس ودخلوا مع جند شانجه إلى قرطبة يسبون ويحرقون ويقتلون طوال يومين. يوم الإثنين دخل زاوي بن زيري القصر وخلفه سليمان المستعين، هذه المرة لم يكن هناك من يضرب فرسه على رأسها، وخرج كل أهل قرطبة إلى المستعين مطيعين فأحسن إليهم بالسماح لدفن القتلى الذين قُدرُوا بين عشرة آلاف وثلاثين ألفاً، سبعة منهم كانوا من الأقارب الذين تخلفوا عن الرحيل معنا، ونجا بقيتهم.

اختفى المهدي ولم يظن أحد أنه بين القتلى، وكان واضح قد هرب من أرض المعركة دون أن يلوي إلى قرطبة. أما جند شانجه فمكثوا أسبوعاً يبيعون على أهلنا ما سبوه ونهبوه منهم، ثم رحلوا على أن يتسلموا الحصون ومدينة سالم عندما يأخذها البربر. أنزلت جثة الشنجول عن الجذع، وغُسلت وُضلي عليها ودفنت إلى جانب قبر أخيه عبد الملك. في دار واضح بقرطبة وجد زاوي خمسين ألف دينار كان قد أخذها واضح من المهدي ليوزعها على جند مدينة سالم، فهرب دون أن يحملها. إثنان من جوارى هشام وجدن حبل من المهدي. نوذي في الناس للحضور إلى المسجد لمبايعة سليمان المستعين، فبايعوه يوم الثلاثاء وبقي هشام مخلوعاً. بدل ربض الرصافة المدمر احتل البربر مدينة الزهراء وسكنوها.

التفاصيل التي جمعها خالد مما سمعه في زيارته لقرطبة، وما عايشناه في مالقا، وما توفر لنا من أخبار في السنوات التالية عما دار في أنحاء بلادنا، هذه التفاصيل والمعاناة تحتاج إلى كتب كاملة لذكر أقلها. سأعطيكم ما أظنه مفيداً في تبيان الطباع، مع عناوين مجريات الأحداث العامة بين رحيلي عن قرطبة وعودتي إليها بعد أربعة عشر عاماً، وسأوجز لكم بعضاً من غرائب الأمور.

المهدي تخفى في دار سليمان بن عيسى، فخان الرجل في زوجته وهرب عندما أبلغ المضيف صاحب الشرطة الجديد عن الضيف. وصل طليطلة فاستقبلوه بالترحاب، والتأم شمله مع الفتى واضح. صعد إليهم المستعين بجند وفشل دون أسوار طليطلة فعاد لقرطبة. استقر رأي المهدي ووضح على الاستنجد بحاكم برشلونه الكونت ريمون بوريل وإعطاءه مدينة سالم قبل أن يسلمها المستعين إلى شانجه. قبلًا بشروط الكونت الكتلاني المجحفة من تسليم للحصون، وترك يدهم في سلب البربر. سلموا مدينة سالم للكونت وأخرج منها المسلمون إلى مدن أخرى وتحول جامعها إلى كنيسة. هبطوا إلى سرقسطه فأساؤوا إلى أهلها دون تمييز بين أجناسهم. سار بهم واضح إلى طليطلة وهبطوا مع المهدي إلى قرطبة فهزموا المستعين وهرب البربر وعيالهم من الزهراء. كان هشام أول المبايعين للمهدي العائد الذي أماته وأحياه ونكح جواريه. طالب المهدي أهل قرطبة بالمال ليدفع للكتالونيين فأخرج هشام أثاث القصر والكتب والتحف وباعها، وكسر الناس صندوق المال في المسجد وجمعوا ما تمكنوا وأعطوه للمهدي في بداية دولته الثانية. طارد المهدي وجند الكونت البربر والمستعين إلى جبل ببشتر، الذي كان حصناً لابن حفصون ضد الناصر، لكنهم فشلوا في المعركة وانهزموا إلى قرطبة. مع رحيل الكتالونيين إلى بلادهم يحملون غنائمهم، دبّ الخوف في الحاضرة من عودة البربر والمستعين.

غني عن القول إن التوتر بين القرطبيين والبربر بلغ أشده، ولم يعد في المدينة مجال لاحتمال بربري، وقتل في دولة المهدي هذه كل من اشتبه فيه. الجديد الآن أن البربر زحفوا إلى أطراف قرطبة وشتوا الغارات على كل ما هو خارج السور، فامتألت الحاضرة المنكوبة بالفلاحين، وجفت مصادرها تحت الحصار. اتفق الحاجب واضح مع فتیان عامريين على قلب خليفتهم المهدي، دخلوا القصر واعتقلوه وأخرجوا هشام الذي أخذ يذكر ابن عمه بما فعل. قطعوا رأسه وأرسلوها إلى البربر على أمل التوصل للصلح، ونصبوا هشام خليفة للمرة الثانية،

لكن الحصار تواصل وانضم للجوع المرض والوباء. من شقنדה انتقل البربر إلى الزهراء، قتلوا من كان فيها من الجند، وأكملوا على السكان الذين احتموا في جامعها ثم أحرقوا الجامع بمن فيه، ونهبوا المدينة وعملوا فيها خراباً فأصبحت أثراً بعد عين. وسعوا مجال الغارات حول الحاضرة ودمروا مزرعتنا عن بكرة أبيها بما فيها من عمال ودواب وزرع.

سمعنا باقتراب حشود بربرية من مالقا فحملنا ما يؤكل من المزرعة وقطعنا وادي المدينة واحتمينا بالأسوار، وكان أزواج عماتي وعوائلهم وبعض الأقارب قد استأجروا بيوتاً فيها بعد أن طالت غيبتهم عن قرطبة، بينما عاد أحوالي وأحفادهم إلى مدينة شذونه. عاثوا في أطراف مالقا ونال مزرعتنا الكثير من الفساد. مالوا بعد ذلك إلى البيرة وسمعنا أنهم علّقوا نساءً من أئدائهن وخرّبوا وسبوا وسلبوا ثم عادوا إلينا، فافتدينا أنفسنا ومالقا بسبعين ألف دينار قبضها المستعين وتركنا أو انتقل إلى مدينة الجزيرة. قتلوا هناك من وجدوا وهدموا الدور وسبوا ذراري المدينة ووضعوهن في دار الصناعة برهة من الزمن. بعضهم قبل بالزواج من العسكر، وبعضهن الآخر اغتصب وقتل، وقلة منهن وصلن إلى مالقا فحدثن بما يشيب رؤوس الأطفال. كل ذلك وواضح وجند هشام محبوسين في أسوار قرطبة يعانون من الجوع والمرض.

كما غدر واضح بالمهدي، انقلب عليه ابن وداعه، وهو أيضاً من بقايا حزب العامريين، فقطع رأسه وفعل به وبالجثة كالعادة، ونهبت داره ودور أصحابه. كانت التهمة أنه يريد الهروب. أظهر هشام بعض الجلد ورفض تعيين حاجب لبضعة أيام، لكن الحصار ومتطلبات الناس أعيته بسرعة. أرسل شانجه كتباً يطالب بتسليم الحصون وإلا سيهجم بنفسه ويدعم البربر، فأعدت إليه الكتب بأخذ بقية الحصون من فتح الخليفة الناصر وابنه الحكم والحاجب المنصور وعبد الملك. خارج الأسوار جاء دور بلنسية لتلقى هجوماً بربرياً، خرجوا إليها إثر مهاجمة جيان، فنالوا منها خمسمائة فرس تخص الخليفة، وقتلوا ثلاثمائة من وجوه الجند والكتاب. في ذلك الشتاء لعام 401 أضاف الله على قرطبة غضباً جديداً.

راوي قرطبة

ارتفع النهر وعمّ السيل لثلاثة أيام فأخذ ألفي دار من أرباض قرطبة والكثير من مساجدها، ومات حوالي خمسة آلاف ردماً وغرقاً وذهبت الأمتعة وسقط جزء من السور.

نزل البربر على كل زرع، وخربت الضياع والأرياف بين المدن. ارتفعت الأسعار أكثر ما تكون في قرطبة، واشتغل أشداء الحاضرة المنكوبة في الإغارة على قطعان ماشية البربر المحاصرين لهم. تمنى البعض مغادرة المدينة، لكن من يخرج من الأبواب تنهب داره ثم يلقاه من يسلبه ما يحمل ويسبي حريمه. اشتكى الناس لهشام ضعف الحال وشدة الغلاء وقلق أهل الثغور مما يجري من تسليم للحصون. لم تعد هناك أموال تدفع لجند كتالونيا لو طُلبت مساعدتهم. بكى هشام أمام الحضور وكتب إلى زاوي لقطع الفتنة. لما قرأ المستعين مطلع الرسالة: من أمير المؤمنين هشام بن الحكم، مزقها قبل معرفة بقيتها، إذ استهجن قول ابن عمه بعد أن تنازل له قبل ذلك عن الخلافة.

في الأيام الأخيرة لعام 402 بطش فريق من أهل قرطبة بجماعة من البربر المحاصرين لهم، وكان بين القتلى الذين حُملوا داخل السور حباسه بن ماكس. على الفور قرر أخوه حبوس وعمه زاوي شن الحرب واستدرجوا مقاتلين من قرطبة وقضوا عليهم. اشتدت المناوشات حتى سقطت قرطبة ودخلها سليمان المستعين في منتصف العام، فويخ هشام وخلعه.

ضاقت خرائب الزهراء بالبربر من كثرتهم، واحتلوا ريبض شقنده وسكنوا منزل يوسف نسيب عمي عيسى. سكن في الريبض الأخوان علي والقاسم بن حمود، وتعود أصولهم إلى الحسينية الهاشميين، وهم متبررون وإن لم يكونوا من البربر. وزع المستعين العطايا للقبائل. علي بن حمود تولى على سبته، وأخوه القاسم أخذ طنجه وأصيلا في العدو، ومن الجزيرة حتى مالقا في جنوب الأندلس. قبيلة صنهاجه أخذت البيرة فحكّمها حبوس، مغراوة أخذت رنده، ومنذر بن يحيى أعطي سرقسطه، وأعطى المستعين بني برزال وبني يفرن جيان ومحيطها، وأعطى بني دمر

وازداجه مدينة شذونه ومورور. وكان محمد بن يعيش قد سبقهم وأقام دولة في طليطلة. أما في شرق الأندلس فأقام فتیان بني عامر مجاهد وخيران وغيرهم، دولاً في بلنسية وشاطبه ودانيه والمريه. تبخرت الآمال بعودة الأحوال لسابق عهدها، فالأعمى أصبح يرى أن الأمويين المهدي وابن عمه المستعين أكملوا بالجهل والإرهاب على مستقبل البلاد بتسليمها للبربر، وملوك النصرى.

هل ينفع الآن الإشارة بالأصابع إلى المسؤولين عن حالنا؟ أهم فقط البربر الذين أشعلوها ودمروا البلاد قبل أن يقتسموها الآن، أم هم القيسيون واليمنيون الذين اقتتلوا في بدايات الفتح وأضعفوا العصبية العربية، أم بنو أمية الذين دخلوا الأندلس وقربوا البربر والصقالبة إليهم، أم لأننا أذينا أنفسنا في خليط السكان الأندلسي وضعفت عصبيتنا؟؟؟ بالطبع يمكن التأمل فيما إذا كان هذا كله كانتقام لما فعله الفاتحون الأوائل لأفريقيا وتقتيل برابرتها آنذاك. ويبقى سؤال الأسئلة إذا ما كان الوضع الآن قد استقر ويمكننا الحدّ من أطماع ملوك الشمال؟

عهد الخليفة المستعين لابنه محمد الاعتناء بالخليفة هشام المؤيد، صديق طفولتي. قيل إن محمد خنقه وأخفى جثته فوراً بعد احتلال قرطبة، وأشيع أيضاً أنه سمح له بالهرب متخفياً. مجاهد العامري، وصديق طفولتي وشبابي، خيران، لم يكتفياً بما أصابا من إمارة في شرق البلاد. عثرا على شخص ادعى الانتماء الأموي، اسمه الفقيه المعيطي، فأعلنه خليفة، بل غزا مجاهد جزيرة سردينية بمائة وعشرين مركباً تحت اسم هذا الخليفة المنافس للمستعين. قتل في الجزيرة وسلب وسبى، وتأخر في العودة إلى دانيه، فإذا بمراكب الفرنجة تهاجمه وتدمر بعض سفنه وتأسر أخاه وابنه، فعاد بما تبقى يفكر في مجد آخر. آنذاك ألب البابا بندكت الثامن أساطيل جنوا وبيزا لغزو صليبي ضد مجاهد، فهزمه وأخرجوه من جزيرة سردينية. بندكت هو رابع بابا منقلب خلال تسع سنوات منذ موت جريير.

قبل غزوة مجاهد تناهى إليّ أن خيران بيننا في مالقا، فبعد خمس

سنوات هنا ودورنا في حماية المدينة بالنصح والإرشاد والافتداء، لم يعد فيها ما يخفى عني. تذاكرنا في الماضي البعيد والقريب، وعرفت أنه في مهمة سرية للقاء مع أولاد ابن حمود. قصته وسره لم تعد خفية الآن بعد عشر سنوات على ذلك اللقاء. أعد مع مجاهد خطة لضرب البربر في بعضهم والتخلص أيضاً من سليمان المستعين. إدعى وصول رسالة إليه من هشام المؤيد موجهة إلى علي بن حمود يقول فيها "أنقذني من أسر البربر والمستعين وأنت ولي عهدي".

"يا إلهي ألم نمل من هذه الرواية، ألم نلدغ مرات ومرات من جحرها؟"

"بلى وهي الدواء الآن للتخلص من خطرين واستعادة قرطبة وتجديد الأندلس". بقية خطته أن يرسل الكتاب إلى علي، ولهذا حضر هنا للقاء مع أخيه القاسم ليحمل له الرسالة إلى سبته. بالطبع لم يصعب إقناع علي صاحب النسب الهاشمي والذي يرى أنه أحق في الخلافة. أما خيران فكاتب كل من يعرفه للخروج على المستعين، معتصب الخلافة من هشام. عند اكتمال العدة نزل علي بقواته في سواحل مالقا، فسلمه عامر بن فتوح المدينة وزحف خيران من المريه والتقى بني حمود في المنكب، المدينة التي كان نزول الأمير الأموي الأول، عبد الرحمن الداخل بها. من المنكب تحرك المتحالفون إلى قرطبة. مروا على غرناطة فانضم إليهم حبوس بن ماكسن الصنهاجي. بالنسبة لحبوس فإن خليفة بربرياً أو متبربراً مثل ابن حمود أفضل من أموي رث مثل سليمان.

أخذوا قرطبة في شهر محرم 407 بعد قتال كثيف تراجع فيه بربر قرطبة عن المستعين. دخل خيران وعلي القصر وبحثا بجديّة عن هشام المؤيد، فلم يجدها. أحضروا سليمان المهزوم وأباه وأخاه وسألوهم عن هشام. لم يعرف أبو المستعين إذا كان من الأفضل الإفصاح عن موته أو وجوده حياً. إن قال مات، فإنهم سيقتلونه بحجة الثأر، وإن قال حياً يرزق سيلاقي نفس المصير لأن علي يريد الخلافة ولا يريد هشام حياً. قال إن هشام مات وأراهم قبراً. أخرجوا الجثة فلم يجدوا بها طعناً

وشهد من حضر أنها جثة هشام، فكفّنوه مجدداً وصلوا عليه ودفنوه إلى جانب أبيه الخليفة الحكم، رحمه الله. أحضر علي الجناة، وذبح المستعين ثم سأل والده "أهكذا يا شيخ قتلت هشام؟" رد الشيخ بأنهم والله لم يقتلوه، وقبل إكمال الإجابة كان رأسه ورأس ابنه الثاني قد حطتا على الأرض. جمعت الرؤوس الثلاثة ومعها رؤوس أكابر أنصارهم ووضعت في قفة وعلق في أذن كل منها اسم صاحبها وطيف بها في قرطبة، فكان الناس يكثرون القول في عجب قفة اتسعت لرؤوس أناس لم تكن الأرض تتسع لهم. هكذا بويح لعلي بن حمود بن ميمون بن حمود بن علي بن عبيد الله بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أمام باب السدة.

حكم علي سنة وتسعة أشهر وتسعة أيام، وشهد له أهل قرطبة بالإنصاف والعدل وردع البربر الذين واصلوا مدّ أيديهم على الناس، فأكثر من قطع رؤوسهم ولم يقبل الشفاعة في مخالف منهم. لم اجتمع مع خيران مرة أخرى لأعرف سبب خلافه أو خوفه من شريكه علي. ترك قرطبة وعاد إلى المريه وخلق خليفة جديداً ينافس علياً، وهو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن الناصر، ولقبوه المرتضى. فجأة تذكر علي أنه ضرب أهله البربر، وأن الأندلسيين لا أمان لهم وشعر بأنهم يميلون إلى صنيعه خيران الجديد، المرتضى. عاد يظلم الناس ويسترضي قومه البربر حتى خنقه في حمام القصر ثلاثة من خدامه الصقالبة الصغار. استدعى أهله أخاه القاسم من اشبيلية، فاستخلفوه بعد ثلاثة أيام. لم يمض زمن طويل حتى خاف القاسم من البربر فهرب من قرطبة إلى اشبيلية محتفظاً بلقب الخلافة. أحضر البربر من العدو ابن أخيه المتوفى، وهو يحيى بن علي واستخلفوه، ليصبح في الأندلس خليفتان من البربر. أما الخليفة المرتضى فقد غدر به خيران ومجاهد عندما أظهر بوادر تمرد عليهما. في جيان تزعم على بني يفرن، محمد بن عبد الملك المظفر بن أبي عامر الذي دخلها بمال كثير ورثه عن جدته الذلفاء. فتیان من العامريين مثل لبيب ومبارك التفوا حول عبد العزيز بن عبد الرحمن،

راوي قرطبة

السنجول، بن أبي عامر وباعوه زعيماً في شاطبة وبلنسية، وتلقب بالمنصور، تيمناً بجده.

في عام 413 خرج الخليفة يحيى في زيارة إلى مالقا فخلعه البربر في غيابه، واسترضوا عمه القاسم فعاد مجدداً لقرطبة، وأطلق البربر أيديهم لسبعة أشهر في الناس والأسواق حتى أجمع أهل قرطبة على خلع القاسم. حاصروه في القصر ففر مع جمعه إلى الربض الغربي وتحارب الفريقان نحو شهرين فاستجمع الناس القوة من اليأس وخرجوا كمن لا حياة لهم إلا بالنصر. قتلوا البربر وهرب القاسم إلى إشبيلية فأغلق أهلها الأبواب وأخرجوا له ابنه محمد والحسن وأهله، وتزعم أهل إشبيلية قاضيهم محمد بن إسماعيل بن عباد. التجأ القاسم إلى شريش، لكن يحيى، ابن أخيه هاجمه وأسره ودخل به وبولديه مقيدين إلى مالقا عشية اليوم الذي غادرت فيه المدينة في جمع من أهلي لزيارة قرطبة.

حسن الختام!

في سنواتنا الأولى في مالقا خيم علينا الخوف والإرهاب وكثرت المآتم لقتلانا في المذابح ولموتانا من الغم والهم. كانت غالبيتنا من كبار السن حتى وصلنا من نجا من الشباب والرجال، فكثرت الزيجات وأخصبت بالأطفال. لم نُغني في عرس أو طهور، اكتفينا بالمظاهر الصامته من مأكّل وبعض الملابس وإكثار من الصدقات. مالقا كلها لم تعد كسابق عهدي بها، لا محلات بيع نبيذ، ولا أصوات مغنيات تنبعث من البيوت، ولا غزل في الأسواق. عندما وصلت بقايا مسبيات مدينة الجزيرة إلى مالقا، سألتني خالد الرأي في زواجه من أربع منهن مرة واحدة. أتذكر الآن أنني لم أفكر طويلاً، ولم تدهشني رغبة ابني الذي تهرب لسنوات من الزواج. باركت له مروءته وطلبت منه اختيار من يريد منهن على أن يُعلمهن منذ البداية بما ينتظرهن، واللواتي يقبلن سيكون عليهن الحياة بيننا لسته أشهر قبل إتمام عقد النكاح ليعرفننا ولنعرف أنهن لا يحملن من البربر.

ابني قريب تزوج ابنة عمته، وابنا سعيد عباس وصلاح تزوجا ابنتي، آمنة وليان. خووخه وأنا لدينا الآن، أو حتى الآن، اثنان وثلاثون حفيداً، عشرون منهم ذكور بينهم ستة تقترب أعمارهم من الثلاثة عشرة. والدتي عايشة الأوائل منهم صغاراً إذ لحقت بزوجها بعد ثلاث سنوات ودُفنت إلى جانبه. قبراها تزار مراراً كل عام من أعداد متزايدة من الفتيان والفتيات الذين يترحمون عليهما. الأحفاد من صلب جدّي خالد وأبنائه وبناته تعدوا المائة، وبالكاد أحفظ أسماء أحفادي.

شغلتنا قرطبة والأندلس، لكن العالم لم يتوقف من حولنا. مثلاً

السنوات الثلاث بين نهاية القرن الهجري وبداية الآخر شهدت انخفاض منسوب النيل وحدثت مجاعة في مصر أكل فيها الناس الكلاب التي نجت من أمر قتل الخليفة الفاطمي لها. وقبل أن يختفي الخليفة منذ ثلاث سنوات، أعاد بناء الكنائس وسمح للناس بالعودة إلى دياناتهم، وعمرت كنيسة القيامة بأفضل مما كانت من الصنع، وتسهلت شؤون الحجاج النصارى للقدس وأصبحوا يُعرفون على أنفسهم بحمل صليب من خشب الزيتون الفلسطيني. بالطبع كثر مُدعو الحج ولبس ذلك الصليب إلى درجة يظن معها زائر البلدان الإفرنجية أن معظم سكانها من حجاج القدس، ويروون للآخرين قصصاً خيالية عما شاهدوه.

كيف اختفى من تأله وتلقب الحاكم بأمره؟ لقد أعلن نفسه الله، ليس رسولاً أو نبياً، بل تأليه لذاته بإرشاد ناصحه وداعيته حمزة بن علي الذي فتح سجلاً للمؤمنين به. قتل كل مصري يرفض السجود عندما يمر بهم، عليهم السجود وتقبيل الأرض إجلالاً كلما سمعوا اسمه. شتم المصريون آباءه فأطلق جيوش البربر والأتراك في القاهرة والفسطاط على السكان لسلب النساء ونهب البيوت، وأمر السود بإحراق الفسطاط عقاباً لأهلها ورفضهم طاعته.

خرج على حمار للجبل في حلوان ولم يعد. بعد أيام وجدوا الحمار وملابس الخليفة الحاكم بأمره، فأعلنت أخته ست الملك أنه مات، واستخلفت ابنه وحكمت باسمه من دون أن يعترضها أحد. بالطبع طارد الناس دعاة الحاكم وقتلوا من أمسكوه وهرب البقية إلى بلاد الشام. قيل إن ست الملك هي التي أمرت بقتل أخيها، ثم أوعزت لقتل قاتله فقتل. انتهى الحظر وفُكَّت أزمة النساء وعدن يخرجن للأسواق والشوارع وإظهار وجوههن بعد سبع سنوات كثرت فيها المشانق في الأماكن العامة.

فاتك، الذي أرادني جاسوساً للفاطميين، تعين والياً على حلب قبل ضياع الخليفة، ثم انفصل عن الحاكم بأمره وضرب دنانير باسمه، وشجع الآداب والشعراء، وصنّف له أبو العلاء رسالة في أربعين كراسة

على غرار كليلة ودمنة. استنجد فاتك بقيصر بيزنطة عندما أراد الحاكم مهاجمته، تماماً كاستنجدانا هنا بملوك النصارى، لكن الحاكم بأمره ضاع ذلك العام فكتبت ست الملك باسم ابن أخيها الخليفة الطفل، الظاهر، تسترضي فاتك فانتهدت الأزمة قبل وصول باسيل الثاني وجنده إلى حلب. اطمأن قليلاً فإذا بخادمه الهندي تيزون يقتله في قلعة المدينة، وهو نائب طبعاً. في ذلك العام، 411، وصلنا من الأخبار ما يفيد أن ملك أرمينية سلم بلاده إلى القيصر باسيل ليضمن الدفاع عنها ضد الأتراك السلاجقة الذين هددوا الحدود الأرمينية الشرقية.

أما أخبار بغداد فكانت كالعادة، فتناً متكررة بين الشيعة والسنة يستفيد منها اللصوص وتهدم فيها العمائر، ومجاعات تؤكل فيها الكلاب والحمير، وفتاوى من الخليفة هناك بسحب شرعية الخلفاء الفاطميين. أوضاع بغداد أصابت بالعدوى قرطبة منذ فتح الأندلس، نقلنا عنها كل شيء، فنون وآداب وغناء وشراب وعطور، ثم الفتن والمجازر. في نواحي الكوفة اعترض بنو خفاجة الحجاج العراقيين والخرسانيين وبلاد ما وراء النهر مجدداً ومنعوا عنهم الماء ومات الكثير عطشاً فسلبوا ونهبوا وقتلوا من تحمّل العطش، ولا زال الحج معطلاً من تلك النواحي. أما أصفهان فقد اضطر واليها مجد الدولة إلى تسليمها إلى لص يقطع الطرق يعرف بابن فولاذ.

أمير أفريقيا في القيروان، باديس، توفي قبل ثمانية أعوام وولي ابنه الطفل، المعز، وكان عمره ثماني سنوات. شؤون البلاد أديرت من قبل وزير يخفي سنية مذهبه، وهو أبو الحسن بن أبي الرجال، وعرف لاحقاً أنه أوكل تعليم المعز إلى شيخ سنيّ. عمّة المعز، أم ملال، ساعدت هي الأخرى في إدارة البلاد. بالطبع لا السيدة أم ملال ولا المعز ولا ابن أبي الرجال يعرفون رغبة بني هلال في مجاورتهم والشراكة معهم في خضار مراعيهم. لكن المعز استجاب إلى طلب الشيخ زاوي بالعودة من غرناطة إلى القيروان قبل أربع سنوات، إذ يبدو أنه ملّ القتال فحمل عياله ورحل عنا.

احتفلنا بعيد الفطر الذي وافق عيد ميلاد سنة 1023 وخرجنا من مالقا ثاني أيام العام الجديد، وحلنا في قرطبة منتصف شوال 414. كنا متشوقين لرؤية مدينتنا، لكن ابن الستين لا يطير على الخيل كما لو كان صبياً. ركبت مع ولدي وكبار فتيانهم وبعض فتيان بناتي، ورافقنا صالح. رفضت خوخي تركي أسافر بدونها فاعتلت بغلة إلى قرطبة. وجدنا في مدينتنا المنكوبة خليفةً جديداً بعد نهاية دولة بني حمود، وأي خليفة. عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر، بن غاية الرومية، وأخ محمد، أول من أشعلوا الفتنة مع الذلفاء ضد الشنجول. كان شاباً في الثالثة والعشرين، وبإيعه القوم في منتصف رمضان، يوم خروج القاسم والبربر. لعلهم تأملوا خيراً من بقايا بني أمية. في الواقع كانوا يريدون مبايعة ابن عمه سليمان، ولكنه فرض نفسه عليهم، ولا زال كل من يزورنا ونزورهم من الأهل والمعارف يتحدثون في قصة تولىه.

شهدوا للخليفة الشاب أنه أحسن البلاء في المواجهة ضد البربر طوال الشهرين الأسبقين. لما رحل القاسم اجتمع أعيان المدينة وقرروا تحكيم الشورى لاختيار أموي عليهم من بين ثلاثة يُعرف نسبهم، وكانوا أبناء عمومة. جلس الخاصة والعامه في الجامع للتشاور، وكان فريق من الشيوخ قرروا اختيار سليمان إلى درجه أنهم سجلوا اسمه في الأوراق سلفاً كمنتخب من الجماعة. جلس سليمان في الصدر وهو يعرف بما تم، ثم حضر محمد بن العراقي، المرشح الثاني. فجأة دخل عليهم عبد الرحمن الجامع بزعة هائلة، أحاطه عن يسار ويمين محمود أمير الشرطة، وعنبر، شاهرين سيوفهما، وخلفهما جمع من الجند والعامه. على الفور غيرت الأسماء على الأوراق وانعقدت البيعة لهذا الشاب، وغادر الجامع حاملاً معه ابني عمومته ودخلوا القصر الذي لم يعد فيه من المفاجر والأثاث والتحف شيء يذكر. احتبس أولاد عمه عنده حتى لا يتآمروا عليه، وقبض على الشيوخ الذين كانوا استعدوا لمبايعة سليمان وأنزلهم المطبق حيث لا زالوا إلى اليوم.

لم تُثرنى أي من هذه التفاصيل المملة، وكدت أحياناً أقاطع

المتحدثين لأخبرهم بالنتيجة المحتمومة التي ستصيبهم بعد أيام أو شهور على الأكثر، لكنني احترمت حماس المتحدثين، وأتعجب من قدرات الناس هنا على الأمل. لقد نسوا كيف كانت هذه المدينة، حاضرة الأرض كلها. زال العمار من أطرافها، بل تحول إلى خرائب تذكروني بمعالم الفراعنة عندما زرت مصر مع خالد ومروان. لعل الذي يعايش التدمير يوماً بيوم لا يراه مثل العائدين بعد غياب.

أخرجنا صناديق الكتب التي دفناها في بيتنا بقرطبة، وحمدت الله كثيراً على عدم تلفها طوال هذه السنوات. كان خوفي الدائم في مالقا أن يحفر أحدهم الدار بحثاً عن كنوز المغادرين، أو تدمر الرطوبة مذكرات عائلتنا التي جدد خطوطها جدي خالد، رحمه الله. قبل أربعة عشر عاماً خفت عليها من قطاع الطرق بأنواعهم، فلم أحملها إلى مالقا، والآن لم يعد لها مكان في قرطبة التي غادرها العلم والفن والعمران وأهل العقل. بعضنا هرب من الجنون لإنقاذ عياله وذريته، وبعضنا الآخر طرد من المدينة أو مُنع من دخولها، وأعداد غفيرة تركت قرطبة طوال هذه السنوات بحثاً عن الخبز.

في الأسبوع الثاني على وصولنا تركت الشبان يتدبرون أمر مصالحتهم ورعاية ما بقي من المزرعة كما كانوا يفعلون أثناء زيارتهم طوال الأعوام الماضية. تفرغت لأخذ الفتیان إلى نزهات خارج الأسوار والعودة بهم قبل المغرب إلى خووخه في قرطبة. زرنا شقنده والرصافة وكان سواد النيران يغلب على آثار اللون الأبيض في كل مكان. قضينا وقتنا عند قبر جدي وحدثهم عما فعلته مع سعيد وخيران ضد ممارسات سفلة القوم في المقبرة. مررنا ببيوت ومحلات الأقارب وفندق زوج عمتي، رحمهما الله، وبدا وكأن العفاريت تسكنه. استأذنت من جيراننا اليهود الذين استأجروا من خالد بيت ماري وخسوس، ليراه الأحفاد وجدتهم. ماري وخسوس الطيبان تواريهما الآن رمال الشقّ المسيحي من مقبرة مالقا، بينما جد وجدة مروان لا زالا بيننا يرعون أحفادهم من

الجيل الثاني. كثر اليهود في شارعنا لكن أخبار رفقه وشفه وأهلهم خفيت عنم قابلت منهم وسألت.

قلة من الناس المحيطة سكناهم بالمسجد الجامع كانوا يتجرأون على صلاة العشاء هنا. لم يكن بيتنا ببعيد فحرصت على تعمير مسجدنا كل عشاء بقبيلتي الصغيرة، حتى دخل علينا من أشاع أن الخليفة، المستظهر بالله، استضاف الليلة فرساناً من البربر في القصر، وقد وصلوا المدينة في المغرب. للوهلة الأولى لم أكرث، فوالي مدينتنا والساحل الجنوبي، وهو يحيى بن علي، بربري وخليفة سابقاً. الخبر، وربما كلمة بربري، أخرجت القلة من المسجد قبل الصلاة، وبقينا مع بعض كبار السن حتى انتهينا من الصلاة وعدنا إلى البيت.

بعض الفتيان الذين قاوموا برودة أواخر يناير وخرجوا لصلاة الفجر في اليوم التالي عادوا مسرعين يتحدثون عن ثورة وصراخ، وسمعوا من يقول: "نحن طردنا البربر وهو يستقبلهم في القصر". عادت الفتنة إذًا، لا بد من حماية الفتية والعودة بهم سالمين إلى مالقا. جمعتهم، واستيقظت جدتهم لعمل الفطور. قررت أن أحدثهم عن قرطبة قبل بني عامر، وعن بداية هذه الفتنة التي سمعوا يومياً تطوراتها وقرصتهم أحداثها. أردت إشغالهم حتى نرى نهاية هذا اليوم على خير. ارتفع الضجيج وركضت بعض الخيول، أو البغال، في شارعنا، ووصلت إلينا أصوات من جهة المسجد والقصر. مع الظهر عاد خالد وقريب اللذان تعودا على أحوال قرطبة ولم يكونا ليفترقان عن بعضهما في مثل هذه الظروف.

"هجموا على القصر وقتلوا البربر. لم يمنعهم الجند بل ساعدوهم". أكمل قريب عن أخيه: "كسروا سجن المطبق وأخرجوا الشيوخ. القصر الآن يحيطه الجند والعامّة حتى لا يهرب أي بربري".

في المساء اكتملت الرواية، فقد استخلفوا محمداً بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر، وقبضوا على ابن عمه متخفياً في الحمام فقطعوا رأسه قبل سؤاله، ووقف على رأس محمد هذا، الذي تلقب

داوي قرطبة

بالمستكفي بالله، كل من محمود وعنبر اللذين وقفنا مع عبد الرحمن قبل
خمسة وأربعين يوماً في المسجد.
"سنعود بعد يومين أو ثلاثة، عندما تهدأ الشوارع ويستتب بعض
الأمن. لعلنا أيضاً ننجز وعدنا للشباب بزيارة الزهراء". عجل صالح
باقتراحه هذا قبل أن أقترح الرحيل الفوري، فكرهت حرمانه من شرح
ذكريات صباه لولديه ولبقية فتياننا.
"الزهراء، لا بأس، فلنكحل العيون بما قد تبقى من مجدنا
ومجدها".

نهاية الرواية

يناير 2006 / ذو الحجة 1426

المحتويات

5	شكر و عرفان
7	الإهداء
9	السلام عليكم
12	حمام الخليفة
18	غيلان الفاكنج
31	عيد الفطر
41	سفيراً لعمي
49	في دار الملك
58	قسوة الأمراء
65	الرؤوس المقطوعة
71	سفراء الشمال
74	الماء والنار
80	محمد العامري
86	كروية الأرض
91	في الجامع
100	مهر البنات
104	بحر مالقا
128	اختيار شعب
139	كاهنة افريقيا
146	جارنا السادس
151	الشكر للفاتحين
155	مائدة سليمان

161	أبناء العم
171	الأغر
178	روايات بابوية
185	مبادئ السياسة
189	خال أمي
200	هدهد سليمان
208	انتقام زوجة
213	عجائز وصبايا
224	أصول الفروسية
232	مصاحبة القادة
239	زلزال واعتلال
249	بين الجنة والنار
253	طلائع الشقاء
258	صراع الثعالب
263	ضحية جديدة
270	غزوتي الأولى
276	مناجق سموره
285	عدوى التنكر
289	كذب المنجمون
294	نهاية صهر
303	نفي وجلد
308	فرح وحزن
313	شياطين المقابر
318	باتجاه صقلية
324	قاهر القيصر
334	خطة سعده
342	ضيق المكان
354	أسير فراكستيوم
361	ندم القراصنة

369	دير الاصلاح
381	دين وسياسة
390	جرير مجدداً
402	البلغار الروس
409	دمار برشلونه
418	المعجبون بهرقل
428	روائح قرطبة
437	فلسفة خلافة
443	سنة الحياة
450	سنوات الخصوبة
456	كنز الخليفة
463	القديس يعقوب
469	عجائب الدنيا
477	بحر النيل
486	الحاكم بأمر الله
495	درس في الحب
501	مساخيط النيل
508	فاتك السجان
515	المأمون وخصيب
524	وصايا المنصور
529	السنوات السوابق
534	البابا الساحر
538	عيد الملك
546	الشنجول والذلفاء
553	الثوار النهاية
561	نبوءات تتحقق
567	الفتنة
572	المأساة
582	حسن الختام!